سي. جي. أدموندز

كوردٌ وتركٌ وعرب



ترجمة
جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

سي. جي. أدموندز

كورد وترك وعرب

سي. جي. أدموندز

كوردٌ وتركٌ وعرب

سياسة ورحلات وبحوث
عن الشمال الشرقي من العراق
1919 - 1925

ترجمة
جرجيس فتح اللّه

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

سي. جي. أدموندز: **كوردٌ وتركٌ وعرب، ترجمة: جرجيس فتح الله**

دار آراس للطباعة والنشر و منشورات الجمل
الطبعة الأولى 2012

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان - أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت - بغداد
تلفون وفاكس: 353304 - 01 - 00961
ص.ب: 5438 - 113 بيروت - لبنان
Website: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

مقدمة جديدة

لكتاب (طريق في كردستان) موقع خاص في نفسي فضلته (عاطفياً) على كل الكتب التي قمتُ بنقلها إلى العربية حول كردستان، والقضية الكردية وتاريخ كردستان فضلاً عما ألفته ولم تتأت هذه المنزلة من طرافة موضوعه والروح المخلصة التي رافقت قلم كاتبه، ولا تلك الآراء الصائبة التي بسطها مؤلفه وتكاد تقرب من نبوءات. لم تتأت المنزلة من هذه العوامل وحدها بل من عوامل أخرى تتعلق بظروف ترجمته وطباعته ونشره وكلها ظروف سوء بالأقل مما تنعتُ به. كان الكتاب واحداً من الكتب التي نقلتها إلى اللغة العربية أثناء وجودي في سجن الحلّة سجيناً لعلة لا تتعلق من بعيد أو قريب بالتهمة التي نسبت إليّ وكان الكتاب الثالث من سلسلة كتب أصدرتها وهي مزدانة بعبارة (كتاب التآخي) أيام كنت أقوم على رأس تحرير جريدة (التآخي) لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني في بغداد عقيب بيان الحادي عشر من آذار وأول الكتب هو ترجمة مؤلف السيد إدموندز الموسوم (كرد وترك وعرب) وهو كتاب عظيم القدر لم يستغن عنه مرجعاً أي كاتب تال في الشؤون الكردية.

وثاني الكتب هو مؤلف القس (ويگرام) الموسوم (مهد البشرية: الحياة في شرق كردستان) وقد تم طبعه ثانية في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية بعد مرور سبع وعشرين سنة على طبعته الأولى.

وكتاب (هاملتون) هذا هو ثالثها.

وفي الوقت الذي حظي الكتابان الأول والثاني بإشرافي الشخصي على

تصحيح مسوداتهما وتنظيم فصولهم ومتابعة التنضيد والطباعة، لم يتح للكتاب الثالث هذا، تلك الظروف. فقد دفعتهُ لناشره وبوشر فيه وأنا بعيد عن بغداد ثم صدر وأنا منشغل في بلاد أخرى بمرافعات قضائية معقدة تتعلق بحل رابطة زواجي.

فخرج بأسوأ شكل في كل ناحية كنتُ أحرص على تلافيها، وزاد في ألمي أن السيد هاملتون الطيب الذكر، كان بين الأحياء عند صدور الترجمة. ولم يكن بوسعي أن أبعث إليه بنسخة منها وعندما بات ذلك ممكناً علمتُ بأنه توفي قبل أشهر معدودات. ولم يخطر ببال أحد من إخواننا الكرد الذين عرفوه شخصياً وهو في لندن أن يتطوّع ليقدم له نسخة منه وقد حزّ في نفسي أنه لبّى بحماسة وطيبة خاطر طلبي فكتب للترجمة العربية مقدمة خاصة. وهي كما سيرى القارئ مقدمة ثمينة جداً لأنها كتبت بعد بيان الحادي عشر من آذار وتضمنت انطباع المؤلف حول الثورة الكردية وإرهاصاتها.

لبّى هاملتون طلبي في كتابة هذه المقدمة، في حين اعتذر السيد إدموندز وكان بين الأحياء عندما طلبتُ منه ذلك ولم يصف السيد أيلگتن صِاحب جمهورية مهاباد بأن ترجمة لكتابه مهيأة للطبع فاستخفّ بطلب المترجم وأهمله.

أعلمتُ (هاملتون) في حينه وعن طريق يعرفه حق معرفة في لندن، فسارع في الإجابة إلى رسالتي. وكنتُ في العام 1969 في ناوپردان مقر قيادة الثورة وسهل عليّ إذ ذاك أن أفتش عمن بقي في قيد الحياة من أولئك الذين ورد ذكرهم في الكتاب ممن زامله أو عمل معه في شق وتعبيد طريقه وعلمت بأن (سليمان بك ده رگه له) ما زال في قيد الحياة وهو أحد حارسين شخصيين أسند إليهما الوطني الشهم المأسوف عليه (إسماعيل بك الرواندوزي) مهمة مرافقة (هاملتون) وحراسته وكان صديقاً حميماً له.

كان عزت بن سليمان أحد قادة فصائل البيشمركة يختلف إلى زيارتي وبيننا ودّ قلتُ له يوماً وأنا أهتم بكتابة رسالة للمؤلف أنبئه فيها عن إكمالي ترجمة كتابه

تمهيداً لطبعه في أقرب فرصة كان وطبع الكتاب ما زال أمنية أو حلماً، ولم يكن هناك أي بادرة تشير إلى مفاوضات ستجرى بعدها بسنة واحدة وببيان في آذار يجعل من أمنيته طباعة الكتاب حقيقة وواقعاً.

قلتُ له أتعرف أن والدك كان أحد رفاق طريق هاملتون؟ قال بلى وهو يذكره كثيراً ويشيد بأخلاقه العالية وعطفه الكبير علينا وله ذكريات خاصة طالما حدثني بها.

قلتُ له: ما رأيك لو سألت الوالد المجيء إلينا لالتقاط صورة شمسية له ولك معاً؟ فهاهنا من سيؤمن وصولها إلى هاملتون. وجاء (سليمان بك) والتقطنا الصورة وبعثت بها لهاملتون ولم أنس فأخرجت لسليمان بك الصورة الشمسية التي بعث بها لي هاملتون لنفسه فتأملها ملياً وإن لم تخني الذاكرة فقد علق بهذه الجملة المقتضبة (كان شاباً وسيماً وهو الآن شيخ مثلي).

لم يكن هاملتون صحافياً، ولا كاتباً محترفاً ولا من أولئك الرّجالة الطلعة الذين ارتادوا كردستان خلال القرون الثلاثة المنصرمة وفي أوقات متباعدة، سبقهم إليها فضولهم، أو أحداث معينة عنيفة جرت على أديم هذه الرقعة البائسة المترامية من العالم وكذلك للتعرف على أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم بل كان مهندساً استخدمته الحكومة وعهدت إليه بشق الطريق الشهير باسمه، أو بطريق رواندوز أحياناً.

بقي في كردستان ثلاث سنين ونيفاً لا في المدن بل في الريف وفي منطقة من أكثر مناطقها الجبلية وعورة وأشدها وحشة. وأتى بما عُدّ في حينه بل بعده بعقود، معجزة هندسية، بآلاته البسيطة وعدّته البدائية وعماله الذين لم تسبق لهم خبرة في عمل كهذا وقت لم يكن هناك الكسارات والقاطرات والرافعات الهيدرولية الجبارة التي يتزوّد بها أمثاله اليوم في عمل هندسي أهون مما كُلّف هو به بكثير. وعايش البسطاء وشاركهم قوتهم، وعلم عماله كيف يستخدمون عقولهم بتحريك أيديهم ووجد فيهم استعداداً لتلقي المعرفة وذكاء فطرياً طالما لهج به وأثنى عليه وركنوا

إليه ومحضوه حبهم وولاءهم ولطالما جاؤوا إليه بمشاكلهم الصغيرة وبمنازعاتهم لفصلها. وتعلّم مبادئ الطب والعلاج ليكون في خدمتهم دائماً ونقل جرحاهم بنفسه وعاقبهم كما كافأهم وكان إلى هذا جريئاً في بسط آرائه السياسية وآراء غيره من الوطنيين الكرد الذين التقاهم وجالسهم وناقشهم وقد شاءت المقادير أن يكون موجوداً في فترة القلق العظيم الذي انتاب الكرد والأشوريين الجيران باقتراب نهاية الانتداب. كما تابع عن كثب الانتفاضة البارزانية الأولى بقيادة الشيخ أحمد فسجل عنها الكثير وأنصف القائمين بها، كما شرح بأسلوبه الروائي البديع مظلمة الأشوريين وعوامل السخط التي تجمعت في فضاء البلاد إثر إشاعة انسحاب البريطانيين وأخلاء قواعدهم وختم كتابه بأنباء مذبحة سميل السيئة الصيت التي حصلت في كردستان في آب 1933 بعد بضعة أشهر من تركه العراق. وكان قد عرض في كتابه ما يصح أن يكون مقدمات لها وممهدات. لم يكن هاملتون يمتهن الصحافة ولا هو من أرباب القلم المنقطعين للتأليف. ومع هذا فقد بدا بدقة ملاحظة فيه ورهافة حس صحافياً بارعاً وكاتباً مطبوعاً بكل خيال الشاعر وبلاغة الكاتب تراه يصف كردستان بجبالها ووديانها وينابيعها وحقولها ومراعيها وثلوجها بما لم أجده في أي كتاب تتناولها به صحفي أو كاتب أجنبي. وهو رائع النكتة والتعليق الساخر، لا يسعك أحياناً إلا وأن تنفجر ضاحكاً وأنت في قراءة جدية لهذا الكتاب الذي بدا لي وسيبدو للقارئ حتماً، قصة أو حكاية متصلة الفصول.

هذا الطريق الذي مده في مجاهل كردستان وشقه فوق جبالها كان بعد ثلاثين عاماً المحور الذي تدور على جانبيه معارك ضارية بقصد السيطرة عليه، وتسفك فوق إسفلته الأسود دماء غزيرة حمراء قانية وتحوم فوقه الطائرات ليل نهار لتدمر تلك الجسور التي مدّها (هاملتون) لا بالرافعات والمكائن بل بسواعد عماله وصبرهم.

ومن كل الكتب التي ألفها الغربيون عن كردستان لا يخطر ببالي إن حظي واحد منها بطبعة ثانية وثالثة، غير كتاب (طريق في كردستان) وهذا أبلغ دليل على قيمته.

كَلِمَةُ المُتَرْجم

السيد إدموندز مؤلف هذا الكتاب موظف بريطاني كبير مسؤول عاش في العراق أكثر من ثلاثين عاماً وكانت له كلمته المسموعة في كل المناصب التي عمل بها، يتسع تأثير هذه الكلمة باطراد صعوده في سلم المسؤولية. وكان على ما يقال صاحب الرأي المحترم إن لم يكن النافذ في سياسات الحكومة العراقية الملكية وهو في آخر وأعلى منصب أشغله «مستشار وزارة الداخلية» حتى العام 1945. لقد أتقن اللغة الكردية بلهجاتها الرئيسة وألمَّ بالعربية أثناء إقامته الطويلة في هذه الربوع ودرس الفارسية وهو طالب وتمكن منها وهو موظف سياسي في قوات الاحتلال البريطانية ولذلك عدّ خبيراً في هذه الرقعة من الأرض يحسب لآرائه حسابها في التعامل مع الشخصيات العراقية ورجال الحكم خارج الحكم أو داخله وتوجيه سياسة البلاد الداخلية. فكان من الطبيعي أن يحظى كتابه «كرد وترك وعرب» باهتمام خاص من الساسة والكتاب والمتتبعين المهتمين بشؤون العراق عرباً وأكراداً وتركماناً وأجانب ولا سيما المهتمين منهم بتلك الفترة من تاريخه فترة سيطرة النفوذ البريطاني عليه في الأدوار الثلاثة دور الاحتلال، ودور الانتداب، ودور النفوذ المقنع بالاستقلال، وهو ككل مجموعة ذكريات من الأحداث التاريخية والسياسية والمعلومات الجغرافية والأركيولوجية النادرة بقلم مطلع فضلاً عن آراء شخصية وحقائق عزّ نظيرها عن حكم البريطانيين للعراق ولا سيما كردستانه الجنوبية عماد الكتاب وموضوعه الأصيل.

حاول السيد إدموندز أن يبدو ذلك الشخص المتجرّد عن عاطفة التحيّز

والمحاباة المرتفع عن النوازع الشخصية وأراد أن يوحي للقارئ العربي والكردي والتركماني في العراق بأن كل ما عمله شخصياً لم يكن له رأي فيه أصلاً وإنما هو واجب منصبه في تطبيق سياسة قررتها حكومته. وأنه كان أيضاً يحاول التعاون مع الطبقة الحاكمة الجديدة لإيصال البلاد إلى حال من الاستقرار بالشكل الذي تجده حكومته مناسباً. ولعل وصفنا هذا - إن لم نشتط فيه - يظهر إدموندز بمظهر الرجل الذي «أراد أن يخدم سيدين» في آن واحد بإخلاص على أن الرجل مما قرأته بين الأسطر ومما سمعته من معاصريه والعاملين معه القلائل الباقين في الحياة بدا لي وكأنه يتمتع بشخصية قوية واستقلال في الرأي إلى درجة كبيرة. ولذلك أرى أنه توصل عند اكتمال رجولته إلى الحد الذي استطاع به أن يوفق أو أن يوحي لنفسه بذلك على الأقل أن ما تريده السياسة البريطانية للعراق هو الشيء المفيد للعراقيين الذي يراه هو مناسباً أيضاً. لذلك تجد كتاباته المتأخرة (وهو ما يزال ناشطاً وعلى أتم الحيوية) لا يشوبها أي شعور بعقدة الإثم أو الخطأ وهو يراقب عن كثب حرب الأخوة التي امتدت أكثر من ثماني سنوات. ولعله والحالة هذه يرفض أن يقر بأن الأحوال الموصفة التي مرّ بها العراق المضطرب فجاءت بالرابع عشر من تموز وما سببت من المضاعفات الدموية بعدها إنما هي نتيجة سياسة الكبت والحرمان من ممارسة الحقوق الديمقراطية وتلك جزء من السياسة البريطانية التي طبقت في العراق أيام كان المؤلف هنا. ومسؤوليته بوصفه مستشاراً للداخلية لا يمكن أن تكون مسؤولية وظيفية قاصرة بأي حال ومهما حاولنا الإنصاف.

إننا والحق يقال نكره أن نتطرق إلى أشخاص المؤلفين من خلال مؤلفاتهم لتبدو أكثر موضوعية، إلا أن هذا الكتاب فريد في بابه ونسيج وحده لا يمكن أن نتصوره دون أن نتصور صاحبه، وهو اليوم في العراق لا يعرف بعنوانه وإنما يعرف بكتاب إدموندز. فإذا اطرحنا منه المعلومات الجغرافية التي آض معظمها معروفاً، وإذا أغفلنا تفاصيل التقسيمات الإدارية التي طرأ عليها تعديل جوهري، فإن بقية الكتاب بل قلّ معظمه هو فلذة من المؤلف لا يمكن فصلها عنه وهو

مجموعة لأعماله اليومية ولتسلياته وهواياته مجموعة من الأحداث الكبرى أسهم فيها بأدوار كبيرة إن لم يكن بعضها حاسماً. وجمع فيه معلومات سياسية وتاريخية واجتماعية لا يمكن أن تجدها في كتاب آخر لأنها ثمرة تتبعات شخصية دؤوبة ودراسات معقدة. إننا لنذكر بصورة خاصة تلك المعلومات النادرة عن القبائل الساكنة جنوب كردستان العراق والمذاهب الصوفية الكردية وأصولها والأبحاث الأركيولوجية التي تقصاها من منبتها تقصّي العالم الخبير. أما تلك الأحداث التي أسهم فيها بأدوار كبيرة، فنذكر منها استطراداته المسهبة عن ثورات الشيخ محمود الحفيد ومجهوداته المتحمسة الشخصية في قمع تلك الثورات. وهنا في الواقع قد تجابه بأمر قد تعجب منه ولا تستسيغه إنك تواجه بإدموندز هنا خلق الفرد الإنكليزي الصميم بصراحته فتراه لا يحاول مطلقاً التقليل من مجهوداته في إحباط تلك الثورات الوطنية وإخفائها مع علمه بأن ذلك لن يكون رصيداً طيباً له عند الشعب الكردي اليوم. إنه يذكر أحياناً وبكل جرأة تفاصيل لخطط شخصية وكثيراً ما رأيته ينتقد حكومته نفسها لتراخيها مع هذا الزعيم الوطني أو ذاك ويطلب منها مضاعفة صرامتها في التعامل معه.

ويلي ذلك ولكن يتقدمه أهمية بصدد شرحنا لهذا الخلق، الدور الكبير الذي قام به في تسوية النزاع على ولاية الموصل تلك القصة التي كانت ستبقى مبتورة ناقصة الحلقات لو لم يتناولها المؤلف بتفصيل دقيق. كان أحد أفراد قلائل وقفوا على أسرارها ثم عبأوا لها المجهودات وعملوا أناء الليل وأطراف النهار في سبيل كسبها للأكراد. ففي الكتاب لا تراه مطلقاً يحاول أن يخطر بباله أن يحاول التقليل من الدور الحاسم للأكراد في ربح القضية ويفارقه اعتزازه بنفسه وبمجهوداته هنا حين تراه يقول بصراحة إنه لولا صلابة وواقعية الأكراد السياسية لكانت تلك الولاية التي تتألف منها اليوم محافظات الموصل ودهوك وأربيل وكركوك والسليمانية قد قطعت برمتها عن العراق، إن العراقيين الأكراد هم السبب في بقائها.

لذلك يحق لنا أن نعد هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق تاريخ العراق القريب وعلينا حين نقرأه - عرباً كنا أم أكراداً أم تركماناً أن لا نفاجأ بآراء المؤلف السياسية لمجرد أنها بعيدة عن آرائنا ومفاهيمها. علينا أن نحسب حساب الفاصل الزمني وهو قرابة نصف قرن. وواقع كون المؤلف يمثل عقلية موظف بريطاني يهمه أمر المحافظة على كيان إمبراطوريته البريطانية. وهذا لا يقوم عذراً لنا لإطلاق صيحات الاستنكار أو شجب فكرة ورأي أبداً، لا نستسيغه ولا يستقيم مع تراثنا. إن الكتب هي آراء للناس تقرأها بدل أن تسمعها ولك أن تأخذ بها أو تطرحها جانباً والأمر متوقف على ذوقك، وكما أن حسن الخلق يفرض عليك السكوت أو التأدب في الرد حين تسمع من فم رأياً تحتقره أو تكرهه أو تخالفه ليس من المجدي ولا من الأدب في شيء أن ترفع قائل الرأي وتقذف به من النافذة لتعد نفسك منتصراً عليه. وليس من الأدب في شيء أن تلجأ إلى طريقة طالما خبرناها - طريقة الاستعداء الرخيصة فتقول معتذراً لنفسك على ما بدا منك. إني لا أخشى على نفسي وإنما أخشى التأثير السيئ الذي تحثه في غيري من القراء.

بهذه الروح الواسعة يجب أن يقرأ كتاب إدموندز. خادم مخلص دؤوب لإمبراطوريته البريطانية ومنفذ دقيق وأحياناً متحمس لسياستها في العراق وأحد الرجال الذين دفعوا بحقوق الكرد القومية إلى الوراء خطوات وتسببوا بصورة غير مباشرة طبعاً في المآسي اللاحقة. وماذا تقول بعد.. الآن الصدف هي التي وضعته في مركز المسؤولية هنا ولأن الصدف قضت بأن تقف الإمبراطورية البريطانية في تلك الحقبة من التاريخ وقفة مناوئ ومخاصم لأماني هذه الأقوام الثلاثة الوطنية في العراق، وأن تقمع الثورات بالنار والحديد؟ ولو كانت الظروف التي جاءت بإدموندز غير هذه الظروف فلعله كان بدا لنا غير الذي عرفه به وطنيونا المعاصرون له. وبالخلق الكردي الأصيل هنا فقط يمكننا أن نتلمس للمؤلف العذر عما فعل.

لقد ارتأت جريدتنا «التآخي» أن تصدر سلسلة من هذه الكتب المترجمة وهدفها الأول تدعيم الأخوة العربية الكردية ووضعها على أسس أمتن من التفاهم.

وليس شيء مثل المعرفة ما يقوي هذه الأخوة والتفاهم. فمعرفة الشعب العربي بتاريخ أخيه الشعب الكردي ومراحل نضاله وعثراته وكبواته يختصر مسافة كبيرة من هذا الطريق. ولذلك كانت الكتب خير سفير وواسطة، فضلاً عن إغناء المكتبة العربية بما افتقرت إليه في هذا المجال. إن مثقفي الشعب الكردي مسؤولون عن هذا مثلما كانت الحكومات السابقة مسؤولة بمنعها وملاحقتها لكل ما يطبع في هذا الشأن. ولذلك فإن بيان الحادي عشر من آذار كان الفأس التي استخدمناها لكسر الحواجز الفكرية وتقديم ما يسعنا تقديمه من هذه الكتب. ولسنا نرجو إلا أن تؤخذ هذه السلسلة بالقدر الذي شرحناها وأن لا توضع تحت المجاهر العمياء فتتوالى عليها التخريجات المغرضة وتتناولها ألسنة السوء لتستخلص ما تستخلص. إن من يخشى الماضي فإنه يخاف الحاضر ولا طاقة له بمواجهة المستقبل. هذا ومن الله التوفيق.

بغداد 28 حزيران 1971

جرجيس فتح الله

المُقَدِّمة

إن الأساس الذي بنيت عليه كتابي هذا، هو التاريخ السياسي لنزاع بريطانيا العظمى وتركيا على ولاية الموصل، ثم أضفت إليه (بأدق ما في معنى كلمة الإضافة) مجموعة تجاربي الخاصة من منصب الضابط[1] السياسي الذي أشغلته في مواضع النزاع بالذات. ولقد حاولت في هذا الإطار العمومي أن أرسم صورة لمجتمع كردستان الجنوبي وأقدم وصفاً جغرافياً له.

إني لأعجب من نفسي حين أشير دائماً بكلمة «العدو» إلى الترك أصدقائنا. إلا أن ما أبسطه هنا، هو قصة السنين السبع الأخيرة في مجموع قطعنا به علاقات صداقتنا التقليدية والاحترام الذي تبادله بلدانا، ولقد عادت السنين الإحدى عشرة التي تصرمت علينا ونحن في خصام وتباعد غير طبيعي تلك العلاقات فهي الآن أقوى وأمتن من أي عهد مضى.

لما عدت إلى قراءة مخطوطتي بعد طبعها على الآلة الكاتبة فوجئت «بأنيتي» تسود أجزاء بحثي وتهولت اطنابي في تعداد مآثري ومجهوداتي الخاصة. ولئن فات الأوان لتعديل هذه اللهجة الأنانية الآن، فالنص كما هو، باعتماده على يوميات وجزازات كتبتها في حينه - سيزود القارئ بأفكار تفضل ولا شك ما قد يحصل عليه من جمل أنيقة مرتبة أقوم بتدبيجها بعد مرور هذا الزمان الطويل. أفكار تفصح عن ثقة بالنفس، وحيوية عالية لازمت أغلب أولئك الضباط الفتيان الذين خلقتهم

---

(1) دأب الكتاب عندنا على ترجمة تعبير Political Officer بـ(الحاكم السياسي)، في حين فضلت ترجمتها بـ(الضابط السياسي) وهي في رأيي أدق وأوفى بالغرض. (المترجم).

الحرب لتولي الإدارة السياسية في بلاد ما بين النهرين - فكسبوها في أثناء تصريفهم واجباتهم، وتصديهم لمختلف المشاكل فيها، وإن كانوا مفتقرين إلى بعض التدريب والخبرة.

وإني لمدرك إسهابي وإطنابي في وصف الطرق التي سلكتها ومختلف طبقات المجتمع في كردستان الجنوبية، فإذا كانت تجاربي دليلي، فإن هذا الإسهاب بحد ذاته يعطي كتابي طرافته وأهميته الكبيرة لسائحي المستقبل ومتدارسي شؤون الشرق الأوسط.

أراني وقد جمعت قدراً كبيراً من المعلومات الجديدة في عالم البحث والتتبع الأوروبيين أثناء خدمة طويلة الأمد في إيران والعراق، وعندما اندفعت ريح الثورة إلى جنبات هذين البلدين مستهدية بآلة احتراق داخلي صغيرة معجلة بها حربان عالميتان. ثورة كانت تهدد بالزوال تلك التقاليد العريقة والعادات العتيقة التي بقيت حية رغم تقلبات الحقب والدهور. ولست أخفي أملي في أن يكون بعض ما جمعته ذا قيمة لأبحاث أكثر دقة وانتظاماً مما لم يقو عليه طبعي. وأنا في الوقت نفسه أسارع في الاعتذار لأولئك المختصين في التأريخ، عن المواد المحدودة الأولية التي قدمت بها الفصل السادس فيما يتعلق بتأريخ الإسلام الأول وهي مواد وإن كانت سطحية بسيطة في نظرهم إلا أنها ستزيد من طرافة الكتاب وسرعة استيعاب القارئ العادي له (دعك من المواد الأكثر دقة التي تضمنها هذا الفصل والفصول الأخرى) ولا أظنه سيحكم على حكمه على ذلك الساقط بين كرسيين[1]!

من أصعب المعضلات التي تجابه أي مؤلف بحث عن الشرق الأوسط هي معضلة إثبات أسماء الأشخاص والأمكنة والمواقع الجغرافية. وقد خلقت في كتابي

(1) أي الذي يريد الجلوس على كرسين متقاربين فيسقط بينهما. وهو مثل إنكليزي يضرب لمن يريد نيل غايتين في آن واحد فيخطئهما معاً. (المترجم).

أزمة مستحكمة لأنه يبحث أمور بلاد اعتبرت فيها اللغات العربية والفارسية والكردية والتركية لغات حكومية رسمية فضلاً عن كونها لغات التخاطب. وكلها تكتب بالحرف العربي. خلا التركية الحديثة التي صارت تكتب الآن بالحرف اللاتيني. وتركيا كما لا يخفى جار ملاصق ذو نفوذ في هذه الظروف الصعبة. لم أجد مندوحة من اختراع قواعد كتابة خاصة. لكن ثمة نظاماً عاماً حاولت جهدي ألا أحيد عنه، وكان من الضروري أن أجعل القواعد التي ألزمت بها نفسي أكثر دقة. على أنه يوجد استدراك أو اثنان لا سبيل لي إلى إغفالهما. فحيثما كانت أسماء الأشخاص شائعة في لغتين أو أكثر فلا بد وأن تكون إحداهما اللغة الفارسية. وقد اخترت التهجئة حسب القاعدة الفارسية المتعارف عليها لتصوير اللفظ بالنطق الفارسي - بصورة عامة. فحرف البدء ain وأحرف الصوت الطويلة لم أميزها عادة في متون الكتاب وإنما اكتفيت بإثباتها في الفهرست. وكلما وجدت ألفاظاً شائعة قد دخلت اللغة الإنكليزية ودرج استعمالها فيها، فضلت استعمالها بشكلها الشائع، مثل ألفاظ (مكة، موصل، خليفة، قرآن). ولا أقول شيئاً عن اسم (محمد) المصحف هناك، إن لي أصدقاء كثيرين بهذا الاسم، وهو يلفظ بتشديد الميم وواو حادة، ولم أستطع إجبار نفسي على كتابته هكذا Mohmmad أو حتى Mohamet مع احترامي للفاولريين Fowlers[1].

إن اقتباساتي العربية والفارسية أثبتها وفقاً لنظام دقيق معترف به في عالم البحث. أما المقتبسات التركية فقد أثبتها حسب قواعد التهجئة اللاتينية التي وضعها (مصطفى كمال)[2]. أما اقتباساتي الكردية فقد أثبتها بأبجدية خاصة لاتينية اشتغلت

(1) لعله يقصد هنا أشياع توماس فاولر (1832 - 1904) الفيلسوف والأستاذ المعروف في جامعة أكسفورد. (المترجم).

(2) قليل من الناس من يعرف أن طريقة كتابة التركية بالأحرف اللاتينية يعود الفضل الأول فيها للعراقي البحاثة الدكتور داود الجلبي الموصلي فقد وضع قواعدها مفصلاً أثناء ما كان يدرس الطب العسكري في استنبول سنة 1910 وضمنها كتيباً وزعه كما أعلمني على سائر الدوائر الثقافية والصحافة في العاصمة العثمانية. ولديّ نسخة منها. (المترجم).

في وضعها ما بين عامي 1930 و1933 متعاوناً مع صديقي الباحث الكردي (توفيق وهبي بك)[1] عضو مجلس الأعيان العراقي. وقد نشرت بصورتها النهائية في ثاني مقالين كتبتهما لمجلة (الجمعية الآسيوية الملكية) وعنوان المقالين «مقترحات لاستعمال الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة الكردية» - كانون الثاني - 1931 و«بعض التطورات في استعمال الأبجدية اللاتينية لكتابة اللغة الكردية - تموز 1937» وكل ما نحتاج إلى ذكره هنا، هو أن كل الأحرف الكردية الصامتة، يوجد في اللغة الإنكليزية ما يقابلها ويطابقها ما عدا أحرف (خ: x) الذي يمثل الصوت الشائع ويرسم عادة بحرف المرجى: kh، كما وأن حرفي (j, c) لهما القيمة الصوتية في الكتابة التركية الحديثة بالضبط. كذلك الحرف (J) الفرنسي والإنكليزي. أما الحرفان المزجيان (Rh, Lh) فهما على التوالي يمثلان حرفي اللام والراء الكرديين المضخمين وهما موجودان في اللغة الكردية فضلاً عن حرفي اللام والراء العاديين. أما عن الأحرف الصوتية: (a, o, o, i) فتلفظ ممدودة دائماً. ويلفظ حرف (i) خفيفاً، وحرف y هو قصيرة فحسب ويعتبر من الأحرف الصامتة. وحرف u قصير اللفظ دائماً، أما حرفا (u, i) الطويلان فيمثلان على التوالي بأحد الحرفين المزجيين .wu, uw, yi, iy

في أول ملاحق الكتاب أوردت قائمة بالوثائق الرسمية، والكتب التي رجعت إليها، مع قائمة بمختصرات عناوين كل المجلات العلمية التي اقتبست مواد منها وإني لأقر لها بدين كبير. أما قوائم الكتب والمقالات التي كتبها من سبقني من السياح والرحالة فقد أثبتها في مظانها من متن الكتاب كما نوهت بالكثير منهم في مواضع أخرى من المتن، والهوامش.

ساعدني عدد كبير من الأصدقاء الطيبين في إقالتي من العثرات وإزالة بعض

---

(1) هو الآن نزيل لندن، يقوم بمجهودات علمية كردية الطابع وقد وقفنا له على رسالة ثمينة عن اليزيدية. كما علمت أنه عمل مع مؤلف هذا الكتاب على وضع معجم كبير كردي - إنكليزي. (المترجم).

النواقص. وهم بطبيعة الحال غير مسؤولين عما تخلف منها. ولقد راجع السيد ريدر بولارد والأستاذ سدني سميث النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة. كما راجع الأستاذ ألفريد گيوم الفصول 6، 13، 14، 18[1]. وراجع السيد توفيق وهبي الفصول: 4، 5، 6، 7، 11، 15. وكانت تعليقاتهم وتصويباتهم ونصائحهم قيمة جداً. وإني لشاكر ممتن منهم. وعليّ أن أتقدم بالشكر أيضاً إلى أمين مكتبة وزارة الخارجية البريطانية لسماحه لي بمراجعة الحجج والوثائق المتعلقة بمسائل الحدود التركية - الفارسية، وأتقدم بالشكر أيضاً لمارشال الجو الأول السير جيمس روب Sir James Robb لتزويدي بمختلف التفاصيل الخاصة بضباط ومعدات القوة الجوية الملكية لفترة (1919 - 1925)، كذلك المقدم جي. إي. هويلر G.E. Wheeler لمراجعة الكلمات التركية الحديثة وضبط تهجئتها. وأشكر ما لا يحصى من زملائي الآخرين عراقيين وإنكليز جاء ذكر بعضهم في الكتاب، للحفاوة التي تلقيتها منهم أثناء جولاتي، ولغير ذلك من مظاهر التكريم والعطف التي غمروني بها.

وعليّ أن أوضح هاهنا بشكل بات أن الآراء التي يعثر عليها القارئ هي أرائي الخاصة وكل مسؤولياتها تقع على عاتقي وحدي مع أني كنت أشغل مناصب في كل من وزارة الخارجية البريطانية والحكومة العراقية، أعواماً طويلة.

(1) Sir Reader Bullard: أحد خبراء الدبلوماسية البريطانيين في الشرق الأوسط. وSidney Smith عالم آثار أمريكي معروف. وA. Guillame: مستشرق إنكليزي. رئيس دائرة الشرق الأدنى والأوسط لمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية لجامعة لندن. كتب الكثير في التاريخ الإسلامي. (المترجم).

الباب الأول

- 1 -
الكُرد

«كردستان» بالمفهوم الواسع، يقصد بها ديار الكرد بوصفهم مجتمعاً ذا وحدة قومية متجانسة homogeneous وهذه الديار مجزأة بين تركيا والعراق وإيران. فضلاً عن نتوءات داخلة في الاتحاد السوفياتي وسوريا. ولذلك لم تدخل تخومها ضمن أية حدود دولية أو أقسام إدارية داخلية. وتخومها الشمالية تتبع تقريباً خطاً يمر بيريڤان وأرضروم وأرزنجان (ارزنگان) ثم تمر بشكل قوسي متجهة إلى حلب من مرعش (مرش) ومن الجنوب الغربي تمتد على طول سفوح الجبال المنتهية بضفاف دجلة ثم تشرق مجرى النهر ولا تبتعد عنه كثيراً ممتدة من خط جبل حمرين حتى تصل نقطة على الحدود العراقية الإيرانية بالقرب من بلدة (مندلى). وإلى الشرق من الجهة الإيرانية تبلغ نهاية أرض الكرد خطاً نازلاً من جنوب شرق (يريڤان) لتضم أصقاع (ماكو) وقسماً من (كوي) ورضائية (أورمية) ومهاباد (صاوج بولاق) وسقز وسنه حتى (كرمنشاه). إن الطريق السلطانية العريضة الممتدة من كرمنشاه إلى (كرند) يليها الخط المستقيم المنتهي بمندلى، وهو على وجه التقريب الحد الفاصل بين بلاد الكرد الأصيلة وبين ذوي قرباهم (اللر، والللك)، الذين يعدون من ضمن الشعب الكردي[1].

---

(1) أولئك «العتالون الكرد» الذين يشاهدهم الناس يومياً في بغداد وعلى كواهلهم أثقل الأحمال يقومون بالأعمال التي ذكر كتاب ألف ليلة وليلة أنها أعمال أسلافهم بالضبط قبل ألف ومائتين من=

وسكان كردستان التي تم تحديدها كما سلف ليسوا لديهم كرداً بطبيعة الحال. فقبيل عام 1914 مثلاً كان عدد كبير من الأرمن يقطنون الأراضي الواقعة شمال خط العرض الثامن والثلاثين مباشرة. أما المسيحيون النساطرة الذين عرفوا في إنكلترا باسم (الآثوريين) فقد كانوا يحتلون إقليم هكاري التركي بأعداد كبيرة، ويقطنون المنطقة المجاورة له المعروفة بأورمية الإيرانية. ومعظم هؤلاء إن لم نقل كلهم - زالوا من الأراضي التركية. على أن بضعة آلاف منهم استقروا الآن محتشدين في منطقة العمادية داخل العراق. وثمة أيضاً مستعمرات قديمة تركمانية تمتد على هيئة خط من القرى والبلدان حول الطريق السلطانية بين بغداد والموصل، ومنها قره تبه، وكفري، وطوز خورماتو وطاووق وكركوك وآلتون كوبرى وأربيل، ثم فيما وراء الموصل تأتي تلعفر، على أن الأكراد فيها أغلبية ساحقة. كما وجدت مجتمعات كردية خالصة، مستقرة خارج التخوم التي رسمناها تصل حتى أنقره. وتبلغ من جهة الشرق أصقاع بحر قزوين وخراسان وكرمان ومما تجدر إليه الإشارة هنا جبل سنجار غرب دجلة الواقع على خط عرض مدينة الموصل نفسها بغالبية ساكنيه من اليزيدية الكرد الذين يطلق عليهم ظلماً اسم «عباد الشيطان» وبأقليته المسماة التي لا تتمسك كثيراً بشعائر دينها.

وأنا أقدر عدد نفوس الكرد في العراق بـ(900,000) نفس وهو رقم استندت في تقديره على إحصاء النفوس العام سنة 1947، الذي تم مجموعه الكلي على أساس النواحي وعلى تقديري الخاص للتكوين القومي في كل ناحية[1] (الناحية هي أصغر

=السنين، هم في الحقيقة ليسوا كرداً، وإنما من (اللر) الذين جاؤوا من غرب (لرستان) المعروف بإقليم (يشتكو). (المؤلف).

يكاد الباحثون يجمعون أن اللر هم أكراد. وإدموندز هو من القلائل النادرين الذين لا يضعون اللر ضمن القومية الكردية. واللر أنفسهم لا ينكرون عنصرهم الكردي (ملاحظة المترجم).

(1) انظر التفاصيل في الملحق (ب) ويلاحظ أن المؤلف يستند إلى تقدير شخصي له يعود إلى سنة 1925 حيث كان يعد هذا التقدير مبالغاً فيه. أما اليوم فهو بعيد عن الحقيقة بمراحل وقد يزيد تقدير عدد نفوس الأكراد في العراق على أساس تضاعف السكان وعلى ضوء رقم إدموندز المار ذكره قرابة المليونين. (المترجم).

الوحدات الإدارية). ومثل هذا التقرير لا يتيسر في إيران وتركيا. إن لجنة عصبة الأمم التي جاءت عام 1925 للتحقيق في النزاع على الموصل بين بريطانيا وتركيا، قدرت مجموع الكرد في تركيا بمليون ونصف مليون، وفي إيران بسبعمائة ألف وفي العراق بخمسمائة ألف وفي سوريا وغيرها بثلاثمائة ألف. فيكون المجموع على رأيهم ثلاثة ملايين. وكان تقديرهم للعراق ضئيلاً للغاية على أن جانباً من غلطهم يعزى إلى النمو الطبيعي في سكان كل بلاد كردستان خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية. هذا وإن الانتفاضات الوطنية في إيران التي جاءت في أعقاب الاحتلال الأنكلو - سوفياتي في خريف عام 1941، وما كشفت عنه من ضعف الإدارة المحلية، أثبتت أن كرد إيران ما زالوا على قوتهم التي لم تهن في أي عهد من عهودهم الغابرة، ويكون معقولاً إثباتنا رقم (مليون) كمجموع تقريبي لعددهم هناك. أما في تركيا فالتقدير أشق. لأن الحكومة التركية لا تسميهم كرداً وإنما (أتراكاً جبليين) وتنكر عليهم إنكاراً تاماً دعواهم بقومية متمايزة قوية متراصة. وزيهم الوطني محرم ارتداؤه في مراكز وحدات الإدارة على الأقل، ولا يعرف إلا النزر اليسير عن عدد الضحايا الذين صرعوا في سلسلة متتابعة من الثورات، كما لا يعلم شيء عن عمليات التهجير التي كانت تتم في أعقاب تلك الانتفاضات عادة. ومهما يكن، فمما قمت به من تحقيقات خصوصية على الحدود العراقية والإيرانية ومن جملة شهادات وقرائن اجتمعت لي من حكايات بعض السياح القادمين منها، ونظراً إلى أهمية الثورات وضخامتها، فأنا أقدر ما في تركيا من كرد بما يساوي كرد العراق وإيران مجتمعا أي بحوالي مليونين[1] وإذا أضفنا كرد سوريا

(1) إن الإحصاء الرسمي Annuaire Statistique للعام 1951 الذي أذاعته دائرة الإحصاء المركزية في أنقره (اقتبسه برايس W.C. Brice) في المجلة الجغرافية رقم 70 - القسم الثالث، ص347 - يثبت رقم 1,470,562 لنفوس أولئك الذين يتكلمون الكردية - حسب إحصاء عام 1945. ولقد أنبأني مصدر موثوق حسن الإطلاع أن الإصلاحات الديمقراطية الجديدة في تركيا جعل لصوت=

والاتحاد السوفياتي وغيرهم من المجتمعات الكردية المنعزلة، تكون لنا المجموع العام الضخم الذي يتراوح بين أربعة ملايين وأربعة ملايين ونصف المليون.

ويشيع بين الكرد روايتان عن أصلهم. أولاهما مسندة إلى تاريخ إيران الأسطوري تروى عن عرش كان يجلس عليه دعي غاصب اسمه (زهاك). لقد نبتت حيتان في كتفي (زهاك) هذا تحتاج كل منهما إلى غذاء يومي قوامه دماغ بشري، ثم إن وزيراً له أريباً ذكياً توصل سراً إلى خلط كل دماغ بشري بدماغ عجل وبهذه الطريقة تسنى له إنقاذ حياة شاب أو شابة واحدة من أصل اثنين مخصصين لليوم الواحد ولاذ هؤلاء الناجون من الموت، بالجبال وكانوا أجداد الكرد ومنهم خرجت تلك الأمة.

وأما الرواية الثانية فترجع إلى عهد الملك سليمان. والأساطير الشعبية في الشرق تجعل سليمان سيد العالم الخرافي الذي تسكنه المخلوقات الشاذة المسماة بالجن والعفاريت و«ديوه كان» و«به رى» (قارن لفظتنا الإنكليزية Fairy) وما إليها، ويروي الكرد أن الملك سليمان استدعى يوماً ما، خمسمائة «ديو» يثق بهم وأمرهم أن يطيروا إلى بلاد أوروبا ويأتوه بخمسمائة من أجمل من يجدون من الصبايا. ففعلوا وعندما عادوا بغنيمتهم وجدوا ملكهم العاشق الشديد الغلمة قد قضى نحبه، فما كان منهم إلا واحتفظ كل بفتاته، ومن هذا التناسل خرج أجداد الشعب الكردي. ويروي (اللر) هذه الحكاية نفسها عن أصلهم ومرة عندما كنت أجول في ربوع (لرستان) ادعى قاطع طريق باطش أنه يتصل بي بصلة الرحم منذ أيام أجداده مسنداً دعواه هذه إلى الأسطورة[1].

=الكردي في الانتخابات أهمية كبيرة مفاجئة. واليوم يقدرون عدد الأكراد القاطنين في تركيا بثلاثة ملايين بل يذهبون إلى أربعة ملايين.

(1) الظاهر أن القصة التي رواها صلاح الدين الأيوبي للفارس الاسكتلندي (الفصل الثالث) من رواية الطلسم عن أسلافه إنما هي مزيج لهاتين الأسطورتين.

وبعودتنا إلى المآثر التاريخية الأقل قدماً، نجد خلافاً كبيراً بين الباحثين عن أصول الأمة الكردية، وما سنذكره هنا الآن ممحص ثابت تأريخياً.

جاء في مدونات ومآثر الإمبراطوريات العظيمة المتمدنة التي نشأت في سهول هذه البلاد، كسومر القريبة من الخليج الفارسي[1] وبابل في الفرات الأوسط بالقرب من الحلة، وآشور بعاصمتها نينوى الواقعة على دجلة مقابل الموصل، أخبار عن هجمات وغزوات قبائل تسكن جبال كردستان الغربية وتكتنفها من جهة الشمال الشرقي والشمال، كما جادت هذه المدونات بأخبار حملات عسكرية جردت على تلك القبائل. ففي الألف الثانية ق.م. كانت الأسر التي تحكم بلاد ما بين النهرين (وهو اسم مناسب لموضوعنا) ذات أسماء قريبة الشكل واللفظ بالكلمات السنسكريتية العتيقة. وهذا يشير إلى وجود عناصر هندية آرية - على الأقل في الطبقة العليا من أهل البلاد، وعقب هؤلاء، أقوام انحدروا إلى هضبة إيران الغربية وزاغروس هم فرع من المجموعة الهندوروبية أي الإيرانيين، أي الميديين والفرس. ويعتقد بعض الباحثين أن المديين (مادا) جاؤوا بعد الفرس (بارسا). وربما كانت هجرتهم هذه قبيل القرن الثاني عشر السابق للميلاد. وهناك استقروا ثلاثة قرون قبل أن ينزحوا إلى الجنوب نحو بلاد فارس ومنحوا اسمهم هذا للإقليم أو أنهم اقتبسوه للإقليم الذي ربما كان يعرف ب(برسه واش) وأول ذكر له وجد في أخبار الملك الآشوري شلمناصر الثالث لسني 833 و829 و828 ق.م. ولعل منطقة (بانه) الحديثة هي المقصودة بتلك الأخبار[2] ولم يخلف الميديون أية كتابات لسوء الحظ، كما خلف الآشوريون والبابليون والفرس، (إن وجد فهو بعد في باطن الأرض) لذلك سيبقى تأليف تأريخهم وإعادة ترتيبه على الفترات الزمنية الطويلة موضع حدس وتخمينات على الأكثر. هنالك عبارة في مدونات شلمناصر

---

(1) يقصد الخليج العربي. (ملاحظة المترجم).

(2) سدني سمث «برسواش وسولدوز» في ذكرى الأستاذ بور دافور (بومبي 1951) 203، ص60 - 67 وص70، حول تثبيته (أرض مسي) The land Messi المذكورة فيما يلي - (تقدم!) بمنطقة (ساقز).

الثالث عن وقعات سنة 836 ق.م. تعد أول ذكر في التأريخ للميديين[1]. وعلى أي حال فليس في أسماء أمراء الميديين الذين ذكرتهم النصوص الآشورية، اسم ذو جرس إيراني، حتى القرن الثامن ق.م. فبعد هذا التاريخ اندفع هؤلاء الميديون القادمون من جهات مجهولة في شمال هضبة إيران الوسطى - نحو الغرب والجنوب. وما جاء عام 650 ق.م. حتى بسطوا سلطانهم على زاغروس. ويبدو أن كلا من الميديين والفرس كانوا أشبه بطبقة أرستقراطية تهيمن على خليط من السكان، ولم يعمدوا إلى استئصال هؤلاء السكان الأصليين وإنما فرضوا عليهم لغتهم وديانتهم. وفي السنوات 617 - 612 ق.م. اعترف بكيخسرو الميدى ابن خشاثريتا = فروارتس، رئيساً لحلف ضم أكثر من الميديين أنفسهم. وفي عام 612 ق.م. تحالف مع البابليين، لتدمير نينوى وتقويض صرح الإمبراطورية الآشورية. إن التقلبات التي طرأت على الدولة الميدية منذ عهد (كيخسرو) حتى عام 550 ق.م.، غامضة مجهولة الأبعاد. ويوضح هيرودوت (الفصل الأول، ص72 - 74) أن حدود الميديين الغربية كانت نهر هاليس وهو (قزيل أيرمق) الحالي، وقد ثبت بعد حرب جرت بينهم وبين الليديين انتهت بوساطة من حكام بابل (الذين كانوا يسيطرون على حران) وحكام كيليكيا. إن تنويه المدونات بحصول كسوف آنذاك يجعل تأريخ الحدث عام 585 ق.م. أول المراجع عن الميديين ولم يرد أي ذكر لأكبتانا التي هي همدان الحالية - على أن ملوكهم اتخذوا عاصمة قبيل نهاية حكمهم وأن حدودهم من هذه الجهة كانت تبعد كثيراً عن شرق (أكبتانا) وكان الفرس في الجنوب يعترفون بالسيطرة الميدية اسمياً.

في حدود العام 550 ق.م. أزاح كورش الفارسي خليفة كيخسرو وابنه (على ما يزعم هيرودوت) المدعو (استياجيس) وحل سلطان الأخمينيين محل الميديين وفي

---

(1) أولمستيد Olmisted: تاريخ آشور: نيويورك 1928، ص117. وقد زودني الأستاذ سمث بترجمة النص وهذا هو: «رحلت عن بارسوا ونزلة أرض مسي، أرض أماديا أرض أرازياش، أرض حرحار..» وحرحار هي الأرض المعروفة الآن بسيروان العليا.

العام 547 ق.م. هزم كورش، ملك ليديا (كروسوس) وأصبح سيداً على شرق آسيا الصغرى ووسطها. ثم هاجم البابليين أولاً في سوريا، ثم في عقر دارهم بابل نفسها العام 539 ق.م. ودامت الإمبرطورية الأخمينية حتى 331 ق.م. وكانت عاصمتها (برسبوليس) بالقرب من (شيراز) جنوب بلاد فارس. وفي هذه السنة انهزم داريوس الثالث أمام الإسكندر الكبير في معركة (أربللا) التي كان ميدانها[1] الحقيقي، ما يقوم عليه الآن القرية المسيحية (كرمليس) وهي أقرب إلى الموصل منها إلى أربيل وكانت كردستان تؤلف جزء من الإمبراطوريات التي تعاقبت: السلوقيون (339 - 129 ق.م.) ثم الفرثيون (247 ق.م- . 226 ب.م.) ثم الفرس الساسانيون (226 - 636م) ثم الخلفاء العرب (636 - 1258م) ثم المغول والتركمان (1258 - 1509م) وفي القرن السادس عشر استقرت الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية نوعاً ما، لتترك حوالى ثلاثة أرباع كردستان في تركيا والربع الباقي في إيران.

وربما لا يتفق مع أغراضي الحالية، محاولة تعقيب خيط التأريخ الكردي في متاهات شبكة تأريخ آسيا الغربية المعقدة. في حدود القرن السابع الميلادي أي زمن الفتح العربي، استخدم لفظ (الكرد) بمثابة مصطلح عنصري ليطلق على إيرانيي الغرب الذين استقروا في زاغروس وجواره، وعلى السكان القريبين الذين كانوا يعتبرون إيرانيين أيضاً. وربما كان رجع الصدى للكتّاب القدماء الذين استخدموا أشباهاً لهذا الاسم بصورة أضيق كقولهم «جبال گردوايا» و«عصابات الكرتيوي لميديا الأتروباتية» أو (الأذربيجانية) التي ذكرها سترابو Strabo (عاش في حدود 64 ق.م- . 20 ب.م.). و«الكردوچي» الذين هاجموا گزينفون وعشرة آلافه بأساليب كرهم وفرهم المألوفة أثناء ما كانوا يتقهقرون عبر منطقة زاخو في العام 400 ق.م.

---

(1) سير أ. شتاين Sir A. Stein (تعليقات حول عبور الإسكندر المقدوني نهر دجلة، ومعركة أربللا) المجلة الجغرافية، تشرين الأول 1942.

جاء حين من الزمن كان الرحالة الجهلة يتوهمون باللغة الكردية، فيعتبرونها من اللهجات العامية الفارسية. وهذا بعيد جداً عن الواقع. صحيح أن اللغتين متصلتان بصلة النسب إلا أن البون شاسع بينهما ونقاط اختلافهما عديدة جداً سواء في المفردات أو النحو أو النطق. فاللغة الكردية هي من مجموعة اللغات الإيرانية الشمالية الغربية المختلفة عن الفارسية الحديثة. والفارسية تنتمي إلى المجموعة الجنوبية الغربية كما لا يخفى. وكردستان بلاد جبال شم، ذات طرق وعرة ومسالك صعب ظلت قروناً لم تتمتع بوحدة سياسية تمنحها تراثاً أدبياً عاماً مشتركاً. ولم يكن بعجيب أن اختلفت لهجاتها المحلية من واد إلى واد فحسب إلا أن المزايا الجوهرية في اللغة الكردية تبدو بارزة واضحة في تلك اللهجات. ويرى ثقة من أعظم ثقاتنا في الموضوع[1] إنه مع تفرق القبائل الكردية وتباعدها بعضها عن بعض كما يشاهد الآن، فإن ظاهرة هذا الاختلاف الكبير في اللهجات لا يمكن تفسيره إلا بأن تلك اللهجات إنما هي مشتقةً من لغة عتيقة أصيلة قوية هي اللغة الميدية.

فبصورة عامة إذن، يمكن للمرء بعد استناده إلى القرائن الجغرافية واللغوية أن يفترض إلى درجة ما، أن كرد اليوم هم أحفاد ميديي سلالة الملوك الشرقية الثالثة العظمى (مثلما كان الإيرانيون الحاليون في شرقهم وجنوبهم الشرقي أحفاد الفرس الأولين الذين ينتمون إلى سلالة الملوك الخامسة) إلا أن القومية الإيرانية عززتها الهجرات المتتالية من الشرق نحو الغرب. وأما البؤرة الوسطى فقد تحولت هي الأخرى نحو الغرب، كما هو منتظر، حتى أصبحت همدان اليوم فهي خارج حدود كردستان الشرقية.

لعب الكرد طوال خمسة قرون أدواراً هامة في حدود الدول الإسلامية. والتاريخ يزوّدنا بأسماء أكثر من سلالة حكام مهمة من الكرد، وربما كان «صلاح

(1) الأستاذ ف. مينورسكي V. Minorsky في (قبائل إيران الغربية): المعهد الأنثروبولجي الملكي - 1949 - وانتهز الفرصة للإعراب عما أنا مدين به لمقاله الآخر «الكرد في شرق إيران».

الدين أيوب» (نبغ في 1193) أشهر رجال الكرد وأعظم عظمائهم، وهو الخصم الشهم، والفارس النبيل المعاصر «لريشارد قلب الأسد» وللصليبيين. وتقول عنه المصادر الكردية إن مسقط رأسه هو منطقة أربيل[1] وكان معظم إمبراطوريته عربيّ. إلا أن فتحه الموصل ضم إليها بدون شك مناطق كردية واسعة. ويقل حديث التاريخ عن الكرد أيام حكم المغول والتركمان، لكنهم عادوا ليلعبوا دوراً هاماً في الحروب التي نشبت بين العثمانيين والصفويين.

ومع «المركزية» التي غلبت على طبيعة الحكمين التركي والإيراني، فقد عاش عدد من الدويلات الكردية ذات الحكم شبه الذاتي إلى ما قبل مائة سنة، كأمارة بوتان وأمارة هكاري وبهدينان وسوران وبابان في الأراضي التركية، وكأمارتي (مكري) و(أردلان) في إيران، والأمارات الأولى تم إخضاعها كافة للحكم العثماني المباشر أو قوضت بالقوة ما بين حدي ذلك الزمن. وفي إيران يطلق اسم (كردستان) رسمياً لا على المناطق الكردية عامة وإنما على إقليم يكافئ إمارة أردلان القديمة.

وفي الأزمان الحديثة إلى العام 1918 - جرى تقسيم الإمبراطورية العثمانية لغرض الإدارة إلى ولايات يديرها ولاة، ثم قسمت الولايات إلى (سناجق) أو ألوية يديرها المتصرفون وقسمت السناجق إلى أقضية يديرها القائمقامون، وقسمت الأقضية إلى نواح يديرها مديرو النواحي. وعراق اليوم يتألف على وجه الدقة تقريباً - من الولايات العثمانية السابقة الثلاث: البصرة وبغداد والموصل. وقد عرف في المخابرات الرسمية الإنكليزية يوماً ما باسم تركيا العربية وعرفه الإنكليز باسم (ميسوبوتاميا - ما بين النهرين). وزال تقسيم الولايات من العراق بعد العام 1921،

---

(1) إن موطن أسرة صلاح الدين بالأصل هو (دوين) في أرمينيا (مينورسكي: دراسات في تاريخ القفقاس، لندن 1957، ص116 وما بعدها)، و(دوين) القرية التي تبعد 23 ميلاً شمال أربيل قد تكون إحدى مراحل هجرة الأسرة المتعددة باتجاهها جنوباً نحو تكريت على دجلة وفي هذه البلدة ولد صلاح الدين.

وقسمت أرضه إلى ألوية تخضع لوزارة الداخلية مباشرة. ولكن من الأنسب أن نستمر هنا في استعمال كلمة الولاية بالمفهوم الجغرافي لها. ولنذكر هنا أن الألوية (14 لواء بدلاً من 9 ألوية سابقاً) والأقضية هي الآن أكثر عدداً مما كانت في عهد الترك[1].

وولاية الموصل هي أقصى الولايات الثلاث في الشمال وتقع في زاوية يحدها التقاء مجموعتين من الجبال: أولاهما مجموعة الامتداد الأرمني لجبال طوروس، وثانيهما سلسلة جبال زاغروس من الشمال الشرقي. وكل مجموعة تتألف من صفوف متوازية تقريباً من السلاسل أما (زاغروس) فتمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال العربي، وهذه المنطقة يرويها نهر دجلة وثلاثة روافد رئيسة تصب فيها من جهة اليسار. ودجلة ورافده الزاب الكبير ينبعان من (طوروس) ورافداه الآخران الزاب الصغير وسيروان ينبعان من (زاغروس). ويحد الولاية من الشمال الغربي، والشمال، والشمال الشرقي حدود دولية ثلاثة. فحدود سورية هي خط متعارف عليه يمر بالجزيرة (سهل ما بين النهرين كما يعرف عموماً) ما بين دجلة والفرات. وأما حدود تركيا فتمر خلال المنعرجات الجنوبية لجبال طوروس. وحدود إيران تتبع تقريباً قمم سلسلة جبال (زاغروس) الرئيسة. وأما حدودها مع ولاية بغداد السابقة وهي حدود إدارية، فتتألف من نهر سيروان[2] في الجنوب الشرقي وجبل حمرين من الجنوب الغربي وهو جبل منخفض لا يزيد ارتفاعه من السهل عن 500 قدم، ويكون موقعه بين سيروان ودجلة. وهو نهاية الاندفاع الخارجي لمجموعة

(1) أما في تركيا فقد أنزل اسم الولاية ليطلق على ما كان يعرف قبلاً بالسنجق. وظل اسم الوالي. وفي مصر فالمدير (وهو الموظف الأعلى الإداري) يقوم مقام المتصرف في العراق تقريباً. (كان ذلك قبل صدور قانون المحافظات الجديد. والآن يقوم المحافظ مقام المتصرف - وبإضافة محافظتي دهوك والسماوة يصبح العراق 16 محافظة اليوم - المترجم).

(2) ويترك هذا النهر منطقة ضيقة (قضاء خانقين) تمتد بين النهر والحدود الإيرانية وهي هنا خط متعارف عليه عبر محور الانحراف الطبقي الجيولوجي.

جبال (زاغروس) في هذه الجهة، ثم تمتد هذه الحدود الداخلية بخط مستقيم نحو الغرب خلال (الجزيرة) إلى أن تتصل بالحدود السورية.

إن كرد العراق بوصفهم أمة زراعية متجانسة ذات خصائص قومية واحدة يتمركز معظمهم في ولاية الموصل، وكنت منقسمة إلى ثلاثة ألوية في عهد الترك، أضافوا إليها لواء رابعاً في العام 1918[1]. وتلك هي: لواء الموصل شمال الزاب الكبير ورافده (روكوچك) حتى الحدود التركية السورية ولواء أربيل بين لواء الموصل ومجرى الزاب الصغير ولواء كركوك ولواء السليمانية إلى جنوب الزاب الصغير، وأما قضاء خانقين ومندلي المجاوران اللذان كانا من أعمال ولاية بغداد (وأغلبية سكانها أكراد) فهما الآن من أقضية لواء ديالى الذي تمّ تأليفه بعد العام 1918.

من الأمارات الكردية المستقلة التي ذكرت أنها حافظت على كيانها حتى منتصف القرن التاسع عشر، توجد في العراق الآن أراض ثلاث منها. وهي إمارة بهدينان التي كانت تشمل أقضية شمال لواء الموصل الحالي الجبلية الخمسة: زاخو ودهوك وعقرة وعمادية وزيبار[2] أما إمارة (سوران) فهي تشمل لواء أربيل برمته تقريباً. وإمارة بابان تشمل كل لواء السليمانية وجزء من لواء كركوك. كان قضاء خانقين جزء من (بشالق) زهاب، وهو النخاع العظمي للنزاع الذي دام عدة قرون بين تركيا وإيران إلى أن قسم بينهما بمعاهدة تحديد الحدود للعام 1913 -

(1) الألوية الأصلية كانت: الموصل، كركوك، السليمانية. وفي عام 1918 فصل من كركوك ثلاثة أقضية تقع شمال الزاب الصغير ليؤلف منها لواء رابع مستقل هو لواء أربيل. وإني أستخدم مصطلحي اللواء والقضاء حيثما أمكنني. وفي زمن الاحتلال البريطاني، كان الإقليم الذي يشرف عليه الحاكم السياسي يدعى منطقة District والجزء الذي يشرف عليه معاون الحاكم السياسي يدعى قسما Division (قد يضم أحياناً قضاءين تركيين).

(2) في التداول الإنكليزي المتعارف عليه تلفظ (دهوك) بضم الدال. ويكون أقرب إلى اللغة الكردية إن لفظت دالها مكسورة. في العام 1944 قسم قضاء الزيبار بين لواءي الموصل وأربيل.

1914. وكانت أمارة (سوران) متصلة دائماً اتصالاً مباشراً بأمارة مكرى (عاصمتها صاوج بلاق - مهاباد اليوم)، وأمارة بابان بأمارة أردلان (وعاصمتها «سنه»).

إن توزيع اللهجات الكردية يتبع هذه التقسيمات السياسية اتباعاً قريباً من الدقة. ومن الناحية العملية فللمرء أن ينسب كل اللهجات إلى مجموعتين أصليتين: المجموعة الشمالية وتدخل فيها لهجات البلاد التي تقع شمال وغرب خط يمتد من ساحل بحيرة أورمية الجنوبي حتى انحراف الزاب الكبير عندما يغير اتجاهه من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي ثم يواصل الجريان إلى مصبه في دجلة والخط الوهمي المذكور يلازمه.

ويدخل في المجموعة الجنوبية تلك اللهجات الشائعة في الأراضي الكردية التي تنحصر بين الخط الذي رسمناه آنفاً وبين حدود كردستان الجنوبية على النحو الذي شرحناه. هذا فضلاً عن أن كردستان الجنوبية تتضمن مجموعتين كبيرتين أيضاً وهي مجموعة (مكرى - سورانى) ومجموعة (سليمانى = سليمانى أردلان) على أنه لا يوجد حد فاصل واضح. وتختلط اللهجات وتتمازج وتتداخل كما تتداخل لهجة سليماني الجنوبي بلهجة كرمنشاه ولهجة (لكي) السائدة في شمال لرستان.

وخلافاً لهذا التحديد الجغرافي توجد مجموعة أخرى من اللهجات الكردية هي مجموعة (زازا) في تركيا و(گوراني) في العراق وإيران (والأكراد أنفسهم يسمونها: ماچو ماچو). و(زازا) هي لغة التخاطب في أقصى الشمال الغربي ما بين ديار بكر وأرزنجان. والگوراني في العراق منتشر بين كاكائية طاووق وبعض قبائل (زه نگنه) قرب كفري و(باجلان)[1] قرب خانقين. وفي إيران حيث تنتشر قبائل هورامان على جانبي سلسلة زاغروس غرب (سنه) مختلطة بجيرانها الجنوبيين حتى

(1) توجد مجموعة من القرى الباجلانية تبعد بضعة أميال شمال شرق الموصل وتستخدم اللهجة الكورانية حتى الآن.

طريق خانقين - كرمنشاه السلطانية، يتألف منهم اسفين (گوراني) اللهجة ما بين (السليمانى) و(أردلان). ويطبق الباحثون الأوروبيون على اعتبار الگوراني بعيداً عن اللغة الكردية، وأهله ليسوا كرداً. لكن هؤلاء أنفسهم يشعرون بكرديتهم من كل ناحية. ووجه الغرابة أن أثاراً أدبية ضخمة ألفت في (بوتان ومكرى) باللهجتين الشمالية ثم الجنوبية في حين نجد شعراء بلاط أمراء (أردلان) المتعاقبين على الحكم بالوراثة، فضلاً عن شعراء بلاط (بابان) في السليمانية الأقدمين، ينظمون قصائدهم باللهجة الگورانية، كما يتسخدمها للتعبير عن أفكار مصقولة أقرب إلى المدنية بدلاً من اللهجة الغليظة التي يستخدمونها في أحاديثهم العادية.

ويطلق كرد الشمال عموماً اسم (كرمانجي) على لهجتهم. ويسمي كرد الجنوب لهجتهم (كردي) ويتخذ بعض الباحثين الأوربيين لفظ (كرمانجي) لوصف كلتا المجموعتين. وفي هذا فوائد عندما يكون قصدهم أن المتكلمين بالكوراني هم كرد.

ولم يكن بعجيب أن يظل الأدب الكردي الأول قاصراً على الشعر والأساطير الشعبية (فلكلور) وأول نموذج معروف عن الصحافة الكردية في أزماننا كتب باللهجة البوتانية الشمالية، على شكل نشريات دورية (جريدة) تولى إصدارها أعضاء أسرة بدرخان أمراء البوتان وسموها (كردستان) وظهرت أعداد متباعدة الزمن من هذه الصحيفة ما بين عامي 1892 و1902 في مدن عديدة، منها القاهرة ولندن، وفي أمكنة لا تخطر بالبال ك(فلكستون)!

وحقق النشاط الأدبي الكردي انطلاقاً جديداً أثر حركات الانقلابيين الترك (جون ترك) في سنة 1908، ثم طفر طفرة أخرى بعد الحرب الكونية الأولى إذ طبعت عدة مجلات دورية ومنتخبات شعرية وما أشبه باللهجات الشمالية والجنوبية في إستانبول نفسها.

ومع أن (موكرى) التي هي أصل اللهجات الجنوبية، ظلت محتفظة بمكانتها، فإن لهجة (سليماني) المطواعة النابضة بالحياة ثبتت جذورها الآن وتم الإجماع

على أنها التعبير الأدبي الأول لا في العراق وحده بل في الجهة الأخرى من الحدود الإيرانية. وربما عزي جانب من هذا التفوق اللغوي إلى الرعاية التي بسطها أمراء بابان على الأدب الكردي في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما يعزى بعضه إلى إنشاء الأتراك مدرسة عسكرية في السليمانية الحديثة، يرسل خريجوها إلى كليتي الأركان والحربية في إستانبول، فوصلت مستوى من الثقافة لم يبلغ شأوه مجتمع كردي آخر. والأكثر من هذا أن اللغة الكردية اعتبرت سنة 1918، ولأول مرة في السليمانية، لغة الإدارة الرسمية، وكان من أثر ذلك صيرورة السليمانية مصدراً لتخريج عدد كبير من موظفي الأقاليم الكردية فيما بعد.

ومنذ العام 1918 (وبصورة أخص منذ 1925) بدأت مطابع السليمانية وأربيل ورواندوز فضلاً عن مطابع بغداد تصدر صحفاً ومجلات أسبوعية وشهرية مستمرة، بأعداد كبيرة جداً. وطبعت أيضاً دواوين شعرية قديمها وحديثها، وكتب تأريخية ودينية وسياسية. والآن يوجد عدد من الشعراء المعاصرين المفلقين هم ذوي مواهب شعرية حقة، ينظمون قصائدهم بلغة كردية فصيحة جد نقية، عاطلة عن الدخيل العربي أو الفارسي. والمرء لينتشي حقاً وتشيع البهجة في نفسه عندما ينشد ما ينظمونه. وفي فترة الحرب الكونية الثانية وبعدها، أخذت المطبوعات غير الدورية تختفي بسبب شح المواد الورقية، وقد سد هذا النقص بإيداع شؤون الدعاية الحربية لقضية الحلفاء أيدي مثقفين حقيقيين نجحوا إلى حد مدهش في ضمان تطور لغوي منتظم، والنهوض بلسانهم إلى مستوى متطلبات العصر الحديث[1].

في كردستان يقوم حد فاصل بين أولئك القرويين الذين يدعون نسباً قبلياً وبين أولئك الذين لا نسب لهم. وفي الموصل وأربيل يطلق اسم (كرمانج) على

(1) انظر مقال: (الأصل التاريخي للسان الكردي الجنوبي: 1920 - 1936) و(الأصل التاريخ للسان الكردي الجنوبي: 1937 - 1944) نشرا في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية. مجلد 24 سنة 1937، ص487؛ ومجلد 32 سنة 1945، ص185.

القرويين الذين لا ينحدرون من أصل قبلي. وأما في كركوك والسليمانية فيطلق عليهم اسم (مسكين Misken)[1] وفي أنحاء من السليمانية يسمون أيضاً (بالكوران). ويكاد (المسكين) يكون قناً لمالك القرية. ويفترض في هؤلاء أن يسكتوا سكوتاً مطبقاً على كل أذى يلحقه بهم رجال القبائل. ويطلق على القرويين المنحدرين من أصل قبلي اسم (كرد) ليميزوا عن أضدادهم (المسكين). وأذكر مرة أني بت ليلة في قرية الزاب الصغير تدعى (كوليسه)، وقيل لي عن سكانها إنهم رجال ذوو بأس وعنعنات، وقد وجدتهم يمتازون عن غيرهم، فهم في الواقع (كرمانج) شجعان إلى أقصى حدود الشجاعة، على استعداد للدفاع عن أنفسهم ضد كل عدوان.

وهذا كله يشير على ما أرى إلى أن الإقليم كان يسكنه كرد كورانيون متقدمون عن غيرهم اجتماعياً منذ زمن ليس بسحيق، ثم اجتاحته موجات من الكرد البدو الغلاظ، واستقروا بين السكان الأصليين وفرضوا سلطانهم ولغتهم عليهم (كما فرض الهندو آريون والإيرانيون أنفسهم على شعوب بدائية أخرى قبل عدة قرون) ولم ينس تقاليد السيطرة والخضوع نسياناً تاماً، لا أنسال الغالبين ولا أحفاد المغلوبين[2].

ولأسباب عملية لا يملك المرء نفسه من القول إن المجتمع الكردي خارج

---

(1) إلا إذا كان مقتضى السياق خلاف هذا. فكلمة (مسكين) مناسبة لتسمية هذه الطبقة الاجتماعية، ما دامت كلمتا (كرمانج وكوران) تتضمنان معاني أخرى متناقضة وتستخدم لفظة (كرمانج) كما رأينا للتفريق بين اللهجات المنبثقة من المجموعتين الأصليتين عن اللهجة الكورانية. وكلمة (كوران) أيضاً تطلق على مجموعة قبائل في إيران. كما يستخدمها رجا لقبائل (البلباس) للإشارة إلى (اللص). وليس في أي من استعمالات اللفظة الثلاثة، ما يدعو إلى الافتراض بأن الشخص المقصود بأحدها يتكلم الكورانية حتماً.

(2) مينورسكي: (الكوران) مقال منشور في مجلة مدرسة الأبحاث الأفريقية، لجامعة لندن، مجلد 11، ص1، 1943، ص84. يقول إن الكوران أنفسهم حلوا محل أكراد شهرزور أو أقحموا أنفسهم بينهم في حدود النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.

المدن هو مجتمع قبلي أصلاً وفصلاً. فالقبيلة مقسمة إلى بطون، والبطون إلى أفخاذ، وأحياناً تدَّعي قبيلة كاملة انحدارها من خط، رجل واحد هو جدها الأعلى والأوحد. وأحياناً يقصر هذا الادعاء على بطن أو فخذ، وينزل أحياناً لينحصر في الأسرة التي تحكم القبيلة. ويغلب على القبيلة صفة الوحدة السياسية أو الجغرافية. ويبدو النظام القبلي بأبسط مظاهره عن الرحل النازحين دائماً، أولئك الذين يسكنون طوال السنة في خيم من نسيج شعر الماعز، يرحلون بقطعانهم وفقاً للفصول - متنقلين بين سهول العراق وبين مناطق الجبال في تركيا وإيران. ومنظرهم والحق يقال منظر مهيب رائع في مسيرتهم، يسوقون أمامهم آلافاً وربوات من الأغنام والماعز، وحميرهم مثقلة بخيمهم وقدورهم وأكياس قمحهم وأثاث بيوتهم مع مواشيهم ونسائهم. هناك أناس منهم بلغوا أراذل العمر، كرروا هذه الرحلة أكثر من مائة وخمسين مرة بمعدل مرتين في العام الواحد، وهناك نساء في مقتبل العمر ضاحكات السن مليئات بحيوية الشباب بينهن من تحمل البندقية. وترى الأطفال الرضع يخرجون رؤوسهم من الجوالق فوق سروج البغال يشاطرهم مجلسهم المريح، الحملان المولودة في الطريق. كلهم في حركة دائبة يقطعون الشعاب ويعبرون الخوانق الجبلية والمسالك الوعرة في رتل ما له نهاية. على أن معظم القبائل الكردية راحت تستقر في القرى وتمارس الزراعة.

وبدأ النظام القبلي ينهار في كثير من الأنحاء، بسبب ازدياد السيطرة الحكومية المباشرة ومع هذا فمن المفيد أن نتقدم بنموذج وصفي عام للنظام القبلي كما كان مطبقاً أو كما وجب أن يكون نظرياً، تقوم على رأس كل قبيلة أسرة حاكمة يلقب أعضاؤها الذكور بلقب (آغا) أو (بگ) يلي الاسم مباشرة وقد يوجد (آغا) أكبر، أو اثنان أو أكثر، تخضع له أو لهم عدة بطون أو أفخاذ من القبيلة، ويمكن أن يوجد أيضاً في كل قرية من قرى القبيلة، عضو صغير الشأن من الأسرة الحاكمة، هو بمثابة آغا أو مختار لها. والآغا هو أشبه (بالبارون الإقطاعي) الأوروبي لا عمل له، وإنما يعيش على الإتاوات والهدايا وهي تختلف باختلاف مجتمعات البلاد الكردية.

والقاعدة العامة هي أن يدفع كل فلاح عشر غلته، وكل صاحب قطيع يدفع حيواناً بمثابة ضريبة تسمى (كودا) تفرض على أساس عدد رؤوس القطيع وتجبي الحكومة هذه الضريبة رأساً إذا كان نفوذها قوياً في تلك الناحية. أما إذا كانت سيطرتها مفقودة فيقوم الآغا مقام الحكومة بجباية العشر والكودا ويحتفظ بها لنفسه. وفي عهد الأتراك حين كانت الحكومة المركزية القائمة لا تمارس سيطرة محلية قوية، لا ترى الإدارة مندوحة من قبول مبلغ تقديري عام من الآغا يقل بكثير عن ضريبة العشر والكودا. ويقوم الآغا بدوره بجباية الإتاوة من الأهالي كاملة ويحتفظ لنفسه بالفرق. وفي أكثر الأحيان تجد ادعاء الآغا بملكية قطعة أرض ما، لا يستند عند التأمل فيه إلى أكثر من كونه فلاحاً لقطعة الأرض هذه منذ القديم، يدفع عنها الضريبة باستمرار. على أن الآغا يدعي بأتاوات أخرى. فهو مضطر مثلاً إلى أن ينشئ في قريته دار ضيافة لإقراء الضيوف والمسافرين مما يقتضي مصاريف بطبيعة الحال. ولذلك يشعر بأن من حقه فرض غرامات عن بعض المخالفات، وأن يطلب من كل أهل القرية القيام بخدمة مفيدة له دون أجر. وتزداد هذه الخدمات لتبلغ حد الإرهاق في القرى التي يتألف أهاليها من طبقة (المسكين) وآغاها ينتمي إلى أسرة من (الكردي).

ولبعض الآغوات من بعد النظر ما يجعلهم يبتاعون الأراضي بطرق قانونية صحيحة. فمن يملك الأرض منهم له الحق في بدل إيجارها فضلاً عن العشر ولكن إذا لم يتجه هذا الاتجاه وإذا اشتدت سيطرة الحكومة، يميل القرويون إلى عدم دفع الأتاوة. فإذا بالآغا يصبح مشكلة اجتماعية خطيرة، لأنه يريد اقتناء الجياد الثمينة وحيازة بندقية ومسدس وكثير من العتاد وثياب أنيقة، فضلاً عن نفيس الطعام. وكل هذا يتطلب مالاً، وهو خالي الوفاض لا يملك ما يظهر به كرمه المضياف الذي تحتمه تقاليده وشرف محتده.

والمرأة في القرية الكردية لا تقل أعباؤها ثقلاً عن أعباء جاراتها في الشرق الأوسط. إذ يطلب منهن أداء أشق الأعمال وفي مقدمتها حمل قرب الماء المثلوج

على مناكبهن وهو ينضح على أجسامهن - من نبع القرية إلى البيت في الصباح الباكر ولم يشاهد رجل كردي يقوم بهذا العمل. ولا يندر أن يقوم بين الأسر الحاكمة نساء ذوات عقول راجحة وإرادات قوية فيبرزن ويلعبن أدواراً هامة في حياة القبيلة. وربما كان أشهرهن قاطبة «السيدة عادلة» في حلبجة. إن لديّ الكثير من الحديث عنها وعن أمثالها في منطقة السليمانية وسآتي إليه في الفصول التالية. ولا يفوتني أن أنوه بسيدة أخرى تدعى (فاطمة خانم) بالقرب من راوندوز يعرفها الضباط السياسيون في المنطقة معرفة جيدة لأنها كانت بعد وفاة زوجها تدير شؤون ثماني قرى، وتقوم بكل أعمال تجارية متصورة، مع السلطات الحكومية بنفسها، حتى دأب القرويون على اختيارها (للتصويت!) عنهم في الانتخابات النيابية مع أن القانون يمنع تصويت النساء بدرجتيه الأولى والثانية. لا شك في أن قوى هائلة تكمن في تكوين المرأة الكردية العادية. فمن الأيام الأولى لممارستنا الإدارة هناك، كنا نجابه بمطلب ملح عام مستمر لفتح مدارس للإناث لا في المدن وحدها بل في القرى أيضاً، وكان من الأمور المألوفة الاعتيادية (حتى في بلدة كوي) ألا يرى الأبوان المستنيران أية حراجة في إرسال بناتهن إلى المدارس المختلطة وجلوسهن مع الصبيان على مصطبة واحدة وهن في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة المتقدمة!

إن حق المرأة بالمساواة مع الرجل، كان منذ زمن بعيد الموضوع المحبب للمقالات التي تنشرها الصحف الكردية والمطبوعات الدورية الأخرى. ولقد تأخر تطبيق مشروع التعليم العام في المناطق الكردية العراقية بسبب الاضطرابات السياسية والظروف غير الطبيعية. والآن يخرج من المدارس جيل من الفتيات الكرديات المثقفات التقدميات، لم يتأخرن عن التعويض عما فقدنه من الزمن، وإن صلحت شخصيات أمهاتهن وجداتهن - مثلاً ودليلاً لهن فلا شك أنهن سيلعبن دوراً هاماً في حياة بلادهن.

- 2 -

جغرافية جنوب كُردستان

سآخذ القارئ في سياق حديثي التالي - إلى رحلات قصيرة في أربيل والموصل مع أني لم أكن قد عينت في أحد هذين اللواءين بوظيفة ثابتة إدارية. والوصف التمهيدي الذي سأقدمه لجغرافية جنوب كردستان سيكون قاصراً على لواءي كركوك والسليمانية حيث تقع مسؤوليتي المباشرة، وفيهما وقعت معظم أحداث هذا الكتاب[1].

قد يمكن استخدام مسافات من دجلة وروافده بأجزائها الأخيرة، للنقل المائي، وهناك المشروع الألماني لسكة الحديد على طول مجرى دجلة، مع هذا فإن شريان التجارة والمواصلات الأساسي بين مدينتي بغداد والموصل ظل إلى زمن كتابتي هذه - الطريق السلطانية التأريخية المعلمة بخط المدن التركمانية التي لازمته من الجانبين. والأرض التي تمتد إلى الجنوب الغربي من هذا الطريق حتى جبل حمرين، هي أرض مستوية هينة قليلة الكثبان. أما الأرض التي تمتد في

(1) أرجأت وصف منطقة رانية الواقعة شمال الزاب الصغير، إلى الفصل الخامس عشر. لقد امتازت التغيرات في الشرق الأوسط منذ 1919 بالسرعة الشديدة، حتى إني كثيراً ما شعرت بصعوبة في المفاضلة بين استعمالي صيغة الماضي أو المضارع أثناء كتابتي. على أني لم أحاول مسايرة التغيرات منذ عام 1945 وهو عام مغادرتي العراق إلى غير عودة.
وإني لأرجو أن يغض القارئ النظر عن الثغرات التي قد يحدثها استعمال الصيغ الزمنية غير المناسبة.

الجانب الآخر فتبدأ بالارتفاع فجأة لتتألف منها آكام جبلية متقاربة لا شكل لها ولا عدد، تبدو كالتيه حين تقطعها مجاري مياه تفوق الحصر وهي ترتفع هنا وتنخفض هناك مثل أمواج متلاطمة في بحر هائج. وتتعالى هنا وهناك لتبلغ شأواً بعيداً ثم تعود لتتطامن أمام موج سلسلة جبال (قره داغ) القاتمة. إن المد الجيولوجي لسائر المنطقة يتجه دائماً إلى نقطة تبدأ من الجنوب الشرقي وتصعد نحو الشمال الغربي. وهو أيضاً واضح للعين حتى في هذه الأرض المتعادية المكونة من طبقات جبسية وصلصالية وجيرية وصخرية ولا سيما في المرتفعات، أمثال أج داغ (وهو هضبة من الجير الأيوسيني طولها حوالي خمسة وعشرين ميلاً وأعلى ارتفاع فيها يبلغ 4500 قدم) (وسه نگاو)، و(خالخالان) في (شوان) بالقرب من الزاب[1]. ويغلب اللون الأسمر الباهت أو الطيني الكئيب على هذه المناطق في الصيف والخريف، ولكن ما أن يأتي الربيع حتى يكسو سطحها عشب أثيث كثيف وتفغم بأنواع من الزهر البري لا يمكن إحصاؤها وعدّها. وشكلها المتعادي يؤمن خبايا وجيوباً واقية ليس أبدع منها لضرب الخيام السود المصنوعة من شعر الماعز. ولا يقتصر سكناها على الكرد الرحل بل يتعداه إلى القرويين الحديثي الاستقرار الذين تعودوا ترك قراهم واللجوء إليها تخلصاً من الذباب في هذا الفصل من السنة.

إن قره داغ (جبل صخري آيوسيني يتراوح ارتفاعه بين 4500 و6150 قدماً) هو الحد الفاصل الجغرافي بين نوعين مختلفين من الأرض. وكذلك يقوم بمثابة حاجز ذي أهمية استراتيجية ولا شك - في كل الأزمان. ويبلغ طول المسافة من (سيروان) إلى الزاب على هذا الخط - حوالي ثمانين ميلاً ويمكن قطع هذه المسافة بثلاث شعب جبلية مشهورة (خلافاً لطرق الرجالة المبتدئة من كل طرف وعلى محاذاة النهرين) هذه الشعب هي: به يكولى. (ارتفاعه 3700 قدم) وهو يبعد عن سيروان بحوالي 5 أميال، وسه گرمه (ارتفاعه 5000 قدم) ويبعد بحوالي 24 ميلاً من (به يكولى). ويقع على طريق القوافل الرئيسة من بغداد إلى السليمانية إلى

---

(1) من الآن فصاعداً، كلما ذكر اسم الزاب وحيداً فالمقصود به (الزاب الصغير).

تبريز و(ده ربه ندى بازيان)[1] (ارتفاعه 3000 قدم) ويبعد عن (سه گرمه) مقدار 37 ميلاً. وينقطع هذا الحاجز المستقيم الذي تضاءل وصغر الآن، في نقطة تبعد حوالي 10 أميال من الزاب. ويرى بدلاً عنه جبلان محدودبان متوازيان ارتفاعهما قليل وهما قيرينا (أعلى نقطة فيه تبلغ 2800 قدم) وخاخري (أعلى نقطة فيه تبلغ 3950 قدماً) تراهما يميلان منحدرين إلى النهر شرق (طقطق)، وهذه مرحلة من مراحل الطريق بين كركوك وكوي.

ويرى فيما يلي قره داغ أربع سلاسل رئيسة متوازية محاورها كلها تميل من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي. ولنذكر هنا أن أسماء الجبال في كرستان تختلف من منطقة إلى منطقة (كثيراً ما تستعير أسماء قمم شهيرة أو ممر جبلي، أو مزار أحد الأولياء، أو قرية صغيرة على سفوحها) وتتغير أيضاً وفقاً للوجه الجبلي الذي يعيش فيه المتكلم أو يتفق أن يكون واقفاً فيه[2] ولأجل تقديم وصف عام أراني مضطراً إلى اختيار قاطعين معروفين أو أكثر لتقوم نموذجاً عن الكل: به رانان - بنزرد (ما بين 4500 و5300 قدم)، ئه زمر - قه ره سه رد (ما بين 4900 و5600 قدم)، كوره كاژاو - كوجار - كوركور - ئاسوس (عدد كبير من القمم يتراوح ارتفاعه ما بين 6000 و8000 قدم) وأما رابعتها فهي السلسلة العظمى، سلسلة زاغروس بالذات، وأعلى جبل فيها هو بيره مكرون وارتفاعه 9700 قدم[3].

---

(1) في اللغة الكردية: كلمة دربند تعني بصورة عامة خانقاً بين هضبتين أو سلسلتين من جبال تمييزاً لها عن الشعب (كرود) الذي يعلو الوادي، أو المضيق الطويل أو كه لى (قارن بينها وبين الكلمة الإنكليزية Gulley).

(2) إن اسم قره داغ (تركية ومعناها الجبل الأسود) صحيح حين يطلق على أول سبعين ميلاً من ابتدائه. لكنه يعرف بأسماء أخرى مثل بايكولى. سه كرمه - هنديرة (قرية). ويعرف فيما يلي دوربندي بازيان باسم (قيناسي).

(3) في الحوليات (سالنامه) التركية القديمة عرف هذا الجبل باسم (بير عمر كوردون) إلا أن الكردي العادي يستخدم دائماً الاسم المثبت في المتن وقد اشتقوه من عبارة (بيرما كوورن ومعناه شيخنا الديني كورون). وقد استخدمت أيضاً الاصطلاح المفيد: السلسلة العظمى chaine magistrale للدلالة على سلسلة زاغروس الرئيسة مقتبساً إياه من محاضر لجنة الحدود (1913 - 1914).

وهي كتلة شماء قائمة بذاتها من الجير الكريتاسيوسي Cretaceous limestone الأكثر قدماً إلى الشمال الغربي من السليمانية منفصلة عن (ئه زمر - قره سه رد) الذي يشابهه تكويناً، ولكنها قريبة منه. ويختفي (كوره كاژو) لكن بعد أن يمد أجنحة تتلاقى بعضها ببعض، كما تلتقي أيضاً بأجنحة أخرى متفرعة من سلسلة زاغروس العظمى التي تدعى هنا بجبال (هه ورامان - هورمان) وأعلى قمة فيها تبلغ 9800 قدم. وتشكل مجتمعاً مائياً عظيماً بين حوضي سيروان والزاب. وبنتيجة اختفاء هاتين السلسلتين يتسع الوادي الذي تقع فيه مدينة السليمانية وهو بين جبلي (ئه زمر وبه رانان) من الجهة الجنوبية الغربية إلى سهل شهرزور الرحيب، ليحدّه من الجنوب الغربي (به رانان) كالسابق، ويعلوه من الشمال الشرقي جدار (هه ورامان) المهيب الذي يرتفع عن مستوى السهل تحته 6500 قدم إلى مسافة أربعة أميال مستمرة من نقطة شرق خورمال حيث القمة ما تزال أقل ارتفاعاً من أعلى قمة فيه بمقدار 1400 قدم.

إن اتجاه المياه فيما وراء قره داغ، إما ينصرف إلى نهر سيروان وإما إلى الزاب وكلاهما من روافد دجلة. خلا أن (ته ينال) الذي يروي القسم الأوسط من الوادي الأول يخترق خانقاً ضيقاً هو (ده ربه ندى باسه ره - دربند باسره) ويجري خلال جداره الجنوبي ثم يندفع جنوباً نحو السهول ماراً بطاووق (حيث يسمى طاووق چاي) وبعدها يصب فيه جعفران صغيران ينبعان من سفوح جبال المنطقة أولهما (خاصة چاى - خاسه) الذي يمر بمدينة كركوك من الغرب، وثانيهما (ئاوه سپى = آوسپى) الذي يمر بطوز خورماتو من الشرق. وهذه المياه الثلاثة المجتمعة (تسمى الآن بنهر العظيم) تجري خلال (حمرين) لتصب في دجلة شمال بغداد بمسافة سبعين ميلاً.

ونهرا سيروان والزاب لهما بعض أهمية اقتصادية. والفرع الرئيس من سيروان يصدر من الشرق بعيداً، عند خانق (أسد آباد) الواقع على طريق كرمنشاه - همدان ثم يخترق الجبال بكثير من الالتواء والتعرج. ثم يشق طريقاً له في السلسلة العظمى

ما بين (هه ورامان) والقسم الثاني في الجنوب الشرقي المسمى شاهو (أعلى قمة فيه تبلغ 10757 قدماً)[1] وإلى جنوب حلبجة بحوالي 20 ميلاً يكون خطه المتوسط جزء من الحدود الدولية. وما يكاد يدخل العراق حتى يصب فيه (تانجه رو = تانجرو = نهر التاج) قادماً من وادي السليمانية وشهرزور، وبعده يدخل جبال (به رانان) وامتداد (خوچسك) إلى الجنوب الشرقي. ثم ينحرف إلى الجنوب الغربي ليكون حدوداً إدارية بين السليمانية وكركوك من ضفته اليمنى، وبين خانقين من ضفته اليسرى. وينقل مجراه الخشب بأطواف من كردستان. ويروي ما بعد جبل حمرين (حيث يسمى نهر ديالي) أراضي شاسعة بإعطاء مياهه أقنية ري ذات نظام دقيق ويصب في دجلة على بعد 18 ميلاً جنوب بغداد.

والزاب أيضاً يصدر من إيران. ومنابعه هي سفوح زاغروس الشرقية جنوب بحيرة أورمية، ويجري زهاء ثمانين ميلاً بمحاذاة الجبال. ويسمى أولاً (لادويين) ثم ينقلب إلى چمى كه لوي[2]. وينحرف فجأة نحو الشمال الشرقي ويشق له طريقاً ملتوياً أفعوانياً خلال سلسلة جبال الحدود ويدخل العراق بالقرب من (قه لادزه = قلعة دزه) ومن ثم يخترق (ده ربه ندى ره مكان = دربندى رمكان) داخل جبل (كوركور - ئاسوس) وامتداد جبال (كيوه ره ش) ثم ينحرف نحو الجنوب ويدخل (قه ره سه رد) وامتداده (كوسرت) قرب (دوكان) وبدخوله أراضي منحدرة ينحرف غرباً ثم ينعطف نحو الجنوب الغربي ويترك (آلتون كوبرى) المدينة الجزيرة، ليصب في دجلة فوق نقطة (الفتحة) بعشرين ميلاً تقريباً (الفتحة هو الموضع الذي فيه يفتح دجلة طريقاً له في جبل حمرين إلى شمال بغداد بمسافة 200 ميل). هذا وإن حوض الزاب الأسفل كان في وقت ما أيضاً يغذي نظام ري قديم غرب كركوك تم إحياء قسم منه مؤخراً. ولقد كان الزاب دوماً شرياناً حيوياً للنقل والمواصلات، لا لأطواف أفلاق الخشب وحدها بل الأكلاك أيضاً، وهي أطواف

(1) يطلق الكرد أحياناً هذا الاسم على كل السلسلة.

(2) والأصح أن يقال (كالو): أما كلمة (كله لوي) فهي صيغة مصحفة.

مشدودة بقرب منفوخة تنقل الحبوب وغيرها من محصولات البلاد الشمالية بأرخص ما يمكن.

تقع مدينة السليمانية على بعد (77)ميلاً شرق كركوك فوق هضبة يبلغ ارتفاعها (2750) قدماً. وفي العام 1919 كان الوصول إليها يتم بطريق واحدة فقط صالحة لسير العجلات تمتد من كركوك في أرض متعادية حتى چمچال وبعدها تخترق قره داغ في (دربندى بازيان) وتصعد جبل (به رانان) من شعب (طاسلوجة) إلى حوض (تانجه رو = تانجرو). وفي المواسم الجافة تتمكن السيارات من العبور إذا كانت مزودة بمعدات جيدة مثل سيارة الفورد التي هي من طراز (تن ليزي Tin Lizzie) فتقطع الطريق إلى الوادي وبعدها تقطع (45) ميلاً أخرى منه عبر شهرزور لتبلغ حلبجة. وتوجد مسالك للحيوانات هامة كالطريق التي تصل خانقين بكفري مارة (بإبراهيم خانچي) وهي أرض وعرة. ثم تصعد قره داغ وبه رنان وتخترقهما بممري (سه گرمه وگله زه رده) ثم إلى السليمانية. وبعض القوافل تتجر مع إيران عن طريق حلبجة وبينجوين أو عن طريق (ماو هت). ويوجد إلى الشمال، طريق قافلة مطروق كثيراً، يصل كوي بكل من رانية وقه لا دزه وسه رده ست الإيرانية[1].

في هذين اللواءين تنقلب الأحوال الجوية والمناخية تقلباً عظيماً ولا غرو، بحسب الوصف الأرضي. ففي الجنوب تقارب حرارة الصيف المحرقة، درجة حرارة بغداد حتى في الوديان الجبلية قد تبلغ درجة الحرارة حداً يضيق بها المرء ذرعاً في مرتفعات لا تزيد عن 5000 قدم. وتظل الثلوج تغطي معظم الجبال ثلاثة

(1) بعد العام 1919 مهدت الطريق الرئيسة من كركوك إلى حلبجة وزفتت وأنشئت طريق تصلح على مدار السنة تبتدئ من السليمانية متجهة نحو الشمال الغربي حتى (دوكان) على الزاب. ويقطع النهر فوق عبارات ثلاثة متتالية إلى قه لادزة. هذه الطريق وغيرها من التطورات التدريجية، يضاف إليها مد السكة الحديد حتى كفري ثم إلى كركوك ثم إلى أربيل قد جعلت باب الاختيار مفتوحاً أمام المسافر من حين إلى حين طبعاً. إلا أن التركيز العام التجاري ظل على الطرق المنتهية ببغداد أو المبتدئة بها.

أشهر من السنة ولا يذوب في سفوح الجبال التي تبقى في الظل على مدار السنة. وأما موسم الأمطار سواء في الجبال أو السهول فيبدأ من تشرين الثاني ويستمر حتى نيسان. وليس من النادر أن تسقط زخات مطرية رعدية وراء قره داغ في عز الصيف. والمياه غزيرة في المنطقة عموماً، وهي مياه الينابيع والنهيرات الجبلية. وقد تنقطع الطرق والمواصلات غب مطر شديد أو فيضان بعد زخات مطر قوية أو تساقط الثلوج. ولما كانت السيطرة المائية مفقودة فإن بعض السهول كسهل شهرزور وبيتوين تمتلئ بالمستنقعات وتعشعش فيها الملاريا لتغدو وباء. وأما عن الربيع فهو كما ذكرت. فصل رائع آخاذ في أية بقعة. وأما الخريف فهو بعكسه تماماً. والسبب في هذا أن الصيف هنا (وهو أقصر في جنوب العراق) يموت ببطء شديد ويخلف الريف أجرد أقرع أغبر إلى أن يسقط الوسمي. ويستثنى من هذه الأرض القريبة من الماء، والمرتفعات الشاهقة، ويكاد أول المطر لا يكون متوقعاً ولو بكميات قليلة حتى أواسط تشرين الأول. وقد يتأخر إلى نهاية تشرين الثاني، أو إلى كانون الأول. ومناخ السليمانية معتدل (ربما خلافاً للقاعدة) بينما هي تحتل موضعاً وسطاً سواء في ارتفاعها أو في موقعها. وأنا لا أملك إحصاءات كاملة بتقلبات الجو، لكني اكتشفت قصاصة دونت فيها ملاحظات جوية هناك في سنة 1920، ورد فيها أن سقوط الأمطار بلغ 32,8 أنشاً في العام، ودرجة الحرارة المنخفضة إلى حد الانجماد في أيام قليلة من شهر شباط، أما أقصى درجة بلغتها في الصيف فلم تصل حتى إلى 100 درجة فهرنهايت (38 مئوية تقريباً).

واقتصاديات المنطقة تعتمد أساساً على الزراعة والرعي، والغلة الشتوية الرئيسة هي القمح والشعير. ويمكن تصدير فائض صغير منهما في سنوات الخير ويصر القرويون في الصيف على زراعة الرز حيث يكثر الماء، لاستهلاكهم المحلي مع عدم تشجيع الحكومة، لأن زراعته تؤثر تأثيراً كبيراً على الصحة بسبب الملاريا التي يتكاثر بعوضها حملة مكروبه في مستنقعات الرز. والتبغ هو أهم محصول زراعي ذي قيمة تجارية وينتجون منه سنوياً مقدار ثلاثة آلاف طن. وأما المحصول

الأقل شأناً فهو العدس والدخن والذرة. والقبائل الرحالة تملك الكثير من قطعان الضأن والماعز، ومن المنتوجات المحلية الأخرى الصوف وصمغ الكثيراء (كه تيره) gum tragacanth والزبيب والجوز والعفص وثمة تجارة مرور (ترانزيت) محدودة مع إيران يتم عن طريقها دخول السجاد والسماورات والفخاريات (الصيني) والأصباغ فضلاً عن المنتوج المحلي الذي سبق وصفه. وبغداد تكاد تكون السوق الوحيدة لهذه البضائع والمنتوجات كلها ولم يطرأ التقدم الكبير في صناعة النفط (مركزها كركوك) إلا بعد عدة سنوات من الفترة التي أكتب الآن عنها.

والمنطقة كلها غنية بذكريات وعلاقات الدول الغابرة التي نوهت بها عرضاً في الفصل السالف. كما تضم الآثار الطائلة عن الشعوب البدائية التي سيطرت عليها تلكم الدول أو تشربتها. ومن المواقع الكثيرة التي اهتدى علماء الآثار إلى هوياتها، مدينة كركوك الحالية، فقد ثبت أنها مدينة (أرابها = Arrapha) التي ازدهرت في الألف الثانية ق.م. وعلم أن منطقة السليمانية إنما هي إقليم (زاموا zamua) الذي ورد ذكره في المآثر الآشورية. وعلم أن (بيره مه گكروون)، هو جبل (Nisir نيسير) إذ ورد في ملحمة كلكامش البابلية الشهيرة إن فلك البطل كلكامش قد أرسى عليه بعد الطوفان. وتبين أن ده ربندي بازيان ما هو إلا شعب (بابيتي Babite) الذي اجتازه آشور ناصربال في غضون حملاته العديدة على (زاموا) وعلى منطقة قره داغ التي كان يقطنها شعب (اللولو Lulu) أولئك الذين أخضعهم (نرام سن لاكدى) وأن جبل (كه لاز) هو (كولارا = Colara) (إن صح ذلك فبقاء الاسم إلى يومنا هذا أمر يلفت النظر) الذي يسمى به جزء من سلسلة (كوركور - ئاسوس) ويقع في منعطف الزاب الحاد بالقرب من (دره بندى ره مكان). وأما قرية خورمال التي تبعد ثمانية أميال إلى الشمال الشرقي من حلبجة فهي تتنازع الموقع مع تل (ياسين تبه) الكبير على (تانجه رو) جنوب شرقي السليمانية بمسافة 18 ميلاً يكون أحدهما موقع المدينة الساسانية (نيم راه = مدينة نصف الطريق) بين قطيسفون

وبين بيت النار المشهور المسمى (شيز) في أذربيجان. كما ثبت أن شهرزور هي عاصمة الدولة الكردية التي ازدهرت في القرون الوسيطة والمعروفة بهذا الاسم نفسه[1] ويرى في أرجاء السهول والوديان تلول مصطفة لا تحصى تنتظر معول المنقبين، ليكشف أسرارها ودفائنها. وسأجد لي فرصة من السياق لأصف بعض المنحوتات الصخرية والآثار التاريخية ذات الأهمية الكبيرة.

كانت أوساط سني القرن التاسع عشر عصر الاستكشاف الذهبي في الشرق الأوسط، ومعظم عمالقة المستكشفين في تلكم الأيام كانوا من الإنكليز. ويوجد صنف معين من الرحالة شائع جداً في أيامنا هذه، ما أن يجد أحدهم نفسه وقد ابتعد بمسافة شاسعة عن طريق رحلته المعين إلا ويرفع عقيرته صائحاً بأنه أول أوروبي وطئت قدمه أرض كذا، وموضع كذا. إن تحقيقاً صغيراً قد يوضح له كم هي سخيفة رحلته، وكم هي باطلة ادعاءاته. ويصاب المرء بالدهشة حين يتبين مدى المجاهل والمواقع البعيدة التي نفذت إليها طلائع روادنا المغامرين في أحوال وظروف شاقة للغاية. قبل مائة عام أو أكثر، كان بعضهم ذوي ثقافة عالية ومواهب فذة، غرقوا حتى الأذقان في علوم الأوائل وتاريخ الغابرين، حتى بدا وكأن أدمغتهم الناشطة - وهم ينقلون عصا الترحال - تكاد تنشق بما اكتظت من المسائل الجغرافية التي بحثها كتاب اليونان واللاتين الأقدمون. وكانت مدوناتهم مصدر لذة لا ينضب معينها وأنا شخصياً كنت أشعر بسعادة وفرح غامر كلما رأيتني أتعقب في رحلاتي، تلك الطرق التي سلكها (ريج ولايارد و. ولنسن) يفوقان ما أشعر به حين أجدني في بقعة لم يطأها من قبل أي رحالة أوروبي. وإلى العام 1914، ومع كثرة عدد الزائرين البريطانيين والأجانب لأنحاء كردستان التي هي الآن في تركيا

---

(1) عن التسميات القديمة، انظر بصورة خاصة: (س. أ. سبايسر S.A. Speiser) «كردستان الجنوبية في حوليات آشور ناصر بال Annals of the American Schools of Ariental Research مجلة «حوليات المدارس الأمريكية في الأبحاث الشرقية، مجلد 8 سنة 1926 - 1927، وقد رجع في موضوعه هذا إلى مصادر معتمدة».

وإيران وأقصى شمال العراق، فمن النادر أن نجد بينهم من نفذ إلى أحشاء المناطق المتعذرة الواقعة بين خط قره داغ و(هيبة سلطان) إلى الجنوب الغربي وبين الحدود الإيرانية على الشمال الشرقي، وقاموا بتسجيل وقائع رحلاتهم، إنهم والحق يقال قليلون إذا قورن عددهم بالصنف الأول من الرحالة. ولعل ما صدهم عن هذا أنه لم يكن في عهدهم أقليات مسيحية مضطهدة أو ذات طموح سياسي في هذا القسم من الإمبراطورية العثمانية. ومن ثم لا بعثات تبشير فيها ولا قناصل[1].

وسأعمد في كثير من الأحيان إلى التنويه برحلات الرواد الأولين الذي فعلوا ما فعلت ولا أظنني أفعل خيراً من أن أختم هذا الفصل بإيراد قائمة بسبعة عشر رحالة بريطانياً تمكنت من متابعة آثارهم القلمية. مع تعليق مختصر على ظروف كل رحلة والمسالك التي تعقبوها[2]:

الملازم وليام هيود William Heude: من مؤسسة (مدراس) العسكرية (كتابه: رحلة بحرية إلى شمال الخليج الفارسي (العربي)، ورحلة في البلاد التي تليها، من الهند حتى إنكلترا سنة 1817) A voyage up the Persian Gulf and a journey overland from India to England in 1817 - London 1819، رحل من بغداد برفقة ساعي بريد حكومي (تتر) بطريق تل عباس وقره تبه، إلى كفري، ثم عقب طريق (إبراهيم خانجي) وشعب سه كرمه، وبلغ السليمانية في 9 آذار 1817، ثم وادي

(1) إن المجهودات التبشيرية - خلافاً لمجهودات المبشرين الاجتماعية - في كردستان كانت موجهة إلى المسيحيين المواطنين والأرمن والأثوريين، لا إلى الأغلبية الكردية المسلمة. ومن مختلف الإرساليات التبشيرية التي عملت في هذا الحقل كانت البعثة التبشيرية التي أرسلها رئيس أساقفة كانتربري، الوحيدة التي حاولت تثقيف الأهالي المسيحيين وتنقية حياتهم الروحية ضمن حدود وطقوس الفرع القديم للكنيسة المسيحية الذي يدين بالطاعة إلى بطريرك الشرق لا أن تحاول ضمهم إلى مذهبها.

(2) وبهذه المناسبة، أنوه شاكراً - بالمساعدة التي تلقيتها قبل عدة سنوات من السير أرنولد ويلسن، أثناء ما كان يشتغل في تأليف كتابه بلاد فارس، كما تيسر لي سجل تاريخي كامل بعدئذ من مقالة مينورسكي في دائرة المعارف الإسلامية عن مدينة السليمانية.

سورداش ودوكان وكوي وأربيل والموصل، ويبدو أنه لم يبق أكثر من ليلة واحدة في كل موضع وقد شاءت الصدف أن باشا السليمانية البابانى كان غائباً عندما مرّ الرحالة بالمدينة: وكان يصف كل مرحلة عن طريقه باختصار ويذكر عموماً أسماء لمراحل مع تعليقات زهيدة تتراوح بين التقدير والانتقاد حسبما كان يستقبل.

السير روبرت كيربورتر الرحالة والرسام (كتابه: رحلات في جورجيا وإيران، وأرمينيا وبابل القديمة وغيرها: طبع في لندن Travels in Georgia, Persia, 1818 Armenia Ancient Babylonia, etc. - London 1822 ترك بغداد في الثاني من كانون الأول 1818 وتعقب الطريق المعروف إلى كفري ثم إلى طاووق وكركوك وشعب بازيان حتى السليمانية «فمكث فيها من 12 - 13 كانون الأول» ثم عبر شعب قه يوان مخترقاً ئازمر - قره سه رد حتى اجتاز جسر قه شان وماوهت، ثم قطع الزاب ثانية وبلغ (سه ر دشت) وصاوج بولاق وتبريز.

كلوديوس جمس ريج Claudius James Rich الكلي الاحترام مقيم شركة الهند الشرقية في بغداد. (قصة رحلة في ربوع كردستان): لندن 1836 نشرتها أرملته Narrative of a Residence in Kurdistan, London 1836، قبل دعوة من محمد باشا بابان، فغادر بغداد في نيسان سنة 1820 مع زوجه وبطانة فخمة تتألف من حرس المقيمية الهندي وعدد كبير من الخدم. وسلك طريق (دلى عباس) - طوز خورماتو - طاووق - ليلان - چمچمال. حتى بلغ السليمانية في 10 أيار ليغادرها في 17 تموز باحثاً عن طقس أبرد من طقسها في الجبال الواقعة إلى الشمال الشرقي. وانتهت به هذه الدورة إلى (بنجوين) بعد عبوره جبل (سروچك)، ثم إلى (مه ريوان) ثم إلى (سنه) و(يانه) في إيران وقفلوا راجعين بطريق (ئالان) و(شارباژير) فبلغوا السليمانية في 15 أيلول، وفي 12 تشرين الأول استأذنوا دعيهم وعادوا بطريق ده ربندى بازيان عبر شوان فبلغوا (آلتون كوبري) ومنها عقبوا الطريق الرئيسة فمروا بأربيل واسكى كلك ليبلغوا الموصل في 31 تشرين الأول. وبقوا فيها أشهر الشتاء الأربعة. ثم تركوها في 3 آذار سنة 1821 وسافروا نهرا بالكلك إلى

بغداد. كان (ريچ) واسع الإحاطة بآثار الأولين ورائداً مستكشفاً لا يعتريه وهن، ونقادة دقيق الملاحظة لا يشق له غبار. ورحلته هذه منجم قيم من المعلومات الجغرافية والتاريخية والأرخيولوجية عن كل البقاع التي ارتادها.

المبشر الراهب (أ. ن. غروفز A.N. Groves من بلايموث) (تعليقات السيد أنتوني أ. غروفز المبشر أثناء رحلة له من لندن إلى بغداد، لندن 1831 Journal of - Mr. Anthony N. Groves, Missionary, during a journey from London to Baghdad - London 1857. وهي من ضمن كتاب ألفته زوجته عنه بعنوان (مذكرات المرحوم أنتوني نوريس كروفز: الطبعة الثانية لندن 1857 Memoir of the late Anthony Norris Groves رحل إلى تبريز من روسيا والقفقاس ثم قصد منها إلى السليمانية عن طريق (بانه) فوصلها في تشرين الثاني 1829 وتركها إلى كفري (ربما عن طريق سه گرمه) ولم يخصص لرحلته داخل بلاد كردستان غير ثلاث صفحات أو أربع.

النقيب (كابتن) ر. مينيان من مرتبات جيش بومبي: (كتابه: رحلة شتاء.. داخل كوردستان، لندن 1839 - Captain R. Mignan¤ Awinter: Journey into Kurdistan London سافر عائداً من الإجازة مع زوجه إلى القفقاس ومنها إلى تبريز في نهاية آذار سنة 1830 إن رحلته خلال كردستان بلغت به ميادندواو = مياندواب، بانه، السليمانية (تركها في 14 نيسان)، سه گرمه (قال إنها ده ربه ندى بازيان ولكن المقصود حتماً هو سه گرمه)، إبراهيم خانچي، كفري... ووصفه الأهالي والبلاد كان ذا طابع عام، ولم يأت إلى ذكر الأشخاص والمواضع إلا ما قل. وكان قد اتخذ الطريق نفسه في رحلة سابقة إلى بلاده قبل سنتين بدون زوجه ولا شك.

جيمس بيللي فريزر James Baillie Frazer (كتابه: رحلة في كردستان وما بين النهرين Travels in Kurdistan, Mesopotamia etc. - London 1840)، وغيرها: بمناسبة عودته من بعثة دبلوماسية إلى إيران التي سبق له الإقامة فيها. والقيام بجولات واسعة في أرجائها. غادر تبريز في 11 تشرين الأول 1834، وارتاد سلماس وأورميه وأشنو وصاوج بلاغ وسه رده شت. ثم عقب الطريق الذي سلكه (كيربوتر) عكسياً

فبلغ السليمانية في 31 تشرين الثاني، ومنها إلى قرية قره داغ، وبلغ بغداد بطريق القوافل المعهود مجتازاً (سه گرمه). ويكاد (فريزر) يكون الآن منسياً، ومعجم (سير الشخصيات الوطنية) يبخس من قيمة مكتشفاته. وهو والحق يقال رحالة خبير نافذ البصيرة في الطبوغرافيا، وكاتب محترف ووصفه الناس والأمكنة ما زال يجتذب اهتمام المهتمين بالأبحاث الكردية كثيراً.

المقدم ج. شيل Lt. Col. J. Sheil نائب رئيس البعثة العسكرية البريطانية إلى إيران، ثم الوزير المفوض البريطاني في طهران (ملاحظات عن رحلة من تبريز إلى... السليمانية... خلال كردستان ما بين تموز وآب سنة 1836) وهو بحث نشره في المجلد الثامن من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بتاريخ 1836 Notes on a journey from Tabriz through Kurdistan to Suleimaniyah in July and August 1836. انطلق مما لا يزال كردستان تركيا وبلغ زاخو، ثم إلى عقرة ومنها إلى الزيبار ثم إلى باريكة وأربيل وكركوك والسليمانية، وأسهب الوصف في القسم الأول من طريقه إلا أنه بدأ يميل إلى الاقتضاب شيئاً فشيئاً لينتهي بهذه العبارة التي يورث اقتضابها الألم حقاً «ومن السليمانية اتجهت في رحلتي إلى الشمال، والشمال الشرقي وقطعت حوالي مائتي ميل في طريق معروف لأبلغ سه رده شت ولاهيجان، ومن صاوج بلاغ حتى تبريز بطريق (مراغه)...».

الرائد (الميجر) هـ.س. راولنسن Major H.C. Rawlinson من مرتبات جيش بومبي (تعليقات على مسيرة من زهاب.. إلى خوزستان) في عام 1836 Notes on a march from Zohab to Khuzistan... in the year 1836 J.R.C.S., Vo. IX, 1839 نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، المجلد التاسع، 1836، و(بحث عن به بكولى Note on Paikuli) نشر في المجلة نفسها بتاريخ 1868، أثناء ما كان آمر اللواء الگوراني التابع للجيش الإيراني، قام بزيارة لمناطق (شميران وهورين - شيخان) في خانقين عام 1836 وبعد ذلك بثماني سنوات عندما غدا مقيماً لشركة الهند الشرقية وقنصلاً عاماً، قام بالرحلة التي وصفها فيلكس جونز (سيأتي ذكره) وبعد

افتراقه عن (جونز) في السليمانية واصل رحلته إلى قره داغ ثم انعطف نحو الجنوب الشرقي ونزل الوادي المسمى بهذا الاسم ليفحص المنحوتات الآشورية في به يكولى[1] قبل أن يعقب الضفة اليمنى لنهر سيروان حتى (قه لاى شيروانه) وهنا عبره ووصل خانقين. إن مقاله القيم في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية يقدم وصفاً مفصلاً علمياً لجغرافية إقليم زهاب وسكانه.

و. ف. ينزورث W. V. Ainsworth، كتابه: رواية شخصية لحملة استكشاف الفرات A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, London 1888 كان طبيباً وجيولوجياً من أعضاء بعثة العقيد (چينزني Cherney) لاستكشاف الفرات وبقي في البلاد بعد أن عاد باقي أعضاء البعثة، خرج من بغداد في 1 شباط سنة 1837 قاصداً السليمانية معقباً الطريق المعروفة خلال كفري وكركوك، وبلغ المدينة في 14 شباط. ومكث فيها حتى 17 منه حيث غادرها إلى الموصل سالكاً الطريق التي عقبها (هيود). وكان معظم اهتمامه منصرفاً إلى الجغرافية التاريخية.

الكوماندر فيلكس جونز Felix Jones من ضباط البحرية الملكية الهندية، كتابه وقائع رحلة إلى حدود تركيا وإيران خلال جزء من كردستان. بومبي سنة 1857 Narrative of a journey to the frontier of Turkey and Persia through a part of Kurdistan - Bombay 1857. غادر بغداد في 19 آب 1844 مع الميجر (راولنسن) سالكاً طريق القوافل الرئيس إلى كرمنشاه وبيستون. وفي رحلة العودة انحرفا عن هذا الطريق عند (هارون آباد) واتجها إلى الشمال الشرقي يقصدان (زهاب) عبر أراضي (گوران) ومن زهاب إلى حلبجه والسليمانية (25 - 29 أيلول) خلال (شميران). واضطره المرض إلى مفارقة راولنسن والعودة إلى بغداد بأقصر طريق وهو طريق (سه گرمه)، إن كتابه يزوّد القارئ بأدق وصف للمسالك التي عقبها. ويبحث في الجغرافية، وفي أمور القبائل بكثير من التفاصيل، وكثير من الرجوع

(1) انظر الفصل الثاني عشر من الكتاب.

إلى الكتاب الأقدمين. وسياحته هذه كانت لغرض محدود، هو جمع المعلومات للجنة الحدود التركية الفارسية التي كانت تعقد جلساتها في أرضروم آنذاك (انظر الفصل العاشر).

النقيب (كابتن ف. ر. ماونسل F. R. Maunsell) من صنف المدفعية الملكية (مقال بعنوان «كردستان» في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (المجلد 3 سنة 1894) يصف في صلب مقاله هذا رحلة من أرضروم في 26 سنة 1892، عبر كردستان التركية إلى جزيرة ابن عمر، ومنها إلى بغداد نهرا بالكلك. ثم إلى (إبراهيم خانچي) والسليمانية عن طريق (قصر شيرين). إن الخريطة الملحقة بالمقال تبين رحلاته الواسعة في كردستان التركية والإيرانية فضلاً عن رحلات أخرى إلى (دوكان ودربندى ره مكان وقه لادزه ووادي شاوو)، ورواندوز وحرير والزيبار والعمادية ودهوك والموصل وأربيل وكوي) وقد قام برحلاته هذه عام 1888 ووضعت في نشرة رسمية بمجلدين طبعا في سملا - الهند عام 1890 بعنوان: استطلاعات في بلاد ما بين النهرين وكردستان وشمال غرب إيران ولرستان Reconaisances in Mesoptania, Kurdistan, North West Persia and Luristan - Simla 1890.

النقيب مارك سايكس Mark Sykes (كتابه دار الإسلام لندن - 1904) قام برحلة كتابه هذا في سنة 1902 (وكان قبل ذلك قد «أنجز» قطع الطريق السلطانية من الموصل إلى كركوك إلى بغداد بانحراف واحد نحو الشرق - من أربيل إلى كوي). دخل من جزيرة ابن عمر إلى ما يدعى الآن بالعراق، من نقطة قريبة إلى زاخو ثم توجه إلى العمادية وعقرة والموصل وشرقاط ومخمور وآلتون كوبري وكركوك والسليمانية (أقام فيها تسعة أيام ولم يذكر تاريخ الإقامة) ودوكان، وكوي، ورانية، وشاوور، وشعب بيجان، ورواندوز، وميرگه سور، وبارزان، وزيبار، ثم العمادية مرة أخرى ليخرج إلى وان وارارات. وقد اهتم بالإدارة العثمانية وجمع معلومات كثيرة عن القبائل، وإذا كانت ناقصة بسيطة فهي مصدر هام لمعارفنا عن كثير من أنحاء كردستان استفدنا منها عند دخول تركيا الحرب سنة 1915. إن أسلوبه الساخر

الدقيق النكتة يزيد من طلاوة رحلته التي كانت بحد ذاتها أثراً هاماً من آثار الاستكشاف.

النقيب برترام ديكسن Bertram Dickson من المدفعية الملكية مقاله: رحلة في كردستان Journey in Kurdistan نشره في المجلة الجغرافية المجلد 35 سنة 1910. كان نائب القنصل البريطاني في (وان) يظهر أن المقال مستند إلى الرحلات التي قام بها سنة 1909، ولم يذكر فيها طريقاً وهي بصورة عامة وصف رائع موجز لكردستان ككل، ومن ضمنها منطقة السليمانية.

ي. ب.: صون E. B. Soone كتابه (خلال ميسوبوتاميا وكردستان وما بين النهرين متنكراً) لندن 1912 .Through Mesopotomia and Kurdistan in disguise بدأ رحلته سنة 1909 متنكراً بسمة مواطن إيراني وبعد أن أقله الكلك من ديار بكر إلى الموصل فوق دجلة، سافر إلى أربيل وكركوك والسليمانية لا يبقى في موضع واحد أكثر من يوم أو يومين، وقلما ذكر تاريخاً، لكن من الثابت أنه مكث أسابيع كثيرة في حلبجة، ومنها قام برحلة واحدة إلى (بيارة) في (هه ورامان) ومكث في السليمانية في رحلة العودة مدة أطول مما قضاه هناك في رحلة القدوم ولعله بقي أسبوعين. ثم رحل إلى آلتون كوبري وعن طريق كركوك ومنها استقل كلكا على دجلة والزاب حتى بلغ بغداد. جمع (صون) أكداساً من المواد التاريخية حول البلاد التي ساح فيها. ولقد اجتمعت تجاربه السابقة عن المناطق المجاورة لكردستان الإيرانية إلى معارفه باللغات المحلية إلى نجاحه في التنكر تحت شخصية المسلم. لتسم المعلومات التي جمعها ودققها بميسم المراجع الموثوقة الهامة.

النقيب ت. س. و. فاول T.C.W. Fowle من الكتيبة الأربعين - الجيش الهندي كتابه: رحلات في الشرق الأوسط، لندن 1916 Travels in the Middle East قام برحلة من كفري إلى كركوك إلى السليمانية، ذهاباً وإياباً في عام 1910 على الأرجح مستخدماً الطرق الرئيسة، وقد عبر قره داغ في طريق العودة ولم يذكر قط

أسماء مواضع غير ما أثبتنا، ولا أسماء أشخاص ولا تواريخ وذكر عن السليمانية عبارة واحدة فحسب هي الآتية «إنها تختفي عن الأنظار في غوار واسع من الأرض» و... «ووجدت أهلها منصرفين جميعاً إلى التحدث بلغتهم الكردية البربرية، ولم أجد شخصاً واحداً يفهمني حين خاطبتهم بالعربية» ويمتاز كتابه بالرشاقة والمرح وإشراق العبارة إلا أنه خال من القيم المصدرية.

ج. ي. هوبارد G.E. Hubbard من دائرة قنصلية الشرق الأدنى (ليفانت) البريطانية (كتابه: من الخليج إلى أرارات - أدنبرة، 1916: From the Gulf to Ararat) كان سكرتيراً للبعثة البريطانية لدى لجنة الحدود التركية - الإيرانية سنة 1914. إن هذه الحدود التي تبلغ (750) ميلاً طولاً من مندلي حتى أرارات، تمر كلها خلال كردستان. والكاتب إذ يقدم وصفاً تاريخياً ملذاً للمجهودات التي بذلت في سبيل حل هذا النزاع الدولي بين الإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية لا ينسى أن يقدم صورة ممتازة للبلاد وسكانها.

العقيد غ. هـ. د. رايدر G.H.D. Ryder رئيس قسم المسح في اللجنة المنوّه بها آنفاً، ثم مدير المساحة العام في الهند. (مقاله: تعيين الحدود التركية الإيرانية في 1913 - 1914. نشر في المجلة الجغرافية المجلد 65 سنة 1925) يتضمن بحثه موجزاً لعمل اللجنة[1].

ولست بقادر على تفسير للثغرة التي دامت (44) سنة بين روالنسن وجونز عام 1844 وبين ماونسل عام 1888.

وأول سائح أوروبي إلى هذه المنطقة، توصل إلى اسمه (إن كان أوروبياً حقاً) هو الراهب فيديليس Fidelis من رجال بعثة التبشير الكرملية في ما (بين النهرين) والذي عاد إلى بغداد سنة 1749 من «... قه لاچوالان حيث قام بأعماله الرسولية

(1) أ. ت. ويلسن: (الذي كان وكيل المندوب البريطاني، ثم أصبح مندوباً أصلياً) يشير باختصار إلى عمل اللجنة في كتابه «جنوب غرب إيران» - لندن 1941.

و... وجد هناك عدداً من الأسر الأرمنية التي كانت قد هربت من همدان، واستطاع أن يهدي أسرة واحدة إلا أنه لم يفلح مع الأسر النسطورية التي كان معظمها متمسكاً بمذهبه مقيماً على ممارسته، وقد أحرز بعض النجاح في كركوك أيضاً». هـ. غ. جيك H.G. Chick تاريخ الكرمليين في إيران A chronicle of the - Carmelites in Persia - London 1939 - لندن 1939:

ولم أحاول تنظيم قائمة بالسائحين الأوروبيين غير البريطانيين على أني سأذكر أسماء خمسة ممن سأرجع إلى آثارهم في مظانها[1] ومن الصدف أن أول ثلاثة منهم يملأون الثغرة الزمنية في القائمة الإنكليزية.

أ. كليمان A. Climent: سياحة في أقاليم كردستان من كركوك إلى رواندوز: مذكرات جمعية جنيف الجغرافية - لو كلوب - Excursion dans le Kourdistan 1886 Meridional de Kerkout a Ravandouz, (Le Globe). Memoires de la société de Geographic de Geneva.. سكن بغداد عدة سنين، تعرف خلالها على عدد من الشخصيات الكردية البارزة التي كانت تأتي لزيارة آخر الأمراء البابانيين في منفاه. وإن رحلته التي قام بها مستفيداً من هذه العلاقات وما تسبغه من حماية بلغت به كفري ثم كركوك ثم السليمانية عن طريق بازيان (تموز 1856) ومن ثم قام برحلتين، الأولى إلى بنجوين مصعداً (سروچك) وبعدها ارتاد طول الحدود من الشمال الغربي خلال شيوه كه ل حتى (آلان) ثم عاد بطريق قه شان وشعب (قه يوان) في جبل (ئه زمر) حتى السليمانية. وكانت رحلته الثانية في (سورداش) ومنها إلى دوكان وكوي وباليسان ورواندوز والحدود المجاورة لرايات وسيده كان وگه لي رواندوز وأربيل ثم إلى خانقين بالطريق العام.

العقيد ي.ج. جيريكوف Colonel E. J. Chirikov Putevoyzhurnal (1849 - 1852)

(1) إن كان أي أمريكي قد نشر رحلة له في الإقليم موضوع البحث قبل سنة 1915، فلا علم لي به حقاً.

كان المندوب الروسي في لجنة الحدود التركية الإيرانية في ذلك الزمن. وقد تنقل بالطبع على طول مناطق الحدود.

س. دي كوراب برزيزوفسكي C. de Korab Bazezowski «رحلة من السليمانية إلى العمادية في 1869»، مجلة الجمعية الجغرافية في باريس، كتاب مسلسل، مجلد 13 سنة 1892 Itineraire de Souleimanieh a Amadiah, 1869, Bulletin de la société de Geographie de Paris. كان مديراً للغابات في أيام مدحت باشا والي بغداد. سافر سنة 1869 إلى السليمانية بطريق كفري وسه گرمه ومنها توقل جبل بيره مه گرون وسافر إلى (شارباژير) بونجوين ومه رگه قبل أن يذهب إلى رواندوز والعمادية بطريق لا يعطى أي تفاصيل عنه.

ي. هرتسفيلد E. Herzeld عالم الآثار الألماني Die Aufnahme des sasandischen Denkmals von Paikuli في أعمال المعهد العلمي البروسي - 1914، رحل في حزيران 1911 من قصر شيرين إلى (هورين) وبعد اجتيازه سيروان قرب (بانى خيلان) وصل به يكولى ثم قره داغ والسليمانية وچمچمال وكركوك وفي حزيران رحل من كفري إلى إبراهيم خانچى وبه يكولى وبانى خيلان وقصر شيرين.

ف. مينورسكي V. Minorsky، كان المندوب الروسي في لجنة تثبيت الحدود التركية الإيرانية لعام 1914 فهو زميل أ.ت. ولسن، ورايدر. له عدد كبير من المقالات في (دائرة المعارف الإسلامية) ومجلات الجمعيات العلمية تثبت طول باعه في أحوال جنوب كردستان. ويعد فيها مرجعاً قائماً بذاته.

- 3 -

قوة فريز

في ليلة العاشر من آب 1914 أفلح الطرادان الألمانيان (غوبن وبرسلاو) في التملص من قبضة القطع البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط واجتازا الدردنيل إلى القسطنطينية. وفي 29 تشرين الأول أقلعا إلى البحر الأسود يمخران عبابه ويقذفان بقنابل مدافعهما عدة موانئ روسية. فأعلنت روسيا الحرب على تركيا، وفي 5 تشرين الثاني تبعتها في ذلك بريطانيا وفرنسا. كان قد اتضح منذ أيلول أن تركية تتهيأ لدخول الحرب إلى جانب ألمانيا. وقد وافقت الحكومة البريطانية بشيء من التردّد على إرسال حملة عسكرية من الهند إلى (البحرين) في الخليج الفارسي[1] توقعاً للتطورات في الموقف وأبحرت الحملة من بومبي في 16 تشرين الأول. وفي 6 تشرين الثاني نزل بر (الفاو) في فم شط العرب لواء واحد من فرقة بونا السادسة، بأمرة العميد (و. س. ديلامين W.S. Delamain) وبعد مناوشات تم احتلال البصرة المدينة الثانية الهامة في تركيا العربية. وكان المقدم (أمير اللواء فيما بعد) السر برسي كوكس يرافق الحملة بمنصب رئيس الضباط السياسيين .C.P.O - وكان منذ 1904 حتى 1913 مقيماً سياسياً في الخليج الفارسي وبعدها نقل سكرتيراً للخارجية في حكومة الهند.

دامت الحرب مع تركيا أربع سنين. وليس في هذا الكتاب من مجال حتى إلى

---

(1) الخليج العربي. (المترجم).

شرح الخطوط العمومية للأسباب التي استدعت توسيع الأهداف المقدرة للحملة الهندية العسكرية: ولا إيراد وقائع حرب ما بين النهرين، حلوها ومرها. الحاصل أن الهدنة تم توقيعها في 30 تشرين الأول 1918 في (مودروس) على ظهر البارجة الحربية (آغاممنون) وتوقفت الأعمال الحربية ظهر اليوم التالي. حين كانت الجيوش البريطانية في القيادة التي تبعد زهاء أربعين مثلاً جنوب الموصل، تتعقب العدو المنهزم على طول دجلة. كذلك كانت قد احتلت خط المدن والقصبات على الطريق العام بين خانقين والتون كوبري. ومنها كفري التي دخلتها في 28 نيسان، وكركوك والمدن المجاورة التي احتلتها في أيار. ثم أخلتها بعد 24 ساعة ثم أعادت احتلالها قبل الهدنة بخمسة أيام فقط. وتم احتلال الموصل في 30 تشرين الثاني مع احتجاج القائد التركي، تطبيقاً لشروط المادة 16 من الهدنة وطلب من الجيش التركي الجلاء عن كل ولاية الموصل خلال عشرة أيام.

آنذاك، كان من سياسة بريطانيا اجتناب بذل وعود صريحة في إقامة كيانات كردية ذات استقلال شبه ذاتي مرتبطة بأية إدارة دائمة تؤسس بعدئذ في السهول. ومنذ احتلالنا كفري غدا ضباطنا السياسيون على اتصال دائم بالشخصيات الكردية البارزة في لواءي كركوك والسليمانية، ولا سيما بالشيخ محمود البرزنجي عميد أسرة من السادة هي رأس كل الأسر في جنوب كردستان، ولما أصبح الطريق سالكاً أرسل إلى السليمانية الميجر (ي. و. نويل E.W. Noel) للعمل على ترويج هذه السياسة ولإقامة نظام إدارة مؤقت يكون محل رضى الأهلين. وأبلغ الشيخ محمود بأن أي مجتمع كردي أو قبيلة تسكن بين نهري سيروان والزاب الكبير ترغب في قبول زعامته لن تمنع من ذلك ولها وحدها حق الخيار. لكن سرعان ما وضح لنا أنه قد بالغ كثيراً في تقدير شعبيته. وتقلص إقليمه بالأخير إلى لواء السليمانية مع بعض أقضية لواء كركوك المجاورة. ومنح لقب (حكمدار) وعين له مستشار بمنصب ضابط سياسي. وعين معاونو ضباط سياسيون في أقضية چمچال وحلبجة ورانيه. وعين ضباط آخرون لتدريب قوة عسكرية كردية باسم (ليفي السليمانية) كما قرر تنظيم جهاز شرطة على النمط الحديث.

لم يضيع الشيخ محمود وقتاً في جعل نفسه مشكلة من المشكلات المستعصية فقد سخط لتقليص دائرة سلطانه إلى المنطقة التي وصفناها. لقد كان في أيام الأتراك يبسط يده الباطشة على المدينة بأتباعه من الأشداء المسلحين وليس له أي صفة رسمية أو وظيفية[1] والآن وهو الحاكم بأمره، لم يكن ليستطيع أبداً أن يفهم الحدود التي وضعت له، حتى تلك القيود التي رسمها نظام (نويل) الاستشاري الخالي من الشدة. وفي العام 1919 قرر إجراء تغيير في السياسة الأساسية بإدخال إدارة أشبه بما يسود باقي المناطق المحتلة وأنيط (بنويل) واجب آخر ينسجم وذوقه ويجاري حبه التنقل في أقصى شمال كردستان وراء حدود ولاية الموصل[2] وخلفه الميجر (ي. ب. صون) الذي كان في خانقين. وهو ذو مزاج يختلف عن مزاج سلفه اختلافاً بيناً.

---

(1) إن ما يثبته مؤلف الكتاب حول الشيخ محمود في هذا الفصل وغيره من فصول الكتاب، هو بطبيعة الحال إما رأيه الشخصي أو رأي حكومته في هذا الزعيم الوطني الكردي. وقد يبدو أدموندز في ما كتب متحاملاً، مدافعاً عن وجهة نظر حكومته عندما تفرض سياستها قتال هذه الزعامة الكردية. ناقداً لها عندما تتقرب منها أو تضطر إلى أن تخضع لمشيئتها وتعنو لشعبيتها. ويبدو المؤلف لنا مع احترامنا لآرائه بصورة عامة - متناقضاً هنا، ويبدو حائراً أحياناً بين رأيه الشخصي في الشيخ محمود وبين مواقف حكومته المتبدلة بتبدل سياستها إزاء هذا الزعيم الوطني فنراه يبدي ارتياحه من حكومته عندما تطارد الشيخ محمود بما يظهره من حماسة في تطبيق أوامرها. وتراه فاتراً منتقداً عندما تضطره وظيفته إلى تنفيذ خططها في التقرب من الشيخ محمود ومساندته. وسيرى القارئ ذلك واضحاً فيما يلي من الفصول. ونعتقد أن للسن والتجربة أثراً في تكوين الآراء على الشخصيات العظيمة، وأدموندز ليس بشاذ عن هذه القاعدة. فهو الآن وقد جاوز السبعين يختلف في الرأي عن أدموندز الشاب. وقد وجدنا ذلك واضحاً في كتاباته الأخيرة مثلاً عن قيادة مصطفى البارزاني. فقد كان له رأي مخالف فيها في سنة 1945 كما تدل عليه المخابرات الرسمية والاتصالات التي كان يشرف عليه المؤلف بمقتضى وظيفته في حركات 1943 - 1945. (المترجم).

(2) يذكر السير أ. رايان A. Ryan في كتابه «نهاية العثمانيين The Last of The Dragoman» (لندن 1951، ص141 - 142) كم وجدت لجنة الحلفاء العليا في الأستانة أمر هذه البعثة، الحق يقال إن حكومة السلطات بعثت بتعليمات إلى السلطات المحلية لتسهيل أمورها لكنها اصطدمت بامتداد سلطة الوطنيين على ولايات الأناضول الشرقية.

كان (صون) على معرفة سابقة بأحوال السليمانية، عندما دخلها في العام 1907 متنكراً، ولهذا راح يمارس واجباته دون تردد أو حيرة، ولا سيما إزاء تصرفات ونزوات الرجل الذي قدر له أن يتعامل معه. وأحسّ (الشيخ) أنه سيجرد من معظم صلاحياته وسلطانه فلم يضع فرصة وبادر إلى تنظيم ثورة شارك فيها كل أعضاء أسرة البرزنجة وكثير من أنصارهم وأجزاء مهمة من قبيلتي الهمه ماوند والجاف. فضلاً عن حملة بنادق من قبائل (الهه ورامان) الساكنة وراء الحدود الإيرانية. وقد حوفظ على سر الثورة محافظة تامة. وفي 33 أيار قامت قوات القبائل (لشگر) باقتحام مدينة السليمانية فجأة وزالت في غمضة عين فصائل الليفي نصف المدربة (كانت رسمياً بقيادة المقدم الشيخ قادر، أخ الحكمدار لا بأمرة مدربيها البريطانيين). وسيطر الشيخ محمود على المدينة في ساعات قليلة ووضع يده على الخزينة واعتقل كل الرعايا البريطانيين الموجودين ورفع علمه الوطني وهو هلال أحمر في أرضية خضراء، وأنزل العلم البريطاني الذي كان يخفق فوق بناية دائرة الضابط السياسي. ومن حسن حظ (صون) أنه كان قد ترك المدينة إلى كركوك في طريقه لاستقبال زوجه من البصرة (نقول من حسن حظه لأن الشيخ ما كان ليتردد في قتل شخص يراه أعدى أعدائه) وتمكن معاون الضابط السياسي في حلبجة، الملازم الطيار (غ. م. ليز G.M. Lees) من الانسحاب إلى خانقين قبل أن يحتل الثوار مقر عمله في 26 أيار.

كان يوجد في كركوك حامية صغيرة من القوات الإمبراطورية، فلأجل تحشيد قوة كبيرة صدرت الأوامر لقائد الحامية بإرسال وحدة مشاغلة على الطريق إلى چمچمال. لكنه قرر الاندفاع إلى السليمانية مستهيناً بكفاءة الكرد الحربية، متغاضياً عن الأوامر العسكرية الصريحة. تقدم نحو السليمانية ببعض الخيالة والليفي العراقي وعدد من السيارات المصفحة وسيارات فورد مكشوفة تحمل رشاشات من طراز (لويس) وفي شعب (طاسلوجة) الذي يبعد عن الهدف اثني عشر ميلاً، هوجم من كل جانب فاضطر إلى التقهقر، فتعقبه الكرد مسافة 25 ميلاً وأنزلوا به خسائر

جسيمة وفقد أربع مصفحات وتسع عشرة سيارة مسلحة. هذه الفاجعة زادت نار الثورة اشتعالاً وانضم إلى (الشيخ) الكثير من المترددين حتى أن القبائل الكردية الإيرانية شقت عصا الطاعة على حكومتها وطلبت الاتحاد بالدولة الكردية التي يقوم الشيخ على رأسها.

تبين الآن ضرورة تجريد حملة عسكرية واسعة النطاق لإعادة الأمر إلى نصابه. وأنيطت المهمة بأمير اللواء السير ثيودور فريزر Theodore Fraser قائد الفرقة الثامنة عشرة المرابطة في الموصل. وحشدت قوة في كركوك تتألف من الوحدات الآتية لواء 1/ 5 المعروف بلواء سورّي الشرقية East Surrey وفوج المشاة البورمي الخامس والثمانين، والفوج الـ1/ 87 البنجابي والفوج 1/ 11 المهراتي. والسرية الأولى من فوج المشاة البنغالي التاسع والأربعين، والسرية الـ239 من فوج الرشاشات الهندي الثامن عشر، والبطارية الجبلية الهندية الخامسة والعشرين وقطع من بطاريتي (ب) و(د) من كتيبة المدفعية الآلية الملكية الـ336 وجناح (أ) من السرب الثالث والستين من القوة الجوية، مع وحدات من صنف المخابرة والهندسة وزارعي الألغام وتشكيلات أخرى ملحقة ورسم أن يقوم (صون) بمرافقة الرتل بصلاحيات ضابط سياسي.

في عام 1910 اجتزت امتحان القبول، لأكون تلميذاً مترجماً في دائرة السلك القنصلي للشرق الأوسط. وهي واحدة من خمس دوائر تتألف منها وزارة الخارجية البريطانية الآن بعد توحيدها. وكان يتعين على المرشحين الناجحين الدخول إلى (كمبردج) ليتعلموا اللغات الرئيسة الثلاث الشائعة في الشرق الأوسط وهي العربية والتركية والفارسية إلى جانب مواضيع أخرى. وبعد أن قضيت سنتين طيبتين في بمبروك Pembroke متتلمذاً على (ي. ج. براون E.G. Browne) و(ر.ي. نيكلسن R.A. Nicholson) تركت إنكلترا إلى الأستانة في أيلول 1912 فوصلتها لأرى أول صفحة من صفحات حروب البلقان. وكان قد رسم لي في إنكلترا أن استمر في

رحلتي حتى (بوشير)، حيث كان المقيم السياسي في الخليج السر برسي كوكس يرفع عقيرته مطالباً بالمزيد من الموظفين.

وبلغت (بوشير) في كانون الأول. وكنت في منصب وكيل نائب قنصل عند إعلان الحرب على ألمانيا في آب 1914 ورفضت وزارة الخارجية السماح بعودتي إلى دياري للالتحاق بالجيش. لكنني فزت بأمنية قلبي بعد جهود كثيرة بذلتها في نيسان التالي. فقد استدعاني (السر برسي كوكس) إلى البصرة ومنحت رتبة (نقيب) وقتية على الملاك العام - وتقلبت في وظائف مختلفة منها معاون كبير الضباط السياسيين (برسي كوكس)، ومعاون الضابط السياسي المرافق للوحدات العسكرية الصاعدة على طول دجلة والفرات، وأخيراً وجدت نفسي في كانون الأول 1914، في (شوشتر) المدينة الأثرية الواقعة على نهر (كارون) بالقرب من حقل النفط الأكبر لشركة النفط الأنكلو إيرانية، وكانت حماية هذا الحقل مرتبطة مباشرة بمجلس الحرب الأعلى في بريطانية، وأمنه هو إحدى المهام الأساسية التي أنيطت بحملة ما بين النهرين. وجدت هنا الزميلين والجارين الرائعين اللذين أسلفت ذكرها وهما في الشمال (صون) وكان يشغل وظيفة معاون ضابط سياسي في (ديزفول) وفي الجنوب (نويل) نائب القنصل ومعاون الضابط السياسي في الأهواز. ولما كان ذكرهما سيتردد كثيراً، فمن الأجدى أن أخصص لكل منها فذلكة.

كان أول التقائي (بنويل) على ظهر الباخرة (سميراميس) التابعة لشركة النقل البحري (لويد أوستريان Austrian Lyod) التي تعمل ما بين بورسعيد وبومبي، وأنا في طريق إلى (بوشير) وكان وقت تعرفي به ملازماً في فوج مشاة مبرواوا (الـ44) من الجيش الهندي. وأذكر أنه كان يتحدث عن ميله إلى الاستقالة (مع أنه اختير في تلك الفترة للدائرة السياسية الخارجية وهي خير سلك في الوظائف الهندية) والعمل على جمع ثروة من إنشاء مصنع تعليب سمك على البحر الأبيض الشمالي ضمن الدائرة القطبية. وبعد سنتين جاء إلى (بوشير) ليتولى وظيفة المعاون الثاني

للمقيم السياسي. وفي أوائل ربيع 1915 شاركنا معاً في تعقيب (وكلاء الجهاد) الألمان الذين أرسلوا إلى إيران لإثارة الفتن. وقد سجل مأثرة تاريخية لنفسه عندما ألقى القبض بنفسه على (فاسموس Wassmuss)[1] أشهر أولئك الوكلاء وأبعدهم صيتاً بالقرب من (بندر ديلام) وهو مرفأ صغير إلى شمال (بوشير). إلا أن (فاسموس) تمكن من الإفلات من حراسة الإيرانيين ليلاً، وفي اليوم التالي تعرض (نويل) لخطر الأسر من قبل رجال القبائل الذين استمالهم صاحبنا الألماني ولم ينج إلا بشق الأنفس. وبعد هذا بقليل نقل إلى البصرة. وما زلت أدين له بالفضل لأن سرعة استدعائي كانت نتيجة مساعيه على الأرجح. إن وظيفة في الأهواز وعنوانها الرسمي نائب قنصل عربستان[2] وبختيارستان ولرستان وبشتكو، وقد تكون حلم أي ضابط صغير الرتبة، وإن لم تضم شمال خوزستان ولرستان وبشتكو التي قام على كل منها فيما بعد معاونو ضباط سياسيين. لأن نائب القنصل كان يتمتع بصلاحيات واسعة تقتضي منه الانتقال الكثير بين أصبهان من رأس الخليج إلى آخر نهاية له وكان لديه فرص كثيرة لزيارة طهران والبصرة (ثم بغداد بعدئذٍ) بهذه العلة أو تلك، للمشاورة. وكان (نويل) قبل الحرب بسنة أو اثنتين أحد المرشحين للفوز بكأس سباق (كادير) (وهو أعظم حدث في الهند)، لصيد الخنزير بالرمح على ظهور الخيل، فهو فارس لا يشق له غبار ضرب أرقاماً قياسية في السفر السريع سواء في سهول الكارون ودجلة أو في جبال البختيارية. وإلى

---

(1) فاسموس (1880 - 1931) أخطر وكيل استخبارات لألمانيا في الحرب العظمى الأولى عين في العام 1913 قنصلاً ألمانياً في بوشير. وأتقن الفارسية وكثيراً من لهجات جنوب إيران مما جعله وثيق الصلة بالعشائر ذا نفوذ فيها. تمكن من تحريض عدد كبير من القبائل الإيرانية على الإنكليز وفتح لهم جبهة قتال في إيران. إلا أنه فشل في النهاية عندما أنزلت حملة الفاو واعتقل وسفر إلى أوروبا إلا أن الهدنة أنقذته وهو في طريقه إلى الأسر لم تطبع مذكراته حتى الآن ولكن لكريستوفر سايكس كتاباً عنه عنوانه «فاسموس لورنس الألمان» طبع في إنكلترا 1936. (المترجم).

(2) أحيا شاه إيران رضا بهلوي الاسم القديم (خوزستان) وصار يستخدم رسمياً. ولقد فضلنا الأول منهما هنا.

جانب تقلده هذا المنصب رسمياً راح يلح على السلطات بإرساله إلى (تفليس) مندوباً إلى حملة الجنرال (دنسترفيل Dunsterville)[1] وألقى (الجنكاليس) القبض عليه في طريق الأوبة بالقرب من (ره شت) على بحر قزوين بتحريض البلاشفة وعومل أقسى معاملة من أول أسره. وأبقي سجيناً خمسة أشهر بطولها إلى أن أطلق بموجب معاهدة الصلح التي أبرمت بعد هزيمة الجنگاليس، وفي أثناء مدة سجنه قام بمحاولات عديدة للفرار لم يسعده الحظ في واحدة منها وكانت كل محاولة سبباً في زيادة الضغط عليه. وعاد إلى بغداد بعد تحريره متعطشاً للمغامرات فأرسل إلى السليمانية.

وفي (بوشير) كان أول سماعي بـ(صون) الغريب الأطوار المحاسب في البنك الإمبراطوري الإيراني الذي كان لبضع سنين يعيش على الطريقة الإيرانية في قرية (سانكي) الصغيرة خارج المدينة، متجنباً المجتمع الأوروبي تماماً. وفي شيراز اعتنق الإسلام على المذهب الشيعي العام 1905 وقيل إنه تزوج بنت أحد المجتهدين هناك وبدأ بمدارسة اللغة الكردية على أهلها في السنة الثانية من توليه رئاسة فرع البنك في كرمنشاه وبعد استقالته في العام 1907 شرع بسياحته التي وصفها في كتابه «خلال كردستان وما بين النهرين متنكراً» ويعتبر مرجعاً وعمدة من عالم الرحلات إلى كردستان. واستخدمته شركة النفط الأنكلو - إيرانية فيما بعد. وفي العام 1914 كان مسؤولاً عن أعمال الحفر في (جياسرخ) قرب خانقين وكان لقائي به لأول مرة في البصرة عام 1916 عند وصوله مع عدد من الرعايا البريطانيين في العراق، واعتقله الترك في أول الحرب وأرسل إلى مكان ما في البحر الأبيض

(1) أمير اللواء ل.س. دنسترفيل (مغامرات قوة دنستر - لندن 1920، ص79)، ضابط عسكري بريطاني برتبة لواء (1865 - 1946) التحق بالخدمة في الهند وأصبح لواء في العام 1918 وخدم في أماكن هامة كثيرة في الهند والصين والعراق وقاد القوة المعروفة بقوة دنستر إلى باكو في كانون الثاني 1918 وهي القوة التي فصلت من قوات العراق. ألف عدة كتب حول مغامرته العسكرية منها كتابه (قوة دنسترفيل) ومذكراته الشخصية. (المترجم).

المتوسط، ثم أطلق سراحه. وأرسل في تموز من السنة نفسها بوظيفة معاون ضابط سياسي إلى (دزفول) ومعه رعيلان من الخيالة الهندية التابعة للكتيبة الثالثة والعشرين التي ضمنت مؤخراً سيطرتنا على سائر الإقليم بإبادة عصابات كثيرة من مقبائل البختيارية كانت في طريق العودة إلى ديارها بعد فترة من النشاط والتعاون مع وكلاء الترك والألمان للتحريض على الجهاد في شمال غرب إيران. (كان هؤلاء قد اتخذوا مقرهم العسكري في جوسق بناه علماء الآثار الفرنسيون في شوش). كان (صون) رجلاً عنيف الرأي، عاطفياً متطرفاً في حبه وبغضه. فوجد في قبائل البختيارية وفي الهنود وفي الزوار الفرسان القادمين من مقر القيادة العامة، والرحالة غير المقيمين، وعلماء اللغة، والفقراء، والأفندية، مصدر إثارة نفسية مثل الخرقة الحمراء التي تهيج الثور. ثم ألجأته طبيعة واجباته إلى توثيق صلاته بالعسكريين أكثر مما كان في (دزفول) ولم تكن أساليبه إنكليزية صرفة من نواح عدة، إلا أن كفاءته ومعرفته الموسوعية بالبلاد وأهلها جعلته ألصق وأكثر صلة بالقادة من كثير من الضباط النظاميين الذين تمسكوا بالمزايا البريطانية الحقة.

في آذار سنة 1917 بعد سقوط بغداد نقل (صون) إلى خانقين لكي يحقق صلة مع الكرد، فخلفته في (دزفول) وأتيح لي من هذه القاعدة التنقل في أرجاء لرستان بضعة أشهر. وفي نيسان 1918 تلقيت برقية تأمرني بالسفر حالاً إلى الأهواز لاستخلاف (نويل) الذي أسر في شمال إيران كما أسلفت وكانت مهمتي العاجلة فيها أن أبدأ بمفاوضات مع (خانات) قبائل البختياري لضمان سلامة حقول النفط طوال مدة الحرب.

وتأخر قدوم (الخانات) عدة أيام عن الموعد المضروب، ولم أنه مهمتي بنجاح حتى 22 نيسان وتسلمت على إثرها من الوزير البريطاني في طهران برقية تقدير وشكر. وكنت أشعر بوعكة في آخر يوم أو يومين من المفاوضات حتى إني لم أستطع البقاء إلى نهاية المأدبة التي أقمتها تلك الليلة احتفالاً بإبرام الاتفاق، إلا بعد أن تناولت كمية كبيرة لا تصدق من الأسبيرين قبل العشاء. وقد شربت خلالها

مقداراً كبيراً من الشمبانيا. وفي اليوم التالي أشير عليّ بملازمة الفراش وفي 24 من الشهر أدخلت المستشفى العسكري مصاباً بالتيفوئيد وبحالة خطرة ورجحت أني أصبت به جراء شرابي قدح شاي عندما توقفت في قرية من مجموعة قرى غرب (دزفول) بصحبة أحد حرسي الفرسان السابقين. ولذلك كانت مصيبة (نويل) فائدة لي، فلو كنت في دزفول التي لا يوجد فيها طبيب، طوال فترة حضانة المكروب لكنت الآن في عداد الموتى على الأرجح. هكذا شاءت الأقدار والفضل يعود مطلقاً إلى حسن التمريض والعناية الكبيرة التي لقيتها على يد أختين من الممرضات التابعات للجيش، أرسلتا من البصرة للعناية بي بصورة خاصة. لقد أنقذتاني من عدة اختلاطات مرضية كان كل واحد منها كفيلاً بإيرادي حتفي. وما أصبحت على شيء من القوة حتى سافرت إلى بريطانيا مريضاً ناقهاً (دامت سفرتي من أواسط حزيران حتى نهاية أيلول) إلا أن متاعبي لم تنته. ففي يوم إعلان الهدنة بالذات أصبت بالإنفلونزا الإسبانية ومع أني كنت أستطيع الخروج من مستشفى (ميلبانك) بعد قضائي ستة عشر يوماً إلا أن ضعفي العام أدى إلى معاودة مرض التهاب جدار الوريد Phlelitis الذي كان مصدر إزعاج لي منذ تركي الأهواز، يزورني بين آن وآخر ويجعلني أكثر حذراً وعناية بنفسي.

أخيراً وفي نيسان 1919 تقرّر ألا مانع هناك يحول دون عودتي إلى العراق شريطة أن يقصر عملي على واجبات خفيفة. وتقدمت إلى دائرتي ببغداد في أواخر أيار بعد فترة بطالة أمدها ثلاثة عشر شهراً، وبناء على التوصية الطبية عينت في المقر بوظيفة معاون إداري لوكيل الحاكم المدني النقيب أ.ت. ويلسن (منح لقب سير فيما بعد) وهو صديق قديم من أيام (بوشير) ولم يكن في مثل هذا العمل الرتيب ما تطمئن له نفسي. والمهمة الوحيدة التي ألقيت على عاتقي كما ذكر طوال تلك الفترة القصيرة، هي تأمين راحة (سالار الدولة) قدر ما أمكن في خيمة عسكرية ضربت له داخل أسلاك شائكة وفي وسط معسكر كثير الغبار وبدرجة حرارة ثابتة قدرها 105 درجة فهرنهايت في الظل. و(سالار الدولة) هذا هو الابن

الضال المشاكس للأسرة الحاكمة القاجارية في إيران كان قد ظهر مرة أخرى في المناطق الكردية على الحدود التركية الإيرانية يثير القلاقل والشحناء، ثم أقنع بتسليم نفسه لنا.

لذلك غمرتني السعادة عندما عدت في أمسية من النادي الرياضي لأجد رسالة مثبتة بدبوس في فراشي، وكانت بخط يد ويلسن المستقيم السطور المائل الحروف «س.ج.أ. (الأحرف الأولى من اسمي)»:

> منح (صون) إجازة أمدها 14 يوماً قد تمتد أسبوعاً آخر، ومن الضروري ملء منصبه، وليس عندي غيرك. هل يمكنك السفر غداً ليلاً إلى (بيجي) بالقطار، وبعدها بالسيارة؟ من الآن فصاعداً ستكون برتبة رائد (ميجر) وسأقوم بتسوية هذه القضية مع القيادة العامة فيما بعد.

أ.ت.و. 8 - 6

قضيت إحدى عشر ساعة في القطار لقطع 130 ميلاً من بغداد (ضفة دجلة اليمنى) إلى بيجي. وهو الجزء القصير من سكة حديد بغداد الذي أنجزه الألمان قبل الحرب. وكان الجنرال (فريزر) قد أرسل سيارته الفوكسهول (سيارة نادرة في تلك الأيام) مع سيارةٍ أخرى (فورد) ناقلة لاستقبالي. وأسرعت تقلّني في سُحب من الغبار عابرةً بي جسراً خشبياً على الفتحة. وراحت تجري فيما بدا لي بلقعاً يباباً لا ماء فيه ولا لون إلا الرمادي الكئيب حتى كركوك مركز اللواء المسمى بالاسم نفسه. بلغتها ظهراً ونزلت ضيفاً على مطعم الضباط السياسيين وطياري القوة الجوية. وكان اجتماعي (بصون) لا يزيد عن الساعة الواحد قبل سفره إلى البصرة. وبعدها قدمت نفسي للجنرال (فريزر). ووضع الرائد س.هـ. لونگريك S.H. Longrigg وهو ضابط كركوك السياسي - مكتباً لي في السراي التركي القديم (حيث يقوم مطعم الضباط أيضاً) وهو بناء واسع ذو باحتين أو ثلاث تتعاقب الغرف على طول أضلاعها. وكانت نوافذ مكتبي تفتح إلى الشرق وتطل على النهر (أو

بالأحرى قاع النهر لأن «خاسه» لم يكن في ذلك الفصل غير خيط رفيع يترقرق ماؤه القليل في مجرى عريض مفروش بالحصباء) ويعلو النهر جسر ذو مظهر حديث وطالعني فوق التل العظيم المربع المهجور من الجانب القصي، مشهد مجموعة من منازل ذات لون أكمد باهت كالتراب المحترق، مبنية بالجص والحجارة غير المهندمة، وتبينت منارتين أو ثلاثاً تجعل برج «بيزا» يحمر خجلاً منها. وإلى جوارها عدد كبير من قباب مطلية بالجص الأبيض تعلوها أعشاش لقالق فيها فراخ قد قويت أجنحتها لكنها لم تبلغ مرحلة الطيران.

ومع سروري بخلاصي من عملي القلمي الكريه في بغداد، إلا أن سعادتي لم تكمل بحالتي هذه. فقيمة الضابط السياسي بالمقارنة مع ضابط الاستخبارات وبحكم وجوده في ميدان الحرب، هي معرفته لا باللغة المحلية وحدها بل بوقوفه عموماً على جغرافية منطقة العمليات، ومعرفته بالقبائل والشخصيات المبرزة التي تقطن هناك، معرفة سابقة أساسية وإن أنيطت به الإدارة كما هي العادة، فستزداد معرفته وتستدق. ولقد وجدت نفسي آنذاك، وأنا عاطل عن كل هذه المؤهلات وشعرت بأني دفعت دفعاً إلى منصب زائف. فكل ما أملك هو معرفتي اللغة الفارسية التي يتكلمها معظم كرد الجنوب من ذوي الثقافة الأولية وهم أيضاً يكتبوها بيسر وسهولة، تلك المعرفة التي لم تجد لها منطلقاً للممارسة بعد ختام العمليات العسكرية الفعلية. ومع صلتي بالجنرال (فريزر) منذ حرب الفرات وانسجامي معه، فإنه كان معروفاً بنفوره الشديد من الضباط السياسيين كصنف من أصناف الجيش لا كأشخاص. وبدا لي أن تغاضيه عن قصوري وعيوبي ليس متوقعاً. إلا أن الأحداث أيدت ألا محل لمخاوفي هذه - على الأقل بالنسبة إلى النقطة الأخيرة. لقد كان ضباط أركانه كلهم زملاء طيبين ممتازين. والجنرال نفسه أبدى لي من العطف ما لا مزيد عليه.

وباشرت عملي بمساعدة (لونكريك) ومعاونيه النقيب أ.ف. ميللر A.F. Miller والملازم (ليز) من حلبچة الذي عاد إلى القوة الجوية طوال مدة العمليات،

ورحت أملأ ثغرات معرفتي قدر ما أمكنني خلال الوقت القصير الباقي. وقام الرائد كلود أو كنليك Claude Auchinleck[1] ضابط ركن الحركات بشرح الجانب العسكري من الصورة. وأخذني (ليز) إلى الفضاء في أول طيران لي، عقبته مرات متتالية من سماء كردستان.

استكمل فريزر تحشيد قواته في منتصف حزيران مع موجة الحر اللاهب التي رفعت درجة الحرارة في الظل إلى 114 فهرنهايت وهي أعلى رقم لمعدل الحد الأقصى للحرارة البالغ 105 درجة في هذا الوقت من السنة عادة. وفي 15 حزيران نقلت إلى مطعم مقر القيادة وأقلتنا السيارات نحو چمچمال.

---

(1) سر كلود جون آير أوكنليك، ولد في 1884 بأولستن وخدم في مصر والعراق أثناء الحرب العالمية الأولى. أصبح قائداً عاماً للجيوش البريطانية في الهند أول الحرب العالمية الثانية. ونقل قائداً عاماً في الشرق الأوسط العام 1941 أحرز للحلفاء نصر ليبيا الأولى حتى وصل بنغازي، ثم عاد إلى القيادة العامة في الهند، ورفع في العام 1946 إلى رتبة مشير. (المترجم).

- 4 -

چمچمال

كانت جمجمال مركز قضاء بهذا الاسم، بينما عرف في عهد الأتراك بقضاء (بازيان) وأخضع للسليمانية. وهو يتألف من ناحيتي (سه نگاو)، والمركز (چمچمال) إلى جنوب قره داغ. وإلى الجهة الشمالية منه ناحية بازيان. وتقع ناحية (قه لا سيوكه) في أقصى الشمال الغربي من سفح قره داغ وهو ينحدر متطامناً نحو الزاب. وتسمى أيضاً بناحية (أغلجر). فتكون الوحدة الإدارية ذات شكل عجيب منتظم طولها من سيروان إلى الزاب يبلغ ثمانين ميلاً وعرضها يتفاوت بين عشرة أميال وخمسة وعشرين. وبعد إعلان الهدنة اختارت قبيلة (شيخ بزه ينى) والسادة الجباري الالتحاق بإدارة الشيخ محمود، فأصبح القضاء أعجب شكلاً وأصعب إدارة وسيطرة.

إن (شيخ بزينى) قبيلة حضرية استقرت في سلسلتين من القرى على ضفتي الزاب وبالقرب منه. تبعد مسافة 40 ميلاً شمال شرق كركوك. وآغواتها يدعون أنهم سلالة أربعة أخوة: حسن آغا، محمود آغا، حاجي حمزه[1]، ملا عباس.

---

(1) تشير القائمة التي نظمتها في هذا الزمن إلى وجود 25 قرية (تسكنها خمسمائة أسرة) على الضفة الجنوبية (أي اليسرى) و11 قرية (تسكنها 350 أسرة) إلى شمالها. وثمة قرى أخرى بعيدة عن النهر أقرب إلى (كوي) قيل إن أصلها يتصل (بشيخ بزه ينى) إلا أنها قطعت صلاتها القبلية وانفصلت انفصالاً تاماً.

والأخيران منهم قدما هذه الأنحاء من «الشمال» وربما[1] كان ذلك في مفتتح القرن الثامن عشر ومن النادر ألا تساعف الكردي العادي الحجة في تخريج اشتقاق أو اختراع لاسم فيه طرافة. وتروى دائماً الحكاية التالية عن أصل اسم (شيخ بزه ينى): يقولون إن والد هؤلاء الأخوة الأربعة أو أبعد أسلافهم، كان شيخاً عالماً تقياً مرشداً لكثير من المريدين. وفي ذات يوم كان يركب بغلاً يرافقه خادم واحد وهو يتجول في المنطقة فوقع في يد عصابة من اللصوص فحاول احتثاث دابته لتسرع به. وكان كلما أهوى بضربة عصا على بغله نبت في رأس الحيوان قرن ليطعن به واحداً من المهاجمين، وامتلأ الفضاء بصراخ الألم وما أن أدرك الخادم الحقيقة حتى راح يحث سيده على بذل المزيد من المجهود وهو يهتف بالفارسية «شيخ بزن! شيخ بزن = أضرب يا شيخ، أضرب يا شيخ!».

في العهد التركي كانت (شيخ بزه ينى) الجنوبية مقسمة بين قضاءي كوي وجمجمال ومركز كركوك إلا أن القبليين العاديين المنحدرين من نسل الأغوات، وهم كثيرون جداً نسبة إلى صغر هذه القبيلة، ظلوا يحافظون على وحدة تضامنية فيما بينهم. وقد أعلنت المجموعة بأسرها انضمامها إلى (الشيخ محمود). ومنذ زمن غير بعيد أعيد إلى أربيل القسم الساكن على الضفة اليمنى مع بقية قضاء كوي على أنه يوجد ثمة شريط من الأرض طوله عشرون ميلاً وعرضه يكاد لا يزيد عن

---

(1) ينوه كتاب الشرفنامة (1596) باسم (شيخ بزه ينى) ولا يعطي تفاصيل، في أثناء إيراده قائمة بأسماء القبائل الكردية الساكنة في منطقة ابن عمر. هذا وإن النسل المنحدر من (حسن آغا) استقر في مجموعة تتألف من خمس قرى أكبرها قرية (كاينجة) على الضفة اليسرى من الزاب الكبير إلى الشمال قريبة من الطريق العام بين أربيل والموصل وقد ذكر عن وجود مجموعات معزولة من قبيلة (شيخ بزه ينى) في كردستان التركية إلى الجنوب الشرقي من كاستامونو Kastamono القريبة من نهر قزيل أيرمق جنوب شرق أنقرة. وإلى شمال أرضوم كما أورد بعض السياح. وأن جوامير آغا ابن توفيق قصروك الذي ذكرته في المتن، ذكر لي في سياق حكاية «القرون النامية، أن أصل اسم القبيلة هو (ده ربه ندى). على أني أراه وقد اختلط الأمر عليه، فمزج بين هذه المجموعة، ومجموعة أخرى مجاورة تتألف من أربع قرى.

أربعة أميال من أبعد نقطتين. وهي محشورة حشراً بين النهر وبين سائر ناحية (شوان) التي كانت هذه القرى ترتبط بها في الماضي وبقي هذا الشريط إلى عام 1923 وهو جزء من ناحية تسمى ناحية الزاب تابعة لقضاء چمچمال. وكانت هذه القبيلة موضع اهتمامنا الكبير لأن قرية (طقطق) والعبارة النهرية على الطريق العام بين كركوك وكوي يقعان في منطقتها وكان الشيوخ والرؤساء الذين نريد توثيق صلاتنا بهم يسكنون في الضفة الشمالية وهم محمود آغا سه رتيك حفيد عجوز من أحفاد حاجي حمزة، وتوفيق آغا قصروك حفيد ملا عباس مع ابن أخ لتوفيق، وفارس آغا سرچنار وهؤلاء يسكنون الضفة الجنوبية.

وإلى جنوب چمچمال كان السيد محمود جباري أخلص أنصار الشيخ محمود وأكثرهم تحمساً، وسلطانه يمتد على مجموعة من القرى المتحدة يزيد عددها عن العشرين وتقع على الضفة اليمنى من نهر (باسه ره) ولقد شكل من هذا الأسفين الذي ينفذ عميقاً في منطقة كركوك ناحية جديدة باسم ناحية (جباري) ألحقت بقضاء چمچمال. ولم يكن للسيد محمد منافس قوي في أسرته وأقربائه، ومقامه الديني أسمى من أن ينازعه فيه أحد وكانت طاعته واجبة على القرويين ولذلك فمنزلته مساوية لشيخ قبيلة مهمة. ولم أكن أدري لماذا وضعته الإدارة في قائمتها السوداء.

وظلت ناحية قه لا سيوكه (10,000 نفس) شوهاء الشكل فترة من الزمن لإدماجها بناحية الزاب[1] التي تتألف من بضع عشرة قرية على النهر لكنها أعيدت إلى حدود ما قبل الحرب ويحد الناحية الزاب من الشمال، وجبل (بنزرد) من الشرق. ويحدها من الجنوب خط يمتد ثلاثة أميال أو أربعة بموازاة طريق كركوك -

---

(1) إن أرقام السكان التي سنستمر على إيرادها في المتن أثناء وصفنا النواحي، هي بحسب إحصاء سنة 1947 - هذا إن لم نشر إلى العكس. وقد تكون أقرب إلى الحقيقة حتى لو اعتبرناها أساساً لتعداد السكان قبل خمس وعشرين سنة. وهي أفضل من التقديرات التقريبية التي وضعنا قاعدتها على أساس عدد البيوت في كل قرية، بحسب تقارير مدراء النواحي ومأموري الضريبة.

سليمانية على شماله، ويحدها من الغرب ناحية (شوان) إن القرى العشر والنيف التي جاء ذكرها، هي تحت نفوذ شيخ ديني يدعى (شيخ عبد الله عسكر)[1] الذي التحق بثورة الشيخ محمود. وأغلبية القرويين في القرى الأقرب إلى الطريق إما أجراء، أو مستأجرون أرضاً لمزارع مملوكة ترويها الأقنية (وأكبرها قرية أغجلر التي تسمى الناحية باسمها أحياناً) وهؤلاء أكثر من غيرهم خضوعاً للسلطة المركزية.

ويسكن (الهماوند) كلا من ناحيتي مركز چمچمال (12,000 نفس) وبازيان (42,000 نفس) التي هي قلب القضاء. وهؤلاء وإن كانوا من أصغر قبائل الكرد الجنوبية فلعلهم أشهر قبيلة مقاتلة حتى العام 1925. ويقال إنهم قدموا من هضبة إيران في مفتتح القرن الثامن عشر، واستقروا في أراضيهم الحالية عنوة وبقوة الفتح، واسمهم بالذات يوحي بحداثة مجيئهم، ولهجتهم تشابه لهجة كرمنشاه. لقد أبدوا العون لأمراء بابان في السليمانية وقاتلوا الترك. وبعد انقراض هذه الإمارة ظلوا شوكة في جنب العثمانيين.

غيَّر الهماواند ديارهم مراراً لعدد من السنين في كل فترة. فانتقلوا عبر الحدود إلى منطقة قصر شيرين في زهاب ليقلقوا راحة الإيرانيين. وأمن لهم انحيازهم إلى إحدى الحكومتين ضد الأخرى ثم الانقلاب عليها والتزام جانب الأخرى - الاستمرار في تدويخ المنطقة من الموصل إلى بغداد، ومن كركوك إلى كرمنشاه حتى وجد «ظل السلطان» الابن الأكبر لناصر الدين شاه القاجاري، الذي كان آنذاك نائباً لأبيه الشاه في عاصمته أصبهان - لجنوب إيران، إن من الخير والحكمة تعيين زعيمهم جوامير آغا بمنصب حاكم (زهاب). وتلك واقعة يثبتها وجود القلعة الكبيرة في قصر شيرين التي ما زالت تعرف إلى يومنا هذا بـ(قه لاى جوامير آغا)[2]

---

(1) إن جعفر باشا العسكري ضابط ركن (فيصل) المعروف، جاء لقب أسرته من قرية عسكر هذه التي نزح منها أبوه.

(2) هذا هو التصوير اللفظي للاسم باللغة الكردية وهو شبيه باللفظ الفارسي (جتاغرد) أي (فتى)=

وبسقوط (ظل السلطان) عام 1888 ثار جوامير ثانية لكنه اغتيل بعد بضعة أشهر بإحدى المؤامرات الغادرة المأثورة عن القاجاريين[1].

وبهزيمة القبيلة هزيمة وقتية، فرت من إيران وعادت إلى (بازيان) فأوقع بها الأتراك في كمين ونفوا نصفها إلى شمال أفريقيا[2] ونفوا النصف الثاني إلى (أطنة) وكلا الموقعين يبعدان زهاء 500 ميل بخط مستقيم عن بازيان. وتعد عودة محاربيهم بزوجاتهم وأطفالهم من شمال أفريقيا إلى بازيان في العام 1896 أي بعد سبع سنوات من النفي - ملحمة من أروع الملاحم وأكبرها في تاريخ الكرد القبلي، وحذا منفيو (أطنه) حذو اخوانهم، فشقوا طريقهم وحدهم دون ذويهم. لكن الحكومة التركية وافقت على إعادة زوجاتهم وأطفالهم إلى ديارهم تخلصاً من متاعب وقلاقل أخرى.

إن نواة قبيلة (الهماواند) هي أسرتهم الحاكمة التي تدَّعي أنها نسل الأب الأكبر (خوادى) الذي ربما عاش في القرن الثامن عشر. ومآثر القبيلة وذكرياتها لا تتعدى الجد الأعلى (حمه = همه) الذي اتخذت القبيلة اسمه. فالأسرة الحاكمة تنقسم إلى أربعة فروع منها ثلاثة تنحدر من صلب ثلاثة من أبناء (خوادى) الأربعة وتدعى بأسمائهم وهي (راماوند) من رمضان و(سفارواند) من صفر و(ره شاواند) من رشيد أما الفرع الأكبر والأوسع فهو من نسل الأخير وهو الابن الثالث (يادكار) إلا أنه يعرف باسم (به ك زاده = بكزاده).

هنالك عدد من القبائل الصغيرة رافقت (الهه ماوه ند) في هجرتها الأولى

=ويلقب به الفارس أو الشجاع، ويقصد به المعنى بالضبط. وقد ورد في كتاب (صون) هكذا جوان مير Jawan Mir أما (كرزن) والآخرون فقد أخطأوا في نقله.

(1) ذكر الحادثة كل من كرزن Curzon (بلاد فارس، ج2 ص276)، وروزن Rozen (ذكريات شرقية لدبلوماسي ألماني: لندن 1930)، ص251.

(2) يذكر (صون) أن نفيهم كان إلى (طرابلس) سوريا. لكن مصادري الكردية المدونة تذكر (طرابلس) الأفريقية والهماواند أنفسهم ما زالوا يرددون ذكريات مغامريهم في مدينة بنغازي.

وأهمها عشيرة «سيته باسار»[1] وسبق لعشيرتين صغيرتين أن استقرتا في بازيان وكافروشي وانتشرتا في خمس قرى، كما استقر جزء منهما في شنكى بقريتين. وبقيتا لتكونا مواليتين للمستوطنين الكثيري العدد. وفي زمن احتلالنا كان أغوات «الهمه واند» يستقرون في كل القوى السبعين التي تتألف منها الناحيتان باستثناء اثنتي عشرة قرية هي من أملاك الشيخ محمود، وخمس قرى أخرى بيد سيته باسار ويشار إليهم بالقرويين كجماعتهم الگوران. تفريقاً لهم عن القبليين.

إن الأسماء القبلية المنتهية بلفظة (وه ند) ليست من المألوف في كردستان الأصلية لكنها والحق يقال دارجة عند (اللك، واللر) وقد جاءت هذه الصيغة من الفعل (وه ندين) في اللهجتين اللريه واللكية ومعناه رمى أو قذف. ولذلك يقصد بالزيادة: الشطء أو النسل، ومن ثم لا بد وأن يكون الشق الأول من الاسم القبلي اسم جد دائماً لا اسم موقع من المواقع[2].

هناك مسألة أخرى تلفت النظر في شجرة أسرة (الهه ماوه ند) وهو شيوع اختصار أسماء الأشخاص عند الأكراد، أو استخدام الاختصار للتحبب. إن بعضها يبتعد عن الأصل ابتعاداً كبيراً بقدر ما يختلف اسم التحبب (ديك) عن أصله (ريتشارد) فـ(حمه) هو من (محمد) و(رمه) من (رمضان) و(ره شه) من (رشيد). وهناك مختصرات مشابهة كـ(عبه) من (عبدالله) و(أحه) من (أحمد) و(بله) من (بهرام) و(فه ته) من (فتاح) و(خوله) من (محمود) و(مجه) من (مصطفى) و(ناله) من (نادر) و(بيزه) من (بيروز) (اسم فتاة)، و(قاله) من (قادر) و(شفه) من (شريف) و(سه له) من (سليمان). ولا قيود ثمة حول استعمالها. فبعض الرجال يسمون بكامل

---

(1) من القبائل التي ظلت محافظة على قوامها: همائيل ويتماوند وفوركاواند وبايلاواند، وثمة عشيرة أخرى صغيرة اسمها سوفيواند نصفها يعيش مع الهماواند ونصفها مع الجاف.

(2) يرى باحث ألماني أن هذه الزيادة اللغوية مشتقة من الجذر (بند = به ند) مما يعني (ذو) أو (تابع). على أن الأصل الذي أثبته في المتن وكان أول مصادري له، مثقف لرستاني من (خرم آباد) يبدو لي أكثر انطباقاً على الوقائع لأن لديه نظائر في اللغات الأخرى.

أسمائهم وبعضهم ينادون بالمختصر من الاسم، وبعضهم تتوقف تسميته على ما يفضله المخاطب أو على درجة صلته بالمتكلم. وتشيع أسماء النعوت أيضاً مثل (أحه ره ش) أي أحمد الأسود أو الأسمر و(حمه شين) أي أحمد ذا العينين الزرقاوين و(مجه بجكول) أي مصطفى الصغير. ولما كانت معظم أسماء الأشخاص من الأسماء الشائعة الكثيرة التردّد فتفادياً للخطأ جرت العادة بذكر اسم الأب وأحياناً يضاف اسم الجد، إذا كان الشخص موضوع حديث بين آخرين وترتبط الأسماء المتعاقبة بحرف النسبة مثل (كه ريمى فتاح، عزيزي شريفي جليل).

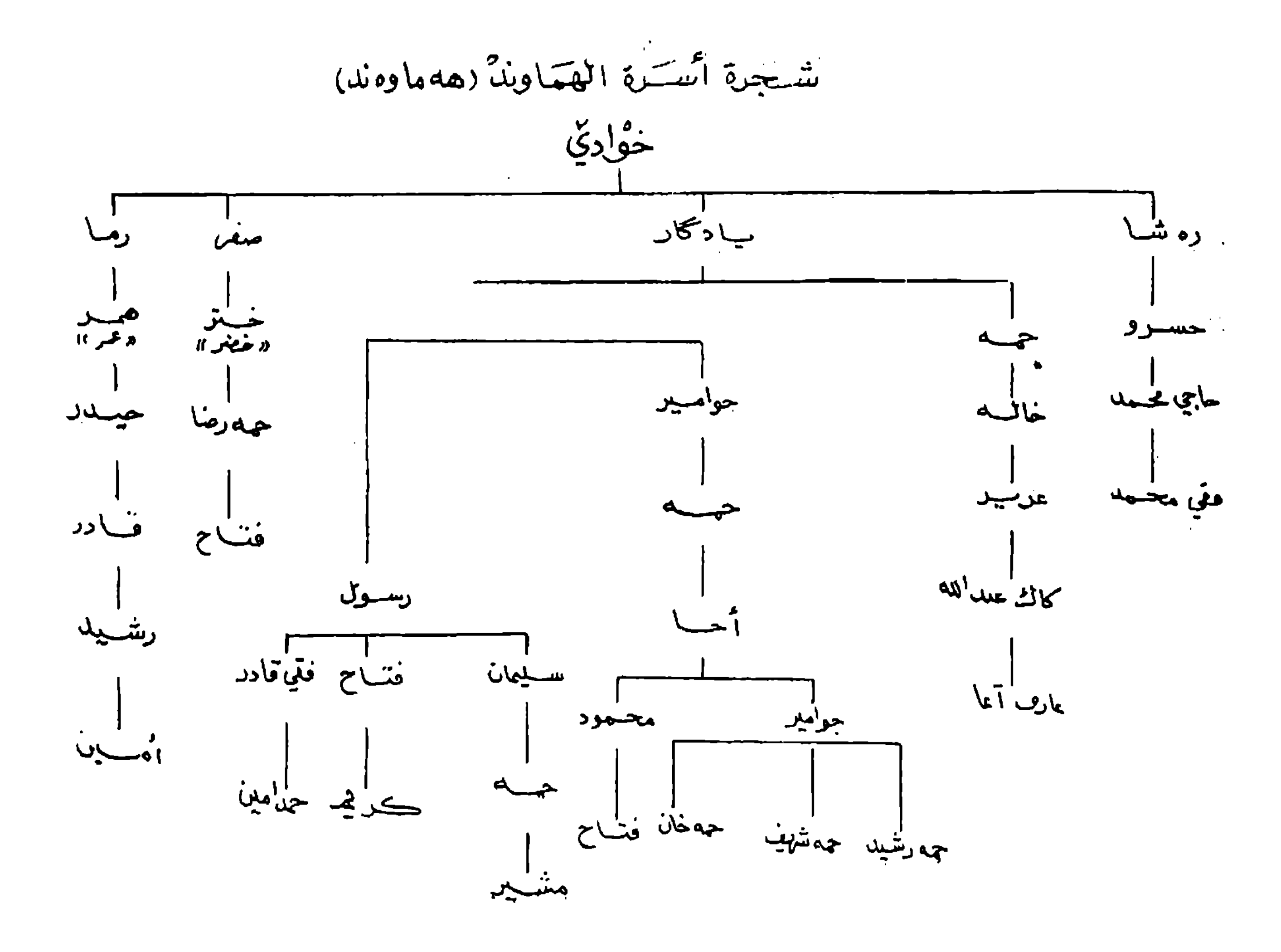
ومن قائمة السياح السابقة لعل (فريزر) - 1834 أول من ذكر الهه ماوه ند في قره داغ، ذكر دليلنا أموراً غريبة عن قبيلة (لهه ماوه ند) التي تسكن أراضي مجاورة، قال إن عددها لا يزيد عن (500) أو (600) بيت. وقد أصبحوا الآن فهم أشد شوكة وأعز جانباً من القبيلة الأخرى المسماة (الجاف) التي تعد ما بين 10,000 و12,000 بيت أو خيمة. ولا يجرأ فرد من الجاف على الدنو من حدودهم وإن فعل ذلك صرع حالاً، بينما يخرج (الهماواند) بعشرين أو ثلاثين محارباً ليغيروا على الجاف في عقر دارهم، وأنا أرى في هذه الرواية بعض المبالغة لأن الجاف يمكنهم تقديم ألف فارس شديدي البأس للباشا وقت الحاجة.

ويشهد كل من (كليمان - 1853) و(برزيزوفسكي - 1869) بصيت (الهه ماوه ند) في أعمال الشقاوة: فيقول أولهما: «أهم قبيلة كردية تسكن المنطقة هي (الهه ماوه ند) أقوى كل القبائل وأشهرها في البسالة والجرأة على الغزو، والثورة الدائمة». ويقول ثانيهما: «في الليلة الثانية (بعد مغادرة السليمانية) توقفنا عن السير عدة مرات لنقوم باستطلاع الأرض، حيث يشك في وجود عدة كمائن ينصبها قطاع الطرق (الهاموفاند) الذين يسكنون في إيران على الضفة الأخرى من نهر ديالي ويقومون بغارات مستمرة من هناك ينشرون الفزع والهول في سائر المنطقة التي تمتد ما وراء كركوك وأربيل»[1].

---

(1) أورد المؤلف هذه الفقرة في كتابه بنصها الفرنسي. (المترجم).

شجرة أسرة الهماوند (هه‌ماوه‌ند)



ولا تختلف روايات معظم السياح الآخرين عن ذلك و(إينزوورث - 1837) يذكر أن (الهماوند) أعلنوا الثورة على الترك. ويحدثنا (فيلكس جونز - 1844): أنهم كانوا يعيثون سلباً ونهباً بين خانقين وقصر شيرين، عندما مرّ في ذلك الطريق. إلا أن زعماءهم جاؤوا لزيارة (راولنسن) في (بولي - زهاب). ويقول إذ قيل له إن الطريق مقطوع بسبب إغارة عصابات الكرد (الهه ماوه ند) وإن المنطقة كلها تنتفض هلعاً وخوفاً منهم حتى كان القرويون في كل مكان يتوهمون في كل قادم من بعيد هماونديا مغيراً ويتهيئون للمقاومة ثم يتضح أنهم أخوة لهم. ويتحدث (ديكسن - 1909) عن: «الهماوند المرهوبي الجانب». وكان (مارك سايكس - 1903) الوحيد بين السياح الذي قام برحلته في فترة من فترات الهدوء النادرة عند (الهه مواند) عقب العمليات العسكرية الناجحة التي قام بها ضدهم (إسماعيل باشا) وقد استقبله أحد أعوانهم (حمه رشيد حيدر) في چمچمال استقبالاً كريماً (لعله يقصد أميني رشيد رئيس الهه مواند) ونوه (سايكس) بالحرس الذي خصصه الشيخ لحمايته فقال «إنهم يركبون خيولهم كما يركبها (السنطور الخرافي)، وإن السهولة العجيبة التي يستخدمون بها بنادقهم إذ يطلقونها يمنة ويسرة، ويستديرون فوق سروجهم استدارة كاملة قد نقنع كل شخص يشك في قابلية الخيالة غير النظامية على تعقيب المشاة المنهزمين».

ويصف (صون - 1908) وصفاً دقيقاً حالة الرعب التي استولت على قافلته التي كان يرافقها فصيل من الجندرمة الترك أثناء سيرها من كركوك إلى السليمانية إن ظروف مثل هذه الحادثة لدى الفريق المهاجم يمكن أن يفهمها القارئ فهماً دقيقاً من قصيدة تفضل بها عليّ بعد سنين - صديقي الجليل المرحوم (حاجي توفيق = بيره مرد) صاحب الجريدة الأسبوعية (ژين) ورئيس تحريرها. وفي الجزء الذي نقتبسه منها تراه يقارن أيام المحن الغابرة بالأوضاع الطيشة التي أمنها حكم الانتداب[1].

(1) عن طريق الكتابة الكردية بالحرف اللاتيني التي اتبعتها هنا، انظر مقدمة الكتاب. وفي هذه=

وولاتي هه ماوه ند

جـــارا نـــده روژ بـــه هـــه چـــه هـــه چـــه و بـــاره بـــه ريـــه وه
بـــه گـــه رمـــاو ســـه بـــوون لـــيـــزمـــه ی بـــارا وتـــه ريـــه وه
تـــرســـی تـــريـــده، يـــشـــكـــه شـــی ســـوار، شـــه وفـــريـــنـــی دز
ده ســـتـــيـــاوی بـــاری كـــه و تـــود لـــه جـــيـــكـــه ی خـــلـــيـــل و خـــز
ئـــه ركـــی گـــزيـــرو خـــانـــه بـــگـــرو مـــوريـــانـــی نـــويـــن
بـــو تـــه ی كـــه يـــيـــانـــوو، كـــفـــزي قـــه تـــارجـــی، بـــه لاروجـــويـــن
چـــه نـــگـــك ســـووتـــه كـــه ی بـــه ئـــاوو كـــه رووی نـــوردوه نـــانـــی كـــون
جـــدتـــه و لـــه قـــی نـــاو تـــه ويـــلـــه و هـــالاوی تـــه روس و بـــون
ئـــاگـــری تـــه بـــالـــه، لـــو كـــســـی كـــزگـــل كـــه فـــيـــن ســـه ك
ده ســـتـــه ويـــه خـــه ی ق هـــتـــارچـــی لـــه ســـه ر گـــاو شـــه ره كـــوتـــه ك
ســـيـــخـــورمـــه ی قـــه تـــارچـــی بـــو هـــه لـــســـان و بـــه لـــه ی
لـــوقـــو تـــريـــســـكـــه ی ئـــيـــســـترويـــاز دانـــی جـــوگـــه لـــه ی
لاســـه نـــگـــی بـــار بـــده ره بـــه ر بـــارســـه نـــگـــی خـــواريـــه كـــه ی
خـــو ووتـــی بـــيـــت لـــه خـــرتـــكـــه چـــوو لـــه و ده شـــت چـــي ئـــه كـــه ی
هـــيـــچـــگـــار كـــه ئـــافـــروتـــت لـــه تـــه كـــابـــوو بـــه تـــرســـه وه
هـــه ر ســـواريـــك د هـــرك هـــوی ئـــه لـــی ی ئـــای جـــه رده يـــه ئـــه وه
بـــاج و بـــيـــتـــاكـــی زه نـــگـــنـــه، گـــيـــرو گـــرفـــتـــی جـــاف
هـــه چـــيـــش كـــه هـــات هـــری هـــه مـــه وه نـــد بـــردی ســـاف لـــه ســـاف
بـــه م كـــويـــره وه ريـــه وه رگـــيـــه، بـــه جـــلـــكـــه وه
ســـی بـــه نـــكـــه وه ر كـــه راو هـــبـــه رو ريـــشـــي كـــولـــكـــه وه

=المقطوعة وما يليها من التراجم الشعرية سيجد القارئ أنها فقدت في الترجمة كثيراً من جمالها وروعتها بسبب الترجمة الدقيقة التي حرصت عليها ليكون المقتبس ذا أهمية عند متدارسي اللغات الإيرانية.

ئـيـنـجـا ده چـويـتـه شـاره وه، نـاومـالـى عـاصـمـه بـيـت و بـنـوسـريـت نـابـيـتـه خـوى ى چـيـشـت ئ هـمـه كـه مـه.. ئيستا..

بلاد الهماوند

نموذج من اللغة الكردية يقدم مع الشكر والاحترام للمستر إدمنز

في الأزمان الغابرة. مرت عشرة أيام في سوق الحيوانات ورفع الأحمال حرّ وسموم، عواصف ومطر وندى. خوف من قطاع الطرق، رشاوى للحرس، سرقات في الليل. التعاون على إنهاض الأحمال الساقطة في المواضع الزلقة المنحدرة، التعب المستولي على القائد والحرس. القمل في الفرش. سخط السيدة الكبيرة، سباب البغالة وكفرهم، دفقات من الشتائم.

قليل بقي من الحساء المغلي. رقائق الخبز القديم فقدت ليونتها. الرفس والضرب في رتل البغال قائم على قدم وساق. البخار المتصاعد من الروث والخرا. النيران الموقدة من جلة البقر واللهب المتصاعد من لحاء البلوط ونباح الكلاب. إلحاح البغالين بطلب العلف واقتتالهم بالعصي. يخزونك وخزاً ويضربونك ليوقظوك من النوم صباحاً. ركض البغال ثم حرونتها ثم قفزاتها فوق برك الماء. الأثقال غير متوازنة، «هلم وازن الحمل من الجهة الأخرى لئلا يسقط» ثم تقع أنت ويلتوي كعب قدمك. ماذا ستصنع في هذه القفار؟ والويل لك إن كانت معك امرأة. إنها لتصرخ خوفاً كلما لاح فارس، «ويلاه هذا قاطع طريق»!

ابتزاز قبيلة الزنكنه، وقطع الطريق الذي يقوم به الجاف، وكل ما يقع في طريق الهماواند، يأخذونه ولا يبقون منه شيئاً. وبهذا الضنى

والقلق، مع القذارة وآلام الظهر، وشعر ولحية يلطخها الوحل، تصل المدينة شبه ميت لتجد لك بيتاً داخل العاصمة. إن وصفي الكتابي هذا هو قليل من كثير يكاد لا يعدو إضافتك ذروراً قليلاً من الملح على وجبة طعام...

والآن...

چمچمال قرية صغيرة جداً، تمتد على طول مجرى ماء وبأسفل تل كبير منداح وقد كان النقيب (ل. بوند L. Bond) معاون الضابط السياسي فيها، أسيراً في السليمانية، لكنا وجدنا بعض الموظفين المدنيين قد بقوا في دوائرهم ومنهم ستة فرسان من حملة البنادق الهماواند بزيهم الكردي، اتخذتهم حرساً خاصاً لي.

استيقظنا في الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين من فجر اليوم الذي تلا وصولنا وهو 16 حزيران، وقمنا باستطلاع تعرضي من جهة (ده ر به ندى بازيان) إذ وصلتنا معلومات تفيد أن الشيخ محمود قد تحصّن مع قبائله في الطرف الجنوبي من المضيق. كما حشد في طرفه الشمالي قوة مختلطة من مقاتلي القبائل والليڤي المدرب تدريباً بريطانياً. وبعد مسيرة ثمانية أميال من خلف چمچمال انتهت الأراضي الترابية المتعادية وراحت الأرض أمامنا تنداح وترتفع ارتفاعاً رقيقاً متواصلاً باتجاه الشمال الشرقي. وتمكنا على نور الغبش الوضيء أن نرى فيما يلي حقلاً واسعاً من سيقان السنابل الصفراء البراقة، وجدار قره داغ الطويل قائماً في الجهة الجنوبية الشرقية يأخذ بالانخفاض وهو ينحدر نحونا بشكل حرف .V وهذه الفتحة التي كانت مسرحاً لكثير من المعارك المحلية الطاحنة تأخذ ثانية بالارتفاع سريعاً إلى أن تبلغ قمة تعلو على مستوى المضيق نفسه بمقدار (1700) قدم. ولاحظت حوالي مائتي خيال في المقدمة يقومون باستكشاف الطريق، وسمعت إطلاقات نارية متقطعة. في اليوم السابع عشر تقدمت الحملة كلها إلى قرية (تكية كاك أحمد) التي تبعد ثلاثة أميال عن الفتحة. وقبل انبلاج صباح اليوم التالي بدأ المشاة يصعدون بسكون تام المرتفعات من جميع الجهات. وبوصولهم القمة في

أول خيط من خيوط الفجر فتحت المدفعية نارها على المضيق وما وراءه وكان ثمة رجال قصار القامة بدائيون من العنصر المغولي يحملون سيوفاً معقوفة زيادة على سلاحهم النظامي. كما كانت الكورگه يحملون السكين العريضة (الگوركى) طوقوا القبائل التي كانت في مواجهتهم وقيل إن جهداً خارقاً قد بذل لصدهم عن قطع رؤوس الجثث الثماني والأربعين التي خلفها العدو في الميدان.

كنت راكباً مع الجنرال، وفيما نحن ندنو من فم المضيق، أحضر حوالي مائة أسير من الطرف الشمالي الذي لم يكن القتال فيه شديداً. ودفع من كان منهم من جنود الليڤي ببندقيّاتهم إلينا تأكيداً بأنهم لم يطلقوا رصاصة منها وأسرعت بإلقاء الأسئلة على ضابطيهم باللغة الفارسية. فأعلمني أولهما أنه رأى الشيخ محمود يقزل في مشيته على ساق واحدة لإصابته بجرح في كعب رجله ورجح الآخر بأنه ربما أصيب بجرح خطير ثان، وإن لم يكن الآن في عداد الموتى. فلعله يحاول الهرب إلى (دارى كه لى) وهي من قراه الاثنتي عشرة في بازيان على الجانب الآخر من المضيق، «بمسافة ساعتين للفارس» (الواقع أن دارى كه لى التي لا وجود لها في أي خريطة آنذاك كانت تبعد عن المضيق بأكثر من عشرين ميلاً وطريقها وعرة) وقالا إن الشيخ أصدر أوامره في السليمانية بقتل الأسرى حالاً في حالة اندحاره، وألحا بوجوب احتلال المدينة قبل وصول أنباء المعركة إليها.

فأسرع الجنرال (فريزر) بإصدار أمر إلى رعيل الخيالة الـ32 (بأمرة الملازم ف.ب.غ. دينيهاي F.P.G. Denehy) ليندفع نحو السليمانية بكل سرعة. وقد فعلوا ذلك ببأس وإقدام عظيمين وكان أول نبأ عن المعركة يصل المدينة هو سنابك الفرسان في شوارع السليمانية. إذ دخلتها في حوالي السادسة والدقيقة والثلاثين واتجهت رأساً إلى بناية الدبو Depot وهي معتقل الضباط البريطانيين وما أن أدرك هؤلاء الأسرى حقيقة الأمر حتى أسرعوا يتبادلون الدور مع سجانيهم وفتحوا الأبواب وانضموا إلى (دينيهاي) لاتخاذ كل التدابير الضرورية للسيطرة على المدينة انتظاراً للقوة الكبرى في اليوم التالي. بعد إرسال الجنرال خيالته، وجه اهتمامه إلى

نقطة هامة من تقريري وهي احتمال وجود الشيخ محمود في محل قريب متخفياً مصاباً بجرح بليغ، فأشار إلى (السوارية) الستة الذين جئت بهم من چمچمال قائلاً: «هللا أرسلت رجالك هؤلاء لاعتقال الشيخ وإحضاره إليّ؟».. فتساءلت في سري وأنا مشدوه: إن كانت القضية بمثل هذه السهولة، فما الداعي إلى قدوم أمير لواء إلى كردستان بلواء مجحفل كامل من المشاة مع خيالته ومصفحات ومدفعية وهندسة ومخابرة وو... على أني أجبته بقولي: «أخشى أنهم لا يستطيعون ذلك يا سيدي».

- إذن ما فائدتهم؟

- لا أدّعي أن فيهم نفعاً يا سيدي لأني ما شاهدتهم إلا قبل أول أمس.

- حسن، حسن، مرهم أن ينطلقوا لتنفيذ هذه الأوامر في الحال.

- أخشى أن يهربوا في اللحظة التي يبلغون ذلك المنعطف.

- أمر مزعج حقاً.

- إن بقيت مصراً فلا سبيل لي إلا أن أرافقهم شخصياً.

- (مبتسماً) أراك ثميناً جداً.

- وهذا ما أراه أيضاً يا سيدي.

أكملت استجواب الأسرى، ثم اعتليت حصاني ورحت أدور متجولاً في الفتحة حول الجنرال وضباط ركنه ولم أبتعد كثيراً حتى استوقفني أحد السعاة وناولني رسالة من (أوكنليك) يقول فيها إنهم شاهدوا كردياً حسن الثياب. والظاهر أنه شخصية مهمة وهو الآن مستلقٍ على طرف الطريق جريحاً. ويرغب الجنرال أن أحمله إليه...

وجدت الجريح على بعد قليل مني، وكان يرتدي سروالاً كردياً فضفاضاً ثنيت أطرافه وحشرت في جزمة روسية طويلة وقد اشتمل بعباءة زرقاء فاتحة مثقلة بتطريز الذهب وعلى رأسه عمامة ذات خطوط متقاطعة من الأزرق الغامق، تبينت

فيما يليها شارباً أسود كثاً. كانت إحدى فردتي الجزمة قد شقت بالقرب من الكاحل، والدماء تجري من تحت القميص بالقرب من الحزام. قال إنه يدعى (علي) وهو من قبيلة (إسماعيل عزيزي) ولم يجب على أسئلتي الأخرى بغير الأنين، الظاهر أنه كان يعاني آلاماً مبرحة وأن جرحه بليغ لا يمكن معه السير إلى حيث يسعف. لذلك أرسلت أحد فرسان (الهماواند) إلى مقهى كردي صغير يبعد مائة يارد تقريباً ليأتي ببساط. ثم انحنيت إلى الجريح مرة أخرى. وإذا بي أسمع صرخة فرفعت رأسي فوجدت رجلي العائد بالبساط على كتفيه وقد صوب أحد الضباط البريطانيين مسدسه إليه. وهو يصيح رداً على استفساري: «لقد قبضت على هذا الوغد وهو ينهب في ساحة القتال، سأرديه صريعاً.. الآن!».

وبعد أن أنقذت الرجل وبساطه حاولنا نقل الأسير فيما بيننا إلا أن الحركة سببت له آلاماً شديدة. فاضطررت إلى التخلي عن المحاولة. ثم حانت مني التفاتة إلى ما خلته سيارة إسعاف تقف على جانب الأكمة على بعد ربع ميل عنا فقصدتها وأقنعت الطبيب المشرف بإرسال نقالة إسعاف مع رجالها لجلب الجريح وإبقائه تحت حراسة قوية إن ظهر جرحه أقل خطراً مما خلناه. وفيما أنا أهمّ بامتطاء جوادي لفت نظري في وجه الطبيب تقطيبة أو انكماشة في جبينه أو ربما إيماءة صغيرة من هذا القبيل عادت بي فجأة إلى غرفة الناقهين في (مستشفى المسيح) فسألته قائلاً:

- لعلك جينكنز؟

- بلى أنا هو. لماذا؟

- جي. بي. جي. جينكنز، مدرسة ثورنتن، أ (Thornton A.).

- بلى أنا هو، لكن ناشدتك الله من أنت؟

لم أره منذ خمس عشرة سنة. لأنه غادر المدرسة وهو ابن الخامسة عشرة إلى موضع آخر وكنت أنا في الرابعة عشرة. إن ذاكرتي بقيت حتى الأربعين حادة لا تخطئ الوجوه ولا الناس. وكثيراً ما مرّت بي حوادث من هذا النوع.

بعد أن تركت الجريح مع (جينكنز) امتطيت جوادي وأسرعت إلى المقر خلال حقل جميل بمحاذاة نهر (تاينال). حيث تقرر قضاء الليلة في العراء. وما كدت أنهي قدح الشاي المنعش جداً حتى انتحى بي معاون أمر الانضباط العسكري ناحية وأسرَّ إليّ بأنه شاهد حين كان يقود الأسرى على الطريق - كردياً حسن الثياب مستلقياً على طرف وهو مصاب. فما رآه الأسرى حتى هتفوا بصوت واحد «إنه الشيخ»!. فهرعت إلى الأسرى المجتمعين تحت الحراسة واستجوبت ضابط ليفي واثنين من أقارب (الشيخ) كلاً على حدة. فأكدوا لي كلهم هذه الأنباء الطيبة. ولم يقع إكراه على أحد منهم أو يرغموا على النطق بكذبة بل كان الأمر بعكس ذلك. فعدت مسرعاً إلى الجنرال وهنأته بوقوع خصمه في يده، في أول معركة. وانقسم ضباط المقر إلى معسكرين المصدق بالنبأ وعلى رأسهم أوكنليك، والمكذب له وعلى رأسهم ضابط الاستخبارات على ما أذكر. لقد كان النبأ ضخماً إلى درجة لا يملك المرء معه إلا أن يتردد في تصديقه. لكني كنت واثقاً من الأمر، وطيرت أمراً باللاسلكي إلى الموقع العسكري في بازيان بوجوب بذل العناية التامة بالأسير. ذلك لأنه من المهم جداً أن لا يموت أو يهرب إلا بعد ثبوت هويته بواسطة شخصية كردية. كما وأن كل اختفاء معجز أو أسطوري قد يسبب فيما بعد اضطراباً ومتاعب لا يمكن التكهن بآثارهما.

لم نجد في يوم 19 حزيران أية مقاومة. وقبل السليمانية بحوالي أربعة أيام اكتحلت أعين أولئك الذين قدموا من السهول الموحشة الجرداء الترابية بمرأى مجرى ماء لألاء يأخذ باللب يتدفق تياراً جارفاً فوق قاع واسع مفروش بالحصباء كان ماؤه بارداً منعشاً ونحن ننهل منه بأيدينا وراحاتنا في أثناء استراحة قصيرة. ذلكم هو (سرجنار) أكبر نهير من عدة نهيرات تؤلف نهر (تانجه رو) هنا يعبر منه إلى الضفة الأخرى بجسر ذي ثلاث قناطر يدعى قلياسان ليتخذ اسم القرية المجاورة وأن منابعه تبعد أكثر من ميلين عن الجسر، وهي سلاسل من الينابيع الثرة في سفوح جبل (ئازمر) الدنيا، ما تلبث مياهها المجتمعة أن تؤلف نهيراً بعد

خمسين ياردا من صدورها. تركت القسم الأكبر ليضرب خيامه قرب الجسر وركبت إلى المدينة برفقة كوكبة من الفرسان، فدخلناها قبل الظهيرة بساعة واحدة تقريباً ووجدنا المعتقلين سالمين وسرني أن أهنئ بينهم معاون الضابط السياسي الأقدم الميجر ف.س. گرينهاوس الذي كان يشاطرني السكنى في (بوشير) عام 1913، في إجازة من الهند ليتعلم لغة البلاد، وخلفني بمنصب معاون ضابط سياسي في (شوستر) العام 1917. وأرسل (بوند) مع ضابط كردي إلى (بازيان) في الحال للتثبت من هوية أسيرنا الكبير. وأيد لنا عند عودته بأنه هو بعينه وفي 23 حزيران دخلت القوة برمتها المدينة في تشكيلة استعراضية. وكان المعتقلون المطلق سراحهم يقفون على قاعدة التحية معنا. وعلى الرصيف المقابل وقف أعيان المدينة وهم معجبون متهيبون كما كان يأمل الجنرال من هذا العرض.

الآن سنقتضب في ما بقي من قصة حملة (فريزر): في 16 حزيران تمكن رتل متحرك من خانقين على طول وادي سيروان ورتل آخر متحرك من السليمانية، من احتلال حلبجة وإعادة (ليز) إليها. وفي أثناء تموز قامت أرتال سريعة الحركة بتمشيط مناطق سوردش، وشاربازير وبرزنجه، وبنجوين، وخورمال وطهر رتل آخر قره داغ وسه نگاو. وفتشت القرى واعتقل بعض الشيوخ والأشخاص الذين ساهموا في الثورة وصودر عدد كبير من البنادق. واسترجعت مقادير كبيرة من المنهوبات. وكان (گرينهاوس) ومعاون ضابط سياسي آخر يرافق كل هذه الأرتال بطبيعة الحال لأنهما أعرف مني بالمنطقة. أما أنا فبقيت في السليمانية لإعادة الحياة في جهاز الإدارة.

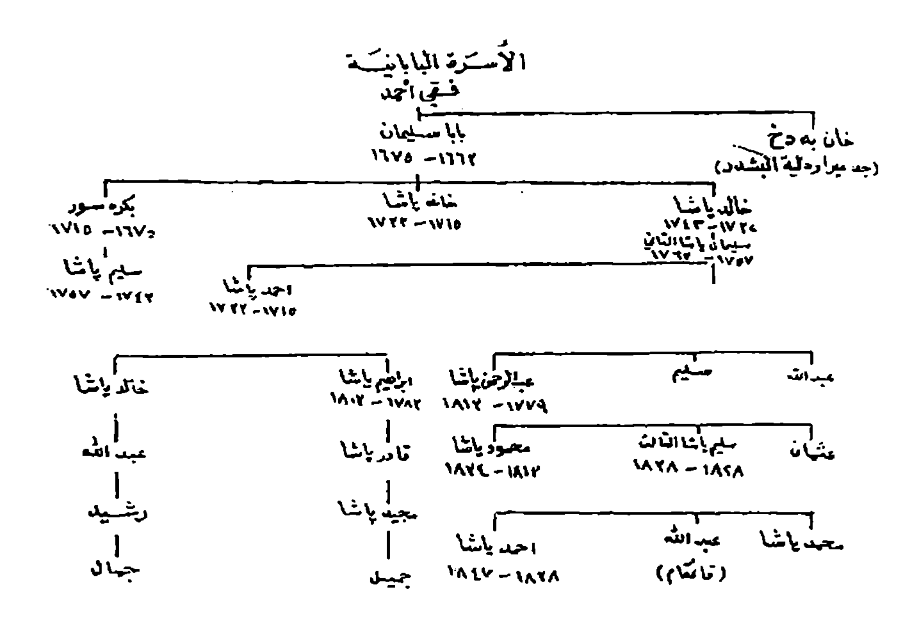
وقعت حادثة طريفة في أثناء احتلال حلبجة. وهذه، بليدة سوق صغيرة تقع في نهاية شهرزور من الجنوب الشرقي في ظل جبل هه ورامان بأعلى جزء منه ولذلك تكون في قلب جنوب كردستان. ولذلك عين الأتراك في منصب القائمقام (عثمان باشا) أحد أعضاء أسرتها الحاكمة. وكان رجلاً رفيقاً ملايناً كثير الغياب عن مقره، فانتقلت كل سلطته الفعلية تدريجاً إلى زوجه (عادله خان) وقد ترملت في

عهد الاحتلال إلا أنها ظلت ملكة شهرزور غير المتوجة. وفي أثناء الثورة كانت عوناً كبيراً للإدارة مما دعا سلطة الاحتلال إلى أن تخلع عليها اللقب الهندي الرفيع (خان بهادور). وفي أواخر حزيران قرر الجنرال (فريزر) أن يقوم بزيارة حلبجة لتقديم شكر القائد العام (للسيدة) وهو اللقب الذي كنا نطلقه عامة على عادلة، وصحبه (كرينهاوس) وابنا (السيدة): «أحمد» و«عزت» وكانا قد وصلا السليمانية وهما في أنفس حلل الحرير وأضخم العمائم مما يميل إليه كثير من بكزادة الجاف - لتقديم تحية أمهما الملكية ولم يكن في طريق سفر الجنرال بالمعبد ولذلك جاءت السيارتان بالجماعة عند النهاية الشرقية من السهل الذي كان قد غرق بالماء وغاصت سيارة الجنرال فخرج ليشرف على عمليات الإنقاذ وبينما هو يدفع السيارة مع الدافعين خرجت العجلات الخلفية وراحت تدور في الطين على نفسها فتلطخ من فوق إلى تحت بالأوحال الكريهة ولما مسح ما علق بينيه رأى البگزادة واقفين بعيداً يتفرجان باهتمام على العملية دون أن يرفعا أصبعاً واحدة للمساعدة. فلم يجد سلوكها منسجماً مع مقاييس مدرسة الكلية الجامعة وكلير College School & Clare وأمر كرينهاوس أن ينقل إليهما تقززه من سلوكهما الشان بأشد ما في أوامره من قوة، مع الإشارة لهما بضرورة تعلمهما وضع منكبيهما وراء السيارة فعلاً إذا أراد الاستمرار في مرافقة البريطانيين. فأجاب أكبرهما دونما حرج: «أجل، إن سعادة الجنرال مصيب. ولكن دعه يلقي نظرة واحدة على ثيابنا! هذه (الگيوه) وحدها تكلف 300 روبية، دعك من عباءتي وعمامتي، بينما لا تساوي ثيابه عشرين روبية» (قال هذا مشيراً إلى بدلة الخاكي الاستوائية التي حال لونها من القدم).

عند قصّ عليّ (گرينهاوس) القصة عادت بي الذاكرة إلى أيام الدراسة. وفي هذه المرة إلى غرفة الصف في (ليتل إيرازمس Little Erasrmus) وخلتني أسمع صوتي وأنا أقارن: «... ومرة بلغوا موضعاً ضيقاً يصعب اجتيازه على العجلات. فوقف (كورش) وسط بطانته من العظماء والنبلاء. وأمر (كلوس) و(بيكرس) أن يختار بعضاً من الجنود البرابرة لاستخلاص العجلات، وخيل له أنهم يبطئون في

ذلك فأمر بنوبة غضب مفاجئة، أن يشارك عظماء الفرس ممن هم حوله، في استخلاص العربات، ولا يسع المرء إلا أن يقف مفكراً في نظامهم وطاعتهم عندما نضا كل منهم عباءته الأرجوانية عنه واندفعوا كرجل واحد كأنهم يريدون تحقيق انتصار، إلى مهاوي جبل شديد الانحدار بثيابهم الغالية وسراويلهم الملونة وكان بعضهم يطوق جيده بقلائد وساعديه بأساور. وبهذه الثياب الثمينة غطسوا في الطين ورفعوا العجلات وأخرجوها بأسرع مما يتوقع المرء»[1].

أسرعنا بالموافقة على رأي الجنرال فريزر. فالحق أن بكزادة الجاف ألحقوا العار بتراثهم الفارسي القديم! وفي 1 تموز عاد (صون) إلى السليمانية فسلمت له واجباتي بوصفي الضابط السياسي لحملة فريزر وصدر في 13 آب بيان جاء فيه أن الأمن والاستقرار قد استتبا في كل أنحاء كردستان الجنوبية وما كاد الشيخ يتماثل إلى الشفاء حتى أحيل إلى محكمة عسكرية بتهمة إيقاد نار الثورة وحكم بالموت إلا أنه خفض إلى السجن عشر سنوات، ثم نفي إلى الهند.



---

(1) كزينفون «الأنابسيس» الكتاب الأول، فصل 5 ص8، ترجمة ليوب.

- 5 -
البابانيون

يمكننا القول إن تاريخ منطقة السليمانية الحديث، إنما يبدأ بظهور (بابا سليمان) في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وهو مؤسس آخر أسرة حاكمة من أسر سابقة متوالية. وكان حلفاؤه من بعده يتخذون لقبه (بابا)[1] وإن الجيل الأقدم من شجرة الأسرة التي ثبتها هنا، مقتبس من كتاب «تاريخ أمراء بابان في شهرزور وأردلان» لمؤلفه السيد حسين حزني والمطبوع في رواندوز سنة 1931. ولا غرض لنا من إيرادها هنا إلا الإشارة إلى أسماء أهم الأمراء وضبط فترات حكمهم بشكل تقريبي. والمراجع تختلف في أمرهم اختلافاً بيناً، ليس من ناحية صلة القرابة التي تربط بعض الأمراء الأوائل وحدها[2] بل بصدد تواريخ حكمهم. حيث إن الخصام العائلي الدموي الذي سعره تنافس تركيا وإيران أدّى إلى انقطاع مدد حكمهم أكثر من مرة (عزل عبد الرحمن باشا الكبير، ما لا يقل عن خمس مرات ما بين 1789 و1813) بل كان يوجد حكمان متداخلان! وبطبيعة الحال ستختلف آراء المؤرخين حول من كان يملك السلطان الفعلي، وحول من اغتصب

(1) هذا التصوير اللفظي للاسم هو الشكل الصحيح الأصيل، شريطة أن تلفظ الألف الأولى فيه قصيرة، وقيل والعهدة على الراوي إن الشكل المتأخر (بابان) بألفين طويلتين هو تصحيف كردي.

(2) ولا سيما وأن الشجرة التي يثبتها محمد أمين زكي في كتابه (تاريخى سليمان ودولاتى) - بغداد، مطبعة النجاح 1939 - لا يذكر فيها لبابا سليمان أولاداً ويظهر فيها (بكراسور) هو أخوه، و(خانا وخالد) ولد أخ آخر له يدعى (تيمور).

السلطة بصورة مؤقتة وهكذا. وإن تاريخ تسنم أحمد باشا كرسي الحكم (وهو آخر أمير مستقل ذاتياً) يمكن القول إنه ثابت لا جدل فيه، بالتاريخ الذي أورده بيت للشاعر «نالي».

شاهى جه مكا، ناليا، «تاريخى جه م» تاريخى

وترجمته (الملك الذي هو مثل جم «شيد» أي نالي. «تاريخ جم» هو الذي أرخت به تأريخه) فإذا حسبنا قيم الأحرف العربية الموجودة في عبارة «تاريخى جم» (بالطبع ستكون تهجئاتها حسب القواعد الفارسية لا حسب القواعد الحديثة الكردية) فإن تاريخ 1254هـ/ 1838 - 1839م هو الذي أرخ به الشاعر.

كانت (قره جوالان = قه لاجوالان) أول عاصمة لإمارة بابان. وخرائبها ما زالت شاخصة على الضفة الشمالية من النهر المسمى بهذا الاسم في أسفل (چوارته) وهي مركز القضاء الحالي (شاربلژير) على أن (إبراهيم باشا بابان) الذي تولى السلطة في السنة 1783 نقل عاصمته إلى موقع يبعد زهاء اثني عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي خلف سلسلة (ئازمر)، هو قرية (ملكندى) وبنى هناك مدينة جديدة سماها سليمانية، تيمناً باسم باشا بغداد المعاصر - كما هو الشائع. على أن ثمة رواية كردية ما زالت تروى وهي أن موقع السليمانية الحديثة، إنما كان موضع (سليمانية) أخرى قبلها. بناها (بابا سليمان)، ومن الطريف أن ننوه هنا بأن الكتاب الفارسي الموسوم، (كتاب قديم لتواريخ ووقائع متعلقة بتاريخ كردستان) الذي ترجمه ريج (المجلد الأول - الملحق الثالث) يسجل العام 1199هـ/ 1784 - 1785م لحادث البناء الثاني لمدينة السليمانية! وأوسع رقعة امتد إليها حكم البابانيين كانت عند ضم (كوي) و(بانه) من الشمال، وكفري وقره تبه، (أحياناً ومندلى وبدرة) من الجنوب. وفي العام 1820 قدر (ريج) عدد سكان السليمانية بعشرة آلاف نفس. ولست أملك آثاراً تاريخية معاصرة تدلني على الرقعة التي كان يشملها حكم آل بابان عندما كانت عاصمتهم (قه لاجوالان)[1] الجنوب بل في عصر عبد الرحمن

---

(1) في الفصل الثاني ذكرت زيارة المبشر الكرملي الراهب فيديليس (سنة 1749م). من المحتمل جداً=

باشا ابن عم باني السليمانية وخلفه الذي ما زال يحس المرء وكأن حكمه لم يمكن بعيداً عن زمننا، إذ ما زالت ذكريات عهد حكمه الكثير التقلب منطبعة في أذهان الناس المحليين، لأنه كان عهد استقلال كردي تام. والمصادر الكردية نفسها ليست بذات قيمة ولا تنير سبيلاً والمؤرخون المحليون المتأخرون وضعوا اعتمادهم على (ريج) وغيره من الباحثين الأوروبيين أكثر من رجوعهم إلى الأخبار والكتابات المحلية. ويبدو أنه لا توجد روايتان متطابقتان لأي حدث تاريخي قبل السنة 1800 وخير مثل لهذا هو الحكاية الشعبية الشهيرة المعروفة «بفرسان مريوان الاثني عشر» الذين قاموا بهجوم ليلي على جيش إيراني قوامه عشرة آلاف جندي وأرغموه على الهزيمة خوفاً. لقد وقفت على ثلاث روايات مختلفات لها، مع كونها ذات طابع عرضي إلى الحد الذي يذكر فيها بعض أسماء أولئك الأبطال أو كلهم ومحل الحادث: واحدة منها (وعي التي أوردها ريج) تزعم أنها وقعت في عهد (بابا سليمان) والأخرى تجعلها في عهد أحمد باشا (1763 - 1780) والثالثة تثبتها في عهد إبراهيم باشا الذي يفصل بينه وبين (بابا سليمان) قرن كامل.

وبعد عبد الرحمن باشا آض الاستقلال البابائي متقلقلاً متأرجحاً أكبر فأكبر، على أن شكل الإدارة ظل كردياً في جوهره حتى النهاية تقريباً. وبقي للأمراء جيشهم النظامي وغير ذلك من مظاهر الملوكية الإقليمية.

إن (ريج) الذي بقي أربعة أشهر في السليمانية بدعوة من محمود باشا، ابن عبد الرحمن (1813 - 1834م) يتحفنا بوصف دقيق رائع جداً للبلاط البابائي في ذلك الحين، ولدسائس باشا بغداد العثماني ومكائد الأمير الفارسي حاكم كرمنشاه، وما نجم عن ذلك من الشنآن والتباغض بين أفراد الأسرة المالكة. كما يأتي إلى وصف شخصيات رجال الدولة. وحفلات العرس والمآتم، والرقص، والألعاب الرياضية التي كادت تكون يومية، مثل اللعب بالسيف وإصابة الهدف بالرصاص وقتال الكلاب (والقبج) والمصارعة وسباقات الخيل.

=أن يعثر على شيء ما في مكتبة الفاتيكان يساعد على ملء هذه الثغرة في معارفنا.

وفي ربيع (1830) وجد السائح (مينيان) سليمان باشا (1828 - 1838) على كرسي الحكم، وهو أخ لمحمود باشا سلفه. ويذكر في معرض حديثه المقتضب إلى درجة مؤسفة، أن الحكومة كانت «تدار بين باشا كردي الولادة غير خاضع للأتراك أو للإيرانيين» وأن رئيس الدولة كان «صريحاً صدوقاً». ويصف (فريزر) في ربيع 1834 «دولة السليمانية الصغيرة» بأنها كانت «فريسة لشتى المحن والأرزاء، وصلت بها إلى آخر درك من البؤس والشقاء» ويقول أينزوورث (1837) إن الباشا استقبله خير استقبال وأكرم وفادته غاية الإكرام (لم يسمه لكنه كان سليمان باشا بلا جدال) وقال إن لديه «لواء من جيش نظامي هو بمثابة حرس خاص له، مع فرسان كرد غير نظاميين، وقوّاسين» والظاهر أن النفوذ الإيراني كانت له اليد الطولى، فقد شاهد في أول مواجهة له، مبعوثاً إيرانياً جعل مجلسه إلى يمين الباشا، ولم يذكر رؤية ممثل للسلطان العثماني في المدينة. ومهما يكن فإن الإيرانيين لم يكونوا آنذاك موضع حظوة لأن الباشا شكر الإنكليزي الذي كان يجلس عن يساره لملاحظة أبداها في صالح الأتراك وكانت «تتضمن تعريضاً بالإيرانيين».

وفي 1844 سجل (فيلكس جونز) رأياً عالياً في الأمير أحمد باشا (1838 - 1847) إذ ذكر أنه تمكن بعد عام واحد من توليه الحكم من «تنظيم وتدريب قوة عسكرية كبيرة على النظم الحربية الأوروبية الفنية، يبلغ عددها في الوقت الحاضر 800 مقاتل تقريباً».

أخيراً تمت هزيمة أحمد باشا قرب (كوي) في العام 1847 أمام قوات «نجيب باشا» والي بغداد وقضى على استقلال آل بابان الذاتي. وعين (عبد الله باشا) أخ أحمد باشا لإدارة شؤون السليمانية لا كحاكم مستقل دائماً وإنما كموظف عثماني برتبة قائمقام ثم عزله في 1851 وعين في محله موظفاً تركياً.

كادت وظائف الدولة أيام البابانيين تكون وراثية. إلا أنها لم تكن قط محصورة بأسرة معينة. ذلك لأن البيوت الكبيرة في كل بلدان الشرق تميل إلى أن تجتمع

بعضها ببعض في حزب أو أكثر. وفي السليمانية كانت التعيينات تختلف وتتقلب من يد إلى يد حسب هوى الحاكم أو بمقدار نفوذ الترك أو الإيرانيين «فحمود مصرف» (صديق ريج) كان يجمع بين منصبي رئيس الوزراء ووزير المالية (كما يدل عليه لقب - مصرف) وكان في الوقت نفسه المشرف العام على تنظيم حفلات الألعاب الرياضية التي تقام لتسلية ضيف كبير. ويمثله اليوم سليله (حمه ى عبد الرحمن آغا) من أسرة عزيز آغا، نسبة إلى عزيز ابن محمود مصرف البكر وهو الذي ذكره ريج بقوله «شاب وسيم تعلق بي كثيراً» وهناك أسرة (صاحبقران) المنحدرة من جد يدعى (أحمد بك صاحبقران) وهو أحد «فرسان المريوان الاثني عشر» حسب رواية واحدة من الروايات الثلاثة للقصة وابنه محمود، كان (باش جاووش = أمير لواء أقدم) أو قائداً عاماً لجميع القوات المسلحة التي تعود لأحد أمراء البابانيين المتأخرين. ومن مبرزي هذه الأسرة الشاعران مصطفى «كردي» وعبد الرحمن «سليم» وهما حفيدا ولدي عم لأحمد. وبعد جيلين من هذين أي في زمننا هذا نبغ فيها الشاعر (أحمد به گي فتاح بك) وصالح زكي وهو ضابط ارتقى إلى منصب إداري كبير. والسيدة عادله حلبجه هي حفيدة حفيد لأحمد بك الأول الذي كان يسكن (سنه). وهنالك أسرة ثالثة لا أعرف علاقتها بالبابانيين لقبها (حمد آغا) ومن مشاهيرها الجنرال (شريف باشا) الذي حضر مؤتمر الصلح في (فرساي) وإليه يعزى الفضل في وضع المواد التي تتحدث عن إقامة دولة كردية بين مواد (معاهدة سيفر). وأبرز أفراد الأسرة المعاصرين (أحمد به گي توفيق بك طابور اغاسى) الذي شغل متصرفية السليمانية ثم أربيل وسيتردد ذكره كثيراً فيما يلي. ومن أعضائها (حمه صالح بك) الذي كان ينتخب نائباً عن السليمانية في مجلس النواب العراقي باستمرار فأصبح (أب البرلمان) رغم شبابه النسبي وصمته المطبق أثناء المناقشات. وهناك أسرة أعلى شأناً من كل هذه الأسر وهي أسرة شيوخ البرزنجة التي سيكون أمرها من موضوعات الفصل التالي.

كان يوجد في السليمانية سنة 1919 عدد من أحفاد الحكام البابانيين الأسبقين

إلا أنهم لا يتمتعون بنفوذ ولا بثروة باستثناء (حمدي بك) حفيد سليمان باشا الذي ورث ضياعاً واسعة في ضواحي بغداد[1].

وجميل بك ابن حفيد إبراهيم باشا. هو ملاك كبير النفوذ يسكن قرب كفري. وقد انصرف عدد منهم إلى مزاولة المحاماة في محاكم بغداد. فوصلت ببعضهم إلى منصب الوزارة في الحكومات العراقية.

لا يفصل بين الاحتلال البريطاني وبين زوال إمارة بابان أكثر من سبعين سنة. ولا شك أن أغلب السكان الذكور كانوا قد سمعوا أول ما سمعوا من آبائهم تلك الحكايات الطريفة الساحرة عن أيام العز تلك، عهد الاستقلال الكردي، ولا شك أن القصيدة التالية التي نظمها الشاعر الكردي شيخ رضا الطالباني (1842 - 1920 ؟) تعبر أدق تعبير عن المشاعر التي يشارك فيها الجميع بلا ريب.

ولاتى بابان

لـه بـيـرم دى سـلـيـمـانـى كـه (دار الـمـلـك) ى بـابـان بـوو
نـه مـه كـوومـى عـه جـه م، نـه سـوخـره كـيـشـى ئـالـى عـوسـمـان بـور
لـه بـه ر قـابـى ى سـه را صـه فـيـان ئ هـبـه سـت شـيـخ و مـه لاو وزاهـيـد
مـه طـافـى كـه عـبـه بـو ئـه ربـابـى حـاجـه ت كـردى سـه بـوان بـوو
لـه بـه ر تـابـوورى عـه سـكـه ري رى نـه بـوو بـو مـه جـلـيـسـى بـاشـا
صـه داى مـوزيـقـه وو نـه قـقـاره تـا ئـه يـوان كـه يـوان بـوو
دريـغ بـو ئـه و زه مـانـه و ئـه و د هـمـه و ئـه و عـه صـره و ئـه و روژه
ك هـمـه يـدانـى جـريـدبـازى لـه ده شـتـى كـانـى ئـاسـكـان بـوو
بـه ضـه ربـى حـه مـلـه يـى بـه غـدايـي تـه سـخـيـر كـردو تـى ى هـه لـدا
سـولـه يـمـانـى زه مـان رراسـتـت ئ هـوى بـاوكـى (سـولـه يـمـان) بـوو
عـه ره ب ئـيـنـكـارى فـه ضـلـى ئـيـوه نـاكـه م ئـه فـضـه لـن، ئـه مـما

---

(1) ومن أملاكهم (الحارثية). استولى عليها ؟؟ فيصل وجعلها مغنى ريفياً.

(صلاح الدين) كه دنياى گرت له زومره ى كوردى بابان بوو
قوبووری بر له نووری ئالی بابان بر له ره حمه ت بی
كه باراني كه فى ئيحسانيا ن وه ك هه ورى نيسان بوو
كه (عبد الله باشا) له شكرى والى ى سنه ى شر كرد
(رضا) ئه ووه خته عومرى بينج و شه ش طيفلى ده بوستان بوو

بلاد بابان

أذكر السليمانية عندما كانت دار ملك البابانيين
لم تكن للفرس خاضعة. ولم تكن كالعبد يقودها بيت عثمان
أمام مدخل القصر كان الشيوخ والزهاد والملالي يقفون صفوفا
وكان مطاف كعبة أرباب الحاجة هؤلاء، «كردى سه يوان»
ولوقوف طوابير الجنود لم يكن يوجد مجال لدخول مجلس الباشا
وكانت أنغام الجوقات الموسيقية والنقارات ترتفع إلى «إيوان كيوان»
فواحربي على ذلك الزمان، على ذلك العهد، على ذلك العصر، على
كل ذلك اليوم لما كنت سهول «كاني أسكان» ساحة لعبة الجريد!
بهجوم واحد كاسح استولى على بغداد ودخلها فاتحاً.
وإن شئت الحقيقة فسليمان العصر والأوان هو ابن لسليمان
وأنا أيها العرب لا أنكر لكم فضلاً، إن فضلكم لكبير
إلا أن صلاح الدين الذي استولى على العالم كان من نسل البابانيين الكرد
ألا فلتملأ رحمة الله قبور آل بابان المنورة،
إن عطاء أكفهم أشبه بزخات مطر نيسان
وعندما هزم عبد الله باشا جيش والي «سنه»
كان عمر (رضا) خمس أو ست سنوات. كان طفلاً صغيراً في المدرسة[1]

---

(1) انظر الفصل (19) عن الشيخ رضا، و(كردي سيوان) هو بل منخفض في ضواحي السليمانية يقع=

ليس من السهل أن نستقر على تاريخ معين، أو أن نتخذ حدثاً تاريخياً محدداً كمرحلة بداية، أو حتى كنقطة تحول في ظهور الشعور الوطني الكردي بالمعنى الحديث. إن القومية الحديثة التي لا تشبه بمظاهرها الروح القومية القديمة تميل إلى تعليق أهمية كبيرة على اللغة. وهذا إذن يغرينا بأن نقرن أهمية خاصة بالعام 1892 وهو زمن مولد أول صحيفة كردية، وكان ذلك في القاهرة كما أسلفت. لكن حاجي قادر كوي (عاش في حدود 1817 - 1894) كان له من العمر (75) سنة عند صدورها. في حين كانت قصائده الوطنية تقرأ بحماسة في كردستان لذلك فهو يؤلف حلقة أدبية غير منفصمة عن تلك الأيام التي لم تكن بابان «للفرس خاضعة ولم تكن كالعبد يقودها بيت عثمان» على حد قول (شيخ رضا). وإن صدور صحيفة (كردستان) في 1892 وإحياء النشاط الأدبي الكردي خلال «شهر العسل» القصير الذي عقب انقلاب (جون ترك) في 1909[1]. والانطلاق الجديد الذي منحته للأماني الكردية ولا سيما بين ضباط الجيش المثقفين الكرد (مبادئ حق تقرير المصير التي وضعها الرئيس ولسن في أواخر أيام الحرب الكونية الأولى). كل هذا كان مجرد مراحل عندما طرح اقتراح تكوين دولة كردية تتمتع بالحكم الذاتي مرة أخرى - من السليمانية والمناطق الكردية الأخرى المجاورة - (وهي سياسة فرضتها على الحكومة البريطانية اعتبارات عسكرية أكثر منها سياسية).

بالطبع، كثيراً ما تستعمل دعوة القومية مثلما تستخدم العباءة لتغطية طموح

=في جنوبها الشرقي. وكما يدل عليه اسمه. كان الموضع الذي ينصب فيه السرادق الكبير للحفلات العامة. وهو الآن مقبرة. أما كاني أسكان (نبع الغزلان) فهو الآن حي من أحياء المدينة. وعبد الرحمن باشا كان زعيم الحلف العسكري الذي هاجم بغداد واستولى عليها في 1810 وطرد (سليمان الصغير) واليها ونصب في مكانه (عبد الله آغا) الملقب بالتونجي (بائع التبغ). هذه الحادثة ذكرها (ج. م. كنير J.M. Kinneir في كتابه (خاطرات جغرافية عن الإمبراطورية الإيرانية، 1813). أما تاريخ انتصار عبد الله باشا على الإيرانيين الذين قادهم إلى (سنه) فكان في العام 1842. إن اضطراب التواريخ التي أوردها الشاعر تفتقر إلى حماسته الوطنية.

(1) أول ناد سياسي كردي، أسسه كل من الجنرال شريف باشا وأمين بدر خان في إستانبول عام 1908.

زعيم فرض نفسه، أو مجرد تعلة تخفي تحتها تضايق القبائل الطبيعي من أي نوع من أنواع الإدارة المنظمة. ولا شك في أن (الشيخ محمود) وجد في نفسه (عبد الرحمن باشا) ثانياً، بوجود حكومة بريطانية مسايرة لينة، تتدخل لا لتفرض سلطاناً لها على حكمه الأوتوقراطي بل لتحول دون تدخل الإيرانيين والحكومات العربية التالية تباعاً. كان حكام كرمنشاه أو باشوات بغداد يتدخلون في أمور السليمانية لكن بالإضافة إلى ذلك، يوجد عند سكان المدينة بمختلف طبقاتها تلك العقيدة الراسخة التي تأصلت جذورها في تاريخهم، عقيدة ترى في المدينة نطفة البعث الوطني، وجرثومة دولة كردية واسعة الأرجاء كتب لها أن تكون عاصمتها. وليس لهذا الإيمان ما يبرره من حيث مظهر المدينة وهيئتها، ومن حيث أهميتها الاقتصادية، ومن حيث أهميتها التجارية أو مقامها العلمي أو من تجربة السكان السياسية. إلا أن هذه الأمنية بقيت عالقة في الجو لم تزل أو تتبدد. ويبدو أنها تمنح لما لم يكن أكثر من قرية صغيرة منعزلة شيئاً لا يمكنني إلا نعته «بالشخصية». بحيث يندر أن لا يستسلم الكرد لتأثيرها المسكر، أغراباً عنها أم عائدين من المنافي. وبذلك يصعب عليهم فراقها ولا يحرجهم البقاء فيها آماداً طويلة.

الباب الثاني

- 6 -

شيوخ وسادة

الشيوخ والسادة ومذاهب الصوفية تحتل فضاءً رحيباً من الحياة اليومية في كردستان مما يدعوني إلى استمهال كل ذي خبرة من قرائي، دقائق قليلة أقف فيها عند هذه النقطة لأستعيد ذكر جانب من تاريخ الإسلام الأول بالقدر التي يتصل بهذا الفصل وما يليه، لفائدة القراء الآخرين على الأقل[1].

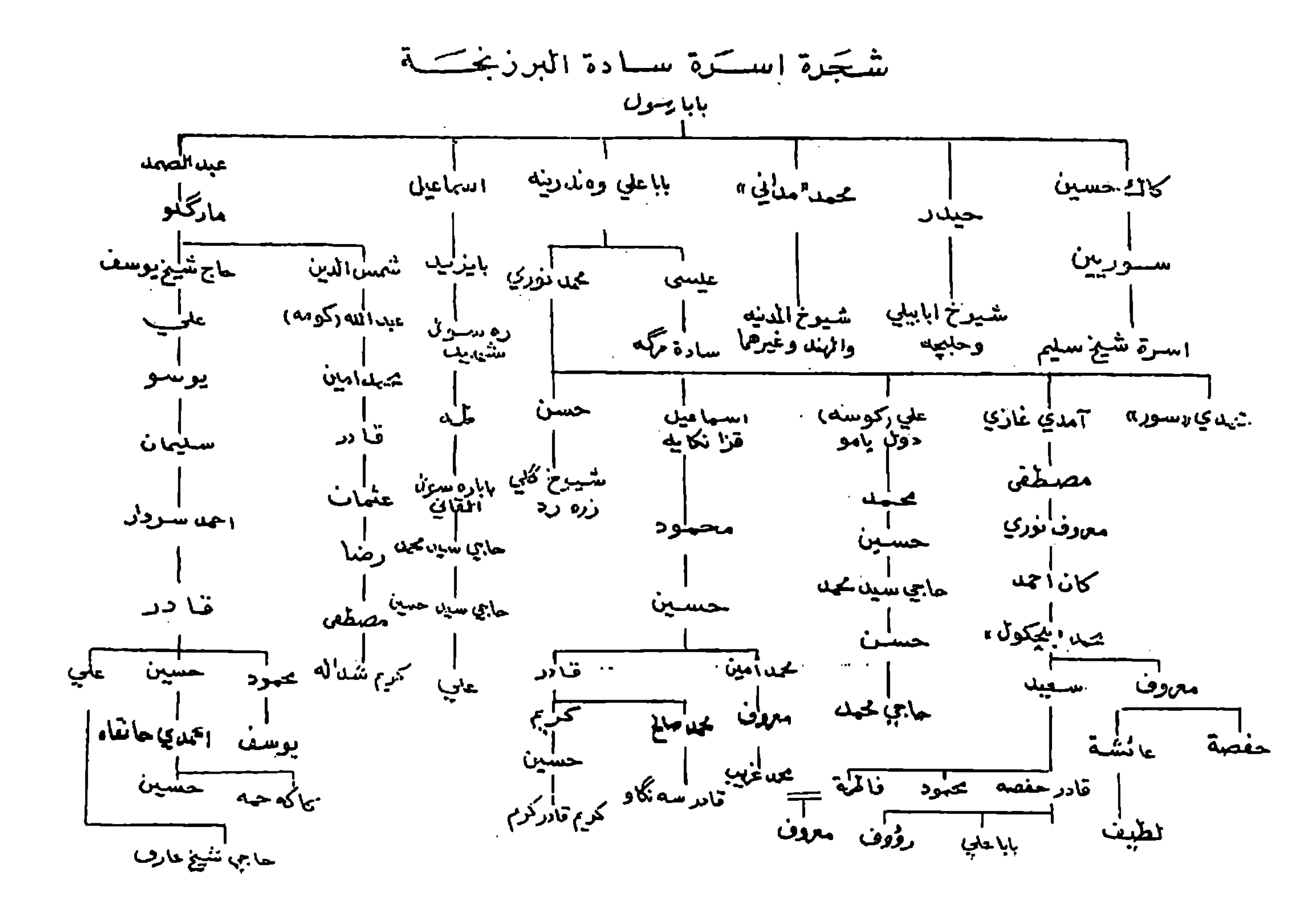
ولد محمد الرسول العربي في العام 571م في مكة وشرع في رسالة النبوة وقد شارف الأربعين. وفي العام 622م فضل مغادرة المدينة والانتقال إلى مكة وبدأ التاريخ الهجري[2] من هذا الانتقال. ولما حضرته الوفاة سنة 632 وجد أنه غدا الحاكم الفعلي على معظم شبه الجزيرة العربية، فضلاً عن تكوينه ديناً جديداً. إن صلة القرابة التي تربط كل الأشخاص الرئيسين الذين لعبوا دورهم في الأحداث التالية له، يمكن توضيحها بشكل شجرة أسرة.

---

(1) إن القسم الأول من هذا الفصل مبني بالطبع على مطالعات عامة، مع بعض الإيضاحات أو بكلمة أدق - مع تلوين للصورة هو ثمرة اتصالاتي الخاصة في إيران والعراق مع كل صنف من الرجال لعدة سنوات. وقد استفدت بعد أثار (براون) من كتاب (د.ب. مكدونالد D.B. Macdonald) الموسوم: تطور الفقيه وأصول الشريعة والعقيدة الأساسية عند الديانة الإسلامية. لندن 1903. ومقال نللينو Nallino' عن الصوفية في دائرة المعارف الإيطالية. وكتاب (د.م. دونالدسون D.M. Donaldson) الموسوم (مذهب الشيعة - لندن 1933). وكتاب هـ.أ.ر. كب H.A.R. Gibb الموسوم «الدين المحمدي» من سلسلة مكتبة الجامعة العربية 1949، التواريخ أوردتها بالتقويم الميلادي.

(2) وعلى هذا الأساس يتضح التمييز بين التاريخ الميلادي والهجري بوضع حرفي ب.هـ

شجرة اسرة سادة البرزنجية



كان أبو بكر (632م) أول خلفاء محمد(ص) وهو أقرب أصدقائه وحموه. وتلاه حمو آخر هو عمر (634م) ثم ختن له هو عثمان (644م) ثم ختن له آخر وابن عم هو علي (65 - 661م) وعرف هؤلاء باسم الخلفاء الراشدين. ولم يحل عام 650م حتى كانت الجيوش العربية قد انتزعت سورية من البيزنطيين، وقوضت صرح الساسانيين، وضمت بلاد فارس، ومعها العراق العربي إلى إمبراطورية إسلامية.

تعاقب الخلفاء هذا، لم يمر بسلام وإنما خلف أحقاداً وتناحراً. فقد اعتبط كل من عمر وعثمان وعلي قتلاً. وخلف معاوية علياً. فجعل حاضرة الخلافة دمشق وكان مؤسس أسرة مالكة عرفت باسم (بني أمية) وهو اسم جد معاوية الأعلى. وقتل الحسين بن علي من زوجه فاطمة بنت النبي في معركة جرت بينه وبين يزيد بن معاوية في ظاهر (كربلاء) بالعراق. وهكذا انشق العالم الإسلامي في العاشر من شهر محرم القمري للعام 680م إلى حزبين رئيسين، ما زالا يشقانه إلى يومنا هذا، فالأغلبية السنّة، أي (أهل السنّة) الذين قبلوا بالمنتصرين أمراء وحكاماً عليهم. والحزب الثاني الشيعة أو (حزب علي الشخصية الشرعية) الذين أصروا على أن منصب الخليفة يجب ألا يخرج من نسل علي وفاطمة.

وفي العام (750م) أزيلت أسرة أمية عن سرير الخلافة بثورة ساهم فيها الشيعة لكن السلطان لم ينتقل منهم إلى شخص من نسل علي، بل إلى فرع ثانوي، ينحدر من (العباس) عم النبي وعلي. ونقلت العاصمة إلى بغداد. ومنذ مفتتح القرن التاسع الميلادي راح الخلفاء يفقدون سلطانهم الفعلي شيئاً فشيئاً حتى آضوا فهم لا أكثر من ألعوبة بأيدي حرسهم الأجنبي حتى انقراض أسرتهم بهجوم المغول سنة 1258.

إن الوحي الذي نطق به محمد(ص)، جمعت آياته بعد حوالي عشرين سنة من وفاته في عهد (عثمان) وبكتاب واحد عرف بالقرآن (من القراءة). و«الشرع» أو «الشريعة» هو النظام القانوني والاجتماعي المستند إلى أصول القرآن، و(التقليد)

للأعمال والأحاديث المعزوة إلى الرسول في مختلف المناسبات. خرج من ذلك كله أربعة مذاهب دينية مقبولة من العموم يتبادل ذووها الاعتراف بها، وقد سميت بأسماء واضعيها ومنشئي أصولها وهي المذاهب: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وآخر الأئمة الأربعة هو أحمد بن حنبل المتوفى العام 855م وأغلبية الكرد العظمى هم من السنّة والشافعية.

إن عقائد الإسلام البسيطة البدائية، بل فقهها الأكثر عمقاً وتلويناً، الذي هو ثمرة مجهودات فقهاء القرن التاسع الميلادي، كان يعوزها العنصر الذي لا يستغنى عنه إن شاء أصحابه إبقاء نفوذه في نفوس معتنقيه من غير العرب في الإمبراطورية الواسعة، وهو العنصر العاطفي الروحاني. وبتأثير المذاهب المسيحية الشرقية سدت هذه الحاجة بالزهد أولاً، وبالتصوف أخيراً. وحيثما دعت الحاجة إلى نصوص لتحليل ممارسة الأول منها أو ليكون منطلقاً للثاني، وجدت في آيات القرآن. على أن الفكرة الصوفية «للحلول» أي الاتحاد الصوفي بالذات الإلهية إنما هي غريبة عن المفاهيم القرآنية بخصوص علاقة الله بالبشر إن تحرينا الدقة في الأمر. ومهما يكن فإن المتصوفة يدعون أن عقائدهم مستمدة من «أحاديث» وتعاليم خاصة أنهيت من محمد(ص) إلى أبي بكر وعلي: الخليفتين الأول والرابع. وبعد نضال مرير عنيف قبلت هذه العقائد المتطورة في إطار السنّة العام في القرن الرابع الهجري. إن أقطاب الصوفية الأولين عرفوا (بالمتصوفة) والكلمة مأخوذة من (صوف) ويقصد بها الخرق أو البتيات الخشنة التي كانوا يلبسونها وهكذا لصق بهم الاسم. ولكن لحق بالمذاهب الصوفية جملة من العقائد الميتافيزيقية، أدت في بعض الأحيان وبتأثير قوة أفكار «الأفلاطونية الحديثة» إلى أغرب العقائد والإنكار المطلق.

وغدا المذهب الصوفي دين الجماهير، وبات تلاميذ أولئك المعلمين الذين اشتهروا بتعاليمهم وحياة الطهر والنقاء في «طرق» أو أخويات دروشة، منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي في عصرنا هذا. ويقوم على رأس «الطريقة» وفرع من

«الطريقة» من يدعى الشيخ أو «ألبير» (أعني الرجل الكبير السن) ويكون هذا الشيخ بمؤهلاته التثقيفية «دليلاً» أو مرشداً أو زعيماً روحياً «للمريدين» أو التلامذة. وما التعليم إلا «طريقة» والمدرسة التي يجعلها الشيخ مقراً له هي «التكية» أو «الخانقاه». وبعد أن يعلن «المريد» الندامة أو التوبة «يأخذ الطريقة» من «الدليل» الذي «يعطيه إياها» فإذا سار فيها سيراً حسناً وأصبح بممارستها خبيراً فقد يمنح إجازة ويعين «خليفة»[1] أي خلفاً له أو مرشداً. فيكون أهلاً لتلقين تلك التعاليم لآخرين. فإذا بلغ درجة مناسبة من «الكرامة» كان له أن يظهر بمظهر «الشيخ» ويغدو (دليلاً) لجيل جديد من المريدين وكل إجازة بالطريقة يجب أن تتضمن قائمة كاملة بأسماء الخلفاء الروحيين متسلسلة حتى أبي بكر وعلي وهما المرجع الأخير لكل (طريقة) ويسمى أبناء هؤلاء الشيوخ شيوخاً، لكن وراثة اللقب وحدها لا تمكنهم من جمع مريدين مستجدين حولهم أو يتخذوا درجة «الدليل» إلا بعد أن «يأخذوا الطريقة» بالأسلوب المألوف. ومن يدّعي بأنه من نسل علي وفاطمة يلقب بالسيد (ج: سادة) وعددهم يبلغ الآلاف وقد يكونون من السنّة أو من الشيعة ورقعة انتشارهم تشمل كل أجزاء الشرق الأوسط. والسادة عادة كثيراً ما يسلكون «طريقاً» ويصبحون «شيوخاً»، على أن الشيوخ الذين لم يكونوا سادة، يتميزون في كردستان بلقب (شيخى به رمال = شيوخ السجادة).

وليست قوت الإتيان بالمعجزات قاصرة على مؤسس طرق الصوفية، بل تنصرف أيضاً إلى الشيوخ الخلفاء، المبرزين الذين اشتهروا بالكرامات في كل عهد. فهؤلاء يقابلون بالاحترام والخضوع في حياتهم، وبعد مماتهم تصبح قبورهم محجاً لمريديهم ومزاراً ويكاد يكونون محل عبادة وتقديس. واستتبع هذا أن مال خلفاؤهم إلى جمع الثروات، وطلاب السلطان الدنيوي. والطريقتان اللتان تضمان أكبر عدد من الأتباع في كردستان، هما الطريقة القادرية، والطريقة النقشبندية.

أوجد الطريقة القادرية المولى الشهير الشيخ عبد القادر الكيلاني «الجيلي»

---

(1) وهذا هو الشكل العربي للكلمة التي دخلت اللغات الأوروبية بمعنى خاص هو «الخليفة».

(1077 - 1166) وهي خير مثال لطريقة قدر لها أن تقع موقع القبول العام لتمام موافقتها السنّة. وظل سليل المؤسس يناط به منصب شيخ الطريقة وسادن الحضرة (القبر) في بغداد. وكانت الحكومة العثمانية تخلع على هؤلاء بالتعاقب الوظيفي لقب (نقيب الأشراف). وفي عام 1920 اختارت سلطات الاحتلال البريطانية (السيد عبد الرحمن النقيب) نقيب الأشراف يومئذ وهو أكبر شخصية سنية في العراق ليرأس أول مجلس وزراء وطني.

وأوجد «محمد بهاء الدين البخاري» (1317 - 1389) الطريقة النقشبندية وقد حظيت طريقته أيضاً بقبول السنّة. ويبدو أن أتباع هذه الطريقة غير المتعلمين في كردستان يميلون بصورة خاصة إلى مظاهر شاذة في ممارسة طريقتهم، إما بسبب عدم وجود شيخ عالي المقام في كردستان، مثل نقيب بغداد أو ربما لعلّة ما في هذه الطريقة.

في جنوب كردستان، يطلق على المريدين من أتباع الطريقة القادرية اسم «الدراويش» أما أتباع الطريقة النقشبندية فيسمون «الصوفية»[1] والظاهر أن الفرق لا يراعى في كردستان بدقة.

كانت طائفة الشيعة في مبدأ الأمر، حركة سياسية. وفي نظر المتشيعة يعرف علي ونسله المتعاقب لا بالخلفاء وإنما بالأئمة. وقد ظهر بينهم خلال عهود تالية أكثر من انقسام داخلي حول كيفية استخلاف الإمام. ومن هذه الفرق أهمها وأدعاها إلى التأمل فرقة «الإسماعيلية» التي تفضل الإمام السادس إسماعيل بن جعفر بكر أبيه، على أخيه الأصغر (موسى) وهو الذي قبلت به الأكثرية. وهؤلاء يعترفون بسبعة أئمة فقط، ويعرفون في التاريخ اسم (الحشاشين) وعرف الصليبيون زعيمهم المحلي في سوريا باسم (شيخ الجبل)، على أننا سنقصر الحديث على الأغلبية التي تعترف بأئمة اثني عشر، هؤلاء يبدأون بعلي وابنيه الحسن والحسين

(1) سأستخدم هذا التعبير عندما أقصد الأتباع الكرد من هذا المذهب.

(شهيد كربلاء) ثم يأخذون نسل الأخير إلى جعفر وموسى وينتهون باختفاء الإمام الثاني عشر في 873م.

ولم يتم تأليف أول الآثار الخطية للتقليد الشيعي، ولم يستن شرع ويقنن فقه لهم حتى القرن العاشر الميلادي، أي في أثناء سيطرة آل بويه (شمال إيران) على الخلافة[1]. ولا يعود تسلسل معظم هذه المصادر المذهبية إلى أبعد من الإمام السادس جعفر (الصادق) (702 - 765م) الذي كان يرأس مدرسة في المدينة. ومن الثابت أيضاً أن أبا حنيفة ومالك بن أنس اللذين أسسا مذهبين من مذاهب السنة الأربعة الكبرى كانا من تلاميذه، وفي أثناء إمامته انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس، ويبدو أنه كان زاهداً في الادعاء بهذا المنصب الأرفع. إن استنباطه فقهاً لمذهب منفصل سمي باسمه، كان من شأنه ولا غرو أن يوسع شقة الخلاف السياسي، ويخلدها إلى الأبد. وفي رواية تاريخية أن الانقسام العظيم في «العالم الإسلامي كاد يرأب صدعه، بقبول الشيعة في عالم السنّة، اتباعاً لمذهب خامس وهو المذهب الجعفري الذي رسم أن يكون مركزه الشرعي مساوياً لأي مذهب من المذاهب السنية الأربعة الأخرى. إلا أن المفاوضات انقطعت بسبب الخلاف على مقدار المال الذي سيدفع لخليفة ذلك الزمن عربوناً لإبرام الاتفاق. وهكذا اتسع الخرق بمرور الزمن، وزاد حدة واشتغالاً بتولي (الشاه إسماعيل) عرش إيران في العام 1502 وفرضه المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة. وتم بعث مآتم محرم التي كان البويهيون قد أوجدوها في بغداد، وزيد فيها كثيراً، وأدخل (لعان) الخلفاء الثلاثة الأولين أبو بكر وعمر وعثمان في الصلاة. وكل هذا ولا شك جزء من معركة كان يراد بها استثارة عواطف السكان ضد العدو القومي تركيا وهي

(1) يكتب بعض الباحثين الأوروبيين اسم البويهيين هكذا Buya وأحياناً هكذا Buwaih وفي اللغة العربية غير المحركة يمكن قراءته بشكل واحد. أما أنا فضلت رسمه هكذا Buyid وربما دفعني إلى هذا، السبب الذي قد لا يكون وجيهاً وهو أني كنت مسافراً من قزوين إلى (لاهيجان) على بحر قزوين سنة 1920. فمررت بالقرب من قرية تسمى (بويه) Buya يزعمون أنها مسقط رأس هذه الأسرة من السلاطين.

الدولة التي زعم سلاطينها أنهم تسلموا (الخلافة)، مثلما كان يقصد بها إثارة بعض رعاياها للانتقاض عليها. وفي العام 1746 بعد انقراض الأسرة الصفوية. قام (نادر شاه) السني بعقد معاهدة من عدة معاهدات مع تركيا أنهت حالة الحرب وألغي بموجبها اللعان العلني للخلفاء الثلاثة ولعائشة زوج النبي وتقرر أن يعود المذهب السني، مذهباً رسمياً للدولة الإيرانية. على أن مقدمة المعاهدة تشير إلى أن (نادر شاه) حاول في أثناء المفاوضات أن يحصل على اعتراف السلطات بالمذهب الجعفري مذهباً خامساً، من السنّة. والآن ينص القانون الأساسي العراقي لسنة 1924 على أن تطبق كل محكمة شرعية قواعد المذاهب المختلفة حسبما تتطلبه كل قضية، وأن القاضي المعين يجب أن يكون على مذهب أغلبية السكان في حل وظيفته، وينصب في كل من بغداد والبصرة قاضيان: شيعي وسنّي إلا أن التناحر على السلطان السياسي والإداري لم يعتوره وهن، وإنما زاد نتيجة للمساواة أمام الدولة وهو حق غنمه الشيعة.

تعرض الشيعة الأوائل أثناء تطويرهم عقيدتهم إلى تأثيرات تكاد تكون مشابهة لما تعرض له معاصروهم السنّة. لكن يبدو أنهم كانوا متسامحين إذ فسحوا سبيلاً لدخول طقوس وعقائد عتيقة معينة كانت شائعة في غرب آسيا، كانوا في هذا أكثر تسامحاً في إدخال «الأفلاطونية الحديثة» وهي العقيدة التي أثرت تأثيراً عميقاً في تطور التصوف عند السنّة. وقد وجد بعض هذه العقائد لنفسه مكاناً في المبدأ الأساسي الذي حدّد وميز المذهب الجعفري كما استقرّ أمره. تلك هي عقيدة الأئمة التي تقضي - إلى جانب أمور أخرى - بأن الأئمة الاثني عشر أطهار معصومون منزهون ذوو صفات فائقة الطبيعة البشرية مما لا يكون إلا للآلهة. ولكن كان يوجد في تضاعيف هذا الجوهر عناصر لا يمكن أن تماشي هذا الخط التهادني، لم يكن ثمة مفر من تطورها أو إحيائها. وهي عقيدة «التجسد» و«إعادة التجسد» و«الحلول» وأمثالها مما يشبه شبهاً كبيراً شطحات الصفوية. والجانب الشيعي يطلق على هؤلاء اسم (الغلاة) ويدرجونهم في صنف الكفرة المنحرفين.

إن المذاهب السنية كانت دوماً أرحب صدراً وأبطأ في تكفير الجماعات التي لا تعلن انفصالها عنها.

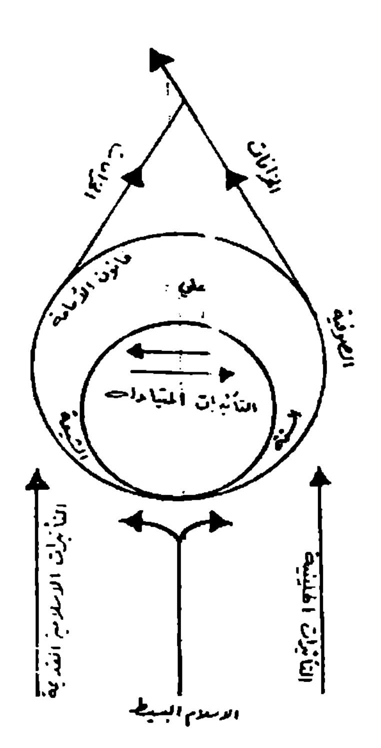
وبهذا نصل إلى نقطة يصعب معها التفريق بين السنّة من اليمين، والشيعة من اليسار. وعندما تكرم فئة معينة الإمام علياً فلا يكفي هذا بحد ذاته لنجعلها في عداد الشيعة (يجب ألا يعزب عن البال أن علياً فضلاً عن كونه إمام الشيعة الأول، فهو أكثر الخلفاء الراشدين إنسانية وسجايا وهو في عقيدة الصوفية أحد اثنين فقط أنهيت إليهما تعاليم محمد السرية). وللسادة احترام خاص في نفوس السنّة كما هم عند الشيعة. مع أنه لا يقدم أي شيعي على تسمية ابنه أبي بكر أو عثمان أو يزيد عادة[1] في حين شاعت أسماء علي والحسن والحسين وجعفر عند السنّة كأي اسم شائع آخر. إلا أن السحب يبدو أقوى من اليمين إلى اليسار، لا من اليسار إلى اليمين، وحيثما برزت أسباب سياسية صعب على أية فئة أن تتخذ موقف الحياد التام منها. فما أن تفسح فئة الموضع الأرفع للأئمة الاثني عشر حتى يمكن القول باطمئنان إنها من الجانب الشيعي، والمخطط التالي قد يعين في توضيح محتوى العبارة.

ويقوم الصفويون أنفسهم نموذجاً كلاسياً (تاريخياً) لبعض الانحرافات التي ذكرناها. فالشيخ صفي الدين الجد الأعلى الذي سبق حفيده إسماعيل (مؤسس الدولة الصفوية) بستة أجيال، ولد في العام 1252م ووصل درجة (الدليل) بالطريق المألوف بعد فترة من التلمذة على الولي الشهير (شيخ زاهد الجيلاني) وأسس في أردبيل (1300م) طريقة مستقلة سميت باسمه (صفوي) وكل الدلائل تشير إلى أنه

---

(1) هناك استثناء طريف عن هذه القاعدة وقعت عليه مؤخراً بشخص أخوين اسمهما (عمر) و(عثمان) وفسر لي اللغز بأن أباهما كان يفقد كل طفل يرزق به في عهد الحداثة بينما كانت بناته يعشن كلهن. فنذر أن يسمي أولاده بهذه الأسماء إن رزق بهم تدفعه الفكرة الشائعة هنا وهي أن الأطفال الذين يطلق عليهم أسماء غير مألوفة لا تطالهم العين الشريرة بسوء ولا تحل بهم مصيبة. (ملاحظة المترجم هذه العادة التي تمت إلى الخرافات بوشيجة وثيقة زالت الآن ولم يعد لهما من أثر تقريباً في بلادنا).

كان هو وابنه سنيا، وطريقته الصوفية اعتيادية ما بها شذوذ إلا أن حفيده (خواجة علي) الذي خلفه في المشيخة سنة 1392 كان أول من أظهر ميولاً شيعية. وأثر عن (جنيد) حفيد خواجة علي أنه تمكن من تجنيد عشرة آلاف مقاتل من مريديه. وفي العام 1502 بلغت قوة (إسماعيل) حفيد (جنيد) ما مكنته من الوثوب إلى العرش الإيراني. ومع أن الدراويش الجوالين في أرجاء البلاد بأعداد كبيرة لم ينظموا طريقة خاصة. فيبدو أنهم كما أسلفت قد مهدوا لجو سني أكثر صلاحاً من الجو الشيعي لتقدمهم وازدهار شأنهم. ومهما يكن من أمر فإن الطريقة الصفوية كانت عاملاً حيوياً للنمو على خطوط سنية صوفية بحتة مدة قرن آخر بعد (خواجة علي) حتى عصر (إسماعيل) نفسه الذي كان يقدسه صفوة جيشه المنتخبة لا بوصفه ملكاً لهم بل (بيرا) وعرف في أوروبا بلقب «الصوفي الأعظم» أكثر من لقب ملك. وكما يظهر - أن بكتاشية الأناضول الذين سأتحدث عنهم في فصل تال اعتنقوا هذه الطريقة.



من بين كثير من العلامات الأرضية التي فرضت نفسها على ذكريات السياح في منطقة الحدود التركية الإيرانية القديمة (هي الآن الحدود العراقية الإيرانية) تبرز أكثر وقعاً على النفس من غيرها قمتان توأمان للجبل الأشم المعروف (كوره كازاو) بارتفاعهما 7300 قدماً و7250 قدماً. وفي منعطف في نهايته الجنوبية وعلى بعد ثلاثة أميال من القمة الصغرى، وأربعة عشر ميلاً شرق مدينة السليمانية تقوم القرية الكبيرة (برزنجه) التي سميت باسمها أسرة من أكبر الأسر عدداً وأعظمها نفوذاً من (سادة) جنوب كردستان.

يقال إن مؤسس هذه الأسرة شيخ اسمه (عيسى نوربه خش) وهو ابن (بابا علي همداني) وابن أخ (بابا طاهر أوريان) الشاعر والصوفي الفارسي المشهور. إن شجرة الأسرة[1] تثبته سيداً من الجيل السابق للإمام السابع (موسى الكاظم)[2] ويروى أن (سيد عيسى) انطلق من همدان برفقة أخيه (سيد موسى) لأداء فريضة الحج إلى مكة. وبوصولهما إلى المدينة أوحي إلى كل منهما في حلم واحد أنهما سيلقيان في موضع ما في الطريق أمامها - صخرة كبيرة سوداء، يجب عليهما أن يحملاها حيثما رحلا حتى يطلب منهما في الحلم أن يقفا ويبنيا مسجداً في موضع وقوفهما وتم ذلك في رحلة العودة، وكان الموضع هو برزنجة الحالية. فقد اضطجعا بعد يوم شاق للنوم أمام (بهر زنج) وهو كوخ من فروع الشجر أقامه أحد الرعاة. وهنا سكنا إطاعة للأمر الإلهي وبنيا المسجد القائم الآن في موضع نومهما. ووضعا الحجر الأسود بمثابة

(1) على أن أتقدم بالشكر لصديقي سعادة الشيخ بابا علي، لتزويدي بنسخة تكاد تكون كاملة من الشجرة المحفوظة لدى أسرته ومساعدتي على التحقيق وتصحيح المواد التي جمعتها أيام وجودي في البلاد، كذلك أشكر سعادة محمد سعيد قزاز (وزير الداخلية سنة 1957) للمعلومات الهامشية عن أصل حاجي شيخ عارف سه ركه لو. وشيخ عبد الكريم شه ده له الذي سيأتي إلى ذكرهما في الفصل الرابع عشر.

(2) إن السلف المتوسط على النسق الصاعد هم السادة (بابا علي، يوسف، منصور، عبد العزيز، عبد الله، إسماعيل).

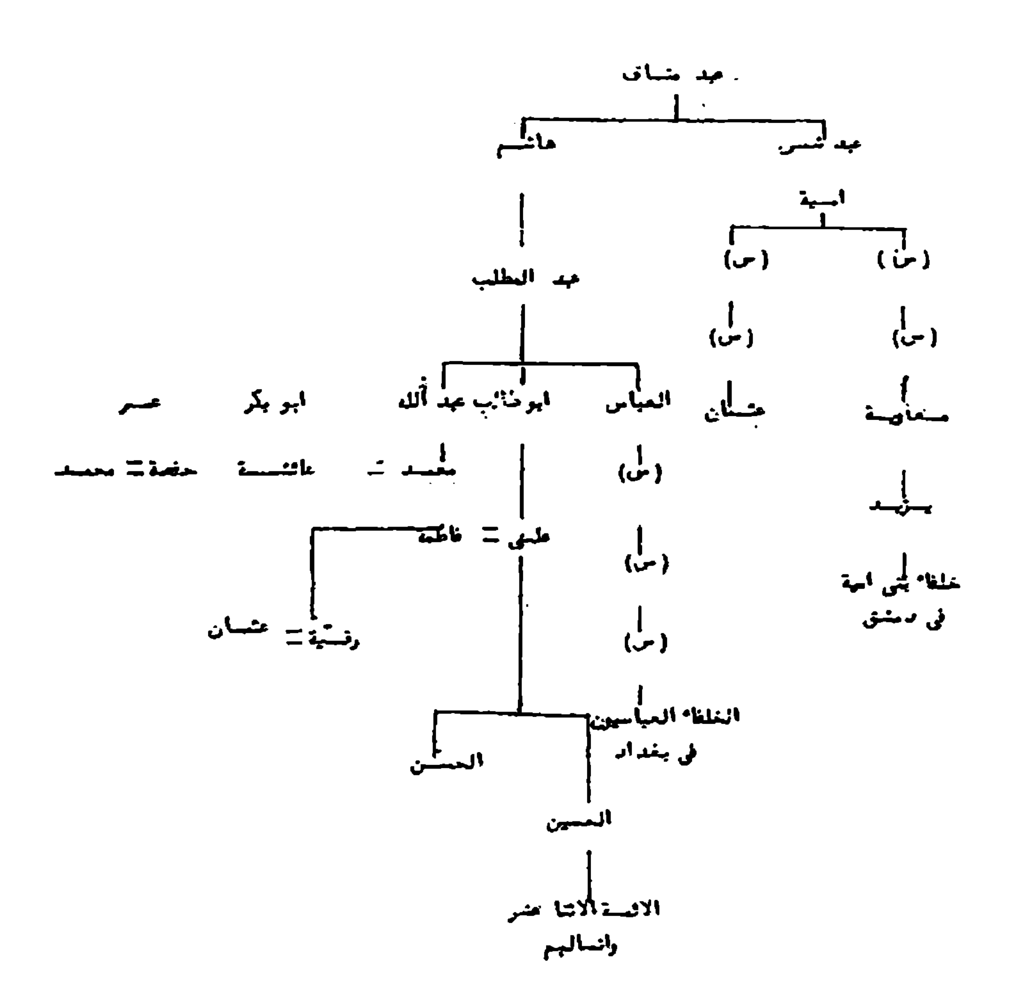
حجر أساسي تذكاري في أصول أحد الجدران، ويعطى لهذا الحادثة تاريخ (656هـ/ 1258م) وهي السنة التي دالت فيها خلافة بني العباس على يد المغول.

وعند زيارتي الثانية (لبرزنجة) في العام 1919 أتحفني سادتها برواية أكثر تفصيلاً وتزويقاً للقصة الخلابة جديرة بالتسجيل هنا وإن كانت تتضمن متناقضات خطيرة قد تنسب إلى الاختلاف الزمني المتسبب عن الخلط بين (سيد موسى) الأخير وسلفه الإمام موسى السابع المتقدم. تقول الحكاية إن هارون الرشيد صادف في إحدى جولاته التنكرية في بغداد، رجلاً يهم بأكل لحم جحش ميت. فراح يعنفه على عمله القبيح، فأجاب الرجل إن لحم الميتة حلال لمن يكاد يموت جوعاً. فأعطاه الخليفة مسبحة غالية الثمن وأشار عليه ببيعها وشراء طعام حلال. فأخذ الرجل المسبحة إلى صائغ يهودي. ولما تأكد هذا من وضع الرجل اليائس ورقة حاله، ادعى أن المسبحة هي واحدة من حاجات سرقت من داره قبل فترة من الزمن ورفع بذلك شكوي إلى القاضي دعمها باثنين من الشهود يهوديين تنكرا بهيئة السادة ووضعا عمامتين خضراوين على رأسيهما. فقبل القاضي بشهادتهما وأمر بقطع يد الرجل الفقير. وبعد يومين أو ثلاثة التقى الرجل المسكين بهارون الرشيد مرة أخرى واستجداه صدقة فعرفه الخليفة وأخذ يعنفه لسفاهته قائلاً إن ثمن المسبحة يكفيه ذل السؤال ويكفل له العيش الرغيد مدة سنوات. فقص عليه ما وقع، فتميز الخليفة غيظاً وأمر بالصائغ وشاهديه أن يقتلوا ولجهله بمسألة انتحال اليهوديين صفة السادة، أمر بإلقاء القبض على جميع السادة في بغداد وقطع رقابهم. ولهذا السبب هرب كل من السيدين (عيسى وموسى) إلى همدان وقرروا بعد فترة أن يحجا إلى مكة فوقع لهما الحادث الذي رويناه.

إن بروز أسرة البرزنجة ذو أهمية في تاريخ تطورات اجتماعية معينة وتاريخ زعامة روحية مخصوصة في جنوب كردستان وهي تستأهل بضع فقرات تحليلية.

شجرة الأسرة الهاشمية

(انظر ص106)



تشير شجرة الأسرة إلى أن السيد (موسى) توفي بلا عقب. وكل أفراد الأسرة الموجودين الآن في كردستان أو من أثر عنه السكنى منهم في تركيا وسوريا والهند وغيرها من البلدان إنما ينحدرون من صلب بابا رسول الملقب گه وره = العظيم الذي يمثل الجيل التاسع ابتداء من السيد عيسى[1] وقد رزق (بابا ره سول) هنا بثمانية عشر ابناً وتسع بنات. ولكن لم يختلف من أبنائه المذكور، غير ستة. والذي أثبتناه في اللوحة هنا (وهو مقتبس من شجرة الأسرة) يوضح تعاقب السادة البارزين الذين جاء ذكرهم في الكتاب. لقد خلف (بابا رسول) ابنه (إسماعيل) في مقره ببرزنجة وما يزال أحفاد هذا موجودين هناك وفي القرى المجاورة. وثمة عدة فروع للأسرة عرفت بأسماء القرى التي أسس الأخوة الخمسة الباقون أو ذريتهم تكيات ثانوية فيها مثل (سه ر گه لو، قازان قايه، دول به مو، نودي) إلخ..

هناك تاريخ هام يعرض في دراسة تاريخ الأسرة هو عام (1207هـ/ 1792 - 1793) حيث وجه السلطان سليم إلى السيد طه الذي هو ابن حفيد إسماعيل (الجيل الرابع ابتداء من بابا رسول) فرماناً يتضمن وقف بعض الضرائب لنفقات المسجد. فإن كان السيد طه في ذروة نفوذه يتمتع بتقدير السلطان في تلك الفترة فليس من المعقول أن نفرض تاريخ ميلاده في حدود عام 1745.

هناك تاريخ آخر يمكن التأكد من صحته، وهو تاريخ الشيخ (معروف نودي) وهو جد الشيخ محمود، الذي كان مركزه يبشر بالارتفاع لما كان (ريج) في السليمانية سنة 1820م. وبحسب التعليقات الملحقة بطبعة للكتاب المعروف باسم «أحمدي» تم طبعه في السليمانية عام 1931 (وهو مجموعة قصائد باللغتين الكردية والعربية)، نجد أن مؤلفه «الشيخ» قد ولد في (1166هـ/ 1752 - 1753م) وتوفي في (1252هـ/ 1836 - 1837). ونظراً إلى كتاب «مناقبي كاك أحمدي شيخ» المطبوع

---

(1) إن السلف الأوسط، حسب الترتيب التصاعدي هم السادة عبدو السيد، ورسول، وقلندر، وعبدو السيد وعيسى أحدب، وحسين، وبايزيد، وعبد الكريم قطب.

في السليمانية عام 1939، يتضح أن الابن كان قد ولد سنة (1207هـ/ 1792 - 1793) عندما كان أبوه في الأربعين، وتوفي في (1305هـ/ 1887 - 1793) وهو في سن الخامسة والتسعين.

وبهذا يكون كل من السيد طه البرزنجي، وشيخ معروف نودي، متعاصرين أولهما يمثل الجيل الرابع بينما يمثل ثانيهما الجيل الخامس ابتداء من (بابا رسول) وفي بلد يسمح بتعدد الزوجات، ترى أبناء الأسرة الغنية يميلون إلى اتخاذ الزوج الأولى وهم في مقتبل العمر، إلا أن معدل الوفيات عال، ويميل الرجال الطاعنون في السن إلى اتخاذ زوجات يصغرونهن بكثير. ولا أعتبر السن المتراوحة بين الثلاثين والأربعين سناً كبيرة جداً لغرض جعلها معدل من جيل من الأجيال. وإني أجهل أعمار المعاصرين من سادة أسرة (نودي) على وجه الدقة، ما عدا تاريخ ولادة الشيخ محمود (1880)[1]، وولادة ابنه بابا علي (1915) ولا يمكن أن يكون هذان التاريخان بعيدين عن الواقع وكلاهما يقدمان معدلاً قدره (32) أو (33) سنة للجيل الواحد منذ الشيخ معروف فنازلاً. ولنفترض المعدل (33) سنة بالنسبة إلى فرع (نودي) و(40) سنة بالنسبة إلى فرع البرزنجة. وبهذا نستطيع أن نفترض عام 1585م أو نحوها، لميلاد (بابا رسول) وعلى هذا يمكننا القول باطمئنان تام أنه عاش في مفتتح القرن السابع عشر.

وإذا كان بناء المسجد قد حصل في 1258م فمن المعقول افتراضنا عام 1225 لميلاد (سيد عيسى نوربخش) وهذا يزودنا بمعدل مقبول قدره (40) سنة بالضبط لكل جيل من الأجيال التسعة - ابتداء من سيد عيسى - حتى بابا رسول. وتلوح المصاعب أمامنا عند هذا الحد. فشجرة الأسرة تقدم سبعة أجيال فقط لأربعمائة وثمانين سنة، ابتداء من سيد عيسى حتى الإمام (موسى) الذي ولد في حدود عام

(1) توفي الشيخ محمود في 9 تشرين الأول 1956 - وفي كلمة تأبينية عنه وردت في إحدى الصحف الصادرة في السليمانية، ذكر أن ميلاده كان في العام 1298هـ/ 1880 - 1881م.

745م. ولا يعرف الكثير عن حياة (بابا طاهر) رغم شهرته المستفيضة. ولكن يتضح من رواية اقتبسها (براون)[1] أنه كان رجلاً كامل الصفات، يعيش في همدان أيام زيارة للمدينة قام بها الملك السلجوقي في طغرلبك فيما بين 1055 - 1060م. وأما الأجيال الستة المبتدئة بالإمام موسى والمنتهية بابا طاهر فمعدل ينقص قليلاً عن (40) سنة للجيل الواحد منها هو معدل مقبول. لكن لو كن (بابا علي) أخاً (لبابا طاهر) فهناك ثغرة تزيد قليلاً عن مائتي سنة (ستة أجيال) بينه وبين السيد عيسى.

إن تغلب الفرع النودي من الأسرة البرزنجية، يعود تاريخه إلى حادث تحقير وهروب (مولانا خالد) الشيخ الدليل النقشبندي المشهور - من مدينة السليمانية في سنة 1820. وإلى هذا الشيخ يرد عدد لا يحصى من شيوخ الطريقة في كل أنحاء العالم الإسلامي. تحصيلهم الروحي. وهناك رواية متداولة عن كراماته ومكانته، وكيفية سقوطه الأدبي أثبتها (ريج) هكذا:

«24 حزيران: - يعيش في السليمانية ولي عظيم مسلم يدعى شيخ خالد. لكن الكرد يعتبرون أنفسهم كافرين إذا أشاروا إليه بأي اسم خلا «حضرتي مولانا» ويتحدثون عن أقواله، كأنها وحي أو «حديث نبوي». وهو من قبيلة الجاف ودرويش على الطريقة النقشبندية التي اعتنقها في دلهي، على يد الصوفي الشهير (سلطان عبدالله) ويبلغ عدد مريديه اثني عشر ألفاً وهم منتشرون في أنحاء تركيا وجزيرة العرب. ويطلق عليه الكرد جميعاً اسم «أوليا» أو الولي، ويساويه كثيرون بنبيهم (محمد). ومن مريديه الباشا نفسه وعثمان بك شقيق الباشا الأصغر وكل المبرزين الكرد تقريباً. وقال لي عثمان بك أنه مساو للولي المسلم المشهور الشيخ عبد القادر على الأقل».

«20 تشرين الأول: - في صباح هذا اليوم هرب الشيخ خالد العظيم. ولم تعرف الجهة التي سلكها حتى الآن... وكان فراره مفاجئاً وسرياً.. قبل هروبه كان

---

(1) تاريخ الأدب الفارسي A Litrary History of Persia 1926 المجلد الثاني، ص117 و260 (طبع كمبردج).

الكرد يرفعون منزلته فوق الشيخ عبد القادر. وكان الباشا يظل واقفاً في حضرته، ويضع في غليونه تبغاً. أما اليوم فهم يكفرونه، ويرددون الحكايات عن كفره وإلحاده. وكان سبب فقده مكانته وفاة ابن الباشا (في 12 تشرين الأول). فقد ادعى أنه سينقذه من الموت، وأنه فحص ما كتب الله في سجلاته عنه... إلى آخر هذه الأقوال. واختلف الرواة في تفسير فراره اختلافاً كبيراً. وزعم بعضهم أنه دأب على الوقيعة بين الباشا وأخوته الذين كانوا يريدون منه أن ينضم إلى حزبهم. وقال آخرون إنه اعتزم إنشاء طائفة جديدة، وجعل نفسه السيد الروحي والزمني للبلاد، وكل العلماء والسادة وعلى رأسهم الشيخ معروف كانوا من مبغضي الشيخ خالد لأن سلطانه ونفوذه كان يكشف نفوذهم طوال وجوده».

إن فرار مولانا خالد ما يزال من الحكايات المتداولة في السليمانية حتى يومنا هذا وقد سمعت الشائع بين الناس أن السبب الحقيقي لفراره هو فشله في مسابقة عمل معجزات جرت بينه وبين الشيخ معروف، فسقطت هيبته سقوطاً تاماً (ولعل هذه المسابقة كانت لها علاقة بالدواء الذي وصف لابن الباشا المريض).

ألف الشيخ معروف كثيراً من الكتب الدينية. وإلى جانب اقتران اسمه بحادث الشيخ خالد، فإنه يذكر مقروناً عادة بكتابه «كتاب ئه حمه دى» الذي نوهت به قبلاً[1] وهو من كتب تعليم اللغة العربية تعليماً سهلاً لا مشقة فيه. فيبدأ مقدمته الشعرية بحمد الله والثناء عليه إلى أن يقول: «في هذا الكتيب المدون باللغة الكردية أريد تبسيط اللغة العربية بحيث يتمكن ابني أحمد من دراسة المفردات دون مشقة، ولهذا سميته (ئه حمه دى)» وهذا القول لا يتفق مع أمزجة كتاب السيرة الذين ادعوا أن اسم الكتاب وولادة الصبي (أحمد) هما من قبيل المعجزات، مستندين إلى أن صاحبه ألفه قبل ميلاد الصبي بثلاثة أعوام لما كان كل من الأب والأم قد بلغا من العمر عتياً ويئسا من إنجاب البنين مثل (إبراهيم الخليل وزوجه

(1) لهذا الكتاب طبعتان أخرجتها المطابع المحلية: مطبعة رواندوز 1926، ومطبعة السليمانية 1936.

سارة). إن المقارنة بين تاريخي ولادة الأب والابن توضح على كل حال أن المؤلف لم يبلغ التاسعة والثلاثين والأربعين بأي حال عندما ألف وأنجب.

ولا شك أن الشيخ معروف وهو في الثامنة والستين كان - بمركزه الثانوي - أبعد عن لبس الجبة التي تركها منافسه الشهير في الميدان وهرب ولذلك بقي (لكاك أحمد) ابنه أن يسبغ على شخصه الكرامات والمهابة المتأتية، من ضروب الدجل والشعبذة التي أتاها، فتلقى عنها ما اعتاد الكرد البسطاء إغداقه من التقديس على وليهم المختار. ولم يعف الزمن عن شهرته، ولم ينل منها سلوك بعض خلفائه المعيب[1]. وقد نشر حاجي توفيق أفندي (بيره ميرد) كتابه «كرامات الشيخ كاك أحمد) باللغة الكردية. ويحتوي على مقدمة بقلم الناشر ينوه فيها بشهرة المؤلف العالمية ويورد على ذلك دليلاً، هو أنه كتب إلى الملكة فكتوريا متوسطاً لراجا الهندي ارتكب خطأ فلم تكتف الملكة بالعفو عن الراجا وإنما كتبت للشيخ رداً على رسالته. ويحتوي فضلاً عن هذا على زهاء ثمانين صفحة من السيرة والحكايات المترجمة عن الفارسية. وهي بالأصل من إملاء «عزيزي عثمان آغا» وكيل الشيخ في شؤونه البيتية والعائلية الملقب «خواجة أفندي» على أسلوب سير الأولياء العظام السابقين.

وليس عمل الكرامات جزءاً أساسياً أو مستحسناً (عند البعض) أو من ممارسة صناعة الدروشة والشيوخ الأدلة، فالهيبة والشهرة ورفعة المقام تعتمد عملاً وإلى مدى واسع على درجة نجاح «الدليل» في إقناع الناس بحيازته قوى خارقة للطبيعة (ذو كرامة) وفي كردستان تكون خير الكرامات وأجلب المواهب للاحترام، المقدرة على جعل الإنسان محصناً من الطلقات النارية بكتب سحر (أحجبة = حجاب) يحملها المرء أو يخيطها في ثيابه محزومة في جيب صغير من قماش ملون - ولهذا الحجاب اسم خاص هو (گله به ند أو حاجز الرصاصة) ولذلك خصص له كتاب الكرامات هذا جانباً كبيراً من البحث.

---

(1) اتخذت الأسرة لقب «حفيد زادة» ومعناه «أولاد الحفيد الأكبر» ويفهم أنه من الجد الأعلى (النبي).

لما حضرت الشيخ معروف الوفاة أوصى ابنه بأن يؤدي فريضة الحج، وينتظر هناك وصول رجل كبير، يملك المفتاح الأصيل لمعرفة قيمة الأحرف الأبجدية السحرية، وأهمية بعض الأرقام العددية. وعن الكرامات التي تأتيها آيات معينة من القرآن. فلم يكن لكاك أحمد إلا أن يلبث في مكة ثلاث سنوات إلى أن بعث الله إليه بهذا الرجل المبارك من مراكش! فأخذ عنه السر حالاً وقبل أن يجرب الطلسمات في الآخرين عمد إلى تجربتها في نفسه كما يأتي:

كان يوجد فتاة موكلة بتوزيع القوت اليومي على تلامذة المدرسة الدينية في مسجد السليمانية الكبير، وقعت في غرام وجه جميل وصوت عذب لتلميذ من أولئك التلاميذ، وحاولت إغراءه كما حاولت امرأة (فوطيفار) إغواء يوسف الصديق، ولما فشلت، اتهمت الشاب بمحاولته الاعتداء على شرفها. وكانت الظروف لا تدع مجالاً للشك في صحة التهمة. ورفض أحمد باشا الصارم، كل المجهودات التي بذلها كاك أحمد (الذي كان يعرف الحقيقة بالطبع) لنيل العفو عن عقوبة الموت. وبينما كان الحرس يقودون التلميذ إلى الأكمة لتنفيذ الحكم وهو مشدود الوثاق معصوب العينين، أسرع (كاك أحمد) إلى بيته واشتمل بجبة أبيه وشد (الگله به ند) على ذراعه وأدرك موكب الموت وتمكن من طي الفتى تحت جبته وفرقة الموت تضغط على زناد البنادق فسقطا على الأرض، وضجت المدينة كلها بالبكاء والعويل. وأسرعت الفتاة إلى الباشا وأخبرته بالحقيقة فهرول فزعاً إلى ساحة الإعدام ليراهما وهما ينهضان سليمين لم ينلهما أقل أذى وذراعا كاك أحمد ما زالتا تشدان الفتى إليه.

وبهذا ثبتت كرامة الشيخ واستطارت شهرته، وأبلغ نامق باشا والي بغداد، السلطان عبد الحميد بالمعجزة، فدعا كاك أحمد لزيارة استانبول فاعتذر الشيخ عن الزيارة، إلا أنه أرسل (الگله به ند) إلهي بيد مفتي السليمانية مع كتاب ضمنه نصحاً وإرشاداً، فاستقبل مبعوث الشيخ بإكرام عظيم إلا أن حزباً في بلاد السلطان يعادي متصوفة القادرية، أقنع السلطان أن يسمح لهم باختبار قوة الطلسم في ثور

خصي. وبقدرة من الله وقوة الحجاب لم يؤثر الرصاص في الحيوان، ولما عاد السلطان إلى حجرته وهي خلوة لا يدخلها أحد قط وجد رسالة بخط يد (كاك أحمد!) وبأسلوبه ملقاة على الطاولة، وكانت تتضمن لوماً وعتاباً للسلطان، لأنه تجاهل التعليمات وجرب قوة الحجاب في غرض حقير.

- 7 -
الحياة في السليمانية

في العهد التركي، كان لواء السليمانية يتألف من أقضية خمسة هي چمچمال (أسلفت وصفه) إلى الغرب. وحلبچة إلى الجنوب الشرقي، ومركز القضاء في الوسط والجنوب، (وشاربازير) إلى الشمال الشرقي وبشده ر أو (معمورة الحميد) إلى أقصى الشمال ولم يبق بعد نيسان 1919 من أقضية أربيل التي ضمت إلى دولة الشيخ محمود عام 1918 إلا قضاء (رانية) غرب بشدر. وقد عين معاون ضابط سياسي بريطاني للإشراف على إدارة كل قضاء من هذه الأقضية ما عدا (بشده ر) التي كان يديرها (بابكر آغا) القائمقام فيها، ورئيس قبائل بشدر، رجل بارز الشخصية جداً سأتكلم عنه كثيراً عندما تحين المناسبة وكان يقوم بأعماله تحت الرقابة الإجمالية لمعاون الضابط السياسي في (رانية).

ويبلغ عدد سكان السليمانية المعتاد 10,000 نفس تقريباً، منهم تسعة آلاف كرد مسلمون ومنهم (750) يهودياً و(120) مسيحياً كلدانياً[1] ولقد قسمت لأغراض البلدية، إلى سبعة أحياء (گه ره ك) وهي گويژه، مه لكه ندى، كانى اسكان، ده ر گه زين، سه رشه قام، چوارباغ، جوله كان (الحي اليهودي). ونخص بالذكر محلة ده ر گه زين التي تقول عنها المآثر المحلية إنها امتداد مجموعة من ست أو

(1) الأرقام المثبتة هنا تستند إلى تسجيل عملته البلدية في العام 1925، عندما عاد الأهالي إلى حالتهم الاعتيادية بعد ويلات 1918 - 1919.

سبع أسر سنية المذهب جاءت من حي في همدان بهذا الاسم، فراراً من اضطهاد الأغلبية الشيعية هناك. وكانت المدينة قبل الحرب مشهورة بصناعة البنادق وهي تمد بإنتاجها هذا رقعة كبيرة من كردستان على جانبي الحدود الإيرانية ويذكر (مارك سايكس: 1902) عن (150) بندقياً حاذقاً في السليمانية أيام وجوده، كانوا ينتجون تقليداً متقناً للبندقية الشهيرة مارتيني بيبودي Martini - Peabody وعلى أثر احتلالنا آلت هذه الصناعة إلى الزوال تدريجياً. لكن الخرطوش بقي فترة من الزمن من الموازين التجارية المستعملة في السوق توزن به البضاعة والمشتريات. وقد انصرف التجار إلى التعاطي بالتبوغ على أن عدداً كبيراً من صغارهم ظلوا على صلاتهم التجارية مع (بانه وسنه وساقز) في إيران. فضلاً عن الموصل وبغداد.

«اتبعوني!» وكان صوت (كاك أحمد) بعينه. فساروا خلف الصوت برهة وكم كانت دهشتهم عظيمة حين وجدوا عَبّارة مشدودة على الضفة فعبروا بها النهر جماعاتٍ الواحدة بعد الأخرى. ولما بلغ رجال العدو النهر رأوا العبّارة على الضفة الأخرى فانكفأوا على أعقابهم خاسئين. وكل الهه ماوه ند، كل غر ساذج منهم يقص هذه القصة وهو شديد الإيمان بها.

(ومولانا خالد) شخصية بالغة الأهمية في تاريخ الطرق الصوفية. فهو أول من أدخل الطريقة النقشبندية إلى جنوب كردستان. وهو من «ميكائيلي» الجاف ولد في قرية (قره داغ) السنة 1779. وتلقى العلم عن أبيه أولاً ثم تتلمذ جرياً على عادة العصر - على مختلف العلماء في (سنه) و(السليمانية) وبغداد وغيرها. ثم حج إلى مكة وهو في السادسة والعشرين. ومن مكة رحل إلى الهند وفي دلهي تتلمذ على السلطان (الشاه) عبد الله الذي لقنه الطريقة وأجازه بأن يكشفها للآخرين كما ذكر (ريج)، ولبث أشهراً في «سنه». أثناء عودته إلى دياره، كشف الطريقة خلالها لمعلمه السابق فيها. واستقر نهائياً في السليمانية منذ عودته (ربما في حدود 1808) وتنقل بينها وبين بغداد، وطار صيت طريقته وانتشرت انتشاراً عظيماً واعترفت به كل الطبقات رفيعها ووضيعها، دليلاً وشيخاً.

ولم يعد إلى السليمانية بعد فضيحة السنة 1820. لكن لا يمكن التسليم بأنه كان على الدوام موضع سخرية منافسه القادري. وأكد لي مريد نقشبندي أن الواقع بعكس ذلك تماماً وقال: «أعلم أن الشيخ معروف حقد على الشيخ خالد. وكان من تلامذته ابنه كاك أحمد والشيخ عبد الرحمن الطالباني فأمرهما أن يذهبا لقتل هذا الرجل الكبير المقام، فانطلقا لكن أقدامهما أصيبت بشلل عندما اقتربا منه، ولم يكن ذلك الشلل ليزول عنهما إلا عندما يهمان بالرجوع فراحا يرددان كل الأدعية المناسبة للموقف حسب طريقتهما بلا جدوى وهكذا عادا خائبين! فما كان من الشيخ معروف إلا أن بعث بهما ثانية. فأصيبا بعمى وقتي، فتحققا أن الإصرار لا طائل تحته، وإن من الحكمة أن يتقدما للسلام على الولي زاعمين أنهما من قصاده الأتقياء، وهكذا دخلا الحضرة. وما أن رأى كاك أحمد شخصاً معتكفاً في الغرفة شبه المظلمة مشتملاً بالبياض حتى شهر مسدسه لكن يده أصيبت بالشلل وهنا جثا الوافدان على الأرض وقبلا قدمي من استهدفا قتله وطلبا هدايتهما إلى الطريقة النقشبندية فحقق طلبهما إلا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني، ظهر له في الحلم وقال له إن مكانه ليس هنا بل في سورية فقرر الرحيل[1]. ومهما كانت الحقيقة فإن مقامه خارج السليمانية ظل كما يبدو - على حاله واستمر نجمه في صعود أولاً ببغداد ثم بدمشق حتى وافاه الأجل العام 1826 وهو في السابعة والأربعين.

ومر زمن كان أهم شيوخ النقشبندية ثلاثة (سأتحدث عنهم في الفصول التالية) وهم (سيد أحمدي خانقاه كركوكي) والشيخان (حسام الدين وعلاء الدين هه ورمان) الأول من فرع سه ر گه لو البرزنجي، واسمه يظهر في الخط الأيسر من

(1) ليس في الأمر غرابة، فاحترام ولي عظيم كالشيخ عبد القادر هو احترام عمومي، ليس قاصراً على متبعي طريقته. وليس نادراً أن ترى شخصاً يتخذ نفسه طريقتين صوفيتين. إن مؤلف كتاب «كرامات كاك أحمد»، يذكر أن بطل كتابه تمتع بأفضل وأطيب العلاقات مع خليفته الشيخ خالد الأكبر في أواخر أيام حياته. وهو (شيخ عثمان بياره) الذي تبادل معه الطريقة.

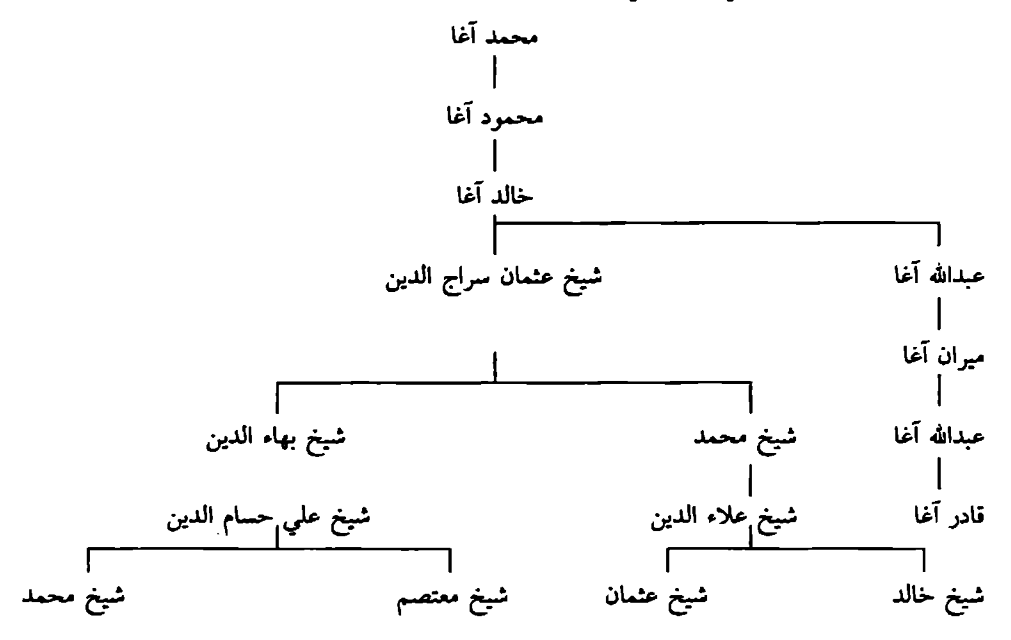
شجرة الأسرة، والأخيران هما (شيخ سجادة) من أحفاد شيخ (عثمان سراج الدين) وهو فرد بارز من أسرة (آغا) المتزعمة[1] في قرية (ته ويلة) الكبيرة ذات الأهمية التجارية. ولعل نفوذهما في الجانب الإيراني من الحدود أكثر منه في الجانب العراقي.

هنالك سلالة مهمة من السادة معظمهم يسكن الجانب الإيراني قرب حلبجة ويدعون أنهم ذرية الولي المشهور المعروف باسم (بير خدر شاهو) الذي أنبت حشيشاً أخضر في أرض جرداء جلس عليها مع زهر ربيع ناضر وكان الزمن شتاء، وقيل لي مرة إن اسمه الحقيقي كان (شيخ شهاب الدين) وقبره ظاهر في جبل (به مو) على الحدود. وتدّعي ذريته أن الشاه عباس (1587 - 1629) كان فخوراً بتزويج بنته منه عندما زار تلك الأنحاء، وهذا ما يمكننا من إثبات وجوده في الربع الأول من القرن السابع عشر، فهو معاصر لبابا رسول البرزنجي.

يوجد في جنوب كردستان أسر أخرى من السادة كـ(شيخانى جيل)، و(نعيم)

---

(1) إن الشجرة التالية التي قدمها لي (قادر اغا نه ويله) تظهر أعضاء الأسرة البارزين:



الذين يشوبهم دم عربي، لكن نفوذهم السياسي لا يعتد به. وإن دور شيوخ السجادة الطالبانيين هو قبلي أكثر منه ديني ونفضل إرجاء البحث في أمرهم إلى الفصل الذي سنعالج به أحوال القبائل والإدارة بكركوك.

لم أجد كلمة مدح لمظهر المدينة الهندسي ومنظرها الخارجي لأي كاتب زائر ذكرته في قائمتي ولا استثنى يومياتي التي دونتها في هذه الفترة. فقد كتبت ما يلي: «موقع يخيب الأمل موحش للغاية معظمه خرائب، وهو بمجمل القول لا يزيد عن مجموعة من الأكواخ الطينية إلا بقليل... الانطباع العام الذي تخلفه: فراغات واسعة تنكشف عن جدران متقوضة وخرائب وسيقان من الحشائش الجافة تنمو إلى ارتفاع يزيد عن القدم الواحدة فوق سقوف طينية حقيرة... ويكاد مسجد كاك أحمد بالقرب من المدخل الغربي للمدينة يكون البناء الوحيد ذا المظهر الدال على العناية، بمنارته النحيفة ذات الزخارف الملونة من القاشاني والآجر الأخضر والأبيض التي تكسوها حتى مقصورة المؤذن والقبة». وكانت هذه المظاهر كلها خادعة إذ اكتشفت فيما بعد أن المدينة لا تخلو من المنازل الواسعة، الفارهة المبنية بالطابوق على طرز العمارة الإيراني تخفيها عن الأعين جدران طينية عالية. وكل منزل تحيط به رياض غناء وخمائل جميلة تجري في جنباتها السواقي إلى برك وأحواض لامعة بسطوحها القاشانية الزرقاء الفاتحة، وتوحي بمجلس بارد مريح.

وليس بالغريب أن يلحظ المرء في المدينة مظهر مجد زائل في تلك الفترة من الزمن بالذات. فتجارتها قد بارت تماماً في آخر سنة من الحرب. وأهملت الزراعة، وكانت جباية الضرائب التركية تتم بشكل متجرد من الرحمة. وقصفت المجاعة أرواح الكثير من البشر والحيوان. وعندما وصل (نويل) إلى السليمانية سنة 1918 وجد جثث الموتى ملقاة في الشوارع والمنازل التي تركها أصحابها. وحصلت حوادث أكل فيها الجائعون لحم إخوانهم من البشر، ولم يبق من سكن المدينة الأصليين غير الثلث. ويعين المعدل قدر عدد سكان القرى المحيطة بها الذين

نزحوا أو هلكوا. فكان أول واجبات (نويل) تأمين الغذاء للجائعين والكساء للعراة والبذور وحيوانات الحراثة والأدوات الزراعية للفلاحين. فلم تنس له هذه الخدمات الإنسانية، وظل الكرد سنوات وسنوات يلهجون بها ذاكرين شاكرين. وقد مست شغاف قلبي وملكت عليّ عاطفتي لما ذكرت في الخطب العامة التي ألقيت بمناسبة استقبالي بعد سبع وعشرين سنة من آخر زيارة للمدينة.

وتوقف تنظيف البلدة بقيام الثورة بالطبع. فبقينا زمناً بعد دخول الحملة ونحن نعيش وسط قذارة تامة. وكان المقر العسكري يحتل دائرة الضابط السياسي السابقة وهو في الحقيقة مدرسة ثانوية بنيت بالتبرعات الأهلية وكان الأهالي يلحون علينا إلحاحاً متواصلاً بإخلائها وهو حق لهم لا ينكر. ولذلك جعل (الدبو) السالف الذكر مقراً للدائرة السياسية بعد إخراج المعتقلين الإنكليز منه. وكان بناؤه رحيباً أغبر كئيباً يتألف من ساحة تحيط بجوانبها غرف صغيرة متوالية، فهي أشبه بخان المسافرين الإيراني. وهناك عشنا وعملنا مختلطين بالخدم الكرد والمساحين الهنود والحرس والبقالين ومأموري المخازن وغيرهم من الكسبة الذين لا أعمال معينة لهم. وكان أثاث غرفتي الوحيد فراش سفري وقربة ماء من الجنفاص مستقرة على أرضية حجرية مرتفعة. تافه. فبددت هذه الرسالة المعجزة، كل ما قد بقي من شك في الضمير الملكي، بخصوص سمو مقام الولي الذي يبعد عنه مسافة طويلة. وعلى سبيل التكفير عن لحظة الشك تلك، منحه عوائد خمس قرى في (شاربازير) وهي نودي وبزه ينيان وعازه بان وخره جيان، وويلادار. وكاتب المقدمة يزعم أن (گله به ند) كاك أحمد أنقذ عبد الحميد مرة واحدة على الأقل بصورة مؤكدة حين:

«وضع الأرمن قنبلة تحت موطئ الركوب»، أمام مدخل مسجد الحميدية، وكانت مؤقتة لتنفجر تحت قدميه في اللحظة التي يطأ الصخرة ليدخل مركبته. وتطاير حطام سبعين أو ثمانين مركبة في الهواء مع أشلاء مائة أو مائتي شخص، بفعل قوة الانفجار! ولكن لم تنزف قطرة دم من جياد العربة الملوكية، ودخلها

السلطان وهو يصيح: «إني ألبس گلبند كاك أحمد فكيف يمكن أن تلحق القنبلة ضرراً بي؟»[1].

وأغلب المعجزات المدونة في الكتاب تدور حول الوتيرة المعتادة: الانتقام، والثأر، كما في القصة المفزعة التالية: إن تلميذاً جعفرياً من إيران حاول وقت قراءات المأتم بُعيد وفاة الشيخ معروف أن يجادل (كاك أحمد) في ماهية العقاب الذي ينتظر المرء في الآخرة، فأجابه أنه سيعلم بنفسه قبل أن يصبح عليه الصباح!

وهناك قصص عن ظهور الشيخ لمريديه في الحلم - لمعاناتهم مصاعب، وعن التنبؤ بالغيب، مثل العلم بالتقاعس عن واجبات الضيافة، وعن لحم لا يحل أكله لأن حيوانه لم يذبح حسب قواعد الشرع. وعن المعرفة بأحداث المستقبل وتزويد مدير شؤون بيته بنقود ذهبية عندما لا يدري من أين يأتي بالمبلغ اللازم لنفقات سيده، أو لتوزيع صدقاته. والحق يقال إن كثيراً من القصص فيها طرافة عظيمة ولضيق المجال سأكتفي بإيراد قصة أخيرة لعلاقتها بحدث من أحداث التاريخ المحلي مما ذكر في الفصل السابق، ولتكون مثلاً للإيمان الساذج الذي يلازم كثيراً من الكرد بأن لكل كردي الحق في طلب تدخل ولي كردي لمصلحته ضد أي شخص أجنبي، دون اعتبار لمن يستحق هذا التدخل من الجانبين!

إن أفراد قبيلة (الهه ماوه ند) التي بلغت حداً لم يبلغه غيرها من الشجاعة والإقدام وهزمت الأتراك والإيرانيين هزائم منكرة، تمكنت الحكومة بالسياسة والخديعة من سوقهم إلى السليمانية، ثم نفيهم بالجملة رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، أسراً كاملة لم تستثن منها لا الخدم ولا الأتباع، وتقرر نفي بعضهم إلى جزيرة (رودس) وبعضهم أبعدوا إلى طرابلس الأفريقية، وآخرون وزعوا في أماكن أخرى. وبعد بضع سنين أفلح الجميع في الفرار من منافيهم واشتبكت الجماعة

---

(1) لا بد وأن تكون الحادثة التي يشير إليها هي المحاولة التي جرت لاغتيال السلطان عبد الحميد في السلاملغ نهار الجمعة الموافق 21 تموز 1905 - انظر السر أ.ت. ووف A.T. Waugh (تركيا أمس واليوم وغداً) لندن 1930، ص105. انظر (رايان)، المرجع السالف، ص41.

العائدة من طرابلس بقوة مغيرة من العرب الذين راحوا يتعقبونها، وفي مساء ذات يوم بلغوا ضفاف الفرات وأرادوا العبور فلم يجدوا قارباً أو ملاحاً وكان العدو يدنو منهم بسرعة، وفي اللحظة الحرجة سمعوا صوتاً يهيب بهم و(فانوس) قليل النور تتعذر القراءة والكتابة بضيائه بعد حلول الظلام. وكان الذباب والبق في الليل عذاباً خالداً. ولا أذكر طوال خدمتي تجربة أدهى وأمر من اليومين والليلتين التي قضيتها في فراشي الممدود في الشرفة المفتوحة، تنخر عظامي الحمى البرغشية التي ينقلها البعوض، ومن أعراضها صداع شديد يفلق الرأس ودرجة حرارة عالية غير مألوفة[1] في حين راحت ره شه با (الريح السوداء) كردستان المزعجة تحثو على ملاءاتي وفراشي كل التبن والقاذورات والروث الذي تحفل به ساحات الاسطبلات الشرقية وتملأ فمي وعيني وأذني بها. وهذه (الره شه با) تهب من أقسام عديدة من كردستان. وهي مظهر مناخي هام يجب أن يحسب حسابه في تقرير مناخ أية بقعة، هذه الريح تكون حارة رخاء في الصيف مثل ريح (الخمسين) في مصر، و(الشرجى = الشرقي) في جنوب العراق. وفي في الشتاء ريح عنيفة زمهرير. وقد علل السياح مأتاها عدة تعليلات. أما تجربتي فقد أكدت لي أن أسوأ حالاتها تكون في المواضع التي تمتد في أسفل قاعدة جبل طويل في الجنوب الغربي، فتأتي الريح من الشمال الشرقي وتضغط على قمة الجبل ضغطاً شديداً ثم تنحدر إلى السفوح وتنكسر حدته وتزول في موضع ما من الوادي قبل وصولها إلى نهايته وهذا وضعها في (السليمانية وكوي) ولطالما وجدت نفسي وأنا نائم على السطح، ترتفع عني أغطيتي وتنقذف بعيداً، فأقوم لجمعها، ثم أعود لأجد فراشي السفري محلقاً في الجو مثل عود ثقاب، وأرقبه وهو يسقط في الساحة. من الخير للمرء أن يبيت ليله داخل الغرفة عند هبوب (الره شه با) مفضلاً ضيق النفس.

---

(1) أعتقد أن اسم الحمى جاء من اسم البقعة التي تنقل عدواها مكروبياً (كما ثبت طبياً فيما بعد) ومع أنها ليست خطرة أبداً إلا أنها تهد قوى المريض تماماً. وقد بقيت تشعر بضعف شديد مدة ثلاثة أسابيع.

واقتصر عملي في الأسبوع أو الأسبوعين الأولين على إجراءات التحقيقات العسكرية عن أسباب الثورة وظروفها. وقد نسيت تماماً ما توصلت إليه في هذا الصدد، وكل ما أذكره (عدا سخطي الشديد لضياع الوقت) أن الطقس كان مزعجاً يضيق به المرء ويزهق الأنفاس. وأننا كنا نجلس منذ الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين صباحاً حتى الخامسة عصراً يتخلل ذلك فترة راحة قصيرة جداً في منتصف النهار وأذكر أيضاً أن رئيس المجلس التحقيقي كان يقضي معظم الجلسات نائماً ورأسه مدفون بين ذراعيه فوق الطاولة، بينما كنت أستجوب الشهود بالفارسية وأترجم الأسئلة ثم الأجوبة للعضو الآخر العقيد (ب) ليسجل الوقائع حرفياً بخط يده.

ومن مهماتنا الأولى، إعادة تشكيل فرع (الليفي) وتنظيم الشرطة وكنت بعد انتهاء جلسات التحقيق أشرف على تلقين يمين الإخلاص للمتطوعين وهو من صياغة «الجنرال». إن هاتين القوتين لم تدعما ثورة الشيخ دعماً حاراً وفي الواقع أن (العقيد) شيخ قادر قائد الليفي، وأخ الشيخ محمود، كان قد أنزل في بيته الخاص الرائد أ.م. دانييلز A.M. Daniels رئيس المدربين العسكريين عدة أيام وقيل إن امرأته (حفصة خان)[1] وهي سيدة ذكية مشهورة ساهمت في السياسة المحلية بقسط عظيم عدة سنوات - كانت تنام الليل أمام باب غرفة (دانييلز) تحوطا من مبعوث يرسله أخ زوجها للغدر به على أن الشيخ قادر وحفصة خرجا من المدينة قبل وصول الحملة. وكانا يخافان كثيراً من قبول كتاب الأمان الذي خولت بإعطائهما إياه.

كان الضابط الكردي الأقدم «البينباشي» رضا بك، قد خاض غمار الحرب في أكثر من جبهة تركية وكان الآن يتسلم سيف الشرف من القائد العام الجنرال السر جورج ماكمون Sir George MacMunn تقديراً لخدماته المخلصة. وهو رفقة طية في

(1) يلحق باسم أي سيدة مشهورة لقب (خان) المذكور دائماً، ويشار إليها - (خانم) عندما لا يذكر اسمها.

الليالي ومحدث بارع مغرم بالمبالغات العجيبة. ولقد كنا رغم عرقلة الثورة لنا متقدمين في إعادة المسؤولية الإدارية إلى أهل البلد أكثر من بقية المناطق المحتلة. ولذلك - ما إن تمكنا من الاستغناء عن خدمات رضا بك العسكرية حتى بادرنا إلى تعيينه معاون ضابط سياسي في (شاربازير) وكان ثمة عدد من الضباط السابقين الكفوئين عسكرياً، والمتتبعين بعمق وفهم الآداب التركية والفارسية، وأكتفي هنا بذكر واحد منهم. أصبح فيما بعد من أعز أصدقائي، وأعانني كثيراً في صقل دراساتي الكردية وأنا ما زلت مديناً له بالشكر. ذات يوم قبل انتهاء مهمتي في السليمانية زارني شخص غريب كان قد عاده لتوه من تركيا وبالتالي لم يكن مساهماً في الأحداث التي أوردتها وقدم لي نفسه بتركية رقيقة أنيقة ولفظ اسمه بلهجة تركية أصيلة: «توفيق وهبي رائد ركن». فأعجبت كثيراً بمظاهر كفاءته وأوصيت بتعيين عاجل له بوظيفة معاون ضابط سياسي في (رانيه) خلفاً للنقيب ر.ي. باركر R.R. Barker الذي تمكن مع (بابكر آغا) من إبقاء المنطقة هادئة أثناء الثورة وكان تسريحه من الخدمة وشيكاً. وأعتقد أن (توفيق) باشر مهام وظيفته بعد تركي السليمانية، إلا أن التقائي الثاني به كان عندما عُين آمراً للكلية العسكرية العراقية التي استحدثت في بغداد على أساليب كلية (ساندهرست) لتخريج ضباط الجيش العراقي المنشأ حديثاً. أما الآن فهو عضو في مجلس الأعيان العراقي.

اعتاد (الليفي) في أغلب الليالي أن ينتظم للرقص في الساحة التي تقع أمام (الدبو) وأنا شخصياً غير مطلع على الموسيقى أو الرقص عموماً بالقدر الذي يكفي لتقديم وصف دقيق لرقص (الچوبى) السليماني، وهو على ما يلوح لي أشد شبهاً إن لم يكن مطابقاً لفنون الرقص التي يمارسها قرويو الأجزاء الأخرى من كردستان، وغرب إيران وتركيا الآسيوية. وتعرف فنونه بأسماء معينة. لكني غير متأكد أين يكمن الفرق أو الاختلاف الأساسي، أفي الخطوة دائماً، أو في الألحان الإيقاعية أحياناً، أو في عبارة الأغنية المصاحبة ومعظم الرقصات تتفق في أن الراقصين يؤلفون خطاً مستقيماً ويسلبون أذرعهم إلى أجنابهم ثم يتماسكون

بالأيدي، الكف بالكف - على مستوى الكفل ويؤدي موسيقى الرقص نافخان أو أكثر بالسرناي (زورنا زه ن) ويستمر في الرقص ما طاب للراقصين. وقد ينضم إلى الجوق قارعو الطبول (ده هول زه ن). والراقص الذي هو في أقصى اليمين هو القائد (سه رچونبي كيش) ويلوح هو ونظيره في أقصى اليسار بمنديلين في يديهما الحرتين على إيقاع الموسيقى. وعنصر الرقص الجوهري سلسلة متتابعة من الخطى، تحدث في خط الراقصين ميلاً إلى أمام وخلف، وإلى الجانبين. وقد ينضم إلى الراقصين أشخاص جدد، أو ينفصلون عنهم عندما يتعبون دون أن يدب الخلل في اللوحة الراقصة. وفي النوع الأكثر شيوعاً وهو المسمى (روين) أي وصلة الافتتاح أو المدخل، يتخذ الخط شكل قطع دائرة، وتنضم أجزاؤه بعضها إلى بعض تدريجاً ويزداد تقوسه أثناء الرقص والحركة ليغدو كل راقص وقد تحرك في دائرة واحدة أو أكثر. ولاحظت أنماطاً أخرى من الرقص في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة، منها ما يدعى (سى بي) أي الخطى الثلاث و(ميلانى) التي يكون فيها كتف كل راقص ملتصقاً بكتف جاره بهيئة خاصة، وشيخانى ويمتاز بسرعة النقلات، وبقفزات خاطفة تنتهي بخبطة عنيفة، و(آيشوك = العشق؟) ويتم على إيقاع أغنية غرام وتشبيب «بالصغيرة عائشة» وفيه يشكل الراقصون دائرة كاملة. وبانضمام النساء إلى رقصة (چوبى) وهو تقليد شائع - يدعى الرقص بـ(ره ش - به له ك) أي المختلط.

كانت الحفلات العامة وضروب التسلية في الأرض العراء، شائعة في السليمانية على الدوام. كما تشهد بذلك كتابات (ريچ). وكثيراً ما أتحفني الأصدقاء بحكايات عن كارنفال الربيع السنوي، ذي الأصل العريق الموغل في القدم وهو من قبيل التمثيل المساخري الديني الروماني Saturnalia بطلت ممارسته أثناء الحرب أو قبلها بقليل. ويؤقت على نبت أزهار الربيع الذي يعلن بدء السنة الفارسية الجديدة. وهنا يخرج كل أهالي المدينة إلى ينابيع (سرچنار) لإحياء العيد ويبدأ باختيار رئيس العيد (ميرول) ويخول سلطات فعلية نافذة الحكم، مع الحق في

الإخلال المؤقت بكثير من قواعد السلوك والآداب الاجتماعية، إلغاء تام تقريباً للسلطة الرسمية القائمة. وقد أشار السيد توفيق وهبي باختصار إلى هذه العادة في معرض تعليقات له عن (الفولكلور) الكردي بمقال نشره في (سومر) وهي المجلة التي تصدرها مديرية الآثار العامة في العراق[1]، فذكر أن أهالي السليمانية يخرجون من المدينة في صبيحة العيد، ثم يلتئم عقدهم في موضع الحفل. ويتوجون أحدهم ملكاً، ويعينون له حرساً وبطانة. ويمتطي الملك ظهر ثور ويشق به الجموع الحاشدة تتبعه بطانته، نحو سرادق ضربت فيه الخيام. فيجلس المحتفلون في الدواوين وتنصب قدور الطعام. ويتنكر أفراد مخصوصون ويلبسون جلود الغنم والماعز ليمثلوا الحيوانات الداجنة طوال فترة الاحتفال التي تستمر ثلاثة أيام كاملة. وتكون طاعة الملك المتوج طاعة عمياء، وله أن يفرض غرامات وإتاوات على الناس حاضرهم وغائبهم. ويظل متمتعاً بلقب (باشا) إلى مناسبة العيد التالي. ويرى توفيق وهبي أن هذا التقليد هو في الواقع إحياء لذكرى ثورة (فريدون) على ملك المغول الطاغية (زهاك)، إذ ورد في (شاهنامة) الفردوسي أن فريدون أزاح (زهاك) عن عرشه. ويزعم الكرد أن (فريدون) قاد قواته في المعركة وهو ممتط بقرة.

وكانت علاقتي مع رئيس بلدية المدينة متشعبة بطبيعة الحال. فعن طريقه قمنا بإسعاف الأهالي وضمنا تموين المدينة بالأقوات. وكان (غفور آغا) من أبرز سكنة محلة (دركزين) ويدّعي أنه من نسل أحد اللاجئين الهمدانيين الأولين. وإثباتاً لأصله الإيراني استشهد باسم جده الذي عرف بـ(آغا طه) مشيراً إلى أن لقب الآغا في اللسان الفارسي يسبق المنعوت به دائماً. في حين يوضع بعد اسم المنعوت دائماً في كردستان. وأذكر أن شخصاً يدعى (مشير آغا) من بگزاده الهماواند، عيّناه قائداً لدوريات الحرس على طريق كركوك - سليمانية، تطبيقاً لقاعدة «أطلق الحرامي وراء الحرامي» وكان شديد الرغبة في اتخاذ بنت غفور آغا زوجة، فراح

(1) المنحوتات الصخرية في كهوف (كندك). (سومر) ج4 - عدد2، 1946.

يلاحقني متوسلاً لإصدار (أمر) لحمي المستقبل بإنقاص سعر العروس. وقد تجاذبتني الحيرة. وتساءلت أمن العدل أن أسهل زواج حضرية بمثل هذا القبلي الجلف الغليظ؟ وأخشى أني لم أقم بتحقيق رجائه بحماسة كبيرة، إلا أنه تزوجها أخيراً وسعدا بزواجهما.

وهنالك شخصية أخرى تستحق التأمل هي (رابعة خان) رئيسة الخبازين. في أية مدينة شرقية يكون تموين الخبز نقطة ضعيفة في خط دفاع الإدارة المحلية، ضد الدسائس والتخريبات. وكانت (رابعة خان) من تلك النسوة القويات الإرادة الذكيات اللائي لا يندر وجودهن في كردستان. لم تكن حباً للشيخ محمود، بينما كانت مخلصة للإدارة غاية الإخلاص، وإلى نصحها الرشيد، وسيطرتها القوية على زملائها الخبازين يعود الفضل في خلاصنا من كل المتاعب التي تجرها قلة تموين الخبز.

ومن زائري الأوائل، القس الكلداني، وهو شخص مهيب الطلعة ذو لحية سوداء وجبة سوداء وعمامة سوداء مشدودة شداً محكماً حول طاقية حمراء. أعلمني أن طائفته تتألف من نحو (30) أسرة كلها تقطن محلة (گويژه) ومعظم فقراء طائفته يمارس صنعة (المطبچى) أي نسج أكياس سوداء نسجها غير محبوك ليكبس فيها ورق التبغ. ورئيس الطائفة العلماني تاجر معروف محترم جداً اسمه (كريم علكة) استفدت من نصحه كثيراً. وكان ولداه من أخلص الموظفين وأكثرهم اعتماداً في دائرتنا، أحدهما درس الطب ثم عاد إلى مدينته ليمارس صناعته بين قومه.

سبق أن ذكرت عدد نفوس اليهود، والحي الخاص الذي يسكنونه، وهو أشبه بذنب طويل للمدينة يقع في جنوب نهاية مجرى المياه حيث تصب كل مياه وقاذورات الأحياء الأخرى. وهؤلاء كما جرت العادة في كردستان يمارسون الصناعات الحقيرة كالصباغة والدباغة وتقطير الكحول.

يؤم المدينة بالطبع سيل غير منقطع من رجال القبائل القاطنين في اللواء لتأكيد

ولائهم للحكومة بعد الثورة الأخيرة. والصورة الشمسية (في اللوحة الأولى) المرقمة (1) تمثل بابكر آغا رئيس بشدر مع محمود باشا آخر زعماء الجاف البدو الكبار، وأخ عثمان باشا زوج السيدة عادلة، وقد أخذت لهما بمناسبة عرض للقطعات المدفعية، أقامه (العميد موريس) في (قلياسان) لرفع معنويات الأهالي بصورة عامة، وزعماء القبائل بصورة خاصة وهما يمثلان زيين مختلفين من اللباس. وهذا ما يتيح لنا فرصة مناسبة للانحراف بالموضوع إلى وصف زي الرجل الكردي.

فيما يلي الأسماء الكردية لقطع الثياب الرئيسة:

البيلاو (الحذاء) إما أن يكون (كه وش) وهو حذاء جلدي لا كعب له، مقدمته مرتفعة عند الإصبع ومؤخرته مدببة وإما أن يكون (كلاش) وهذا شبيه بالنعل الفارسي المسمى (ملكى أو گيفا) ويتألف نعله من خرق القماش المضغوط ووجه من القطن المنسوج. يلي ذلك الـ(گوره وى او گوره وى لاسك دريژ) أي الجورب = الجورب الطويل ثم (الده ربى) وهو سروال من القطن الأبيض كثيراً ما يلبس وحده دون بنطلون من قماش. ثم (بندخوين) وهي التكة التي تشد (الدره بى) ثم الرانكك إلى الخصر في موضوع قريب من الكفل ثم (بن كراس) وهو القميص، ثم الـ(كراس) وهو قميص يفصل من قماش القطن الأبيض عادة كالسروال، ثم (فه قيانه) وهو قميص ذو أكمام طويلة جداً قد تصل الأرض وتبقى محلولة أو ملفوفة حول المعصمين فوق أكمام السترة، أو معقودة النهايتين خلف الظهر عند القذل. ثم (سخمة) وهي سترة يلبس فوقها (چوغة) وهي أيضاً سترة خارجية تحشر نهاياتها في السروال. ثم (البشتين) وهو حزام الخصر ويكون عادة طولاً من القماش القطني الملون يبلغ طوله عدة ياردات ويبرم برماً كالحبل ثم يشد حول الخصر[1]. ثم (به سته ك) وهو صدار ثخين من الصوف المضغوط يلبس فوق

(1) لا يلف (البشتين) لفاً متوالياً باتجاه واحد بل يؤخذ منه حوالي (18) إنشاً بعد أن يفتل فتلاً محكماً. وتجعل هذه النهاية بشكل عمودي أمام الجسم. أما القسم الباقي فيمسك وهو مبروم كالحبل بقدر=

السترة. ثم (كلاو) وهي طاقية لينة أو (ته بله) وهي قبعة صوفية قوية، ثم (ميزه ر) وهي عمامة تتألف من طاقية أو قبعة يلف فوقها لفة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة، قطع قماش مربعة تسمى (جامانه) أو (مشكى) أو (چفته) بحسب نوعها (إن كانت على التوالي: من القطن، أو الحرير الفارسي بخطوط رمادية وسوداء، أو الحرير البغدادي ذي الألوان الزاهية) ويمكن المزج بين هذه الأنواع في العمامة الواحدة. يأتي أخيراً الـ(قره نجى) وهو معطف صوفي قصير، أو (القبوت) وهو معطف صوفي طويل أو يستعاض عنها بالعباءة الإيرانية والعربية، ويحملون في العادة خنجراً قد تكون قبضته من العاج أو القرن، قد يبلغ طوله (16 أنشاً) وهو معقوف النصل بعض الشيء. وغمده من الخشب المكسو بالجلد. ولكن قد يكون من الفضة المصبوبة أو من الذهب وهو نادر. وهو يحشر حشراً في (البشتين) وقد يلف حامله حول مقبضه مسبحة (تسبيح) ليعبث بها. وكثيراً ما تجد القرويين يدسون في (البشتين) حافة كيس تبغ ويبقى معلقاً إلى جنبهم ويدسون مع الخنجر غليوناً طويلاً ذا وعاء صغير، أو يحشرونه في ظهرهم داخل الچوغة.

وفي الجنوب تظهر المؤثرات العربية بشيوع ارتداء (الكه وا) أو الزبون. وينسدل على الجسم من العنق إلى الكاحلين وتلتقي حاشيتاه العموديتان من أمام وتضم إحداهما فوق الأخرى. وفيه من الأسفل على الجانبين شقان يبدآن من حافته حتى الركبة تقريباً ويشد إلى الخصر بحزام جلدي رقيق أو ببشتين صغير.

=ما تحويه اليد ثم يبدأ بلفه من جهة اليمين أولاً، فمحيط لفة واحدة بالبطن والظهر ولما يأتي من اليسار ويصل إلى الجزء العمودي يعقد حوله ويحزق ثم يلف لفة أخرى باتجاه معاكس نحو اليسار والخلف حتى يأتي من اليمين ليعقد عقدة ثانية ويتجه اتجاهاً معاكساً إلى اليسار وهكذا. ويبتدئ الشد والحزق من الكفل فصاعداً (فوق تكة السروال مباشرة، إذا كان البنطلون من ضمن الثياب) ثم ترتفع اللفات إلى فوق حتى ينتهي القماش المبروم وبعد ذلك تضم اللفات بعضها إلى بعض وتدس النهايتان دساً جيداً، داخل الحزام ليكون ثابتاً آخذاً بعضه بحجز بعض، وعندها يبلغ عرض (البشتين) زهاء قدم واحدة، وهذا الارتفاع الكبير في الحزام يشد الجسم ويساعد القوام مساعدة كبيرة. إن الإنشاءات المتوالية الأمامية للحزام ترى بوضوح في صورة بابكر آغا.

وقد يكون قماشه من القطن البسيط أو الحرير الزاهي، نظراً إلى حاجة الملابس والذوق، وليس في الإمكان الجمع بين (الچوغة) و(الكه وا) فيحل محل (الچوغة)، (السلطة) وهي سترة قصيرة تشبه سترة طلاب كلية أيتون وأشيع الألوان لها الأزرق الفاتح وقد يستعاض عن (السلطة) بسترة أوروبية مستوردة، أو بمعطف، أو جبة أشبه بالمعطف من شال كشمير في الأماكن التي يغلب عليها التأثير الفارسي. أما السروال الداخلي الطويل فيمكن لبسه تحت (الكه وا). على أن (الده ربى) هو الجزء الذي لا يستغنى عنه في كل زي من الأزياء. وكثيراً ما تلبس العباءة فوق الجميع. وهذا الزي شائع لدى قبائل الجاف وغيرهم (كالهه ماواند) الذين يعيشون جنوب خط (به رانان - بنزرد) وعند شيوخ الدين في كل مكان، باستثناء الطبقات الفقيرة جداً في مدن الجنوب. فهؤلاء الناس، هم أقلهم اهتماماً بالمظاهر فيرتدون (چوغه) و(رانكك) زهيد الثمن مصنوعاً من منسوجات محلية بسيطة الهندسة والتلوين، وكثيراً ما يغلب عليه اللون الرمادي أو الترابي وتسمى، (بازو).

تسود (موضة) من الأزياء في وسط كردستان وهو الجزء المحصور بين خط (ئه زمر - قه ره زرد) شمالاً حتى خط عرض مدينة رواندوز تقريباً أي أقضية السليمانية الشمالية. والجزء الأعظم من لواء أربيل والمنطقة الإيرانية المجاورة لصاو جبلاق (موكرى). وهي أن البنطلون الفضفاض من الأعلى، أكثر سعة مما هو في الجنوب. وإذا كانت الچوغة من قماش أجنبي فإنها تطرز بزخارف مزركشة كثيرة وكثيراً ما يلف البشتين بهيئة يبدو فيها عريضاً. فإذا ما ارتدى المرء ال(به سته ك) فوق كل هذه الثياب بدا كأنه أحدب الظهر منفرط ما كدس فوقه. وإنه لما يورث المرء الدهشة، مقدار ما يستطيع الكردي ارتداءه في أشد الأيام حرارة. فالقماش الذي يخاط منه الچوغة والبنتول أو الرانك هو على العموم واحد لكن ليس هذا بشرط لازم. وتختلف ألوان الثياب المفصلة من أقمشة أجنبية باختلاف ما يتيسر منها في السوق إلا أن أشيع الألوان على ما أذكر هو الأخضر الغامق،

والاحمر الغامق واللون القريب الشبه بالنبيذ الفرنسي، واللون المنغر الشبيه بلون نبات الخردل وأما (البزو) فهو عادة بلون البقسماط، أو الأبيض الحليبي بخطوط رمادية.

وتشيع البنطلونات الفضفاضة المستقيمة في رواندوز شمالاً وفي معظم منطقة الموصل وتكون متسعة من الحافات السفلى بعض الشيء. وتصنع الچوغة والرانك من (البزو) المحلي عادة، وخير المنسوجات المحلية هي التي يحكيها اليهود والأرمن في زاخو وهي ذات تصاميم مختلفة جذابة بألوانها ونقوشها. وتفصل من قطعتين وعرض القماش قدم واحدة، وألوانها تتفاوت بين لون البقسماط (البسكويت) البسيط والأزرق الباهت (يستخرج صبغة من جذر شجيرة الليلق) وبين المخطط بخطوط ملونة تختلف عروضها وألوانها. ونقوشه بأشكال معينة أو غيرها من الأشكال الهندسية على طول تلك الخطوط العريضة، ولا تخلو (الچوغة) من هذه الزخارف وهي عموماً أكثر ما تكون في (الرانك) وتطرز الحلة كلها بأشكال ومخرمات حول الرقبة والأكمام والجيوب وحافات البنتول السفلى.

وقد جرت العادة في هذه الأصقاع الثلاثة أن تدس حافات (البنتول) أو الرانك داخل الجوارب في أثناء الرحلات (والجوارب تنسج نسجاً خشناً متباعد الحياكة ولونها أبيض عادة) وبذلك تصبح ثابتة محكمة الحافات مثل بنطلون المطر الإنكليزي ويغلب التأثير الروسي أحياناً بأن تحشر نهايات السراويل في جزم طويلة.

ويصاب المرء بالحيرة لكثرة الأشكال التي يراها من أغطية الرأس. وإذا كان قماش العمامة واحداً صعب على المرء أن يتحقق من طريقة شدّ العمامة أو معرفة الناحية التي تميل إليها أو المنطقة أو القبيلة التي انحدر صاحبها منها. والعمامة تلف عموماً حول (كلاو) لكنها قد تلف في بعض الأنحاء فوق (تبله) وهي في أقصى الجنوب تتألف من (جامانه) واحدة هي قطعة القماش القطنية المرززة باللونين الأبيض والأزرق الغامق المستوردة من (مانچستر) لتكون بمثابة كوفيات

(كفيات) عربية. وتشد صغيرة محكمة، لكن بعض الرجال يلفون الجامانة على الطريقة العربية. وفي بعض الأمكنة تثبت في الرأس بعقال عربي أو بكوفية أخرى مثلها تلف حول الرأس وكلما صعد المرء إلى الشمال ازدادت العمامة ارتخاء وأضيف إلى (الجامانه) چفته أو مشكى أو كلاهما. فيخرج من هذا كله عمامة واسعة غير متناسقة أو عملية. وقد تعود كثير من بگزادة الجاف والشيوخ والعلمانيين ووجهاء المدن أن يفعلوا ذلك. وفي (هه ورامان) تشد العمامة من (مشكيين) اثنين يلفان حول (كلاو) وهو غير الطاقية المألوفة، وإنما مخروط قوي مصنوع من القطيفة الخضراء أو القرمزية أو البرتقالية ينتهي بكرة أو (تبة) في قمته والمشكي المربع الشكل هو واسع بنوع خاص. والعمامة التي تتألف منه ثقيلة جداً على الرأس. ويستعمل أحياناً بدل الكفيات المربعة قطعة قماش طويلة من النسيج القطني الاعتيادي المطبوع. وإذا اتبعنا الزي شمالاً، نرى (التبله) الصوفية تعود إلى الظهور ولكن بأشكال مختلفة وعند بعض الأزياء تخاط قطعة القماش حول الطاقية لتبقى ثابتة في محلها[1].

---

(1) في الصورة (1 - أ) يرى محمود باشا مرتدياً معطفاً عسكرياً كشميرياً وبنتولاً محشوراً في جزمته. ولما كان كبير السن فالعمامة التي يضعها على رأسه اعتيادياً تتألف من (جامانه) واحدة وأما صورة بابكر آغا فتقدم نموذجاً للبنتول الواسع، الذي يتبع في الجزء الأوسط كما يبدو فيها طريقة ثني العقد التي تظهر في (البشتين) وتبدو شدة (الفه قيانه) حول الكمين، والعمامة الكبيرة المرخاة من القماش القطني الملفوف حول (كلاو) مخروطي. في اللوح (1 - أ) تجده مرتدياً (به سته ك) فوق الجوغة وعمامة أقرب إلى الاعتيادي الشائع وهي المشكى وفي اللوحة (2 - ب) تجد أن زي (السيد طه) هو زي المنطقة الوسطى.. إلا أن غطاء رأسه هو (البالكلافا) الشائعة في بلده وهي نسج محلي. والسترة القصيرة التي تبدو في ثيابه فوق الجوغة هي زي غير مألوف. ويرى الشيخ محمود في اللوحة (2 - ب) مرتدياً جوغة من الصوف المضغوط وعمامة هي مزيج من (الجامانه) و(الجفته). وتكون الجامانه أفتح لوناً عادة. وفي اللوحة (6 - أ) يظهر (رانك - البزو) محشور الأطراف داخل الجورب. مثل بنطلون الكولف وفي اللوحة (2 - أ) يبدو الزي الجنوبي بأروع مظهره أعني (الكه وا) الحريرية والبشتين الوسطي (صف رصاص المسدس في حزام جلدي مشدود فوق البشتين) ثم السلته، والفه قيانه مشدودة خلف الرقبة والعمامة المرتخية المؤلفة من جامانه واحدة على الأقل وجفتين بأهداب وفي اللوحة (12 - ب) يرى الشيخ قادر مرتدياً زياً=

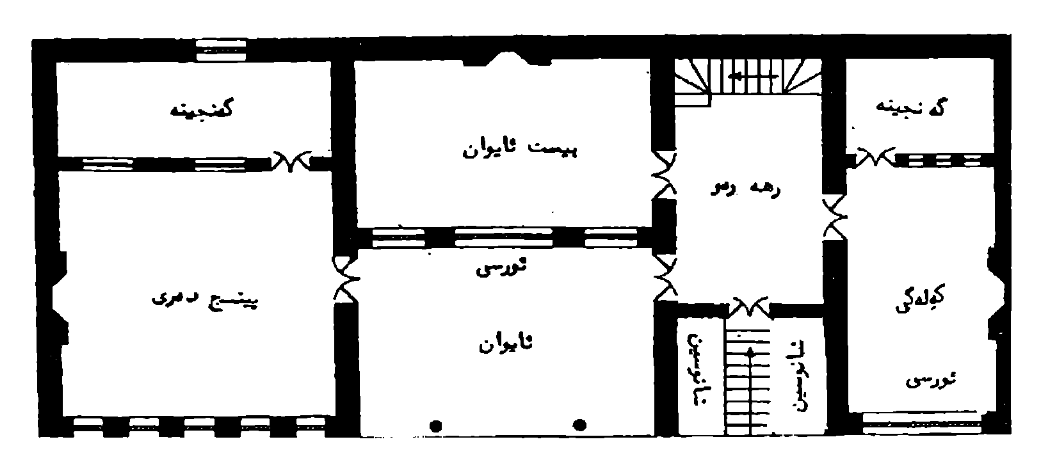
وفي أوائل تموز رتبنا أنا و(گرينهاوس) أمر استئجار منزل صغير هو ملك موظف لدينا اسمه سعيد أفندي، عجوز رقيق الطبع يتكلم ويكتب لغة كلاسية فارسية بشكل متقن وكان في المنزل حديقة صغيرة يقوم في وسطها الحوض القاشاني المعتاد الذي لا يخلو من ماء وتعلوه خميلة من شجر النب المتسلق والمنزل يمثل نموذجاً جيداً لطرز بيوت السكنى المحلية المتواضعة وسأحاول أن أقدم وصفاً عاماً له.

إن المنزل والحديقة المألوفين تحيط بهما جدران خارجية إحاطة تامة فتطل على الشارع (كولان) مباشرة. وتلتصق في موضع آخر بجدار (ديوار) من اللبن (خشتى كال) يحميه طنف خارجي (سه رسوانه) من الأغصان الجافة تعلوها طبقة طينية. ومدخل الحديقة (باخچه) صغيرة وباب المنزل يفضي إلى ممر (دالان) ذي أرضية قد تكون منخفضة عن المستوى، فيها (سه كو) من التراب المدكوك، أو الحجر أو الجص على جانبه بمثابة مصطبات جلوس، وثمة مصطبات مثلها خارج المنزل أمام المدخل تدعى (خواجه نوشين) ويجابه المرء عند دخوله التنور (سه رته نور) والمطبخ (جيشتخانه) والحمام (حمام) والكنيف (ثانجانه). وبالقرب من الحوض (حه وز) قد يوجد (سه كو) تفرش بالأبسطة لمجلس الليل. ومدخل المنزل من الحديقة وبناؤه بالحجر والجص (به ردو گه ج) أو بالآجر (خشتى سور) ويتألف من طابق أرضي (ژير خان) الذي قد يكون مقسماً إلى غرفة الخدم، ومخزن العلف (كايين) أو ربما يوجد فيه أسطبل (ته ويله) ثم الطابق الأعلى (سه رخان) ويصعد إليه بدرج (بليكانه) أما من الحديقة أو من نهاية دهليز مفتوح (راره و) الذي يقسم الطابق الأرضي قسمين بالفرض وفي كلتا الحالتين يفضي الدرج

=مشابهاً، بزيادة عباءة من الحرير الأبيض. وفي اللوحة (1 - ب) يرى الفارس الهه ماوه ندى وسط النهر وقد شد ألفه قيانه خلف الرقبة ولف الجه مانه على الطريقة العربية وثبتها بالعقال. وفي اللوحة (13 - أ) يرى سعيد آغا جافران في المقدمة وقد حشر ذيلي (الكه وا) نحو الخلف وكشف عن الدربى.

إلى (راره و) آخر في الطابق الأعلى وهذا أيضاً يقسم غرف الطابق الأول وهي بالترتيب - ثلاث من قدام تليها اثنتان، أو اثنتان أماميتان تليهما ثلاث أو اثنتان أخريان - وتكون بعدة أشكال. وكيفما يكون الترتيب فإنك تجد في إحدى جوانب (الراره و) العليا إيواناً مفتوحاً فتحاً تاماً من الإمام وهو بديل لغرفة. ويستخدم الجزء الأمامي من (الراره و) بمثابة شرفة للجلوس وتسمى (شنوشين) وسقف الإيوان مدعم بجذوع من الخشب (كوكله) تتوجها غالباً رؤوس (كوتير) ذات شكل متميز تقليدي يمثل ولا شك نمطاً موغلاً في القدم. وفي الجانب الآخر من (الراره و) إن وجد جبهة مؤلفة من ثلاث غرف خلف الإيوان. تقوم غرفة الجلوس وتسمى (سى درى) أو (چوار درى) أو (بنج درى) أي ثلاث أو أربع أو خمس نوافذ حسب الموجود من النوافذ. وهي على الطراز الغربي مفتوحة في الجدار الأمامي. وإن كانت توجد غرفة أمامية ثالثة فقد تعتبر (كله گى) أي غرفة ذات واجهة فيها شبابيك مؤطرة بالخشب (عروسى) فيها زخارف نجارية. والغرفة التي تلي الإيوان مباشرة ويدخل المرء إليها من ممر يدعى (بشت إيوان) قد تستخدم بمثابة غرفة نوم. وفي كل غرفة من هذه الغرف موقد نار مفتوح تعلوه مدخنة وقد يوجد أيضاً في الإيوان و(الراره و). إن منزلاً صغيراً على هذا الطراز العمومي قد يحوي غرفة جلوس واحدة خلف الإيوان تسمى (ئوده وايوان = غرفة وإيوان). ويوجد في (الى درى) و(الكله گى) حجرة صغيرة (گه نجينة) يدخلها الضوء من شبابيك أو كوي صغيرة في الجدران الفاصلة بين الغرف وتطلى جدران الغرف من الداخل بالجبس الأبيض وفيها تجاويف مقوسة تستخدم بمثابة رفوف والسقف (سه ربان) يتألف من العوارض الرئيسة (كاريته) وهي من خشب الإسبندار، تعارضها جذوع معاكسة فوقها (داره را) ويوضع فوقها طبقة رقيقة من أغصان البلوط أو طبقة من الأسل مع أوراقها (چلوو) ثم طبقة أخرى من القصب أو الأعشاب الغليظة (زه ل) ثم طبقة من التراب بثخن 18 أنشاً تقريباً. وأخيراً طبقة نهائية ثخنها حوالى ثلاثة أنشات من الطين المعجون بالتبن. وتسمى الحواشي النافرة من أطراف السقف (كريسوانه) ويخصص لكل سقف جذع شجرة أسطواني ثقيل، أو أسطوانة

حجرية كبيرة تدعى (باگردين) ليحدل بها السطح مباشرة بعد كل مطر لمنع تسرب الماء إلى الداخل. وتشيع في السليمانية عادة لطيفة وهي أن الأسر الغنية التي تملك مجموعتين أو أكثر من البناء الذي أتينا إلى وصفه مع غرف زائدة عن حاجتها من الـ(زيرخان) تأتي بأسرة فقيرة وتسكنها هناك بدون أجر، على أن تقوم بحدل الأسطح في الأوقات الضرورية. وهؤلاء الساكنون يسمون (ژير ماله)، وكثيراً ما تبنى غرفة أخرى في طابق ثالث (باله خانه) فوق (الراره و) الثاني لتكون في الصيف بمثابة غرفة للنوم. وتنام أسر الطبقات الوسطى والدنيا فوق أسطح البيوت أيام الصيف، والمرء يشاهد منظراً عجيباً عند غروب الشمس، إذ تنقل المطارح والأغطية إلى السطح وتفرش على مصاطب خشبية تشبه دكات المقاهي (تخته به ند) أو على سرير خفيف بسيط الصنع أو على أرضية السطح فوق أبسطة وتتم خلوة النائمين بإقامة ستارة من الچيغ[1] لتفادي البق والبعوض أيضاً وبذلك تكون محبوكة حبكاً شديداً إلى الحد الذي يمنع دخول النسيم البارد.



مخطط لمنزل مدينة كردي. المقياس حوالى 1:100

---

(1) الجيغ (ويسمى: جيت في لرستان) يصنع من القصب أو الخيزران، ترتب عصيها مستقيمة ثم ينسج حولها خيوط سوداء أو ملونة تتخللها أو تخيط بها بأشكال مختلفة. وتنسج النهايات نسجاً قوياً من الأعلى إلى الأسفل. إن المخطط السطحي الذي تقدمه هنا، اخترناه من حملة تصاميم تفضل بإرسالها إلى السيد رشيد عارف من كويسنجق.

ويمكن للمرء في السليمانية إذا وقف على سطح بيت ذي ارتفاع معتدل أن يشرف على مناظر خلابة من أي جهة ينظر إليها، على أن المشهد الذي بقيت تفاصيله كاملة في ذاكرتي وخلّف في نفسي أعمق تأثير هو منظر كتلة جبل (بيره مه گرون) العظيم بارتفاعه عن الوادي أكثر من 10,000 قدم وهو شاخص من الشمال الشرقي. فقد أسلفت أنه كان بمفرده منفصلاً عن سلسلة (قه ره زه رد) فإذا نظر المرء إليه من الجنوب الشرقي فإن قمته الحدباء توحي للرائي بوجه جانبي العجوز قزم بلغ أراذل العمر ذي حاجبين معقودين وأنف ضخم العرنين وذقن مدببة يشخص بعينيه إلى السماء بتأمل هادئ وجداني جامد يشبه قناع الموت. وقد صرت أتخيله في السنوات التالية - كأحد الأشرار العباقرة يختط بمكر وخبث صنوف الدسائس متوارياً تحت قناع اللامبالاة ضد المدينة التي كان المفروض أن يقوم حارساً أميناً لها.

إن خادمي (عبود) الذي كانت آراؤه بخصوص مستوى المعيشة اللائقة بالضابط السياسي أعلى من آرائي، أدركه سرور عظيم لانتقالنا من (الدبو) إلى منزل خاص. وكان فتى دمث الخلق في حدود التاسعة عشرة أو العشرين. يمتهن التجذيف في قوارب البصرة، حيث كان أخوه الأكبر مسؤولاً عن قارب الضابط السياسي الكبير ذلك القارب الذي سحبناه خلف رافعتنا أثناء تقدمنا نحو الكوت في العام 1915 على طول نهر دجلة. وفي أثناء زيارتي البصرة في العام 1918 لقيته وحببته إلى نفسي ابتسامة لا تفارق وجهه في أشد الظروف حراجة ونظافة زبونه الفضفاض الطويل الأبيض الذي لا تلطخه بقعة، فقبلت عرضه أن يحل محل خادمي البوشيري الذي رغب في العودة إلى وطنه.

بعد أيام قليلة من انتقالنا تم استقراري في هذا المحيط السني المتعصب بانضمام شيعي ثان هو سائس حصاني (قربان علي) الذي أفلح في الوصول بحصاني إلى السليمانية عن طريق بغداد. وبدا سعيداً بوصوله، فقد أسرع يتقدم مني للثم يدي ثم بدا يصف بعبارات متلاحقة مصاعب الرحلة، والعراقيل التي

استطاع التغلب عليها بتجاهله كل الأوامر واستمراره في طريقه بإخلاص وحمية دون أن يرافقه أحد، كان بختياريا من شوشتر فهو لرستاني (وقد مضى له في خدمتي ثلاث سنين) إلا أنه ظل بمنأى عن مجتمعه الجديد منطوياً على ذاته وهو بين أبناء قومه الكرد خلافاً لعبود العربي. وكان هذا يلقب قربان بـ(جربون) ويجعله موضع تندر. (قربان) شيخ كبير السن ساذج، في لسانه رتمة، تزيد وتتعقد في ساعات الغضب أو الهياج فتراه يقول: «كـ.. كـ.. كم أن هؤلاء الكـ.. كـ.. كرد مـ.. متوحشون! ما أسخف هذه الثياب التي يرتدونها وإني أطلب من... سعادتك أن تسمح لي أن أقول إنهم يشيرون إلى الكلاو الذي على رأسي مـ.. م.. متعجبين. ما أعجب هـ.. هـ.. هؤلاء السنة، يسألونني المرة تلو المرة هل أن الشيعي التقي، مسلم؟ وأريد من فضلك.. وجـ.. جـ.. جنابك أن أقول ماذا تتوقع من أولئك الذين يسمون الحصان (أسب) جحشاً (أولاغ)؟![1]».

وصل (قربان علي) في لحظة ليس ثمة أحسن منها، لأن (صون) كان قد عاد قبله بأسبوعين، فرحت أومل فرصاً أكبر للتجوال والسفر في عدة مناطق، بتقلص مسؤولياتي، ورفع بعضها عن كاهلي.

وفي أوائل آب سافر (گرينهاوس) في إجازة وأرسل النقيب (هـ. س. و. فيتزغيبون H.C.D. Fitzgibbon) من كتيبة الهوسار الثالثة عشرة لقيادة (الليفي) فحل محله في منزلي. وقررنا أنه يجب رفع مستوى معيشتنا. وانتهاز فرصة أول زيارة لبغداد لاستخدام طاه محترف وشراء مقدار من المؤونة المنتخبة وطائفة من أجود الخمور المحلية لا كالنبيذ الذي تعودنا شربه ولم يكن فيه بأس على أي حال

(1) وهي الكلمة الفارسية الشائعة للجحش إلا أن كرد الجنوب يطلقونها على كل حيوان ركوب فتنطلق في أغلب الأحيان على الحصان. وهم يطلقون اسم (كه ر) على الجحش وتطابق الاسم الفارسي الثاني للجحش (خر) وأما الزي البختياري الشائع، فللرأس طاقية من الصوف الأسود البني مستديرة كالطاس ليس فيها حافات طبعاً ولا يلف فوقها عمامة أما السروال فأسود اللون مستقيم فضفاض.

ووصل طاهينا في يوم ما من أواخر الشهر، وكان مخلوقاً ضامراً ضئيل البدن أسود البشرة. يرتدي سترة ثقيلة رياضية التفصيل من قماش (التويد) وبنطلوناً قصيراً جداً من الخاكي تبرز منه ساقان هزيلتان شبيهتان بسلكين معقوفين. وعلى رأسه قبعة قماشية شبيهة بما كان شائعاً منها في العهد الفكتوري رثة ممزقة. وكان اسمه صعباً فاضطررنا إلى خلع اسم البطل الفارسي (رستم) عليه.

كان طاهينا الكردي السابق، يقدم لوجبة الغداء والعشاء صنفاً واحداً يومياً ولعدة أسابيع بطولها، وهي مرق طماطم و(باميه) فيه لحم ضأن أو ماعز متغسر لا تنال أسناننا منه شيئاً. حتى ضاقت أنفاسنا وبلغت روحنا التراقي. وكان قدوم رستم في وقت مناسب جداً لإنقاذ صحتنا. وزادت قلوبنا انتعاشاً وشاع فيها الأمل عندما أعلن طاهينا الجديد عن أول وجبة طعام. رفعت الغطاء بإحساس من الفخر والارتياح. وتطلعت إلى (فيتزغيبون) فوجدت وجهه يتصلب ببحلقة أليمة كأنما يشخص إلى غولة (ميدوسا) ووجمت أنا أيضاً. لم يكن طعامنا إلا المزيج القديم من لحم المعز والطماطم والبامية. وقد تبين لنا أن عبود بشخصيته الآسرة التي سيطرت على مستشاري المطبخ في أيام الطاهي المحلي السابق الذي كان أكثر غباوة منه - قام بتدريس عمله لخليفته الطاهي الممتاز القادم من (غوا) البعيدة. فأي لون من ألوان الطعام عند (عبود) لا يمكن أن يكون كاملاً بدون طماطم[1]. وبعد ليال قليلة وجدنا (رستم) قد قام بزيارة طائشة بمشرب من مشارب (العرق) في محلة اليهود وبعث لنا بوجبة طعام يتعذر أكلها، ودافع عن نفسه قائلاً إنه لم يعثر على طماطم في السوق وليس في العدالة في شيء أن ينتظر من رجل مسكين صنع طابوق بدون تبن. ومع أن رستم لا يختلف عن أمثاله، ولا مناص من أن تكون له شطحات بين آن وآخر. إلا أنه في الواقع طاه جيد إذ تمكنا من التغلب على

(1) الطماطم هي مادة رئيسة في مواد الطبخ العربية. ولقد كادت وزارة عراقية ترفع استقالتها سنة 1942 أثناء الحرب العالمية الأخيرة، لما اختفت هذه المادة من أسواق بغداد، خلال محاولة منها لتسعير المواد الغذائية!

المصاعب الأولى. وهكذا أمكننا بمرور الزمن تنظيم عدة حفلات عشاء ناجحة طريفة لزملائنا الكرد والبريطانيين قبل تركي المدينة منقولاً في أواخر آب.

وفي الوقت نفسه لم تتناقص أعمال الدائرة الروتينية كما أملت. على أني تمكنت من القيام بثلاث جولات قصيرة من (ثازمر) إلى (شارباژير) مما سآتي إلى وصفه في الفصل التالي.

- 8 -
شارباژير

عندما بلغت قمة (ثه زمر) لأول مرة، كان المنظر الذي طالعته عيني يتناقض تناقضاً بيناً مع الوديان المنتظمة المتهاونة الوسيعة التي تتخلل السلاسل الثلاث الموصوفة سابقاً. فالذي رأيته هنا، عبارة عن حشد مضطرب من شواهق الجبال يمتد إلى كل الجهات، ومن كتل مهيبة من الجرف الصخرية والقبب المنبعجة والمخاريط المستديرة استدارة دقيقة والذرى الشماء والخوانق الواسعة، لا ينتظم ذلك إلى شكل معين عند أول نظرة - خلا أن جزء من السلسلة العظمى، يرتفع إلى سبعة آلاف قدم ويطلق عليه اسم (سه رشيو) تراه يدنو منحدراً في الاتجاه المعتاد من الشمال الغربي.

وعلى بعد عشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي، مباشرة مقابل النقطة التي نقف فيها وجدنا السلسلة والحدود نفسها ينقطعان بمقدار عشرين ميلاً تقريباً ليفسحا السبيل إلى قدوم ثلاثة أنهار صغيرة من الشرق هي (شلير وقزلجة وكوگاسور) وتبعد عن الجهة الأخرى حسب تسلسل الأسماء 30، 24، 16 ميلاً. وبوصول جبل (سه رشيو) فتحة(شلير) التي ينفذ منها داخل العراق ينحرف خط الحدود نحو الشرق ويتابع حوض النهر حول منبعه ولا يدور حول النهرين الآخرين فنجم عن هذا إسفين من الأرض يدخل إيران بعمق (30) ميلاً. وبمسافة 8 أميال تقريباً إلى شمال (بنجوين) تترك الحدود الساعد الجنوبي المرتد من الأسفين وتتبع خطاً متعرجاً نحو الجنوب إلى مسافة 12 ميلاً فتتخطى (قزلجة) ثم (كوگاسور) بمسافة

14 ميلاً و8 أميال على التوالي، من نقطة بدء خطها المتعرج. وبعدها يعود خط الحدود إلى الاتصال بالسلسلة العظمى التي تبعد 8 أميال عن فتحة (كوگاسور) وتسمى هنا بسلسلة (هه ورامان). إن المقطع المحصور منها بين (شلير) و(قزلجة) يسمى (لاري) وأما الاسم الشائع للمقطع المنحصر بين قزلجة و(كوگاسور) فيدعى «تايه ر» وكلاهما ضمن الأراضي العراقية. و(تاريار) هضبة منبسطة ترتفع حوالى 6000 قدم في أغلبها، مكسوة بغابات كثيفة جداً[1]. ما أن ينفذ نهرا (شلير وقزلجة) من الحاجز الجبلي حتى يندمجا ويؤلفا نهر (سيوه يل) الذي يتجه عموماً نحو الغرب بكثير من اللفتات والمنعرجات ويطلق على نهر (كوگاسور) القادم من الشرق - الجنوبي الشرقي اسم (قه لا جوالان) من عاصمة الدولة البابانية القديمة التي تقع خرائبه على ضفته اليمنى. ثم ما يلبث رافد (ثالاسياو) أن يصب فيه من الضفة اليسرى قد وجب على التنويه به هنا لا لأهميته بل لأني قطعته في عدة مناسبات أثناء جولاتي التي وصفتها في القسم الأخير من هذا الفصل. أخيراً وعلى بعد 8 أميال أخرى من المجرى، وبمسافة حوالي 18 ميلاً بخط مستقيم لاتحاد شلير قزلجة، يلتقي «قه لا جوالان» بـ(سيوه يل) ويغلب على النهر الجديد اسم (قه لا جوالان). ثم ينعطف فجأة في تيه من الوديان[2] الصخرية العميقة الغور بشكل

---

(1) كثيراً ما فكرت أن يجعل من (تايه ر) مصيفاً بديعاً لو ضمنت أسباب الأمن في هذه المنطقة القريبة من الحدود. وفي الواقع إن قرية (أحمد كلوان) التي تقع على السفح الشرقي هي التي زكيت (لريج) عندما أراد التخلص من حر تموز في السليمانية.

(2) إن تسميات الأنهار معضلة لا تقل عن معضلة تسميات الجبال. فأسماء مثل (زى = زاب) وسيروان وتانجه رو تطلق على النهر بصورة عامة ولمعظم طوله. ولكن أجزاءه المختلفة كانت كثيراً ما تعرف بلفظة (آو = ماء أو مجرى، جم، جمى)... القرية الفلانية والفلانية أو تنسب إلى محل أو منطقة أو حتى إلى شخص. فمثلاً في أعلى ملتقى قزلجة في نقطة عبوري الأول يطلق على (شلير) اسم (آوى بيران) من اسم قرية بيران الإيرانية. وقد عبرنا نهر (كوكاسور) وهو الاسم الذي يطلق على النهر بعد دخوله العراق - في ضفة منه تدعى (سى بوران - المعابر الثلاثة) وفي ما يدعى (ته نكه بوار) أي المعبر السهل و(زالان) وهي قرية و(قه لا جوالان) كما مر. وقد عبر ريج في (ثاوه كوزى) في طريقه إلى (أحمد كلوان).

لا يصدق، متجهاً نحو الزاب في الوقت الذي اتخذ هذا النهر نفسه مجرى شديد التعرج بين سلال جبال الحدود. إن الانحراف الشمالي غير المتوقع الذي يتخذه (قه لا جوالان) ونظام التسمية المحلي يضللان المرء إلى درجة لا يود معها غريباً وقوع السياح الخبراء في أخطاء، ومنهم (ماونسل وديكسن) وقد بقيت الخرائط عدة سنين تشير إلى استمرار النهر في مجراه إلى الشمال، وبلوغه الزاب عن طريق الوادي العميق (بالكو) شمال دوكان على بعد ستين ميلاً من ملتقى النهرين فعلاً! إن البقاء على هذا الخطأ أمر غريب، في الوقت الذي قام كل من (كيربورتر وريج وفريزر وبرزيزوفسكي وجيريكوف) على الأخص، بوصف الحوض وصفاً صحيحاً. ولم يجر تصحيح هذا الخطأ حتى تشرين الثاني 1921 عندما قام الدكتور (ف.م. هالى Dr. F. M. Halley) طبيب صحة السليمانية باستكشاف نقطة التقاء النهرين بشكل صائب[1].

في الوصف الجغرافي العام لجنوب كردستان ولغرض التبسيط، سميت سلسلة رابعة من الجبال موازية لسلسلتي (ئه زمر قره زه رد) بالسلسلة العظمى وفيما بينها. على أني كنت دقيقاً أكثر مما يجب. عندما بدأت هذه الجبال بالتكوين كان يبدو وجود ضغط عظيم شديد لإحداث سلاسل جبلية متوالية تمتد من الجنوب إلى الشمال وخير مثل لهذا الضلع هي قمم (دارو - 7000 قدم وسه رشيو - 7000 قدم وهزار كانيان - 7400 قدم وگامو 7750 قدماً) وبهذا طرأ تشويه على النظام الهندسي المألوف حتى الآن. هذا وإن خط التكوين الجيولوجي الواضح يبقى على اتجاهه في الواقع - أي من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. غير أن سلسلة (كوره كاژو) لا تؤلف خط حماية طويل واحد مع سلسلة (گوجار - گورگور). فمياه

---

(1) انظر التعليق في المجلة الجغرافية م116 سنة 1922، ص146. ومقال (هالى) ومضيق (قه جوالان) وملتقاه بالزاب الأسفل، لمجلة الجغرافية، م86 سنة 1935، ص158. ومع أن ريج وجيريكوف أثبتاه صحيحاً في الوصف الذي دوناه إلا أن الخطأ الواحد يظهر في كل من خريطة ريج، والخريطة الموضحة التي نظمتها لجنة الحدود (1849 - 1852) (انظر الفصل العاشر من الكتاب).

(كوگاسور وسيوه يل) تخترق أولاً الخط الممتد من الشرق إلى الغرب كل في مجراه الأصلي. وبعدها ينفلت النهر المتكون منهما والذي يعرف بـ(قه لا جوالان) مخترقاً جزء من السلسلة نفسها لينحدر غرباً بمحاذاة ضلع (دارو - گامو). وإلى غرب (قه لا جوالان) يتخذ التكوين الجبلي الجيولوجي الاتجاه المألوف حينما تبرز كتلة شامخة من جبال متوازية نوعاً ما ووديان ضيقة تبلغ حتى العمود الفقري الأوسط لـ(گوجار - گورگور) المتجه إلى الشمال الغربي بينما تقوم حدبة (ئاسوس) الواضحة جداً بتجزئة سهول (مرگه) و(بيتوين) الواسعة عن سهول (قه لا دزه = قلعة دزة) ولكل من هذه الوديان مجاري مياهه وأحواضه التي تفصل السفوح المنحدرة شرقاً إلى (قه لا جوالان)، عن تلك التي تنحدر غرباً إلى الزاب نفسه، فوق (دوكان).

وكل حوض نهر (قه لا جوالان) الواقع غرب (لارى - تاريه ر) يدخل في قضاء (شاربازير)[1] الذي يحده والحالة هذه، (ئه زمر) من الجنوب الغربي. ومجرى النهر السالف من الغرب، والزاب ورافده ماء (بانه) من الشمال (ويكونان أيضاً جزء من خط الحدود). والسلسلة العظمى من الشمال الشرقي، وخط من المرتفعات القليلة الارتفاع من الجنوب الشرقي، وهذه أيضاً تحد النهاية الشمالية من سهل شهرزور، بعد أن يسوخ جبل (ئه زمر) في الأرض.

ويخترق (شاربازير) ثلاثة طرق كروان رئيسة من السليمانية حتى إيران وأولها يمر من فتحة (گويژه) إلى (چنكسنيان) ويدور بالطرف الشمالي من (كوره كاژاو) حتى يصل (بنجوين) ثم ينطلق نحو (سنه). والثاني يعبر مضيق (ئه زمر) إلى (هارمين) و(شيوه كه ل) حتى (بانه) والثالث يتجه شمالاً مخترقاً مضيق (قيوان) ويعبر فوق جسر (قه شان) على نهر (قه لا جوالان) حتى قرية (ماوه ت) ويعبر جسر (تاييت) فوق الزاب حتى (سارداشت).

---

(1) إن إسفين (شلير) إلى الشرق، ومسافة الأميال العشرة (لقزلجة) المنحصرة بين (تاريه ر) والحدود، تقع في ناحية بنجوين التابعة لحلبجة.

إن ستة من أصل سبعة من السياح اجتازوا منطقة (شارباژير) ممن جاء ذكرهم في قائمتي، ولم يقم بعدهم ممن وصل هذه البقاع، وبضمنهم لجنة حدود 1914، بعمل شيء في الجانب الإيراني من هذا الجزء. لذلك تكون مذكرات رحلة فريزر عام 1834 أقرب وصف متيسر لنا بالإنكليزية لهذه المنطقة في العام 1919. والظاهر أن (كينيه) لم يدر بوجود هذه المنابع أصلاً، عندما ألف كتابه الجليل، مثله في ذلك مثل كليمان (1856) في رحلته المفصلة (لم يطبع برزيزوفسكي رحلته لسنة 1869 إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً) فبعد أن قدر نفوس القضاء بـ(6600 نفس) وذكر أن مركزه هو: Chiokl شويكول (ومن الواضح أنه قام بترجمة كلمة (شيوه گه ل) عن كيفية كتابتها بالأحرف العربية) لم يتمكن من إضافة شيء أكثر من قوله «لا يعرف عن هذا القضاء إلا القليل وهو مشهور بأن معظم سكانه يقومون على غرس الأعناب والأشجار المثمرة وزراعة الرز والتبغ».

هؤلاء السياح الذين انصرفوا إلى وصف العراق والمسالك بتفاصيل متفاوتة في الطول والقصر، أجمعوا كلهم من البدء على الإعجاب بروعة المناظر الطبيعية وفخامتها. وهنا نرى السائح (مينيان) تجود شاعريته فيقول معجباً «أقر باطمئنان تام أن كردستان هي بلا مماراة، أجمل وأروع بلاد وقعت عليها عيني ولا أستثني من ذلك بلداً.. هذه الخوانق والمضائق من أسمى وأبدع الخلوات التي خلقت على وجه الأرض - إنها لتفتح في صدر الإنسان ينابيع من الفكر والتأملات وتسلمه إلى البهجة المطلقة». وسحر (كيربورتر) بجمال الطبيعة والجو العام الذي تنم عنه مظاهر الازدهار والرخاء في إقليم (ماوه ت) فنعت المناظر «بالسحر الحلال» و«بفردوس في الجبال» و«بأروع نموذج للجمال الريفي الرومانتي وقعت عليه عيناي منذ أن وطئت قدمي بلاد الشرق». وبعده بست عشرة سنة، وجد (فريزر) هذا الإقليم نفسه وقد خلا من سكانه بسبب طاعون سنة 1831، والدمار الذي أحدثته فيه الجيوش الإيرانية الغازية. ومع هذا فقد لهج وأشاد بـ«جلال الطبيعة الساحر المذهل في هذه البلاد» وعن «أزهار السوسن (الخريفية) الرائعة الألوان التي ندر أن وقعت على ما يضاهيها. ولم أقع قط على ما يفوقها».

ويمتد الفضاء بطول خمسين ميلاً من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وبعرض لا يختلف، مقداره عشرون ميلاً تقريباً. وينقسم إلى ثلاث نواح هي (ماوه ت) في الشمال الغربي، والمركز الذي يسمى عادة (چوارته). و(سروچك) في الجنوب الشرقي[1]. وتقع (ماوه ت) من الناحية القبلية في منطقة نفوذ أسرة (بشده ر) الحاكمة القوية الكثيرة الأفراد. وقد أرجأت وصفها لعلاقتها بالقضاء المسمى باسمها، إلى فصل تال. إن ناحية (جوارته - 18000 نفس) منفصلة عن (ماوه ت) بضلع من سلسلة جبال (دارو - گامو) الشماء وعن (سروچك 9500 نفس) بخط غير منتظم يمتد من (تاريه ر) في أعلى قمة منه وهي (گچل باردو) من (كوره كاژاو)، إلى أن يبلغ (ئه زمر) في نقطة تبعد عشرة أميال إلى الجنوب الشرقي من السليمانية. إن ذلك لجزء من (جوارته) الواقع شمال (سيوه يل) كان ناحية منفصلة إلى وقت قصير، تدعى أحياناً (سيوه يل) باسم النهر، وأحياناً (شيوه كه ل) نسبة إلى القرية التي سميت أسرتها الحاكمة باسمها.

ومعظم سكان (شارباژير) هم فلاحون غير قبليين. وكما هو مألوف العادة في معظم كردستان، كان يوجد في كل قرية كبيرة نوعاً ما، رئيس يسكن القرية وهو في الوقت نفسه أكبر ملاكي الأرض وأوسعهم نفوذاً فيها. وقد يكون الرئيس آغا قبلياً شق إليها طريقه عنوة واقتداراً. ويتطلب من رئيس القرية بحكم العادة واعتبارات المركز أن يكون لديه دار ضيافة (ديوه خان) يزود فيه المسافر مهما انخفضت منزلته بالمأكل والمبيت ولا يتقاضى المضيف أجراً مباشراً أو غير مباشر

(1) هذا الترتيب الجغرافي الأقرب إلى الطبع هو الآن نافذ المفعول. ويظهر من (كينيه) ومن تقويم عثماني قديم لسنة 1895 ومن محفوظاتي، أن الناحية كانت أحياناً مرتبطة (بشاربازير) وأحياناً تابعة للواء السليمانية مباشرة، كما كانت عليه الأحوال السياسية. وفي أيام احتلالنا الأولى وعندما تتغلب أحياناً الضرورات القبلية على الدواعي الجغرافية تضم إلى جوارته مجموعة مؤلفة من تسع قرى تعرف باسم كبراهن (سراو - ميراو) تقع بين (دارو - سه رشيو) ونهر (قه لا جوالان) خارج نفوذ بشده ر. في حين ضم إلى بشده ر عدد مماثل من القرى قرب الحدود وعلى جانب (سيوه يل) من طرف جبل (كامو) وكان يدار من (ماوه ت).

عن الإقامة الصغيرة. على أن الآغا القبلي يبقى مرتفعاً عن هذا المجتمع كما أسلفت وهو لا يشبه المختار (كونجه) بالضرورة، لأن هذا رئيس القرية الرسمي الذي تناط به واجبات معينة ويكون مسؤولاً أمام السلطة، وهو بين أن يكون رئيس أنصار الآغا أو رئيس أعدائه حسبما تقتضي الظروف. وحين لا يوجد آغا في القرية يقوم المختار بمسؤولية إيواء المسافرين في المسجد، ولا مانع أبداً من استضافة من لا يدين بالإسلام. إن المضيف أو غرفة الضيوف التي خصصها أهم شخصية في القرية، تكون شيئاً أشبه (بالنادي) يؤمه الأقرباء والضيوف والمسافرون والجيران لتبادل الأنباء وعقد الصفقات التجارية، ويقعد الحضور صفاً واحداً متكئين على الجدران بحسب نظام المنزلة والمركز الصارم. ويكون مجلس الصدارة في أبعد موضع من المدخل.

ويقسم الجغرافيون المحليون منطقة (سيوه يل) إلى (سيوه يل العليا - معروف آغا) أو (سيوه يل العليا - شيوه گه ل) ويجتمع فيها حوالى 12 قرية تقوم على السفوح الجنوبية الغربية من (سه رشيو). و(سيوه يل السفلى - سليمان آغا) أو (كنارو) وتجمع إليها بقية القرية التي تقع على السفوح الشرقية من (دارو - گامو) ويستخدم لفظ (ثالان) للإشارة إلى القرى الواقعة على ضفتي الزاب عند الحدود بالقرب من ملتقى النهرين في (قه لا جوالان). ويطلق لفظ (به ركيو) كثيراً على البقاع التي تمتد غرب (لارى - تاريه ر) مباشرة، بين نهري (شلير) إلى الشمال و(كوگاسور) إلى الجنوب.

إن أغوات (شيوه گه ل) يدعون بأنهم الجيل الرابع المنحدر من عشرة أبناء جد أعلى اسمه سليم آغا. (وهذا نفسه هو حفيد لعثمان آغا - شيخ عشيرة بيران الشهير - إلى الشمال[1] كان سليم آغا قد نشأ في كنف أحد أمراء بابان وعين حسب النظم الإقطاعية وكيلاً عاماً للسفرات. ولست أذكر فيما إذا كان عدد كبير

(1) عن عشيرة (بيران) راجع الفصل الخامس عشر.

من هؤلاء قد سجلوا أي جزء من قراهم تلك بأسمائهم، لكن الأمر سواء إن كان تعيينهم قد جرى بأمر من البابانيين، وأنهم مارسوا سلطان الآغا بالقمع أو الحيلة، فأنا لم أسمع بمن يجادل في حقوقهم وعوائدهم المعتادة، وتختلف (سيوه يل) من هذه الناحية اختلافاً كبيراً عن جارتها (ماوه ت) فإن أغوات بشدر فرضوا أنفسهم بالقوة.

هناك عدد كبير من القرى في ناحية (چوارته) جنوب نهر (سيوه يل) وهي من أملاك الشيخ محمود وأقربائه الأذنين. على أن قسماً كبيراً من أراضيها سجل بأسماء فلاحيها.

وكل قرى (سروچك) - باستثناءين أو ثلاثة - يملكها سادة البرزنجة العديدون. وفي القسم الجنوبي من الناحية يقل الماء بعض الشيء في الصيف والخريف خلافاً لباقي أراضي (شارباژير). لذلك كان غرس الكروم، الزراعة الأساسية وكذلك الاسبندار ويزرع التبغ أيضاً حيثما توفر الماء له. فضلاً عن المحاصيل الشتوية من القمح والشعير - التي تعتمد على الأمطار فحسب.

والركن الجنوبي الشرقي من الناحية في (دولا گه لال) وما حولها المنحدرة جنوباً نحو شهرزور وتانجه رو مع جزء من (به ر كيو) هي موضع سكني مجموعة غريبة من العشائر الصغيرة - شبه البدوية. تسمى (ناودار = داخل الغابة أو الثغرة) أو (غاوار = الغرباء والدخلاء)[1] ويمثلون بقية سكان شهرزور القدماء الذين طردتهم قبائل (الجاف - مرادى) في القرن السابع عشر كما سيجيء بيانه في فصل تال والاسم اللاصق بهم (غاوار) والحكايات الشائعة عنهم بأنهم يجتنبون المياه ولا يغتسلون، لا شك وأنها تخرصات وأكاذيب اختلقها الفاتحون الذين طردوهم.

قمت برحلتي الأولى إلى (شارباژير) لغرض معين، هو استطلاع رغبات

---

(1) والأفخاذ التي تنظم هذه العشيرة هي: بيسارى (سبع قرى = 60 بيتاً) جوجاني (أربع قرى = 50 بيتاً) هوزى - هسانى (قريتان = 35 بيتاً) برخى (قرية واحدة = 30 بيتاً) قاويلايى (مائة بيت تفرقت أيدي سبأ بعد قحط عام 1918).

السكان في نقل مركز إدارة القضاء من مقره التركي (سيته ك) القريبة جداً من السليمانية التي يغري قربها الموظفين بترك مقرهم والنزول إلى المدينة لأية علة من العلل وجعلتها في موضع أكثر مركزية إلى شمال (كوگاسور). لم تزل أعمالي كثيرة، وكنت مضطراً إلى إنجاز أكبر قدر منها فيما بين نهاية ساعات الدوام الرسمي لنهار السبت حتى الساعة الثامنة من صباح الاثنين. ولذلك غادرت السليمانية في ساعة متأخرة من عصر 24 تموز، وعبرت سلسلة الجبال من مضيق (ئه زمر) وهو المشهد الذي أتيت إلى وصفه سابقاً. ثم انحدرت ورحت أجوس في غابات كثيفة تختلف جداً عن تلك السفوح الجرداء التي تواجه السليمانية. وبلغنا (سيته ك) بعد ثلاث ساعات على ظهور الخيل في سير بطيء. واستقبلنا الموظفون ومبرزو الناحية صفوفاً في ظاهر القرية حسب العادة المتبعة. فوجدنا قرية جميلة تتألف من (20) بيتاً مبعثرة بين بساتين الأسبندار والچينار، تحيط بها حقول واسعة من التبغ والقمح والشعير، ومالكها وآغاها هو شيخ محمد غريب صهر الشيخ محمود. وكان قد عين نفسه قائمقاماً أثناء دولة الشيخ وقد أسر في (بازيان).

وركبنا خيلنا قبيل السادسة من صباح اليوم التالي وبعد وصولنا إلى (ثالاسياو) التي تبعد عنها نصف ميل إلى الشرق، أخذنا نتعقب المجرى الواسع المتجه نحو الشمال حتى نقطة التقائه بكوگاسور، وقد عبرنا هذا من مفرق عمقه قدمان فوق المصب بمسافة قصيرة، وعلى مقربة من خرائب (قه لا جوالان) العاصمة البابانية الأولى. وقضينا ساعة سائرين فوق منحدرات متطامنة، نغطس في الحشيش المتموج وبعدها مصعدين إلى شعب صخري شديد الانزلاق بين صفين كثيفين من شجيرات توت العليق البري والعنب المتسلق - حتى انتهينا إلى (چوارته): القرية المرشحة لمركز القضاء.

واستقبلنا المختار خارج القرية وقادنا إلى صدر رحيب لمسجد كبير. وهناك رحب بنا صف من القرويين واضعين أيديهم على صدورهم. وقدم لنا جوز ولوز

جديدان غضان، وعنب لم يكد يصل مرحلة النضج. وجيء بأوعية من الحليب (التازه) واللبن (ماست) وبقدور من اللبن الممزوج بالماء (ماستاو) فيه ملاعق من خشب شجر الخوخ تطفو على سطح السائل. وبعد غليان الماء في (السماور) أدير علينا الشاي المحلي بالسكر في أكواب فارسية، وبعد انتهاء واجب التكريم المبدئي شرعنا نتجول سيراً على الأقدام في أنحاء القرية، وواصلنا البحث فيما جئنا له حول نبع ماء ظله وارف وجوه بارد، تخيم فوقه أغصان شجرتي چينار ماردتين.

تقع (چوارته) على ارتفاع 4000 قدم، في السفوح الجنوبية الغربية لجبل (سه ر سير) وتشرف على منظر رائع يشمل كل وادي (كوگاسور) حتى (ئه زمر) وقد وجدتها موضعاً لا أبهج منه للنفس فهي تقع بين بساتين اللوز والتوت وتعشعش في ظلال أشجار الأسبندار الطويلة الرشيقة وأشجار الجوز ذات الأغصان المنداحة، والچينار الجبارة. لقد توصل الكرد بتجارب القرون العديدة إلى أن القرى المبنية على سفح الجبل تمتاز بميزة عظيمة هي أنها تكون ذات مناخ واحد على حد قولهم (يه ك هه وا) أي أنها أقل تعرضاً لتقلبات درجة الحرارة العنيفة من تلك التي تبنى في السهل. وهذا هو نموذج لقرية من صنف كبير العدد من القرى. ووصفها باقتضاب قد ينوب عن وصف الجميع.

بنيت البيوت في صفوف مدرجة ثلاثة أو أربعة على السفح المنحدر فكان الطابق الأرضي لكل بيت (ژير خان) مثل اسفين بسبب ميلان الأرض وهو يحتوي على مخزن الغلال، والإسطبل فضلاً عن تأمينه سطحاً مستوياً لطابق السكنى كله أو لجزء منه حسب ما يبنى عليه. وقد يخرج من سقف الطابق الأعلى ممر يفصله عن المدرج أو الصف التالي أو قد يفضي رأساً إلى باب الدار الذي يقوم فوقه وعلى هذا الأساس يمكن للمرء أن يقوم بجولة نزهة فوق سلسلة متعاقبة من السطوح حتى ينقطع بزقاق. والجدران التي قد تتيح الأرض إقامتها عليه - تبنى بالحجر غير المهندم والجص أو بالطين. أما إذا أقيمت فوق الطابق الأسفل فتكون

من الأغصان المجذولة الخفيفة. وكثيراً ما تتخذ غرف النوم شكل خمائل منفصلة ترتفع على دعائم خشبية، تحاط الأجزاء العليا منها (بالچيغ) لتكون بمأمن من الأعين المتلصصة. وكثير من هذه القرى يقسمها واد تجري فيه سيول الشتاء والربيع. ولذلك تبنى البيوت على جانبيه نصفين يواجه أحدهما الآخر.

وغالباً ما يشيد المسجد في النهاية السفلى من القرية. وشكله المألوف هو (ثوده ئيوان = غرفة واحدة مع إيوان) ويبنى على أرضية ترتفع قدمين أو ثلاثة فوق مستوى الأرض، وأمامه ساحة صغيرة مسورة. وقد تكون مبلطة وقد يكون فيها حوض ممتلئ بالماء الذي لا ينقطع جريانه. وهناك صعوبة كبيرة مزعجة بخصوص نزول الغرباء تشوه جمال عادة استضافة المسافرين. فبسبب وجود الماء القريب، جعل المنطقة المجاورة كنيفاً عاماً منتظماً كان أم غير منتظم.

وألطف من هذا هو نواة الحياة الاجتماعية الثانية، عدا المسجد، وأقصد بها نبع الماء الرئيس، فهو يقع في أعلى القرية. إنك تجد تحت ظلال شجرة أو أكثر من أشجار الچينار الهرمة Plane - tree (سه گو) يجلس العاطلون عليه يتبادلون الأخبار والأحاديث، وتدار أكواب الشاي التي يقدمها (الچايچي) وبالقرب من المنبع يوجد حوض آخر مبلط القاع، ويحيط بحافاته قطع حجرية ملساء لامعة. وهنا يتمكن القروي من قيامه بالوضوء وأداة صلاة الظهر أو العصر، وعلى مسافة قصيرة قد تجد حوضاً للاستعمال العمومي أوسع من أخيه. ويستمد ماءه من نبع ماء مستقل أو ساقية، وتحيط بجوانبه قطع من الحجر صفت كيفما اتفق. وعليه تغسل النسوة الثياب، ويجلسن ليتجاذبن أطراف الحديث. وإذا زادت كمية الماء عن استيعابه يصرف إلى أنحاء القرية بأقنية وسواق ذات هندسة دقيقة صممت بحيث تتخلل البساتين الكثيفة وحقول الخضار المدرجة ومزارع التبغ. وتقام رحى في موضع ما من القرية حيث توجد مساقط مياه.

وجدت (چوارتا) مناسبة جداً لمركز القضاء فهي متوسطة تقريباً وكانت تتآلف قبل الحرب مما يزيد على مائة بيت أما الآن فلا تزيد الأسر عن العشرين. وقد

تناقص العدد بسبب المجاعة الأخيرة ولذلك كانت تملك قابلية التوسع والزيادة. إنك لترى جبل (سارسير) يقوم وحده منفصلاً تماماً من سلسلة (كوره كاژاو) وبمنأى منها بعض الشيء، مشرفاً على وديان (كوگاسو) من الجنوب وعلى (سيوه يل) من الشمال. لذلك كانت قمته المقببة (ارتفاعها 5250 قدماً) صالحاً جداً ليجعل منها نقطة رصد للراقم الشمسي من كل جهة، وهي ميزة هامة ضرورية في زمننا الحاضر. ولاحظت وجود طرق ومسالك سهلة تمتد إلى الشرق والشمال والغرب، وقد خالجتني فكرة الصعوبات التي سنلقاها في العثور على طريق مناسب يجري تمهيده لتسلكه السيارات القادمة من السليمانية. وكل كردي هو خبير مطبوع في معرفة فضائل مختلف المياه في هضم الطعام ولم يكن رأي صغار الموظفين الذين انضموا إلى ركبنا من (سيته ك) بالذي يستهان به حين قرروا أن كل المزايا التي تفخر بها المياه، هي لا شيء إذا ما قورنت بماء چوارتا المشهور بأنه (گران) أي ثقيل في المعدة. ومهما يكن فقد أوصيت عند عودتي بنقل القضاء إليها وقرر أن يتم حال ذلك عودة (رضا بك) من بغداد وكان هذا القائمقام الجديد قد سافر إليها ليتسلم سيف الشرف من الجنرال (ماكمون).

عدت إلى (سيته ك) لقضاء الليلة. وسلكت طريقاً يمتد إلى غرب الطريق الذي سرته في رحلتي إلى چوارتا لأجعل مروري بمقبرة البابانيين القديمة حيث لاحظت حجراً نقش عليه عبارة «سيد العصر والأوان سليمان خان» ولكيما أعبر النهر في أسفل صدور (ثالاسيثاو). وفي الساعة 3,35 من فجر يوم الاثنين كنت على صهوة حصاني أضرب في مسلك وعر قلّ من يطرقه، يعرف باسم (هروتا) ويبعد بمسافة ميل واحد جنوب شرق (ئه زمر) وبلغت السليمانية في أقل من ثلاث ساعات وما يزال الوقت مناسباً للاستحمام والذهاب إلى الدائرة في الثامنة صباحاً.

وقمت بجولتي الاستطلاعية الثانية المشابهة للأولى، في عطلة الأسبوع التالي. وفي هذه المرة وقع اختياري على مضيق (گويژه) وهو أقرب الشعاب إلى السليمانية، يبعد زهاء ثمانية أميال جنوب شرق (ئه زمر) وكان التوغل صعباً جداً

أكملناه بساعة واحدة ودقائق، أما النزول فكان أسهل، وقد تبين لي أن شق طريق للسيارات في هذه الشعب من رابع المستحيلات. وبعد عبورنا (ئلالاسيئاو) مما يلي (سيتهَ ك) بميلين قريباً من التقاء نهر (شوكى) به وهو ماء ينحدر من (كوره كاژاو)، انشعب الطريق شعبتين، اليسرى منها وجهتها (هه رمن)، وطريق الكروان المنتهى بـ(بانه) واليمنى هي الطريق الرئيس إلى (پنجوين). ومعظم انشعاب الطريق معلم بمجرى نبع ماء عجيب يعرف باسم (سازندا = الساحر أو المنجم) ينبط من وسط الشارع. وقد اخترنا شعبة بنجوين وتمكنت من إمتاع نفسي بهَذَبات طويلة فوق أرض جذابة المنظر، ومررنا (بنود هى = نودى) مسقط رأس الولي (شيخ معروف) وهي قرية تتوارى في غور مجرى عميق (شيو) إلى يمينا. وبعد ميلين انحرفنا عن طريقنا لنقضي ليلتنا في (چنگنيان) وهي قرية بيوتها حسنة المظهر، وكرومها كثيرة إلى جانب مرزرعات أخرى، وتشتهر بمياهها، وهي من أملاك الشيخ محمود.

في صباح اليوم التالي - سرنا من (چنگنيان) زهاء ميل لنتوغل خانقاً ضيقاً، وأصبحت الكتلة الرئيسة من سلسلة (كوره كاژاو) عن يميننا، ووجدنا عن يسارنا جبيلاً عجيب الشكل مثل موجة بحر متكسرة ويدعى (كاتو). وتعرف هذه البقعة باسم (دوله تو = وادي التوت) وهي جزء من واد عميق الغور يعرفه الطبوغرافيون المحليون - يمتد نحو الشرق ويدخل في قلب الجبال. ترجلنا لنتناول الغداء في قرية ذات موقع جميل، تلوح عليها مظاهر الرفاء والرخاء اسمها على مسماها (هه رميله = شجيرة الكمثرى) وشخصنا بأنظارنا إلى مياه (كوگاسور) اللألاءة الرقراقة، ويدعى هنا (ته نكه بوار) وإلى قرية (دلياوا) وهي مرحلة طريق كروان وفيها طريق بديل يتجه إلى (بانه) عابراً (كانى دزان = نبع اللصوص) على الطرف الشمالي من اسفين (شلير). وقد حدثنا القرويون هنا أن سادة البرزنجة لما بلغتهم أبناء استسلام الأتراك في العام الماضي أسرعوا بنهب مائة حمل بغل من الأسلحة الخفيفة كانت في المستودع العسكري التركي المسمى (ولياوا).

لم يكن موضع عبورنا في نهير (ته نگه بوار) ليزيد عن قدم واحدة عمقاً ووجدنا صيادي السمك منشغلين بشباكهم على مقربة منا. وبعد عبورنا انحرفنا عن طريق الكروان إلى الغرب وصعدنا جرفاً شديد الانحدار وسرنا في غابة كاملة من شجيرات البلوط وخرجنا إلى بقعة جميلة في أرض منبسطة ينمو فيها الكمثري والسماق نمواً طبيعياً بأعداد وفيرة. وطالعتنا مساحات واسعة من الكروم في المنحدرات التي تحف بتلك البقعة، وكانت الأبقار تتقي حرارة الشمس بركونها إلى ظلال الأشجار الضخمة وكشف صف من شجر الأسبندار عن قرية صغيرة دانية تعرف باسم (بلنگه). وما إن ترجلنا حتى فرشت الأبسطة تحت ظل حول نبع القرية وحوضها وتلا ذلك كالعادة آنية الماستاو، ثم أكواب الشاي. وليس في القرية كلها غير تسعة بيوت أو عشرة، كانت قرية سعيدة تملك زمام أمورها، سيدة نفسها إذ لا يوجد فيها آغا مقيم.

وفي الرابعة والدقيقة الثلاثين خفت وطأة الحر فقمنا إلى جيادنا واتجهنا نحو الجنوب الغربي علونا جبلاً ثم هبطناه في مسلك شديد الميلان لنعود إلى (كوگاسور) وكان هنا ينساب بين جدارين سامتين من الجرف، وكان سيرنا محاذياً للمجرى نحو الغرب ومررنا بعدد من البرك العميقة الجذابة المغرية. وبعد ميلين عبرنا النهر إلى الضفة الجنوبية وبعد مسيرة قصيرة في أرض أشبه بروضة غناء، وصلنا طريق كروان (شيوه گه ل) وقرية (هه رمن) التي استعارت اسمها أيضاً من بساتين الكمثري الكثيرة فيها. وقد بتنا ليلتنا هنا، لنغادر فجر اليوم التالي قبيل الرابعة صباحاً - عائدين إلى السليمانية عن طريق (سيته ك، وهاروته).

وسفرتي الثالثة والأكثر أهمية من سلسلة سفرات عطل الأسبوع كانت إلى (سروچك) ما بين 14 و16 آب. وكنت أرمي منها إلى استعراض سطوة الحكومة في هذه المنطقة الثائرة المعادية للحكومة، وتثبيت مدير الناحية الجديد عبد الرحمن آغا وهو من أسرة سليمانية معروفة، خولناه حق تجنيد أتباعه وغيرهم من أعضاء أسرته الصغار في سلك الشرطة المحلية زيادة في الأمن. ومن قمة (گويژه)

انحرفنا شرقاً تاركين (سيته ك)، وبعد مرورنا بقرية (ولدانه الصغيرة) بلغنا (چمى ئالاسئاو) فوق النقطة التي عبرته منها أثناء نزهتي الأخيرة - بميلين. واتبعنا مجراه نحو منبعه من الجنوب الشرقي وعبرناه وعدنا إلى عبوره مراراً حتى بلغنا قرية (كاژاو) التي سُمّي الجبل باسمها ومن فتياتها اختار الشيخ عيسى الهمه داني عروسه، فكانت الأصل الأنثوي لفرع كثير النسل سِنّي من سادة البرزنجة. تركنا الآن النهر لنسير في أرض مستوية إلى حد ما وبلغنا مقصدنا (گيلده ره) بعد المغرب، بعد خمس ساعات وثلاثين دقيقة على ظهور الخيل من السليمانية. وهبت ريح الـ(ره شه با) الفظيعة طوال الليل وصبت علينا كل أنواع القاذورات والتبن ولم يغمض لنا جفن.

و(گيلده ره) قرية عامرة حسنة البناء يتراوح عدد بيوتها بين الأربعين والخمسين وتقع على سفح جبلي يشبه حدوة الحصان يدعى (گاللاى - گيلده ره) وإلى جوارها مزارع تبغ واسعة (كان قطاف المحصول الجديد قد بدأ توا) وهناك حقول للغلة الشتوية والصيفية في السهل المترامي تحتها. كانت في الماضي مركز ناحية (سروچك) وفيها بناية حكومية جيدة تحوي غرفاً للمكاتب ومخازن للضرائب العينية الزراعية ومسكناً لأسرة المدير. وصادقت على مصاريف الترميمات الضرورية لها وأمرت أن يستخدم منزل الشيخ محمود الهارب - ثكنة لحرس الخيالة الذي جاء برفقة عبد الرحمن.

بعد هذا وغيره من الإجراءات ركبنا خيولنا وانطلقنا في دورة حول الضلع الشرقي من حدوة الحصان. ثم وقفنا نتأمل منظر سهل صغير يدعى (ده شتى زه لى) أو (زه رى) وهو يمتد إلى الجنوب الشرقي من قرية (موورياس) الكبيرة التي تبعد عنا بمسافة أربعة أميال وقد اشتهرت أرضها بأخصب تربة في الناحية[1]. ثم

(1) بعد عدة سنين فتح طريق سيارات من برزنجة خلال هذا السهل الذي ما زال في حوض (قه لا=

إننا استدرنا شمالاً باتجاه (كوره كاژاو)[1]. وقد بدا من بعيد، قمة جهمة وعرة تخرق قبة السماء الزرقاء لا ينقص ارتفاعها عن 4000 قدم على طول أربعة أميال.

ومرت خمسون دقيقة بنا قبل أن أكون أية فكرة عن اقترابنا الشديد من غايتنا. لقد انحرف بنا الطريق انحرافاً حاداً ووجدنا أنفسنا بمواجهة برزنجة وهي قرية كبيرة تتألف مما يتراوح بين مائة وخمسين ومائتي بيت في تسعة أو عشرة صفوف مدرجة على سفح النتوء الجنوبي الكبير لجبل (كوره كاژاو) نفسه. وقد تكون قريبة الشبه بلوحة وسمت باللون الأحمر الداكن المسود. تتخلله ظلال مختلفة من البني

=جوالان) وفوق السفح الذي يجاور النهر على أقل نقطة منه ارتفاعاً (4000) قدم وهو يتصل بطريق (سليمانية حلبجة) بالقرب من (موان).

(1) رغم تحقيقاتي العديدة في هذا أثناء هذه الرحلة وغيرها، فقد صعب العثور على التسمية الصحيحة لعقدة جبال (كوره كازاو) وآخر خريطة للجيش العاشر مؤرخة: نيسان 1942 ومقياسها (1 = 100000) توضح أولاً: جبلاً أوسط يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ويتألف من قمم ثلاث ذكرت الخريطة ارتفاعاتها على التوالي: 5614 و7254 و7347. وقد أثبت فوق القمة الأخيرة اسم (كه لى).
ثانياً: عقيدة جبال موازية للأولى وعلى الجانب الشمالي الشرقي منها. فيها ثلاث قمم (ذكرت ارتفاعاتها على التوالي: 5370 و6240 و6151 قدماً، وسميت هذه بسلسلة كوره كازاو).
ثالثاً: قمة منعزلة على النتوء الجنوبي الغربي علمت بارتفاع 6693 قدماً وثبت عليها اسم (وشكه شيوه) ويبدو واضحاً أن المساحين المسؤولين عن عمل الخريطة خلطوا بين أسماء السلسلتين المتوازيتين. ومن تمحيص هذه المعلومات وغربلتها يتضح ما يلي: القمة التي ثبت ارتفاعها بـ7254 قدماً من السلسلة الأولى تدعى (كوره كازاو) جزماً، إلا أن الاسم يطلق عادة على عقدة الجبال كلها. أما القمة التي ثبت ارتفاعها بـ7347 وهي أعلى القمم كافة، فعلى الأغلب تسمى (كه جه ل باراو) من اسم قرية (باراو) الواقعة على الطرف الجنوبي منها. على أنها تسمى أحياناً باسم (كه چل) فقط. والقمة التي ثبت ارتفاعها بـ5614 تعرف باسم (سراب) أو أحياناً باسم (به شتى جينارا) وفي عقدة الجبال الأخرى تسمى القمة التي تثبت ارتفاعها بـ5370 قدماً (به شتى حاجى مامند)، من اسم القرية التي تقوم على سفحها الأدنى. والقمة التي ثبت ارتفاعها بـ6240 قدماً اسمها (كه لى). والقمة الذي ثبت ارتفاعها بـ6515 قدماً تسمى (كاناسر) والقمة المعزولة التي يبلغ ارتفاعها 6393 قدماً هي (كه للاى سريم) وأشك في أن كلمة (وشكه شيو) هي (وشكه شيوو) أي الوادي الجاف. وهو تعبير يطلق على أي واد ينحدر من الأعلى. ولا يلفظ المرء غيره جواباً عن استفسار المسّاح.

الغامق. لا يبدد أثرها إلا ثياب فاتحة اللون قليلة ترتديها حشود من الرجال والنساء والأطفال تجمعوا فوق سطح البيوت عندما كنا ندخل قريتهم.

وترجلنا في المسجد الشهير. وهو بناء كبير نسبة إلى مساجد القرى الأخرى وكانت الأبواب الخشبية وعوارض الأسبندار في السقف سوداء لامعة بفعل الدخان والزمان. والحجر الأسود الذي جلبه الشيخان عيسى وموسى يبلغ طوله حوالى خمسة عشر أنشاً وعرضه اثني عشر، وهو مبني في حائط (الدالان) بالقرب من الباب المفضي إلى سطح المسجد، أملس صقيل من كثرة الاستلام واللثم وثمة حلقة مزلاج حديدية كبيرة يزعم أيضاً أنها نسخة طبق أصلها في مكة.

وجاءنا المدرس المشرف على المسجد يشكو قائلاً إن فرمان السلطان سليم الصادر في 1792م يقضي بتخصيص نصف واردات الضرائب من برزنجه لتكون وقفاً على المسجد والخدمة فيه. لكنها لم تصرف لهذه الغايات منذ عدة سنوات، وكان يستأثر بها ورثة السيد طه الذي هو المتسلم الأصلي. فوعدته بأن أنظر في تنفيذ شروط الفرمان في المستقبل. وبعد سنوات قليلة ما وجدتني إلا وأنا أدافع عن قضية متولي الوقف ضد وزارة المالية التي حاولت دمج هذا المصدر من مصادر الدخل في الضرائب الاعتيادية. شأنها في ذلك شأن كل دوائر المالية في الدول الأخرى.

ومع أنه لم يتيسر لي الوقت لزيارة قلعة (سروچك) قرب (موررياس) فمن الضروري أن أذكر هنا أن الكرد يعتبرونها الأعجوبة المحلية الثالثة بعد كوره كاژاو ومسجد برزنجه. وتروي المآثر المحلية أن شيخ قلندر البرزنجي وهو الجد الأكبر لبابا رسول الكبير (وهذا يقتضي أنه كان يعيش في حدود سنة 1500) قد انتزع القلعة من (سليم شاخ دار) أي سليم ذا القرون زعيم قبيلة (تويلاوي) - وهذا اللقب يذكرنا بالإسكندر الكبير واسمه المعروف في المآثر الشرقية: الإسكندر ذو القرنين. ولقد لقينا ما تبقى من هذه القبيلة البائسة كقسم من المنبوذين (گاورا). وقص علي زميل بريطاني هو النقيب (سي. هـ. گاوان C.H. Gowan) خبرها وقال

إنها في حالة جيدة جداً نسبة إلى عمرها وهي تستحق الزيارة. وفي رواية لرحالة كردي متأخر[1]، أنها مبنية فوق طنف صخري تحف بها سفوح مائلة ميلاناً شديداً يزيد ارتفاعها عن (300) قدم وتشرف على واد عميق. ولا يمكن الوصول إليها بغير شعب ضيق واحد من الجنوبي. وتدعمها سلسلة أبراج من السور نفسه وهي دائرية الشكل وأبراجها ستة. أما مواضع السكنى والمطابخ والثكنات فتقوم في طابقين أو ثلاثة من الأبنية. والصحن المركزي قد يتسع لألفي رجل. وفي الركن الشمالي الغربي منها يوجد نبع ماؤه يساعد على الهضم (سارگار) بحيث أن المسافر الذي يصلها صباحاً يشعر بحاجة إلى أربع أو خمس وجبات طعام قوية قبل أن يتركها مساء.

لم أر من المناسب أن أنزل ضيفاً على أشخاص قد يكونون مساهمين في الثورة الأخيرة. فأنذرت كبار الشيوخ الحاضرين بألا يستضيفوا أحداً من الهاربين الذين ما زالوا في قائمة المطلوبين وإلا سينقل مركز الناحية من (گيلده ره) إلى برزنجة. ثم خرجت أنا وعبد الرحمن من القرية وصعدنا المرتفع البارز ودرنا حول القمة حتى بلغنا قرية (وندرينه) وفيها قام (بابا علي) الابن الثاني لبابا رسول بتأسيس تكية. وبعد استراحة قصيرة تناولنا خلالها الغداء واصلنا الركوب نحو الشمال الغربي فعبرنا مجرى ماء يصدر عن خانق. وتوقلنا قمتي (كوره كاژاو، وكچل باراو) ثم نزلنا وادياً بين الجبل الأخير عن اليمين وبين كاللاي سارين حتى بلغنا قرية (برئاو) الواقعة على رأس واد طويل يمتد إلى الشمال الغربي حتى (چنگنيان) على طريق بنجوين وبعد استراحة قصيرة عدنا من الطريق نفسه لنبلغ مجرى ماء. ينحرف أولاً إلى الجنوب الغربي ثم إلى الشمال الغربي ويدور حول (كاللاى سارين) ليصب أخيراً في (ئالاسيئاو) في نقطة كنت قد عبرتها خلال سفرة من سفراتي. وهي على ميلين فوق (سيته ك).

(1) (ده نكى كتبى تازه) صوت الدنيا الجديد، مجلد 4، نيسان 1945.

وعقبنا مجرى النهر حتى وصلنا نبعاً يكفي ماؤه ليكون غديراً يجري في قاع من الحصباء. وبعدها بلغنا (شو كي) وهي قرية وافرة المياه أقرب إلى چوارتا منها إلى (سروچك) إنها مثل لتلك القرى التي تحف بها الكروم على السفوح ومدرجات من حقول التبغ والبساتين المتشابكة وصفوف الأسبندار ووجدنا في هذه القرية منزلاً جميلاً للشيخ محمود ذا مدخل مهيب، فيه ست أو سبع غرف وحمام تركي وروضة نبتت فيها صفوف من الزهر المستنبت. وبعد القرية نضب ماء المجرى، إلا أننا عقبناه لأكثر من ساعة مخترقين شعباً كثيرة المنحنيات ومررنا بقرية واحدة خلال هذه المسافة وقد عاد الماء هنا إلى الظهور يترقرق فوق الحصباء. ثم دخلنا أرضاً منبسطة إلى حد ما. وبعدها وصلنا (بزه ينيان) التي كانت فيما مضى قرية عامرة تتألف من زهاء مائة بيت كما تشهد خرائبها المنتشرة في بقعة واسعة، لكنها الآن لا تحتوي أكثر من عشرة بيوت، ويملك فيها الشيخ محمود بساتين وكروماً.

وزارنا ونحن جلوس فوق سطح المسجد ملا قصير القامة ثرثار من أهالي السليمانية وشاع في نفسي السرور عندما هب واقفاً وقطع جملة كان يقولها، ونط من مجلسه بلا إيضاح أو إشارة متجهاً إلى ركن في السطح حيث بسط جبته ورفع كفيه إلى فوق وجنتيه وانطلق يؤذن بصوت لا يخلو من عذوبة. وبعد العشاء حاولت تنظم حفلة غناء فجاء (عبد الرحمن) بثلاثة من دركه الفرسان فجلسوا وبدأوا يغنون بحركات عصبية حماسية بعض الأغاني الفارسية مع أني رجوت أن يقدموا نماذج من أغانيهم الكردية. أخيراً عثروا لنا على مطرب قروي (قوال) لا موهبة فنية عنده فراح يزعق بأغنيته زعيقاً مفعماً بالحماسة. وأخشى أني غير معتاد سماع الموسيقى الشرقية - فقد بدت لي الأغنية رتيبة مملة. فكل مصراع منها لا يزيد عن ترجيع للجملة القصيرة إلى نهاية اللحن الذي ينتهي عادة بآهة عميقة حتى لكأن المطرب يحاول أن يدفع آخر دفقة من أنفاسه خارج جسمه.

امتطيت صهوة حصاني في الخامسة من فجر اليوم التالي وبعد أن تركت عبد

الرحمن إلى وجهته (گيلده ر) انطلقت إلى (ئالاسيئاو) فعبرته من المحل الذي جئت. ولكني اتجهت إلى شعب (گويژه) الصغير، من (ولدانه) حباً في التنويع. وهو لكويژه مثل ما كانت هاروته لائه زمر.

كنت أرغب في إكمال وصفي لهذا الإقليم الرائع الفخم، بوقائع جولتين أخريين طويلتين إلى شمال (شاربازير)، قمت بهما بعد سنوات إلا أني أمسكت لضيق المقام على أني سأثبت مقتبساً من سفرة (ريچ) عند عودته من (سنه) سالكاً سبيلاً غير مألوف من شمال هذا القضاء إلى جنوبه ليوضح للقارئ أمرين: الأول هو أني ما كنت أبالغ في تقدير جمال المنطقة، والثاني كم كان التغيير قليلاً في حياة القرويين الاجتماعية والاقتصادية خلال مائة عام منحصرة بين 1820 و1919.

«**12 أيلول**: بلغنا أعلى قمة للهبوط منها والدخول إلى منطقة (ببه) وهنا لاح لنا منظر هو آية في الجمال. الطريق المؤدي مباشرة إلى وادي ضيق عميق الغور لا يصل البصر إلى قاعه. وإلى الجانب المقابل تعلو الأرض مرة أخرى إلى ارتفاع يفوق المرتفع الذي نقف فيه وتتوج هذا المرتفع ذروتان[1] يصل بينهما ستار صخري. إن القمة الشمالية التي وجدنا فيها جبلاً ذا شكل فريد في بابه، هي التي لمنحناها ونحن في (سويروا؟ Swearwa) إن منظر الأرض مما يبهج النفس وينعش الفؤاد. فهي كثيرة الغابات عامرة القرى حقولها الزراعية خضراء كالزمرد، وهي في مواضع، لا حد لجمالها. وإن خطوط الجبال وهيئاتها هي من أبدع ما يتصوره المرء... وقطعنا مرحلة النزول في ساعتين سرنا فيها بين غابات رائعة. وبأقل ما يمكن من المشقة وكان انحدارنا شديد الميلان لكن الطريق حسن بشكل لا يتوقعه في هذه البلاد الجبلية الوعرة جداً. والحق يقال إن...».

«لا شيء أدعى إلى الملاحظة كالفرق بين كردستاننا هنا وبين إيران إن صحت المقارنة في هذه البقعة. إن التربة نفسها يبدو وكأن طبيعة تكوينها ولونها قد تغيرا.

---

(1) الأمكنة هي منطقة (سيوه يل).

فكل شيء هنا مزيج من الجمال والعظمة. وصلنا إلى أسفل المنحدر في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين وعبرنا ماء (بيروز) أو (بانه) وهنا يصب فيه ماء منحدر من جبيل آخر. وهذا المسيل هو الحد الفاصل بين تركيا وإيران، واتجاهه شمالي مع انحراف قليل إلى الغرب حتى يصب في آلتون صو (هو نهر التون كوبري أي الزاب الصغير = المؤلف) فوق نهر قره چوالان[1]. ووجدت نفسي وكأني لست بغريب هنا. ثم إننا صعدنا وسرنا بمحاذاة المرتفع المقابل. حتى بلغنا قرية (ميره وا) في منطقة (ثالان) وهنا استقبلنا الكرد الأقحاح مرحبين، وأملي قوي بأني سأصيب بعض الراحة. إن القرية ذات موقع جميل على طرف من أطراف الجبل ولا ترتفع كثيراً عن مجرى النهر... وإلى جوارها تزرع أراضٍ واسعة بالتبغ، والقرويون يجففون أوراقه الآن بتعليقه في صفوف على خطافات».

«**13 أيلول**: سرنا في طريقنا، الساعة السابعة. وبدأنا حالاً نصعد متجهين إلى قمة غريبة الشكل لاحظناها من قبل وتدعى (گمو Gimmo) هذه الجبال كثيرة الينابيع، والفلاح يستفيد من معظمها وتصرف مياهها في سواق صغيرة تحيط بجوانب المرتفعات لتنطلق نازلة إلى الأراضي الواطئة في الوقت المناسب. وفي الساعة 15/8 وصلنا قرية (ديره) الجميلة التي تكتنفها غابة جوز من أجود وأجمل ما وجدت من نوعه فهي ذات أغصان كبيرة منداحة ويحيط بالقرية البساتين والكروم والحقول المزروعة في كل بقعة من سفوح الجبل وأشجار العنب في كثير من الأماكن تتسلق الأشجار الأخرى وتمد فروعها بينها مؤلفة شرائط من الأوراق الخضراء وأهداباً منسدلة إلى الأسفل. وهناك ما لا يحصى من الينابيع المتدفقة من أطراف الجبل تنحدر لتغمر قواعد الأشجار بشلالات كثيرة ولا يسمع إلا رقرقة المياه وليس من السهل على المرء أن يمر ببقعة لها هذا الجمال الأخاذ دون أن يقف ليستمتع بسحرها. لذلك ترجلت أنا وعمر آغا لنستظل تحت شجرة جوز يمر بها جدول ماء صغير، وأسرع القرويون إلينا يبسطون أمامنا وجبة طعام خفيفة

(1) يصل ماء قره جوالان إلى نهر (آلتون سير) قرب (شينك).

تتألف من العسل بشمعه، وزبدة جديدة ولبن وخوخ وعنب. ومكثنا حتى الساعة 9/10 ثم تركنا هذه البقعة الفاتنة وكلنا أسف وحسرة، وواصلنا السير صعداً وفي غضون نصف ساعة بلغنا أعلى موضع لن تفرقه عن المناظر الألبية. كان عدد يفوق الحصر من الينابيع ينبط من الأرض... ولم نجد أشجاراً هنا إلا أن الأرض كانت شديدة الاخضرار لكثرة الماء، والبقعة تدعى (هزار كانيان أو العيون الألف). ها هنا نكون قد بلغنا أعلى نقطة في طريقنا إلا أننا كنا نرى فوق رؤوسنا قمة «گمو وشقيقة» وكلاهما صخريان أجردان، وواصلنا السير في ظلهما ردحاً من الزمن... ترى بقع خضراء أحياناً فوق الهضبة المستوية وأحياناً معلقة في أطراف الجبل، تحدث تغييراً في المنظر وتلونه، تكاد لا تقطع مائة ياردة دون أن تقع على عين ماؤها بارد إلى حد تصطك معه الأسنان... الطريق كالعادة تحف به الغابات من الجانبين ومع أنه صخري وعر إلا أنه حسن بالنسبة إلى الطرق الجبلية. كانت الساعة تشير إلى الثانية عندما بلغنا قرية كينارو كه ناردي في منطقة سيوه يل.

14 أيلول: ركبنا دوابنا في الساعة 6/30... ثم انحدرنا نحو نهر (سيوه يل) الذي يجري محاذياً طرف جبل (سه رسير) ثم يعرج شمالاً بميل قليل نحو الغرب ثم يصب في قره جوالان عند (ماوه ت) ويصب ماؤهما الموحد بعد مسافة في (آلتون صو). وكان يبلغ الرُكَب عمقاً في الموضع الذي عبرنا منه وعلى مسافة خطوات قليلة، أما سائره فقد كان ضحلاً... أما في الشتاء فكثيراً ما يتعذر عبوره إلا بالأكلاك... انحدرنا إلى سهل (شارباژير) و... داخل واد عميق يجري فيه نهر قره چوالان واتجهنا إلى الوضع الذي كانت تقوم فهي مدينة قره چوالان العاصمة القديمة لهذا الجزء من كردستان والآن لا يوجد أثر لهذه المدينة غير بضعة أكواخ قروية صغيرة فوق الموقع.

15 أيلول: ركبنا في الساعة 6/10 وكل الجماعة في أحسن حال وأطيب نفس لقرب وصولهم السليمانية في غضون بضع ساعات. وأحسست بما يشبه إحساس

انتعاش الرجل العائد إلى دياره ووطنه. والحق يقال إن حسن الضيافة والكرم اللذين لقيتهم في السليمانية رفعاها في فكري إلى اعتبارها أشبه بموطني».

ريــج

حين عودتي من برزنجة إلى السليمانية وجدت في انتظاري برقية من (أ.ت. ويلسن) يعرض عليّ وظيفة «ضابط سياسي للقوات البريطانية في شمال غرب إيران» في محل العقيد توم ويكهام Tom Wickham[1] بمقر القوة في قزوين وكان هذا يرافق الشاه في زيارته لأوروبا. كنت آسفاً لمغادرة البلاد لعدة أسباب لا سيما وأن الشعب الكردي أثار اهتمامي ووجداني، بحيث وجدتني أستغرق أكثر فأكثر في مهمة تنظيم إدارة الحكومة في بلادهم الشقية البائسة. على أن إيران بما فيها جنوبها ذو الشمس المحرقة، كانت أول غرامي. وإن فكرة ممارسة وظيفتي في الشمال أنعش آمالي.

غادرت السليمانية في قافلة من ثلاث سيارات فورد في بكور 28 آب وودعني رئيس البلدية وعدد من الوجهاء وزملائي البريطانيون وموظفو دائرتي وفي (قلياسان) على مسافة أربعة أميال من السليمانية بدأت سيارتي تتوقف وأزعجتنا طوال الطريق ولم تكن الأخريان بأحسن حالاً وأمضينا ساعة ونصف ساعة نتناوب الدفع فوق رابية شديدة الميلان على مقربة من چمچمال غرباً وبدت سفوح الجبال والجرف المشوية شيأً ونحن ندنو من مشارف كركوك أشد قبحاً وكآبة تحت أشعة الشمس من أي وقت. وفي الوقت الذي كدنا نتغلب على متاعب محرك سيارتي، هوى سائق السيارة الثانية البورمي منزلقاً في منحدر شديد ويظهر أن النعاس الذي يصعب التغلب عليه في ظروف السياقة، قد غلبه فلم يستطع مقاومته. ويشاء الحظ أن لا يصاب بجرح كذلك عبود خادمي الذي كان يزامله. ولكننا اضطررنا ترك السيارة ومتاعي مع عبود ليؤتى بهما فيما بعد.

---

(1) فيما بعد نائب في مجلس العموم البريطاني عن منطقة تاونتون.

في صباح اليوم التالي انطلقت إلى (الفتحة) واسترحت بقية اليوم في مخيم المستشفى الذي يشرف عليه الرائد سلوود Selwood آمر سرية النقل الـ(1018) ثم ركبت القطار الليلي من بيجي إلى بغداد. كان الحر في الخيمة شديداً للغاية وقد اخترع سليوود طريقة ملطفة، وذلك بوضعه تحت متناول اليد ضاخة (سرنج) كبيرة وعدد من فناطيس الماء، فيملأ الضاخة ماء في فترات متقاربة ويرش أطراف الخيمة والأرضية، فضلاً عن فراشنا الذي نحاول النوم فيه ظهراً.

- 9 -

السليمانية بعد عامين

انصرمت سنتان وأنا خارج العراق. ولما عدت لاستئناف واجباتي كانت قد استجدت تطورات سياسية لا سبيل إلى طيها، وسأعمد هنا إلى تلخيصها لأجعل حديثي مترابطاً.

في 28 كانون الثاني 1920 أصدرت حكومة تركية متعصبة لقوميتها بياناً عرف باسم «الميثاق الوطني» جاء فيه اعتراف وتسليم بحق تقرير المصير للمناطق العربية الواقعة إلى جنوب خط هدنة 1918، في حين تتضمن عبارات لا يخطئها النظر، عن رفض فكرة فصل ولاية الموصل عن الممتلكات العثمانية.

وتجاهلت دول الحلفاء هذا الميثاق، وأعدت معاهدة صلح تتضمن التجزئة الكاملة للإمبراطورية. وتم التوقيع عليها في (سيڤر) في 10 آب. من قبل كل الأطراف المعنيين إلا أنها لم تطبق بسبب النجاح العسكري الذي حققه مصطفى كمال في الأناضول، وقبضه على زمام السلطة. وفي نص المعاهدة مادتان تخص الكرد هما المادة (62) التي تقر بحكم ذاتي لجزء من الأناضول الشرقية التي يكون فيها الكرد أغلبية. والمادة 64 وهذا هو نصها:

> «إذا تقدم الشعب الكردي الساكن في المنطقة المشار إليها في المادة (62) خلال سنة واحدة من وضع المعاهدة موضع التنفيذ، بطلب إلى مجلس عصبة الأمم يتضمن أسباباً من شأنها أن تؤيد رغبة أغلبية سكان تلك المناطق في الاستقلال عن تركيا، وإذا ارتأى

المجلس بناء على ذلك أنه من الواجب منحهم الاستقلال، فإن تركيا توافق على تنفيذ هذه التوصية وتتخلى عن كل حقوقها وممتلكاتها في تلك المناطق. وعندما يتم هذا التخلي فإن دول الحلفاء الكبرى لا تعارض في أي انضمام اختياري من هذه الدولة الكردية المستقلة إلى الكرد القاطنين في الجزء من كردستان الذي كان يؤلف حتى الآن ولاية الموصل».

لم تنفذ مواد معاهدة سيفر. إلا أن حلم كردستان المستقلة، سجل في وثيقة دولية ولم ينس قط. ولم يتقرر مصير ولاية الموصل نهائياً إلا بعد ست سنوات وظلت روح التطير السوداء، تحوم في الجو السياسي وتصيب بشرورها كل الجهود الرامية إلى إنشاء إدارة ثابتة مستقرة.

إن المادة 22 في ميثاق عصبة الأمم (باعتباره جزء لا يتجزأ من معاهدة فرساي) الذي وقع في حزيران 1919، قرر اعتبار البلاد التي كانت في السابق من ضمن الإمبراطورية العثمانية «بلاداً مستقلة» خاضعة إلى نصح وإرشاد ومعونة دولة منتدبة من الدول، في أمورها الإدارية حتى يحين الوقت الذي تستطيع فيه الوقوف على قدميها وإدارة شؤونها بنفسها وقبلت حكومة صاحب الجلالة البريطانية الانتداب على العراق في نيسان 1920 في الساعة التي كانت منطقتا البلاد الوسطى والجنوبية (أي الأقاليم العربية) تتمخض بثورة قبائلية واسعة النطاق أججتها دعايات الوطنيين، وقد تم إخمادها في أوائل الخريف بعد صعوبات، وانتهى الحكم العسكري في 4 تشرين الأول عندما رجع السر برسي كوكس الحاكم المدني العام السابق في العراق بمنصب المندوب السامي وتسلم من السر آرنولد ولسن مسؤولية الإدارة السياسية، وكان الأخير يقوم بتصريف الأمور وكالة عنه خلال فترة غيابه متولياً منصب الوزير المفوض البريطاني في طهران. وفي 11 تشرين الثاني شكلت حكومة وطنية مؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن الگيلاني نقيب بغداد[1] وهو الذي

(1) لقب (نقيب الأشراف) كان يمنحه العثمانيون لرأس أسرة السادة الأولى في مدن معينة.

نوهنا باسمه عند الحديث عن طوائف المتصوفة في كردستان. وعين مستشارون بريطانيون في مختلف وزارات الحكومة الجديدة وزودت الدوائر بخبراء بريطانيين. وقسم أعضاء السلك السياسي القديم الذي نقص عدده كثيراً - بين المقيمية البريطانية وبين وزارة الداخلية العراقية. فأصبح «ب.هـ. بورديللون B.H. Bourdillon» معاون سكرتير للمندوب السامي، واختير (هـ. سنت ج.ب. فلبي H. St. J.B. Philby) ليكون مستشاراً في وزارة الداخلية مع معاون واحد. وعين آخرون مستشاري أقسام «للمتصرفين» العراقيين. وفي حالات قليلة معاوني مستشار قسم في الأقضية.

وفي بريطانيا استحدثت دائرة منفصلة في وزارات المستعمرات، خاصة بالشرق الأوسط وتسلمت مسؤولية العراق من وزارة الهند. وفي آذار 1921 دعا مستر ونستن تشرشل وزير المستعمرات إلى عقد مؤتمر في القاهرة حيث وضعت الخطوط الأساسية للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط.

ومن المقررات التي اتخذت في هذا المؤتمر، قرار يقضي بترشيح ودعم طلب الأمير فيصل الابن الثاني لحسين شريف مكة - في عرش العراق. وعلى هذا الأساس وصل الأمير في حزيران، إلى البصرة على ظهر سفينة بريطانية، وفي 23 آب أعلن ملكاً بعد استفتاء عام كانت نتيجته الرسمية أن 96% أيدوا اختياره. ورفض لواء السليمانية المشاركة في الاستفتاء رفضاً قاطعاً وشارك 4% من أهالي كركوك في التصويت ولم يؤيدوا ترشيح الأمير وإنما حبذوا ملكاً من آل عثمان. أما الكرد فقد طلبوا إدارة كردية بحتة. ولم يحضر أي ممثل عن اللواءين للمشاركة في احتفالات الجلوس. واتخذ قرار مفيد آخر في مؤتمر القاهرة وهو أن تتسلم القوة الجوية الملكية من بداية خريف 1922 مسؤولية الجيش للدفاع عن أمن العراق الداخلي.

إن نقل صلاحيات الإدارة من المندوب السامي إلى الحكومة المؤقتة، أثار طبعاً مسألة مستقبل المناطق الكردية بشكل حاد. فبعد التوقيع على معاهدة (سيڤر)

لم يكن غريباً أن تجد الأتراك يضاعفون مجهوداتهم ليطبعوا في أذهان كل سكان ولاية الموصل بأن هذه المعاهدة لا تساوي الورق الذي كتبت عليه. وكان ثمة تهديد بغزو واسع النطاق. ومخابرات سرية مع وجوه المدنيين وأعيانهم، وكان ثمة بعوث في السر إلى القبائل غير الراضية، وتحريض سافر على الثورة، وتهديد (للخونة)، وأهم من كل هذا الدعوة الدينية إلى طاعة السلطان الذي هو خليفة المسلمين. وكان من نتيجة هذه الدعاية أن وجد الكرد أنفسهم، يتنازعهم كل ما يتصوره المرء من ميول متضاربة كالإخلاص لدينهم والاحترام والخوف من جبروت أسيادهم السابقين، وكأحلامهم في نيل الاستقلال، وهو مما لا يمكن الحصول عليه إلا بمساعدة من البريطانيين والبريطانيون كما يظهر غير راغبين في بذلها لهم، وكضيق نفوسهم بالقيود التي فرضتها عليهم السلطة الآمرة عليهم فعلاً وكإدراكهم بأنه قد تم ربطهم اقتصادياً ببغداد ربطاً محكماً، وكنفورهم من قبول المركز التابع الخاضع إلى مملكة غربية، وإن كانت تلك التبعية يصحبها بشكل ما من أشكال الحكم الذاتي. ونظراً إلى قرار آخر اتخذه مؤتمر القاهرة قام المندوب السامي باتخاذ الخطوات اللازمة للتأكد من أماني الكرد واقترح حلاً وسطاً أعلن في تصريح السادس من أيار - أي قبل وصول فيصل بسبعة أسابيع.

إن التدابير المقترحة بالنسبة إلى اللواءين الشماليين يمكن تلخيصها بما يلي:

أ ـ يؤلف من جميع المناطق الكردية في لواء الموصل، لواء آخر تابع يكون تحت إدارة معاون متصرف بريطاني ويكون كل موظفيه من الكرد، أو من العرب الذين يحسنون الكردية ويعينهم المندوب السامي. إلا أن هذا اللواء التابع في المسائل الأخرى يدار كما لو كان جزء لا يتجزأ من العراق.

ب ـ يعين ضباط بريطانيون في أربيل وكويسنجق ورواندوز ويكونون جزء من الإدارة. ويجب أن توضع رغبات الأهالي موضع اعتبار عندما ينظر في تعيين الموظفين (وأما التدابير المقترحة للسليمانية فقد كانت أدق وأكثر تفصيلاً ونحن نجملها بما يلي).

ج ـ تعتبر السليمانية متصرفية (المتصرف لقب إداري) ويحكمها مجلس متصرفية والمتصرف يعينه المندوب السامي مع مستشار بريطاني له. وإلى حين يتم ذلك يقوم الضابط السياسي البريطاني بممارسة صلاحياته. ويناط بمجلس المتصرفية صلاحيات منها حق مراجعة المندوب السامي إلى الحد الذي يرسمه هو نفسه بعد التشاور مع مجلس المتصرفية من جهة، ومع مجلس الوزراء العراقي من جهة أخرى. ويكون القائمقامون في الوقت الحاضر بريطانيين على أن يحل محلهم أكراد حالما تتوفر الشخصيات الكفوءة.

أما المخطط الخاصة بالموصل، حيث الشعور الوطني الكردي غير متبلور فلم تطبق بخصوص تقسيم اللواء الصعب السيطرة مع أن (الأسباب الإدارية) كانت تطرح على بساط البحث في عدة مناسبات، وأخصها بالذكر في العام 1944 ذلك لأن المصالح الزراعية والاقتصادية للأسر المتنفذة في الموصل كانت دائماً تعمل على إحباط هذا المشروع.

أما مأتى التوصية الخاصة بأربيل، فقد كان يدفعها في الحقيقة، اقتراح الحكومة المؤقتة بإعادة التنظيم الإداري التركي القديم. حيث كانت أربيل وكوي وراوندوز أقضية منفصلة تابعة إلى كركوك. مع أنها كانت أثناء الإدارة العسكرية البريطانية قسماً مستقلاً في إدارته، ومهما يكن، فإن تدخل المندوب السامي، جعل هذا القسم لواء تابعاً يشرف عليه معاون متصرف كردي، وسرعان ما أصبح مستقلاً عن متصرف كركوك في كل شيء خلا الاسم، وبعد أن جرى الاستفتاء، نجم وضع غريب محرج هو: هل أن معاون متصرف أربيل سيرفع العلم العراقي فوق دوائره، وهو العلم الذي لم يرفعه رئيسه في كركوك، ولا مرؤوساً في رواندوز؟

ومع أنه لم يفسح لهاتين المجموعتين من التوصيات، مجال رسمي للتطبيق، فإن المندوب السامي استمر في التدخل الفعلي في شؤون المناطق الكردية، إلى ما

بعد إبرام معاهدة 1926 مع تركيا. والواقع أن هذا الوضع استمر حتى نهاية الانتداب في 1932 تقريباً. وفي السليمانية ظل الضابط السياسي بعد الاستفتاء يقوم بإدارة اللواء مع مجلس المتصرفية، بإشراف دار المندوب السامي المباشر.

كنت في آذار 1921 قد تسلمت وأنا في قزوين خطاباً عاجلاً من المندوب السامي يعلمني فيه بنبأ تعييني مستشار قسم في التنظيم الإداري الجديد للدولة العراقية، ونسبت لي وظيفة معاون مشاور سياسي في وزارة الداخلية. وبُلغت بأن أسلم مهام وظيفتي إلى أحد معاونيّ الأقدمين وأسافر إلى بغداد حالاً. وقبل يوم أو يومين من سفري قام (سيد ضياء الدين رضا خان) في طهران بانقلاب عسكري وبوصولي إلى همذان على ظهر جمل يشق طريقه في الثلوج العميقة، بعد تركي سيارتي في الطريق، وجدت برقية تأمرني بالعودة من حيث أتيت، فامتثلت للأمر، وبقيت في قزوين حتى انسحبت «قوة نوربر Norper - force» في نهاية الربيع.

وبوصولي بغداد في نهاية أيار ألح عليّ (فيلبي) إلحاحاً شديداً في مباشرتي وظيفة معاون مستشار في الحال لكني شعرت بحقي في الإصرار على طلب فترة راحة أقضيها في إنكلترا اجتناباً لحرارة قيظ صيف آخر قبل الاستقرار والعمل في الجنوب اللاهب. ذلك لأني في الحقيقة وبصرف النظر عن إجازتي المرضية بعد إبلالي من مرض التيفوئيد الذي ألقاني في الفراش نصف عليل - لم أتمتع بإجازة منذ قدومي إلى خليج البصرة في العام 1912. وإن يومياتي التي تشمل الفترة المبتدئة بنيسان 1920 والمنتهية بآب 1922 قد تصرمت في الواجبات التي وصفتها في فصل تال، إلا أن بعض الصور الشمسية الباقية كانت تذكرني أن سفينتنا غاصت في رملة شط العرب مدة تسعة أيام قضيناها في حر لا يطاق، وأن السفينة التابعة للقوات البحرية الهندية، هاردنج Hardinge قد مرت بنا ونحن في ورطتنا متجهة نحو البصرة وهي تحمل سراً مفضوحاً كان الأمير فيصل على ظهرها!

لما عدت من إجازتي إلى بغداد في أوائل العام 1922 وجدت العقيد كورنواليس (الآن سير كينهان كورنواليس Kinahan Cornwallis) في منصب مستشار

الداخلية بدلاً من (فيلبي)، وكان قد جاء أصلاً برفقة الملك فيصل بوظيفة ضابط ارتباط ومستشار شخصي له وكان ثمة تغيرات أخرى جوهرية، وأدركني العجب والخيبة عندما علمت أني لن أتسلم الوظيفة التي عينت لها أو حتى مباشرة إدارة قسم سياسي في العراق، بل عينت معاون ضابط سياسي لحلبجه (في قسم السليمانية) الذي تم تنظيمه على النحو الذي ذكرته سابقاً، ورسم أن يبقى خارج حدود المملكة الجديدة. وبدا لي هذا التعيين أصغر من أي وظيفة أنيطت بي خلال السنوات الخمس الماضية وهو أحقر كثيراً من آخر وظيفة لي وهي «الضابط السياسي لقوة (نوربر)». حين كان تحت أمرتي خمسة من المعاونين وأنا مرتبط مباشرة بالقائد العام، في مسؤولية علاقات القوة بكل من الإدارة الإيرانية والأهالي ابتداء من الحدود التركية والروسية غرباً وشمالاً حتى طهران وهمدان شرقاً وجنوباً. وكنت أشعر بارتياح من قام بواجبات وظيفته خير قيام ولم تهدأ ثورة نفسي عندما وصفت لي الاعتبارات التي أوجبت نقلي، ومنها أن (قسم) السليمانية يمور الآن بالثورة ويتطلب ضباطاً ذوي كفاءات خاصة، إن وظيفتي هي وظيفة أمر وإجراء، لا وظيفة نصح واستشارة، بل إنها «مهمة خاصة» وليست تعييناً عادياً بعد غيابي هذه الفترة الطويلة في إيران، وبعد تمتعي بإجازة جرت خلالها تغييرات جوهرية لها آثارها البعيدة، شعرت وكأني عائد إلى بلاد لا معرفة لها (بيوسف!) ونازعتني النفس في أن أعود إلى الوظيفة الأصلية التي سبق نقلي منها قبل سبع سنوات فبناء على طلبي أبرق المندوب السامي في العراق. ولما لم يكن بد من الانتظار الطويل لوصول الرد، فقد رسم أن أتسلم واجبات وظيفتي في حلبجة بانتظار مجيء (نويل) الذي تطوع - بعد انتهاء مهمته في شمال كردستان - أن يخدم بأمرة المندوب السامي في أية وظيفة تعطى له، مفضلاً ذلك على العودة إلى الهند.

وحدثت تغييرات في السليمانية أيضاً، لقد بقي (القسم) هادئاً في أثناء الثورة العربية في العراق. والفضل في هذا يعود إلى إدارة (صون) الحازمة الشديدة. على

أن التدابير الجديدة لم تكن مما يروق له وآثر الاستقالة وكان خلفه (غولد سميث Goldsmith) وهو إنسان لطيف المعشر، وقد قام بعمل طيب في الجنوب وفي خانقين. إلا أن صحته ليست على ما يرام. وكان الجو الذي وجدت نفسي فيه عند وصولي «موتّر الأعصاب» إلى درجة كبيرة وكان معاون الضابط السياسي الذي سأخلفه في حلبجة على شفا الانهيار العصبي. كان رجال القبائل الثائرون من جبال (هه وره مان) بقيادة (محمود خان دزلي) يغيرون باستمرار على سهل رواندوز من الجهة الإيرانية (بعد أن ساهم محمود خان مساهمة فعالة في ثورة الشيخ محمود السنة 1919، أسلمته لنا الحكومة الإيرانية لغرض إبعاده عن بلادها. وكان من قصر النظر أن يسمح له بالعودة بعد أشهر قليلة من الاعتقال، ليتصل حالاً بعملاء تركية الكمالية). في حين كان ملاكو القرى منهم في الجانب العراقي يطردون أي موظف يحاول جمع أي مبلغ من الضرائب العادية عدا الغلات المحلية، أو حتى مجرد فرضها. وفي أواسط كانون الثاني قتل المسكين (فيتزغيبون) أثناء مصادمة وقعت في محل قريب من خورمال، ولم يفلح في صد هجوم على حلبچة إلا بمعاونة القوة الجوية. وغدا وضع معاون الضابط السياسي أصعب بسبب المكائد التي كانت تحاك في حلبچة نفسها، وفيما بين قبائل الجاف التي تسيطر عليها (عادلة خان). ففي الوقت الذي كانت هذه السيدة مخلصة (للحكومة المفخمة) وكانت تقرنها باسمي (صون) و(ليز)، فإن ظنها خاب بها بمسلكها الفاضح المتمثل في آخر وكيل لها هناك، فقد وجد هذا ولا شك أن إرضاء بعض مطامح السيدة عادلة، لا يستقيم ومتطلبات الإدارة في زمن السلم.

أما في رانية المعرضة مباشرة وبسبب موقعها إلى مكائد المحرضين الترك فقد كان الموقف أكثر خطورة. وكانت بطون من قبائل (بشدر) و(بلباس) و(ئاكو) تغلي بالثورة. وفي آب 1921 هاجمت رانيه قوة من القبائل يدعمها جنود ترك ومع أن هذه الغارة منيت بالهزيمة بفضل العمليات الجوية، إلا أن معاون الضابط السياسي ظل مشغولاً بعمليات بوليسية صغيرة مستمرة، والأنكى من ذلك أنه وقع هدفاً لثأر

شخصي بسبب قتله أحد الأغوات المحليين أراد أن يسدد إليه طعنة خنجر أثناء وجوده في دائرة. وكان قد هيأ نفسه للانفكاك من وظيفته حال وصول بديله.

وكان شيوخ أسرة البرزنجة الكثيرون المنتشرون في الأجزاء الوسطى والجنوبية من هذا القسم الإداري، وفي المناطق المجاورة من لواء كركوك، يديرون حرب أعصاب شديدة تتستر تحت واجهة القومية الكردية وتستهدف إعادة الشيخ محمود إلى وطنه وتنصيبه بالطبع رأساً للدولة (كان الشيخ قد جيء به من الهند وأسكن الكويت) يدعمهم في ذلك كل ناقم ضاق ذرعاً بحكم القانون. وفي هذا الغليان، كان يوجد شخص الشيخ عبد الكريم، في تكيته (بقادر كرم) وهي قرية تقع على ضفة (باسه ره) اليسرى إلى جهة كركوك، قد برز بمظهر اعتداله وتعقله، والموقف كله لا يستقيم مع المنطق أساساً. فالمندوب السامي كان قد تنازل عن كل صلاحياته التنفيذية. وكانت القيادة البريطانية تكره دوماً استخدام القوات الإمبراطورية في منطقة بعيدة لا مصلحة لها فيها. ويكاد لا يقل صعوبة عن ذلك، الموافقة على استخدام الليفي محلياً. وهي قوة تنفق عليها الحكومة البريطانية. إن الضرائب المباشرة «للقسم» الإدارية قد تكفي لسد مصروفات الخدمة المدنية والشرطة المحلية. ولكن لا يوجد للقسم نصيب في عوائد الكمارك والضرائب والأعشار المحلية أو أي دخل مركزي آخر، لذلك كان من المستحيل تقرير تمويل أي مشروع آخر غير سد نفقات الإدارة. وقد اتفقت وجهة نظر معظم الموظفين البريطانيين في وزارات بغداد ودوائرها، مع وجهة نظر القوميين العرب[1] في

(1) من الضروري أن نشرح هنا ما يقصده المؤلف بالقوميين العرب، إنه يشير إلى تلك الطبقة من ناشئة الحكام العراقيين الذين استخدموا التعصب القومي والتظاهر بالحرص على مصالح العرب أمام الرأي العام في حين كانت صلاتهم بالمستعمرين وسلطات الاحتلال وثيقة جداً. هذه الطبقة التي ظهرت في العشرينات فكان منها الوزراء ورؤساء الحكومات وكبار الموظفين وألفت أحزاباً وكتلاً سياسية ونوادي، افتضح أمرها بعد الأربعينات وما عادت تستطيع التسربل بهذا الرداء. ومن الواجب التنبيه هنا بأن لا علاقة تربط هؤلاء بالحركات القومية والأفكار القومية التي استجدت في العالم العربي بعد «الحرب العالمية الثانية». لقد كان أهم مظهر اتخذه تعصب هؤلاء الذين=

رفضهم الاعتراف بأي حق في المساعدة لهؤلاء الكرد الذين أصروا أن يكونوا خارج الإطار السياسي الراهن، لو أعطى هذا المال لمجتمع دؤوب يحترم القانون والنظام إلى حد ما فإن نوعاً ما من الإدارة يستطيع أن يدبر أموره بفضله إلى فترة من الزمن. ولكن هنا، في بلاد يجد تسعة أعشار سكانها واجبات المواطنة الصادقة فرضاً وعبئاً ثقيلاً، يواجه الضابط السياسي مهمة عسيرة لا يمكن وصفها. وإذا وضعنا نصب أعيننا زهد البريطانيين في حكم هذه البلاد، فلا يبقى إلا الاختيار بين سياستين: إما أن يتخذ قرار من جانب واحد بدمج السليمانية وكركوك في الدولة العراقية شاء السكان أم أبوا، وهذا سيكون نكثاً بالعهد وتخلياً عن الضمانات التي أعطيت في مجلس العموم البريطاني ومؤداها أن الكرد لن يرغموا على الخضوع لأية حكومة عربية. وثانيتهما: استبدال الحكم البريطاني المباشر بحكم غير مباشر عن طريق المجيء بشخصية كردية بارزة تستطيع نيل الثقة الشعبية والدعم العام وأن لا تكون بأي حال من الأحوال مستجيبة لدعاية التفرقة التركية التي كانت تجتذب بنوع خاص القرويين ورجال القبائل السذج ولو كان يوجد فرد من الأسرة البابانية حائز الصفات المطلوبة فقد يكون لاسمه أثر في توحيد العناصر الوطنية تحت لوائه، أكثر من أي شيخ قبلي. إلا أن عميد الأسرة البابانية الذي دُفع إلى زيارة السليمانية من موطنه في بغداد آنذاك، وجد أنه لا يعرف كلمة كردية واحدة وأنه مهتم بتأريخ أسرته الغابر أكثر من اهتمامه بسياسة الحاضر العملية.

لذلك لم يكن بمستغرب في هذا الوضع أن نجد (غولد سمث) مضطراً إلى التوصية بإعادة الشيخ محمود إلى منصبه. أما رأيي الخاص، فإن الشيخ محمود لم يكن يرجى التفاهم معه بأي حال، وأنه كان علينا التوجه بأنظارنا إلى مرشح آخر ربما هو «سيد طه ابن شيخ محمد صديق»، حفيد الشيخ عبيد الله الشهير، أمير شمدينان في تركيا الذي لم أقابله أنا شخصياً، إلا أن ضباطنا في رواندوز ضمنوا

=يسميهم أدموندز بالقوميين العرب، سخطهم على تطلعات الشعب الكردي وتنكرهم لحقوقه وقسوتهم في قمع انتفاضاته وحركاته المسلحة. (المترجم).

تقاريرهم شيئاً عنه يشير إلى رجاحة عقله وعصرية آرائه وقد أبدى (نويل) عند عودته شكه الكبير في وجود أي حكمة في القرار المتخذ بإعادة رجل ثبت من تجارب الماضي أنه صعب القياد. ولكن منطق بعض الأشخاص رأى أن الرجل قد حفظ درسه. ولسرعة تعاقب الأحداث اضطررنا إلى القيام بذلك.

كان معاون الضابط السياسي في حلبچة، يشغل منزلاً كبيراً يتخذه دائرة ومسكناً، وهو ملك لحامد بك الجاف حفيد عثمان باشا من زوجه الأولى، غير عادلة خان. وكان بعد ثورة 1919 قد أشغل لأغراض عسكرية ويقع في نهاية البلدة الغربية وبابه الأمامي يفضي إلى زقاق ضيق ويلوح من شرفته الخلفية في الطابق الأعلى منظر رائع مترام لا يعترضه عائق، حتى ينتهي بعد مسافة بعيدة بتلول شهرزور الأثرية. وأول ما أطلعني سلفي عند قدومي لتسلم واجباتي منه، أطلعني على باب صغير في جدار الحديقة الخلفية عمله سلفه (الذي خلف ليز lees) ليضمن له ممراً سريعاً للهروب إذا دخل (اللشگر) القادم من جبال (هه وره مان) الوعرة، ذلك الجيش الذي بدا وكأن ظله يحوم فوق المدينة فيهددها بخطر أزلي. إذ يدخلها ويحتلها من جهة الشرق.

هذه الأوضاع التي كانت تواجهني عندما تسلمت الوظيفة الجديدة.

- 10 -

الحدود التركية الفارسية (1639 - 1914)

إن طول الحدود التركية - الإيرانية ابتداء من الخليج الفارسي[1] حتى أرارات، يبلغ حوالي 1180 ميلاً، منها 700 ميل تمر ببلاد كردستان. وقد ورث العراق عن الإمبراطورية العثمانية حوالي (920) ميلاً، من ضمنها (440) ميلاً تمر في كردستان ولقد تأثرت الحياة السياسية والاقتصادية الكردية تأثراً عميقاً بوضع هذا الشعب على جانبي تلكم الحدود الدولية. وليس ثمة غنى للقارئ عن شيء من المعلومات المتعلقة بالنزاع الدبلوماسي بين الإمبراطوريتين لأجل أن يستوعب حديثي بشكل صحيح، ولهذه المعلومات فضلاً عن هذا جانبها الخاص الطريف الممتع.

إن أقدم ما يعين تلك الحدود من الوثائق المحفوظة، هي المعاهدة المبرمة في (زهاب = زهاو) في العام 1639 إثر حملة السلطان مراد الرابع المظفرة على الشاه صفي الدين الأول. إن هذه المعاهدة هي أساساً مبنية على شروط فرضها السلطان سليمان القانوني في العام 1555، على الشاه الإيراني طهماسب الأول فرضاً. والنصان الفارسي والتركي مفقودان في أزمان غير معروفة قبل العام 1843، إلا أنه توجد نسخة تركية باقية إلى الآن في المكتبة الإمبراطورية بمدينة (فيينا) موقعة بختم الصدر الأعظم، ومن صيغة كتابتها يبدو أنها تصريح من جانب واحد أكثر منها معاهدة سلم عقب مفاوضات. وأن الكتاب الذي ألفه مؤتمن الملك (طهران

---

(1) أي الخليج العربي. (المترجم).

1908) ونشرته الحكومة الإيرانية بعنوان «Recueil de traits de l'empire person avec les pays etranger» «مجموعة معاهدات الإمبراطورية الفارسية مع البلاد الأجنبية» يثبت نصاً تركياً لما يعتبره معاهدة - مع ترجمة فارسية له، مذيلة بمذكرة أيضاً يذكر فيها أن هذه المعاهدة استعير نصها من الجهات التركية ودخلت ضمن المجموعة لفقدان النص الفارسي. على أن الثبت ليس إلا جزء مقتبساً من حجة التفويض بالتوقيع المؤرخة في (1640) وهي السنة التي تلت المعاهدة.

إن ديباجة نسخة (ڤيينا) تستحق منا أن نورد نصها الكامل، لتكون مثلاً للأسلوب الرشيق الفخم الذي اختاره النساخون الدبلوماسيون في الشرق الأوسط أيام حكم ملكنا شارل الأول[1].

«الحمد لله الرحمن الرحيم، مانح النصر والظفر، الذي فتح باب الصلح وأغلق بمفتاح القول: ليس أحب إليّ من الصلح والوئام. وبدد ظلام الحرب والقتال بنور السعادة والهناء، والصلاة والسلام - ما نشر الزهر عبيره، وما أشرق النور على الأيام - على نبيه الذي نشر الدين بحق مبين. وأبهج الإسلام ببعثه الميمون رسولاً وهادياً. وعلى آله وولده وصحبه الغيورين على نشر راية الدين.

«ومن حيث أن إرادته ومشيئته جلّ جلاله الذي رفع بحكمته السماء من غير عمد وبقدرته التي وسعت كل شيء، الذي لم يكن له كفؤ أحد، ومن حيث أن حسن انتظام وبقاء الأمم مرتهنان بعدل الملوك وإنصافهم، وعلى تفاهمهم واتحادهم، بما لا يقل عن طاعتهم لمشيئته عزّ وجلّ بالسلب أو الإيجاب. ومن حيث إن عظمة السلاطين تطبيقاً لآيته الكريمة ﴿وأطيعوا الله وتهادوا﴾. قد جنحوا إلى السلم الذي هو مصدر السعادة في الحياة الدنيا، ونبذوا العدوان والحرب، وأغمدوا سيف الخلاف في قرابه وعاد الوئام يسود الأمم التي احتربت

(1) إن الترجمة المثبتة هنا هي التي أعدت خصيصاً للجنة أرضروم (1843 - 1848)، مع إجرائي بعض التعديلات في العبارات والتنقيط والتهجئة.

واختصمت، وهو «من فضل ربي» يؤتي الملك من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

«ومن حيث إني أنا أحقر عبيده عزّ وجلّ قد خولت بالحل والعقد في كلما يهم المملكة والبلاد، والتخير بين الحرب والصلح كما أشاء، وهي سلطة منحها لي مولاي البادیشاه الأعظم حامي حمى الدين، قرين سليمان الحكيم في الرفعة والجلال، وكيل الله في أرضه، الذي يصدق فيه القول سلطان عدل، ظل الله في أرضه مجير أعظم أمراء المسلمين، وملجأ أكبر ملوك الترك حامي حمى الإسلام، والمسلمين، مبيد الكفرة والملحدين سلطان البرين، خاقان البحرين، ملك المشرقين والمغربين، خادم الحرمين الشريفين، كنز الأمم وإنسان عين الزمن حماه العلي القدير من كل سوء - جلّ جلاله الذي ترجو الأمم عونه، ذلك الذي فضله الله على سائر الناس بقدرته وعلاه (ألا فليدم نسل جلالته الشاهانية إلى أبد الآبدين ويمتد ملكه إلى دهر الداهرين) قد أمرت العساكر التركية المظفرة - بتفويض كامل وبصفتي الحقيقية نائباً ووكيلاً للسلطان - بالزحف من جنوب بغداد والتقدم لأجل دخول الحدود التركية.

«ومن حيث إننا لما بلغنا المرحلة المسماة (الهارونية) قد وصلها أشرف الأشراف (شمس الدين محمد قلي بك) الأمير العظيم الخطير بتفويض السفارة. وبخط من ذلك الذي هو حلية عرش فارس، وبهاء مملكة جم (جمشيد) قرين داريوس العظيم، السيد الأكرم الدرة الثمينة في بحر الملك وشمس سماء السيادة، والصقر الأشرف في سموات المهابة الشاهانية وأجل الأمراء شأناً، ذلك الذي كانت جيوشه بعدد النجوم (ألا فليبق الله القدير، ألوية نصره وبيارق جيوشه ترتفع من الأرض إلى السماء، وتسمو عظمة مجده إلى قبلة الفلك العليا) موجه إلى باديشاهنا المعظم المفخم، وكذلك مزود بألطف رسالة لي.

ومن حيث إن السفير المشار إليه، قد التَمَسنا إخماد نار الحرب وذر رمادها قائلاً إن إرادة جلالة الشاه هي الصفاء والصلح بين الطرفين. وأنا من جهتي أيضاً

قد رضيت بطيبة خاطر في سبيل الصفاء وأمن البشر أن أعقد صلحاً عملاً بآيات الله البينات وقوله: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها».

ومن حيث إن كتاباً أرسل إلى الشاه، يتضمن قيام جلالته بإرسال شخص هو موضع ثقة، ومفوض بإبرام شروط الصلح المناسب والموافق لشرف وعظمة الدولتين. فعين الشاه حسب الأنظمة والقواعد المرعية - أعظم الأمناء سمو (صاروخان) للمفاوضة في شروط الصلح ولتعيين وتثبيت الحدود. (ألا فليوفقه الحظ في تصريف الأمور التي يتوقف عليها الهدوء والاستقرار).

ولذلك، فعند وصول (صاروخان) المعسكر السلطاني في (زه هاو)، فإنه استقبل بأسمى فروض الإكرام والتجبيل وفي الرابع عشر من محرم للعام 1049 لهجرة النبي(ص) - عقد اجتماع في ديوان المعسكر السلطاني حضره الوزراء المفخمون والميرميران، وأمراء العسكر والأغوات، وآغا الينچرية (الانكشارية) وستة من أغوات الكتائب وغير أولئك من القواد، وتقدم (صاروخان) المفوض المطلق الصلاحية ومعه (محمد قلي بك) وجرى البحث في التمهيدات والمقدمات، حتى يقام الوضع على أسس طيبة وأن نتائج المداولات التي جرت بين الفريقين قد تم تدوينها كما يلي...».

وإذا كانت المعاهدة ذات لهجة لطيفة، فإن كتاب التفويض التركي الذي ينعت الفريق (السامي المتعاقد الآخر) بذوي الرؤوس الحمر (قزلباش) أثناء تنويهه بمواضيع المفاوضة هي إهانة مقصودة واضحة. ومهما يكن من أمر فهو الوصف الذي جاءت به المعاهدة الرسمية، وإني سأثبت فيما يلي الترجمة الحرفية الخاصة بالموضوع منقولة عن (مجموعة المعاهدات...).

> «عن الحدود والأراضي الواقعة في جهة بغداد وأذربيجان، وهي المواقع المسماة (بدره وجصان) يجب أن تضم إلى أراضينا، وأن بلدة مندلي حتى (ده ره ته نگك) الموضع الذي يدعى (سه رى مل) ثبت بكونه نهاية (ده ره ته نگك) والسهول الواقعة بين هذه

المواقع ستدخل ضمن أملاكنا. وإن قبيلة الجاف، والعشائر المسماة (ضياء الدين هاروونى) ستكون لنا. وإن (بيره) و(زه ردويي) ستبقى في الجهة الأخرى من الحدود، وأن يجري تخريب وهدم قلعة (زنجير) الواقعة في قمة الجبل، وأن تبقى القرى الواقعة إلى غرب القلعة المخربة المذكورة داخل ملكنا. وأما القرى الواقعة إلى الشرق فتعود إلى الجانب الآخر. وإن الجبل المتاخم لشهرزور الذي هو خلف قلعة (زه لم) فكل ما يقابل هذه القلعة منه، يحتله جلالة شاهنا. وإن قلعة (هه ورامان) مع القرى الملحقة بها أو التي هي جزء منها ستعود إلى الجانب المقابل، وإن جبل (چوغان) سيثبت حدوداً لشهرزور، وإن نهر قزلجة وروافده وقراه ستكون من ضمن ملكنا. وإن (مهربان) وملحقاته سيعود إلى الجانب المقابل (الموضع الثاني ذكر باسم قوتور وهي في أقصى الشمال يبعد أكثر من ثلاثماية ميل عن خط سير الحدود)».

إن المواضع التي ذكرت في اتفاقية التصديق على المعاهدة، الواقعة ضمن المنطقة العراقية المحتلة قد بينا ما أمكن تحديده منها، وفي الخريطة التي أثبتناها في آخر هذا الفصل. وجصان وبدرايا (بدرة) هما بلدتان عراقيتان مجاورتان لبشتكوه ولرستان تقعان في أقصى الجنوب. وبحسب ما ذكره (چيريكوف) (انظر حواشي الفصل العاشر) فإن منطقتي (ده رنه وده ره ته نگك) تنطبقان تقريباً على ما عرف بعدئذٍ ببشالق (زه هاو) ويحدها نهر سليمان من الشمال الغربي ورافده (زمكان) من الشمال الشرقي، ورافد ثان له هو (هلوان) من الجنوب الغربي، ويحده من الجنوب الشرقي خط يمتد شمالاً، أو شرق الشمال مارا بـ(سه رى مل) التي تبعد حوالي سبعة أميال عن (كرند) على طريق السلطانية إلى كرمنشاه. وكان (ده ره ته نگك) نفسها تقع بالقرب من قرية (رجب) الحالية على مدخل المضيق الذي ينفذ منه نهر (هلوان) من (زمكان) الجبال إلى السهل. وفي الخريطة التي

رسمها (راولنسن وفيلكس جونز) ملحقة بالوثيقة الثانية ترى زكمان على بعد ستة وعشرين ميلاً بانحراف قليل نحو شرق الشمال إلى (سه رى مل) ومن قبيلتي الجاف اللتين ذكرتا، بقيت قبيلة هاروونى بوصفها رابع أوسع بطن في العراق. إلا أن (ضياء الدين) لم يعد لها وجود بهذا الاسم. أما (بيره وزه ردويي) ففي تثبيت مكانيهما بعض الصعوبة، وهناك مقتبس من المعاهدة جاء في مؤلف إيراني قديم يذكر اسمي (ديره، وزه ردويي). إن سهل (ديره) يقع على بعد حوالي عشرة أميال جنوب (سه ربلى وزه هاو) على الطريق العام (وبهذا يكون خارج حدود بشالق زه هاو التي مر ذكرها) ويقول چيريكوف وهو لا شك يعتمد على أسباب وجيهة[1] إن (زه ردويي) هو اسم آخر لـ(قه لاشاهين) وهي القلعة الواقعة على الضفة اليسرى من (هلوان) بالقرب من سهل (ديره). أما (قه لا زنجير) فهي معروفة وتقع على الخط بالمباشر ابتداء من (سه ري مل) حتى الموقع الذي ثبت فيه فليكس جونز (ده رنه) وأما قلعة (زه لم) والقرية المعروفة اليوم باسم (شارى هه ورامان) فهما على التوالي في ذرى الأطناف الغربية والشرقية من قطاع السلسلة الكبرى الهورمانية شمال شرق حلبچة. وقد بقي اسم قزلجة (عرفناه اسماً لنهر) يطلق على الناحية التي سميناها في زمننا (پنجوين) نسبة إلى السوق الكبيرة في القرية، حتى نهاية الحكم العثماني. و(مهربان) هي الصيغة الفارسية القديمة للكلمة الكردية (مه ريوان) ولم أتمكن من تثبيت موقع (چوغان)، على أن خريطة عتيقة رسمها العقيد وليامز، تثبت موقعها في منتصف الطريق بين بنجوين والسليمانية، وهو إثبات خاطئ إذ لا يمكن أن تكون إلا في موقع ما على خط الحدود بين بنجوين أو أسفين شلير، وبين (مه ريوان).

وتختتم المعاهدة (نص فيينا) بما يلي:

«وبناء عليه وبحسب السلطة الكاملة والتفويض المطلق كتبت هذه

---

(1) ولكن نرانا نميل إلى التنويه بخصوص مرجعه - بأن المقصود هو أراضي قبائل (زه ردويي) الذين ما زالوا يحتلون مجموعة من القرى إلى جنوب سيروان ما بين (زمكان) و(شاهو).

المعاهدة الميمونة وأرسلتها إلى عظمة الشاه وإلى جلالة باديشاهنا الأفخم وإن الشاه سيبقى أميناً على حرفية المعاهدة كما هو مفروض وواجب، وعملاً بأحكام الآية الكريمة ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾ وإن جلالة سلطاننا وباديشاهنا المعظم سيتمسك بنص الحديث النبوي الشريف «حافظوا على العهد فهو أمر واجب» وسيبقى هذا الصلح السعيد بإذن الله، حتى يوم يبعثون وكل من ينقضه أو يخالفه بعد أن يصل إليه علمه، فهو والله لإثم عظيم يقع على أولئك الذين ينقضونه».

وكانت الأعمال العدوانية تتجدد باستمرار رغم مظهر المشاعر الصادقة المعبر عنها بمثل هذه البلاغة والثقة العالية المودعة في هذا المعهد المقدس. فتنشب الحرب كلما شعر أحد الطرفين بقوة كافية للمبادرة إليها. ولم ينقطع النزاع العسكري إلا لفترة تسمح بإبرام معاهدة جديدة لتستأنف الحرب بعدها، فعقدت معاهدة في همدان السنة 1727، وأخرى في الأستانة السنة 1736 وثالثة في موغان السنة 1746 ورابعة في أرضروم السنة 1827 ونذكر من بينها معاهدة 1746 بشكل خاص وهي التي أيدت الحدود المرسومة في معاهدة 1639 وقد أبرمت في عهد «الملك الغازي السلطان مراد الرابع الذي يسقى الآن سلسبيل الجنة» (لم يذكر شيء عن وضع صفي الدين المسكين!) كذلك أيدت معاهدة 1823 نصوص معاهدة 1746 بخصوص الحدود القديمة للدولتين، ونشبت سلسلة من الاشتباكات خلال السنوات 1833 - 1842 كادت تؤدي بالدولتين إلى حرب رسمية. ففي العام 1833 أغار الإيرانيون على تخوم تركيا حتى (بايزيد). وفي العام 1835 أغار كرد (وان) على (قتور) وأعمل (محمد باشا)[1] أمير رواندوز السيف في رقاب أهل

(1) محمد باشا كور أمير رواندوز، ويلقب بالأمير الكبير. استولى على حكم هذه الإمارة 1810. كان على جانب عظيم من الدهاء وسداد الرأي وقوة العزيمة وأخضع الإمارات المجاورة له كإمارتي (شيروان) و(برادوست) وفي العام 1830 أعلن استقلاله عن الحكم العثماني واستولى على أربيل=

(مير گه سور) في إيران وأشعل فيها النار، وفي العام 1837 أحرق باشا بغداد بلدة المحمرة[1] وذبح أهاليها. وفي العام 1840 احتلت السليمانية حملة إيرانية ولم تبق فيها طويلاً، وفي العام 1842 هاجمت قوة من السليمانية والي أردلان[2] ووقعت حوادث أخرى مشابهة ولكنها أقل أهمية.

إن التأريخ الحديث لهذا النزاع يبدأ بقبول الدولتين وساطة روسيا وبريطانيا العظمى التي كان يمثلها في الأستانة سر ستراتفورد كاننغ Stratford Canning وفي العام 1843 تألفت لجنة من هذه الدول الأربع والتأم شملها في (أرضروم) وكان (ميرزا تقي خان) يمثل إيران و(أنور أفندي) يمثل تركيا والعقيد فنويك ويليامز Fenwick Williams (الذي اشتهر أمره في حرب القرم ببلائه في الدفاع عن قارص) يمثل إنكلترا، والعقيد دينيسه Dainese يمثل روسيا. ثم التحق القس روبرت كرزن بالممثل البريطاني ويليامز. وهو مؤلف كتاب شهير باسم «زيارات لديارات في الشرق» وكان انضمامه في الأشهر الأولى بصفة عضو لجنة مشارك، وسجل مشاهداته في كتاب ثان له عنوانه: «أرمينيا: عام واحد في أرضروم وعلى حدود روسيا وتركيا وإيران»[3]. وكان المترجم الإنكليزي هو (ج.س. ردهاوس J.S. Redhouse) الذي بقي معجمه التركي - الإنكليزي هو المعجم المعتمد الرئيس حتى قيام الإصلاح اللغوي التركي أيام مصطفى كمال.

=بعد حصار طويل ثم استولى على التون كوبري حتى اتسعت مملكته إلى الزاب الأسفل. واضطر والي بغداد علي رضا باشا إلى الاعتراف رسمياً بحكمه وأنعم عليه الباب العالي بلقب الباشوية. إلا أنه أوقع المذبحة العظيمة المعروفة باليزيدية بتحريض من العثمانيين في مشارف الموصل فكانت وصمة عار له. كذلك استولى على عقرة والعمادية. وقد جردت عليه الحكومة العثمانية جيشاً - بقيادة رشيد باشا، ووالي الموصل اينجه بيرقدار وقد آثر كور باشا إعلان طاعته على قبول المعركة فأخذ إلى الأستانة أسيراً مكرماً وتضاربت الأقوال في شكل موته أو قتله وموضعه، إلا أن ذلك كان في العام 1836م. (المترجم).

(1) هي خرمشهر الحالية.

(2) لا شك في أنها الحادثة التي أشار إليها الشيخ رضا الطالباني في قصيدته المنشورة آنفاً.

(3) طبع في لندن: 1854.

ولم يأت «كرزن» إلى وصف مجرى المفاوضات. لكن الذي يتضح من الروايات والمصادر المختلفة غير الرسمية، فضلاً عن وقائع الجلسات، أن مندوبي الدولتين الوسيطتين عانوا وقتاً عصيباً. فقد كادت المباحثات التمهيدية تنبت من أول اجتماع بورود أنباء مذبحة الشيعة في كربلاء، حيث زعموا أن (22000) إيراني فقدوا حياتهم فيها. و«كانت المباحثات تستطيل وتتعثر بكل ما يخطر بالبال من عراقيل يضعها الترك بصورة خاصة، أمام المندوبين» في حين كان ادعاء الطرف الآخر بأن حدود مملكتهم معروفة ثابتة «منذ أيام آفراسياب» (وهو شخصية أسطورية في الملاحم الإيرانية لا وجود حقيقي لها) يدل على تعنت مقصود في معالجة المسألة ووصفت أعمال الوسطاء «بأنها نضال مستمر لإبقاء الوئام والهدوء مستتباً وشرح أبسط القواعد والمعاملات لزملائنا». وفي أيار، وبعد ثلاثة اجتماعات، اتضح أن الصلاحيات المعطاة لكل من الطرفين المتنازعين كانت قد صيغت بشكل لا يمكن معه تحقيق أي تقدم. فانقطعت المفاوضات خمسة أشهر انتظاراً لوصول كتب تفويض منقحة، وعندما وصلت وجد أنها لا تفضل سابقتها بكثير. فقد رسم لكل مندوب مفوض «أن يطلب من الطرف الآخر التسليم له بحقوقه دون قيد أو شرط، ولكن لم يزود أي منهما بصلاحيات حقيقية للتفاوض» زد على ما تقدم فإن الحكومة الإيرانية أصرت على أن لا تتم أية تسوية بشكل نهائي إلا بعد تعويض مناسب «عن حادث كربلاء المريع». مع هذا، واصل الوسطاء النضال. وفي فصل الصيف استقدم الترك (الشيخ ثامر) من قبيلة (كعب) العربية الذي يرابط على ضفاف شط العرب. ليدلي بشهادة لصالحهم فاعترض (ميرزا تقي) على سماعه مدعياً أن «هذه القبيلة كانت منذ زمن نوح! خاضعة كالعبد الرقيق لإيران وأنها لم ترتبط بتركية مطلقاً»! وألح الوسطاء فتقدم للشهادة في الجلسة الثامنة المؤرخة في كانون الثاني إلا أن نفور المندوب الإيراني كان كبيراً عند رؤيته الشيخ مع عضو استئناف البصرة عبد القادر أفندي، «وإن الحماسة العربية لهذين الأخيرين، أحدثت شيئاً من الاضطراب وكانت الأجوبة والأسئلة

تتلاحق متداخلة بعضها ببعض، وفي وسط هذه المقاطعات تعذر على المرء أن يفهم ما يجري»[1].

ومرة قامت السلطات المحلية في أرضروم بدفع آلاف من الغوغاء السنية لمهاجمة مقر الوفد الإيراني فحوصر عدة ساعات، رغم الإجراءات الفعالة التي اتخذها (ويليامز) مخاطراً بحياته، ورغم مجهوداته في إقناع الوالي بصد الغوغاء وفي اليوم نفسه عمد قصاب إلى ذبح سكرتير (ميرزا تقي) ذبحاً وحشياً في منطقة أخرى من المدينة.

واستمرت المفاوضات في أرضروم وأوروبا رغم هذه العقبات، ورغم وقوع مثل هذه الحوادث الكفيلة بتجديد الحرب التي ما اجتمعت اللجنة إلا لتفاديها وأخيراً تم التوقيع على معاهدة أرضروم الثانية[2] في 31 أيار 1847. وعلينا أن نثبت هنا المواد الخاصة بالحدود كاملةً:

المادة الثانية: تتعهد الحكومة الإيرانية بأن تتنازل للحكومة العثمانية عن كل الأراضي المنخفضة، وبكلمة أخرى الأراضي الواقعة في القسم الغربي من منطقة (زه هاو) وتتعهد الحكومة العثمانية أن تبقي للحكومة الإيرانية كل الجزء الشرقي من المنطقة المشار إليها أي القسم الجبلي وبضمنه وادي (كرند). وأن تتخلى الحكومة الإيرانية عن كل مطلب لها في مدينة وإقليم السليمانية، وتتعهد رسمياً بأن لا تتدخل وأن لا تعتدي على حقوق سيادة الحكومة العثمانية في الإقليم المشار إليه، وتعترف الحكومة العثمانية رسمياً بسيادة

---

(1) هذه الفقرة أوردها المؤلف بنصها الفرنسي فترجمناها كما جاءت معتمدين على المؤلف دون الرجوع إلى الأصل. (المترجم).

(2) تجنباً للإشكال سنشير إلى أول معاهدة أبرمت في أرضروم بتاريخ توقيعها فحسب. إن الترجمة الإنكليزية للمعاهدة الثانية التي أثبتناها هنا، هي الترجمة الخاصة بعصبة الأمم نقلت عن «النص المطابق الفرنسي» الذي عمله (ردهاوس) وزميله الروسي.

الحكومة الإيرانية المطلقة على مدينة المحمرة وميناثها على جزيرة (خزر)[1] وعلى المرافئ والسواحل الواقعة على الضفة الشرقية اليسرى من شط العرب التي تسكنها قبائل منتمية إلى إيران، وكذلك يكون للسفن الإيرانية الحق في الملاحة بدون أجر أو عائق في شط العرب من فمه إلى نقطة اتصاله بحدود الطرفين.

المادة الثالثة: إن الطرفين المتعاقدين بعد أن تنازلا بهذه المعاهدة عن كل مطالبهما الإقليمية الأخرى - يتعهدان بتعيين مندوبين ومهندسين يمثلونهما ويقومون مقامهما لغرض تثبيت الحدود بين الدولتين بموجب المادة السابقة.

المادة التاسعة: إن سائر نصوص ومواد المعاهدات السابقة ولا سيما تلك التي وردت في معاهدة أرضروم (1238هـ/ 1823م)، مما لم يلغ صراحة بهذه المعاهدة أو يعدل - تبقى على ما هي بالنسبة إلى كل مادة أو شرط كما لو أعيد تثبيتها في هذه المعاهدة بكاملها. إن الدولتين المتعاقدتين الساميتين اتفقتا على قبول نصوص هذه المعاهدة بعد تبادلها، وأن توقعاها. وسيتم تبادل النسخ المصدقة منها خلال شهرين أو أقل.

وفي آخر لحظة رفضت الحكومة العثمانية تخويل ممثلها حق التوقيع إلا بعد أخذ تأكيدات بخصوص المعنى الدقيق لمواد معينة، فقدمت التأكيدات المطلوبة في (مذكرة إيضاحية) موجهة إلى الباب العالي من سفيري روسيا وبريطانيا في الأستانة. وأوضحت بخصوص الحدود النهرية أن عبارة الرسو في المحمرة إنما يقصد به الرسو في نهر (كارون) إلى مسافة تبعد قليلاً من نقطة اندماجه بشط العرب لا الرسو في شط العرب بالذات. ولم تسلم المذكرة للإيرانيين إلا بعد

(1) تعرف عموماً باسم جزيرة عبادان.

بضعة أشهر، ولم يثر موضوع السيادة على النهر أثناء المفاوضات وإنما طرح أحد أمرين إما: (1) قناة الكارون القديمة المؤدية إلى (خاور موس) التي تبعد عن النهر ما بين ثلاثين وأربعين ميلاً شرقاً - وهو خط يقسم جزيرة (خزر) نصفين - وإما: (2) الحدود الفعلية على طول الضفة اليسرى. ويصف (السر آ.هـ. لايارد H.A. Layard) الذي عين فيما بعد سفيراً لدى الباب العالي في كتاب سيرته[1] كيف كلفه (سير ستراتفورد كاننغ) شخصياً بإعداد تقرير خاص عن هذا القطاع من الحدود أيام كان فتى يافعاً. لكن كثير الخبرة بعد قيامه برحلات هامة وصفها في كتابه «المغامرات الأولى»[2]. فاقترح في تقريره الأخذ بثاني البديلين لأنه خط ثابت جداً من ناحية تاريخ العهود الملكية ومن ناحية العدالة، فوافق (كاننغ) على اقتراحه ولكن اللورد أبردين[3] Lord Aberdeen الذي كان يريد تهدئة الدولة الوسيطة الثانية (روسيا)، نزل عند الإلحاح الروسي وتغلب البديل الثالث الذي كان الأصلح لإيران، مما أدى إلى سخط السفير الشديد.

هناك تعديل آخر لخط حدود 1639 أصلح لإيران في هذه المعاهدة، وهو أن (زه هاو) عوضاً عن تركها لتركيا برمتها حتى (سه رى بل) انقسمت الآن بخط جديد يميل غرباً ميلاناً كبيراً. إلا أن الدولتين الوسيطتين لم تنته متاعبهما عند هذا، فقد اضطرتا إلى ممارسة ضغط دبلوماسي شديد لحمل السفير الإيراني في باريس

---

(1) السير أ. هنري لايارد (سيرة ورسائل)، طبع لندن 1903. سير أوستن هنري لايارد (1817 - 1894) كاتب ودبلوماسي ومنقب نينوى الشهير قضى معظم سني شبابه وكهولته يستخرج آثار نينوى ويدرسها ويصدر بنتائج تنقيباته الكتب الأركيولوجية التي أحدثت ضجة في عالم التنقيب الأثري. أصبح نائباً في مجلس العموم البريطاني 1852. وتولى منصب مساعد وكيل وزارة الخارجية فترة قصيرة. ثم تولى المنصب نفسه فترة أخرى. وتولى عدة مناصب إدارية مهمة فيما بين 1861 - 1866. ثم عين أميناً للمتحف البريطاني 1869. أرسل إلى مدريد مبعوثاً فوق العادة. وفي سنة 1877 عين سفيراً لبريطانيا لدى الباب العالي. وبعدها تقاعد حتى أدركته الوفاة. (المترجم).

(2) المغامرات الأولى في بلاد العجم وسوسيان (سوسه) وبابل - طبع لندن 1887.

(3) جورج غوردن أبردين (1784 - 1860) واحد من أشهر وزراء الخارجية البريطانيين وممن كانت لهم اليد الطولى في رسم سياسة بريطانيا خلال القرن التاسع عشر. (المترجم).

- رغم مكاسب حكومته الهامة من المعاهدة - على السفر إلى الأستانة ليقوم بمراسيم التصديق. وأخيراً تم ذلك وتبودلت وثائقه في 21 آذار 1848 أي بعد عشرة أشهر من توقيع المندوبين، بدلاً من الشهرين الذين نص عليهما في المعاهدة.

إن هيئة الفنيين لتثبيت الحدود التي نصت عليها المادة الثالثة من المعاهدة تألفت من العقيد (ويليامز) أيضاً عن بريطانيا العظمى، و(ميرزا جعفر خان) عن إيران و(درويش باشا) عن تركيا والعقيد (چيريكوف) عن روسيا. وإنك لتجد نغمة حديثة في العبارة التالية المقتبسة من كتاب - تعليمات سير ستراتفورد كاننغ الموجه إلى ويليامز..

«إن الأعمال... يجب أن يتوخى فيها مصلحة السكان العديدين المنتشرين فوق قمم الجبال المترامية والسهول الرحيبة التي سيمر خلالها خط الحدود ومن المعقول جداً أن يتوقع قيامها بوضع أسس تقدم اجتماعي كبير سيتسرب بالتدريج إلى سكان هذه البلاد البرابرة البعيدين عن المدنية، كما ستساهم مساهمة فعالة في حفظ الأمن».

ويختم كتابه بنبوءة عفوية: **«وأختتم الموضوع هنا، بأمل الواثق من أن الفوز الذي توج مفاوضاتك في أرضروم أخيراً، سوف يبلغ بك مراقي النجاح في مهمتك الحالية بعد فترة أقصر مما قضيت قبلاً بسبب أحداث لم يكن بالإمكان اجتنابها».**

لقد هدد الفشل عمل الهيئة تهديداً خطيراً قبل اجتماعها. فدرويش باشا الذي كان يفترض فيه أن يلحق بزملائه في الموصل من الأستانة. عرج إلى (قتور) على رأس قوة مسلحة. وطرد الإدارة الإيرانية منها وترك فيها حامية من الجيش النظامي ووضع أسس بنايات الثكنات العسكرية. وبنى «دعامات حدوده» إلى مسافة لا تزيد عن 6 أو 7 أميال من بلدة (كوي) ونقش كتابة عليها تدل على إلحاق هذه المنطقة بتركية اعتباراً من ذلك التاريخ. وكانت هذه الواقعة أول حلقة من سلسلة «تهديدات سيئة منعزلة» استمر فيها المندوب التركي طوال بضع سنوات وهو يقوم بمهمته.

والتأم شمل الممثلين في بغداد خلال حزيران 1849. لكنهم لم يحاولوا البدء في مهمتهم في المحمرة حتى كانون الثاني 1850، وللمرة الثانية عادت «روح المشاكسة والخداع وغمط الحقوق» تحيط بكل محاولة تقدم للمفاوضات، وأحصى سر ستراتفورد كاننغ ثلاثة أسابيع فقط من فترة السنتين الأوليين، جرت فيها عمليات تثبيت الحدود فعلاً. وقضى المندوبون البريطاني والروسي والإيراني صيف العام 1850 في وديان (منگارا) بلرستان البعيدة[1] مع أنه كان ثمة أمكنة كثيرة في منطقة الحدود نفسها ألطف مناخاً وأجمل مناظر. أما درويش باشا فقد اعتزل في منطقة (بدرة) غير الصحية الواقعة على الحدود في السهل. وانتقل المندوبان البريطاني والروسي إلى (كرند) في نيسان 1851، ثم ارتحلا إلى (سنه) لقضاء الصيف. وفي كتاب «أسفار وتنقيبات في بلاد كلده وسوسين»[2] الذي ألفه (و.ك. لوفتوس W.K. Loftus) الجيولوجي والعضو في الوفد البريطاني الذي قضى فصل الشتاء كله مستكشفاً مواقع أثرية في الفرات الأسفل وفي منطقة (شوش) يصف كيف أن وليامز كان يدير التنقيبات بنفسه في تل شوش العظيم لمدة شهر كامل. إن عجز المندوبين الوسطاء عن الوصول بالطرفين إلى الاتفاق على أي اقتراح من مقترحاتهم أدى بهم إلى تغيير خطتهم. واقتصرت أعمال الهيئة المنتدبة أولاً على مسح حزام من الأرض كانت الحدود داخلة فيه، دون أن تنظر في تثبيت خط الحدود نفسه. وفي المناقشات التي جرت بعد ذلك من المهم أن نذكر قبول الإيرانيين بتحفظ - في مرحلة ما من المفاوضات - الخط السائر بمحاذاة الضفة اليسرى لشط العرب ابتداء من مصبه في البحر حتى نقطة تبعد بمسافة إلى الشمال

---

(1) عادوا ليجتمعوا في (منكارا) مع آرثر ماكمورو كافانا Arthur MacMurrough Kavanagh لمدة أربعة أشهر (وكافانا هو الإيرلندي الشهير الذي أصبح فيما بعد عضواً لمجلس العموم لمنطقة (كارلو) وكان قد ولد بدون ذراعين أو ساقين) انظر مقالي (رحلات آرثر ماكمورو كافانا في كردستان ولرستان 1850) نشر في مجلة «جمعية أواسط آسيا الملكية، مجلد 36 سنة 1949».

(2) طبع في لندن 1857.

عن مصب رافده الكارون. وبهذا ترك الشط كله داخل الحدود التركية. لكن الترك رفضوا. وانقطعت أعمال اللجنة بسبب حرب القرم (1854 - 1856) والحرب الإنكليزية الإيرانية (1856 - 1857). وشاء سوء الحظ أن يفقد العقيد ويليامز يومياته وتعليقاته الخاصة وهو على ظهر الباخرة في نهر (التايمس) عند وصوله بلاده.

بعد نهاية الحربين وفي العام 1857 اجتمع المساحون الروس والبريطانيون في بطرسبورغ لرسم الخرائط على ضوء المعلومات والمواد التي جمعوها في الأعوام 1850 - 1852، وانتهوا مما اجتمعوا لأجله في العام 1865، وعندما قورنت مجموعتا الجهتين تبين لأول مرة، وجود كثير من العثرات والاضطراب فيها فاضطروا إلى عقد اجتماع ثان لإزالتها. ومرت أربع سنوات أخرى قبل أن تعد خريطة جديدة أطلق عليها اسم الخارطة الموحدة Carte Identique لتجري المداولات بين الطرفين المتنازعين على ضوئها. ووافقت إيران بدون تحفظ على تثبيت خط الحدود كما وضعه الوسطاء في المنطقة التي عملت بها هذه الخريطة، إلا أن تركيا لم تعرب عن موافقتها الرسمية إلا في العام 1875.

وفي تلك الأثناء أدت نزاعات أخرى بين الطرفين، إلى التفاوض في مؤتمر آخر (عقد في 3 آب 1869) على أساس مراعاة «الوضع السابق الذي تم الوصول إليه وقت إجراء تحقيقات مندوبي الدول الأربع» ولم يكن هذا المؤتمر يمتاز عن سابقيه، والواقع أنه «كان مادة جديدة للخلاف لأن الوضع السابق الذي ذكر هنا، كان كل طرف من الطرفين يقيمه بشكل مختلف». وفي العام 1874 اجتمعت لجنة تركية إيرانية خالصة في الأستانة، ولكن المفاوضات انقطعت في الحال تقريباً فقد تمسك الإيرانيون بالمادة الثالثة من معاهدة أرضروم وأصروا على إعادة الوضع السابق للعام 1847 أي بخصوص كل أجزاء الحدود التي لم تذكر في المادة الثانية. في حين تشبث الترك بالمادة التاسعة (كما فعلوا ودأبوا على فعله مرة بعد أخرى حتى السنة 1912) مطالبين بتطبيق معاهدة 1823، أعني خط حدود السلطان مراد الرابع للعام 1639. وانضم إلى اللجنة كل من سير كيمبل A. Kemball والعقيد

زلموي Zelmoi بمثابة وسيطين، فأيدا أعمال التحكيم للعام 1850 آخذين بوجهة النظر الإيرانية في أن المادة الثالثة تختص بالحدود، وأن المادة التاسعة لا علاقة لها بالموضوع. وبعد كثير من الإخفاق راحت اللجنة تتقدم بعض الشيء عندما سبب اندلاع الحرب الروسية - التركية 1876 وقف عمل اللجنة.

وظلت إيران خلال هذه السنين تناشد الدولتين الوسيطتين باستمرار وضع حد لخرق المعاهدة المتواصل وكان استمرار احتلال الترك (قتور) حجر عثرة مزمناً كؤوداً يحول دون إتمام كل شكل من أشكال التفاهم. لقد كان قائد الحامية التركية صاحبة اعتداء 1876، هو الضابط البريطاني الرائد فردريك مللنجن Frederic Millingen مؤلف كتاب «حياة طليقة بين الكرد Wild Life Among of Koords» (ط. لندن 1870) ويظهر في الخريطة التي صدر بها الكتاب، نتوء شرقي كبير في خط الحدود يمتد إلى أبعد (من كوي) والظاهر أنه خط (درويش باشا) للعام 1849، أن كلا من معاهدتي (سان ستفانو) و(برلين): 1878[1]، تحتويان على نصوص تدعو تركيا إلى إخلاء (قتور) وفي العام 1880 حددت لجنة أنكلو - روسية مختلطة خط الحدود في بروتوكول لكنها لم تثبتها موقعياً. وبقيت الحامية التركية على كل حال. ومن الغريب أن نرى اعتداء الجانب الآخر على الحدود المقررة في 1823 والقاضية بشكل واضح بانسحاب الإيرانيين من النصف الغربي من (زه هاو) الذي احتلته في العام 1821، فمع اتفاق أرضروم ظل هذا النصف في حوزتهم - منذ أن قام نائب الملك في كرمنشاه بإعلان الحرب دون علم أبيه (الشاه فتح علي)[2] واحتله 1821. وهكذا بقيت الحدود الفعلية لعدة سنين خط نهر سيروان نفسه.

(1) سان ستيفانو: معاهدة بين روسيا وتركيا وقعت على إثر حرب بينهما في 3 آذار 1878. قضت أهم بنودها بخلق بلغاريا كبيرة تمتد حتى مقدونيا. وتوسيع مملكتي الجبل الأسود وصربيا. إلا أن الدول العظمى - النمسا والمجر، ألمانيا، إنكلترا، فرنسا، اضطرت روسيا إلى العودة إلى روح الاتفاقيات القديمة. وفي مؤتمر برلين أرغمت روسيا إلى العدول عن تلك المعاهدة، وعليه عقدت معاهدة برلين 1878 كبديل للأول. (المترجم).

(2) ولد في العام 1771 وحكم (1797 - 1834) بعد اغتيال عمه آغا محمد شاه وهو من الأسرة=

إن «علامة الحدود» التالية هي «بروتوكول طهران» المبرم في 21 كانون الأول 1911 الذي تم التفاوض عليه بين الطرفين دون وسيط، ونص على تأليف لجنة لتعيين حدود مختلطة جديدة ورسم أن تعمل وفق أسس معاهدة أرضروم (1263هـ/ 1847م) وأن ترفع كل نقاط الخلاف إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي. وعقد في الأستانة ثماني عشرة جلسة امتدت من آذار حتى آب 1912 دون نتائج تذكر، وتدخل مرة أخرى سفيرا الدولتين الوسيطتين وابتدأ التدخل بمذكرة روسية شرح فيها وجهة نظر الحكومة حول الخط الصحيح في معظم امتداده، وأكد السفير أن للترك بشكل خاص «ضرورة تطبيق المواد - في الحال وبدون تأخير - وهذا يعادل إعادة الوضع إلى ما كان عليه في العام 1848» وفي تموز 1913 تمكن (سير إدوارد گري)[1] من إقناع (حقي باشا) أثناء زيارته ممثلاً للباب العالي، يبحث عدد من المسائل الهامة من ضمنها الموافقة على خط حدود في أقصى الجنوب أفضل بكثير لإيران من أي خط كانت حكومته مستعدة للاعتراف به لحد تأريخه.

وأدت تلك المفاوضات الرباعية إلى التوقيع على بروتوكول آخر في الرابع من تشرين الثاني في الأستانة من ممثلي الحكومات الأربع، تضمن وصف خط الحدود بتفصيل كبير فبالنسبة إلى (قتور) أيّد بروتوكول العام 1880. أما بالنسبة إلى قطاع (هه وره مان) شرق حلبچة فكان ثمة انحراف واضح عن التثبيت السابق للعام 1848. وتقرر فيه أيضاً أن يقبل بوضع الحدود الفعلي حتى العام 1905 وكان كل هذا غنماً لإيران.

=القاجارية. أصبحت إيران في زمنه وبسبب موقعها على طريق الهند موضع تنافس في الصراع الدائر على الشرق والهند بين دول أوروبا الكبرى، فرنسا، إنكلترا، روسيا. (المترجم).

(1) Sir Edword Gray (1862 - 1933) سياسي إنكليزي بدأ حياته السياسية نائباً في مجلس العموم البريطاني ثم مساعد وزير الخارجية ثم وزيراً للخارجية منه 1905 حتى 1916، ويعزى إليه بصورة خاصة نجاح المفاوضات التي عقبت حرب البلقان 1912 - 1913 وختمت بمعاهدة لندن. (المترجم).

وصودق أيضاً على اتفاق (گري - حقي) حول الحدود الجنوبية، الذي أعطى إيران حق الرسو مجدداً في شط العرب. ذلك الساحل الذي يمتد إلى شمال وجنوب مصب الكارون (تأكيداً لمعاهدة أرضروم). وقرر تأليف لجنة تثبيت حدود مؤلفة من ممثلي الحكومات الأربع بالإضافة إلى واجباتها في تثبيت الحدود موقعياً. وأوكل إليها مهمة تثبيت الوضع الذي كان سائداً في العام 1848 لهذه الأجزاء من الحدود مما لم يجر تحديده بشكل دقيق في البروتوكول[1] قرر أن يخول المندوبون البريطانيون والروس صلاحيات تحكيم للفصل في كل هذه النزاعات. وإنه حالما يجري تثبيت أي قطاع من الحدود فإن ذلك القطاع يجب أن يعتبر ثابتاً ومعيناً بشكل لا يقبل تحوير. إن حكاية هذه اللجنة يرويها (هوبارد Hubbar) في كتابه[2] فيذكر أن العمل بدأ في كانون 1914 مبتدأ بشط العرب ومنتهياً بأرارات في تشرين الثاني (أي قبيل اندلاع الحرب العظمى الأولى ببضعة أسابيع) وإن محاضر جلسات اللجنة فضلاً عن إسهابها في وصف خط الحدود، عينت المواقع الجغرافية المتناظرة، ووصفت كل قطب (دعامة) حدود منصوب. وثبتت حقوق الماء والرعي أيضاً في عدة مناطق. وخصوصاً عندما يكون أساساً لادعاء بملكية منازع عليها. وعلى العموم وجد أن الاعتداءات التركية على الحدود، وقعت في الشمال، أما الاعتداءات الإيرانية فقد كانت في الجنوب (ومن ثم دول العراق التي ورثتها). وفي (قتور) وقف المندوب التركي موقفاً صلباً عنيداً حتى أن

---

(1) ولهذا الغرض كانت اللجنة ترجع إلى يوميات (جيريكوف ودرويش باشا) وسكرتير هذا الأخير (خورشيد أفندي) إضافة إلى تحقيقاتها المحلية. ولا تتيسر لنا شواهد، من الجانب الإنكليزي بسبب روح التشاؤم الذي نوهنا بها.

(2) المندوب الإنكليزي (أ.س. راتيسلو A.C. Wratislaw) وهو الموظف الأقدم في الدائرة القنصلية الشرقية التي أنتمي أنا إليها. ابتلي بالمرض أثناء العمل، فخلفه نائبه (أ.ت. ويلسن). إن (راتيسلو) لم يتطرق إلى أعمال اللجنة في كتابه «قنصل في المشرق» (لندن 1924). وأما المندوب الروسي فهو (ف. مينورسكي) الموظف في السلك الدبلوماسي الروسي الإمبراطوري، وسيظهر اسمه في هذه الصفحات كثيراً.

للجنة اضطرت نظراً إلى زيادة التوتر السياسي في أوروبا إلى تأجيل نصب دعامات الحدود فعلاً في هذا القطاع الصغير انتظاراً لمناسبة ملائمة.

ومنذ العام 1915 فصاعداً أثناء ما كانت الجيوش البريطانية تزحف من البصرة شمالاً، أخذت سلطات الاحتلال على عاتقها مسؤولية الإدارة حتى خط الحدود المثبت حديثاً ومن الجهة الأخرى أظهرت الجمهورية التركية الجديدة بعد الحرب، أنها ليست بأقل عناداً من سلفها الدولة العثمانية فردت على المطالب الإيرانية بخصوص احترام الاتفاقية - بتصريح جريء هو أن بروتوكول العام 1913 «لا يمكن اعتباره وثيقة سياسية معترفاً بها ما دام بقي غير مقترن بموافقة مجلس المبعوثان ومصادقة السلطان». وإزاء احتمال مواجهة الحكومة الإيرانية أسوأ ما في الأمرين، قررت تعديل موقفها التقليدي ومالت إلى التسوية المتفق عليها متبعة الخطى التركية.

وبعد أن أكمل (هوبارد) نصب الدعامة المرقمة 137، فوق المنخفض الواقع بين الزابين، وفي أثناء تعليقه على ما اعتبره الفصل الختامي لسبعين سنة من المحادثات التمهيدية، والدبلوماسية، والمعاهدات الدولية واللجان الخاصة، ختم كلامه بوصفه القضية كلها: «إنها عملة تسويف ومماطلة لا مشبه بها في تاريخ الدبلوماسية الشرقية».

ولم يخطر بباله أنه سوف لا يمر عشرون سنة على هذه التسوية الكلية إلا ويعود الفريقان المتنازعان يرفضانها. ومع الرجوع إلى عصبة الأمم، وإبرام معاهدتين جديدتين أخريين وتأليف عدة لجان فإن اليوبيل المئوي لمعاهدة أرضروم الثانية سيأتي ويمر مخلفاً ثمانمائة وثمانين ميلاً من أصل تسعمائة وعشرين من الحدود بين العراق وإيران ما زالت غير ثابتة.

- 11 -

الجاف وَهه ورَه مان

يزيد طول قضاء حلبجة عن ستين ميلاً من الشمال إلى الجنوب وتختلف سعته ما بين (35) ميلاً في خط عرض حلبچة، و(8) أميال بالقرب من بنجوين ويحده من الشمال والشرق ما لا يقل عن (170) ميلاً من الحدود الإيرانية وهو من جهة الغرب والجنوب يجاور أقضية شاربازير ومركز قضاء السليمانية وچمچمال ويتألف من أربع نواح هي پنجوين وخورمال وحلبچة (المركز) ووارماوه.

ويبلغ عدد نفوس ناحية پنجوين (22) ألف نفس[1] يسكنون في ذلك الجزء من (قه لاجوالان) الواقع بين جبال (لاري - تاريه ر) وبين الحدود، ونفوس خورمال تبلغ (19500) نفس وهي جزء من سهل شهرزور الذي يقع شمال (تانجه رو) ورافده ماء (زه لم). سمي بذلك نسبة إلى قلعة (زه لم) التي ورد ذكرها في معاهدة (زه هاو) ويشمل مركز قضاء حلبچه (2300 نفس) الأراضي الواقعة جنوب نهير (زه لم) وشرق (تانجه رو) وكذلك النتوء المثلث الداخل في الحدود الإيرانية المسمى (شه ميران) الذي يحده من الشمال نهر (سيروان)، ومن الشرق الحدود الدولية، ومن الغرب حدود قضاء خانقين. وما فضل من سهل شهرزور، هو وارماوه (7000 نفس) في الطيات التي تحدثها تعرجات (تانجه رو) وتقع جنوب

(1) في العام 1947 وهو عام الإحصاء لنفوس العراق، وجد أن عدد البدو الجاف قد تقلص إلى زهاء (600) بيت ولست أدري في أية وحدة إدارية تم تسجيلهم.

خورمال وغرب مركز حلبچه مضافاً إليها مزرعة (ده زيايش) وهي قطعة أرض تشبه ساقاً نحيلة تمتد جنوباً بمحاذاة الضفة اليمنى من سيروان بحيث تفصل عن النهر النهاية الشرقية من وادي (قه ره داغ) في الناحية المسماة بهذا الاسم[1].

إن حلبچة هي من أملاك زعماء الجاف الكبار، وتسعة أعشار أراضي القضاء أو يزيد، هي أراض ممنوحة بالطابو[2] لمختلف أعضاء الأسرة الحاكمة ولا بد أن ثلاثة أرباع سكانها من قبائل الجاف، والجاف هم الأكراد الخلص الأقحاح، وهم بدون شك أهم وأعظم قبيلة في جنوب كردستان، وكثيراً ما يشار إليهم بكلمة «كورد» فحسب، لتدل على معنى قاصر عليهم خاص بهم يميزهم عن غيرهم من القبائل والريفيين الذين لا ينتسبون إلى قبيلة. وإن لهم أن يفخروا بعراقة أصلهم كما درجت عليه القبائل الكردية عامة، ولأنهم كانوا في مفتتح القرن السابع عشر موضوع النزاع بين الإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية على نحو ما بينا. في ذلك الزمن يظهر أن أغلبية الجاف كانت مستقرة في إقليم (جوانرو) في إيران، في حوالي منتصف الطريق بين كرمنشاه وحلبچه وإلى الجنوب الغربي من (سنه) أما اليوم فهم ينقسمون إلى ثلاث مجموعات رئيسة بحسب مواضعهم الجغرافية:

---

(1) في العام 1922 كانت هذه (الساق النحيلة) تمتد بعيداً إلى الضفة اليمنى لتضم النهاية الشرقية (سه نگاو) وجنوب هضبة (قره داغ). ويصعب استيعاب شكل الناحية، وهو مثل جيد آخر لسائر الاعتبارات القبلية على أول تنظيم إداري، إن القرى المضافة هي من أملاك ورثة محمود باشا الجاف الذي سكن حلبچه، ورتب ارتباطها الإداري ليناسب راحة مالكيها.

(2) يقضي قانون الأراضي العثماني، بعد استبعاد صنف الأراضي المسمى بالملك الصرف، أن تعود رقبة كل الأراضي الباقية إلى الدولة ويطلق عليها اسم (الميري أو الأرض الأميرية) وهي على صنفين أساسيين: الأراضي الأميرية المفوضة بالطابو والأراضي الأميرية الصرفة (أي التي لم تفوض لأحد بالطابو) ونظرياً يمكن أن ترجع للدولة الأراضي الأميرية المفوضة التي لا تستغل استغلالاً صحيحاً، إلا أنها لأسباب عملية تكون مما يمكن التصرف به، فهي تباع وتشرى وتورث بموجب قانون ميراث خاص (قانون انتقال) أوسع من قواعد الميراث الشرعية الاعتيادية التي تحكم الملكية الخاصة وقد شاع على لسان العامة تسمية (الأميرية المفوضة) باسم (أراضي الطابو) فحسب، والأراضي غير المفوضة بـ(الميري) لا غير.

المجموعة الأولى وهي الكبرى تقطن العراق غرب نهر سيروان وتعرف باسم (مرادي)، والثانية ما زالت تعرف باسم (جوانرو) والثالثة ظلت تتخذ اسم (كرمنشاه) وتتألف من سبعة بطون صغيرة انفصلت عن المجموعة الثانية في منتصف القرن التاسع عشر، وانضمت إلى الحلف الاتحادي الگوراني مع اختلافهما في المذهب[1].

إن تأريخ (الجاف المرادي) كما تحفظه الذاكرة المحلية يبدأ بفرار أو هجرة شخص يدعى (ظاهر بك) ترافقه مائة خيمة من (جوانرو) إلى (باني خيلان) الواقعة على الضفة الغربية من (سيروان) حيث تتطامن سلسلة (قره داغ) في انحدارها نحو النهر داخل أراضي البابانيين. وتاريخ هذا الحادث متفاوت حسب المصادر المختلفة. ومصدر معلوماتي الرئيس (كريم بك) وهو من أسرتها الحاكمة زودني والحق يقال بعدة تواريخ في عدة مناسبات ويقول الكتّاب الذين يحاولون تفسير الاسم (مرادي) إن حملته رحلوا إلى الأراضي التي يحتلها العثمانيون في زمن السلطان مراد الرابع (1623 - 1640)، إلا أن أدق التواريخ التي زودت بها - وأراه أقرب احتمالاً - هو العام 1186هـ/ 1772م[2] عندما كان (احمد باشا) يحك في (قه

(1) إن التبعية العامة للجنسية الإيرانية لكل أفراد المجموعتين الثانية والثالث وهي في الواقع تقليد يرجع بالأصل إلى السنوات 1821 - 1914 عندما كان نهر سيروان الحدود الفعلية لا الحدود القانونية. وقد أدى تخطيط الحدود للعام 1914 إلى جعل بعض العناصر من هاتين المجموعتين في الجانب العراقي ضمن قضاء خانقين.

(2) لم يكن هذا التأريخ المتأخر معدوم الصلة أو الارتباط بوجود النزاع في العام 1639 وما قبله ذلك لأن الحدود التي فرضها السلطان مراد الرابع بالقوة، كانت تترامى إلى الشرق بشكل أبعد بكثير من الحدود التي يمتد إليها سلطان الإدارة التركي الفعلي في أغلب العهود التالية، والمؤرخ الكردي أمين زكي في كتابه (تاريخي سليماني وولايتي، ط. بغداد 1939)، وهو أيضاً يعتمد على كريم بك، مصدراً لمعلوماته، يفضل تاريخ 1737م/ 1150هـ، أي لما كان خالد باشا الحاكم الباباني هناك. وثمة التفسير الآخر للاسم يسمعه المرء أحياناً ولا يستند إلى سبب وجيه وهو أن (الجاف) كانوا بالأصل عرباً انفصلوا عن قبيلة (المرادية) في سورية وهذا مثل لميل بعض المتدينين في كردستان للتسمي أو الانتساب إلى أصل عربي. ولا يقتصر هذا على الأسرة الحاكمة التي كثيراً ما=

لاچوالان). واستقبل (ظاهر بك) أحسن استقبال. ولكن بعد زمن من نزوحه، حمله الباشا ظلماً أو حقاً، مسؤولية تزعم وتنظيم أعمال عصابة تتألف من أربعين قاطع طريق، كانت تقوم بأعمال الشقاوة في منطقة قريبة واعتقله رهينة حتى يستسلموا. فما كان من ابنه (قادر بك) إلا وألقى القبض على أولئك الشقاة وقتلهم، إلا أن عمله هذا جاء متأخراً في إنقاذ أبيه، لأن الحكم البابانى القليل الصبر أنفذ فيه حكم الموت. وإلى يومنا هذا ما زال يطلق اسم (گورى كورگه ل = مقبرة الفتيان) على موضع قتل هؤلاء الأربعين وهو قريب من (باني خيلان)، وما زال قبر (ظاهر بك) قائماً على مقربة من منطقة دزيايش وهي المنطقة التي وهبت لقادر بك تعويضاً عن الظلم الذي نزل به ويتألف نسله من أسرة الجاف مرادي الحاكمة المعروفة بلقب (بگزادة). لقد شجع كرم الباشا بيوتاً كثيرة للنزوح إلى المنطقة ازداد عددها بمرور الزمن حتى أصبح المرادي قوة مهابة الجانب في الأنحاء، ويقدر عددهم بعشرة آلاف خيمة.

كانت (شهرزور) قبل مجيء (ظاهر بك) موطناً لبضع عشرة قبيلة ذكرنا معظمها سالفاً، أو سنذكرها فيما يتلو. ومنها (جلالي، وشيخ إسماعيلي، وبيسه رى، وچوچاني، وقويلاي، وإسماعيل عوزيري، وشينكي، وكافروشي، وبلباس، وكلهور وتيله كو وگه لباخى، ومه ندمي، يقرأ مه نمي). والمزعوم أن القبائل الأربع الأولى من الجاف قدموا من هجرة تسبق الهجرة الثانية بخمسين عاماً. إن بطون القبائل التي امتهنت الرعي منها اعتادت قضاء الشتاء في جنوب (قره داغ)، بـ(سه نگاو، وگل) وقضاء الصيف في المنطقة الجبلية الإيرانية الكائنة بين (سنه) و(سه قز).

وبزيادة عدد قطعان هؤلاء القادمين الجدد، بدأوا يتبعون أسلافهم في الهجرة

=تدعي انحدارها من عترة النبي (أي أنهم سادة) بل قد يتعدى ذلك إلى عموم القبيلة. ولا شك أن هذا يعود إلى مكانة العرب. سواء في ذلك أكانوا فاتحين في القرون الوسيطة أو أولئك القوم الذين خرج منهم رسول الله محمد بن عبد الله. إن هذا لا يستقيم أبداً مع ما هو معروف عن قبائل الجاف.

فيرحلون شمالاً أثناء الصيف، إلا أنهم كانوا يحافظون على مسافة كبيرة فيما بينهم تصل إلى پنجوين وكانوا أيضاً يسبقون أولئك بالعودة، عند قدوم الخريف، وتكونت لقادر بك عقدة نقص متأتية من شعوره بالضعف إزاء غيره، فقد اتخذ ذريعة للقتال، وذلك بأن صار يتبجح قائلاً إنه سمى كلبه باسم (شيره) نسبة إلى (شير آغا) شيخ الجلالي فأجابه الجلاليون بقطع ذنب كلب يملكه أحد أقرباء قادر بك في حين أدى مقتل رجل إلى إذكاء نار الحقد والعداء المستحكم بشكل تلقائي ووجب الأخذ بثأر القتيل كالعادة المتبعة. والظاهر عند الكرد والعرب على حد سواء - أن القتل العمد أو تشويه حيوان أليف كثيراً ما يعتبر عاراً كبيراً لا يمكن غسله إلا بحرب مباشرة. وهكذا نال قادر بك الذريعة المطلوبة وشن حرباً على الشهرزوريين في (حسن شهيد = شهيدان) بالقرب من رأس نهر (شلير) فقتل منهم أربعمائة وشتت شمل الباقين ومن الائتلاف المنهزم خضع (الجلاليون) وانضموا إلى (المرادي) بطناً أكبر رابعاً. غير أنهم ظلوا يحافظون على أسرتهم الحاكمة. وأعضاؤها يلصقون لقب الآغا بأسمائهم ويظهرون الاحترام والإخلاص للبگزاده، وليس هذا من طبع شيخ القبيلة. واستوطنوا (شيخ إسماعيلي)[1] في ست قرى على سفوح الجبال المتاخمة لشهرزور الشمالية ولم يقطعوا رحلاتهم الصيفية مع الجاف إلى إيران. وقد وصفنا في الفصل الثامن موطن (بيسه ري وچوچاني وقويلاي) وعاداتهم. أما (إسماعيل عوزيرى) فقد استوطنوا في أقصى الغرب بالقرب من سرچنار وسورداش وبازيان وقه لا سيوكه. وانتقل الشينكي والكافروشي إلى بازيان حيث ظلوا في حمى (الهه ماوند) وتفرق (البلباس) إلى قرى مترامية حتى قرية بالقرب من جبل حمرين و(قاينه جه) في شمال خورمال، ولعل بعض الكلهور قد هربوا ملتحقين بالقسم الأكبر من تلك القبيلة التي تستوطن الآن جنوب طريق خانقين - كرمنشاه في إيران. إلا أن (150) خيمة انضمت إلى بطن (ته رخاني) من

(1) انظر تعليق كليمان على قبح وجوه أفراد الشيخ إسماعيلي المستديرة الذين لقبهم في (باربه ر). في حين تراه يلهج بجمال وجوه سكان (سيوه يل العليا) البيضية.

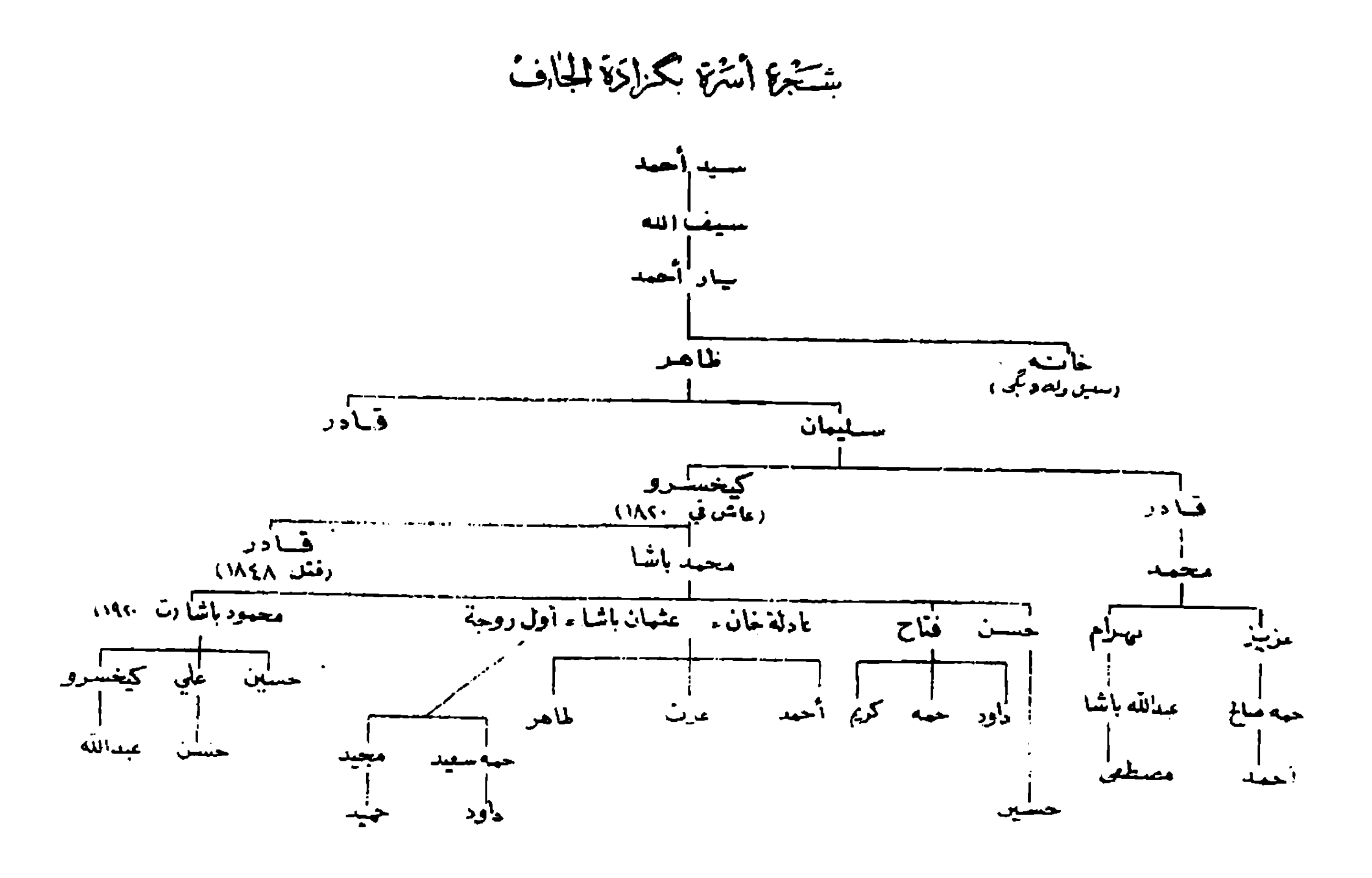
الجاف. كذلك فر (الگه لباصي) وال(مه نمي) إلى إقليم (سنة - سه قز). لكن ما زال ثمة فئة قليلة من ال(مه نمي) في قريتي سورداش وبازيان[1] وانتقل بعض (التيله كو) ليستقر في (خور خوره) جنوب شرقي (سه قز) إلا أن بعضهم اندمجوا في (الميكائيلى وروغزادى) وهما بطنان في الجاف.

وبتتابع السنين صار البگزادة أصحاب الطابو، بحكم حق الفتح والهبة وعن طريق الشراء، في مزارع واسعة تمتد من قزلرباط وراء جبل حمرين جنوباً حتى پنجوين شمالاً، ويذكر حفيد من أحفاد (ظاهر بك) الأوائل واسمه قادر بك أيضاً (قتل في العام 1848)، يذكر زعيماً بارزاً ثبت مركز الجاف في الجنوب بطرده القبائل المستوطنة قبلهم وهي (گيژ رروژ بباني وزند) من منطقتي (سه رقه لا) وشيروانه شرق كفري.

وفي شجرة الأسرة هنا، حاولت إعادة تنسيق خط السلالة العصبية مستعيناً بمذكراتي وملاحظاتي الخاصة وغيرها من المصادر التي لا تتيسر دائماً، والقصد منها إظهار العلاقة التي تربط البگزادة العظام الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب بعضهم ببعض. إن الجد الأعلى الذي يذكره البگزادة كافة، ويعتبرونه منشئ أسرتهم هو السيد أحمد ابن حفيد (ظاهر بك) الذي يبدو أنه من رجال منتصف القرن السادس عشر وهو أيضاً (سيد)، كما درج الكثير من الأسر الحاكمة في القبائل الكردية على ادعاء انتسابهم إلى سلالة النبوة. وترانا نميل إلى الافتراض إن (السيد) استوطن ديار الجاف شيخاً صوفياً، واستخدم نفوذه الديني كالعادة لإزاحة الأسرة الحاكمة الكردية التي عاصرته. ويوجد في زمننا هذا فرعان متوازيان للأسرة

---

(1) إن البلباس هو حلف قبلي كبير (انظر الفصل الخامس عشر) وقد أعلمني بابكر آغا البشدري أن بلباس (شهرزور) كانوا بالأصل (سن) و(ره مك) وهما البطنان اللذان زودا نادر شاه (1737 - 1747) بأشجع خيالته وأبسلهم. وقد طردهم (سليم بابان 1743 - 1757). ويذكر (ريج) في يومياته الخاصة بحلبچة (ج1 ص183) قوله «إن الخيام التي نراها الآن على مقربة من السهل المجاور تعود إلى (الجلالي) و(الكلهور) وبعض أجزاء من قبائل أخرى. وهم الآن في موسم نزولهم من الجبال، وليسوا من الجاف الأصليين.


شجرة أسرة بكزادة الجاف
سيد أحمد
سيف الله
يار أحمد
طاهر
خانه
قادر
سليمان
كيخسرو
(عاش في ١٨٢٠)
قادر
قادر
(قتل ١٨٤٨)
محمد باشا
محمد
محمود باشا (ت ١٩٢٠)
عثمان باشا = أول زوجة
عادلة خانم =
حسن
فتاح
بهرام
عزيز
حسين
علي
كيخسرو
طاهر
عزت
أحمد
كريم
حمه
داود
عبدالله باشا
حمه صالح
عبدالله
حسن
مجيد
حمه سعيد
مصطفى
أحمد
حميد
داود
حسين

في العراق: إذ يبدو أن (قادر بك) المنتصر في (حسن شهيد) لم يعقب، إلا أن أخاه سليمان أنجب ولدين، وهما (كيخسرو، وقادر)، ولذلك عرف أول الفرعين باسم (كيخسرو بگي) نسبة إلى اسم الابن الأول. أما الثاني فعرف باسم (بهرام بگي) نسبة إلى الحفيد الأول للابن الثاني[1].

وفي عهد احتلالنا كان (الجاف) نموذج القبيلة الكردية ذات الطابع القديم لها أسرة أرستقراطية حاكمة من جهة، ولها من جهة عدد من البطون من الطبقة الفلاحية وكل بطن مجزأ إلى عشائر، وكل عشيرة فلاحية لها رئيس يدعى كويخا (بالفارسية: كتخدا) وبعض هذه العشائر استوطن منذ زمن بعيد وأصبح مزارعاً خالصاً. أما بعضها الآخر فيغلب عليه طابع البداوة. وفي السنوات الأخيرة أخذ هؤلاء يستقرون شيئاً فشيئاً. ولكن العوامل ظلت ولم تتغير، رجل يخسر قطعان ماشيته بسبب آفة طبيعية أو حرب عشائرية أو لإجراء حكومي معين، فيضطر إلى التحول إلى الأرض ليقيم أوده بالزراعة، ولكن ما أن يقبل عليه الحظ - وإن اقتضاه الكدح عدة سنين - حتى يقرر العودة إلى حياة البداوة. إن أكبر عامل للاستقرار في الأرض هو تدخل الإدارة في العادات التقليدية العتيقة.

ومن جمهرة (المرادي) تعتبر الأفخاذ الاثنتي عشرة التالية، بدوية (إن الإرقام المحصورة بين قوسين تدل على عدد الخيم التي ما زالت تقوم بالهجرة السنوية

---

(1) إن كثرة التسمية باسم (قادر) طالما توقع المرء في حيرة وخلط. ولا أستطيع أن أؤكد حتى كتابة السطور بأني جمعت كل الارتباطات وصلات النسب بشكل منزه عن الخطأ. فثمة في إيران فرع ثالث للأسرة يعرف بلقب (وله د به گي = أولاد بگي) يقال إنه ينحدر من (خانه بگك) أخ (طاهر بك). إن السيد عباس العزاوي الذي تكرم عليّ بإرسال نسخة من كتابه (العشائر الكردية في العراق = ط. بغداد 1947) يثبت فيه أن (السيد أحمد) هو حفيد (بير خدر شاهو) المشهور. الذي قيل إنه عاش في أثناء حكم الشاه عباس الكبير 1587 - 1629. (انظر آخر الفصل السادس). وليس ما هو غير محتمل في هذا الشأن. إلا أن هذا الزعم لم يذكره لي أي فرد من أسرة (كيخسرو بگي) إلا أني سمعته من أفراد الفرع (باوه جان) لـ(وه له د به گي) كذلك سمعته من عشيرة (ئيناخي) الصغيرة التي ورد ذكرها في الفصل الثالث عشر والمقول أن بيوتها كلها من أصل بگزادة.

التقليدية كما قدرت تقديراً في عام 1922): ميكائيلي (1100) (شه حتري) (1000) جلالي (1000) روغزادي (750) (ته رخاني) (500) هاروونى (400) (كه ماله يي) (200) أمالا (150) (سه ده ني) (150)، (به ده خي) (80) (يارو ه يس) (70)[1].

وفي يومنا هذا - يسود اعتقاد بأن عدد البدو يكاد يساوي عدد من انفصل عن الأفخاذ البدوية واستقر في الأرض، فيكون المجموع العام (5400) خيمة مجموعاً مناسباً للغاية، لمضاهاته بالمجموع العام البالغ «10000» أسرة، وهو العدد الذي يذكر عموماً للجاف المرادي[2] وأما عن ديار الأفخاذ الست الكبرى في مخيماتهم الشتوية من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، فهي كما يلي: الميكائيلي في (سه نگاو) من نهر (باسه ره) إلى نهر (ئاوسبى)، الروغزادي والترخاني في طيات أرض وعرة متعادية إلى الجنوب الشرقي من (آوه سبي). الهاروونى على نهر سيروان بالقرب من (پيواز). الشاتري جنوب ديار روغزادي وهارونني. وفي الجلالي شرق كفري وجنوبها.

---

(1) معظم هذه الأفخاذ مقسم إلى أقسام معترف بها، ويحتل بعضها مكاناً أبرز من مكان الأفخاذ توضح الأقسام الفرعية للأفخاذ الست المعترف بها:
- ميكائيلي: حمه علي ويسي، آلاى بكي، ره شه بورى، شوانكاره. وأقسام أخرى مستوطنة.
- شاتري: مير ويسي، ورده شاتري، يوسف جاني، برايم.
- جلالي: بكزادة، بوره، خدرويسي، بشده ري، ساركاج، كاراماواني.
- روغزادي: حمه جان، اسمايعلي، روغزاد، شيخ علي ويسي، سارهاد.
- تارخاني: آليق، قادر حسن علي، قاچول.
- هاروونى: سليم نادر شاهي، قرماني، هاروونى.

(2) خلال تثبيت حدود العام 1914 لم تثر قضية حقوق الجاف في المرعى الصيفي الإيراني لدعم أي مطلب إقليمي لأي فريق من طرفي النزاع. لذلك لم يذكر شيء في أعمال اللجنة التحضيرية وفي العام 1931 أنكرت الحكومة الإيرانية حق الجاف في عبور الحدود إنكاراً باتاً. ومنذ ذلك الحين استمرت في منعهم. وأخيراً قطعت الهجرة قطعاً باتاً. فاضطر البدو الجاف إلى قضاء الصيف في سهول (شهرزور) وكان معدل ما نفق من الأغنام ومات من الأطفال، عاملاً هاماً في التعجيل بالاستقرار، وتطليق حياة البداوة إلى الأبد.

والهجرة الموسمية شمالاً تتبع جبهة مماثلة: فلعبور (قره داغ) يستخدم شعب (سه گرمه وپه يكولى) ومضيق (باني خيلان) عند نهر سيروان. ولعبور سلسلة (به رانان) يستخدم مضيق (به رانان) الرئيس جنوب السليمانية، وشعب (گه وره قه لا) و(په شره)، بمواجهة (په يكولى)، ومضيق (ده ربه ندي خان = دربندي خان) على نهر سيروان، وينتقل الميكائيلي على طريق شعب (سه گرمه وبه رانان) و(عه ربه ت) الذي هو في وادي (تانجه رو)، وشعب (سه ر كه لي) پيشان فوق عقدة جبال (ئه زمر) ويجتازون (شارباژير). أما على مقربة من (هه رميلا) غرب (كوره كاژاو) أو على مقرب من برزنجة (وحاجي مامند) إلى الشرق منها. وأخيراً تحتويهم مراعيهم الصيفية الكائنة شرق (بانه) في إيران، بعد عبورهم وديان (كاني ديزان) و(كوتره ره ش) مما يلي الطرف الشمالي من نتوء (شلير). أما الباقون فيلتقون جميعاً في (كه ولوس) على نقطة من نتوء سهل في أعلى شهرزور يتجه إلى پنجوين شرق جبال (سه روچكك) ثم يتجه الروغزادي والترخاني عن طريق (په يكولى وگه وره قه لا، ومران) في شهرزور، ويتخذ (الجلالي) طريق (په يكولى) و(به شرى) ثم يندفعون إلى أمام بطريق ينحرف قليلاً عن الروغزادي نحو الشرق ويسلك نصف (الشاتري) طريق الروغزادي. وينضم نصفهم إلى الآخر إلى الهاروني في رحلتهم على طريق مضيقي (باني خيلان وده ربه ندي خان) إلى جسر (تووه قوت) فوق نهر (تانجه رو) ويقع على مسافة سبعة أو ثمانية أميال إلى الشمال الشرقي من ملتقى نهر سيروان ومنها إلى الشمال عبر (خورمال). ومن (كه ولوس) يجتازون السفح النهري بأحد الشعاب الثلاثة (كاني سپيكه) أو (نالپاريز) أو (ته راته وه ن) فتفضي بهم إلى سهل قزلجة، ومنه ينطلقون عبر أسفين (شلير) إلى إيران من شعب (ناوخون) على الحدود، ما عدا الهاروني الذين يرافقون الحدود بالقرب من پنجوين. أما عن الأقسام الصغرى فإن الكمالاي يرافقون الميكائيلي، أما ئامالا، و(به دخي) و(س ده ني) فإنها ترافق الهاروني. وما أن تجتاز كتلة القبيلة الحدود حتى تنتشر مرة أخرى على شكل قوس يحيط بهضبة (چل چه شمه = العيون الأربعون) العظيمة التي ترتفع زهاء (10400) قدم فيضرب الميكائيلي

خيامهم قرب (بانه) وينزل الروغزادي إلى شرقهم في (خور خوره) ويمتدون إلى مضارب الهاروني في الجبال الواقعة شرق (مه ريوان)[1]. وتكون (قره تبه) الحد الأقصى لمضارب المرادي الشتوية (جلالي) وبهذا يكون طول رحلتهم السنوية حوالي 140 ميلاً في كل طريق.

وتقع قرى الجماعات المستقلة من الأفخاذ البدوية بالقرب من أراضي المخيم الشتوي، وعلى جانبي خط الرحلة السنوي. وقد اعتاد البدو ترك خيامهم الشتوية الواسعة ومتاعهم الثقيل وديعة عند إخوانهم الريفيين فلا يأخذون معهم إلا الخيام الصغيرة لاستخدامها في الرحلة وفي مضارب الجبال. وللكثير من الرؤساء الأغنياء قرى في إيران ملوكها عن طريق الشراء أو بوسيلة أخرى. والظاهر أن الجلالي يفضلون إيران على العراق بنوع خاص.

وبطبيعة الحال فإن ثروة الجاف هي مواشيهم. وقد احتفظت بقائمة مفصلة لعدد رؤوس ماشية الهاروني في العام 1922. ويبلغ المجموع الكلي (10,000) رأس غنم وقد سجلت ملاحظة تشير إلى أن مجموع كل ما يملكه الجاف يبلغ (125,000) رأس غنم. لا يدخل فيه عدد الحملان التي لا يزيد عمرها عن سنة واحدة. ومن المعتاد أن يسقط عدد لا يستهان به من الإحصاء الرسمي الذي يتم بتعاون الحكومة مع الرؤساء على إجرائه. ورجال القبيلة أساتذة في إخفاء الحيوانات في خوانق وكهوف المنطقة الجنوبية الوعرة. لذلك فالعدد الحقيقي هو أكثر بكثير مما تذكره القوائم الرسمية. والأسرة تملك خلاف الأغنام، خيولاً وثيراناً للركوب والحمل.

وأهم الأفخاذ القبلية المستوطنة نهائياً، هي فخذ (نه ورولى) (بقسميها ده شت، وپارچه) وتعد (600) أسرة موزعة على (16) قرية بالقرب من حلبچة

---

(1) يضرب إسماعيلي عوزيري خيامهم شمال غرب ميكائيلي أعني أقرب إلى (بانه).

نفسها، وفخذ (يزدان بخشي) بقراها الثماني في مثلث (شميران)[1]. وكلتاهما من وادي البدو أصلاً.

وكان آخر الزعماء العظام الذين مارسوا سلطاناً حقيقياً على كل قبيلة الجاف هو (محمد باشا) وبعد وفاته ظل (محمود باشا) أحد أولاده (المتوفى 1920) يرحل مع البدو. في حين استقر ابنه الثاني عثمان باشا (زوج عادلة) المتوفى 1909 في حلبچة متقلداً رتبة قائمقام القضاء التركية. أما أبناؤه الأربعة الباقون فقد نشأوا كلهم في مزرعته. ويلوم (البگزادة) محموداً لطمعه الذي جعله يتخلى عن جمهرة رجال القبيلة فضلاً عن أخوته وأبناء عمومته. وبهذا فكك وحدة الجاف. في العام 1919 كان البگزادة قد فقدوا كل سلطان لهم على البدو الجاف الذي ما زال عددهم ضخماً، ما عدا قدرتهم على أن يكونوا موظفي حكومة، على أنهم ظلوا ذوي نفوذ بوصفهم ملاكين، محترمين بسبب عراقة أصلهم.

ومن الرحالة الأولين (ريچ) يذكر أن (كيخسرو بگي) زعيم الجاف كان قائماً على خدمة الباشا في السليمانية، وأنه قام بأداء زيارة له في مضربه الصيفي في (مه ريوان) ومعه أبنائه الثلاثة (لم يسمهم) وابن أخ له واحد اسمه (محمد بك) ابن سلفه (قادر) وقدر قوة القبيلة الحربية بأربعة آلاف (تفه نكچي) وألفي فارس. وفي أنحاء (بانه) شكاوى مرة في أعمال السلب والنهب التي قام بها الجاف إزاء وجودهم هناك. ويذكر (فريزر) الجاف عندما يقص حكايته ذات الصراحة الحسنة عن (لهه ماوه ند) ويقول (فيلكس جونز) إن الطريق بين خانقين وقصر شيرين «مكتظ بعصابات النهب والسلب من قبائل الجاف و(الهه ماوه ند) بحيث ما عاد السفر مأموناً دون حراسة» وأن (راولنسن) قد حظي برفقة كوكبة من فرسان الجاف

---

(1) هناك أفخاذ أخرى مستوطنة أو شبه بدوية، تدخل عادة ضمن قوائم الجاف مرادي وهي: بيش مالا (كانت سابقاً بطانة الزعيم الأكبر المباشرة) مسعودي في بنجوين، ليسائى بين شاتري. وبخصوص مجموعة أخرى من القبائل الصغيرة فهي تعتبر أحياناً من الجاف إلا أنها لا تنتسب إلى المرادي (انظر الفصل الثالث عشر).

بقيادة زعيم قبيلتهم (محمود بك - ولعله يقصد محمد) بضعة أميال من الطريق قرب (سه رپيل زوهاب). وقال (هوبارد) عنهم «إنهم مصدر الرعب في كل المنطقة، عندما يمرون بها مع قطعانهم، فينهبون ويسلبون كلما سنحت لهم الفرصة».

وألذ صحائف كتاب (صون) ربما هي التي أتت إلى وصف أيامه في حلبچة. فقد قصد «حال وصوله» منزل (طاهر بك) ابن (عادلة خان)[1] الأكبر جرياً على العادة المتبعة، وقدم نفسه إليه، بوصفه كاتباً وتاجراً إيرانياً. وبأمر من (عادلة) خصصت له الغرفة العليا من منزل (طاهر بك)، على أنه تركها ونزل إلى غرفة في الطابق الأرضي ضمن جناح (السيدة) نفسها وأصبح بالتدريج سكرتيرها الإيراني. وكان (طاهر بك) شاعراً على بعض الشهرة، وإني لا أستطيع أن أغفل اقتباس ترجمة وردت عنه في مقدمة ديوان صغير جمعت فيه قصائد لطاهر بك طبع في السليمانية في 1936، وإليك ما جاء عن (صون) فيها:

«طاهر بك، شاعر معروف مشهور رقيق اللفظ، رشيقه، وهو ابن عثمان باشا بن محمد باشا الجاف. إن أسرة بگزادة الجاف وذريتهم تعد من أمراء الكرد ورجالهم البارزين المشهورين. وكانوا إلى ما قبل (150) سنة يتزعمون قبيلة الجاف ثم جاؤوا إلى (شهرزور) بإلحاح من الدولة البابانية. وظلوا يتولون زعامة الجاف منذ عهود الحكومة البابانية حتى تأسيس الحكومة العراقية».

ولد طاهر بك في 1295هـ/ 1878م، ووافاه الأجل في 1337هـ/ 1918م في مدينة السليمانية إلاّ أن جثمانه نقل إلى حلبچة ودفن في قرية (عه با به يلى) وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى اسم أحد الصحابة وتبعد مسيرة ساعة واحدة الخيل عن حلبچة. ولم يتلق (طاهر) علومه في مدرسة كبيرة أو عالية بل تخرج في

---

(1) وقع (صون) في خطأ عجيب عندما ذكر أنه ابن ضرة عادلة (هنالك ابن ضرة فعلاً وهو مجيد) إلا أن طاهر هو أكبر أولادها الثلاثة.

مدرسة القرية. ومع هذا فإن معلوماته العامة وسعة عقله وإدراكه لا تأتلف قط مع تحصيله المدرسي، بل تفوقها عشرة أضعاف.

ونظم (طاهر بك) بأربع لغات هي الكردية والفارسية والتركية والعربية وألف بين مفردات هذه اللغات تأليفاً لطيفاً في شعر موزون مقفى. ولقد بذلنا جهداً عظيماً وركبنا الأهوال لعلنا نعثر على هذا الديوان النادر فلم نستطع لسوء الحظ وكل ما حصلنا عليه هو هذه المقطوعات. والفضل في هذا يعود إلى (ناهدة خانم) التي بعثت بها إلينا. وإننا نرجو ممن يحتفظ بآثار أدبية لهذا الشاعر أن يبعث بها إلينا لتضمينها الطبعة الثانية.

وليس أدل على حكمة (طاهر بك) وذكائه، أنه قبل اندلاع الحرب العظمى بخمسة عشر عاماً (هكذا ورد في الأصل) وفي عهد العثمانيين، قدم الميجر (صون) المشهور في رحلة له إلى كردستان العراق، وبعد سنوات، قصد منزل عثمان باشا والد طاهر بك في حلبچة ودخل في خدمته ستة أشهر أو سبعة، وسمى نفسه (غلام حسين). وقام (غلام حسين) أي الميجر صون بواجب الخدمة خير قيام وكان (طاهر بك) يعامله بأعظم احترام لحسن خدمته، ويوده كثيراً، وقد داخل طاهر بك بعض الشكوك من مسلك الخادم الشاذ عن الآخرين، فقد كان مؤدباً ورزيناً للغاية. وفي ذات يوم كان (طاهر بك) يتصفح كتاباً فرنسياً فقال له (غلام حسين = ميجر صون): «لعل مولاي يفهم الفرنسية». فأجاب (طاهر بك): «بلى أعرف القليل، وأنت؟ هل تلم بشيء منها؟» فأجابه: «بلى، فإني قضيت في إيران ست أو سبع سنوات كنت خادماً لرجل فرنسي وتعلمت منه القليل».

وعندما أطلع (طاهر بك) على هذه الحقيقة صار يكلمه بالفرنسية في كل أمر خصوصي. وفي أحد الأيام كانا يتبادلان الحديث بها، فزل لسان (غلام حسين = مجير صون) بلفظة «كلا = No» (النص يثبتها Neu بدلاً من لفظة Na - نا الكردية)، فأدركت (طاهر) حيرة من هذا واستنتج أن هذا الرجل المسمى (غلام حسين) هو إنكليزي لأن كلمة Neu هي المرادف اللغوي الإنكليزي للفظة «Na = نا» الكردية.

وعندها توجه طاهر بك بالكلام إلى غلام حسين قائلاً: «ما اسمك؟».

غلام حسين: نفسي فداك ماذا تعني بالسؤال عن اسمي؟ إنه ما تدعوني به.

طاهر بك: كلا، فقد غيرت اسمك، أنت إنكليزي!

غلام حسين: وكيف عرفت؟

طاهر بك: هذا واضح من لفظك.

غلام حسين: صدقت أنا إنكليزي واسمي هو ميجر (كذا!) صون ولي بضع سنين أتجول في إيران والعراق وتركيا.

ولما تحقق طاهر بك من هذا طلب منه أن يرحل عن حلبچة لئلا تفتك به الحكومة. فرحل الميجر صون، وألف كتاب رحلات، مدح فيه ذكاء طاهر بك ورجاحة عقله مدحاً كثيراً.

وفي كتاب (صون) هذا لا نجد شيئاً عن موضوع اكتشاف طاهر بك هويته. وأما عن الرغبة في إبعاده فهو يخالف هذه القصة إذ يقول إنهم ولا سيما «عادلة» كانوا يرغبون في بقائه ليعلم اللغة الفارسية ولديها الصغيرين. ووضعوا كل عقبة مقصودة في طريقه عندما أزف وقت رحيله. على أنه لم ينج نهائياً من المواقف المحرجة فأول أسباب قلقه من اكتشاف أمره - كان متمثلاً بشخص يدعى (أمين أفندي) وهو مسيحي من أصل ألماني أشهر إسلامه وكان بمثابة مشاور طبي قضى - رغم إيرانيته - عدة سنوات في أوروبا كما يقول. وبذلك سيفضح دجله وشعبذته. فراح أمين أفندي يزرع بذور الشك في رأس (طاهر بك) ولكن يبدو أن السعاية به كانت موجهة بدوافع الأجنبي ومخاوفه، لا بدافع جنسية (صون) ودينه، وأما ثاني الأسباب فنجم عن قدوم شخص إلى المنطقة يطلق على نفسه لقب «شيخ اسلام سنه»، كان هذا قد التقى بـ(صون) في استنبول واطلع على حقيقة جنسيته الإنكليزية، فراح هنا يلاحقه ملاحقة شديدة قاسية في (بياره) بقصد إزاحته. إن الشيخ الذي أبى في أول مقابلة له مع (صون) متخذاً من ذلك ذريعة لإبعاده. وفعلاً قام الشيخ بعد عودة (صون) إلى السليمانية بزيارة حلبچة وأقام الدنيا وأقعدها في

ديوان السيدة عادلة اليومي متهماً (صون) بالزيف والنصرانية. على أن (حمه) خادم (صون) الذي كان موجوداً في المجلس يروي أن السيدة وابنها دافعا عن مولاه بشدة مستشهدين بلهجته الشيرازية الصحيحة، وبأنهما رأياه رأي العين يؤدي فريضة الصلاة.

ويقول (صون) إن الشخص الوحيد الذي اهتدى إلى حقيقته هو نصراني موصلي آخاه في السليمانية، وقد صارحه (صون) بحقيقة أمره في كركوك وهما يهمان بالسفر إلى بغداد وقد سألت عادلة خان مرة، هل داخلها أي شك في حقيقة (صون) لما كان في منزلها فأجابتني: بلا شك. وأذكر أن ابني طاهر جاءني فعلاً في أحد الأيام وصارحني أنه يشك في كون غلام حسين، شخصاً أوروبياً فأجبته أنه ضيفنا وليس من الأدب أن نتجسس عليه فيما لا يهمنا. ولعلها بعد الحادثة أصبحت حذرة متوجسة أو ربما لم تقم وزناً للموضوع، على أن هذه الشهادة من الجانب الكردي يؤيد مهارة (صون) في تنكره العظيم. حتى أن ذكاء طاهر بك المتفوق لا يدّعي بأكثر من تمكنه من كشف الحقيقة بعد مرور ستة أشهر أو سبعة من تخفي (صون) المستمر تحت عباءة (غلام حسين).

والقبيلة الأخرى التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ أحداث حلبچة السياسية هي قبيلة (هه ورامي) أو (الهه ورامي) (الاسم الرسمي لها في إيران أوراماني) وتسكن طرفي السلسلة الجبلية العظمى. ويعرف ذلك القطاع باسمها. وهي تؤلف نتوء يتكلم اللهجة (الگورانية) داخلاً بين سكان السليمانية وسكان أردلان وكلاهما يتكلمان (الكردي) وتنقسم إلى بطنين رئيسين هما (طون) و«تخت» والبطن الأخير ينقسم إلى: (حسن ساني[1] وبهرام بگی ومصطفى ساني) وهي نسبة إلى الأجداد الأعلين لكل أسرة حاكمة فيها.

---

(1) (سان) اختصار كلمة (سلطان). وهو لقب يمنح لزعماء على درجة معينة في النظام الإقطاعي الصفوي.

إن القرى الثماني عشرة لديار «طون» الأصيلة تتجمع في منطقة واحدة تشبه الزاوية تحدها جبال «هه ورمان» من الشمال الشرقي. ونهر سيروان من الجنوب. إن الحدود الدولية تتطامن نازلة من قمة في أقصى الشمال بالقرب من قرية «بيدرواز». ويمضي خط الحدود شديد التعرج والالتواء مثلما ثبتته لجنة 1914، لجعل كل هذه القرى في الجانب الإيراني (ويذكر أن هذا هو القطاع الذي ثبتت فيه التغيرات الحاصلة في العام 1905، على أسس الوضع الثابت للعام 1848). لقد كانت العلاقات بين «طون» وحاميات الحدود العثمانية على أسوأ ما تكون قبل 1914 ببضع سنوات ووصلت أوجها في حادثة تدمير قرية «نودشه» حرقاً وهي أكبر قرى الرئيس جعفر سلطان ومحل إقامته، فرد اللهونيون على ذلك بمضاعفة غاراتهم على الحدود. ثم إن النفوذ التركي ضعف هناك بسبب الحربين الإيطالية والبلقانية، وانشغال السلطات التركية في أمور داخلية أخرى. حتى اضطر أهالي «ته ويله» المجدون المحبون للسلام إلى شراء حريتها وخلاصها من الاعتداءات بدعوة (قادر بك) بن جعفر سلطان للنزول فيها والعيش مع أهليها (ته ويله هي قرية كبيرة تقع على خط الحدود تماماً كأختها بياره)[1] وفي إمكاننا التنبؤ بنتائج هذه الدعوة الثقيلة. فبعد أن نال الضيف منزلاً، أعطي بستاناً، وبعد البستان وضع يده ظلماً وعدواناً على الحمام العمومية، وأخذت مساحات بساتينه تزيد شيئاً فشيئاً. وانتهز أفراد آخرون من الأسرة انهيار السلطة العثمانية التام خلال الحرب الكونية فاستقروا في ست عشرة قرية من قرى الجانب العراقي ومعظمها ملك مسجل لمختلف أفراد بگزادة الجاف مع أن لغة قروييها هي (الگورانية) كلغة قبيلة (هه ورمان) الأصلية. وهذا يشبه ما فعلوا بإيران في مختلف الأزمنة حيث كانوا ينتهزون فرصة ضعف الحكومة هناك ليبسطوا يدهم على عدد من القرى في منطقة (پاوه) إلى الجنوب الشرقي، إن بعض هذه القرى يتكلم اللهجة الگورانية.

وإلى شمال مجموعة قرى (لهون) في الجانب العراقي توجد أربع قرى يقطنها

(1) في تشرين الثاني 1957 تم طرد قادر بك من (ته ويلة). (المترجم).

قسم (البهرام بگى)، وإلى شمال هذه يوجد ثماني قرى أخرى يقطنها «حسن ساني» وهذان القسمان يشغلان حوالي أربع عشرة قرية أخرى داخل الحدود الإيرانية، وليس هناك خط فاصل بينهما، والقرية الكبرى من المجموعة العراقية هي المسماة «دزلي» والمجموعة الأخرى هي «شاري هه ورمان» وقد جاء ذكرها في معاهدة «زهاب»، و«مصطفى ساني» بقراها الأصلية الأربع عشرة وبمركزها (رزاو) إلى الشرق، لا يوجد لديها أملاك في العراق. وفي فترة ضعف إيران مدت كل هذه البطون أطرافها نحو الشرق حتى أن «مصطفى ساني» وضعوا أيديهم على ما لا يقل عن (40) قرية في منطقة «رزاو» في أعلى مياه سيروان جنوب غرب (سنه).

وخلافاً لكثير من الأسر الحاكمة لقبائل كردستان، ترى بگزادة (الهه ورمان) لا يحاولون إيجاد صلة نسب لهم بفرع النبوة، إنما قنعوا بجد أعلى اسمه «طه مراد» وهو أمير أسطوري للأسرة الكيانية المالكية في إيران، عين بعد وفاة اسكندر بك (الاسكندر الكبير) حاكماً على (هه ورمان)، بفضل (بهمن بن طارد اسفنديار) (كذا!)[1]، ويدعون أن الملك بقي في يد الأسرة إلى يومنا هذا بانقطاع قصير في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

---

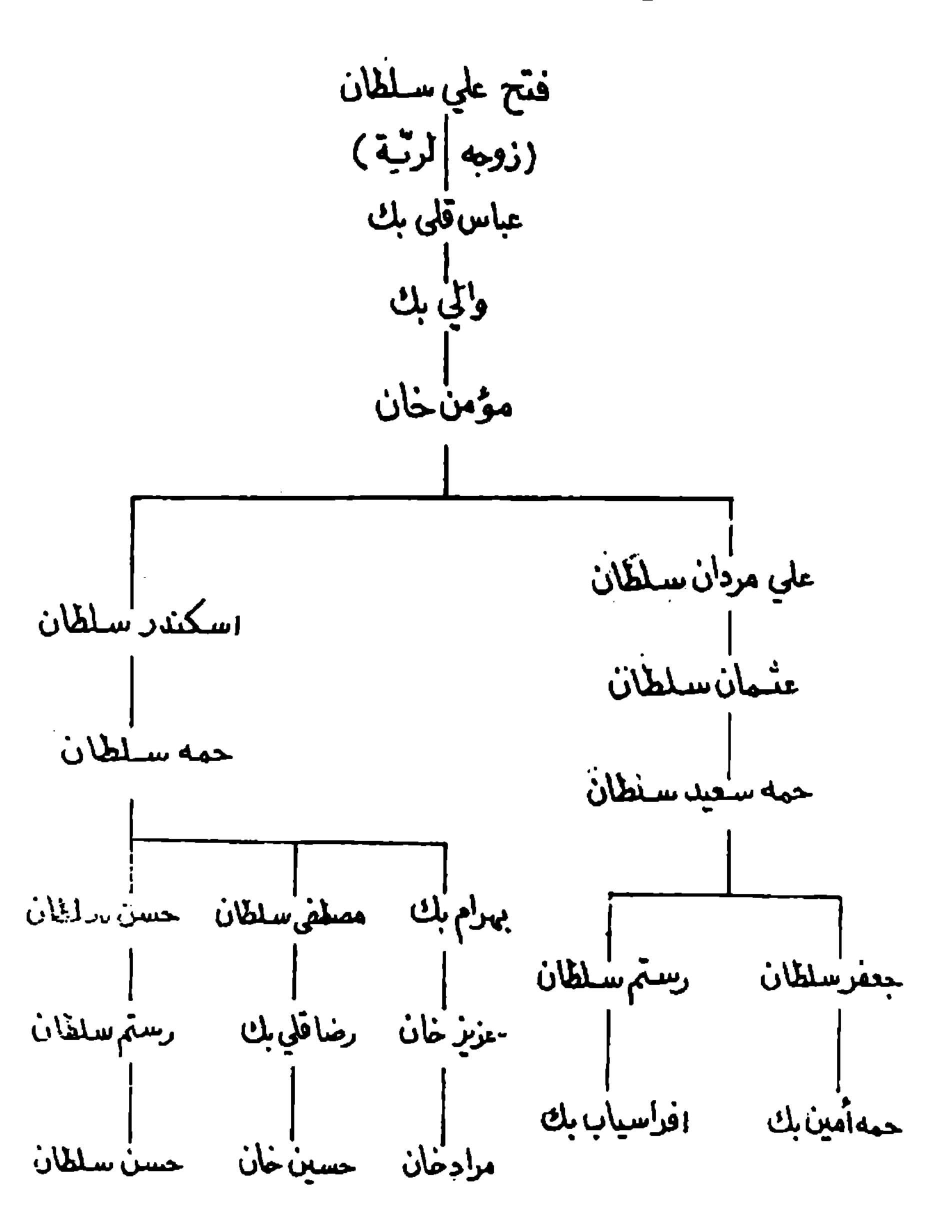
(1) يحيل البكزادة المستفهم دائماً إلى التاريخ غير المطبوع (لهه ورمان)، وهو لدى (حسن خان بن خان رزاد) الذي يرفض رفضاً جازماً أن يدعه يغيب عن عينيه. ويجب عليّ أن أشكر تحسين بگك بن حمه أمين بگك لهون) وهو من تلامذة كلية الاقتصاد بلندن - لنقله لي عند عودته من العراق سنة 1955 - موجزاً لهذا التاريخ بالفارسية، عمله الموظف المستخدم لدى حسن بگك. وقد وجدت معظمه تخريفاً وأوهاماً مخيبة للأمل وكان مكتوباً بالخط المعروف (نيم شگسته = نصف المكسور)، وبعضه غامض لا يفهم. لا أني استخلصت منه مسائل ذات أهمية منها أن سلالة الأسرة قد تسلسلت من أسفنديار إلى الأسماء المألوفة: كيومرث، أول ملك لأسرة بشدادي الأسطورة التي سبقت الأسرة الكيانية. كما وجدت أن اسم والي لرستان الذي جهز الجيش، مثبتاً بهذا الشكل (شاه ويردى خان)، وقيل إن (كاك مجنون) كان بطلاً من أبطال جيش السلطان مراد الرابع (1623 - 1640)، كما ذكر العام 1641 تأريخاً لتولية (عباس قلي) الحاكمية وعين وفاته بتاريخ 1664م.
إن الرواية التي أثبتها في متن كتابي تستند إلى معلومات عمومية سجلتها 1943 وتستند أيضاً إلى

يروون أن زعيماً كردياً أردلانياً اسمه «أولوخان» أعلن ثورة على ملكه الشاه عباس الكبير (حكم 1587 - 1629) واستظهر، ونصب نفسه حاكماً على منطقة (ژاوه رو) الواقعة على سيروان شرق (هه ورمان)، إلا أن ابنه (خان أحمد خان) الملقب فيما بعد (خان الكرد) لم يرض عن أعمال أبيه ولم يشاركه فيها. وبعد حملات عسكرية قام بها الشاه ضد (ژاوه رو) توصل إلى مفاوضة «خان أحمد خان» ليسلم له أباه بعد أن وعده بيد ابنته الأميرة كلاوزير (طاقية الذهب) والإبقاء على حياة الأب. فاعتقل (خان أحمد) أباه بالخديعة والحيلة وأرسله إلى أصفهان. وأقام الشاه عباس على عهده الثاني بالحرف فلم يقتل (أولوخان) بل سمل عينيه. لكن العملية جرت بفظاظة بحيث سببت موته الفوري. فما كان من (خان أحمد) إلا أن أعلن الثورة. ربما بدافع السخط على مقتل أبيه (حسب رواية) أو بعد أن يئس من تحقيق وعد الشاه في إعطائه ابنته زوجة حسب (رواية أخرى). وما لبث أن بسط سلطانه على هذه الجبال وسكن (ژاوه رو) شتاء و(هه وارگه ی پیر رستم) شمال (شاري هه ورمان) صيفاً، ويصرف النظر عن مجاهرته بالولاء والطاعة للشيخ خان أحمد الحاكم. فقد انتهز أول فرصة فدعاه مع كل أسرته الذكور إلى مأدبة وأعمل السيف في رقابهم ثم انثنى إلى أطفالهم فذبحهم في بيوتهم.

كتيب (مختصر تاريخ (الهه ورمان) وزعمائهم)، كان قد حرره لي بالكردية في العام نفسه (زوراب بك ابن أفراسياب بك لهون) وذكر فيه العام 1606 تاريخاً لثورة (أولوخان) والعام 1615 تاريخاً للمذبحة. إلا أن اسم الشاه كان يثبته حيثما ورد ذكره بـ(حسين: حكم 1694 - 1722) وهنا موطن الغرابة.

إن الشاه ويردي خان المشار إليه الذي عزله الشاه عباس ثم قتله في العام 1597 لم يكن آخر أتابكة (اللر الصغرى)، بل هو ابن حسين بك الجد الأعلى لولاة بشتگوه الحاليين والمدة المعقولة لحكم الشاه ويردي لرستان قد تكون في حدود (1630 - 1660م) (انظر مقالتي بعنوان (كاتب فارسي نبيل)، مجلة جمعية دراسات أواسط آسيا الوسطى الملكية، مجلد 16، سنة 1929، ص350).

«أصول الفروع الرئيسية من أسرة الهه ورمان الحاكمة»



لكن امرأة من الأسرى حبلى، كانت غائبة في زيارة لأبيها والي كردستان وهناك ولدت طفلها «عباس قلي» فنشأ في كنف خاله. وفي تلك الأثناء أصيب أحمد خان بالجنون ومات. ولما بلغ «عباس قلي» مبلغ الرجال أنجز خدمة عظيمة للحكومة بقيادته عسكراً «الشگر» من لرستان وقهره ثائراً شديد البأس يعرف بـ(كال مجنون) ومكافأة له على ذلك عين في المنصب الذي شغله أجداده.

يظهر في الشجرة أصول الفروع الرئيسة من الأسرة. أما النسل المتأخر فهو كثير. ولديّ شجرة أسرة نظمت في 1942. يظهر فيها واحد وسبعون ذكراً كلهم منحدرون من العصب فقط للجيل السابع، و119 ذكراً للجيل الثامن. مع ذلك فهي ناقصة. ولقد خلف «جعفر سلطان» وحده تسعة عشر ابناً!

ومنذ سنة 1915 اشتهر اسم (أڤرومان) لدى الباحثين الأوروبيين بسبب اكتشاف ثلاث حجج مخطوطة ذات أهمية تاريخية عظيمة. اثنتان منها باللغة اليونانية وواحدة باللغة الپارثية. تم اكتشافها في منطقتهم. وسأعود إلى هذه الحجج في فصل تال.

سبق لي أن نوهت في (الفصل السابع) بشيوخ (الهه ورمان) النقشبندية، وكان أبكر شيخين ممارسين للطريقة في العام 1921، حفيدا شيخ عثمان «شيخ علي حسام الدين (ته ويله)، وشيخ علاء الدين بياره» وليس لهما طبعاً نفوذ بارز، على القبيلتين الكبيرتين اللتين ذكرتهما لكنهما يلعبان دوراً في السياسة المحلية لا يستهان به وأنا أشعر باحترام عميق لأولهما لأنه كان يمارس نفوذه الديني لتعزيز النظام والقانون وبقي يرفض بإباء كل مكافأة أو أعطية من الحكومة لقاء خدماته بينما كان ابن عمه نقيضاً له. كان عجوزاً مكايداً طماعاً. ففي الوقت الذي تراه شديد الحذر في تظاهره بالتعاون، ما كان ليضيع فرصة للاحتيال على الإدارة في محاولات تسجيل أراض باسمه، هي ملك للفلاحين البسطاء منذ القديم. وكان يتقاضى مرتباً صغيراً، لم يخجل في إلحاحه على زيادته[1]. أخيراً تمتاز (ه ورامان

(1) ارتخص هذا الشيخ نفسه أكثر في حركة رشيد عالي (1941) بتوقيعه على الفتوى التي تحبذ الخيانة.

- اهون» المجاورة منها لشهرزور، بأنها البلاد التي ولد فيها مذهب وصفه المستشرق الفرنسي اللامع[1] بقوله: «مذهب هام حقاً من ناحية الفرس ومن ناحية أسرار أتباعه، والعقائد التي يمارسونها» وعلى أي حال، فإن الطائفة الكاكائية تستأهل فصلاً خاصاً لأهميتها الكبيرة.

(1) الكونت دي كوبينو (انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب).

- 12 -
الحياة في حَلبچة

لما كنت قد فقدت يومياتي ومنها ما يشمل في الأسابيع التي أمضيتها في حلبچة في أوائل ربيع العام 1922، فينبغي لي إعادة بناء قصة مجهودي ونشاطي - من ذاكرتي التي شحذتها بعض ملاحظات كنت دونتها في زيارة ثانية للقضاء[1].

مما لا ريب فيه أن (عادلة خان) كانت الشخصية المحلية المهيمنة. وهي تمارس سلطانها عن طريق ابنها أحمد بك القائمقام بالاسم، إلا أن مدراء النواحي كانوا موظفين مدنيين عاديين يتلقون أوامرهم مباشرة من معاون الضابط السياسي الذي كان يفصل في كل القرارات الهامة في مركز القضاء. وكان (داود بك) الذي يمثل فرعاً آخر من أسرة (كيخسرو بگي) يتولى مهام رئيس البلدية. وبعد محمود باشا سنة 1920 عين ابن له يدعى (علي بك) رئيساً للجاف الرحل. إلا أن سلفي أقاله من منصبه هذا لعجزه، وعين مكانه (كريم بك)، بالوظيفة التي كان لقبها (وكيل)، وهو عنوان ضئيل الشأن. وكريم بك هو ابن الأخ الأصغر لكل من محمود باشا وعثمان باشا، وموطنه (كه لار) التي تبعد كثيراً إلى الجنوب، بالقرب

(1) إن نص محاضرة هامة شائقة عنوانها (ستتان في كردستان) نظمها (ج. م. ليز) أول معاون ضابط سياسي لحلبچة وكان فيها من آذار 1919 حتى كانون الثاني 1921، طبعت في مجلة جمعية أواسط آسيا الملكية في مجلد 15 سنة 1928 ص253. وقد شارك (نويل) ومارشال الجو هيكتز في المناقشة والتعليق مما زاد من قيمة المحاضرة.

من سيروان شرق كفري. وقد حزّ في نفس عادلة خان وبگزادة حلبچة أن يحول «واسطة عقدة» المناصب، إلى فرع صغير للأسرة، فكان مصدر شكوي مرة.

وكانت كفاءات الرئيس أو الوكيل تخضع كل ربيع لامتحان قاس. فإذ ذاك يأتي دور إحصاء قبائل الجاف البدوية الاثنتي عشرة، لتحصيل الضريبة منهم وتبلغ ثماني آنات على الرأس الواحد. يصعب جداً أن يجد المرء أرضاً أصلح لاختفاء قطعان كبيرة في الأرض الوعرة المتكسرة الواقعة جنوب (قره داغ). و(المختار) الفلاح وهو رئيس القرية المعين رسمياً الذي يضيق ذرعاً على الدوام بأي شكل من أشكال السلطة، لا سيما عند اضطراره إلى ممارسة وظيفة جابي الضريبة، يميل إلى المشاكسة ويصعب قياده عندما تلوح فرصته لتأجيل جباية الضريبة بحيلة ما حتى يأزف موعد الهجرة وعبور الحدود إلى بر السلامة المؤقت، والنجاة من هذا الخطر بالذات. وكان السبب في إقالة (علي بك) عام أمس هو إخفاقه في السنة الماضية بالذات كما أبلغ سلفي كريم بك بأنه لم يكن خيراً من علي بك في هذا. وكان معاون الضابط السياسي في حلبچة مسؤولاً عن الجاف حتى عندما يضربون خيامهم خارج حدود منطقة السليمانية، أي عندما يكونون في كركوك أيضاً. لذلك لم أجد مناصاً من زيارة (كريم بك) في (كه لار) بأسرع وقت لأعرف شيئاً عنهم وهم في موطنهم الشتوي.

وفي يوم ما تركت حلبچة مع قليل من الحرس وبعد ثلاثة أميال بلغت نشزاً صغيراً متطامناً جميل المنظر طوله ميلان وعرضه ميل واحد تقريباً تقوم في وسطه قرية (كونه) في حين تجثم (نه ورولي) على المرتفعات المحيطة به، وأسرعت أطلق عليه اسم (الوادي السعيد) لأنه بحقوله المنظمة ومروجه وصنوف أشجار التوت على سواقيه بل وحتى الوشائج المحيطة بالبساتين كان أقرب إلى موطني من أي موضع وقعت عليه عيني في الشرق الأوسط منذ أن وطئته قدماي قبل عشر سنوات. أقول هذا مع وجود كثير من المواقع في كردستان تفوقه روعة وجلالاً. واحتثنا مطايانا فاجتزنا وادياً منخفضاً. وبلغنا بعد ثلاث ساعات من تركنا حلبچة،

قرية (شه ك مه يدان) وتقع في نقطة التقاء (تانجرو بسيروان) ولقد حول الماء ليغمر الأرض الممرعة في بطن الوادي (ره ند) وكان الموضع حاراً رطباً. لقد استوطن البقعة في حين من الزمن فريق من أصحاب الجواميس العرب وهي المستعمرة العربية الوحيدة في اللواء كله، بقيت حتى 1922. ثم زالت بعد ذلك مباشرة.

ولا أتذكر الآن، هل عبرنا (تانجه رو) خوضاً أو قطعناه بالكلك. وكانت الطريق إلى ذلك الزمن بمحاذاة الضفة اليمنى لسيروان فوق صخور كلسية وعثاء وبعد ابتعادنا زهاء خمسة أميال من (شه ك مه يدان) بلغنا مضيق (ده ربه ندي خان) المزدوج الذي يخترقه النهر في شق يقع بين (به رانان) وبين طرفه الممتد إلى الجنوب الشرقي المعروف بجبل (خوشك) وهي الحدود بين (خانقين وشميران) ويضيق الطريق هنا ويزداد وعوثة وتعترضه مدرجات صخرية عديدة خطرة زلقة. وكان امتداده يلوح لنا أكثر وعوثة وخطورة في الجزء الآخر ونحن نتطلع إليه من الضفة الأخرى البعيدة واقتضانا ساعة من الزمن لقطع المسافة الأولى من المضيق الأول حتى ولوجنا سهل (دزياييش) المنبسط. وهو من أول أملاك بگزادة الجاف في مناطق بابان، وفي النقطة السفلى لخروج النهر من المضيق وقبل اتساع مجراه كان يوجد دعامات متهدمة لجسر أثري يعين بلا شك الطريق المباشر بين السليمانية وكرمنشاه لما كان الإقليمان خاضعين لحكومة واحدة. قضيت الليل في مقهى صغير بناؤه من الطين والقصب في (باني خيلان). وهنا يتطامن جبل قره داغ ليفسح سبيلاً إلى النهر دون عقبة. وتوجد مواطن عبور كثيرة الطروق.

في ساعات العصر الأخيرة من ذلك اليوم تسلمت رسالة مزعجة من (كريم بك) يقول فيها إن رسل (عادلة خان) ينشرون بين الجاف حكاية مؤداها أن قدومي ما كان إلا لإقالته، وإن فعلي هذا إن صح، فسيكون ذا نتائج وخيمة في إمكان السيطرة على رجال القبائل الذين يصعب ضبطهم، كما سيكون له تأثيره المدمر

في عملية جباية الضرائب. فبعثت برد مناسب صحبة الرسول حامل خطابه وطلبت منه القدوم إليّ ليلاً. وكتبت هذه الرسالة بخط يدي وباللغة الفارسية وهي لغة الطبقة العليا الكردية الأدبية التي درج كرد الجنوب على تفضيلها، دون اللجوء إلى العربية أو التركية. وكان عملي هذا الذي دأبت عليه يخلف انطباعاً طيباً، وكثيراً ما كان يشار إليه في رحلاتي بين الجاف. وصادفنا في الليلة التي قضيتها في (باني خيلان) حادثة تفاهة سخيفة لست أدري كيف ظلت عالقة في ذهني حتى الآن: وجد صاحب المقهى فرصة ليطلب من أحد مرتاديه الآخرين دفع سحابه ولرغبته في إخفاء هذا المطلب غير المؤدب عني، واعتقاداً منه أن طلبه هذا قد أفهم منه تعريضاً به غير مباشر! فهمس يقول له «فلوسه كى گيتر» فسجل بذلك مأثرة استخدام ثلاث لغات في كلمتين فقط وهي: فلوس (العربية)، وكى (ضمير المخاطب الكردي) وگيتر (فعل تركي معناه: ادفع)!

وترتفع الأرض المتعادية غرب سيروان إلى علو (3600) قدم في نقطة تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب غرب (باني خيلان) وثلاثة عشر ميلاً عن النهر في أقرب عطفة وهذه العقدة الجبلية التي تسمى (داري خيلا) تمتد أذرع منها في كل جهة وتتخللها غدران دفاقة مفروشة بالحصباء تنحدر حتى سيروان إلى الجنوب الشرقي وإلى (نارين) إلى الجنوب الغربي. (ونارين هذا نهير يصب في سيروان قرب جبل حمرين) وإلى الشمال الغربي حتى (آوسپي) ولم يكن خط سيرنا بعيداً عن النهر، وقطعنا أحزمة عريضة لا تحصى من المجاري تتسع مياهها السريعة عندما تبلغ السهل بعد صدورها من (داري خيلا) وعلى مقربة من ينابيع لها كثيرة، تقوم خرائب مخافر الشرطة التركية. وقد وجدت في (پيواز، وه باوه نور) ثكنتين واسعتين إلى حد ما تعيدان إلى الذاكرة العام 1914 عندما كان النهر هو الحدود الفعلية، وكان قاع الوادي يتسع أحياناً بحيث يترك الطريق ذا الصخور الناتئة ليمر فوق أرض لينة متطامنة بين غابات من شجيرات العليق الشوكي والطرفاء وكانت أنظاري وأنا راكب تشخص شرقاً نحو الجبال على الجانب الإيراني وهي جبل

(شاهو) بفروته البراقة من الثلج بعيداً إلى الشمال الشرقي، وجبل (به مو) خلف (شيخان) تشقه أخاديد لا تحصى. وجبل (داله هو) المرمزي في قلب بلاد (گوران). وكثير من السلاسل الأخرى فيما يليها، ترى الخط فيها يعلو الخط، وكلها مجهولة الأسماء عند مرافقينا.

وقطع (كريم بك) وأخوته وعدد كبير من (الكويخات) الذين استدعاهم من الشمال والجنوب والغرب، عدة أميال على ظهور الخيل «لإستقبالي»، والاستقبال هنا معناه الترحيب الرسمي وفق القواعد المتبعة في مثل هذه المناسبات، ثم مرافقتي إلى (كه لار) وكانت نية (كريم بك) في هذا نية سليمة مشروعة طبعاً، وهي تثبيت سلطانه بأن يتيح لرجال قبيلته ليروا بأم أعينهم كيف ينزل معاون الضابط السياسي ضيفاً عليه، أو ربما لكي يسمع مباشرة من السلطة العليا شيئاً عما تنتظر منهم الحكومة (وقد تهيأ لهم سماع ذلك بلهجة شديدة صارمة).

بقي زي رجال الجاف جنوبي الطابع، رغم دوام احتكاكهم بالأزياء الشمالية في مصايفهم. حتى أن أفقر شخص منهم وأصغرهم شأناً، لا ينفك قط عن لبس (الگيوه) الطويل فوق سرواله أو پنتوله المزركش، ويرتدي بعض (الكويخات) الأكثر أناقة عمائم كبيرة، وگيوات حريرية غالية الثمن على طريقة البگزادة، إلا أن هؤلاء قلة لا يقاس عليها. ووجدت الكثير ممن يرسل لحية بشكل دائري وفي بعض الحالات يظهر لي أنهم كانوا يعمدون إلى حلق مسافة صغيرة تحت نهايتي الشفة السفلى حيث تكون لحية الفتى أقل نمواً من أي موضع في الذقن.

استرعى اهتمامي بنوع خاص كهل ذو مظهر محترم، يرتدي فوق زبونه الحريري أي (الگيوه) سترة طويلة من الشال الكشميري الإيراني، وظهر لي فيما بعد أنه (شيخ حسن) عميد فرع (دول په مو) من الأسرة البرزنجية. وهو وإن أجمعت الظواهر على سنيته (المتزمتة) فقد اختاره سكان طوزخورماتو القزلباش القليلو التمسك بسنيتهم دليلهم الروحي. هم والقرى التركمانية الأخرى المنتشرة على جانبي الطريق العام في لواء كركوك. وإني سأعود للكلام عنه في فصل تال

وقد صار من الأثرياء المُتْرِبين بما ملكه من قطعان الغنم والماشية بفضل الهدايا الكريمة التي يواصل أتباعه المؤمنون بالخرافات تقديمها له، حتى إنه انضم إلى فخذ (شاتري) وصار يهاجر معهم عدة سنين لا يفترق عن أي فرد منهم. وبدو الكرد يشبهون بدو العرب إذ يعيشون في خيام طويلة تصنع من أطوال من نسيج شعر الماعز الخشن يخاط بعضه ببعض حسب عرض الخيمة المطلوب. وتشد الجوانب والنهايات بأوتاد وترفع من الداخل بالهيئة التي تناسب الجو واتجاهات الريح. ويستعمل (الچيغ) لتقسيم الخيمة من الداخل أو لحجب محتواها عن الأعين الفضولية عندما تكون مرفوعة الأطراف ويمكن قياس أهمية صاحب الخيمة أو غناه عموماً بحجم خيمته وسعتها. والقياس المتعارف عليه هو عدد العمد. ولمعظم أسر الجاف - كما أسلفت، نوعان من الخيام الواسعة، نوع للشتاء وهو ثقيل، ونوع للطريق ومراعي الصيف وهو خفيف. وواجبات إقراء الضيف أمور مفروغ منها بين البدو الكرد كما هي لدى المستوطنين منهم. ومعظم الخيم منقسم إلى قسمين بچيغ لفصل حجرات الضيوف (ديواخانه) عن باقيها وفي الجزء الثاني تقوم النسوة بواجباتهن البيتية على هونهن وفيه تخزن الفرش والأغطية والمهود ومؤونة الشتاء من قمح وأرز وسمن (رون). وفي الخيمة الواسعة يرخى ستار من أعلى السقف المائل ليكون الانفصال كاملاً بين القسمين. ولا خدر هناك عند نساء الكرد. على أن جلوسهن في حجرات الضيوف ليس من ضروب النشاط الاجتماعي الذي يشاركن فيه الرجال عادة. إلا أن صديقاً عزيزاً للأسرة قد تستقبله النساء في مواضعهن بشكل طبيعي جداً ودونما تظاهرة بحياء أو حراجة.

وبعد بقائي يوماً وبعض يوم في (كه لار) ركبت مع كريم بك إلى (چيمان كوپري) التي تقع على طريق (قره تپه) حيث يضرب (الجلالي) خيامهم وحيث يوجد عدد من الغدران تصدر من عيون ماؤها (معدني) يقال إنه يفيد الغنم بنوع خاص قبل بدئها برحلتها الربيعية إلى الشمال. وهذه القرى تبعد عن جنوب (كوپري) باثنى عشر ميلاً. كان (كريم بك) الذي اعتاد معاملة المختارين ورؤساء

القرى بترفع واستخفاف، كثير الألفة والبشاشة مع أعوان الجلالي الذين استقبلونا راكبين وتبادل الجميع العناق بالأكتاف معه، أثناء ما هم يصافحونا بعد ترجلنا.

ولاحظت أن (توفيق آغا) أكبر أفراد الأسرة الحاكمة لم يكن من جملة المستقبلين إلا أنه أقبل إلى خيمة الضيوف معتذراً عن ذلك بقوله إن زوجه قد وضعت طفلة في اللحظة التي كنا ندخل المضارب. وطلب مني بوصفي ضيف الشرف أن أطلق على الوليد اسماً جرياً على تقاليدهم. واتفق أن اسم (كلادس) كان أول ما قفز إلى ذهني. وخطر ببالي بيتين لشاعر من الجاف مجهول:

(هــاتــم بــه بــونــه ى خــالــت تــوشــي داوى زولــفــت بــوم)

(تــه يــريــكــى نــابــه لــه د بــوم نــه مــزانــي دانــه ى داوه)

وترجمتها

جئت أبحث عن خال في خدك فوقعت في مصيدة شعرك

جئت كالطير الحائر ولم أعرف أن الخال في وسط المصيدة

فاقترحت لها اسم (گلده سه) وهو الشكل الذي يلفظ به الكرد الكلمة الفارسية المرادفة للكلمة الإنكليزية Posy (باقة زهر زاكي الرائحة). ليس في الموضوع أي ذكرى غرام، وإذا كان قلب (گلده سه) إنكلترا قد خفق أقل خفقة في ساحات التنس في الصيف الماضي (ولست أملك دليلاً حقيقياً على هذا) فقد عاد الآن كقلبي يركن مرة أخرى منصرفاً إلى دقاته الاعتيادية دون انتظار عودتي إلى الديار مرة أخرى. ورحلت (گلده سه) الجلالي في إثر معظم أطفال هذه البلاد، الذين يخترمهم الموت وهم في سن الطفولة، وعندما سألت عنها بعد سنتين أو ثلاثة وجد الأب صعوبة في تذكر ولادة بنت له في هذه المناسبة.

بعد أن آذنت الشمس بالمغيب انتقلت من الموقع لزيارة (آغا) آخر ذي مكانة وهو (حمه رضا) وفيما نحن نتكلم قعوداً على الأبسطة المفروشة فوق الأرضية على ضوء فانوسين زيتيين، وجدت أمامي صبياً في حدود الخامسة وجهه ويداه شديدة القذارة وبطنه منتفخ يبدو في شق قميص في غاية القذارة. دفع إلى

(الديواخان) دفعاً بزوج من الأيدي بزرت من (چيغ) مقر النساء بقيت أستغرب أبداً أن أجد الأبوين عند العرب والكرد في غاية النظافة جسماً وثياباً في حين يتركون أولادهم يتجولون ويسرحون على رسلهم في حالة يرثى لها من القذارة وقد اسودت أعينهم وأنوفهم بعناقيد من الذباب المتكالب دون محاولة ذبها عنهم. راح الأب يداعب الصبي ويهدهده في حجره ويسأله أسئلة ترمي إلى تشجيعه لإظهار مواهبه وذكائه أمام الحاضرين. فاندمج الصبي الناضج قبل الأوان غير هياب ولا وجل في دور يمتاز بروح تمثيلية. وبعد فترة قصيرة، أطلت الأم والجدة برأسيهما وكتفيهما من الستارة للمشاركة في فصل التعليقات والإعجاب بهذا النبوغ ووجهت السيدة الكبرى الأكثر جرأة - كلامها لي مباشرة: أجل يا سعادة الحاكم، إنه صبي ذو ذكاء ومواهب عظيمة وببركة الله وفي ظل عدالة الحكومة البريطانية السامية، بدأ من الآن يقوم بدورات على الخيام المجاورة بعد حلول الظلام، ليعود بأشياء صغيرة، سرقها دون أن يشعر به أحد!». فقلت بآداب السلوك الشائعة الحافلة بصنوف المجاملة والتفخيم: «الحمد لله، الحمد لله، سينشأ رجلاً مثل أبيه!». إن الجلالي مشهورون بأعمال السرقة حتى بين الجاف أنفسهم (طبق ما ذكره ريچ قبل مائة عام) ولم تخف التورية عن (كريم بك) ولحظت غمزة في عينه على الضياء المعتم الذي يخيم على جو الخيمة.

عدنا إلى (كه لار) معقبين ضفاف سيروان عن طريق قرية (قه ره بلاخ) وتل (شيروان). وفي (قه ره بلاخ) استضافنا (الشيخ وهاب الطالباني) وهو من أسرة شيوخ السجادة الواسعة النفوذ في عالم الطريقة القادرية. وقد أعلمني بأنه وإن كانت معظم أملاك آل الطالباني، بالقرب من كركوك فإن أباه (شيخ حميد) نظراً لاتساع نفوذ الأسرة، اشترى أراضي وعقاراً لابنيه (يقصد شخصه هو ومصطفى أخاه) الذي يقيم على الجانب المقابل من النهر في قرية (بن كوره) حيث يوجد لبگزادة الجاف أراض.

ويقع «تل شيروانه» بالقرب من النهر وعلى بعد ميلين جنوب (كه لار) وهو

علامة أرضية بارزة أورد ذكرها كل من (فيلكس جونز، وچيريكوف، وماونسل) تل بيضي الشكل طوله من القاعدة حوالى (150) ياردأ وعرضه (100) يارد تقريباً وقد وقعت عيني على قطع آجر عديدة بابلية الطرز مربعة الشكل طول ضلعها زهاء قدم واحدة، وكانت مبعثرة. وقيل لي إن بعضها استخدمه (محمد باشا) جد (كريم بك) في بناء جوسق صيد مثمن الأضلاع فوق قمة التل، وهو الآن خراب. لقد أطلق (چيريكوف) اسم (أنوشيروانه) على هذا الموضع وهو الاسم الذي قد يشير إل الأصل الصحيح الذي حرف عنه الاسم الحالي. وقد ينجم بعض الخلط من تشابه اسمي النهر والتل فسمى عدد من الرحالة النهر ب(شيران) خطأ.

في صباح يوم كنت جالساً مع كريم بك وأخوته في مجلس الضيوف فهبط علينا دون استئذان أو إنذار شخص قد يكون منسلخاً عن (حاجي بابا)[1] أو خارجاً من بردته مباشرة. كان يرتدي سترة طويلة مضاعفة على الطرز القوزاقي أو الجيورجي وعلى جهتي الصدر جيبان صغيران بهيئة أضلاع المروحة حشر في ثقوبهما خراطيش فارغة ذات رؤوس فضية وطرفا سرواله محشوران في (جزمة) روسية عالية، وعلى رأسه (چاچان) طويل مصنوع من فروة الحمل ولحيته الطويلة تلمع بصبغ جديد أسود فيه زرقة. دخل واقتعد مجلساً بين الجماعة المسندة ظهورها على الجدار، وفي منتصف المسافة بين الباب والصدر. في حين أتى الحاضرون بحركة من يهم بالقيام، ولم يفعلوا. ثم تبادل السلام مع الضيوف الآخرين بإيماءات وحركات سلام سريعة دائرية. ولم تلق عليه أسئلة ولم يبدأ بحديث، ثم استؤنفت الأحاديث العامة، وكملت دورتان أو ثلاث من الشاي، وبعدها افتتح كريم بك الحديث دون أن يسأل سؤالاً معيناً، وفهم منه الغريب أنه دعوة له لتفسير سبب قدومه فطفق يروي قصته بأجمل ما يكن من التعابير الفارسية وأفصحها مطرزاً أقواله بآيات قرآنية، وأمثال سائرة ومقتبسات من شعر (سعدي) وغيره من الشعراء، وكان موضوع كلامه لزوم القيام بواجب الإكرام والضيافة

(1) مغامرات «حاجي بابا الأصفهاني» بقلم جيمس مورير، طبع لندن 1824.

غريب من السادة المنكوبين، وألقى خطبة طويلة وصف فيها كيف أن غوائل الحرب قد أرغمته هو وأتباعه على ترك ديارهم قرب كرمنشاه ودفعت بهم إلى جبال القفقاس ولم يتسن لهم الرجوع إلى مسقط رأسهم حتى الآن. ثم طلب من كريم بك أن يقدم طعاماً لجماعته في الحال. ورجا مني أن أزوده بكتاب إلى مدير ناحية (پنجوين) أوصيه بإطعامهم عند وصولهم - على حساب البلدية. وكان هذا وجهة عودة مغلوطة مما أسلمني إلى الشك. فأخبرته أن أقرب طريق إلى منطقته هو اجتياز الحدود من موضع يبعد عنا اثني عشر ميلاً أو ثلاثة عشر. أما إذا كان يرغب في العودة إلى إيران بطريق أسهل وأنظم فأنا مستعد للكتابة إلى ضابط خانقين السياسي طالباً تسهيل مهمته ومروره. ولاحظت جواد هذا الرجل الغريب خارج المضيف مربوطاً بمعلف، وكان حصاناً أشهب فاحماً ممتازاً، عليه سرج قوزاقي. على أن شكوكي تأيدت عندما ألقيت نظرة على خيمته لو كان يجوز إطلاق كلمة خيمة على المجموعة البائسة الرثة من الثياب بداخلها. وكان صَحْبه من طائفة (الكاولية) لا ريب فيهم، ومن الطبقة التي لقيتها في (لرستان) فقراء سَقْط من أحط ما يمكن، تعودوا التجوال في أرجاء الإمبراطورية العثمانية طولاً وعرضاً، وبطبيعة الحال في القفقاس وإيران أيضاً أو ربما إلى أبعد من ذلك. وبعد بضع سنوات وقع بيدي تقرير مصدره سوق الشيوخ التي تقع في الفرات الأدنى حول عشيرة إيرانية تريد الرحيل إلى بلادها بعد قدومها من القفقاس فأيقظت عندي ذكريات هذه الحادثة وقد كادت تمحى. فأمرت بإرسال الوثائق التي أبرزتها تلك العشيرة إلى بغداد لتدقيقها فوجدتها زهاء خمسين خطاباً تتضمن شهادات من شيوخ العشائر ورؤساء بلديات مدن صغيرة عراقية وما إليهم. وفيها يذكرون أنهم أطعموا واستضافوا هؤلاء القوم يومين أو ثلاثة ويوصون خيراً «بهؤلاء المبعدين المساكين» كل من يقع في طريقهم أثناء رحلتهم إلى بلادهم. ولم أدر أين عاشوا طوال هذه السنين وكم من المرات دخلوا العراق. على أنهم كانوا في هذه الدفعة يعيشون على حساب الخزينة العامة في مدن الفرات أسابيع بطولها. وقررت أن أضع حداً لهؤلاء الأدعياء فعممت نشرة بحقيقة أمرهم.

وفي طريق عودتي إلى حلبچة سلكت سبيلاً مغايراً للأول وسرت في أرض متعادية، تبعد بضعة أميال عن ضفة النهر الغربية وفضلت اجتياز مضيق. (په يكولى) فوق (قره داغ) حتى أقوم بفحص الأثر الشهير المعروف باسم المضيق. والذي تذكره خرائطنا باسم (قلعة أثرية). إن بيت الصنم هذا، أو (البوتخانه) كما يسميه الكرد، يقوم على تل طبيعي مفتوح في أقصى المضيق حتى الجنوب وبالقرب من الطريق الذي يسلكه الجاف في رحلتهم الصيفية. البناء الأصلي قد تقوض، وما بقي لا يزيد عن كتلة من الحجر والأتربة والجص يبلغ ارتفاعها من الجنة الشمالية العليا زهاء اثنتي عشرة قدماً. إلا أن السفح مليء بما لا يحصى من الأحجار ومعظمها مهندس مستطيل التكعيب. وبعضها منحوت على أشكال أخرى، ومنها دائرية. ومعظم المستطيل والدائري منها يظهر عليه كتابات منقوشة بالفهلوية. وشاهدت بين الأنقاض رؤوساً وأذرعاً لأربعة تماثيل وفوق كل رأس تاج مقبب (يذكر المرء بالقبعات الصوفية الكبيرة التي كان اللر يستعملونها في حين من الزمن) وتتدلى من الذقون لحى طويلة وتنسدل على جانبي الوجه جدائل. وكان اثنان من هذه التماثيل النصفية في الجانب الغربي، وواحد في الشمال وواحد في الشرق، هذا التمثال الأخير وأحد التمثالين في جهة الغرب يبلغ طولهما حوالي ثلاث أقدام من قمة التاج إلى نهاية اللحية. أما التمثال الشمالي فهو أقصر بقليل. في حين كان التمثال الثاني الغربي صغيراً لا يلفت النظر[1].

أول ذكر لهذا البناء الأثري استطعت تعقيبه، كان بقلم (ج. ب. فريزر) ضمن فقرة تتحدث عن شهرزور، مؤرخة 1 تشرين الثاني 1834. «حدثني شيخ عن بوتخانة أو معبد للأصنام» موجود في موضع ما من السهل. وفيه حجر منقوش عليه كتابات لا يتمكن أحد من قراءتها». وذكر (راولنسن) عن (بوتخانه) أثناء

---

(1) الوصف يستند إلى يومية من يومياتي مؤرخة 16 تشرين الأول 1923، لما كنت هناك ثاني مرة. انظر أيضاً مقالي: «منحوتتان أثريتان في جنوب كردستان - المجلة الجغرافية، مجلد 65 للسنة 1925، ص163».

زيارته (شميران) في السنة 1836 «تقوم على الضفة الأخرى وبمسافة ثلاثة فراسخ» حيث يوجد «منحوتات وتماثيل تستحق اهتمام أي رحالة إلى هذه البلاد قد يأتي في المستقبل». وقد قام هو نفسه بزيارة الموقع بعد ثماني سنوات أثناء عودته من رحلة طويلة دوَّن وقائعها (فيلكس جونز) وعاد إلى بلاده ومعه نسخ ورسوم لاثنتين وثلاثين قطعة حجرية منقوشة بالكتابة ونشر وصفاً مختصراً للموقع في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية للسنة 1868 كملحق لمقالة طويلة عن الكتابات بقلم القس (إدوارد توماس) Rev. Edward Thomas .

وكان (إرنست هرتسفلد)[1] عالم الآثار الألماني، هو الرحالة الثاني الأوروبي الذي كتب عن هذه الخرائب. فقد قام في أثناء زورتين مستعجلتين إلى حد ما، في العامين 1911 و1913، بتصوير وأخذ طبعات مضغوطة لحوالى مائة قطعة حجرية منقوشة ونشر نتائجه بالإنكليزية مزينة بكثير من الصور الفوتوغرافية والرسوم في كتاب قيم جداً عنوانه (په يكولى) وطبعه في برلين 1925 وقد أورد في مقدمة الكتاب قصة كان رواها لي السر توماس أرنولد بنفسه[2] قال: كان (هرتسفلد) مهتماً بنوع خاص بتعقيب دفاتر يوميات (راولنسن) الأصلية لتعزيز مواده الخاصة بالموضوع. فبحث كثيراً في المتحف البريطاني وفي مكتبات أخرى دون نتيجة. وفي أحد الأيام ذهب بصحبة السر توماس أرنولد إلى مقر الجمعية الجغرافية الملكية في (كنغستون گور) لغرض ما. وفيما هو يتطلع غير متعمد إلى صناديق

---

(1) هرتسفلد Ernst Herzfeld (1879 - 1948)، ولد في ألمانيا وتوفي في بال بسويسرا، عالم آثاري ذائع الصيت عرف واشتهر بتنقيباته ورحلاته التنقيبية في العراق ولا سيما اكتشافاته في مدينة آشور القديمة بالقرب من شرقاط، وسامراء قبيل الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

(2) انظر أيضاً (المجلة الجغرافية) مجلد 65، ص273 Sir Thomas Arnold، 1864 - 1930، من أعاظم المستشرقين البريطانيين. قضى عدة سنوات في الهند أستاذاً للفلسفة في كلية عليكره الإسلامية. وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن من كتبه الهامة، (الدعوة إلى الإسلام) و(الخلافة) كما نشر عدة كتب قيمة عن الفن والتصوير الإسلاميين. (المترجم).

المعروضات القائمة في قاعة المدخل، استقرت عيناه فجأة على كتاب مفتوح عن صحيفة صورت فيها نسخة من النقش يقع وسط فقرة من الكتاب التي أعاد تركيبها بما يقرب من الكمال. ووجد أيضاً صورة لوح حجري مهم آخر كن سليماً في عهد راولنسن وأصبح تالفاً في عهده.

وفي العام 1923، وبناء على رجاء الآنسة گرترود بل[1] التي كانت تشرف على دائرة الآثار العراقية آنذاك (وكانت هي مؤسستها) قمت باتخاذ بعض التدابير مع الجاف ليرافقوا (هرتسفلد) ويحموه في زيارة أخرى له، في الوقت الذي كانت ثورة الشيخ محمود مشتعلة، وهو يسيطر على السليمانية. وكتب لي هرتسفلد يقول شاكراً: «إن التدابير التي اتخذت لزيارتي به يكولي، كانت ممتازة كاملة من شتى الوجوه، وبوسعي البقاء هنا براحة تامة لمدة ثمانية أيام منقباً تنقيباً حقيقياً في الأنقاض حول قاعدة البرج المتقوض. وهكذا اكتشفت ثلاثة ألواح حجرية أخرى

---

(1) گيرترود مرغريت لوسيان بل (1868 - 1926) رحالة، وآثارية وسياسية إنكليزية. تعلمت الفارسية في شبابها لأجل الالتحاق بقريبها الذي كان سفيراً لبلادها في بلاد فارس وفي 1892 أقدمت على أول سفرة لها إلى الشرق، وأشفعتها برحلة من إيران إلى القدس وسوريا قاطعة الصحراء في 1900. تلقت دروسها العربية الأولى على يدي شيخين في حيفا. وتعلمت من اللغة الهندية ما كفاها للرحيل إليها كترجمانة. وفي العام 1905 واصلت دراستها الفارسية. ثم لمع اسمها بكتاب The Desert and Sown 1907 وبعد أعوام قليلة رحلت إلى دمشق ثم بغداد وألفت كتاباً برحلتها هذه تضمن معلومات آثارية نفيسة (من عموره إلى عموره). وقدر لها أن تلعب دوراً أساسياً في سياسة هذا البلد أثناء الحرب العالمية وبعدها. وساعدت لورنس الشهير في شؤون الدعاية والاستخبارات في القاهرة وتحقيق الثورة في الحجاز ضد العثمانيين وفي البصرة كانت تعد المذكرات السياسية وتبدي الإرشادات للسير برسي كوكس كبير الضباط السياسيين في حملة العراق. حضرت مؤتمر السلام في باريس 1919 وعادت إلى بغداد حيث قضت سنواتها السبع الأخيرة تؤثر تأثيراً مباشراً على السياسة الداخلية في العراق ومن مجهوداتها أنها أسست المتحف العراقي وكانت أول مدير له. وفيما كانت تتهيأ للسفر إلى بريطانيا توفيت وهي نائمة في فراشها ودفنت في المقبرة العسكرية البريطانية في بغداد. كتبها الأخرى: سفرنامه أو صور إيرانيه 1894، أشعار من ديوان حافظ 1897، قصر ومسجد الأخيضر 1914، مطالعات في الإدارة المدنية في بلاد ما بين النهرين، رسائل گيرترود بل - طبعته زوج أبيها في 1927. (المترجم).

منقوشة وقد جمعت الآن (130) نقشاً وهو كل ما بقي. وهذا ما يجعل تنظيم الكتابة شبه كامل وأكثر أهمية واعتماداً مما كانت سابقاً بكثير».

هذه النتائج لم تضم إلى كتابه (الذي كان مهيئاً للطبع عندما انتهى من تدقيقاته) وهرتسفلد الآن هو في عداد الموتى وليس في وسعي التأكد هل أن النتائج طبعت أم لا؟ ولذلك فإن عالم البحث العلمي سيظل يعتمد على ثلاثة أرباع المواد الميسورة فعلاً.

وبحسب أبحاث (هرتسفلد) وتنقيباته يظهر أن البناية حجرية يحيط بها من جهاتها الأربع جدار خارجي مبني من الحجر المهتدم. وخلافاً للألواح الحجرية المستطيلة ذات الكتابات وجد كتلاً حجرية أخرى لا بد كانت جزء من المقرنصات والأسوار بأبراجها وأفاريزها وكواها.

وذكر أيضاً تمثالاً نصفياً كبيراً على الجهة الجنوبية (لم أنتبه إليه كما يبدو) وهو يرجح أن التمثال الثاني من جهة الغرب كان أول تجربة نحت قام بها النحات ثم أهملها قبل إكمالها لأنها صغيرة الجرم. ولذلك لا يكون البناء قلعة أو معبداً وإنما هو برج قصد منه نقش كتابات عليه وأن يرفع عليه تمثال يشبه الملك الذي أمر به. وتشغل الكتابات سطراً واحداً قصيراً في القمة، وسبعة أو ثمانية صفوف على الألواح الصخرية المهندمة بطول الجانبين الشرقي والغربي أحدهما بالفهلوية والآخر بالبارثية. وربما أقيمت التماثيل بارزة فوق الأسطر القصيرة العليا وعلى ارتفاع مساو للجهتين الأخريين العاطلتين عن الكتابة. لقد طمست هذه التماثيل بفعل عوامل الطبيعة إلا أن الرموز الملكية وهي القلادة والأقراط ما زالت ظاهرة للعيان. ومن شكل التاج الذي يختلف عادة عند كل ملك من ملوك الساسانيين كما تدل عليه النقود المسكوكة فضلاً عن الكتابة نفسها، يظهر أن النصب التذكاري أقيم تخليداً لاعتلاء نرسي (نرسيس) عرش الساسانيين وهو من ملوك الأسرة السابعة بعد أن أزاح في العام 293م ابن أخيه بهرام الثاني عن العرش. وقد سجل فيه جدول بأسماء الحكام المستقلين (المرازبة = مرزبان) والزعماء التابعين فقط.

أما النصوص فتعتبر أهم وثيقة ميسورة في زمننا هذا باللغتين. مما يجعل هذا النصب ذا قيمة تاريخية ولغوية فريدة في بابها.

إن البروفسور (و.ب. هننك W.B. Hening) نشر مقالا[1] في الآونة الخيرة، مفصلاً ومصححاً بعض استنتاجات (هرتسفلد) وبذلك ألقى ضوء على الأسباب التي دعت لاختيار هذا الموقع البعيد غير المطروق ليقام فيه النصب الفخم. كان ولي العهد الذي اعتلى العرش باسم (بهرام الثالث) صبياً قاصراً بعد وفاة أبيه (بهرام الثاني) ففضل حزب ذو نفوذ من (العظماء والأشراف ورجال الدولة) أن يجدوا للعرش شخصية قوية وعرضوا التاج على (نرسي) الذي كان آنذاك ملكاً على (أرمينيا الكبرى) وهو أصغر وآخر حي من ولد شاپور (سابور) الأول الكبير (حكم ما بين 241 - 272م) ولذلك خرج (نرسي) يقصد (قطيسفون = المدائن) عن طريق (گنزاكه) في آذربيجان وشهرزور واجتمعت هيئة الاستقبال من العظماء والأشراف في (بنقدره) التي تبعد زهاء 125 ميلاً شمال العاصمة ومكثوا ينتظرون أنباء مقدمه، ثم إنهم ركبوا منها في مسيرة يومين أخر شمالاً لاستقباله في سفح آخر عقبة جبلية يقطعها وهو يقصد السهل. وقد أقيم نصب (په يكولى) التذكاري هنا، بأمر من (نرسي) تيمناً بالموقع الذي نودي به (ملك الملوك).

اجتزت جبل (به رانان) من مضيق (پشت رى) متبعاً طريقاً يبعد بضعة أميال شمال الطريق الخارجي وقطعت (تانجه رو) فوق جسر (توه قوت) وفي مشارف حلبچة التقاني عامل البرق الأنگلو هندي مع شرطة التعقيبات وأعلمني بأنه على إثر التقارير الواردة تبين أنه قد نصب لي رجال القبائل كميناً وأوقعوا بي، ولهذا خرجت جماعة كبيرة من شرطة السليمانية للبحث عني وأضاف بلهجة أسى مسرحية، بأنه أجاب على هذا كله، ببرقية قال فيها: «مهما يحدث فإن العلم البريطاني سيبقى خفاقاً»، وأنا ما كنت أشك في صدقه، فهو ينتمي إلى طبقة

---

(1) (وداع لخاقان آق أكاتاران) في مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية والأفريقية لجامعة لندن، مجلد في 340، سنة 1952، ص501.

مخلصة جداً وشجاعة على الأرجح خلافاً للاعتقاد السائد. كانت هذه الحادثة من النتائج المتوقعة في الجو المشحون بالقلق. على أن جولتي كانت ناجحة وسالمة. إن مجرد القول بأن الجاف لم يشكتوا وإن حبلهم ظل على غاربهم كان يزعجني ويورثني القلق.

من أوائل زائري في حلبچة، اثنان من شيوخ النقشبندية هما (حسام الدين ته ويله) و(علاء الدين بياره) انتدبا للترحيب بي. وكانت هديتهما لي صندوق «من السما»، (وهو نوع من الحلوى يعمل في كردستان وأنحاء أخرى من إيران، من مسحوق أبيض تفرزه حشرة على أشجار جبلية معينة)، وزوج من الجوارب ذو حياكة دقيقة وزوج (كلاش). وكانت الرزمة ملفوفة بمنديل حريري من الصناعة المحلية أيضاً. ولفت نظري بين جماعة (حسام الدين)، أحد أتباع (أمير مقتدر) الخان الأكبر في (تالش) وهي المنطقة القريبة من الحدود الروسية في الزاوية الجنوبية من بحر قزوين. وهو زعيم كانت تربطني به علاقات طيبة جداً أثناء وجودي في قزوين، باعتباره عدواً ومنافساً لـ(كوچك خان) زعيم ثورة (جنگلي) ضد الحكومة الإيرانية الموالي للبولشفيك. وقد دلني حضوره إلى حلبچة على اتساع نفوذ هؤلاء الأحبار الريفيين الكبار في الطريقة النقشبندية وليس ثمة غاربة في قطع مسافة تقارب (400) ميل ليحظى بعدها بتقبيل يد دليله وشيخه. وكان على بطبيعة الحال أن أقوم برد الزيارة للمندوبين.

إن الوصف العام لإقليم (لهون) من جهتي الحدود (ذات الخط غير المنتظم كما أسلفت) يمكن تشبيهه بنتوءات عظيمة تمتد منحدرة من هضبة (هه وره مان) متجهة بشكل عام نحو الجنوب الغربي تاركة فيما بينها أودية تتفاوت في الاتساع كمسننات المنشار، وتحتضن الوديان الكبرى قرى ذات أهمية، تتخللها وتحيط بها بساتين واسعة وغابات من أشجار الجوز. والوديان الصغرى لا تخلو من ينابيعها الخاصة وبساتينها ومجموعاتها السكنية الصغيرة التي تتراوح بين ثلاثة أكواخ وأربعة. وكانت سفوح الروابي مدرجة بحذق وبراعة تدل على قدم السكنى في هذه

الديار وقد أخبرني مهندس ري شهير مرة أن علمه لا يمكن أن يضيف معرفة إلى معارف (الهاوراميين) في التسويات الهندسية لغرض إنشاء الأقنية في أراضي الجبال.

و(ته ويلة = طويلة) هي مثل حسن لقرية (هه ورامية) كبيرة، دخلتها من طريق تحف به بساتين جوز كثيفة وغيرها من الأشجار يأخذ بعضها بحجز بعض وترتفع عن قاع الوادي. وكان من المتعذر إحصاء عدد المدرجات (ته لان). ولكن كان يوجد في بعض المواضع عشرون مدرجاً على أقل تقدير. وبعضها لا يتسع إلا لخط واحد من الأشجار. وكانت أقنية الري السريعة الجريان تتتابع متصلة بعضها ببعض لتروي عدة مدرجات وبعدها يسقط ماؤها في شلالات من مدرج إلى آخر. وكل ساقية يتعين عليها أن تسقي مدرجين أو ثلاثة. والماء مقسم بين أصحاب البساتين بحسب الساعات في الأسبوع الواحد. وحقوق كل شخص فيها معروفة ثابتة منذ القديم ولذلك لا يوجد نزاع مهما كان. والقرية نفسها تقع في نقطة اتصال واديين، وتبعد زهاء ثلاثة أميال من قمة الجبل، وبيوتها التي تعد ما بين ثمانمائة وتسعمائة مبنية بالحجر والجص، وهي ذات طابقين عادة، وهناك صفوف من البيوت تتراوح بين عشرة وعشرين، الواحد منها فوق الآخر في كل القرية. وعندما حل الظلام وبدأت الأنوار تشع من البيوت في الجهة المقابلة للوادي، كنت وأنا في خيمتي كالناظر إلى ناطحة سحاب وهو واقف في طابق متوسط من ناطحة سحاب أخرى.

وفي بطن القرية تقوم تكية الشيخ حسام الدين، وهي جميلة المنظر غير منتظمة الهندسة إلا أن هذا الرجل العجوز وجد أن بقاء المختار (الهوراماني) الصغير في القرية معه أمراً لا يطيقه فترك تكيته إلى قرية جديدة تدعى (باخه كون) على مبعدة إلى الشمال. وهناك وجدته يقوم بالبستنة والعناية بروضة أزهار للزينة وبالقرب من التكية توجد مقبرة الأسرة الصغيرة حلالي منظرها في مناسبة أخرى في أيار وقد أزهر فيها السوسن الأزرق ذو الساق الطويلة وكان يشوهه وجود

القبور ذات المظهر الحقير وبعضها مغطى برقائق من الصفيح الصدئ وهو عبارة عن (تنكة بنزين) مفتحة الجوانب ذات سعة (أربعة غالونات).

ومعظم أهالي (ته ويلة) صناع، يمتهنون الصناعات اليدوية فضلاً عن امتلاكهم البساتين. و(كلاش) ته ويلة، مشهور في كردستان. وقد راقبت إسكافياً يصنعه. كان النعل من قطع قماش بال صغيرة، يقطعها بالعرض المناسب لكبر النعل المطلوب. وبشكل يكفي لتطبيق ثنياتها مرتين أو ثلاثاً حسب السمك المراد. وكان أمام الإسكاف جذلة ارتفاعها حوالي قدم يستعملها بمثابة سندان. وكلما كان يثني الخرقة ثنية أو اثنتين يطرقها طرقتين أو ثلاثة بمطرقة نحاسية على شكل قطعة الرخ في لعبة الشطرنج. ثم يمد ما تكون من طيات على جذلته ويثقبها بالطول بسفود طويل ذي مقبض (پيكه نه) حتى يبلغ نصل السفود إلى طول النعل. وبعدها يعمل أربعة ثقوب طويلة بآلة تدعى (دره وش) وهي أشبه بمثقب حاد الشفرة منه بسكين قاطعة. ثم يدخل في الثقوب أربعة سيور جلدية وتخرق خرقاً شديداً وتقوى نهايتا النعل من جهة الأصابع بقطعة تدعى (الأنف = لووت) ومن جهة الكعب بقطعة جلدية (چه ك) أو بقطعة من القرون وكلمة (كلاش) التي تطلق عموماً على كل حذاء، يقصد بها هذا النعل فقط. إن الجزء الأعلى من الكلاش (سري كلاش) نسيج من الخيوط القطنية (به ر گ). ومن الصناع الآخرين الذين لاحظتهم، الحدادون والنجارون، وإسكافية أحذية المطاط (كه وش)، والنساجون ووجدت أيضاً دكاكين بقالة وبائعي خردوات، وتجاراً صغاراً في بضائع الترانسيت الإيرانية، ومن أهم بضائع التجارة الصمغ (بنيشت) الذي يستخرج من شجرة (قه زوان = حبة الخضراء) التي تنمو في الجبال من تلقاء نفسها وأفضل أنواعه الأبيض وهو يستحصل من أول عملية احتلاب في السنة، وتقل الجودة إلى أن يصبح اللون مائلاً للصفرة أكثر فأكثر ويعتمد رزق كثير من القرويين على جمع هذا الصمغ ونقل جوزهم وتوتهم المجفف إلى مناطق السهول لمبادلته بالقمح[1] وتقطع

(1) إن الدخول في موسم التوت يحتفل به بيوم لهو ورقص للجنسين يدعى رقص كزيدان = التنظيف.=

الحدود الدولية هذين الواديين فوق نقطة اتصالهما بميل واحد. ومنها ركبت متجهاً إلى الغرب حتى بلغت نهاية البساتين بالقرب من عمود الحدود المرقم (76) وهنا وجدت غديرين ماؤهما مثلوج يصدر من نبعين في سفح الجبل ليحفظهما من شائبة القذارة بنيت قبة فوقهما وهذه القبة هي مقصد الذين لا عمل لهم في موسم القيظ. وتتصل البساتين الطويلة اتصالاً مباشراً ببساتين (دزاوه ر) على الجانب الإيراني الآخر من الوادي الثاني. على أن الخط الفاصل بين أملاك الطرفين مثبت الحدود لذلك لم يكن يثير خط الحدود الذي يتبعه تماماً، أية مشكلة خاصة.

و(بياره) ليست غير موقع آخر مثل (ته ويلة) إلا أن خط الحدود هنا شديد التعقيد بدرجة تفوق كل وصف وهذه القرية مبنية على جانبي واد واسع وتعلوها ثلاث قرى تابعة لإيران وهي (هانه گه رمله) و(كيمنه) و(بيره رواز). وتتصل بساتين ورياض هذه القرى الأربع بعضها ببعض وهنالك ساقيتان على منبسط عال فوق الوادي مجراهما متعرج، يسقيان البساتين التي تلي البساتين العليا مع ساقيتين أخريين صادرتين من النبع الرئيس القريب من (بياره) وهكذا تنزلان لسقي المدرجات على التوالي. لقد وجد أعضاء لجنة حدود العام 1914 أن تحقيقاتهم هنا تزداد تعقيداً بسبب وجود امرأتين للمالك إحداهما تسكن بياره والأخرى تسكن (هانه گه رمله) فيقسم الزوج وقته بين البيتين. ووجد أن بعض الأملاك العقارية التي لم يجر تقسيمها هي ملكية مشتركة بين أشخاص يقطنون في كلتا الجهتين، وعلى العموم فكل البساتين التي تسقى بالسواقي العليا تعد أراضي إيرانية وكل ما يسقى بمياه المنخفض الأسفل يعتبر تركياً، ولذلك رسمت الحدود الدولية بموازاة مجرى قناة يكاد لا يبلغ عرضها ثلاث أقدام تمر وساط بساتين كثيفة، على أن يكون بينهما مسافة ليست قليلة، وجعلت الساقية في تركيا، أما الطريق الذي يحاذيها فيدخل ضمن الحدود الإيرانية. وقد وجد في ميدان التطبيق العملي أن

=تنظف أرض تحت أشجار التوت تنظيفاً جيداً قبل إرسال الصبيان لهز الأغصان وإسقاط الثمر، لتقوم النسوة بجمعه.

القرويين بإمكانهم دائماً الاتفاق على حل مرض لو تركوا وشأنهم. لكن عندما يكون موظفو الجانبين حريصين يحرص كل منهما على (درهم لحم حكومته!) فإن ذلك يؤدي إلى مشاكل خطيرة عند القرويين.

ومن (بياره) انتقلت إلى (هانه گه رمله) بين غابات جوز، لأقضي ليلة ضيفاً على (آڤراسياوبگ)، كبير أسرة (لهون). وأذكر من زيارتي هذه دهشتي لرؤية وسائل صحية منزلية تفوق جداً كل ما شاهدته منها في العراق وإيران وخارج (هه ورامان) من قبل ومن بعد. وهي دليل واضح على تفوقها على كل منجزات ڤسباسيان[1] الصحية في إيطاليا! فمقابل المسجد على سفح التل يوجد خط من الغرف الحجرية المسقوفة لكل منها باب خشبي، يجري في داخلها الماء بساقيتين منفصلتين وعلى مستويين مختلفين. العليا سهلة المتناول ويستخدم ماؤها للوضوء والسفلى مجرى سريع يقوم بمثابة مصرف للمياه القذرة.

لا بد وأن (الهه وره مان) ظلوا منعزلين أكثر من غيرهم وبشكل تام، عن التأثير الأوروبي، مباشِراً أكان هذا التأثير أم غير مباشر - وذلك عن طريق الإصلاح الإداري (التنظيمات الخيرية)[2] التي جرت في تركيا أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهم أبعد من غيرهم عن المراكز الإيرانية والتركية. إن القصيدة التالية للشاعر الكردي (عبد الله گوران)[3] ستقدم رغم ترجمتي الحرفية

---

(1) تيتوس فلابيوس سابينوس فسباسيان (9 - 79م) إمبراطور روماني، اشتهر بعمرانه في إيطاليا، وبنظام المجاري وإسالة الماء الذي ابتدعه في روما ولا تزال آثاره شاخصة. (المترجم).

(2) وتعرف رسمياً «كلخانه خطي همايوني» ويعزى وضعها إلى مصطفى رشيد الصدر الأعظم في عهد عبد المجيد الأول العثماني (حكم 1839 - 1861) وهي إصلاحات قانونية واجتماعية. صدرت على شكل فرمان سلطاني نقلت به البلاد العثمانية من النظام القديم المبني على المبادئ القبلية إلى نظام الدولة الحديثة. فقد تبنت الأسس الحديثة للحريات الشخصية وواجبات الدولة في حمايتها كان أن منعت إنزال عقوبة بدون محاكمة، وساوت بين المواطنين بصرف النظر عن أديانهم إلخ. وعدت أول خطوة للنهضة العثمانية. (المترجم).

(3) عبد الله گوران (1904 - 1962) هو عبد الله بن سليمان بيگ المعروف بـ(كاتب القادرية). ولد في حلبچة وبدأ كشاعر رومانتيكي متأثراً بالرومانتيكيين الترك والإنكليز (أمثال شيللي وكيتس) قام=

السريعة، شرحاً لانطباعاتي هذه، يفوق أي وصف أقدمه أنا ولعل فيها إكباراً وتعظيماً لشأن التقاليد وطرق العيش التي بقيت سائدة منذ مجتمع الإقطاع الإسلامي الغابر.

گه شتى له هه ورامان (جولة في هه ورامان)

1 - ديمه نى ريكاو بان

كومه له شاخيك سه خت و گه ردن كه ش،
ئاسمانى شينى گرتوته باوه ش،
سه رپوشي لووتكه به فرى زور سپى،
به دارستان ره ش ناو دولي كپي.
جو گه ى ئاوه كان تياي قه تيس ماو:
هه ر ئه رون ناكه ن پيچي شاخ ته واو.
هاوارو هاژه ي كه ف جه جه ريني چه م
بو ته نيايي شه و لايه ي خه م!
تووله رى باريك، تووناو توون پشكن
ريبوار ئه خاته ئه نديشه ى بى بن...
ناو ريگا ته ق ته ق، لارى به ردى زل
كه هيشتا گه ردوون پى ى نه داوه تل
گا، سه ره و ژووره، گا، سه ره و خواره
تاي و شيريني ى دنياى ريبواره!..

=بدور تجديدي في الأدب الكردي شكلاً ومضموناً وصار واقعياً. قضى سنوات في السجون والمنافي. من آثاره المطبوعة (فرميسك وهونه ر) أي الدمع والفن و(به هه شت و يادگار) أي الجنة والذكرى. (هه لبژارده) وهي مختارات من القصص المترجمة و(به ما يي كورد) أي الرسالة الكردية و(سروشت وده رووه) أي الطبيعة والضمير و(لاوك وبه يام) أي (اللاوك والرسالة). (المترجم).

الترجمة

منظر في عرض الطريق

كتلة من الجبال صلبة متينة، جمعت في حضنها السماء الزرقاء
والعباءة التي تكسو قمتها بثلج ناصع البياض وتلفها من الأسفل
بسواد الغابة، في صمتها الهاجع، في بطون الوديان
والمياه الحبيسة في سواقيها تجري باستمرار، وتظل تلتف حول الجبال
هدير الزبد ولغطه، غناء الساقية الصاخب ونواحها الحزين في هدأة الليل
وشعب الجبل الضيق يتلمس دربه من نفق إلى نفق
ليسلم عابر السبيل إلى قلق لا نهاية له.
وعلى مدرج الشعب الصخري، وجوانبه، حيث الصخور الهائلة
التي لم تدفع بها السماء إلى الهاوية...
ها هو الآن في قمة الجبل، ها هو الآن في أسفله،
ذلك هو عالم المسافر الجوال، بحلوه ومره

2 - ريگاى ناوباخ

پيش ئه وه ى بگه ى به ئاواتى دى
ئه كشيته ناوباخ توولّه مارى رى
شنه ى سيبه رى دارى كويزو توو
ئه سررى ئاره قى ريبوارى مانوو...
سه سكينى ى ريگاى باخه و باخى ويل
مانوو نه بى يه له م كيل، بو ئه و كيل![1]
- سه لامون عه له يك مامه ى بن دارگويز

(1) كيل: خانوري هاوينه ى ناوباخ. (المترجم).

سـه لامـى مـانـوو لـه پـيـرى بـى ى هـيـز!..
- مـه رحـه بـاسـه رچـاو، بـه چـكـه ى، كـاكـول قـيـت[1]
سـمـورى سـه ر دار، روى لـه ى زرگ و زيـت!
ئـه ورى، هـه ئـه روى.. تـه لان بـه تـه لان،
ئـه مـجـار ئـه گـه يـتـه پـيـچـى بـه رمـالان...

الترجمة

طريق بين البساتين

قـبـل وصـولـك الـقـريـة الـتـي نـقـصـدهـا
يـصـعـد بـك الـطـريـق كـالـحـيـة الـمـلـتـويـة بـيـن الـريـاض
والـنـسـيـم الـرخـي فـي خـلال أشـجـار الـجـوز والـتـوت
يـجـفـف عـرق جـبـيـن الـمـسـافـر الـمـتـعـب
«قـواك الـلّـه»، هـذه الـتـحـيـة مـن ذلـك الـمـسـتـقـبـل وذاك،
تـزيـل عـنـك أتـعـاب الـطـريـق الـوعـر، مـن بـسـتـان إلـى بـسـتـان
الـسـلام عـلـيـك أيـهـا الـعـم الـجـالـس تـحـت شـجـرة الـجـوز
تـلـك هـي تـحـيـة الـمـتـعـب، لـلـعـجـوز الـواهـن.
مـرحـبـا، عـلـى عـيـنـي يـا ولـدي يـا ذا الـشـعـر الـمـصـفـف[2]
إن سـنـجـابـي عـلـى الـشـجـرة يـا فـتـاي الـنـشـيـط
سـر، سـر إلـى الأمـام مـن مـدرج إلـى مـدرج.
حـتـى تـصـل إلـى حـدود الـبـيـوت.

---

(1) كاكول: جوره سه رو كوودله يه كه له هه هه ورامان باوه. (المترجم).

(2) إن فتيان أنحاء كثيرة من إيران وكردستان يرسلون شعر رأسهم إل الخلف حتى مستوى قاعدة الرقبة بأن يمشط ويقلب إلى الوراء ويكور ليخرج من تحت القبعة أو العمامة. وهو ما يطلق عليه (الكاكول) مثل (زي الحلاقة الحديث المنتشر بين الشباب الأوروبي اليوم). (المترجم).

3 - دی

کام به ر به ر به روچکه ی زور باصه فایه
چه شنی دلی شاد دی یه ئاوایه!
خانووی به گزاده له سای دره ختا
ئارامی بووکه له کوشی به ختا
خانووی ئه هالی یش زوریان دوو نهودم:
یه ك له سه ر یه كتر به ره و لووتکه ی كیو
بوئ اسمان ئه چن وه ك پی پیلکه ی دیو[1]
له دی دا کام جیت گه وره به رچاو که وت:
مالی ئاغایه و خانه قاو مزگه وت

الترجمة

قرية

مهما كانت الفسحة المشمسة فهي جميلة
هنالك قرية صغيرة تشبه القلب الفرحان
ومنزل البگزاده الذي يقع تحت ظل الشجرة
هو أشبه براحة العروس في حصن الحظ السعيد
ومنازل القرويين أيضاً، أكثرها ذات طابقين
بعضه مستقيم عمودي، وبعضه محدودب منتفخ
وكله يرتفع في طبقات، حتى قمة المرتفع
مفضية إلى السماء مثل درجات المارد الجني
وأكبر مساكن القرية، هو منزل الآغا والخانقا والمسجد

---

(1) پی پیلکه: قالدرمه. (المترجم).

4 - ژيني ديوه خان

كه گه يشتيته به ر ده ر گاى گه وره
هه ر خزمه تكاروه و ليت ئ هدا ده وره،
ريت پيشان ئه ده ن تاكو ديوه خان،
ئيتر ديوانه و مه رحه باى ميوان...
ده سته ى خزمه تكار فيشه كدان له مل،
به چه فته و مشكى سه رو ته پله زل[1]
ده ست له سه ر خه نجه ر چاوه رى ى فه رمان:
چ بو سه ربرين، چ بو سه ر دانان!
هه چ كه سيك تازه بيته ديوه خان
كر نووشى ئه كا به ساه ر دانه وان[2]
گه رمه ديوانى شه وى به گزاده
تيكه ل و پيكه ل بابه ت و ماده!..

الترجمة

عندما تبلغ مشارف باب كبير، تسمع ضجة الخدم والناس من حوله
وهم يفسحون لك إلى المضيف حيث يستقبل الضيف مكرماً معززاً
ترى المضيفين بأجندة رصاصهم المشدودة على أكتافهم
ورؤوسهم وطاقياتهم منتفخة بالعمائم الحريرية الزاهية
قبضاتهم على خناجرهم ينتظرون أمراً، إما بقطع رأس أو المجيء بالعشاء
كل قادم جديد ما يدخل الديواخان حتى يقوم بالتسليم ويحني هامته
وتزداد اجتماعات البگزاده الليلية حرارة في تبادل الآراء الهامة الكثيرة

(1) ته بله: كلاويكي ره قه له خورى، هه ورامى له سه رى ئه كا. (المترجم).
(2) كرنووشى: سه لام به خو نووشتاندنه وه بوبيشه وه. (المترجم).

5 - مه لای دیوه خان

له ژیر میزه را مه لای نووشتاوه،

ریشی بو سه ر سنگ پرش و بلاده،

قیافه ت به رپووت وه ك كیتیبی كون

زمانی شیرین، سیمای نه ختی مون

بازی روحی چه ش بهش یعرو ئه ده ب

به لام ششیوه ی زووی عه جه م و عه ره ب..

بو میوان ببی مایه ی ته سه لا

له كوری شه ودا: مه لا یه و مه لا!

توو مه لاو شیعرو فه لسه فه ی ئیسلام

كوي راگرتنی تاوتاوی عه وام،

به بی زیادو كه م دینیته پیش چاو:

سه رنجی كویران له نامه ی نووسراو..!

كه دیوان چول بوو، چووبته ناو چیگا،

ده س ئه كریته مل خه وی پاش ریگا!

الترجمة

انظر إلى الملا الذي ينوء بثقل عمامته الكبيرة الواسعة المنقوشة المبعثرة فوق صدره ووجهه المليء بالتجاعيد كأنه سفر عتيق. لسانه يقطر حلاوة وأذنه تنطق بالنعومة مثل البازي، رفع القناع عن شعره وأدبه ذي الأساليب القديمة بالفارسية والعربية وتنظر إلى الضيف الذي هو مصدر تسلية. وترى الناس في مجلس الليل ينادون «ملا، ملا». وأنت والملا والشعر وفلسفة الإسلام، والإصغاء المرهف يوضح بالضبط لا أكثر ولا أقل - درجة طاعة العميان لآيات القرآن. وعندما يخلو الديوان، وتأوي إلى حجرة نومك، ما تلبث أن تحتضن النوم الذي لا بد هو مدركك بعد سفر.

6 - به يان

(اللـَّه اكبر) مه لا بانگ دانه
تاريك و ليلى به ري به يائه
ملگي به جي ماو له سه فه ري شه و
زه ردو له ترسي قاسپه قاسپي كه و!
ئه ستيره ي مه غريب وه ك قه تره ي ئه مه ل
كزكز ئه تكيته ناو به فري سه ركه ل!
له ري ي ئه و به ري شاخ ده نگي زه و گ دي،
له شويني راوكه ر ته قه ي تفه نگ دي!
هه ر سيحري رووته سروشت ئيستاكه!
وا بـه تـه واوي دنيا روونـاكـه
ره دره خت ئه دا شنه ي بي سه حه ر
له سه ر جوگه ي ئاش قازو مراوي
چاوه ري ي روژن هه لبيني چاوي،
به لام تا خولقي نه كا چيشته نگاو[1]
نايه ته ناودي پرشنگي هه تاو!

الترجمة

«الله أكبر» إنه وقت آذان الفجر، في ضوء أولى ساعات الفجر المعتم والقمر المتأخر من دورة الليل، شاحب الوجه ممتلئ خوفاً من صياح القطا ونجمة المساء مثل قطرة الأمل، تزداد عتمة ثم تسقط في الثلج الذي يكسو قمة الجبل ومن مكمن الصياد تدوي طلقة بندقية. انظر كيف أن الدنيا كلها منيرة. إن حسن وجهها غير مجلوب وغير مزخرف

---

(1) مه به ست له به ر به رزى ى شاخه كانى ئه تراف، تا كاتى جيشته نگاو تيشكى روژ له نا ووى نادا. (المترجم).

ونسيم الصبح يهدهد الأشجار التي تميل بتألق شبيه بوخزات صداع
الرأس والأوز والبط على ساقية الرحى ينتظر الصباح ليفتح عينيه فإن
لم تدخل أشعة الشمس القرية فستبقى تنتظر فطورها

7 - مزگه وت

بنچینه ی مزگه وت ینشتوته ناوچه م
روو به ره و قیبله، پشت له جه هه نه م!
مزگه وتی کاتی چیشته نگاوی چول
وه ك مردوو كفنی بی ده نگی به كول
سووره چناری لق و پوپ دریژ
سیبه ر ئه کا بو خه و ی به رده نویژ!
جار جار ئیمامی ته نیامی گوشه ی حه وز:
سه ر سنگ ماچ ئه کا ریشی به وه نه وز!
که سیك بانگ ئه دا ئه شله قینی گوم
ئیمام هه ل ده شی: دار به ده ست، پشع كوم!
تا ته واو ئه بی: (الله اكبر)
نویژ به تال ئه بی، جه ماعه ت بلاو
چه ن پیریك ئه بن به خلته ی لافاو:
سووچیك گه رم ئه که ن به رازی جوانی،
ئاخ به با ئه وه ن بو دنیای فانی!

الترجمة

مسجد

أسس المسجد تغوص في الساقية، وقبلته مكة وظهره نحو جهنم
إن المسجد الخالي وقت الفطور يشبه ميتاً مكفناً بكفن الصمت

وشجرة الچينار الأحمر تنشر أغصانها المديدة وتلقي بظلها على أرض الصلاة وبين آن وآخر يحني الإمام لحيته لتلثم صدره وهو جالس في ركن الحوض وحيدا ويقوم أحد الجماعة مؤذناً ويحرك ماء البركة فيقف الإمام وعصاه بيده وظهره منحن «الله أكبر» وقبل أن ينتهي الآذان، ما تلبث أن ترى المكان وقد امتلأ بالمصلين. انتهت الصلاة وانتشر المصلون. وتبقّى قليل من الشبان في الصحن جالسين في ركن يتذاكرون أسرار الشباب ويصعدون الحسرات على الدنيا الفانية.

8 - كانى ى ژنان

سه رچاوه ى ئاويك: كه له كيك له سه ر:[1]

ژنيك تى ى ئه جى، ژنيك ديته ده ر..

ئه مه ش له دى دا كانى ى ژنانه،

قيبله ى دلدارى ى هه رزه كارانه!

ئيوارا پول پول لاوى كاكول لوول،

سه ره رى ئه گرن سه رگه رم و عه جوول

هه چه ند هاره ى دى هه ياسه ى جوانيك

له هيلانه ى دل ئافرى ئامانيك!..

الترجمة

نبع النساء

هنالك نبع تحيط به حافة من الحجر - امرأة تدخل وأخرى تخرج ذلكم هو نبع نساء القرية. وهو قبلة مكة للرجال، حيث يزدحم مساء، جمع بعد جمع من الفتيان ذوي الشعور الجعداء والرؤوس

---

(1) ديوارى وشكه به رد. (المترجم).

الحارة والصبر القليل، ليسدوا الطريق. فما تسمع خشخشة حزام فتاة، حتى تتطاير من أعشاش أفواههم نداء «ألا رحمة بنا»

9 - ژن

ژنى هه ورامان سه رتاپاى خشل،
سه رچاى بونى ميخه ك و سمل
تا بلى ى ته رپوش، ئال و والا جل
به ژن و بالاو جوان، به ده ن نه رم و شل!
نيونيگاى خه نده ى ئه ستيره ى ئه مه ل
نه غمه ى گفتوگوي وه ك جريوه ى مه ل!
ژينى: به هارى عه شق و جوانى!
جيلوه گاى حوسى: رى ى باخ و كانى!

الترجمة

فتاة هه ورمان مثقلة بالحلى من قمة الرأس حتى أخمص القدم تفوح منها رائحة القرنفل والبلسم[1] ما أجملها في ثيابها الزاهية بقوامها البديع، وبرشاقة جسمها ورخصه. ورقة حديثها الشبيه بزقزقة العصافير. وحياتها ربيع الحب والهوى والشباب إن موضع استعراض جمالها هو طريق العين من البستان

10 - كوراني

عه شقى ئيواره ى سه ره رى ى كانى
به رئه داته چه م كلپه ى گورانى!

---

(1) حلية يشيع لبسها بين النساء الكردستانيات تدعى (ميخه ك به ند) وهي صرة قماشية لوضع الأطياب تحشى عادة بالقرنفل.

روژ ئـــاوا ئـــه بـــى، چـــه م تـــاريـــك دايـــه

ده نـــگـــى «كـــنـــالـــه يـــل»! هـــه ر دوايـــى نـــايـــه!..[1]

مـــا نـــگـــك بـــه تـــريـــفـــه ى نـــاودى ئـــه كـــا كـــه يـــل،

هـــيـــشـــتـــا هـــه ر كـــه رمـــه نـــالـــه ى «كـــنـــا لـــه يـــل!»

«ســـيـــاچـــه مـــانـــه، ســـيـــاچـــه مـــانـــه»[2]

بـــه هـــه شـــتـــى عـــه شـــقـــه ئـــه م هـــه ورامـــانـــه!

ئـــه وه نـــده ى دارو بـــه ردى هـــه ورامـــان

ره حـــمـــه ت لـــه ژنـــى بـــه ژن و بـــالا جـــوان!

«ســـيـــاچـــه مـــانـــه.. ســـيـــاچـــه مـــانـــه»

هـــه ورامـــان جـــيـــگـــاى ســـيـــاچـــه مـــانـــه!

الترجمة

گوراني (أغنية)

الغزل والنسيب على طريق العين، يطلق عبر الوادي دفقة من أغاني (گوراني) وتنحدر الشمس إلى المغيب ويعلو الظلام الوادي ويستمر غناء (كناله يل)[3] بلا نهاية ويرتفع القمر وتسحر أخاديد الصخور بأضوائه ويظل صدى غناء «كناله يل» مستمراً يا عيوناً سوداء، يا عيوناً سوداء. ياهه ورمان يا جنة العشق والغزل. كل حجر وعصا في هه ورمان، لسان ينطق بجمال فتياتها. يا عيوناً سوداء، يا عيوناً سوداء! إن هـه ورمـان هـي بـلـد الـجـمـيـلات ذوات الـعـيـون الـسـود.

وصل (نويل) إلى حلبچة ليتسلم الوظيفة مني قبل مجيء جواب وزارة

---

(1) كناله يل: كجى، يار. (المترجم).

(2) سياچه مانه: جارووره شه، جاوره ش.

(3) هذا عنوان الأغنية ومعناه باللهجة الهورامية (الفتاة المعشوقة). (المترجم).

الخارجية رداً على برقيات المندوب السامي حول عودتي إلى وظيفتي الأصلية. وطلب إليّ أن أرحل إلى (رانيه) للإشراف على الإدارة فيها مؤقتاً. وقبل مغادرتي حلبچة قمت أنا و(نويل) بسفرتين قصيرتين بقيتا عالقتين في ذاكرتي.

كانت أولاهما سفرة على الدواب من حلبچة إلى (موان) عبر شهرزور وهي مما لا يمكن اجتيازه بالسيارات المنطلقة من حلبچه في تلك الفترة من السنة. وكان الغرض منها بحث الموقف السياسي مع (غولد سمث). واخترنا للعودة طريقاً آخر مقارباً (لتانجرو) ولعل موسم الربيع القصير في شهرزور يكون على أجمل هيئة في حدود الأسبوع الأول من نيسان. الحق يقال إن كثيراً من الأزهار البرية لم تتفتح بعد. إلا أن اخضرار العشب وحشيش الزرع الفتي لم يزل في أول غضارته. كان الضياء لطيفاً وسفوح الجبال تبدو في حلّة بهيجة صافية شفافة متعددة الألوان حين تمر فوقها الظلال المتكسرة التي تلقيها عليها قطع الغيوم ووجدنا حقولاً برمتها من الشقيق القرمزي (گولاله) وزهرة نيسان (گول نيسان) بألوانها الزرقاء والبيضاء الأرجوانية الفاتحة تزركش الأرض بقطع عظيمة من الألوان الصارخة. وكان ينبغي لنا أن نقطع في رحلتنا خمسين ميلاً. وأن نعود في اليوم نفسه، فأسرعنا ولم نتسكع. ولست أذكر لي سفرة على ظهور الخيل أكثر إرهاقاً من هذه السفرة، كنا نسير خبباً فوق العشب الناعم ونمر بما لا يحصى من التلول الأثرية، ومن أبرزها تل (به كراوه) المخروطي المقطوم الرأس قرب حلبچة. وتل «ياسين تپة» المخروطي، في القسم الأدنى من (تانجه رو) وتل (بنگرد) المخروطي في (موان) بالذات[1]. وبعد تبادل الرأي قررنا أن نرفع للسيد پرسي كوكس[2] رأينا

---

(1) أعتقد أن كل الباحثين يتفقون الآن بأن (ياسين ته به) هو موقع عاصمة مملكة شهرزور الكردية التي قامت في القرون الوسيطة ويحسب ما ذكر سبايزر (المرجع السالف) أن أبعاده هي 600 ? 660 قدماً وارتفاعه (60) قدماً ويثبت سبايزر أيضاً كلا من قريتي (به كراوه) و(بنكرد) هما مدينتا (اتليلا واراكدى) اللتين جاء ذكرهما في وقائع حملات آشور ناصر بال العسكرية على (زاموا).

(2) سر برسي زكريا كوكس (1864 - 1937)، إداري بريطاني، خدم في الكاميرون ضابطاً حتى 1889، ثم انتقل إلى الإدارة الهندية. ثم نائب قنصل في زيلا على ساحل الصومال ثم قنصلاً في بربره،=

الذي أجمعنا عليه، وهو اتخاذ حل سياسي سريع لمعالجة القلق المتزايد. وإنه إذا ما اتخذ قرار بمنح الحكم الذاتي فإن «السيد طه شمدينان» هو خير المرشحين له وأفضل من الشيخ محمود. والمفهوم آنذاك أن السيد طه كان يعيش في إيران قرب (اورميه) وزدنا إلى هذا اقتراحاً يقضي أن أتوجه أنا شخصياً إليه من (رانيه) وأتصل به بأسرع ما يمكن.

وأما السفرة الثانية فوقعت في 23 نيسان، وكانت إلى قرية (يالايني) التي تقع فوق واحدة من هضاب هه ورمان الجانبية. وكنت أريد مقابلة (محمود خان دزلي) عميد أسرة (بهرام بگي) الذي كان قد أعيد من منفاه في الهند كما أسلفنا. وهو الآن قد عاد يرفع لواء الثورة ويقلق المنطقة، حتى اضطرته سلسلة ناجحة من العمليات الجوية ضد قراه في الجانب العراقي من الحدود طوال شهر آذار، إلى طلب الدخالة. أذكر أني جلست في حلقة من رجال القبائل المعممين بأكبر العمائم وبأيديهم بندقياتهم وعلى صدورهم تتقاطع أجندة الرصاص وكان الإيوان المفتوح يشرف على منظر بديع: سفح جبلي مغطى بأشجار البلوط ويليه سهل شهرزور الواسع الممتد غرباً بين سلسلتي الجبال اللتين تحفان بجانبيه إلى أقصى ما يمتد إليه النظر. لقد نسيت تفاصيل حديثنا وأعتقد أنه كان ناجحاً أو ممهداً لطريق النجاح على الأقل، لأن تقرير المندوب السامي الرسمي عن العراق لسنة 1922 - 1923 يذكر هذا: «أبرم اتفاق مع دزلي في أيار» ولم يكن محمود خان مشاركاً عندما اتخذت عمليات حربية ضد القبائل الهورامية، قام بها رتل من الليفي بقيادة الجنرال «نايتنگيل Nightingale» في شهري أيار وحزيران.

=ومسقط وبوشير - إيران 1904 ثم مقيماً سياسياً في الخليج، وفي 1914 سكرتيراً للدائرة الهندية في الهند. ثم كبير الضباط السياسيين لحملة العراق. ووكيلاً للسفير البريطاني في إيران 1919، وكان آخر منصب تقلده هو المندوب السامي البريطاني في العراق حيث بقي خمس سنوات وأصبح بعد تقاعده رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية 1933 ولعب دوراً خطيراً في تكوين العراق الحديث. (المترجم).

عندما أنظر إلى الخلف، أجد أن زيارتي هذه لـ(يالايني) قد أثارت في نفسي تأملات معينة حول المسألة التالية: «في بلاد كهذه، ما أن يبلغ الذكر سن الحلم حتى يقتني بندقية. وفي كردستان هذه حيث لا شيء أرخص من حياة البشر، كيف؟ وإلى أي مدى يستطيع الضابط السياسي، أن يبرر لنفسه وضع حياته ومقدراته تحت رحمة أو سيطرة أي رجل قبلي أساء التصرف أو كان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد أنه يقف ضد الحكومة؟». بعد مرور هذا الوقت، لست أريد تبيان مقدار المخاطر التي تعرضنا لها في عملنا إذ لم يكن أحد منا فيها مستجداً. بل كنا نعلم بأن لا خوف علينا قط. ولقد أوضحت فيما مضى أن المندوب السامي كان يحاول حكم كردستان بقليل من الموارد والإمكانات وأن الضباط السياسيين كانوا مضطرين إلى الاعتماد على حسن تصرفهم على الأغلب. فإذا لم تصب الإدارة بانهيار تام، فليس في مقدورهم أن يفعلوا أكثر من التجول في مناطقهم والظهور بمظهر غير المتكرث وبأقل حرس ممكن. هذا من جهة ومن جهة أخرى (دعك من النتائج المؤسفة التي تؤدي إليها هذه الأحوال) فإن أخطر غلطة سياسية يقع فيها الضابط السياسي هو أن يرخص نفسه إلى حد الفتك به. فإذا قتل، تنهار الإدارة انهياراً تاماً، وجرياً على قاعدة «إن كان لا بد من الشنق، فالأفضل أن تشنق بسبب شاة، من أن تشنق بشأن حمل». تهبّ المنطقة أو القبيلة المعنية كلها ثائرة وتضيع الأرواح الكثيرة وتقع خسائر جسيمة في الأموال قبل عودة الأمن إلى نصابه. في رأيي أن الضابط السياسي يجب أن يتحلى بالقابلية على تفهم عاملين: أولها حالة شيخ القبيلة الفكرية أهو (مأيوس = فاقد كل أمل) أو (أميدوار = كبير الأمل) على حد التعبير اللري[1] الدقيق. وثانيهما وهو الأهم، الدرجة التي تتمتع بها الحكومة من هيبة بصورة عامة، ومكانة الضابط نفسه في تلك اللحظة. هناك مواقف لا يملك معها إلا الإصرار على القيام بعمل حاسم

(1) لسنا بحاجة بعد كل ما ذكره المؤلف من أسانيد وأخبار عن اللريين ولرستان وصلة تاريخهم - التأكيد مرة أخرى على أن اللريين هم أكراد، وإن أنكر المؤلف ذلك في مفتتح كتابه. (المترجم).

مثبت للهيبة في مقر الإدارة المركزية (مع أنه قد يتردد في القيام بهذا، إن لم يقدر إمكان حصوله على إسناد قوة كافية في حالة رفض المركز). هناك وسائل أخرى لا سيما إذا خيل له أن الشخص المقصود بالإجراء الحكومي، قد يقدم على شيء سخيف بعامل الخوف من المجهول، دوافعه أمور أكثر من الشر أو المكر. وقد تقوم إذ ذاك زيارة مؤقتة توقيتاً حسناً بقمع تباشير ثورة في مهدها. لكن عندما يعمل كل شيء ويقال كل شيء فيجب الإقرار بأن الحظ يلعب دوراً لا يقل خطورة عن الحكم الصائب في الأمور. وبصورة عامة وعند الشك، ليس للضباط السياسيين إلا أن يختاروا سبيل الشدة والصرامة، ثم يتمسكون بأهداب الأمل.

- 13 -

الكاكائيون

في جنوب كردستان العراق، يطلق اسم (كاكائي) على طائفة دينية تعرف في غرب إيران عموماً بـ(عليّ الله) أو (علي الا هي) أو (عَلَي اللَّهِ). وكذلك سماها معظم الرحالة الأوروبيين وكتابهم وأتباع الطائفة أنفسهم يفضلون اسم (أهل حقيقة) أو (أهلِ حقْ) أعني جماعة الحقيقة الإلهية أو ذوي المعرفة الإلهية، أو بكلمة أخرى (أهل المعرفة Logos) أو (أهل الله) وليس في هذين الاسمين كفاية في الدلالة، فثمة طوائف وطرائق صوفية أخرى وكلها تدّعي بأنها (أهل الحقيقة) أو الحق - دون سواها وهي تنتسب إلى ابن عم النبي العربي محمد(ص) ومكانته في عقائدهم وطرقهم أسمى بكثير مما يضعه فيه الكاكائية. هذا وأن اسم الكاكائية جاء مباشرة من الأسطورة المتعلقة بنشوء هذه الطائفة بالذات، وهي لا تترك أي مجال للتوهم أو سوء الفهم.

هنالك فذلكة مقتضية عن «العلي الآهية» في غرب إيران يتضمنها كتاب «ج. ماكدونالد كينير الموسوم تعليقات جغرافية عن الامبراطورية الفارسية[1] 1813» وكتاب (گ. كِيبل) الموسوم: حكاية شخصية لرحلة من الهند إلى إنكلترا - 1817[2]. ويبدو أن أقدم بحث مفصل عنهم كتبه رحالة أوروبي كان بقلم

---

(1) Geographical Memoire of the Persian Empire, J. Mackdonald Kinner.

(2) Personal Narrative of a Journey from India to England, G. Keppel.

(راولنسن) وهو البحث الشهير الذي طالما نوهت به (ملحوظات عن رحلة من زهاب إلى خوزستان، من أعمال آسيا الوسطى 1939 - مجلة الجمعية الجغرافية المليكة). ويذكر أن (راولنسن) قضى مدة طويلة يقود لواء من الجيش الإيراني جُنِّد أفراده على الأغلب من (علي آلهيةِ) قبيلة گوران. لكن مع شدة اهتمامه والفرص الممتازة التي عنت له لم يتعمق كثيراً وينفذ من سطح التحفظ والتكتم الذي تمتاز به الطائفة. والفضل في أول اهتداء صحيح للحقائق عنهم يعود إلى (الكونت جوزيف آرثر دي غوبينو)[1] الذي قدم إلى إيران العام 1855 بمنصب سكرتير أول لبعثة نابوليون الثالث الدبلوماسية إلى البلاط القاجاري. وقد وصف ما توصل إليه من حقائق في كتاب على غاية من الطرافة لم يخلق جدته توالي السنين وعنوانه (ثلاث سنوات في آسيا)[2]. وهناك ذكر لهذه الطائفة تجده في آثار عدد كثير من الرحالة المتأخرين، إلا أن الأبحاث الوافية التي تصلح أن تكون مرجعاً هي تلك التي كتبها (ف. مينورسكي) في مقاله (ملاحظات عن طائفة أهلي - حق)[3]. ومقالتيه في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادتي (أهل حق، وسلطان أسحق).

جمع (مينورسكى) معلوماته في إيران، كما جمعت كل المعلومات المنشورة عنهم في أوروبا تقريباً. والبحث الذي سأعرضه في الصحائف التالية يستند إلى

---

(1) Joseph Arthur, Comte de Gobineau، (1816 - 1882). دبلوماسي فرنسي وكاتب، كتب في الصحف الباريسية فلفت إليه نظر وزير الخارجية توكفيل فجعله كبير أمناء سره، وتقلب في عدة وظائف خارجية منها منصبه في إيران، إلا أن شهرته كانت في كتاباته ولا سيمال الشرقية منها. فقد كتب عن البهائية البابية وكتابه (عدم التساوي بين الأجناس البشرية)، أصاب أعظم الشهرة عند النازيين وتبنوا نظرياته. هذا إلى جانب روايات لطيفة جداً عن الشرق. (المترجم).

(2) طبع في باريس سنة 1859.

(3) «مجلة العالم الإسلامي»، مجلد 40، 45 لسنة 1920 - 1921. نشر في كتاب مستقل في باريس بمعرفة (أرنست ليرو) سنة 1922، إن أوائل منشورات مينورسكي باللغة الروسية، هي بالنسبة لي باب مغلق مع الأسف. لقد نشر بعد كتابة هذا الفصل كتاب «عباد الحق في كردستان» بقلم (و. إيفانوف W. Ivanov) - بومباي وهو يتضمن كثيراً من المواد الهامة، ومعظمها من مصادر (آتش بگي) الإيرانية.

مواد وأحاديث زودني بها رجال دينهم الكبار ومعظمهم يقطن العراق إلا أن واحداً أو اثنين منهم يسكنان القرى الواقعة في إيران بالقرب من الحدود وهي معلومات تنشر لأول مرة. هذا باستثناء ما ذكرت صراحة أني نقلته من مصدر آخر. وسيظهر أن نتائجي تعزز ما توصل إليه (مينورسكي) في معظم نواحي الموضوع وأظنها ستلقي ضوءاً جديداً على كثير من النقاط الغامضة إلى الآن ومع أن هناك حقائق واستنتاجات توصلت إليها تخالف ما توصل إليه من بعض النواحي فعليّ أن أنتهز الفرصة لأعرب عن مقدار امتناني والفضل الذي أدين به لأبحاثه إذ لولا حصولي على المعلومات التمهيدية الأساسية لتعذر عليّ أن أقطع شوطاً بعيداً في أبحاثي.

ولقد اعتزمت أن لا أنفذ في هذا الكتاب إلى أعماق عقائد الكاكائية السرية نفوذاً شديداً وألا أسهب في شرح طقوسها وإنما فضلت التركيز على تأريخهم وتنظيماتهم وانتشارهم الجغرافي وموقعهم من نظام مجتمع جنوب كردستان. وأستدرك فأقول إن الشك لا يخالجني في كذب قصص المراسيم السرية المختلفة التي تجري بعد إطفاء الأنوار وروايات أخرى مشابهة وهي التي طالما رويت في كل الأزمان عن مجتمعات وطوائف سرية لا نستثني منها المسيحيين الأوائل فكل هذه لا تستند إلى أساس من الحقيقة بقدر ما يتعلق بالكاكائية.

أما مراجع بحثي فهي الآتية: 1 - كراس صغير، أو (تذكرة) كتبه لي شخصياً كاكائي مثقف ذكي كان موظفاً مدنياً عثمانياً سابقاً[1]، وهو باللغة التركية. 2 - عدد من المنظومات الشعرية باللهجة الكورانية. 3 - مذكرات دقيقة مفصلة من ضمنها يوميات لي سجلت فيها عدة أحديث تبادلتها مع بضعة عشر كاكائياً.

وأرى من الأفضل أن تروى قصة نشوء هذه الطائفة بعبارات (التذكرة) نفسها:

إن مؤسس ورئيس هذا المذهب السري (مه ذهه بي باطني) هو (سيد أسحق)

(1) (التذكرة)، مدونة بالقلم الرصاص وبخط في غاية الدقة وقد اعتمدت على ترجمتها الكردية الأكثر وضوحاً في معظم دراستي، وكانت مرفقة بالأصل، إلا أني أشرت إلى النص التركي عندما كانت أي نقطة تبدو بحاجة إلى تحقيق وتمحيص.

الابن الأصغر (للشيخ عيسى[1] برزنجي وگوراني). إن الشيخ عيسي هذا الذي يسمى في شجرة السلالة (بالقطب الأعظم)، كان قد غادر (همدان) وأنشأ قرية برزنجة شرق السليمانية في مشارف هورمان وشقيقه الشيخ موسى، الذي رافقه لم يعقب ذرية. والشيخ عيسى الذي هو ابن (بابا علي همداني) اتخذ أول زوجاته من قبيلة گژاوي[2] وأنجب منها ثلاثة أبناء هم (شيخ عبد الستار، وسيد عبد الكريم، وسيد عبد القادر).

وفي يوم ما وقد بلغ الشيخ عيسي من العمر عتياً، زاره ثلاثة دراويش من الأولياء (ارينلر) وألحوا عليه بالزواج ثانية فاعتذر بكبر سنه لكنه سمح لنفسه أن يقنع أخيراً، ورغب في أن يتزوج ابنة (مير محمد) زعيم الجاف المسماة (دايراك)[3] التي اشتهرت بتقواها وأخلاقها. فما كان من (مير محمد) المتعجرف (الظاهري) المذهب، إلا وأعلن رفضه وأمر رجاله بتقطيع أوصال وسطاء الزواج إرباً. إلا أن الدراويش عادوا إلى الحياة مباشرة بعد قتلهم وتكرر العمل ثانية وثالثة حتى ثبت بشكل قاطع أن هؤلاء الدراويش من صانعي المعجزات (أصحاب كرامة) فوافق (مير محمد) على الزواج بعد استشارة وجهاء قومه وأكبرهم سناً، وأراد أن يثقل كاهل طالبي الزواج ظاناً بذلك أنه يتخلص من إلحافهم فاشترط أن يقوم الشيخ عيسي بفرش الطريق الممتد من تكيته إلى باب بيت (المير) بالطنافس الثمينة، وأن يمهر العروس بألف حمل بغل من الذهب وعشرة آلاف رأس (بعير!) ومثلها من الخيل والأفراس والضأن خلال ثلاثة أيام فقط. فرحل الدراويش الثلاثة مساء وما كاد الصبح ينبلج حتى تحققت الشروط المطلوبة، أي في يوم واحد فقط، ولم يعد للمير محمد حجة أخرى فزوج بنته بالشيخ عيسى، وبعد سنة

---

(1) يتلفظ الكاكائية اسمي عيسى وموسى بإشباع الإمالة في حرف الياء، هكذا: (عيسي، وموسي).

(2) نسبة إلى قرية كژاو قرب برزنجة.

(3) هكذا جاء في (التذكرة) أيضاً، أما مخبريّ من الأشخاص الذين اعتمدتهم فهم يسمونها عموماً (دايرا).

واحدة من ذلك، أي في العام 671هـ/ 1272 - 1273، ولدت (دايراك خاتون) سيد أسحق».

«ومرت السنون وشب سيد أسحق فتى، وكانت تكية الشيخ عيسى القديمة تحتاج إلى إصلاح، لكن عندما جيء بالعارضة الخشبية الأساسية لدعم السقف ورفعت فوق الجدران تبين أنها أقصر من أن تستقر نهايتاها على رأسي الحائطين المتقابلين ولما شاهد (أسحق) أباه مهموماً أسرع يعتلي ظهر الجدار وأمسك بإحدى نهايتي العارضة ونادى أباه، أو أخاه الأكبر قائلاً: كاكه بكيشه! = أخي اسحب. وهكذا سحبت العارضة فاستطالت ووضعاها في موضعها[1]. وامتلأ أخ أسحق غيرة وحسداً لما نال أخوه من إكبار وإكرام من أبيه وكل من شاهد معجزة الفتى الصالح أسحق. وانتشر بين الناس أن قصة زواج أبيه العقيم الهرم إنما كانت نبوءة من الدراويش، وعزوا أبوته الحقيقية لهم. وكان من نتائج هذه القصة والبغضاء التي حملها أخوته أن ترك موطنه ونزح إلى هه ورمان حيث بنى «نياز خانه»[2] وهو موضع عبادة يقوم مقام تكية اعتيادية... والمذهب الذي أنشأه... بدأ في هذا الموضع في 716هـ تقريباً أي في حدود 1316 - 1317م.

واستقر السيد أسحق الذي سيعرف من الآن فصاعداً باسم «سلطان أسحق» في (پردي وار) على ضفة سيروان اليمنى بالقرب من القرية الحالية (شيخان) في (هه ورمان لهون) على بعد ميلين من عالية النهر في نقطة بدء انحدار الحدود الدولية نحو النهر وعرفت سنوات رسالته بفترة (پردي وار).

واجتمع حول (سلطان أسحق) في (پردي وار) ثلاث حلقات تتألف كل حلقة من سبعة أشخاص أطلق عليهم اسم «هفتان، وهفتوانه»[3] و(هفت خليفة) فضلاً

---

(1) يزعمون أن العارضة الخشبية الموجودة اليوم في مسجد برزنجة هي التي جرت عليها المعجزة.

(2) كلمة نياز بالإيرانية تعني «طلب أو رجاء» وفي الكردية تعني «نية»، وعند الكاكائية لها معنى خاص وهو ما يقدمه المريدون من ثمر وخضار (كضد للنذر - أي ضحية من اللحم).

(3) على أن التذكرة تسمى الحلقة الأولى (هفت - تاني جاويدان = السبعة الخالدون). والحلقة الثانية (هفت تاني ناجيان = السبعة الذين عصموا عن الخطأ).

عن حلقات أخرى اقتصر هنا على ذكر حلقة «هفتادودو پير = الشيوخ الاثنان والسبعون».

والهفتان هم صحابة (تلاميذ السلطان السبعة في پردى وار وإليك أسماءهم: (داود، بنيامين، مصطفاي داود داني، پير موسى، پير رازبار يارزرده بان، يئه وت) وكل بحث عن اتجاهات وأعمال هؤلاء الصحابة السبعة سيقودني إلى الخوض في العقائد الباطنية الكاكائية وطقوسهم ولهذا أكون قد تعديت الحدود التي رسمتها لنفسي وإني ما ذكرتها هنا إلا لأن أول اثنين منها قد ألهبا أخيلة بعض أوائل الرحالة وأقنعاهم بوجود صلة ما هاهنا، بالديانة اليهودية، وهو محض خطأ. وكذلك ذكرتهم أيضاً بسبب اقتران ثالث الهفتاد أي (هفت خليفة) بداوود الذي هو من (هفت تان).

والهفتوانه أو (هه فتاني ناجي يان) هم أولاد السلطان أسحق السبعة وإليك أسماءهم: (سيد أحمد ميره سور، سيد مصطفى سه فيد بوش، سيد محمد، سيد عبد الوفا، سيد باوه[1] عيسى علم دار، سيد شهاب الدين، سيد حبيب شاه) والأخيران لم يعقبا نسلاً من الذكور. أما الخمسة الأول فكانوا رؤوس الأسر المعروفة على التوالي: ميري أو ميره سوري، ومصطفاي وإبراهيمي - نسبة إلى اسم شاه إبراهيم حفيد سيد محمد (وقبره الآن في بغداد) وخموشي نسبة إلى خموش بن عبالوفا. وباوه سيى هذه هي أسر السادة الأصلية الخمس وسأعود إلى وصف دور كل أسرة منها في المجتمع الكاكائي - بعد قليل.

أما (الهفت خليفة) أو الرسل السبعة فقد اختارهم السلطان أسحق من بين الشيوخ الاثنين والسبعين ليكونوا أدلة أو مرشدين بإشراف من (داوود) الذي كان من (الهفتان)، لكل الطائفة بدون استثناء حتى السادة منهم. وتنوه (التذكرة) ببعض أسماء الأدلة مثل پير محي وپير نريمان، وپير عبد العزيز، وخليفة محمد، وخليفة

(1) (باوه) هي الكلمة الكردية المرادفة للفظة الإيرانية. (بابا).

شهاب الدين، وخليفة باپير، وخليفة جبار[1] ويمثل الأدلة الخمسة في يومنا هذا سبع أسر لم تنحدر كلها من الخلفاء الأصليين مباشرة.

وكل كاكائي (لا يستثني منهم أفراد أسرة السادة أو الأدلة) يجب أن ينتسب إلى سيد بوصفه پيرا له، وإلى دليل. وفي (پردي وار) تبادل (الهفتوانة) الانتساب فيما بينهم فأصبح واحدهم پيراً للآخر على النحو التالي: أحمد سور مع السيد مصطفاي، والسيد شهاب الدين مع السيد عبد الوفا، والسيد شاه مع السيد باوه عيسى، أما السيد محمود الذي كان أول السبعة وأعظمهم وأرفعهم وأبعدهم صيتاً، فقد اتخذ السيد أحمد له پيرا إلا أنه لم يجعل نفسه پيرا لأي من أخوته[2]. وكان الپيران الأدلة يلتزمون بواجبات معينة تجاه من ينتسبون لهم، ويتقاضونهم أيضاً حقوقاً معينة، كما يمارسون طقوساً مخصوصة في الاجتماعات والحلقات الدينية. ولم يكن من الضروري التفقه والعمق في أسرار العقيدة الكاكائية. وتناط مهمة الوعظ والإرشاد بأشخاص يطلق عليهم اسم (كالامخوان) وهؤلاء قد يكونون من أية مجموعة من المجموعات الثلاث. والكاكائي نظرياً، حر في اختيار پيره ودليله (باستثناء السادة منهم على الأرجح) إلا أنه عملياً يتبع أباه. وعند وفاة پيره أو دليله يكون له الحق في الانضمام إلى أية فرقة من فرق المريدين بين الأبناء، حسبما تعين له بالوصية. والمصاهرة ممنوعة بين الأشخاص الذين يتبادلون وظائف الپير أو الدليل أو المريد أحدهم للآخر.

وبمرور الزمن - ولأسباب جغرافية أو غيرها - حصل انتساب بين أسر الهفتوانة الخسم الأصلية وبين خمس أسر أخرى، ليست منها بحكم الضرورة.

---

(1) هناك قائمة أخرى زودني بها أفضل مخبر من مصادري الشفوية. وهي تجعل كلا من (أمير) و(جهاني) ؟؟ أول اثنين.

(2) لما لم يخلف اثنان من السبعة ذرية، وجب إعادة الترتيب، ويظهر أن الانتساب الحالي هو على الوجه التالي: الميره سورى مع المصطفاي متبادلاً كالسابق. والإبراهيمي مع الخامشوي متبادلاً والباوه ره يسى مع الميره سوري ليس متبادلاً.

وقد سميت بأسماء خمسة أشخاص، جعلتهم حياتهم الصالحة وقدرتهم على عمل الكرامات، في صف أولئك الذين انحدروا من صلب المؤسس نفسه. وقد نوهت (التذكرة) باثنين من هؤلاء لإثبات أحقيتهم في مساواتهم بالآخرين وهما (باوه حيدر) و(شيخ هاياس = أياس ؟) إلا أن معظم مصادري من المخبرين يذكرون هذين مع ثلاثة آخرين هم: (باوه يادگار، ميرحمزه، ئهتشي بك)[1]. وظلت هذه الأسر الخمس كلها تنتسب إلى سادة أربع أسر من الأسر الخمس الهفتوانية الأصلية، فانتسب حيدر إلى مصطفاي وانتسب هاپاس إلى خاموش، وانتسب يادگار وحمزة إلى إبراهيم وئه ته شي بك إلى ميره سور.

ورد في (التذكرة) أن (باوه حيدر) كان بالأصل (دليلاً) (لم تذكر اسم الخليفة الأصلي الجد) ويجمع أضعاء أسرته الآن بين وظيفتي الپير والدليل في الانتساب مع مريديهم. والمصادر كلها تتفق في أن تعزو إليهم المقدرة على الشفاء من لدغة الأفعى، والصرع والشلل. ومن مخبري، كاكائي يمارس وظيفة الدليل، كان قد قسم مريديه إلى مجموعتين هما أسرتا باوه حيدر، وعمر مندان[2] وترى أفراد المجموعة الأولى يلصقون لقب (باوه) بأسمائهم. وتتألف المجموعة الثانية من پيرات خمسة هم: پير مخو (مخي؟) وپير نه ريمان، وبپير محمد وپير إبراهيم (يجب ألا يخلط بين هذين الاسمين الأخيرين وبين نظريتهما من الهفتوانه) وپارپيروز. وأعضاء هذه الأسر تحمل لقب (مام).

---

(1) يقال إن سادة الباوه حيدري انحدروا من أخوية باوه دانيال وباوه خوبيار، وانحدر الهاياس من خادم الشيخ أو سادن ضريحه (داسوار) وانحدر اليادكار من الخادمين (داسال وخايال) والمعتقد أن (ميره حمزة) هو خادم علي قلندر (وهو ولي مجهول المركز والتاريخ) وهكذا فإن سادة هذه الأسرة يلقبون أحياناً ب(علي). ويذكر مينورسكي (حاشية ص23) أنه عندما زار قبر (باوه يادكار) 1914 في زهاب، أخذ إلى قبر يعرف باسم (سيد واسال) الذي آثر عنه أنه ابن يادكار بالتبني. وقد عاش في 1005هـ/ 1596 - 1597م.

(2) في هذا الاسم أهمية، توجد قرية (عمر مندان) بالقرب من الطريق العام من كركوك إلى طقطق لا تبعد عن الزاب كثيراً. وعند مروري بالقرب منها في عدة مناسبات كنت أسمع أن أهاليها من السادة ولديهم قدرة على شفاء لدغات الأفاعي، ولم يذكر لي انتسابهم إلى كاكائية أسرة الشيخ (هاياس).

ومعظم الباحثين الأوروبيين ذكروا أن الكاكائية ينقسمون إلى (بطون) قبلية وجاؤوا بأسماء أسرة أو أكثر من الأسر العشر التي ينتخب فيها المريدون پيرهم. وهذا الاعتبار منهم يبدو ضئيلاً بعض الشيء لأن كل فرد - كما وجدنا - يتمتع بحرية واسعة في الاختيار. وبهذا يمكن أن يختلف الارتباط بين سكان القرية نفسها أو حتى بين أعضاء الأسرة نفسها. إن المآثر الكاكائية ومعتقداتها هي على الأغلب منظومة في أناشيد وقصائد سهلة الحفظ باللهجة الگورانية أو باللغة التركية ويظهر على أكثر تقدير أن الخلافات العقائدية لا تتبع الانتسابات. بل هي بالأحرى ناجمة عن الانفصال الجغرافي ممتزجة بالبدع التي يدخلها سادة أو أدلة مبرزون ممن اختيروا ليكونوا وعاظاً (كالأخوان). وقد حصل هذا في أسرة (نه تيش بكي) إلى الحد الذي قد يمكن القول إنهم جعلوا من أنفسهم (بطناً) أو فرعاً مستقلاً. ورأيي هو أن المذهب الكاكائي وتقاليده قد حفظت في الجانب العراقي بشكل أنقى وأكثر بساطة منه في الجانب الإيراني.

ويلاحظ في هذا البحث عن التنظيم الكاكائي أنه لا يوجد موضع لفرقة (الداوودي) خلافاً لما ذكره (غوبينو) وغيره. وقد أعلمني موظف كركوكي ذو تجارب عظيمة (لم يكن هو نفسه كاكائياً) إن لقب الكاكائية وإن جرى إطلاقه على كل أهل الطائفة، فربما كان من الأدق قصره على السادة فحسب والاسم الذي يجب إطلاقه على الأسر الأخرى هو (داوودي). إن هذا التعليل يبدو منطقياً، ولا سيما بالنظر إلى مكانة (داوود الهفت تان) باعتباره معلماً وأباً أعلى لكل الأدلة. على أني لم أسمع باسم (ذاوودي) يطلق على الكاكائية قاطبة أو على فئة معينة منهم إلا في هذه المناسبة الوحيدة.

وأهم سلالة من سادة الكاكائية في العراق هي (الإبراهيمي). وهو الفرع الأقدم. وفي زمني كان يمثله في منطقة طاووق ثلاثة أبناء عم، وهم (علي ابن رستم، وفتاح ابن خليل، وسليمان ابن والاد) وهم جميعاً أحفاد من يسمى (سيد محمود) وفي عام 1931 أطلعني هؤلاء عى شجرة الأسرة وهي مكتوبة على رق ملفوف طوله زهاء سبع أقدام وعرضه تسعة أنشات مصدرة بالبسملة وبمقدمة

طويلة. ووجدت أسماء الأصول الخمسة الأولى مدونة بالحبر الأسود، تليها أسطر متدرجة الألوان وبعدها تستقر على ترتيب لوني ثابت: الأسود والأزرق والأحمر والأصفر والأخضر سطراً سطراً وهكذا دواليك حتى تنتهي باسم (سيد محمد) الذي ذكرناه آنفاً وهي تحمل تاريخ 1215[1] رومي = (1799 - 1800م). وفيها أختام مختلف مشاهير الشخصيات الدينية ومنها ختم (كاك أحمد) الذي يشهد بصحتها. (وهذا هو ما قيل لي إلا أني لم أتحقق منه بنفسي في حينه).

ويبدو أن السيد محمود هو الحفيد الثامن عشر المنحدر من صلب (سلطان أسحق) وهذا ما يجعل وجود واحد وعشرين جيلاً من السيد عيسى نوربخش حتى السيد علي والسيد فتاح، اللذين يمكن إثبات تأريخ ميلادهما ما بين عامي 1895 - و1900، بافتراض معدل مطلق لكل جيل قدره (32) سنة. وقد تكون أسماء بعض الأجيال ما بين الحدين مهمة في تحديد العصور التاريخية التي مرت بها الطائفة وقد أثبتناها في الهامش أدناه[2]. والملاحظ أن اسم ابن السلطان أسحق قد دون في الشجرة (زياد الدين) لا محمد وهذا لا يخلق صعوبة لأن العادة الجارية عند الدراويش المرشدين توجب عليهم اتخاذ اسم وصفي يلحق به كلمة (دين) ويضاف كله إلى اسم الشخص.

---

(1) تلك هي السنة الشمسية المالية التي اتخذها السلطان سليم الثالث تقويماً رسمياً بعد العام 1789. وهي توافق التقويم القديم إلا من جهة كون سنتها تبدأ في 12 آذار. وقد أعطى رقم (1205) لأول سنة رسمية منها، وهو رقم السنة الهجرية المبتدئة في 10 أيلول 1790م (وحسب التقويم الجديد) وفي العام 1904 وافقت السنة الرومية 1320 - السنة الهجرية 1322 تمام اتفاق تقريباً. والتباين بين التقويمين سيظل يزداد باطراد سنة واحدة كل ثلاثين سنة تقريباً.

(2) وإليك الأسماء بالتسلسل الصاعد. (السادة: محمد، إبراهيم، رستم، إبراهيم، علي، محمد، خليل علي خان، رضا، إبراهيم، ميره، شاه علي خيران، جراغ، جعفر خان، ميره، إبراهيم شاه، زيد الدين، أسحق) وإن نحن سرنا بشجرة البرزنجة الحقيقية إلى أبعد من هذا، نجد ثمانية أجيال أخرى تصل إلى الإمام موسى الكاظم، تليها أجيال أخرى ترتفع إلى الإمام علي، تليها خمسة وأربعون جيلاً أخرى (منها إبراهيم وإسماعيل - يمثلان الجيلين السابع والعشرين والثامن والعشرين) حتى تصل الشجرة إلى (آدم) أبي الشجرة.

إن شخصية والدة سلطان أسحق تستدعي منا بعض التعليق. فالمأثور عنها أنها ابنة (مير محمد جاف) عند كتاب التذكرة، وابنة (حسن بگك جاف) عند معظم المخبرين الذين زودوني بالمعلومات. واسم (الجاف) لا يظهر في كتاب الشرفنامة (ألف سنة 1593) إلا أننا رأينا اسم القبيلة مذكوراً بالتخصيص في معاهدة (زهاو) 1639م أي بعد تأليف الشرفنامة بأقل من خمسين سنة. أي عندما كانت هذه القبيلة كما لا يسع المرء إلاّ أن يفترض ذلك - سبباً لاحتكاك طويل الأمد بين الإمبراطوريتين. وإذا وجد للجاف كيان من القبائل الكردية في عهد يسبق بداية القرن الرابع عشر، فقد كانوا يسكنون على أقرب الاحتمال في (جوانرو) (إن انتقال الفرع المرادي إلى الشرق وراء سيروان لم يتم إلا بعد مرور أربعة قرون أخرى). وهي بقعة غير بعيدة كثيراً عن دائرة نفوذ رجل دين شهير مقيم في برزنجة، بحيث يحمله على البحث عن عروس له منهم. وعندئذ يكون (مير محمد أو حسن بگك) فرداً من أسرة حاكمة سبقت الأسرة التي تحكم الجاف في يومنا هذا، أو خلفاً في الحكم دالت دولته مع أسرته في فترة ما بين منتصف القرن السابع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، أزاحه أحد أحفاد البگزادة ولعله السيد أحمد الذي تبدأ به شجرة الأسرة الحقيقية المجردة عن الأوهام والأساطير.

فالكاكائية والحالة هذه هم بالأصل طريقة صوفية (دروشة) سواء من ناحية التنظيم أو المنشأ التاريخي، يشاركون غيرهم من الطرق الصوفية الأخرى معظم السرية، لكنهم يختلفون عنهم بشخصية المؤسس، مع معتقدات معينة غريبة عنهم أصلاً، تستند إلى استجلاء الحقيقة الإلهية (حقيقت) التي يزعمون أنها أعلى وأبعد منالاً من أولئك الذين ما زالوا على (الطريق) ومن باب أولى أصعب استكناهاً من أولئك الذين يطبقون ظاهر الشرع أي يتمسكون بالنص الحرفي لتعاليم السنّة (هنالك درجة أخرى من الوحي وتسمى بالمعرفة الغنوصية) ويبدو أن هذا يعتبر ميزة خاصة وكرامة لا يبلغها إلا ذو الصلاح العظيم المنفرد في أي من الدرجات الثلاث الصوفية. لذلك يصح أن يسمى كل اتباع الطريقة علواً أم سفلوا بـ(أهل طريقة، وأهل

الحقيقة الإلهية)، لكن لا يمكن تسميتهم (بأهل المعرفة). والكاكائية مثل جيد للمسألة التي حاولت شرحها في الفصل السابق عن (الشيوخ والسادة)، فمع أنهم يجعلون الإمام علياً (وهو المتسلم الأول للأسرار التي تكمن فيها أسس التصوف الإسلامي). ونسله من الأئمة في موضع من الإجلال لا يعلو عليه أحد ويعتبرونهم ضحايا ظلم عظيم، مع هذا يرون أن ليس من حقهم أن يشاركوا في خلاف حول أمر شاءت حكمة الله أن يقع. وعلى أي حال فإن الذين يسلكون الجانب العراقي ظلوا يميلون إلى مذهب السنة أكثر من مذهب الشيعة - خلافاً لجيرانهم القزلباش. وهم يعقدون زيجاتهم على أصول المذهب الحنفي (تتبعه مراسيم أخرى) ويتخذون زوجاتهم من المجتمعات السنية ويسمون بناتهم باسم (عائشة) دون تحرج وكانوا يتمتعون أيام إدارة العثمانيين بامتيازات خاصة عن غيرهم.

الظاهر أن المذهب الكاكائي كان قد انسلخ عن تنظيم سابق ازدهر في لرستان وأدخله إلى شهرزور - هه ورمان (مبارك شاه، باوه خوشين) وكان لديه أيضاً صحابته السبعة (مثل صحابة سلطان أسحق السبعة). وأسماء هؤلاء هي: (كاكه رضا، خواده، سيد فلك الدين، بافقي، فاطمة له ره بابه ى بزوركك، ميرزا هامان). وهي ليست غير (بيبي فاطمة) الشهيرة أخت الصحابي الورع (بابا طاهر)[1] أعني أخت (بابا علي) الذي يدّعى كل من سادة البرزنجة الأصائل وسادة الكاكائية معاً بأنهم انحدروا من صلبه. وهذا يرجح لي أن ثمة (طريقة) نشأت أصلاً في أرض لرستان كان (بابا طاهر) أحد معتنقيها، قد نقلها إلى منطقة هورمان في منتصف القرن الحادي عشر فاشتهر أمرها زهاء (50) سنة، ثم أصلحها وأعاد بناءها (سلطان أسحق) الذي جعل الزعامة وراثية في أسرته وحدها[2].

---

(1) مينورسكي (بابا طاهر) - دائرة المعارف الإسلامية، يقول إن بابا طاهر نفسه، كان رابع صحابة باوه خوشين السبعة، إلا أن اسمه لا يظهر في أي من القوائم العديدة التي زودني بها مختلف المخبرين و(التذكرة) لا تنوه بعصر (باوه خوشين) مطلقاً.

(2) لكن يجب عليك أن ترجع إلى الفصل السادس مما سلف بخصوص الصعوبة في تحقيق تاريخ (بابا طاهر).

ويرى بعض المتتبعين، أن طائفة الكاكائية رفيعها ووضيعها، تنقسم إلى طبقتين: طبقة (الگوران) وهم أولئك الذين ينحدرون من صلب الأوائل. وطبقة (شمشير أورده) أعني الذين دخلوا الطريقة بحد السيف، وهم المهتدون المتأخرون. وهذا يفسر بدون شك الصفة الغريبة التي أثبتتها (التذكرة) للشيخ عيسى (برزنجي وگوراني) إلا أن فكرة الدخول إلى المذهب بحد السيف هي فكرة بعيدة كل البعد عما هو معروف عن الكاكائية. وهذا الفرق تعززه النصوص الدينية الأولى المعروفة باللهجة (الگورانية) من اللغة الكردية، فيبدو منسجماً تماماً مع الشرح الذي قدمت في فصل سابق، بنيته على افتراضات أخرى وقرائن منها أن شهرزور والمناطق المجاورة كانت موطناً لجماعة غير بدوية تتكلم (الگورانية) قبل أن تتدفق قبائل البدو الكردية التي تتكلم لهجة (الكردي الغليظة). وكانت قبيلة (جاف مرادي) واحدة من تلك الموجات المتأخرة. ويحتمل أن كثيراً من هذه الموجات كانت أخوات لهذه الطريقة، والقبور والمزارات التي تنسب إلى الأشخاص الغابرين لا تعد ولا تحصى.

إن قبيلة (گوران) المستقرة في مجموعة كبيرة من القرى تمتد على طول الطريق العام بين خانقين وكرمنشاه وإلى شماله. وفي جوار (كرند). ربما كانت خير ما عرف من المجتمعات الكاكائية في إيران[1] ويوجد عدد من المستعمرات الكبيرة لهم على امتداد الطريق بين كرمنشاه شرقاً ولا سيما في منطقة كرمنشاه نفسها وفي سهنه (يجب ألا يخلط بينها وبين سنه) وفي همدان. وفي الجنوب، تعرف بالكاكائية عدة قبائل من (پشت كوه) تتكلم اللهجة اللكية (تسكن هذه القبائل ذلك القسم من لرستان الذي يمتد بين (سايماره) غرباً وبين نهري (كاشفان) و(خرمآباد) شرقاً ونخص منها بالذكر قبيلة (الديلفان) والمعتقد عموماً (وهذا ما أكده أناس لا يدعون مشاهدته) أن الديلفان في حالة الوقوع في الغيبوبة الدينية ولا سيما في

(1) إن البطون الرئيسة لهذه القبيلة هي (كوران تفه نكجى، فالخانى، ته لا زنجانى) قبائل الجاف التي ذكرت آنفاً أنها ربطت نفسها بالكوران لأهداف قبلية - بقيت سنية المذهب خالصة.

مناسبة العيد الكبير للتحول الشمسي الشتوي، يمارسون عادة السير فوق النار دون أن يصابوا بأذى. وفي كانون الثاني 1918، كنت مسافراً من خرمآباد إلى كرمنشاه بطريق (كوهي ده شت) يرافقني (نصر علي خان) والي (پشتكوه) الذي كانت قوته تضم عدداً كبيراً من متطوعة (الديلفان) فأبديت رغبتي في مشاهدة هذه الظاهرة، ولدهشتي لم يبد منه أي تمنع، وإنما وضع شرطاً وهو أن لا أضحك عندما تأخذ الأمور مأخذها الجدي، ولسوء الحظ حالت الظروف بيني وبين تتبع هذه الظاهرة أكثر من هذا. وأنا لم أسمع بأن الكاكائية العراقيين يمارسون هذه العملية باستثناء حادثة واحدة مشكوك في صحتها سأشير إليها بعدئذٍ.

وينوّه راولنسن[1] بضريح (شاه زاده أحمد) في (بالا گاريوه) إلى الشرق بعيداً. ويقول إنه مزار تجري على يده كرامات عظيمة، يعود إلى طائفة (علي الله) ويذكر أيضاً أن هذا الولي هو أخو (باباي بزوركك) الذي سبق وقلنا إنه أهم وأبرز صحابة (باوه خوشين) السبعة ويقع المزار في أعلى قمة جبل (كوس) الأشم الشبيه بالقبة على بعد (45) ميلاً شمال (دزفول) في بلاد (قلاوه ند) التي هي فخذ من قبيلة (دايريك واند) وسدنته يتميزون بعمائم ذوات لون أحمر غامق، وكثيراً ما يشاهدون في أزقة (دزفول) عندما كنت فيها العام 1917، وفي إحدى المناسبات لما كنت أتجول في (منگاره) شمالاً انضم إلى ركبي أربعة منهم لبضعة أيام وشاركوا في الضيافات التي كانت تقام لي. إن هؤلاء السدنة يطلق عليهم لقب (پاپي) ويتمتعون بامتيازات وحصانة لا يتمتع بها غير السادة ولكن يبدو أن لا صلة بينهم وبين القبيلة المعروفة بهذا الاسم التي تسكن في عالية نهر (ديز) شمال (قلاوه ند) بالقرب من (جهار لنگك بختياري) التي هي فرع من (بروجرد). إن (الفلاوه ند)، وبعض (الدايريكواند) الذين يقدسون هذا المزار، ليسوا (على اللهية) بالتأكيد، إلا أن هذا ليس مهماً ما دام كثير من المزارات القديمة في كل آسيا الغربية، هي موضع احترام وتقديس من مختلف الديانات والمذاهب. ولم يقل لي أحد أن سدنة الپاپي

(1) المرجع السالف، ص95.

هؤلاء ليسوا إلا من غلاة الشيعة المسلمين. ولم ترجح خبرتي العلمية شيئاً سوى هذا. وقد يكون من الطريف حقاً أن يعرف المرء هل لدى هؤلاء فكرة ما عن شريعة (پردي وار)؟ أو أنهم يمثلون بقية تنظيم (باوه خؤشين) الأسبق منها؟

وقبل أن أترك موضوع لرستان، تجدر بي الإشارة إلى نقطة أخرى، وهي أن (بابا طاهر) يلقب عموماً بـ(همداني) وليس هناك سبب للشك في أنه لم يستقر معظم حياته في همدان وهي مدينة بعيدة جداً عن لرستان. كذلك يقال إنه لُريّ. وكلمة (لري) اللاصقة باسمه تلفظ بواو طويلة لأول مرة في حين أن كلمة (لر) التي يراد بها الشعب اللري في العنصر الكردي[1] إنما تكتب وتلفظ بواو قصيرة بصورة عامة، دون أن تلحق بها (الباء) في آخرها[2]. وفي زمننا الحاضر يعرف السهل الواقع بين (دزفول) وبين أولى سلاسل الجبال الواقعة شمالاً بالاسم الحديث سهرائي (صحراء) لور بواو طويلة وليس (لر) كما هو متوقع. وهذا السهل هو موقع المخيم الشتوي لقبيلة (دايريك واند) وغيرها من القبائل اللرية[3]. ولذلك قد يكون لقب (بابا طاهر) (لور) طويلة، وليس (لر)، وهي منطقة لا بد وأنها كانت مركزاً مهماً لطريقته، هذا إذا صح أن تكون الأنحاء المجاورة لمزار شاه زاده أحمد دليلاً في هذا (الاستنتاج) بعد أن اتفق الباحثون أنها كانت داخل حدود لرستان.

وأكد لي الكثيرون مراراً، أن معظم (السنجابي) المنتسبين للإبراهيمي عقائدياً، وبعض قبائل (الكلهور) التي تسكن ما بين گوران ولرستان، هم من الكاكائية. على أنه لم يتح لي الاتصال المباشر بهم، وأن أبحاث (مينورسكي وغوبينو) وآخرين، تشير إلى أن منشأ الطريقة كان في هه ورمان (القرن الرابع عشر) وأنها انتشرت

(1) وهكذا نجد المؤلف يقر أخيراً بحقيقة أغفلها وأنكرها في صدر كتابه. فيدخل هنا العنصر اللرى في الشعب الكردي. قارن الفصل الأول. (المترجم).

(2) مينورسكي - دائرة المعارف الإسلامية، انظر «بابا طاهر».

(3) المؤرخون والجغرافيون العرب يذكرون المدينة الغابرة (لور) ويثبتون موقعها بالقرب من (دزفول).

انتشاراً واسعاً في زاغروس خارج موطنها الأصلي، وأن ثمة عدة مجتمعات انتشرت في عدة أنحاء شمال غربي إيران لا سيما أذربيجان وأقاليم قزوين وجيلان ومازندران فضلاً عن طهران نفسها[1].

والموطن الأساسي المعروف جداً لكاكائية العراق اليوم، هو مجموعة تتألف من ثماني عشرة قرية تقريباً[2] في مركز ناحية طاووق (لواء كركوك) غرب الطريق العام واستقرارهم هنا، حصل في وقت متأخر بعض الشيء. ويعود تأريخه إلى قيام السادة (روستم، وخليل، ووالاد) بشراء تلك الأراضي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. جمع الإقطاعيون العدد مريديهم من القرى التي هي أقرب إلى الجبال على الجهة الأخرى من الطريق العام[3] أي في نواحي قره حسن، وگل وطاووق، وما يزال هناك بعض مزاراتهم وما زالوا يملكون فيها أراضي. أما بخصوص

(1) في منتصف القرن الخامس عشر كان هذا الإقليم برمته تحت سلطان دولة القره قويوندو = الخروف الأسود. كان (شاه جهان) وهو الملك الثاني من الخط المستقل يحكم في كل من تبريز وبغداد من 1437 حتى 1467 واسترعى مينورسكي الانتباه في مقال أخير له عنوانه (جهان شاه قره توينلى - وشعره مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية والأفريقية لجامعة لندن - 1954، مجلد 26 - 2) إلى قرائن وشواهد تتعلق بـ(اهلي حق) إلا أنه يضع تاريخاً متأخراً للتكوين المتكامل على يد (سلطان أسحق) وهو بهذا يستنتج أنه لم تكن عقيدة أهلي حق أشبه بدين دولة القره قويونلى الرسمي. فالثابت أنها تطورت في جو واسع من حرية الزندقة السائد في عهد سلاطين (دولة الخروف الأسود) وأقدم تاريخ في (التذكرة) وهو 1316 - 1317 لا يعرض لأي عقبة جابهت الطريقة خلال عقود متعاقبة من السنين وهذا الفرض أيضاً أقرب وألصق بالشواهد الأخرى التي يظهر منها أن هذه المعتقدات انتشرت شمالاً من لرستان حتى كردستان ومنها خرجت إلى أذربيجان، لا بالاتجاه العكس.

(2) ويذكر فيما يلي أكبر القرى مع عدد نفوسها بتقدير البيوت فيها كما جاء في العام 1922 (البو سراج) 50 بيتاً (على سراى) 60 بيتاً (آل محمد مع واليس الكبير) 90 بيتاً (عه ريكوي) 100 بيت (الاسن مع طوبزاوه) 120 بيتاً (ماتيك) 40 بيتاً وأما القرى الصغرى فهي (بنشاخ، دايس الصغير، محمد خاجك، روبيده سيده كانيان، سهيل، ترابه، زانكر، زوغلاوه) وبطبيعة الحال يوجد كاكائية في طاووق نفسها. ومن المحتمل أن كل الفلاحين الأجراء عندهم ليسوا كاكائية مطلقاً.

(3) يذكر من القرى بصورة عامة (باداوه، حصار، كولاكانى، تبه لو الصغير، تبه لو الكبير، جيومر كه زيارات، شوارو، جونلاور).

المزارات فإن مزار (باو ته ته ل) قرب قرية (كور مور) الطالبانية بقي إلى الآن كعبة القاصدين المصابين بلدغة الثعبان[1] ولسهولة العملية يعتبر كاكائية هذا الموطن الجديد في كنف إقطاعييهم الأغنياء ذوي النفوذ وبمذاهبه المتعددة واحداًمن ثلاث قبائل تقطن ناحية طاووق أما القبيلتان الأخريان فهما الطالباني والداوده. وانتساب الطريقة لمعظم هؤلاء القرويين قد تكون للإبراهيمي.

هناك مجموعات أخرى استقرت على جانبي الحدود العراقية الإيرانية، وتتألف من كل منها من مجموعة قرى تراوح بين 10 و12 قرية لكل من قضاء خانقين ومنطقة قصر شيرين[2]. والانتساب الروحي لمعظم القرى في الجانب العراقي هو بالابراهيمي. ولكلٍ من (المره سورى) و(الباوه يسائي) قريتان. ولديّ ملحوظة خاصة نشير إلى الانتسابات الروحية لدى الجانب الإيراني أجد فيها أن قرية (سيد داود) تنتسب كلها للخاموشي. وقيل لي مرة إن أهالي قرية (باريكه) يمارسون السير على النار، إلا إني لا أملك ملحوظة بخصوص انتسابهم.

وهنالك سبع قرى كاكائية على ضفاف الزاب الكبير بالقرب من مصب (الخازر) ثلاث منها على الضفة اليسرى وأربع على الضفة اليمنى[3] وهم معروفون في تلك الأنحاء باسم (صارلي) ولست أدري هل يقبلون هم بهذه الكنية، وقد تقدم مرة كردي سني مستخف بهم بتفسير للاسم لم أره خالياً من الوجاهة أبداً.

---

(1) وبالقرب من هذه القرية يوجد أيضاً ضريح (خليفة بابير) ولا أدري هل المقصود به (بابير هفت خليفة). إن كان الأمر كذلك فإن الباوه - حيدرى هم ممثلوه اليوم. (انظر ما سبق في الفصل نفسه).

(2) لم تتح لي الفرص زيارة هذه القرى، إلا أن الزائرين الذين قدموا إليّ منها زودوني بقائمة لها: في العراق أمين بابير، باوه إسماعيل، باريكه، جم جقال، داره خورمه، كابيه، كانى شاباز، ميخاسي، مركز حداد، قالمه، قره بوله، ته به قيصر، هذا في العراق، أما في إيران فهي: مزرعة نصرت آباد (وتتألف من قرى السادة أحمد وخليل وزهراب وشريف) سيد أسد الله سيد داود، سيد لوفته، دارينجيك، كازاو، قله سبزى، ماما مراد، يعقوب، تبه قادرسان، تنكاو. ومن المحتمل أن تكون بعض القرى الإيرانية قد ذكرت هنا مرتين مرة بالاسم الجغرافي، وأخرى باسم السادة.

(3) وهي بالأسماء: الضفة اليسرى سونيه ماترات (قريتان) الضفة اليمنى (تل اللبن، كازكان، دردك، قرقشة).

فقد رد الأصل إلى كلمة (صار الماق) التركية ومعناها اللف أو الطي، ويقصد بها حادثة مقتل الإمام علي، فبعد أن طعنه ابن ملجم في الكوفة حاول التخفي بلف أحد بسط القصب المفروشة على الأرض حول جسمه أن (الصارلي) يختلفون تماماً عن طائفة أخرى من الكرد غير السنيين موجودين في لواء الموصل ويعرفون (بالشبك) وهم القزلباش الكرد ليس إلا.

وفي بلدة تلعفر التي يتألف معظم أهلها من التركمان. والواقعة غرب الموصل بمسافة أربعين ميلاً تقريباً، تسكن أسرة معروفة باسم (طائفه ى وهاب آغا) وهي من السادة الكاكائية - الخط الإبراهيمي. وعدد الأسر الكاكائية الذي زودت به يختلف بين الثلاثمائة والأربعمائة والحقيقة تكمن بلا شك - في موضع ما من هذين الحدّين. وكان الانطباع الذي خلفه في أحد أفراد الأسرة الذي كثيراً ما كان يزور بغداد، هو أنه وشقيقه رئيس البلدية يريدان تثبيت سلطتهما الروحية والزمنية على الطائفة ويميلان إلى طمس معالم الفروق وإزالة الخلافات بين الكاكائية والقزلباش الأكثر عدداً في تلعفر تحت الجبة الشيعية المشتركة. ووجه الغرابة أنه يوجد في تلعفر أيضاً فئة قليلة من (آتش بگي) فضلاً عن الإبراهيمي.

وخارج هذه المجموعات القروية المتعددة المذاهب بالزيادة والقلة، توجد بطبيعة الحال أسر منعزلة في بغداد نفسها وفي مدن كبيرة كالموصل وكركوك وخانقين والسليمانية، والأسرة البارزة في السليمانية هي (كوبيلازاده) وهي ذات مكانة محترمة في المجتمع هناك وأنها أصلاً من (شمشير آورده) وتنتسب إلى مصطفاي وهناك تقارير عن وجود مستعمرات أهم في بدرة وزرباطية إلا أني لم أتحقق من الأمر شخصياً.

ولكي أختم هذا الفصل أرى أن خير ما أفعله هو أن أقدم وصفاً لجولة قصيرة قمت بها بعد مرور سنوات عديدة من وجودي الأول هنا، (1914) بلغت بها إلى قرية (هاوار) أهم مجتمع للكاكائية تقريباً. وهي قرية منعزلة تقع في واد منعزل يبعد ثمانية أميال شرق حلبچة، وزهاء خمسة أميال عن (پردى وار) بخط مستقيم وهي

آمن مجتمع كاكائي متوحد ترك لهم في ما يمكن أن نسميه بأرضهم المقدسة، حيث كان مؤسس مذهبهم يتجول مبشراً. هذا الموضع قد آوى أتباع الطائفة ستة قرون بدون انقطاع.

تركت حلبچه في 18 أيار ومعي قليل من درك الشرطة وساع مدني واسع الخبرة لكنه ثرثار (ذكرني بأنه رافقني على ظهور الخيل من حلبچه إلى كه لار في أول جولة لي بين الجاف مثل تسع عشرة سنة) وكانت وجهتنا العامة الجنوب الشرقي. وبعد قليل اجتزنا قرية للجاف اسمها (باموك) شديدة القذارة (لاحظت أوراق التبغ ما زالت صغيرة والخطمي ذات الألوان الوضاءة منتشرة في حقول القمح، ومعظم أصحاب المنازل قد أقاموا دكات صغيرة للنوم محاطة بالچيغ كيفما اتفق تخلصاً من الحشرات، خارج منازلهم) وبعد مسيرة ميلين تقريباً (حلبچة) أخذ الطريق يصعد إلى منطقة تتألف من رواب جرداء وكان عن يميننا جبل (بالامو - 5200 قدم) وجبل (ماگيرك - 5500 قدم) وعن يسارنا جبل (شنَرَوي - 6700 قدم) وبعد أن قطعنا ميلين آخرين، عبرنا وادياً قليل الغور يدعى (ملاي همالى) وفجأة وجدنا أنفسنا في شبكة من الأطراف التي قذفها عنه جبل (هه ورمان) نحو سيروان غير المنطقة التي يشق فيها طريقاً من السلسلة العظمى. وكانت سفوح الجبال تغطيها مقادير هائلة من عوسج يدعى (كنگر دزك) وهو نبات يؤكل عندما يكون غضاً والكرد يأكلونه في أوائل عمره. وإذا كمل نموه قطع وترك في العراء ليجف حتى تموز ويختزن علفاً للأبقار في أيام الشتاء.

بقي لنا إلى الظهر ساعة واحدة، وكانت سفرتنا بطيئة في أنسب مناخ للرحلات. وترجلنا للراحة بالقرب من مخفر شرطة على رابية فوق قريتي (سازان، وكوسه) على بعد ميل ونصف الميل تقريباً من سيروان، وأربعة أميال شرق (موردين) وهي قرية ورد اسمها في أبحاث قديمة عن الكاكائية[1] تقع على الطرف

(1) مينورسكي: تعليقات، ص25. والقرية تعود الآن إلى قبيلة (كوكوي).

الآخر من جبل (مگرك) وكان في المخفر عريف شرطة رسمي واحد، وحوالي ستة أفراد غير نظاميين يبدو عليهم علائم الجد والنشاط، بسراويلهم الفضفاضة الزاهية الألوان المحشورة أطرافها في جوارب الصوف المصنوعة محلياً لتبدو كأنها بنطلونات گولف، وينتعلون (كلاشات) نعالها من الخرق وهي أفضل ما يمكن للسير والحركة في بلاد جبلية عندما يكون الطقس جافاً. وكان العريف أنموذجاً صادقاً لتلك الطبقة التي تعيش دوماً في خدمة الحكومة (نوكري) وتقاليدها التي تمتاز بها هي الإخلاص المدهش للواجب الذي يبدو كأنه يقف سداً يحول دون الشعور بالوحدة وتفاهة الراتب، والإهمال الذي يعانون من رؤسائهم الذين لا يهتمون بمصالحهم. هذا العريف فقد ثلاثة أشقاء قتلوا في مختلف العمليات العسكرية، وهو نفسه أصيب بجرح بليغ في عنقه في حملة (رانيكول) المؤسفة في العام 1922[1] وكان جندياً من جنود الليڤي الأول في السليمانية. ولم تكن شرطته غير النظامية مادة خاماً فمعظمهم خدم في الليڤي وهم يذكرون بحب باق كلاً من فيتزغيبون، ودانيلز، وغيرهما من الضباط البريطانيين الذين خدموا بأمرتهم.

وفي أثناء رحلاتي في ربوع كردستان أفاجأ دوماً بقيام قرى حديثة كثيرة في أشد البلاد وعورة وانعزالاً. ويدعى سكان قرية (سازان) أنهم سادة انحدروا من شيخ ورع تقي (مررت بتربته في طريقي) كان قد قدم من بلاد كوران في إيران. وقد وجد الماء (سازان) أي ملائماً، فقرر البقاء، وبنيت (كوساده) بطريقة مشابهة قبل خمسين سنة فقط بناها نازحون من قرية (ته شار)[2] الهاورامية الذين يؤلفون الآن نصف مجموع سكانها في حين أن النصف الآخر هم من الـ(ايناخي) وهي عشيرة صغيرة من ثماني عشائر صغيرة تصنف أحياناً مع الجاف وتشغل قرى على ضفتي سيروان في هذا الإقليم وأبعد منه على الجانب الإيراني الجنوبي[3]

(1) انظر الفصل السادس عشر الذي سيتلو.

(2) هذه القرية مذكورة أيضاً في الأدبيات الكاكائية القديمة (انظر مينورسكى، تعليقات ص24).

(3) القائمة التالية تبين أولئك الذين في العراق أو في كلتا الدولتين والرقم يشير إلى عدد القرى في كل=

ولـ(ايناخي) أسرة حاكمة من البكزادة إلا أن بعض القرويين أيضاً يدعون انحدارهم من صلب السيد المشهور (پير خضر شاهو).

وفي أسفل قريتي (سازان، وكوساده) مباشرة، تمتد أرض مستوية واسعة الحدود تصلح لزراعة الرز. وقد نظرت وأنا في مخفر درك تركي قديم قائم على الحافة فشاهدت أربع دعامات جسر متقوض تحت قرية (لانه وان) الإيناخية على الضفة الإيرانية. ودلني أحدهم عن صخرة غريبة بالقرب منا من الواضح أن يد الإنسان قد نحتتها وأقامتها ربما لتكون مذبحاً تقدم عليه الأضاحي أو لعلها قاعدة تمثال أو عرش كما تروى أسطورة محلية. وتتلخص هذه الأسطورة. في أن الأميرة (زيرنيه كه وش = ذات الخف الذهبي) وهي زوج لعظيم نبيل اسمه (مير عبد الله خان) عاش قبل ظهور الإسلام. كانت قد اعتادت المجيء إلى هذا الموضع والجلوس للتأمل في هذا المنظر المفضل مرسلة أبصارها إلى النهر المتعرج ثم إلى قمم وهضاب سلاسل جبال (جوانرو) الشاهقة[1] وهي على أغلب الظن - البلاد التي جاءت منها.

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كنت على سرجي، وقد بكرت لمعرفتي أن يومنا سيكون شاقاً. وغدت وجهتنا العامة شرقاً، ورحنا ندور في منعطفات أطراف جبل (شِنَرْوي) الجنوبية، بمحاذاة مجرى سيروان ذي الماء الأزرق المخضوضر وهو يتلوى كالأفعى خلال الأخاديد العميقة التي هي عن يميننا. وكان يلوح أمامنا جبل (شاهو) المكسو بالثلج على ارتفاع 10000 قدم بقممه المكسوة بالثلج، من خلال الضباب على بعد 20 ميلاً تقريباً وقد بلغنا قرية

=دولة: (في العراق أولاً) (امامى: 1 و4 قرى)، (كوكوي 3 وصفر)، (بيناخى: 4 و12 قرية)، (وزاردوى 4 و6 قرى)، والقبائل التالية تملك قرى في إيران فقط: (باينيكانى، ميراولى، ساتباري، كلاشي).

(1) إن أسماء عدد كثير من الجبال في هذا الإقليم تبتدئ بمقطع (ما) مثلاً (ماكازان، ماسان، ماكوان ماكار إلخ..) وهذا المقطع هو لجهة جوانروية معناه وجه جرف صخري عمودي.

(كوكوي) التي يسكنها (بوبين) بدرج حجري. وهنا توقفنا مقدار ربع ساعة لانتشال حصان أحد الشرطة زل به حافره وعصي في شق صخري ضيق. كان القرويون قد تركوا بيوتهم إلى مخيماتهم الصيفية فوق جبل (شنرو) فمضينا في سبيلنا إلى الأمام راجلين نقود وراءنا حيواناتنا في ممر شديد الانحدار يدعى (دالهارى = طريق الصقر) وقد سمي كذلك للشائع بأن الصقور قد اتخذت لها ركناً هنا. ثم وصلنا أخدوداً يدعى (ميلا - ئاچالان) ارتفاعه 5000 قدم وكان صعوداً من أشق ما يمكن وقد ذكرني العطش المحرق والاستراحات الكثيرة لالتقاط أنفاسي، بأني قد كبرت عشرين سنة من أيام وجودي في حلبچة ضابطاً سياسياً.

وفي مضيق (ميلا ئاچالان) أرسلنا أبصارنا إلى أعماق هاوية سحيقة (2500 قدم) وتبينا قرية (گريانه) الصغيرة التي قيل بأن نازحي (جوانرود) قد شيدوها قبل خمسين سنة. ونزلت مشياً لتفتيش نقطة الشرطة إلا أن الدليل ضل سبيله في سفح الجبل وبعد إضاعة بعض الوقت قررت العدول والاكتفاء بتأمل المنظر من فوق أثناء استئنافنا السير، وهنا انضم إلينا شاب في (هاوار) متين الألواح يدعى (بهرام) التقينا به وهو يتبع قطاة كان قد أرداها برصاصة. وبعد الظهر بنصف ساعة بلغنا قرية صغيرة جداً اسمها (هاواره كون = هاوار القديمة) وفيها مزارات (لمير أحمد سور) من الهفتوانة، و(لاحمدي هاواري) وهو شخصية هامة ورد اسمها كثيراً إلا أني لم أستطع تعيين مركزه الديني تعييناً دقيقاً والأسرتان أو الثلاث التي تعيش هنا تركت القرية كالأخريات إلى مخيماتها الصيفية على السفوح العليا من (شنروى) ولم يكن ثمة شيء أنعش لنفس المسافر المتعب المرهق بفرط الحر، من نبع القرية ذي الماء المثلوج وهو يتدفق من بركة تحيط بها ألواح من الحجر الأملس - صافية كالبلور النقي. فنهلنا وملأنا بطوننا وروينا الخيل والبغال في موضع بعيد من أسفل الساقية ثم استرحنا حوالي نصف ساعة في ظل شجرة توت وارفة ثم امتطينا خيلنا ونحن آسفون مترددون لأن الميلين التاليين كانا على طرف الجبل بارتفاع كبير فوق (گه لي گريانه) وبعد نصف ساعة في صعود بطيء نظرنا فجأة إلى

تحت، فطالعتنا قرية تتألف من حوالي خمسين بيتاً معظمها ذو طابقين مبنية بالحجر المهندم وتقع في بقعة جميلة من البساتين والكروم.

ونصبنا خيامنا على نتوء صغير جميل يشرف على القرية ويبعد عنها زهاء ربع ميل. وكان بالقرب منا (چايخانه) بلا سقف، وأقبل علينا مختار القرية (كيخسرو) وجندي عثماني سابق اسمه (حمه امين) كان قد فر أثناء الحرب العالمية الأولى من الجيش العثماني والتحق بالثورة العربية التي كان يقودها الشريف حسين. وقد عمل (قهوجياً) عند جعفر باشا العسكري. وكان ثمة شيخ هرم ظل مكباً على خياطة (كلاشه) أثناء الحديث، وإلى جانبه صوفي مهيب الطلعة ذو لحية بيضاء جعداء اسمه رشيد. وقال الجميع إن مورد رزقهم الأساسي هو الصمغ الذي يجمعونه من شجر حبة الخضراء والبطم، ويعتمدون أيضاً على سَوْق القوافل. وأما القمح والشعير فهم يجلبونه من الأراضي المنخفضة (كرميان) - في كفري وأربيل فيبادلون حملاً بحمل من التوت المجفف ويكون النقل في الذهاب والإياب على حسابهم.

تقع قرية (هاوار) على ارتفاع (3500 قدم) تقريباً في الجهة الغربية من واد يحق به نتوءان عظيمان يخرجان من سلسلة (هه ورمان) الكبرى بالقرب من أعلى قمة فيها (9800 قدم) وتتجه أولاً نحو الجنوب الغربي لتكون خطي زاوية متوازيين عند النهاية، ويصير جبل (شنروى) الساعد الأدنى للزاوية الغربية وهو الذي كنت قد قطعته في (ميلاچان) وأما جبل (قه لا گا) فهو ساعد الزاوية الشرقية ويكون خط الحدود. وتقع (ته ويله) في أعلى نقطة من هذا الوادي. ومجراها الذي يصب فيه رافد صغير من (بلخه) قرب (هاوار) مباشرة يوجد منخفض مستدير عظيم ينفذ غائراً في أعماق جبل (شنروى)، هذا المنخفض تعلوه مباشرة قمة الجبل الرئيسة (6700 قدم) ومن الشمال الغربي قمة ثانوية ارتفاعها 1600 قدم تدعى (به فرى اميرى = ثلوج الأمير) وتشير إلى رأس الزاوية المار ذكره.

لا شك أن (شنروى) كان وما زال مصيفاً للقرويين المجاورين قاطبة. وكان

سرور أصدقائي الكاكائية ظاهراً وهم يشيرون إلى مواقع أماكنهم المقدسة: (وه زيار) و(چادركه) مخيم سلطان أسحق نفسه و(سى قالتان = موضع النذور) أو نه زركه الهفتوانه مجتمعين، كانى پيروزه = ينبوع السعادة المخصص لبنيامين وقدس أقداس في (قمرى كلام). وقالوا إن (نه زرگه) وشاه خوشين (كما يسمونه) هي على واد صغير من الجهة الخارجة للساعد الشمالي في المنخفض الكبير. (نه زرگه) پير موسى هي خارج القرية على طريق (ته ويلة). إلا أن (پيره مگرون) هو واحد من الشيوخ الاثنين والسبعين. وثمة (نه زرگه) أخرى للميره سور في شهرزور شمال غرب خورمال. إن انتساب معظم سكان (هاوار) يكون «بالميره سوري» من جهة الپير، وبالناريماني من جهة الدليل.

في صباح اليوم التالي دخلنا القرية وكانت في غاية القذارة، واجتزنا البساتين التي تحف بها متجهين إلى المجرى الرئيس فعبرناه بجسر قريب من تربة پير اسكندر ابن سيد خواشين وتربة (پير إسماعيل) أحد الاثنين والسبعين الكبار الذي زعم (صوفي رشيد) أنه الجيل الثامن عشر المنحدر ووجدنا الضريحين قد رمما حديثاً. وسرنا مصعدين بالتدريج على الجانب البعيد وبعد حوالي نصف ساعة بلغنا بساتين جوز قرية (دار تووى)[1] ونه زرگه سيد باوه سيد الهفتواني. وواصلنا صعودنا ومررنا بحديقة صغيرة أنيقة رعاها وترسها (حمه أمين) صديق الأمس الفار من الجيش العثماني. وبلغنا موضعاً مسيجاً متروكاً يدعى (كاني هه رميله = ينبوع شجيرة الكمثري) وشربنا منه ماء نميراً. وأخيراً بلغنا قمة نتوء (قه لا گا) البالغ ارتفاعها 5000 قدم وتعرف باسم (ميلا كالوڑى = مضيق مقتل الثور) وهو على خط الحدود. وكانت السفوح تحت قدمي تغطيها الكروم من كل جانب، وبدت من الشرق خطوط طويلة قاتمة من بساتين مسيجة وغابات جوز حددت مواقع القرى الرئيسة في (لهون) تشمل ثلاثة وديان متوازية وهي (شوشمى، نه وسور، وزلي) على سفح الجبل شمال النهر. وتحتنا مباشرة تتخفى قرية (شيخان) تحجبها

---

(1) أو (دار نفي) باللهجة الكورانية، و(نو) وتفى معناهما - توت.

عن العين طبيعة الأرض إلا أنه أمكنني مشاهدة خمس دعامات من جسر (پردى كوران = جسر الشباب)[1] كما تسمى (پردى دار) اليوم.

بجبل (شنروى) خلفي و(پردى وار) أمامي، أكون في أرض الكاكائية المقدسة[2]. إن الثورة الكردية التي عقبت الاحتلال الأنگلو - سوفياتي (آب 1941) أزالت كل هيبة للسلطة الإيرانية إلا أن مركزي الرسمي منعني من المخاطرة بتهمة التدخل السياسي. وبعد أن درت على سرجي عدة دورات متحسراً أسرعت بالابتعاد سائراً على خط الحدود ثم ترجلت ودخلت ظل بساتين جوز باردة تمتد مسافات طويلة.

(1) لا شك أن هذا الجسر هو الممتد فوق (بردى كناجان = جسر القناة) الذي يبعد أميالاً قليلة عن المجرى.

(2) اطلع (مينوركسي) في زيارته لـ(بردى وار) في العام 1904، على ضريح كل من (بير رازبار) و(مصطفى دادوداني).

- 14 -

تانجه رو، سورداش، سه رجنار

قبل خروجي من حلبچه إلى رانية قضية أياماً قليلة في السليمانية وأعتقد أن هذه الفترة ستكون مناسبة طيبة لأعيد الكلام عن المناطق التي لم أصفها إلى حد الآن وإن عملي هذا يقتضيني قطع حديثي المتسلسل السابق.

إن وادي السليمانية بين (ئه زمر - قره زرد) من الشمال الشرقي وبين (به رانان - بنزرد) من الجنوب الغربي ينقسم إلى ثلاث نواح وهي (تانجه رو = 10100 نفس) وتمتد من حدود حلبچه حيث يتسع الوادي بعدها ليؤلف سهل شهرزور، إلى مشارف مدينة السليمانية، و(سرچنار = 41100 نفس) إلى الشمال الغربي من السليمانية وتنتهي بخط يمتد عبر الوادي ليخترق قمة (پيره مه كرون) من وسطها. و(سورداش = 12100 نفس) وتبتدئ من هذ الخط حتى نهر الزاب[1].

وعلى بعد أحد عشر ميلاً شمال غرب السليمانية تقريباً يوجد سهل منخفض يقطع ناحية سرچنار فيفصل حوض (تانجه رو) عن المياه التي تصب شمال غرب الزاب وتتجمع هذه السيول في غديرين رئيسين هما (تابين) من شمال (پيره مه

---

(1) كانت ناحية (تانجه رو) في العهد التركي تسمى (سرجنار - شرقي) وأما سرجنار فتسمى (سرجنار - غربي) وهما مرتبطتان دائماً بالمتصرف مباشرة أو بقائمقام المركز. وارتبطت (سورداش) زمناً بقضاء (ميركه) إلا أنها نقلت إلى مركز السليمانية قبل العام 1918 بسنين عديدة، وقد عادت ناحية (قره داغ) وهي رابعتهم لترتبط بالمركز إلا أنها كانت مرتبطة به (سه نكاوا) في معظم الفترة التي يتحدث عنها هذا الكتاب. وشُكلت معها مستقلاً، وقد أجلنا وصفها إلى فصل تال.

گرون)، ورافده (چه رمه گا) من الجنوب، ويشق هذا المجرى طريقه في حاجز (سارسرت) ويتسع هنا ليحتضن الوادي مسافة ستة أميال، ثم ينحرف شمالاً ليجري سبعة أميال خلال أخدود عميق كثير المنعطفات إلى النهر[1] ويدعى هذا الأخدود «سرقوشان» حيث يصب فيه على مسافة ستة أميال من (دوكان).

وفي «سورداش» يضيق الوادي باستمرار أثناء امتداده إلى الشمال الغربي وتصبح الأرض أشد وعورة، وتكتسي سفوح الجبال بغابات البلوط. في حين تبرز سلسلة جبال (ئه زمر) وتسمى هنا (چارمابان) من خلف الأطراف الشمالية الغربية لپيره مه گرون، وتقذف من الزاب بسلسلة من القمم المسننة والأطناف. وهناك مسالك لا تتسع لأكثر من شخص، مصعدة خلال خوانق وتقع خلف قريتي (قمچوغه - جاسنة) مرتفعات فيها كروم تسمى (شيخ باخ) وتختفي المسننات المنشارية المذكورة[2] بعد ثمانية أميال من امتداد النهر. وتمد السلسلة خرطوماً عظيماً واسعاً إلى النهر يتطامن فكه الأسفل عندما يدنو منه، إلا أن الفك الأعلى ينتهي بخاصرة منحدر شديد لمضيق سحيق الغور ذي مناظر خلابة وقد ألصق اسم (قره سرد) بهذا الفك الشمالي، اسماً على مسمى. ويعرف امتداده إلى الضفة الأخرى في منطقة (رانية) بـ(جبل كوسَرَتْ) وإلى الأسفل بكثير اعتباراً من الوادي الأصلي وعلى خط واحد من القمة يقوم جبل (مه رگه) أي المرج الواسع وفيه يوجد ثلاث قرى صغيرة. وكثيراً ما أوصى الكرد بهذا الموقع ليكون مصيفاً. ولعل ذلك يعود إلى ميزة ينفرد بها، وهي أن الظل لا يبارحه طوال اليوم حتى في الصيف، ويوجد منخفض ضيق آخر خلف (شيخ باخ، وقره سرد) وفوق الهضبة

---

(1) إن الأسماء التركية ليست نادرة هنا، وإن كان الأهالي أكراداً، وربما كانت (سرقوشان) بالأصل (سوقوشان = ملتقى المياه) مرادفة للكلمة الكردية (دو آوان = ماءان) الذي هو اسم مسافة ستة أميال من مجرى هذا النهر.

(2) من فوق قمة (قمجوغه) يبدو لي أن الحافتين المسننتين اللتين يجري خلالهما (شيخ باخ) تنعطفان في دورة لينتهي النهر بقاعدة الجبل المواجه لسهل (سورداش) الأساسي. لذلك تكون فتحة (جاسه نه) نتوء صخرياً في إحداهما. وفتحة (قمجوغة) نهايتهما الناتئتين.

ينتهي بخانق عظيم ظنه (ماونسل) فم (قه لاچوالان) ويحوي عدداً من القرى الصغيرة، وكذلك قرية (سرگه لو) المهمة. وحاجز الجبال الذي هو في الجانب الأقصى من ذلك الغور، إنما هو الحدود الفاصلة بين (سورداش) وناحية (مه رگه) في پشدر. وناحيتا (تانجه رو وسرچنار) غزيرتا المياه، والمعلوم أن جزءاً كبيراً من أراضيها هو ملك للشيخ محمود وبگزادة الجاف وغيرهم من أبرز أسرة البلدة. وأبرز شخصية في سورداش هو (حاجي شيخ عارف سه رگه لو) ويملك هو وأقرباؤه سواء بالصورة الشرعية أو بوصفهم سراگيل، حوالي ست عشرة قرية داخل الوادي الرئيس أو في الوهاد المنعزلة داخل الهضاب. على أن نفوذهم الديني يمتد إلى أبعد من هذا، وهم من أتباع الطريقة النقشبندية، ويخاصمون الشيخ محمود وكل استعلاء لفرع (نودى) من أسرة البرزنجة.

إن معظم قرويي النواحي هم من الفلاحين (كوران) مع بقايا سكان شهرزور الأوائل الذين طردهم الجاف الغزاة في القرن الثامن عشر[1] إلا أن بطون الميكائيلي ورغزادي وكه ماله يي من الجاف في (تانجه رو) أنشأوا في أقصى الغرب من مسالك هجرتهم بضع عشرة قرية خاصة بهم (لا شك أنهم أسسوا غيرها منذ ذلك الزمن) واختلطوا بالگوران في عدد من القرى الأخرى.

إن (إسماعيل عوزيري) هو فرع آخر من جاف شهرزور الأولين بقي على حالة البداوة ويعد زهاء (100) خيمة. ومن البطون الأربع ترى (الميراودلي) عادة يقضون الشتاء في (سورداش) عند سفح جبل (بنزرد) أو على الهضاب في (قه لا سيوكه) أما (خيل فايزه) ويطلق عليهم عموماً اسم البطن (إسماعيل عوزيري) و(كوماله يى) فهم في سرچنار. وما (قره ويسي) فتنتشر في (بازيان وسرچنار) (شارباژير) ومع أنهم طردوا من مقرهم الشتوي القديم فقد واصلوا الهجرة إلى مراعيهم الصيفية

(1) وهم (شيخ إسماعيل، ماندومى، كلياغى، شنكى) وهنالك أيضاً سبع قرى من الـ(كادانى) وقرية واحدة من الـ(كالوبى) وكلها قبائل دخلت فيما بينهما حلفاً صغيراً ليس لديّ معلومات عنه. كذلك يوجد قرية واحدة لـ(صوفي وه ند). انظر حاشية الفصل الأول وقرية واحدة أخرى لـ(جافه ره شكه).

التقليدية في إيران. وهم يبلغون وادي (شلير) إما عبر (شارباژير) وإما عبر (شهرزور) ومن ثم يعبرون الحدود عند (كانى دزان) ويستمرون حتى إقليم مضيق (كالي خان) الذي يبعد عن (بانه) اثني عشر ميلاً، بطريق (سه قز) فيكون موضعهم إلى الشمال الغربي من (ميكائيلي). وهؤلاء الإسماعيلي لا يدينون بقانون ولا نظام واشتهروا بالسرقة. وهم كسائر الجاف يميلون إلى الاستقرار في الأرض، وقد بنوا لأنفسهم ثلاث أو أربع قرى في (سرچنار)[1].

ذكرت في فصل سابق أن نقشبندية كردستان (أقصد الفلاحين في القرى البعيدة لا رجال المدينة المتعلمين) يميلون بنوع خاص إلى بعض الشذوذ. وليس من ريب عندي في أن اتجاهات إباحية ظلت تشيع زمناً طويلاً في القرى الجبلية البعيدة على حدود (سورداش) و(مه رگه) لانقطاعهم عن العالم الخارجي، وندرة زيارات موظفي الحكومة. ولم يجتذبوا اهتمامي لأول مرة إلا في العام 1932 أي بعد عدة سنوات من وجودي فقد ذهبت وحدة من الشرطة لإجراء تبليغ في قرية (هه له ون) التي هي من أملاك الشيخ محمود وتبعد عن (سه ر گه لو) أربعة أميال وعند عودتهم أبلغوني أنهم شاهدوا بأم أعينهم حفلة استحمام مختلطة للجنسين في حوض المسجد، وأضافوا إليها تفاصيل غريبة. وقد شكّت سلطات الإدارة في صحة ما بلغها أول الأمر. إلى أن أبلغ بعض تجار التبغ المحترمين عن مناظر مشابهة في قرية (سه رگه لو) نفسها وقدموا شكوي لأنهم أهينوا واعتُدي عليهم عندما حاولوا استنكار هذه الأعمال، وقد كشفت التحقيقات عن قصة غريبة فريدة في بابها.

كان يسكن في (شاه ده له) القرية القريبة من (سه رگه لو) شخص اسمه (عبد الكريم) يمت بصلة القربى (لحاجي شيخ عارف). وقد أحيا أو أسس طريقة صوفية عرفت باسم (حقه) وتستند إلى التعاليم المعروفة (برقصات الصوفية) التي كتبها

---

(1) علمت في 1957 أن (إسماعيل دوزيرى) قد استقروا وطلقوا حياة البداوة.

سلفه ولم يكن هذا السلف إلا (حاجي شيخ عارف نفسه) ولكنه آثر أن يبقى وراء الستار لأنه أبرز شخصية في المنطقة فضلاً عن مسؤولياته تجاه الحكومة، وكان هذا بعد نظر منه، ودهاء، وهكذا بدأ يظهر شذوذاً عن معظم آداب السلوك الصوفية، وشوهد أتباع الطريقة يدفنون أجسامهم حتى الأعناق في أكداس روث حيوانات القرية، وهم يتلون الأدعية لله. ووجد نوع من شيوعية الأموال، وبضمنها النساء. وراحت جماعات صغيرة من كلا الجنسين تتجول فوق الروابي والآكام بعد حلول الظلام، الرجال منهم في ثياب النساء أو حليهن، أما حفلات (الاستحمام) المختلطة في المساجد فكانت مظهراً منتظماً من مظاهر الطقوس، وكثيراً ما كانت تسحب الكلاب إلى الحوض مع المستحمين (الكلب المبلل عند المسلم الذي هو على المذهب الحنفي يعتبر نجساً)، وكانت أوعية البول تنتقل من يد إلى يد، وبلغ السيل الزبى عندما اقتحمت جماعة من الصوفية وهم في حال الوجد (السكر)، مسجد (سه رگه لو) وأحرقت علناً نسخة من القرآن وعندما استدعي الشيوخ والأدلة الصوفية إلى السليمانية للتحقيق. قالوا إنهم شخصياً لا يقرون مثل هذا الشذوذ على أنهم حاولوا الاعتذار لذلك بقولهم: إنْ يقم المريد الذي هو في حالة وجد ولفترة محدودة - بتصرفات مخالفة للسلوك والأخلاق والدين، فليس عليه جناح. وأنا بالطبع لا أستطيع أن أؤيد التفاصيل لكنه يوجد بعض القرائن والدلائل الثابتة في التقارير الرسمية وقد يكون إنشاء المدارس ونشر التعليم أقوى ترياق وأكثر فعالية في تقويم هذا الانحراف. إلا أن هذه التدابير ليس مما يمكن أن يبادر إليه موظفو الريف. وظلت الإنذارات المتتالية عدة سنين تشير إلى أن مذهب (حقه)، يكسب أتباعاً وينتشر انتشاراً واسعاً في المناطق المجاورة.

وفي آب 1936، أثناء فترة هدوء مؤقتة في ثورة (حقه) قضيت ليلة واحدة ضيفاً على الشيخ عبد الكريم في قرية (شه ده له) الواقعة في واد ضيق من (تابين) الأعلى بين (چارمابان وپيره مه گرون) ويبدو لي أن مشاهير الشيوخ ذوو موهبة نادرة في حسن اختيار موقع إقامة لهم بين القرى، سواء من الناحية الاستراتيجية أو

من ناحية جمال المنظر الذي تشرف عليه.. وقرية (شه ده له) ينطبق عليها هذا، فهي تقوم على شرفة واسعة قطعت من سفح جبل، وفيها تكية الشيخ وفي النهاية الغربية لها، صف من شجر الإسپندار يلقي ظله على فسيفساء سجاجيد إيرانية ثمينة فرشت لاستقبالنا وفوقها مباشرة يوجد حوض واسع يحيطه جدار من الحجر، ويصب في الحوض باستمرار ماء ساقية تنحدر من الأعلى بماء مثلوج رقراق. وكانت عمامة مضيفي وجبته ناصعتي البياض، تتوسطهما لحية سوداء طويلة جعداء النهاية وعند الزلفين، تلمع بصبغة جديدة. وكان يتكلم بلهجة قداسة مهيبة كأنما يريد أن لا يذيب الزبدة من فمه. إلا أن الوميض المرح في عينيه، والفجوة الكبيرة في صف الفك الأعلى من أسنانه يكشفان عن تعابير محيرة تختلف عن تعابير صورتيه الجانبيتين. ولم يكن حديثه يخلو من الحكمة الدنيوية وكان يصعب عليّ ونحن جلوس ننظر إلى سفوح (پيره مه گرون) المكسو بأشجار العنب عبر الوادي - أن أؤمن بأني أجالس زعيماً دينياً لزندقة شاذة أقامت الإدارة الحكومية وأقعدتها قبل بضعة أشهر. وحدث تطور بالغ الحراجة في العام 1944 أثناء الحرب العالمية الثانية، إذ قام متصرف أربيل، وهو شاب ذو مؤهلات وكفاءة نادرة ومبادرة سريعة باعتقال (مامه رضا) خليفة عبد الكريم وكان يسكن (كلكه سحاق) الواقعة على الجانب الأربيلي من النهر، مقابل (دوگان) دون الرجوع إلى بغداد أو استشارة زميليه متصرفي السليمانية وكركوك، وبعث به مخفوراً إلى (العمارة) على دجلة الأيسر وأودع معتقلاً للسياسيين هناك. فما كان من أتباعه إلا أن هجروا قراهم بالمئات مع نسائهم وأطفالهم وانطلقوا في رحلة على الأقدام طولها (500) ميل للحاق بدليلهم وهو في منفاه. وبصعوبة كبيرة أوقفوا في كركوك. ولم ينثن عزمهم على مواصلة الرحلة رغم جوعهم وإرهاقهم، إلا إعادة (مامه رضا) إلى الديار ووضعه في معتقل لائق ينسجم مع ذوقه هو مدينة السليمانية القريبة من أتباعه الذين استمروا في الحج إليه لتقبيل اليد المقدسة. وقد لقيته هناك بعد عودته فوجدته شيخاً كبير السن رقيق الشمائل. ومهما تكن تعاليمه خاطئة من الناحية الدينية فلا يمكن أن تكون خطراً على الدولة.

إن التلول الأثرية في هذه (النواحي) الثلاث لا تحصى كما في غيرها من المناطق وفي العام 1927 قام الدكتور (ي.أ. سپايزر) بتنقيبات في (عربت، بيستان سور، ياسيه تپة) إلا أنه لم يكشف عن لقى أثرية على قدر معلوماتي. كما يوجد ثمة عدة كهوف ظلت دائماً تستلفت الأنظار إما بسبب أهميتها لانتسابها إلى عهود ما قبل التاريخ، أو لقيمتها كملاجئ من الغارات الجوية في الوقت الحاضر. ويتضح للعين المجردة مجموعة منها في الأقسام العليا من جناح جبل (به رانان) فوق قريتي (جيشانه وهه زارميرد) جنوب غرب السليمانية. وهي على شكل كوي قوسية مظلمة. وثمة كهف مشهور آخر قرب (عه ودالان) في الشمال الغربي من (سورداش) ويقال إنه ينفذ في باطن الجبل نفوذاً عميقاً لم يصل بشر إلى نهايته. والكهوف التي هي من النوع الأول كانت قد استهدفت إلى تنقيبات الآنسة (دوروتي گارود Dorothy Garrod) وهي مرجع في عصور ما قبل التاريخ من بين المنقبين الآخرين، فعثرت على أدوات تعود إلى العهد (الپايلوليثي)[1] إلا أنها لم تجد تماثيل ولا نقوش بارزة ولا تهاويل لأسطورة شائعة. وتوجد كهوف أخرى معروفة واسعة جداً في أطراف المسننات الصخرية العظيمة فوق (جاسه نه وقه مچوغه) اللتين ذكرناهما آنفاً. أوكل إليّ في صيف العام 1913 أمر إدارة دائرة الآثار العراقية بصفة مؤقتة إضافة إلى واجباتي الكثيرة في بغداد، وأنا لا أدعي بخبرتي في هذه الشؤون. وفي أثناء الأشهر القليلة لوكالتي أبلغني (أحمد بگى توفيق بك) أول متصرف عراقي للسليمانية، بأنه اكتشف في ناحية (سورداش) كتابة على الصخر يعتقد أنها بالفارسية القديمة فكان ذلك مفاجأة تامة. فمنذ 1918 حتى 1922، عندما كان اللواء تحت الإدارة الكردية المباشرة، قام عدد كبير من الضباط السياسيين والعسكريين بتفتيش المنطقة ركناً ركناً في أثناء ممارستهم واجباتهم أو خلال نزهاتهم. ولم ينقطع سيل الزائرين منذ 1924 بعد سيطرة الحكومة العربية

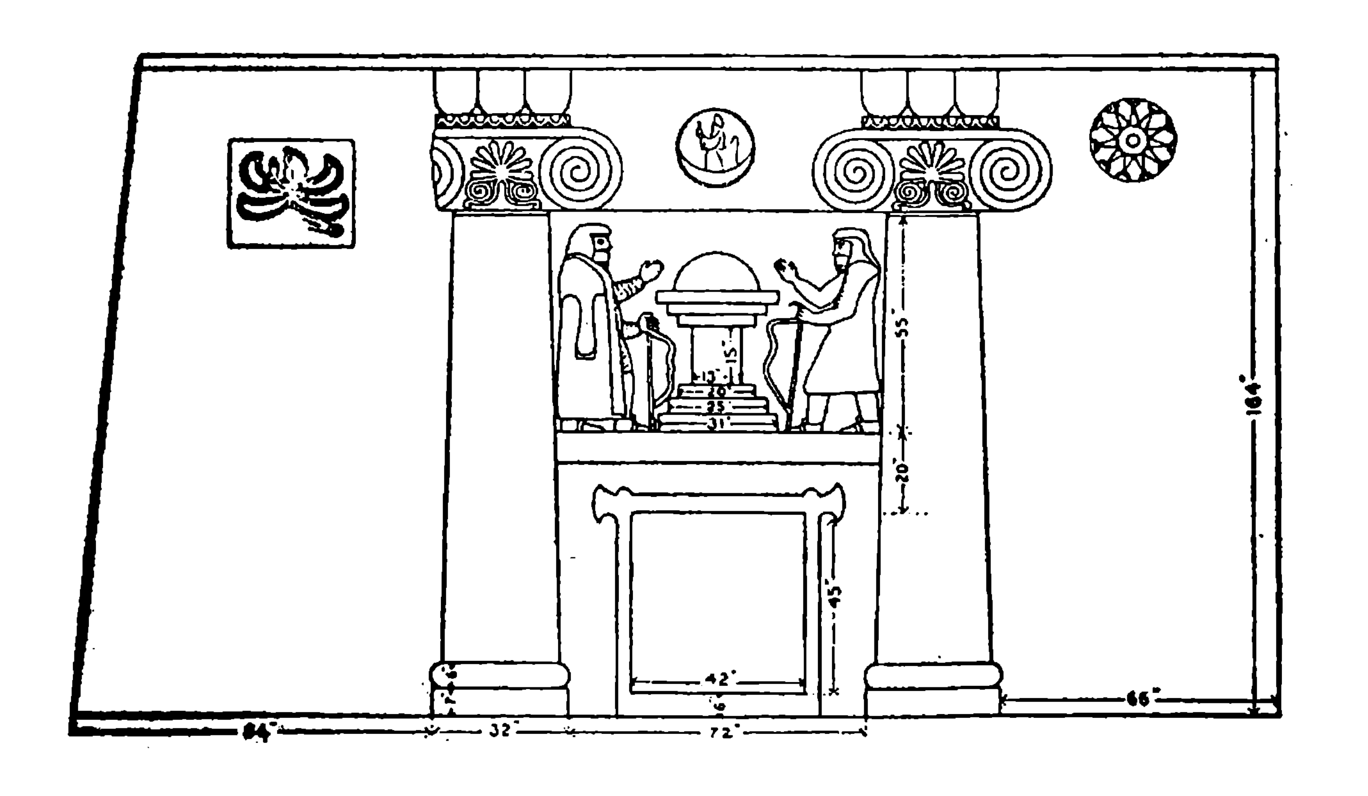
---

(1) هو العصر المعروف بالعصر الحجري حيث كان الإنسان يستخدم أدواته من الحجر الصواني ويقدر أبعد فترة فيه إلى 100,000 سنة قبل الميلاد. (المترجم).

وقد زرت أنا نفسي تلك المنطقة مرتين أو ثلاث مرات ولم أسمع كلمة واحدة تنبئ بوجود مثل هذه النقش الأثري. ولذلك صح عزمي على زيارة الموقع في أقرب فرصة إلا أن المصادفات السيئة أشغلتني طوال ثلاث سنوات ولم تتح لي الفرصة السعيدة إلا بحلول عيد الأضحى في نيسان 1934.

وكان أحمد (بگك) متصرفاً أيضاً فتركنا السليمانية بالسيارة حتى (موغاغ) ومن بعدها ركبنا الخيل إثر استراحة قصيرة تناولنا فيها الشاي في خيمة صغيرة ضربت لنا خارج القرية. وبعد ميلين اجتزنا نهير (تابين) عند نقطة التقائه بـ(چه رمه گا) وواصلنا السير مغربين بمحاذاة الضفة اليمنى لنهير (دواوان) كما يطلق على هذا الجزء من المياه المختلطة وبعد أربعة أميال أخرى بلغنا قرية (زرزى) ويطلق على جبل (سرسرد) هنا اسم (گه جه ل = أقرع) ويؤلف من الجنوب جداراً شديد الانحدار من الصخر الأحم تثقبه كهوف طبيعية وأخاديد. ويقع (اشكه وتى قِزْقَپان) وكهف (راڤيقه ر) خلف القرية، تحت في وجه الصخرة بارتفاع (25) قدماً عن موضع أقدامنا. وقد صقلت المسافة بين الباب والمدخل صقلاً عمودياً بحيث كان من المستحيل التسلق إليها إلا أننا استخدمنا حبالاً وسلمين مخلعين هيأهما لنا (الشيخ عبد الله عبد الكريم عه ودالان) ابن (الشيخ حسام الدين) وخليفته هو دليل على الطريقة القادرية يتمتع ببعض الشهرة، وكان في أوائل ثورة الشيخ محمود من أتباعه المخلصين. وسررت بوجود الحبال ولا سيما لأجل النزول من الكهف، لأن آخر درجة من السلم تبعد بثلاث أقدام عن الفتحة.

عندما صعدت إلى الفتحة وجدت نفسي في كهف خارجي منخفض ذي واجهة مفتوحة جعلت بمثابة شرفة لقصر أو واجهة، فيها باب قليل الارتفاع يفضي إلى حجرة داخلية. ويبلغ طول هذا الكهف الخارجي (23) قدماً وعرضه (90) قدماً ونصف قدم وارتفاعه ثلاث عشرة قدماً ونصف قدم والجدار الذي هو بمثابة واجهة القصر في صدر الكهف مقسم إلى ثلاثة أجزاء بعمودين أسطوانيين بارزين من الجدار بمقدار ثلثي قطريهما. وقاعدة العمود السفلي تقوم على الأرض ويليها



اشكوتي قزقپان ـ نحت بارزجداري (الأرقام المثبتة في التصوير هي انجات)

قاعدة ثانية مدورة ثم كتلة العمود المصقولة الخالية من الكتابة يعلوها تاج ضخم على طراز النحت (الآيوني)[1] بزخارف معرّشة بين الحلزنة وبين اللوح الذي يلي التاج. وهذا اللوح فيه زخارف تعرف عموماً باسم البيضة واللسان وفوق كل هذا نُحت ثلاثة أوتاد قائمة متلاصقة فوق اللوح تحمل عارضة عليا واحدة في الجدار وزوجين من العوارض تؤلف الطنف. إن قاعدة العمود الأيمن شديدة التلف وحلزنة العمود الأيسر مهشمة ممسوحة. والبعد بين العمودين من الأسفل حتى القمة ينقسم إلى جزءين متساويين بخط أفقي محفور حفراً والنصف الأسفل فيه مدخل منخفض يفضي إلى حجرة ضريح داخلية منقورة في الصخر والباب تالف ويبدو أن الجدار الأعلى والمزلاج محفوران في الصخر.

أما النصف الأعلى ففيه صورة محفورة يظهر فيها «بيت نار» على جانبيه شخصان يواجهانه والبيت يُرى فيه ثلاث درجات ثم أسطون ثم ثلاثة ألواح مدرجة من الأصغر إلى الأكبر بثلاث درجات أيضاً وفوق اللوح الأعلى نار مشبوبة مثلث بنصف دائرة. ويبلغ طول كل صورة بشرية أربع أقدام وخمسة أنشات أي زهاء ثلاثة أرباع حجم القامة الاعتيادية. واليد اليمنى لكل منهما ممدودة إلى أعلى نحو النار أما اليسرى فتمسك برأس[2] قوس وهذان القوسان يملآن الفراغ بين بيت النار والقدمين. وغطاء الرأسين خفيفان تنسدل أهدابهما على القذال منحسرين على نصف الوجه. وترى أيضاً عصابة تخفي الذقن والفم وتبرز اللحية من تحت العصابة. وفوق الحذاء شيء أشبه بسير أو أبزيم فوق فتحة النعل. ويختلف زي الصورتين، فالتي هي على اليمين مكسوة ما يشبه قميصاً طويلاً ينسدل حتى الكاحلين، والجزء الأدنى من الساعد خارج من كم الرداء إلى ما فوق المرفق وفي

(1) نسبة إلى أيونيا وهو إقليم يوناني في آسيا الصغرى نزل به (ليونان) وأسسوا فيه مستعمرات في حدود القرن الثامن ق.م. وازدهر فيه طرز عمارة متميزة عرفت بالعمارة الأيونية. (المترجم).

(2) سميت هذا الشكل (بالقوس) لأني لم أجد وصفاً آخر، وفي الملاحظات التي دونتها عن الموقع آنذاك أطلقت عليه اسم (قينار) والتمييز بين الصفتين الأكثر انطباقاً صعب جداً.

الركبة تلف كبير أحدثته رصاصة بندقية. أما الصورة عن اليسار، فالظاهر أن صاحبها يرتدي معطفاً من القماش الثخين منسدلاً حتى الكاحلين وحافاته فيها أهداب زخرفية ما فوق الكتفين، والكم خال من اليد منسدل إلى أسفل والساعدان والساق الأمامية بارزة من تحت المعطف وربما كان الرداء الذي يغطي المنكبين والفخذ من قماش ثخين مبطن كخياط اللحاف. أما قصبة الرجل فهي ملساء وربما كان يكسوها حذاء عال أو طماق.

وفي القسم الأعلى من هذه الصورة وفي الوسط تماماً تحت الطنف وما بين العمودين ترى صورة صغيرة (ميدالية) مستديرة غَلُظَ نقشُ الجزء الأسفل من محيطها لتبدو أشبه بهلال. وفيها وجه جانبي ينظر إلى ناحية اليسار فوق رأسه طاقية خفيفة وفي وجهه لحية، وشعر رأسه بارز من أسفل الطاقية فوق القذال على هيئة (الكاكول) وقد ارتفعت يده بشكل أشبه شيء بالقدح أو بدبوس حربٍ كما يبدو وكأنه قاعد مشتمل بعباءة.

وليس للقسم الأيسر من الواجهة غير زخرف واحد وهو إطار يبعد بحوالي عشر أقدام عن الأرضية وهو مربع الشكل تقريباً ضلعه يبلغ ثمانية وعشرين أنشاً وفي داخل هذا الإطار صورة شخص مجنح ينظر إلى جهة اليسار وهي شبيهة بهيئة (اهورمزدا) في نقش (بيستون) وغيره من المنحوتات الأخمينية لكنه يخالفها في إن الجناحين الأعليين مقوسان إلى فوق، تتجه نهايتاهما إلى زاويتي الإطار والجناحان السفليان قصيران وافقيان مع الرأس ولا يشاهد صدر أو عنق. والصورة قد لحقها تلف كبير بفعل العوامل الطبيعية إلا الجناحين الأعليين واليد المرفوعة بين الجناح الأعلى والأيسر والرأس والجناح الأيمن الأسفل، وشريط تحته وذيل، فهذه تبدو واضحة للعين. بينما لا يمكن تمييز الرأس بالنظر المجرد، على أنه بدا أوضح في صورتي الفوتوغرافية.

وأما الجزء الأيمن من الواجهة ففيه زخرف واحد ويقع على مستوى (المدالية) الوسطى، ويتألف من ثلاث دوائر متحدة المركز الواحدة منها داخل الأخرى.

وأكبرها يبلغ طول قطرها 18 أنشاً وهي والقرص الخارجي قد نحتا نحتاً بارزاً بمقارنتها بالدائرة الوسطى. وفي الحلقة الخارجية نقش أحد عشر شكلاً زخرفياً تشبه أقداح خمر ذات قواعد مخروطية وهي محفورة ويبدو القرص الداخلي أشد احمراراً من الصخر المحيط بها ولعلها كانت ملونة في الماضي.

إن الضريح الداخلي منقور في الصخر إلى عمق عشر أقدام ونصف قدم على مستوى الباب الصغير نفسه، وارتفاعه في الداخل يقل عن سبع أقدام. وهو مقسم جانبياً إلى ثلاث حجرات في كل واحدة منها حوض عمقه حوالي قدمين منقور في الأرضية أما الحوض الذي هو في الحجرة الوسطى، فطوله يزيد عن ست أقدام. ويقل طول الحوضين الآخرين عنه بثلاث أنشات تقريباً لينزل فيها حافة غطاء حجري كغطاء والبابان اللذان يقومان بين الحجرات الثلاث فيهما جِتار وعتبة لها تجويف صخري إلى يسار الباب الرئيس. وهنالك ثقب ينفذ في الجدار القصير يقابل التجويف مما يفصح عن وجود قضيب يمتد عبر المدخل. وهناك تجويف آخر في الجدار الأمامي للحجرة اليمنى يبين منه أنه كان يوجد طريقة لقفل النهاية السائبة من القضيب. لكن إذا كان القضيب يقصد منه تثبيت باب في محله فمن الصعب أن نرى كيف يمكن أن يقفل إلا من قبل شخص يبقى في الداخل.

إن هذا الكهف يواجه تماماً وادي (دو آوان) ويشرف على منظر مهيب كامل لجبل پيره مه كرون.

أمضينا الليلة في قرية (قه لاباش) ضيوفاً على أخ (الشيخ عبد الكريم عه و دالان) وفي صباح اليوم التالي خرجنا لفحص ضريح صخري آخر يعرف باسم (اشكه ونى كروكچ = كهف الفتى والفتاة) ويقع خلف قرية (شورناخ) حيث سفح جبل (بنزرد) يواجه الشرق عبر (چه رمه گا) إلى (پيره مه گرون). وكان بالإمكان أن نبلغها بدون سلالم وهذا بلا شك يفسر حالتها الحاضرة. إن بابها الخارجي يكاد يكون بطول باب الكهف الأول إلا أن عرضه لا يزيد عن ست أقدام أما العمودان فليسا ملتصقين بالواجهة وإنما يبعدان عنها بمقدار قدمين وقاعدة الأيسر

منهما فقط باقية مع مقدار عشرة أنشات من العمود وثمة عارضتان مستطيلتان كبيرتان أضخم من العوارض المثلثة في (قزقپان) تبرزان من الواجهة على طول سعة السقف مستندتين إلى العمودين وإذا كان يوجد أي نقش في الواجهة فإنه قد تلف تماماً دون أن يخلف أثراً.

وليس ثمة إلا حجرة داخلية واحدة طولها سبع أقدام وعرضها خمس وارتفاعها أربع ويمكن دخولها من باب منخفض وهي منقسمة إلى جزءين متساويين تقريباً والفاصل بينهما حوض يستغرق الجانب الأيمن ولذلك لا يبلغ طوله أكثر من خمس أقدام ومن هنا يرى منظر لطيف (لپيره مه گرون) عبر الوادي. ولو كان الموضع قد انحرف بضع أقدام عن محله الحالي إلى منعطف السفح، فالمنظر سيكون كاملاً تماماً لأن پيره مه گرون سيواجهه بالضبط فضلاً عن منظر جانبي رائع من السليمانية حتى شهرزور مع الحاجز الطويل لجبال هه وره مان التي ترتفع 7000 قدم فوق مستوى السهل على بعد ثمانين ميلاً[1].

لم أجد أثراً لكتابة ما قرب الضريحين ولم يقم الخبراء بتقدير تأريخها حتى الآن وقد أعلمني المرحوم الدكتور (هرتسفلد) أنه عثر على ضريحين مشابهين في شمال غرب إيران بأعمدة نحتت نحتاً بارزاً على الصخر واعتبرهما من العصر (الميدي) كما وقع على ضريح آخر في موضع بين (پرسو پوليس وسوسه)[2] ذي أعمدة بارزة من الصخر فعده من العهد الفارسي لما يسبق السلالة[3] الأخمينية.

---

(1) عن وصف مفصل هذه الأضرحة مع تفاصيل أخرى ومخططات وقياسات وعدد كبير من الصور الشمسية، انظر مقالتي (ضريح في كردستان) نشر في مجلة العراق، المجلد الأول 1934 - لندن.

(2) برسبوليس: عاصمة الفرس الأخمينيين تقع خرائبها اليوم على بعد 50 كيلومتراً شمال شيراز، اشتهرت بقصورها الفخمة وتقوم الآن فيها أجزاء كبيرة واضحة من قصر الأباداثا. وسوسه - عاصمة العيلامين، وهي الآن خرائب وتقع في عربستان. اجتاحها شابور الثاني الفارسي (309 - 379) وضمها إلى ملكه. وفتحها العرب (638) وظلت عامرة حتى أدركها الخراب في القرن الثالث عشر. (المترجم).

(3) الأخمينيون - سلالة ملوك حكمت فارس، مؤسسها «هاخمانيش» ظهرت على مسرح التاريخ في=

ويرى الدكتور كامرون G.G. Cameron من جامعة شيكاغو[1] أن كهف (كروكچ) ينبغي أن يرد إلى عهد الميديين ولعله ضريح فراورتس[2] ابن دايوكيس والد كيخسرو[3]، الذي يقول (هيرودوت) إنه قتل في هجوم له على أشور في محل لا يبعد كثيراً عن (سورداش) أما ضريح (قزقپان) فهو يرده إلى عصر متأخر عن الضريح الأول والأسماء التي أطلقت عليهما جمهرة الكرد تشير إلى أنهم عزوا إليهم أسطورة تروى عادة وبشكل متواتر بخصوص الجسور الأثرية المتقوضة في إقليم زاغروس[4] تقول الأسطورة إنه كان يعيش هنا في (كروكچ) أمير وقع في حب أميرة تعيش في (قزقپان) وراء نهر (تابين) وكان يزورها كل ليلة، فقامت الأميرة بنصب جسر لتسهيل زوراته كما توهمت، وليكون نشطاً غير متعب عند وصوله، فوجدت عكس ما أملت بحيث إن الأميرة أمرت بهدم الجسر.

بعد أن أنهينا تنقيبنا ركبنا ودرنا حول الجبل تحت السفوح المنحدرة لتناول غذائنا في (عه ودالان) مع الشيخ عبد الكريم في تكيته وألح علينا مضيفونا كثيراً في أن نخرج لتفقد قلعة أثرية تسمى (جلندى) وهي عندهم أهم وأطرف من الضريحين. ومع أني كونت فكرة تقرب من الصحة عما سأجده من أجوبتهم عن الأسئلة التي ألقيتها عليهم، فقد سرني جداً أن تتاح لي فرصة استكشاف نهر

=أول القرن السابع، وانشعبت إلى سلالتين، ولكن سلالة ملوكها تبدأ بكورش (ح559 - 530 ق.م.) وتنتهي بداريوش الثالث (336 - 330 ق.م.) (المترجم).

(1) انظر أيضاً (هرتسفلد)، التاريخ الأثري لإيران، طبع لندن 1931، ص30 - 32.

(2) تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة شيكاغو، 1936، ص182.

(3) فراورتس كما أثبته هيرودتس وذكر رواية قتله وهو بالفارسية خشاترثيا حكم بلاد مادي 673 - 652 ق.م. ودايوكيس كما أثبته هيرودوتس هو داجواكو من أوائل ملوك الماديين حكم منذ 709 حتى 645 كما ذكر المرجع نفسه. وكيكسارس هو كي أخسار أو كيخسرو المتوفي 585 ق.م. (المترجم).

(4) أذكر بدون صعوبة، قصة أخرى شديدة الشبه بهذه، وتدور حول جسر (تاييت) على الزاب الصغير بالقرب من مصب (قه له جوالان) وأخرى عن (بردى كنجان) على سيروان جنوب شرق حلبجة، وعن تلول (فليافيله) و(سرود) على الضفة الأخرى من نهر دجلة جنوب بلدة (علي الغربي) حيث يكون النهر في أقرب مسافة من جبال لرستان. إلى غير ذلك من المواقع.

(سرقوشان) من النقطة التي سبق لي أن عبرته قبل خمس سنين ولذلك ركبنا إليها ومررنا بقرية (قوچ بلاق) ثم وصلنا رافداً يسمى (چه مي ريزان) يصدر من الجنوب ويتجه نحو الشمال إلى مدخل كهف (عه ودالان) الشهير، على ما يقولون. وعبرنا النهر من مصبه. وواصلنا السير بمحاذاة الضفة اليسرى من (سرقوشان) الذي ينحرف هنا إلى الشمال عن اتجاهه الغربي وبعد ميل واحد ينعطف المجرى ثلاثة منعطفات حادة جداً بتتابع سريع خلال غور عميق واضطررنا إلى عبور خانقين شديدي الانحدار. وشاهدنا فوق رؤوسنا زوجاً من الخنازير على نتوء صخري ضيق قرب القمة وأمامه منحدر شديد. أزعجتهما طلقة نارية فأسرعا يهرولان بأقدام ثابتة ثبات أقدام الوعل وكان سفح الجبل مزدهراً بالسوسن، وخلافاً لشجيرات البلوط الكثيرة كان ثمة عدد لا يحصى من أشجار وشجيرات لا تؤهلني معلوماتي إلى وصفها وتسميتها، ولاحظت وجود شجرة (حبة الخضراء = داره بن = قزوان) و(شوك المسيح = زيى) و(الزعرور = گويژ).

تقع قلعة (جلندى) على الضفة اليمنى من النهر وفي ثالث منعطف له، وهي قلعة جبلية من الطراز الذي يسمى (ديز) في لرستان، ويحميها من جهات ثلاث، سفوح شديدة الميلان تتجه نحو النهر وقد جرت تقوية هذا الاستحكام الطبيعي باستحكام من الحجر والجص. وفي القمة المسطحة توجد خرائب كثيرة قد يعتقد أنها أحواض ماء وثكنات واصطبلات. ولم أجد نبع ماء في أي مكان، ولاحظ مرافقي ببعد نظر أن كل هذا الجص المستعمل في البناء يتطلب كميات كبيرة من الماء لجلبه، ورددا أسطورة مؤداها أن هذا الماء إنما جيء به من الضفة البعيدة بأنابيب، ولا يوجد أي مأثرة عن تاريخ الموقع. ويذكر (أوسكارمان)[1] الذي جمع نماذج من اللهجة الموكريانية في صاوچبلاغ (مهاباد) سنة 1902 - 1903 أنه سجل أغنية غزلية عنوانها (جلندى) وملخصها أن (جلندى) الملك الوثني أقلقه تقدم المسلمين فتحالف مع الشيطان (الذي اتخذ شكل آنسة بارعة الجمال كما جاء في

---

(1) دراسات فارسية - كردية: اللهجة الموكريانية - الكرد، ط. برلين 1906، ج1 ص228 - 246.

أحد أبيات القصيدة الجميلة) ونجح في إغواء (علي أسد الله) ليقوم بمحاصرة (المدينة المنورة) ويخيف السكان وبعد كثير من الحوادث يستظهر عليه (علي) ويقتله. والورع الديني الكردي كان يغلب هنا بطبيعة الحال إذ إنه عزا إلى ابن عم النبي وزوج بنته بطولة كردية، ووضعها في إطار حجازي، بحيث ظل الاسم الأصلي للشخصية الشريرة منعزلاً. ليس هناك شواهد جغرافية داخلية تعزز وجود أية رابطة لهذه الأسطورة بقلعة جلندى في (سورداش).

الآن مضى من اليوم معظمه وقررنا الاستراحة حيث نحن بدلاً من العودة إلى (عه ودالان) ووجد مرافقونا بقعة ترابية نظيفة قرب النهر يظلها نتوء صخري. لكنه لم يكن فوق خط الماء الأعلى كما هو واضح بحيث نأمن من فيض مفاجئ، ولذلك انتقلنا إلى شرفة أعلى إلا أن الموضع لم يكن نقي الجو وأعدنا خيلنا إلى (قوچ بلات) وبعد حلول الظلام أعلنت أجراس، وصول كروان صغير من (عه ودالان) يحمل لنا الأغطية والأفرشة (نووين) مع الطعام لجماعتنا الكثيرة العدد وأكلنا وجبة ممتازة على وهج نار فروع شجر البلوط تحت ضياء القمر الذي يكاد يكتمل بدراً وكانت تحجبه بين آونة وأخرى الغيوم المتسارعة في السماء وأثبت لنا إسكافي (عه ودالان) أنه راوية ممتاز ولا بد أني غفوت على حكاية ابن الملك وبنت الوزير والمحاورة الجميلة لأبطال القصة عندما أيقظني وميض برق مصحوب بانفجارات رعدية هائلة يرن صداها في جوانب المضيق بالأسفل. وأبقتني أصوات هذه العاصفة الشديدة مستيقظاً أكثر من ساعة.

وبكرنا في النهوض صباح اليوم التالي وتركنا موضعنا راجلين يتقدمنا مختار قرية (شيخان) بهيكله الضخم ووجهه الباش وعقبنا طريقاً ضيقاً لا يسمح بالمرور لأكثر من شخص واحد ويضيق إلى عرض أنشات قليلة في بعض المواضع ويمر فوق منحدر شديد الميلان على الضفة اليمنى. وأخذ السفح يتطامن وينداح باقترابنا من (زه رزى) ومن ثم اجتزنا (قزقپان) بأعمدتها وطنفها المألوفة الواضحة لأعيننا من الأسفل ثم عبرنا (تابين) إلى (موغاغ) وهنا تناولنا وجبة طعام من القطا الجبلي

(كه و) والوعل (بزنى كيؤى) مع نبات الكعّوب (كنگر) الشوكي الذي يستمرؤه الكرد، وبعدها لحقنا بسياراتنا فركبناها إلى قرية (قه ره چه تان) وهنا أعلمنا (أحمد بك) بوجود درج حجري منقور في الصخر ربما كانت درجاته تفضي إلى معبد، إلا أن الجو كان ينذر بالسوء فقررنا أن نعود حالاً، وكنا على صواب إذ ما استقر بنا المقام في السليمانية حتى هبت عاصفة رعدية مع مطر غزير قطع طريق السيارات من كركوك في اليوم التالي.

- 15 -

رانيه وپشده ر

إن النقيب و.ر. هاي W.R. Hary (الآن: سير روبرت هاي). كان أول ضابط سياسي عين لأربيل المرتبطة بإدارة الموصل آنذاك وقد ذكر في كتابه (عامان في كردستان - طبع لندن 1921) كيف أدخل في كانون الأول 1918، إدارة الاحتلال إلى الأقضية الثلاثة (كوي، رانية، پشدر) وكان الأولان في عهد الترك مرتبطين بلواء كركوك والثالث بلواء السليمانية وقد رسم أن تكون كلها ضمن حدود دولة الشيخ محمود، ذكر كيف أن (كوي) ألحقت (بقسم أربيل) المستحدث، بعد ثورة الشيخ بينما بقي القضاءان الآخران تحت إدارة السليمانية باسم منطقة رانية[1] وأبرز المظاهر الطبوغرافية لهذين القضاءين هي أولاً سلسلة جبال شاهقة تؤلف الحدود الإيرانية وترتفع إلى 780 قدم بالقرب من فتحة الزاب وتستمر بالارتفاع شمالاً حتى تبلغ 11800 قدم والمظهر الثاني هو السلسلة الجبلية الطويلة (كوركور - ئاسوس - كيوه ره ش) الذي هو استمرار لسلسلة (كوره كاژاو - كوجار - كوركور -

(1) كانت حدود المنطقة بتشكيلها هذا، على النحو التالي: شرقاً الحدود الإيرانية، وشمالاً (بانحراف طفيف واحد). الخط الفاصل بين حوض الزاب. ومن الشمال الغربي خط غير منتظم يشق الأرض شقاً ليصل إلى نقطة تبعد زهاء خمسة أميال إلى شمال (كوي) ومن الجنوب الغربي من هذه المنطقة إلى الزاب الصغير في هضبة طويلة مستوية تعرف باسم (هيبة سلطان = 3500 قدم) وهي امتداد سلسلة جبال (به رانان - بنزرد) نحو الشمال الغربي ومن الجنوب ملاصقة لسورداش. ومن الجنوب الشرقي تلاصق (ماوه ت).

شارباژير)، والمظهر الثالث هو الانحراف الحاد الفجائي للزاب بعد دخوله العراق بمسافة زهاء ثلاثين ميلاً إلى الشمال الغربي، ومن ثم يخرق الجبال عند (ده ربندى رمكان) الذي يفصل قطاع (ئاسوس) عن كيوه ره ش ثم يدور نحو الجنوب في مجرى واسع مفروش بالحصباء ثم يضيق ثانية عند مضيق (قه ره زه رد). وسلسلة جبال الحدود مكسوة بالثلج معظم أيام السنة. ومن خط القمم الوضاء، قمة تسمى (قنديل كوگز = أو قنديل الأصلي) يبلغ ارتفاعها 1324 قدماً وهي قمة جميلة المنظر. إن لم تكن أعلى القمم - أشبه صديق طيب يؤشر إلى المسافر دربه في التيه تحته. ويضيق خانق (ئاسوس - كيوه ره ش) أثناء انفصاله عن كتلة الجبال بالقرب من (كوركور) ويفصل سهل (قلعة دزه) على الشمال الشرقي من سهول (مه رگه و بتوين) عن الجانب الجنوبي الغربي ثم يضيع مرة أخرى في عقد الجبال حول (رواندوز). وإلى جانب خط ضيق من القرى (باش كيو) لكن السهل الذي هو على الضفة اليسرى تتقاطع فيه عدة غدران سريعة منها (ژاوه) الذي ينبع من الجانب الإيراني على بعد 19 ميلاً من الحدود حيث يمتد خط أعلى قمم السلسلة العظمى غير مساير تساقط الماء، ومنها (گارڤين) الذي ينبع من (قنديل) وهذان أهم مسيلين. وعلى الجانب الآخر من الخانق يفصل الزاب وهو في مجراه نحو الجنوب - بين (مه رگه) و(بيتوين) ويصب فيه من الضفة اليمنى رافد كبير يدعى (باسه لام)[1] والحدود التقليدية بين القضاءين هي نهر (زرزاوه) اعتباراً من الحدود حتى مصبه في الزاب، وتمتد الحدود على الزاب نفسه حتى مضيق (قره سرد)[2] وتتألف رانية تأليفاً طبيعياً من ثلاث نواح وهي (ناوده شت) = 8650 نفس وتقع بين زرزاوه وكيوه ره ش وناحية رانية = 11000 نفس وتقع في الوسط. وناحية

---

(1) أخذت هذا الاسم عن الخرائط، وهو معروف عموماً باسم (آوى خدران) لكن من المناسب أن نبقى على هذا الاسم الأخير لنطلقه على أحد عدة غدران يتكون الماء الأصلي من اجتماعها كلها.

(2) ولذلك ان في عهد العثمانيين حدود اللواءين السليمانية وكركوك. مثلما أصبح فيما بعد حدود لواء السليمانية وأربيل. وعند (كينيه) وفي الحوليات التركية (سالنامه) تظهر (مه ركه) مركزاً لقضاء بشدر وتظهر وقلعة (دزه وسورداش) ناحيتين تابعتين (لمه ركه).

(چيناران) = 4800 نفس جنوب (باسه لام) ويمكن تشبيه شكلها العام بمروحة غير منتظمة الشكل. وأول ناحيتين تتألفان من سلسلة سفوح ووديان ضيقة تنحدر من الشمال الشرقي والشمال الغربي حتى سهول الزاب في حين تمثل (چيناران) قبضة المروحة. ويتألف قضاء (پشده ر) من ناحيتي المركز أي قلعة دزه = 22500 نفس وتكاد تكون مثلثاً متساوي الأضلاع، ويميل برأسه إلى الأعلى من (زرزاوه) والزاب إلى سلسلة الحدود الشمالية، وناحية (مه رگه = 13100)، يحيط بها الزاب، وتلتصق (بسورداش وماوه ت) ويقسمها (ئاسوس) قسمين غير متساويين طولاً. وفي كل قضاء من الحدود الدولية ما يبلغ طوله (30 ميلاً).

من قائمتي الخاصة بأسماء الرحالة أجد رائداً بريطانياً واحداً فقط، وصل إلى هذه الأنحاء، وأما عن غير البريطانيين فإن (چيريكوف) كان هذا طبعاً مع لجنة الحدود في السنة 1849 - 1852 وسأجد لي فرصة للرجوع إلى عدد من النقاط ذات أهمية من مدونات كليمان (1856) وبريزيزوفسكي (1869)، وكان ماونسل (1888) أول إنكليزي يصف الإقليم. وإلى العام 1914 لم يرتد المنطقة غير (مارك سايكس السنة 1905)، إن لجنة حدود العام 1914 عندما وصلت المنطقة لم تبق فيها وإنما جاوزتها وضربت كل خيامها في إيران ولا نجد في (هوبارد) إلا تنويهاً عابراً أو تنويهين بالجزء التركي، وأما الإجراءات الإدارية التي وجدت لعمل يجري بها في السنة 1922، فقد كانت تختلف قليلاً عما أسلفته. وجدت معاون ضابط السياسي نفسه، يدير مباشرة نواحي رانية ومه ركه وچناران وناحية ناوده شت المنفصلة حتى نهر (گارفين). وتدار الناحيتان الأوليان باثنين من الموظفين المدنيين والثالثة والرابعة بمرشحين ذوي روابط قبلية محصنين من الرصاص أما (قلعة دزه وناو ده شت) فتتم ممارسة السلطة عليهما عن طريق (بابكرى سليم آغا) زعيم قبيلة پشدر الكبيرة الذي يتمتع بدرجة قائمقام يتمتع بدرجة قائمقام قلعة دزه إلا أنه يعمل بصفة مستشار لمعاون الضابط السياسي في الأمور الخاصة بشؤون قبيلته فيما وراء الحدود وفي المواضع التي ينتفي فيها وجود الإدارة الإيراينة، وفي مناطق أخرى

مثل (مه رگه) و(ماوه ت) حيث كان نفوذ پشدر قوياً وقد ترك لنا (هاي) وصفاً لبابكر آغا طيباً مفهماً بالتقدير لرجاحة عقله وبالشكر لإخلاصه في تلك الأيام الأولى قال «سيد من الطراز الأول أرجح عقلاً وأقوى شخصية من كثير من شيوخ القبائل الذين لقيتهم خلال عامين لي في كردستان». كان بالأصل قد عينه الشيخ محمود، لكنه أظهر ولاء وعوناً كبيراً للحكومة أثناء اضطرابات العام 1919، وبقي في وظيفته هذه بعد قمع تلك الاضطرابات.

عندما وصفت الجاف في فصل سابق بكونهم أهل قبيلة في الجنوب لم أشأ القول إنهم «أقوى قبيلة» فهذه الميزة تنطبق، وربما ظلت حتى اليوم تنطبق على (پشدر) وهذا الاسم معناه الحرفي «خلف المضيق» ويقصد به مضيق (ده ربه ندى رمكان) بالنسبة للناظر من الغرب. أما اسم القبيلة الأصلي بقضها وقضيضها، فهو (النور الديني) ولقب أسرتها الحاكمة المتوارث (ميراودلي) وأغوات (الميراودلي) يبسطون سلطانهم على القبيلة بشكل مطلق لا ينازعهم فيه منازع وكانوا كثيري النسل، والسنوات السابقة على العام 1918 كانت عهد توسع سريع في تركيز سراكيلهم ووكلائهم في دائرة متسعة أبداً من القرى التي لم يملكوا فيها شبراً من حقوق الملكية. لذلك استحقوا بعض الدراسة كنموذج لقبيلة كبيرة في مرحلة معينة من التطور السياسي والاجتماعي، في الواقع مرت أيام عزّهم وسؤددهم لكن صلاتهم القبلية لم تعان بعد ما عانته قبائل الجاف من تمزق وتفرق منذ أمد بعيد وفي صورتنا التي سنقدمها ستبدو بطوناً معينة من القبيلة إلا أن البطن (النور الديني) بأعيانه وسائر أفراده من پشدر يكاد لا يبدو له أثر والحكاية هي حكاية الأسرة الحاكمة فقط.

يزعم (الميراودلي) أنهم من ذرية البابانيين انحدروا من جدهم الأعلى (فقي[1] أحمد دار شمانه) والقصة كما رواها لي (بابكر آغا) هي كالآتي: كان يعيش في

(1) هذا هو اللفظ الكردي لكلمة (فقيه) ومعناها (العليم بالشرع الإسلامي) وقد دون ريج في السليمانية رواية أخرى لهذه القصة أطول وأكثر تفصيلاً (المرجع السالف، م. ص 292 - 296).

قرية مه رگه أخوان هما (كاكه مير وكاكه شيخ) وقد قتل كلاهما ولما كانت أرملة (كاكه مير) حبلى فقد هربت إلى (خدران) الواقعة في ناحية (جناران) الحالية وهناك ولدت طفلها (أحمد) ثم انتقلا إلى (دار شمانه) التي تبعد سبعة أميال شرق (قلعة دزه) ونشأ فقي أحمد رجلاً ذا بأس شديد، وعلم ومعرفة وفي معارك المسلمين ضد الكفار تمكن في وقعة واحدة من دحر (كيغان) الأميرة المحاربة الشجاعة بنت إمبراطور الإفرنج التي لم يستظهر عليها فارس مسلم من قبل، فأسرها وعاد بها إلى موطنه عودة الظافر المنتصر إلا أن أسداً هاجمه في الطريق، وتمكنت (كيغان) من الفرار. وبعد أن شفي (فقي أحمد) من جراحه خرج يطلب أسيرته من جديد، وكانت (كيغان) قد أغرمت وأعجبت بذلك الرجل الأوحد الذي استطاع قهرها في مبارزة. فرافقته مختارة إلى بيت في (دار شمانه) وولدت له ثلاثة أبناء هم (بابا سليمان) عميد الأسرة البابانية و(خان به داخ) عميد أسرة (أميراودلي) والثالث كان جد أسرة (موكري) الحاكمة ويقال أحياناً إن (كاكه مير) هو سليل صلاح الدين الكبير وإن الأسرة الأيوبية نزحت أولاً من سوريا إلى جزيرة ابن عمر قبل أن تستقر في (مه رگه) والجد الثاني الذي لا بد من ذكره هنا هو (ميراودال) الذي نسبت إليه الأسرة أحد أخوة ثلاثة انحدروا من صلب (خان به داخ). واستقر (ميراودال) في قرية (نور الدين) التي تقع على مسافة أربعة أميال من جنوب شرق (قلعة دزة) وخرج (مير زين الدين) إلى (اشكه وت سقا) التي تقع شرق أربيل بمسافة 18 ميلاً فكان هناك جداً أعلى للأسرة التي تتزعم (گردى) في ذلك اللواء وانتقل (مير شمزين) إلى الشمال واستقر في (شمس دينان = شمدينان) وهو الاسم الشائع عند الكرد، وموقعها الآن في تركيا.

وأقرب من هؤلاء كلهم إلينا الجد العام لكل الميراودلي، (حمه آغا) الملقب (گه وره = الكبير) ولعله عاش في 1790 - 1850[1] وقد ترك نسلاً كبيراً من سبع

(1) الأعضاء الآخرون الوحيدون من الفرع الذين قابلتهم شخصياً هم جماعة (عمر آغا) الذين يسكنون ثلاث قرى بالقرب من (قلعة دزه).

نساء، وخلف أربعة عشر ذكراً ومن أولاده سلالة من الذكور لا يحصى لها عدد. وخلفه في زعامة پشدر ابنه الأكبر (بابكر آغا) الذي قال (كليمان)[1] إنه لقيه قرب الحدود ما بين (آلان) الإيرانية وقلعة دزه في العام (1856) وكان له من العمر زهاء ثلاثين عاماً ويبلغ عدد أخواته العشرين وأخوته الثمانية عشر وكلهم في قيد الحياة. وذكر أن بإمكانه تجريد أكثر من ألفي مسلح. والفروع السبعة للأسرة التي أسسها (حمه آغا) يسمى عادة (بگزادة) لا لأن ذات الرحم أعرق أصلاً من بقية الزوجات الست كما أكدوا لي، بل هو دليل على الاستخفاف والاحتقار له بسبب سوء طبعها وشدة قبحها! والشجرة المقابلة تبين صلة القرابة بين الأغوات البارزين المعاصرين الذين تتردد أسماؤهم في هذا الحديث.

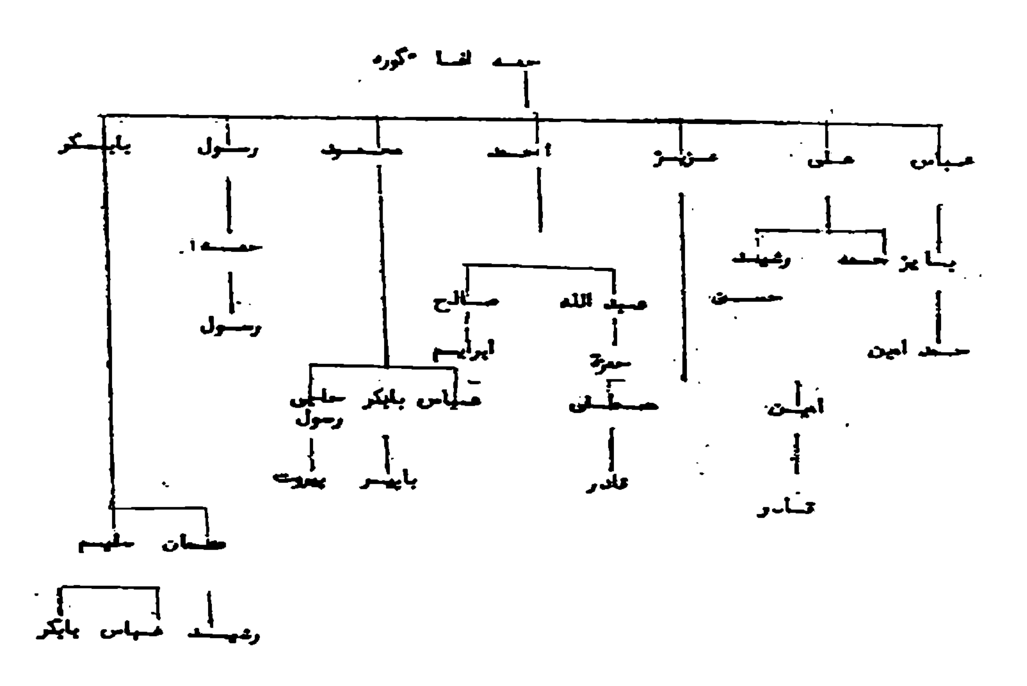
في مركز ناحية قلعة دزة يمثل الفروع جميعها كل من (أحمد آغا وبابكر آغا ومحمود آغا) وبهذا الترتيب تتسلسل مكانتهم. وفي (مه رگه) كان فرع محمود آغا الأقوى، ويمارس كذلك نفوذه على قبيلتين مهمتين تمتان إليها بصلة القرابة وهما (شيلازك، وجافه ره شكه) وهؤلاء أبرع متسلقين على الجبال في سورداش، وفي ماوه ت، تفوقت أسرتا بابكر آغا وعلي آغا. أما أسرة البگزادة فمنتشرة حول القمة الرئيسة الوسطى لسلسلة (كوركور) ولهذا نجد أفرادها في كل نواحي قلعة دزه وماوه ت ومه رگه وربما كان فرع بابكر آغا الأقوى قرب الحدود من الجهة الإيرانية.

ويتضح من شجرة الأسرة أن (بابكرى سليم آغا) بغض النظر عن سجاياه

---

(1) كان (كليمان) قد تجول في قطاع (سه ركيو) من الحدود. وبلغه من (شيوه كه ل) وعبر الزاب إلى (آلان) الإيرانية ودخل تخوم أراضي قلعة دزة حتى (كاتاو) التي تبعد مسافة نصف ميل عن الحدود قبل أن يقفل راجعاً إلى السليمانية عن طريق (ماوه ت) أما عن القبيلة بالذات فهو يذكر ما تنقله أدناه (بنصه الفرنسي): «وقد وجدت القبيلة الكردية (نور الدين) القوية المرهوبة الجانب. تضرب خيامها في تلك الأنحاء. إن أعمال العنف التي تقدم عليها قد اتسعت دائرتها حتى مشارف كويسنجق ومع أنه سار بالقرب من (قه لاجوالان) الأسفل وعبره فعلاً في (قه شان) فهو كما يظهر لم يدرك حقيقته.

الشخصية البارزة، فهو المرشح الطبيعي لزعامة پشدر دون معارضة لأنه العضو الأكبر في الفرع الأقدم. وقد اعترف بزعامته هذه عموماً، ولأن بابكر الأول كان قد توفي وهو صغير السن، فقد تولى الزعامة بصورة مؤقتة ولمدة وجيزة أخ أصغر له هو (محمود) وهذا ما لم يغب عن ذهن (عباس) ابن محمود الصغير، فأخذ يدس الدسائس للإطاحة بمكانة (بابكري سليم آغا). وهذه المناورات التي كان يلجأ إليها بابكري للإبقاء على زعامته إضافة إلى المضاعفات والتعقيدات الناجمة عن التكتلات السياسية لمختلف أعضاء الأسرة فروعاً وأصولاً وبلجوء هؤلاء إلى التحالف مع القبائل المجاورة تسمم الجو السياسي بهذا المصدر الذي لا ينضب من القلاقل. ومهما يكن فهناك شيء طريف واحد في هذا التنافس والتكالب الداخلي، وهو أن تلك الأحقاد التي تميز بها الميراودلي عن أغلبية القبائل الكردية لم تؤد أبداً إلى سفك الأخ دم أخيه. وإنك ترى الروح الرياضية سائدة بينهم فمن وجد نفسه خاسراً في المكيدة أو مغلوباً في أي موضوع خلاف استسلم للقدر حالاً، ثم بدأ لعبة جديدة ليبني عليها أملاً جديداً.



ربما يبدو ما ذكرته - تفاصيل مسهبة مملة، لكني أرى أن الإلمام بالتنظيم الداخلي وسياسة أكبر القبائل نفوذاً في جنوب كردستان ضرورياً لتفهم الأسباب التي دعت إلى انهيار صرح الإدارة البريطانية، وانسحابها من السليمانية مما سنأتي إلى ذكره في الفصول التالية. أما العناصر الأخرى المكونة للسكان فسنجمل البحث فيها ونقتضب.

إن اتحاد البلباس ويتألف من قبائل خمس وهي منگور، مامش، پيران، سن، رامك (والمنگور الجبليون) هم قبيلة إيرانية مهمة استقرت في بقعة من شرق القسم الشمالي لمنطقة الحدود في رانية على ضفتي (لاوين) وهو أهم روافد الزاب العليا في إيران، وثمة فخذان من المنگور غير الجبليين يعيشان في العراق وهما (منگور زدي) ويسكنون في ست وعشرين قرية غرب شلال (رازادا) وفخذ صغير (منگور رووته = المنگور العراة) ولهم أربع قرى عراقية على الضفة الشرقية من (ژاراوا) قريباً من منبعه. وسكان الأراضي المنخفضة هؤلاء يعترفون بزعامة الأسرة الحاكمة التي تقوم على رأس أقربائهم الجبليين وقد جرت العادة أن يقوم الزعيم الأكبر في الأسرة بترشيح فرد واحد من أسرتين جبليتين عريقتين لا تمتان لأسرته الحاكمة بصلة ليحكم سكان الأراضي المنخفضة سنة واحدة. و(مامش) قبيلة إيرانية مهمة أيضاً تسكن شرق لاوين وشمال (منگور) ويتصل بها أيضاً فخذ صغير هو مامشه ره شكه[1] = المامش (الأسود) وهو في أربع قرى عراقية قرب (ژاراوه) فوق (منگوره رووته). وأما (پيران) فهو فخذ جبلي في إيران شمال (منگور) وغرب (لاوين) ومنه فرع يسكن بضع عشرة قرية في (بتوين) وهي سهول. لكن هؤلاء سكان السهل مستقلون تماماً عن أقربائهم الجبليين خلافاً للأولين وهم لا يعترفون بأي تبعية لهم. ورئيسهم في عهدي كان (سوار آغا) الذي تولى الزعامة وهو شاب وسرعان ما تعلقت به قبيلته وأحبته. أما (سن، ورامك) الذين كانوا مفخرة كتائب

---

(1) قارن اسم (جافه رده شكه) = الجاف الأسود باسم البطن الذي انفصل عن سائر قبيلة (جاف - مرادي).

فرسان (نادر شاه)[1] فقد هبط الزمن بعليائهم وساءت حظوظهم فباتوا يسكنون الآن خمس قرى صغيرة لكل فخذ قرية في إقليم (بتوين) قرب الزاب. وينقسم (الرامك) إلى فرعين يدعى أولهما (كچل وكلاوسپي = الأقرع ذو الطاقية البيضاء) وهو اسم يسترعي الانتباه، وثانيهما يدعي (فقي ويسي).

وللتأمل تأتي قبيلة أكو بعد هذا. وهو تحالف غير وثيق من نوع غير اعتيادي وهو يحتل الطريق الخارجي لطيات (مروحتنا) الوسطى. وللتبسيط نقول إن القبائل المستوطنة يمكن أولاً تصنيفها جغرافياً بثلاث هي (اودشت، وشاوور، رانية) ومجموعة (ناوده شت) تتألف من قبيلتين رئيستين: (شروشي = وتحتل ثماني قرى في مرتفعات قنديل العليا) و(راژيكه ري) وهو اسم غير معروف نادراً ما يسمعه المرء، وتتألف هذه القبيلة من ثلاث بطون رئيسة هي (باوبي = تسكن قريتين فوق شروشي، وأربعاً في أعلى الوادي الضيق من ناحية الغرب) و(خيلا = تسكن سبع قرى بين شروشي وباوبي) و(ماندوماره = تسكن تسع قرى جنوب خيلا) (تقع على حافة السهل ما عدا واحدة إلى جنوب مجموعة جبال (زير ناكو) الشاهقة التي تحتضن وادي ناوده شت الأعلى من ناحية الجنوب). و(شاوور = أربع عشرة قرية في الأخاديد العليا من الوادي المسمى بهذا الاسم). وثالث المجموعات (رانيه = تسكن ثماني عشرة قرية على المشارف السفلى لماء شاوور حتى رانيه نفسها) ووجه الغرابة في مجموعة رانيه وبطن (مانداماره) هو أن لكل قرية من قراها اسماً قبلياً مستقلاً فضلاً عن الاسم الطبوغرافي. وهذا الاتحاد يضم إليه أيضاً قبيلتين بدويتين تماماً هما (بولى، وبابولى) وتعدان (150) خيمة ومصيفهم على جانبي الحدود، شرق رواندوز، ومشتاهم يتوقف على ما تتمكنان من استئجاره من المراعي (بووش)، إما في رانية أو كوي أو أربيل.

---

(1) أو الشاه طهماسب (1688 - 1747) ملك فارسي كان جمالا ودخل في خدمة الشاه ثم بويع بالملك. في زمنه اتسعت رقعة بلاد فارس بضمها قسما مَن هند وآسيا الوسى، ولد في مشهد وتوفي في فتح آباد. قاد حملات كبيرة على العراق. واستولى على بغداد ثم تركيا وحاصر الموصل ثم تولى عنها خائباً. (المترجم).

والأسرة التي تتزعم (آكو) بالأصل تعرف بلقب (باش آغاى) والاحترام الذي تلقاه عموماً متأت من كونها (الأولى بين الأقران) وهذا هو الواقع كلما يدل عليه اللقب. وهي على قدر معلوماتي لا تمارس أي نفوذ على الاتحاد ككل. إلا أن رأس الأسرة يملك قرية واحدة تدعى (سه ركه پكان) وتبعد أربعة أميال شمال غرب رانية، وقريتين أخريين هما (زرگه لي، وبوكريسكان) في أقصى شمال (ناوده شت) العليا فوق منحدر نهرب الزاب[1].

وإكمالاً للجدول القبلي علينا أن نذكر عشيرتين صغيرتين أخريين تقطنان خلف جبل (كيوه ره ش) وهما (أوجاغ = وتوضع أحياناً في صنف البلباس) تسكن في ثمان قرى على الجانب العراقي فوق (منگور وزدي) ولها قرى أخرى على الجانب الإيراني و(خدر مامسنان = تسكن ثلاث قرى في الجزء الأدنى من نهر كرفين).

كان الوضع في رانية يتأثر مباشرة ولأسباب عديدة، بأحوال لواء أربيل المجاور أكثر من تأثره بأحوال السليمانية. وأرى لزاماً عليّ أن أتحدث هنا بشيء عن ثارات مدينة (كوي) الشبيهة بثارات (آل مونتيگو وآل كاپوليت)[2]. ففي هذه البلدة أسرتان تلعبان دوراً هاماً في حكاية رانيه السياسية الراهنة هما أسرة (غفوري) وأسرة (حويزي). فهاتان تتوزعان مساحات كبيرة من الأراضي في قضاء (كوي) وفي ناحية (چناران) المجاورة، ويصف النقيب (هاي) في كتابه وصفاً ممتعاً خصوماتهما ودسائسهما ومنافستهما ويورد كيف كان لكل أسرة صلاتها بمختلف قبائل قضاء رانية أو بأحزاب داخل تلك القبائل ولم يكن لزيارة (هاي) لها في

---

(1) هنالك قريتان (باووبي) تقعان فوق منحدر الزاب أيضاً وهما (بانديزا) و(ليوزا).

(2) لإيضاح فكرة المؤلف نقول إن الثأر الذي شد ما بين هاتين الأسرتين الإيطاليتين النبيلتين في القرن الرابع عشر، أغنى الفن والأدب بملحمة عالمية هي مأساة حب روميو (مونتيكو) لجوليت (كابوليتي) حال دون سعادة هذين الشقيين. ومهما يكن من أمر فقد أكد لي الأخ نافذ جلال حويزي وزير الزراعة الحالي أن العداء التاريخي ما بين أسرته وأسرة غفوري قد زال وانطفأ من تلقاء نفسه بالانتقال الطبيعي إلى حياة المدنية وبظهور الطبقة المثقفة في الأسرتين، ولم يكن بحاجة إلى مأساة غرامية كمأساة روميو وجوليت ليطفئه. (المترجم).

الواقع إلا وقوع سلسلة من الهجمات المسلحة على أملاك آل (حويزي) بقيادة (سوار آغا پيران) وبتحريض من (آل غفوري) وبلغت ذروة الهجمات بالإغارة على حي (آل حويزي) في البلدة نفسها وقد تخلل هذه الاشتباكات ضغط توسعي (لميراودلية) پشدر من جهة ولآغوات (كوي) من جهة أخرى مما جعل قبائل رانية في حالة دفاع دائم عن أنفسهم، تارة بترجيح كفة (پشدر) عندما تكون كوي ملحقة بكركوك أو أربيل.

تعود مجموع هذه القبائل أن يقضي الصيف على جانبي الحدود، بقضها وقضيضها وسوادها وآغواتها ومواشيها: فتنزل (پشدر) في المنطقة ما بين الزاب وزاراوه، ويستقر (الأجاق) إلى شمال پشدر، يليها المنگور وزدى ثم آكو الثانويين بالقرب من قنديل، ثم پيران، ثم قبيلة (آكو) البدوية. وكان أغوات (كوي) على درجة من الثراء يملكون كثيراً من القطعان والماشية فنظموا رعاتهم على شكل قبيلة نصف بدوية عرف باسم (شوان كاره = الرعاة) وهي تتألف من أربعة فروع: (بابه رزوه = من المنگور) و(بنزيرى = من قرى مندماره) وكورد = من جافه ره شكه[1] و(مروان = وهم آكو من قرية سيلا في ناوده شت العليا).

وأصل لقب (آغا) تركي، وهو يلحق بالاسم كلقب (بگك) الذي هو تركي ويلقب به كل من كان أبوه أو جده باشا عثمانياً - ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يتعداه إلى أفراد الأسر القبلية الحاكمة الكثيرين، ويبدو لي أن استعماله بهذا الشكل حديث نسبياً لأني لم أجد له أي ذكر في كتاب (الشرفنامة = 1596) فاللقب الشائع فيها هو (بگك). ويبدو أيضاً لقب (خان) الإيراني ولعله انتشر بالتدريج في كردستان بعد فتح السلطان مراد الرابع بغداد عام 1637، والأمر في التعليلين سواء عندي، لأني أميل إلى الظن بأن أسر الأغوات تمثل بواقع الحال طبقة أعيان جديدة تدين بمكانتها الرفيعة إلى تعيينات خاصة خلعها أمراء الكرد المستقلين على

(1) وهذا أفضل مثل لاستعمال صفة (كورد) بالمعنى الضيق الذي شرحناه في الفصل الحادي عشر.

الأشخاص، ويمكن أن يكون هذا، السبب الذي أدى إلى أن لا يمتد تاريخ كثير من القبائل الكردية (وهو عادة تاريخ سلالات أسرها الحاكمة) إلى أبعد من مفتتح القرن الثامن عشر أو إلى النصف الأخير من القرن السابع عشر كحد أقصى. وقد رأينا فيما سلف كيف أن الشيوخ الدراويش رفعوا أنفسهم إلى درجة شيوخ قبليين ولكن مع نفوذ ديني حل محل التعيين من قبل سلطة مدنية أعلى.

وعندما انتزع الترك السلطة من أمراء الكرد المستقلين، أصبح الأغوات ممن لا يمكن لسواد القبائل الكردية الاستغناء عنهم ليكونوا بمثابة صلة بالموظفين الأجانب الذين عينوا عليهم. وكانت النتيجة الطبيعية، هي تمكن الطبقة الأرستقراطية الجديدة من تثبيت مركزها، والدرجة التي ترقى إليها سلطة هؤلاء الأغوات تكاد تكون مطلقة وتعتبر مناسبة وأمراً مفروغاً منه وترسمها رسماً دقيقاً حكاية قصها عليّ يوماً (شيخ محمد آغا بالك) من أعمال قضاء راوندوز. قال إن أباه قام بقطع يد واحد من أبناء القبيلة عقاباً له لارتكابه جريمة سرقة، وقلع عين رجل آخر لجريمة أكبر. وتسرب خبرهما إلى القائمقام التركي الذي أصدر أمره باستقدام هذين إلى راوندوز لضبط إفادتهما. ولكنهما أصرا على إنكار وجود أية علاقة للشيخ بما أصابهما مع مختلف وسائل الضغط والإغراء الذي مارسه معها. واعترافا بإخلاصهما هذا أعفيا مع كل ذريتهما من كل الضرائب والخدمات والإتاوات الواجبة للأغوات عادة، والمفروضة على رعاياهم باسم (الآغاتية). والضريبة الواجبة تحت هذا الوصف هي (زكاة) وتقدر بعشر الغلة الشتوية من القمح والشعير. ويلحق بهذا (المرانه) وهو واحد من كل خمسين رأس أو ما يعادله نقداً. و(البوشانه) أي ضريبة الرعي وجزء غير معين من كل نوع آخر من المزروعات تقريباً يختلف باختلاف الظروف. وكل ضريبة من هذا القبيل تكسب مهابة وجلالاً بإضافة (انه) وهي صلة النسبة إلى آخر اسم الشيء. فما عليك إلا أن تضيف الصلة إلى (دهن السمن = روَن) ليتم لديك ضريبة جديدة عليه هي (الرونانه) وعلى هذا تكون (هرميانه) ضريبة الكمثري. و(هيلكانه) ضريبة البيض، وهكذا دواليك. وكل

هذه الضرائب (بالإضافة إلى مجيوه ر - وهي المساهمة في جزء من الراتب الذي يدفعه الآغا لوكيل داره) يبررها واجب معين قررته العادة الموغلة في القدم هو واجب الآغا أو أي وجيه محلي في إقراء كل ضيف أو مسافر يؤم القرية، ويسري هذا الواجب إلى عدد غير قليل من القرويين الذي يصادف وجودهم في المضيف أثناء تقديم الطعام. هذا مع العلم أن مصاريف بيت الآغا الخاصة لا يمكن فصلها طبعاً عن نفقات المضيف!

وإذا كان لتلك الضرائب بعض ما يبررها بحكم العادة. فأقل ما يمكن تبريره هي الإتاوات النقدية وتسمى (جه ريمه) وتدعى في الشمال (دراؤ)، ومعناها الغرامات التي تفرض على المخالفات. وأخفها عبئاً هي الأجور التي تدفع لقاء تسوية النزاعات. و(سورانه) وهي أجرة الزواج وتؤخذ من العروسين أو أبويهما وتتفاوت بين بضعة دريهمات وعشرة دنانير أو أكثر حسب درجة الغنى (وفي قضايا الخطف تؤخذ (جه ريمه) إضافية لقاء خدمات التحكيم في نزاع ينتهي بتسوية أمر الثأر). ويوجد نوع آخر هو (پيتاك) أي اكتتاب يدعى سواد الأهالي للمساهمة فيه، إما لنفقات حفلة زواج في أسرة الآغا أو لغيرها من الحفلات الأخرى.

وأسوأ من كل ما سبق بيانه من الضرائب، (بيگار، وهه ره ويز) وهما اسمان لمختلف أنواع الـ(جورڤي) أي السخرة مما يشعر الآغا بحق في فرضه على كل بيت. وهي قيام المكلف بالحصاد في أرض الآغا يومين أو ثلاثة كل سنة (هه ره ويزى جوت) أو الدرس أو التذرية للمدة نفسها (هه ره ويزى وره و وگيره) ويوم واحد بين وقت وآخر لقطع الأحطاب وجمع الخشب والأغصان (للوجاق) أي الموقد، وهو ما يعرف بعلف الشتاء (هه ره ويزي گه لوو دار)، وعمل اللبن لدار جديدة، او تنظيف ساقية، أو النزول إلى سوق المدينة في مهمة يكلف بها. ويقوم المكلفون بكل هذه الأعمال على حيواناتهم[1] وبالاتهم.

---

(1) في أقصى الزيبار بعيداً إلى الشمال، يلطف عمل السخرة اليومي بإطلاق كلمة (زيباره = معونة) عليه. والشائع في الصحافة الكردية الحديثة استعمال لفظة (هه وريز) للتعبير عن (المعاونة). ويوم=

وعندما لا توجد للآغا رابطة قبلية قديمة برعيته وحين لا يعتمد عليهم في العون العسكري تصبح (الآغاتية) موضع سخط وعبئاً لا يحتمل كما سبق وقلنا. والقوميون العرب في بغداد[1] يكرهون المبدأ الذي استنه العراق الحديث وهو أن يعين كرد في الوظائف الحكومية في المناطق الكردية أو أن يلموا باللغة الكردية على الأقل، مما يكون له أثره الفعال الذي هو أكبر من أن يدرك لأول وهلة، في القضاء على نفوذ الآغا وتقوية السلطة المركزية إذ لا يعود وجود الآغا ضرورياً ليلعب دور الوسيط بين سواد الأهالي وبين دائرة مدينة غريبة عنهم يصعب عليهم بلوغها. وبانتشار الثقافة، وبالتحسن الذي طرأ على وسائل النقل والمواصلات، لم يعد مناص من ازدياد الشكوي من (الآغاتية) مما يولد للإدارة مشاكل معقدة كثيرة. فإذا رفعت للموظف الاعتيادي شكوي بهذا الخصوص، فإنه لا يستطيع أن يؤيد جباية أموال بشكل لم تنص عليه القوانين. وما أقل عدد مدراء النواحي والقائمقامين الذين لديهم من المؤهلات والمكانة وقوة الشخصية ما يمكنهم من الملاءمة وابتداع طريقة منطقية لا تصيب النظام الاجتماعي القائم على العادات القديمة بضربة مفاجئة في الصميم. وتتمشى في الوقت نفسه مع قوانين البلاد السائدة. وأذكر مرة أني كنت مع (عباس سليم آغا) أخ بابكر، وهو شخص كيّس ظريف المجلس، نتحدث في مشاكل الزراعة فنصحته بأن يكون بعيد النظر، وأن يستسلم للواقع ويقوي من مركزه القانوني ببيع حصصه التي يملكها في بعض القرى وشراء حصص غيره في القرى الأخرى. فتهول سذاجتي وقال لي: لو أني

=السخرة في (بروارى بالا) شمال العمادية يسمى (تأدى = تعدي) بكل صراحة، وهي كلمة عربية تدل على الاضطهاد أو الإكراه على الأقل. وأما (جه ريمة) فهي طبعاً الكلمة العربية (جريمة) ومعناها (غرامة) و(دراو) هي الكلمة العربية المصحفة (درهم) أي (مال).

(1) نرى من الأسلم تفسير ما يقصده المؤلف هنا، بالقوميين العرب، إنه يقصد الفئات التي كانت في الثلاثينات تعارض النفوذ الإنكليزي في العراق ظاهرياً، وتنازع الفئات الأخرى حكام البلاد تحت ستار القومية العربية والوطنية لا غير. وليس ثمة أية علاقة تربط ما بين هؤلاء والتكتلات والحركات القومية العربية فيما بعد الخمسينات. (المترجم).

ابتعت قرية كاملة لنفسي، فإن جميع الفلاحين فيها سيقطعون صلتهم بها ويصبحون أحراراً في الانتقال إلى قرية أخرى متى ما يريدون وإن خير وسيلة للرزق هي أن يكون له حصص في أكثر ما يمكن من القرى لتكفل له حق الاستقرار فيها أو وضع بديل أو وكيل عنه هناك وبهذه الوسيلة يضمن لنفسه (خدمات) أهاليها كافة. ويؤثر عن نساء (بلباس وآكو) ابتلاؤهن بعلة لا شفاء لهن منها هي العشق والغرام. والاختطاف (ژن هه لگرتن) والفرار الزوجي (رادو و كه وتن) التي هما من أسباب ذلك، كثيرا الشيوع بشكل خاص في قبائل هذين التحالفين. وكثير من المخطوفات لم يكن ليحلمن بالزواج لولا هذه العادة. وإذا كانت هذه الظاهرة اعتيادية فهي ليست من قبيل التقاليد الشكلية مطلقاً، وموضوعها جدي وفي المراحل الأولى منها محض مغامرة محفوفة بالأخطار يجابهها العريسان في هذه البلاد حيث ينام كل أب وأخ وإلى جنبه بندقية. والفرار الزوجي قد يكون فيه اعتداء عام على الحقوق الزوجية الأولوية لابن عم الفتاة الذي هو أحق الناس بها، أو قد يؤدي إلى خيبة آمال الوالد بمهر جيد لابنته، وبهذا تكون حياة المرء رخيصة. فإذا نجا الهاربان من مراحل الإشكال الأولى لجأ إلى (آغا) العريس أو إلى شيخ محايد أو شيخ ديني وعقد زيجتهما وفق الشرع الإسلامي. ويقوم آغاوات الأطراف المعنية بمعونة الشيخ الوسيط عند الضرورة بالمفاوضات لتسوية الأمور ويتسلم كل منهم طبعاً أجراً (جه ريمة)، وكذلك (سورانه) إن أمكن. وعندما تنتهي الشكليات حسب الأصول المتبع لا يبقى مانع من عودة العريسين إلى ديار العريس بكل أمان. وفي السليمانية يسمى مهر العريس (شيرباى = ثمن الحليب!) أما عند القبائل فالشائع له اسم (خوين = مال الدم) وهو المبلغ الذي يجب دفعه فدية لخسارة أسرة فرد من أفرادها سواء بالقتل أو بالزواج.

تركت السليمانية في بداية أيار قاصداً مركز وظيفتي. وأذكر أني بلغت دوكان بسيارة فورد من طراز (تن ليزى) وعبرت الزاب بالكلك لأنضم إلى قافلتي التي كانت تنتظرني مع حراسها وكان الطريق على الضفة الثانية يرتفع ارتفاعاً معقباً

سفوح جبل (كوسرات) ومن فضوة بين قريتي (گلنيرى وتوربه) اكتحلت عيني بأول منظر رائع لمنطقتي الجديدة. ففي الأسفل مباشرة رأيت شريط الزاب الأزرق يتلوى كالأفعى بين مضيق (قره سرد). وعلى الطرف الأبعد تبدو الفتحة المظلمة الجهة لوادي (پالكو) الذي طالما ظن أنه فم (قه لا چوالان) وتراءت لي أيضاً سهول (مه رگه) و(بتوين) الخضراء، ومجرى النهر الرقراق الواسع بينهما، تقطعه مراراً خطوط مائية ضحلة ضيقة ذات لون فضي. ثم تبينت الخط الأسود الطويل لسلسلة (گورگور - ئاسوس) وهي تتطامن تدريجاً إلى فتحة (ده ربه ندى) ثم ترتفع ثانية لتكون جبل (كيوه ره ش) الذي يختفي عن الأبصار وراء بخار القيظ للجبال الواقعة إلى الشمال الغربي. وفوق الفتحة لاحت لي من بعيد مرتفعات (شاوور) و(ناوده شت). وفيما أنا أمعن السير راجلاً في طريقي الوعر، أقبل عليّ من الجهة المقابلة صبي في السابعة أو الثامنة يرتدي زي رجل كردي كامل من سراويل فضفاضة من نسيج محلي إلى حزام عريض إلى عمامة ضخمة تتألف من عدة مناديل وبادأني التحية: - ماندونه بى (قواك وحياك).

ولم أسمع الكلام جيداً ووقفت لأسأل عما قاله. فإذا بالحدث الصغير المسكين المرتعب من منظر ثيابي الغريبة وحشود الفرسان الذين عقبوني، يغمض عينيه، ويفتح فمه ثم ينخرط في بكاء أليم. فأحزنني أن يكون ترحاب هذا الصبي الظريف الخالي من المجاملة والتصنع، سبباً لرعبه ولألمي. وأملي أن الروپية التي دسستها في راحة يده ستؤثر في إصلاح الموقف بشكل ما.

ومال الطريق ولان هابطاً نحو النهر ومررنا من منتصف (ميرزا روستم) وهي آخر مرحلة ملاحة في عالية النهر. ووجدنا أصحاب الأكلاك الحاذقين منهمكين في صنع أطوافهم ذات الخمسين حتى المائة من القرب وفي شد جذوع الزان لتطويفها حتى آلتون كوبري أو إلى بغداد. وبعدها بميلين خضنا غدير (باسلان) من مصبه واجتزنا خطاً من القرى تبدو عليه مظاهر الفقر، هي ديار (السن والرامك) وفيما نحن ندنو من مقر وظيفتي (ده ربه ند) وكان الموضع الذي اختاره سلفي مقراً

لإدارته، أدركتني ثلة من الفرسان يتقدمهم (بابكر آغا) نفسه بسراويله الفضفاضة وحزامه العريض وعمامته من الحرير الأشهب المخطط ملفوفة حول طاقية ذات رأس مدبب، تنسدل منها عذبات من القطيفة بلون برتقالي. وتقدموا للاستقبال وبعد أن تعرفت بالموظفين وبشيوخ المنطقة (لا أدري من قام بواجب التعريف لأن سلفي كان قد غادر المنطقة قبل وصولي) انصرفوا إلى قراهم تباعاً تباعاً وانفسح لي المجال لأقوم بتفقد ما سيغدو بيتي طوال الأشهر القلائل التالية.

وأعتقد أن اختيار (ده ربه ند) مركزاً للمنطقة يرجع سببه إلى أنها تتوسط القضاءين، وكذلك لأن (رانيه) موبوءة بالملاريا بسبب سواقي الرز ومستنقعاته. وكانت الأبنية الحكومية تتألف من (بنگله) معاون الضابط السياسي، بغرفها الثلاث ومطبخها. ومن صف من الأكواخ للموظفين الكرد، ومن دائرة فيها أربع غرف، فضلاً عن دار ضيافة لمبيت الزائرين الكرد، وهي مبنية من خشب الزان والطين وعوارض خشبية على الطراز المحلي البسيط للغاية. وتقع على بعد مائتي يارد من مجموعة السكنى، وعلى منحدر يتجه إلى ضفة النهر ولم أجد بناء واحداً مسوراً بجدار، أو ربما قد يكون حائلاً دون عائلة قناص مستطرق في أي موضع من سفح (كيوه ره ش) خلف البناء، أو من (ئاسوس) على الضفة المقابلة، إن شاء أن يتمتع بإطلاق النار لأعلى التعيين. وعندما نزلت لتفتيش الدائرة كان أول ما اكتحلت به عيني كتابة إنكليزية على عمود الزان الأوسط، بالأحرف التي تستخدم في الطباعة:

(البالون ينطلق في شهر أيار!).

- 16 -

الحياة في رانيه

لا يتسع هذا الكتاب لسرد الأحداث التي وقعت في منقطة أربيل المجاورة أو في النصف الكردي من الموصل، وفي كتاب (هاى) تأريخ مفصل لما وقع هناك منذ إعلان الهدنة حتى شهر تشرين الأول 1920. أما الوضع بالنسبة إليّ في رانيه فهو أن الحدود منذ نهاية سنة 1920 قلصت إلى حافات سفوح الجبال ليترك قضاء رواندوز عن شمالي، وناحية شقلاوة وهي موطن قبيلة (خوشناو): الهامة - عن غربي، وهكذا انفتحت المنطقة وغدت مسرحاً لنشاط مثيري القلاقل الترك بل حتى لمجموعات صغيرة من القوات النظامية وحصلت اشتباكات مستمرة بينها وبين الليڤي شاركت الطائرات فيها. ولم ينقطع دابرها منذ أن تم انسحابهم. ومن تلك الحوادث غارة قام بها الجنود النظاميون ببزاتهم العسكرية على قريتي شاوور ورانيه في آب العام 1921 كما ذكرت آنفاً إلا أن (كوي) ظلت هادئة بإدارة القائمقام (جميل آغا) وهو فرد بارز من أسرة (حويزي) تميز بزواجه من بنت (حسن آغا غفوري) الرجل الذي وصفه (هاي) بقوله «رجل كوي العجوز العظيم». ومما تلقيته أول وصولي (دربند) مذكرة وقعها عدد كبير من أغوات (ميرا ووسي) أو كما يطلق عليهم (اليشدر الناؤون). يقولون فيها إنهم بسبب تفضيل الحكومة شخص (بابكر آغا) واستئثاره بنعمها، وبسبب إهمالهم والفظاظة التي يقابلون بها لم يتمكنوا مع الأسف من القدوم إليّ وتقديم إخلاصهم واحترامهم شخصياً، هذه المذكرة أثارت في الحال وبشكل حاد مشكلة مألوفة.

لم يعد سلفي (س) إلى العراق بعد انتهاء إجازته ولم أواجهه قط، والظاهر أنه كان قوي الشخصية. ففي منطقته هذه نزع ثيابه الأوروبية وارتدى الزي الكردي وأقام علاقات شخصية متينة مع الأغوات ومختاري القرى أو حتى مع أشخاص أدنى منزلة من هؤلاء استلفتوا نظره أثناء مزاولته واجباته الإدارية. إن ظروف الحياة في (دربند) تتطلب بصورة خاصة تنامي مثل هذه العلاقات وتوثقها، فهنا لا توجد قرية أو بلدة قريبة، والزوار القادمون من أماكن بعيدة، لا مفر لهم من قضاء ليلتهم في دار الضيافة الحكومي وتهيئة الفراش والطعام لهم والعلف لخيولهم، وبذلك يتوفر وقت طويل لتبادل الحديث عن أتفه مشاكلهم وأقل آمالهم شأناً. إلا أن الامتزاج والتبسط في بلاد كثيرة الشيع والأحزاب ككردستان، تحف بهما المزالق وتكتنفهما الأخطار، وإن كانا مفيدين من بعض الأوجه لضابط سياسي فتي قليل الخبرة، إلا أنه سيجد نفسه قبل أن يعرف ما يحصل إزاء نزاع من تلك النزاعات القبلية الحادة التي تمزق القبيلة أو القرية أو الأسرة وتكون النتيجة أن يشعر فريق من المختصمين بالغبن والظلم، ويظهرون ما يعتبرونه سخطاً عادلاً، بوسائل تسود صفحتهم أمام الإدارة، ويتعاظم الخطب عندما يدركهم اليأس من الانتصاف لهم، ويثورون ثورة علنية على الحكومة.

لا أقصد من كلامي هذا انتقاد سلفي (س)، إن الأحداث المفاجئة أو السياسة المرتجلة كثيراً ما تدفع الناس إلى الثورة، على أن الطاعة أو العصيان إنما هي مسألة طبائع في أغلب القضايا، والأشخاص الأكثر استعداداً لإثارة المتاعب لنا، هم بصورة عامة أولئك الذين ناصبوا الأتراك العداء الدائم وثاروا عليهم مراراً. ولقد فوجئت الحكومة العراقية بتجربة كهذه بعد انتقال سلطاتنا إليها الآن. فثورة الشيخ محمود شقت كردستان الجنوبية من تحت إلى فوق وبقي حزب (بابكر) في أنحاء پشدر مع الفئات التابعة له في بقية المنطقة، صديقاً موالياً لنا على العموم، في حين التزمت أسرة (محمود آغا) وأتباعه جانب العدو. وفي مثل هذه الظروف كان من البديهي أن تكافأ القلوب المخلصة، وأن يعاقب الثوار بعد إعادة الأمن

إلى نصابه. لكن لم يكن من السهل إقناع (القلوب المخلصة) بأن المفروض في الإدارة أن تعود إلى موقفها المحايد بأسرع مما يمكن وهو الموقف الذي يعود بالمصلحة على الطرفين في الزمن الطويل لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد قبلي أو كردي واحد يؤمن أن الفضيلة هي التي تكافئ نفسها أو أنه ما دام الانقسام شديداً حاداً فإن قطع الصلة بشخصية قبلية عينت في منصب يقتضي منها تحصيل الضرائب واعتقال الأشرار، قد يحتمل أن يكون أكثر ظهوراً من توثيق الصلة به، وعندما تكون الحكومة قوية فأي موظف إداري كيّس موثوق يستطيع تحقيق موقف حيادي دون صعوبة تذكر. إلا أن شخصاً مضطراً إلى مزاولة الحكم حسبما يوحيه له رأيه وبمبادراته العقلية (وكان هذا حال كل الضباط السياسيين في قسم السليمانية تقريباً) لا يجرأ على المخاطرة بخسارة أصدقائه ومناصريه في مغامرة من هذا النوع. إن معاوني الضباط السياسيين المتعاقبين في رانيه حافظوا على هيبة الحكومة بإسنادهم (بابكر آغا) وإسناد هذا لهم ولذلك أصبح تعبيرا (جماعة بابكر آغا) و(خصوم بابكر آغا) مرادفين لتعبيري «جماعة الحكومة، وخصوم الحكومة».

ولهذا وجد عملاء الترك في رواندوز مرتعاً خصباً لدعايتهم عند أعضاء أسرة (ميراودلى) الذي يتزعمهم (عباس محمود آغا) وهم أعداء (بابكر) مع كل حلفائهم وأصدقائهم وراحوا ينشرون دعايتهم أيضاً بين كل العناصر الأخرى التي وجدت أعمال الإدارة المدنية الاعتيادية مصدر مضايقة لهم ومخالفة لما يرغبون، وكانت (الخلافة) العثمانية عند الكرد البسطاء ورقة رابحة في اللعبة دوماً. وأولئك الذين لهم ذكريات أليمة عن نظام الحكم العثماني، كان يطاردهم شبح الخوف من احتمال عودة الأسياد السابقين وشيكاً. ولذلك كان القضاء في أيار 1922 كالمرجل يغلي بالثورة، وليس بعجيب أن يشعر (س) حتماً بأنه يجلس على فوهة بركان سيثور لحظة أن يغادره، تاركاً لخلفه الرسالة العجيبة التي نقشها على عمود الخشب كما بينا في آخر الفصل السابق.

إن الزوار البريطانيين العرضيين القادمين من جنوب العراق، ولا سيما أولئك

الذين يأتون ومعهم أدوات صيد السمك، تعودوا أن يجدوا (ده ربه ند) موقعاً ساحراً، وأنه والحق يقال يبدو عظيم الروعة في الوادي حيال أجمل البرك المترعة بالماء النمير المائل للزرقة وهو يجري فوق كتل من الصخور البيضاء البراقة خلال فتحة شق جبلي قاتم طويل. وعلى بعد شاسع تلتمع ذرى (قنديل) بالثلوج البيضاء ومع هذا فهو موضع سيء للعيش. ورحت أعجب كلما رجعت بفكري - كيف تتوقع السلطات العليا أن نعيش هنا نحن معاوني الضباط السياسيين وموظفيهم الكرد ولا سيما إذا امتد العيش أربع سنوات اعتباراً من نهاية الحرب؟ (لم يكن يخطر ببالي شخصياً التفكير في حينه) لم يكن في الجوار قرية واحدة كما هو الأمر في حلبچة. وقد زاد شعوري بالوحدة هنا على كل ما شعرت في أي موقع آخر (عندما أجد وقتاً للتأمل في وضعي). وكنت قد ذكرت أنه لا يوجد أسوار حول البنايات. ولقد كنا نضطر إلى نقل ماء الشرب والغسيل من النهر إلى المرتفع على ظهور البغال ولذلك لم نزرع حدائق وكان الشوك الطويل الساق والعوسج ينمو حولنا بغزارة فيقتحم الأبواب والنوافذ وعملت على نصب مضخة هيدرولية في فتحة النهر لرفع الماء إلينا. إلا أن الجهاز لم يصل. ولم يكن لدينا ما نستضيء به غير الفوانيس، والنفط المتوفر لها سيء إلى درجة تتعذر معه القراءة على نورها أكثر من بضع دقائق. وكنت أقضي جل وقت فراغي الكبير بين العشاء والنوم وصيد العقارب الزاحفة على الجدران أو المتعلقة بالستائر في غرفي الثلاث. وقد ضربت رقماً قياسياً في إحدى الليالي إذ أرديت ثلاثاً وثلاثين عقرباً وأشفعتها باثنتين وثلاثين في اليوم التالي ولم ألدغ إلا مرة واحدة، إذ سقط عن فراشي العباءة الفارسية التي كنت أستخدمها بمثابة لحاف ومبذل، أثناء الليل وأنا في العراء نائم وفيما أنا أردفها على كتفي صباحاً شعرت بإبرة حامية تنغزر في فخذي مخترقة منامتي فشققت موضع الإصابة بالموسى. ونصحني خادمي الكاكائي الذي هو من كرند بإيران بوضع شيء من ملح الأمونياك في الجراح، فاستخرجت شيئاً منه من بطارية كهربائية في مكتب التلغراف وارتفعت حرارتي في ساعات الصباح وما إن

أطل المساء حتى زايلني كل ألم أو ضيق خلا وخز الجرح الذي أحدثته في ساقي ليذكرني بهذا الحادث.

وكانت أجمل الأصوات في وحدتي هذه، أزيز الطائرات المقتربة من الضفة المقابلة للنهر بالقرب من قرية (سرسيان) على رأس منعطف حاد. فهناك توجد أرض صالحة لهبوط مقاتلات (بريستول) وقاذفات (D.H.9) التي كانت مستعملة آنذاك. ولقد أنيطت حراستها وهي على الأرض بآغا متقدم في السن جهم الثنايا اسمه (رسول) وهو من قبيلة صغيرة تدعى (تركه ره شه) تحتل خمس أو ست قرى، وكان محل ثقة من (بابكر) وقد درب رجاله على إيقاد نار عظيمة الدخان كلما سمعوا أزيز الطائرات في الجو، حتى يشير لها إلى اتجاه الريح. فإذا كنت أنتظر زيارة من أحد عبرت النهر بالكلك الصغير الذي يملكه (رسول) ويجني منه ربحاً وفيراً في عمليات نقل غير رسمية، ولا يدفع عن امتيازه هذا للحكومة إلا رسماً ضئيلاً، فاستقبلت الزائر الطيار وغيره وعدت بهم إلى داري وإلى زجاجة بيرة مثلوجة.

إن الموظفين الكرد في المركز هم مترجمي ورئيس كتابي (جلال صائب) وهو شاب شديد الذكاء على قسط كبير من المعرفة بالإنكليزية، ومأمور التحصيل والمحاسبة وعامل برق، وموظف كمرك، ووكيل شؤون دار الضيافة (وكلهم من الموظفين العثمانيين السابقين) ويضاف إلى هؤلاء زهاء عشرين خيالاً من المتطوعين المحليين يقومون بواجبات الشرطة والسعاة معاً. وفي (قلعة ذره) قام بابكر آغا بضم زهاء ثلاثين من أتباعه إلى مجموع الموظفين المدنيين الضروريين وفي النواحي، خصص لكل مدير كاتبان أحدهما لجباية الضرائب، وثلة من الشرطة السعاة يتراوح عددها بين الخمسة والعشرة. إن الموظفين المحصنين ضد الرصاص مثل بابكر يتوقع منهم طبعاً الاعتماد على مواردهم الخاصة في تعزيز قواتهم عند الضرورة وقد جرت العادة في الحالات المستعجلة، أن يدعى شيوخ المنطقة إلى تعبئة أعداد من المتطوعين أو ما يسمى (لشگه ر) لمعاونة السلطات

المدنية لا يدفع لهم راتب بل يتسلمون كميات معينة من الأرز والقمح (من مخازن الاستهلاك) ودهن سمن (رون) للطبخ وعلفاً ومسامير وحدوات لخيولهم، وقيمة هذا (اللشگه ر) المحلي القبلي في أي مكان هو بقيمة الموظفين القبليين فدوره في الواقع سلبي، لأن وجوده كان لردع العناصر المعادية وترددها في الهجوم لئلا يورطها في ثأرات دموية. لكن تجاربي أثبتت لي أن أقصى ما يمكن إبقاء (اللشگه ر) في حالة تعبئة هو أسبوعان وبعدها يتعذر على أفراده إسكات شعورهم بالحنين إلى زوجاتهم وزراعتهم. وفائدة هذا النظام محدودة في أي أزمة طويلة الأمد.

وكان (بابكر آغا) أهم زائر لمضيفي طبعاً. ووجدته لا يرفع طرف منديل عمامته عن عين واحدة أبداً. ولم يذكر أمامي شيئاً عن عاهته وبقيت أجهل حتى اليوم الظروف التي فقد بها عينه. أما العين الثانية فكانت دائماً تتألق بومضة الفكاهة والطيبة، وحتى في أثناء أخطر المناقشات. ووجه الغرابة أن فمه الذي كاد يكون خالياً من الأسنان لا يشوه أبداً من سحر ابتسامته الجذابة مع ذلك يجعله يبدو أكبر سناً من الحقيقة بكثير. كلما يتوتر الموقف السياسي (كما سنأتي إليه في الفصل التالي) ويزداد الاحتمال بمهاجمة (ده ربه ند) يأتي بنفسه ليقضي يوماً أو يومين للتأكد من عدم مساهمة پشدرى بأي من حال من الأحوال فتنشأ عن ذلك عداوات وأحقاد قد تنقلب ثأرات دموية داخلية، تحاول الأسرة الحاكمة دائماً أن تتجنبها. وفي مثل هذه الأحوال كنت أتناول طعامي على أرضية دار الضيافة وكنت أجد المشقة العظمى في إعطائه أجوبة مقنعة عن أسئلته ونحن نعود على الأبسطة نتجاذب أطراف الحديث. فيسألني مثلاً: لماذا لا تشأ سلطات بغداد، اتخاذ احتياطات أولية لحماية نفوذها من الخطر التركي المتعاظم؟ وفي رأيه الطَبَعي الذي يتسم بالإقليمية الضيقة أن مصلحة الحكومة تتفق بأوثق ما يمكن مع المحافظة على مكانته ونفوذه هو، وكثيراً ما تدركه الحيرة كيف لا تحقق رغبة معينة من رغباته، حتى أنا الواقف على حقائق الأمور والعائش في وسطها؟ ومن هذه الرغبات، السماح له بتعيين وكيل عنه في قرية (الرامك) المسماة (قوره كو) أقرب القرى إلى

(ده ربه ند) من جهة رانية وهي ملك آغا تلك القبيلة المعادي، في حين كان بابكر آغا يملك فيها قطعة أرض، مع ذلك كله فلم يكن ليتردد قط في السير على الطريق الذي اختاره غير هياب وبإخلاص.

وبطبيعة الحال كان يرافقه في زياراته بطانة صغيرة تتألف غالباً من واحد أو اثنين من الأغوات الصغار مخلصين له وأذكر منهما (ره سولى پيروت) وهو رجل في الأربعين ذو شارب أحمر منتفش تطوع يوماً لهداية طائرة كانت تقوم بعملية استطلاع تتضمن إسقاط رسالة فوق الجبال وقد عانينا بعض الصعوبة في إقناعه بأن عمامته مهما كان شدها محكماً فستطيح عن رأسه بقوة الريح وهو جالس في المقعد الخلفي للطائرة المفتوحة، وأشرنا باستبدالها بخوذة طيران عادية، واتضح لنا سبب تردده عندما كشف عن رأسه أصلع لا شعرة فيه شبه بدجاج الماء. وأرشد الطائرة بشكل متقن حتى نقطة إسقاط الرسالة مع أنه لم يكن قد ركب طائرة من قبل. ومن خلصائي (حمه آغا رانية) وهو رجل قليل النفوذ ساذج صريح غير مشكوك في ولائه لا يصرح برأيه أبداً سواء في الأيام العكرة أو الصافية. ولعله كان السبب في نجاة سلفي من الموت، فقد ألقى بنفسه بينه وبين مهاجمه في إحدى المناسبات ليتلقى كتفه طعنة خنجر عنه. وهذا ما أتاح لـ(س) الفرصة الكافية لإشهار مسدسه وإطلاقه على المهاجم فأرداه قتيلاً، فقام بينه وبين ذوي القتيل ثأر جعل رحيله السريع بإجازة أمراً لا بد منه.

وهنالك زائر آخر طريف الأمر لا يتردد إلي كثيراً، وهو امرأة أريبة زكية تعرف باسم (آغا ژن) زوج المدعو (سورك آغا) صاحب قريتين أو ثلاث في (شاوور). كانت (آغا ژن = السيدة آغا) أصغر سناً من زوجها بكثير. وكان هو رجلاً انطوائياً فيه غباء وتخريف. ولهذا أخذت على عاتقها القيام عنه بكل ما يتعلق بالمحافظة على توازن القوى السياسية داخل ذلك الوادي القصي. وكان (سورك) يرافقها أحياناً، إلا أنها تعمد دائماً إلى اتخاذ مجلسها فوقه ويندر أن تتركه ينطق بكلمة واحدة في فترات الصمت لئلا تؤدي عبارته إلى تعقيد الأمور. ولقد قتل المسكين

في الاضطرابات التي وقعت بعد أشهر قليلة فقامت (آغا ژن) بالادعاء بثأر زوجها بأشد ما يمكن من الصرامة حتى نالت ما تبغي وفق التقاليد العشائرية.

وهنالك شخصية أنثوية أخرى تعرف بالاسم الرجالي (فقي عارف) وهي في الواقع فتاة في حدود الخامسة والعشرين ظلت ترتدي زيّ الرجال منذ طفولتها وهي أشبه بالمهرج المحترف تتجول من مضيف إلى مضيف وتخالط الرجال وتجالسهم بكل حرية طوال ساعات النهار إلا أنها تنسحب إلى جناح النساء في الليل. وهي تقبل كل هدية تقدم لها. من الحصان حتى السروال. وكان عندها مهر صغير تمتطيه وتنظتم إلى أي كوكبة من الفرسان تخرج إلى كل حفلة أو مناسبة من المناسبات وتحمل بندقية وعتاداً كثيراً، وكانت تتردد إليّ كثيراً في (ده ربه ند) مدعية أنها من (رجالي) والحزب المناوئ يعاديها لإخلاصها للحكومة ولذلك زاد عدد خصومها. وأول رؤيتي لها في دار بابكر آغا في (قلعة دزه) وهناك اجتذب انتباهي صبي كان يناولني قدح شاي برشاقة غير مألوفة، في حين كان بابكر آغا يغمز إليّ من نهاية الغرفة بعينه الواحدة، مبتسماً ابتسامة غامضة. ثم التفت إلى الصبي قائلاً: (بليم؟ هل أقول؟) ثم استدار نحوي وقال وهو يلوح بيده:

- إنه ليس كما يبدو لك، فهو امرأة، أجل امرأة... ولم يحصل لها شيء أبداً وقد سألتها مرة لماذا لا تتزوج؟ فأجابت بكل بساطة (هذا ليس من طبيعتي).

وكان معظم زائري أناساً ودودين. سواد من القوم البسطاء شديدو العضل متينو الألواح، ينحنون بأدب واحترام وهم يعرضون حاجاتهم البسيطة الساذجة. فإذا اتفق وأن شاركتهم طعاماً أو خيمت بين ظهرانيهم أثناء جولاتي، رأيتهم يقبلون عليّ وكلهم ابتسامات وترحيب لتجديد عرى الود. ولكن وجد بينهم من غلب على طبعه الإلحاح في المطالب. وهناك فئة تستمطر الإحسان بالتزلف وتروج لمصالحها بالأخبار ضد أولئك الذين يفترض فيهم أن يكونوا من معسكر الخصم. وقد عملت جهدي لأبقي هؤلاء الناس بعيدين عني مسافة ذراع.

كانت خبرتي كافية لتفهم أخطار الوضع الذي وجدتني فيه وأتيت لوصفه في

مبدأ هذا الفصل. وصح عزمي على التعرف إلى كل جزء من قضائي وبأسرع ما يمكن وقررت أيضاً - فضلاً عن دعمي بابكر آغا بكل الوسائل المشروعة - أن أنتهز كل فرصة تعن لي لأوضح للآخرين بأن العفو هو العفو، وأن الماضي ولا أقول دروسه، سيكون نسياً منسياً شريطة أن يحسن سلوكهم، وكنت أريد تحقيق هدف خاص من محاولة كسب ثقة (سوار آغا پيران) الذي كنت مؤمناً بأنه لم يفز بهذا الحب العظيم من قبيلته إلا لما يتمتع به من سجايا حميدة ممتازة. ولذلك كله قضيت الأسابيع الستة الأولى في تجوال مستمر تقريباً. لكن التوتر السياسي المشتد باطراد منذ حزيران عوق برنامج رحلاتي كثيراً إذ لم يسمح لي بالغياب عن مقري ولا أن أكون بعيداً عن خط البرق. لما وصلت إلى بغداد قادماً من (قزوين) في أيار الماضي، سلمت حصاني (نو ترمپ!)[1] بكامل تجهيزاته إلى دائرة صنف الخيالة في بغداد تطبيقاً للقرار المتخذ باعتبار الخيل التي يملكها الضباط تعود لصنف الخيالة. ولم يتسن لي العثور عليه عندما عدت من إجازتي. لذلك وضعت اليد في رانية على حصانين تركهما سيلفي أحدهما مهر أشهب جامح إلى أبعد حد يدعى (سمكو) نسبة إلى شيخ سمكو زعيم (شكاك) الشمالية الذي كان ثائراً على الحكومة الإيرانية طوال حياته. والحصان الآخر حيوان وديع هادئ خصي ذو لون برتقالي فاتح وعرف وذيل جميلين يدعى (قازى) نسبة إلى السيد المهذب الرقيق ذي العمامة البيضاء أو اللحية الشهباء الذي يتولى القضاء في قلعة دزه. وكنت على الأغلب أفضل ركوب (سمكو) في جولاتي لأنه سريع العدو وإن كان صعب المراس خطراً من عدة أوجه[2].

---

(1) مصطلح No Trumps في لعبة البريدج يدل على أن اللاعب يملك في يده ورقاً عالياً من جميع ألوان الكاغد الأربعة، أي أن يده جيدة جداً. وبإمكانة إدارة اللعب لصالحه بكل الألوان، من هذا يظهر أن حصان المؤلف هذا كان متعدد الفضائل والشيات. (المترجم).

(2) إن عادة تسمية الحيوانات المحبوبة (الخيل والكلاب والقطط وغيرها) بأسماء أناس محترمين أو أبطال أو قادة هي عادة مستحبة ورائجة عند الأوروبيين. (المترجم).

إن (چناران) قبضة مروحتنا، هي ناحية ضيقة، يحدها الزاب ورافده (باسلام) من الشمال الشرقي. وجبل (هيبة سلطان) من الجنوبي الغربي. ويقسمها طولاً (كوسرات) وهو جبل منعزل محدودب الظهر تكسوه الهضبات لا يزيد ارتفاع أعلى نقطة فيه عن (5000 قدم). ولقد تم الاعتراف بالملكية المشروعة لأغوات (كوي) أصحاب حق الطابو في معظم الأراضي عندما عين أحدهم (إسماعيل آغا) مديراً للناحية. وكان هذا موظفاً طيب القلب مخلصاً، إن لم نقل لامعاً. سمح له أن يتخذ قريته الخاصة (خدران) مقراً له، وهي التي ورد ذكرها في حكاية (فقي أحمد) وإني لأذكر قرية (چناران) لموقعها الرائع الساحر بقدراتها الكثيرة المياه التي تتخلل بساتينها الكثيفة المتعاقدة على سفوح (كوسرات) وتطل على منظر جذاب يشرح النفس، هو مجرى الزاب وسهل (مه ر كه). وهناك بقعة أخرى قمت بأكثر من جولة فيها هي (كانى آسپان = عين الخيل) وهو هودج بين مسندين عظيمين على ارتفاع (4000 قدم) في وجه (كوسرات) وفيه كهفان أو ثلاثة بتشكيلاتها الرائعة من (الستالا گمايت والستلاكتايت)[1] وقيل إنه يوجد كهف رابع لا نهاية له. وهذه البقعة لا تبعد أكثر من خمسة عشر أو ستة عشر ميلاً (ده ربنده)، وتصلح للرصد بالراقم الشمسي[2]. ونازعتني النفس في إقامة مخيم صيفي هنا. ومرة توقلت طريقاً شديدة الانحدار حتى بلغت قمة (كوسرات) وقضية ليلة في قرية (شيخ حاجي) على الجانب الآخر منه. إن الغدران في الوادي الضيق الممتد بين (كوسرات وهيبة سلطان) تكاد تختنق بنبات الدفلى المتفتح. ولن أنسى ما حييت غديراً هناك وكان قطعة واحدة متراصة البنيان من الزهر الأحمر الوردي تمتد كالبساط مسافة مائتي يارد أو أكثر. عدت إلى (خدران) بطريق مضيق ضيق تشقه المياه خلال (كوسرات)

---

(1) متراكم كاربونات الكلس في الكهوف التاريخية القديمة، وتكون على شكل مخاريط، قاعدتها سقف الكهف وتسمى Stalactite وإذا كانت على شكل مخاريط منخفضة قاعدتها أرضية الكهف فتسمى .Stalagmite (المترجم).

(2) الراقم الشمسي هو جهاز مخابرة عسكري قديم بطل استعماله، ويعتمد على الضوء والمرائي لنقل الرسائل والأخبار العسكرية بين القطعات. (المترجم).

لتصب في (باسه لام) ويتخلل المجرى عدد من الشلالات الخلابة كان ماء أحدهما يسقط من ارتفاع 40 - 50 قدماً وعلى مسافة بعيدة من صخر الجبل.

تتألف ناحية رانيه من الشمال الجبلي. ومن أربعة أضلاع من المروحة ومن سهل (بتوين) جنوباً. وتطبيقاً لقرار تقليص حدود (قسم) أربيل الإدارية لم تبدر أية محاولة للقيام بإدارة الأضلاع الغربية الثلاثة التي تقطن فيهما. (پشتگه لى) وهي إحدى ثلاثة بطون من قبيلة (خوشناو) والبطنان الآخران هما (مير يوسفي، ومير مهملى = محمد علي)، ويصح إطلاق اسم (شاوور) على الأخاديد العليا للوادي الثاني شرقاً، وهي مفصولة عن (ناوده شت) من الجهة الشرقية القصوى بالعمود الفقري: جبل (پيرامكا) الذي يرتفع 8250 قدماً. و(برده رش = 8000 قدم) الذي هو امتداد جبل (كيوه ره ش). و(شاوور) مشهورة بنفاسة تبغها واسمها يطلق على أفضل ما ينمو منه في العراق وتجتمع مياه الأخاديد العليا على مسافة عشرة أميال من شمال غرب رانية. وتسيل في مجرى ضيق واحد تقوم على ضفتيه قرى (آكو) من مجموعة (رانية) ثم مخترق الجدار الجنوبي وتتدفق إلى السهل[1] وهنا يدعى (باستى ئاستريلان) وتقسم سهل (بتوين) من الشمال إلى الجنوب فيعزل قرى (پيران) الغربية عن قرى (السن والرامك) الشرقية قبل أن يجتمع مع باقي الغدران الآتية من الغرب في نهر (باسه لام).

ويقوم قسم من قرية رانية على سفح تل صناعي يبعد حوالى ميل واحد عن قاعدة (كيوه ره ش) والقسم الآخر يقع في السهل. ولم يكن يوجد فيها آنذاك إلا زهاء ستين بيتاً ولم يكن فيها ما يستوقف النظر. إلا أنه تتألف صورة جميلة من ميدان السوق الصغير بدكاكينه الستة أو السبعة مع المسجد ونبع ماء ثر يتدفق إلى بركة مربعة صناعية تستكن في ظل أشجار الچنار الوارف إلى أن يجف ماء النبع

---

(1) من ضغط واجبايت الأخرى تراكمها منعني من القيام بزيارة (لشاوور) في ذلك الحين، وفي العام 1927 سرت راجلاً من رواندوز على هذا الطريق، وهو الذي سلكه (سايكس) قبلي وعاد منه (ماوتسل).

في نهاية الصيف. والماء كثير في كل بقعة هناك. ويوجد عدد من الأقنية الحكومية تؤجرها سنوياً، فيتنافس عليها المستأجرون ويتكالبون، وتدر زراعة الرز ربحاً طيباً ولذلك كان معظم سهل (بتوين) مغموراً بالماء، حاراً موبوءاً بالملاريا. وتقع قرية (سه ر كپكان) التي يقطنها (الآكو) على مسافة أربعة أميال شمال غرب رانية على ضفاف ماء (شاوور) قبل بلوغه السهل بقليل. وقد وجدتها في تموز لطيفة المناخ تصلح أن تكون مركزاً للإدارة أفضل من رانيه ودربند بكثير.

وتكاد قرى سهل (مه ر گه) تكون قسمة عادلة بين قبيلة (تركه ره شه) شمالاً و(شلانه) في الوسط و(ميراودلي) من أسرة (عباس آغا) في الجنوب. وتقطن أسرة (محمود آغا) قرى (پاشكيو) على الطرف الآخر من (ئاسوس) وقد اتخذت من أفراد قبيلة (شلانه) ساكني السهول - فلاحين طائعين. ومارست أيضاً نفوذاً كبيراً على (جافه ره شكه) متسلقي الجبال في المرتفعات العالية. وأعتقد أن (مه ر كه) هي أجمل القرى في القضاء كله وكانت كما ذكرت مركز قضاء (پشدر) في الماضي. فبيوتها حسنة البناء تجثم على أطراف السفح تتخللها بساتين كثيفة وأقنية لا تحصى من المياه المنحدرة من الأعلى. ولا يزيد عدد بيوتها عن الثمانين تتقسمها أربعة أحياء لكل منها مسجده الخاص. وكنت على الدوام ألتذ بزيارتي لها. وأذكر ليلة فيها عُقدتْ حلقات ذكر في المساجد الأربعة في آن واحد فكانت تتردد شهادة «لا إله إلا الله» تباعاً ويرن صداها في أرجاء البساتين بتساوق وانسجام لحني رخيم. في ذلك الزمن كان شيوخ القادرية في معظم أنحاء (قسم) السليمانية قد نظموا حملة صوفية نشيطة. ولذلك ألف المرء سماع جمجمة سريعة لمهتد أو مريد وهو يهرول بعد الغروب في الأزقة بين المنازل مردداً عبارات الذكر كالمجذوب. ولقد وقفت على حوادث عديدة أكيدة. لشقاة أوغاد لا يرجى لهم صلاح. أعلنوا فجأة ندمهم على ما قدموا وأصبحوا من أشد الناس صلاحاً وتقى. وكان (سعيد أفندي غفور) خير نموذج للموظف العثماني السابق، صريحاً قليل الادعاء متواضعاً عفاً نزيهاً إلى أبعد حد، خبيراً في تقدير الزروع النابتة، وغير

ذلك من شؤون جباية الضرائب والأمور الاقتصادية الأخرى، وبمختصر القول كان نموذجاً ممتازاً لطبقة لا يندر وجودها مع قلة الراتب وعدم توجيه التقدير والشكر لأعمالها من قبل المراجع العليا - كما قد يتوقع القارئ الغربي من كثرة ما يطالع من الانتقادات الشائعة للموظفين الشرقيين وضعف ذممهم.

ظلت المآثر التي يتناقلها السكان المحليون تشير إلى أن مياه القناة الرئيسة في رانيه كانت تنقل عبر الزاب إلى سهل (مه ر گه) في (ده ربه ند) بوساطة قناة أنبوبية. ويشير الكرد إلى ثقوب معينة في السفح الصخري على الضفة اليمنى من الزاب قائلين إنها المواضع التي كانت تشد سلاسل حديد استخدمت لتثبيت تلك القناة. ولم أسمع طوال إقامتي هناك بذكر لنقش أو كتابة في تلك الأنحاء. لذلك ثار بي حب الاستطلاع بعد عدة سنوات عندما لاحظت في الخارطة الملحقة بكتاب السر پرسي سايكس (تاريخ إيران)[1]، في رأس منعطف (ده ربه ند) الحاد، صليباً أحمر واضحاً يشير إلى عبارة نقش آشوري هام جداً على الصخر وهو أحد نقشين فقط موجودين ضمن الحدود العراقية هناك. مع أنه كان يوجد عدد كبير من المنحوتات الأثرية الهامة من هذا النوع المعروف جيداً في البلاد، ولجأت بحيرتي هذه إلى (مينورسكي) الذي كان آنذاك أستاذاً في كلية اللغات الشرقية بباريس. وكانت مراسلاتي معه مستمرة في مختلف المواضيع التي تهمنا وقد اتخذت لها اسم (خرولوجي - التنقيبات الأثرية في زاغروس) فتفضل وأحالني إلى مدونات رحالتين شرقيين هما (كليمان، بريزوزوسكي) اللذين كنت قد اقتبست منهما كثيراً مما ورد في كتابي.

إن (كليمان) الذي افترق عن زميله ليتفقد (ده ربه ند) وهو منطلق من (كوي) إلى رواندوز مجتازاً منطقة (پشت گلى) غرب (شاوور)، خصص صحيفتين لتلك الجولة ولكنه لم يورد فيها شيئاً عن منحوتات أثرية. على أن كتابات

(1) طبع في لندن، 1915.

(بريزوزوسكي) زودتني بما أبحث عنه وهو المنظر العام الذي أشرف عليه وهو واقف فوق قمة (پيره مه گرون). وها أني أنقله بنصه الفرنسي.

«إن قمم (پيره مه گرون) هي امتداد غير منقطع للجبال الشاهقة. تؤلف الطرف الأيمن الممتد نحو الجنوب الشرقي والشمال الغربي، وهي ليست استمراراً لسلسلة الجبال نفسها تلك التي عرفناها فيما أسلفنا باسم (ئازمر - داغ) و(گويجه داغ) ويشاهد أيضاً سلسلة أخرى قائمة إلى شرق (پيره مه گرون) إن القمة التالية تمتد إلى جهة الغرب، ومن الواضح جداً أن المياه التي تكتنفها الزاوية المؤلفة من تقاطع هاتين السلسلتين الجبليتين. وكذلك المياه التي تصدر من الجنوب وتدور حول كتلة (پيره مه گرون) وهي أنهار (تانجه رو) و(چاچى) و(بستان صو) ما تلبث أن تجد لها منفذاً إلى دجلة، وهذا المنفذ يقع على مسافة (35) كليومتراً بخط مستقيم من قمة (پيره مه گرون) عبر واد داخل جبل (ده ر به ند) حتى جبل (كولارا) وهذا الوادي تقوم فوقه كتلة صخرية هائلة عمودية بنيت فوقها، على ضفة الزاب اليمنى، قلعة تركية. وعلى الضفة نفسها قرب مدخل الوادي توجد صخرة عليها نقش شبيه بالنقش الصخري الأثري في أسفل نهر الكلب عند مشارف مدينة بيروت. والنقش رغم قوة الحفر وصلابته مشوه بعض الشيء، إلا أن صورة الملك فيه واضحة وليس على المنحوتة أية كتابة. إن منطقة الجبال العالية التي هي في كل من بلاد ما بين النهرين وإيران، ترى الآن هنا أقل اتساعاً والجبال نفسها مسننة عمودية على طول امتدادها ويستخدم مضيق (ده ربه ند) بمثابة طريق رئيسة بين نينوى وبلاد فارس. ترى ماذا كان اسم هذا الشعب في العصور الغابرة؟».

وكنت أنتهز كل فرصة تعن لي للسؤال من الموظفين ومن زائري القبليين الذين جاؤوا إلى بغداد من رانية. ونفت أجوبتهم كلها وجود أية أسطورة معينة ثابتة حول نصب أو منحوتة في (ده ر به ند) والآن ترى (برزيزوفسكي) قد لاحظ بحق أن أنهار (شاربازير) تجد طريقها إلى الزاب فوق (ده ربه ند)، ولذلك فإن باقي وصفه الطبوغرافي يضع أمامنا عدداً من التساؤلات. وفي مقالة كتبتها للمجلة

الجغرافية[1] تقدمت برأي وهو أن (برزيزوفسكي) الذي كان ضابط غابات في خدمة الحكومة، قد قام من دون شك بجولات أخرى غير تلك التي وصفها في موضوعه السالف. ولعله لاحظ وجود منحوتات صخرية قرب (باطاس) على الطريق البادئ من شقلاوة حتى رواندوز فخانته ذاكرته عندما راح يكتب ذكرياته بعد عشرين سنة.

وسرعان ما دفع مقالي العقيد (ماونسل) إلى كتابة رسالة لي عن طريق السيد هنكس Hunks سكرتير (الجمعية الجغرافية الملكية) وكان آنذاك في السبعين من عمره. وقد جاء فيها ما يلي:

«لما كانت العبارة المقتبسة من مذكرات برزيزوفسكي تقول: إن وادي (ده ربه ند) يستخدم بمثابة طريق رئيسة بين نينوى وبلاد فارس فهذا لا شك أنه كان فعلاً. ذلك لأن الطريق خلال الممر هو خير مسلك من نينوى (الموصل) إلى إيران اليوم. وإن الجبل الذي ينفذ النهر منه، يجري من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بخط محدد تحديداً حاداً يكاد يكون متعامداً مع الأفق، خط صخري في غاية الصلابة يميل إلى السواد، ويمتد عدة أميال، ليفصل سهل (بتوين) عن سهل (پشدر) المجاور للحدود. وفتحة النهر ضيقة يتراوح طولها بين (400) و(500) يارد. والطريق يسير بمحاذاة الضفة اليمنى ولا توجد إلا فسحة قليلة بين المجرى وجدار صخري عمودي يقطعهما طريق ممهد قصير (هنا يأتي مخطط). إن الصخر صلب جداً، ولكي يحول المحاربون الآشوريون القادمون من نينوى إلى إيران دون انزلاق عجلاتهم الحربية وسقوطها في النهر شقوا قناة عمقها حوالي قدمين وعرضها ثمانية أقدام بمسافة (200) يارد تقريباً في المضيق نفسه، لأجل التقليل من هذا الخطر. وعند ملاحظتي ذلك اعتبرته دليلاً دامغاً على أن هذا الطريق كان مطروقاً جداً في العصور القديمة. ومن المحقق أن الكردي المعاصر لا يتجشم

(1) «تعليق ثالث عن المنحوتات الحجرية في جنوب كردستان»، المجلة الجغرافية، ج77 رقم4، نيسان 1931.

متاعب شق هذه القناة في الصخر الأصم. ولاحظت فوق رأسي على ارتفاع زهاء أربعين قدماً نقشاً من الكتابة المسمارية على وجه الصخر محفوراً في فراغ تبلغ مساحته حوالي أربع أقدام مربعة. وقد صقلت تلك الفسحة خصيصاً لهذا الغرض، لم أتمكن من قراءتها ولا استنساخها من هذا الارتفاع. وكان يلزمني نصب صقالة أو الصعود إليها بسلم وهذا ما لم يتوفر لي في حينه. وفي ذلك الزمن كان وباء الطاعون مستفحلاً في المنطقة يفتك بالكرد وهم في خيامهم. واضطررت إلى مغادرة المكان مستعجلاً إذ كنت أريد الالتقاء بأي قافلة أصادفها. ومهما يكن فإن الصدفة أسعفتني بهذه الملاحظة. الحقيقة أني لم أر نقشاً بارزاً وكل ما وجدته هو اللوح المربع المنقوش على الصخر. ولو تسنى لي الفحص الدقيق عن كثب فلربما اكتشفت صورة بارزة في الأعلى. إلا أنه كان يجب أن تحفر في الصخر الصلب ولذلك أستبعد أن يوجد صورة.

وهكذا ازددت حيرة على حيرة. والظاهر أن (كليمان) لم ير أو يسمع عن أية منحوتة من أي نوع كان. وقد رأى (برزيزوفسكي) نحتاً بارزاً لشخص لكنه جزم قائلاً: لا يوجد أية كتابة مطلقاً.

ورأى (ماونسل) كتابة مسمارية أعلى من أن يستطيع الوصول إليها ولم يلحظ وجود نقش آخر. وأنا نفسي لم أر ولم أسمع عن أية منحوتة في (ده ربه ند) في حين أن فرصتي في البحث أفضل من جميع أسلافي[1] الثلاثة. وجددت استفساراتي وكلفت بعض الأصدقاء المخلصين ببحث منظم في المنطقة التي أشار إليها (ماونسل) ولقد كوفئت على إصراري ودأبي بعد وقت قصير، إذ تسلمت رسالة من (حمه آغا رانيه) و(مامند آغا آكو) و(إسماعيل آغا خدران) ذكروا فيها أن

(1) سمعت فعلاً كلاماً عن وجود كتابات في (مه ر كه). وعندما تفقدت الموقع بعد سبع سنين لم أجد غير مجموعة آثار لمتحجرات فوق صخرة. وكانت كثيرة التحات بفعل العوامل الطبيعية وقيل لي مرة إنه يوجد نقش في (قره تيلان) خلف قرية (الزنك) المسماة (خدر - مامسينان) حيث يتدفق نهر (كه رفين) من المرتفعات. لكن وقتي لم يسمح لي بالتثبت من ذلك.

(الأنتيكة) قد تم العثور عليها. واهتبلت فرصتي في خريف تلك السنة (1931) لزيارة (ده ربه ند) وتمكنت بهديهم، ورغم نوبة شديدة أصابتني من (اللومباغو)، أن أتسلق إلى الموضع المعين وكان كما أوضحه (ماونسل) في مخططه بالضبط، إطار مربع مصقول على وجه الصخرة طوله حوالي ثلاثة أقدام وارتفاعه قدمان ونصف قدم. وفي الجزء الأيسر منه (إذا نظر إليه المرء مواجهةً) يوجد بروز خفيف (لا يمكن وصفه بأكثر من هذا) قد يكون صورة بشرية بارزة، لكن لا يوجد أي أثر لكتابة مسمارية، ولم يكن في وسعي تصويره صورة وجهية مباشرة، إلا أن صورة (مامند آغا) المثبتة في هذا الكتاب تظهر النهاية اليسرى منه عن يمين رأسه. ولما رجعت إلى الطريق في الأسفل وصوبت نظري إليه استطعت أن أرى بوضوح كلي نهاية الإطار مع البروز.

وأعود الآن إلى العام 1922، إن أمتع ما قمت به من جولات آنذاك هي رحلتي إلى السليمانية وعودتي عن طريق (ماوه ت). إن البلاد التي تقع شرق قلعة دزة يجب أن تسمى بالأرض «المتدحرجة» ولكن بالمقياس (الأطلنطي) وبدأت أشجار البلوط تبدو في الحقول، وإن الطريق المطروق والأسهل هو الذي يمر خلال الجزء الفارسي لنهر (آلان). وهو عبارة عن نتوء منعزل تماماً خلف وادي (كالو) ذو قمة شاهقة تمثل وجهاً لسفوح جرداء شديدة الانحدار نحو الجنوب وتسمى (باين دردى) وكان (الميراودلي) آنذاك يحتلون كل الجزء الإيراني من (آلان) ومعظمهم من أسرة (بابكر آغا). خرج (عباس سليم آغا) ابن بابكر لاستقبالي مع ثلة من الفرسان وبت ليلتي ضيفاً عليه في (گرماوه ند) وهي خير نموذج لكثير مما رأيته أثناء جولاتي في خط الحدود: لما تكون الحدود بين البلدين لا أكثر من خط وهمي (كما هي في قرية گرماوه ند) يعبر منها وإليها أفراد القبيلة الواحدة دون عقبة أو إذن. فإن المرء يلاحظ في الجانب الإيراني مظاهر تدفعه إلى الاستنتاج بأنهم أكثر احتكاكاً بالمدنية من أبناء جلدتهم في الجانب التركي. فبناء الحجر أدق هندسة والبستانيون أحذق في صناعتهم. وهناك تهذيب وانتظام في الجو الأسري لا تجد مثله في الجانب التركي.

في صبيحة اليوم التالي عبرنا الزاب عائدين إلى العراق، عن طريق (تاييت) التي تقع على بعد ميلين من عالية مصب (قه لا چوالان). وقد تم عبورنا بجسر مفروش بأغصان الشجر، بناه (عباس)[1] فوق دعامات حجرية عتيقة ترتفع إلى علو لا بأس به عن مستوى الماء. ولاحظت بالقرب منه دعائم جسر أعتق منه. وهنا قص على مرافقي الحكاية المألوفة عن «الأميرين العاشقين». نحن الآن في منطقة (ماوه ت) الجبلية الرائعة التي تكسوها غابات جبلية فخمة وهي التي كان وقعها شديداً في نفوس الرحالة البريطانيين الأوائل. وبعد اجتزنا القرية التي تسمى الناحية باسمها راح الطريق يتطامن بنا منحدراً إلى حقول (قه شان) المنبسطة وهنا ما يلبث (قه لاچوالان) الذي يجري شمالاً، أن يترك ما بدا الخط الطبيعي لتقدمه، ويشق سبيله شقاً في طرف الجبال غرباً، بصورة فجائية ودونما سبب أو داع، ثم ينعطف شمالاً مرة أخرى في غور سحيق ضيق ذي ضفتين عموديتين مجتزئاً فحسب فلذة صغيرة من الجبل ولا يخترق السفح اختراقاً إلى الحقول التي تركها قبل قليل. ووجدت في (قه شان) جسراً جيد الترميم، وخرائب جسرين أو ثلاثة يقال إن أحدها قد انهار تحت أقدام وحدة من وحدات جيش (نادر شاه) أثناء تقهقره من كركوك بعد ارتداده فاشلاً عن حصار بغداد. وبعد عبوري إلى الضفة اليسرى طالعنا مباشرة شارع واسع تحف بجانبيه بلوطات ضخمة، تلتقي فروعها فوق الطريق وعلى ارتفاع كبير، إنه لكفيل بأن يكون مدعاة فخر لمقر أية عائلة عريقة في بريطانيا! ويرتد الطريق إلى النهر بعد حوالي أربعة أميال من فوق مصب (سيوميل) عند بقعة ذات جمال أخاذ تدعى (كنه ماسى = ثقب السمك) حيث توجد برك بديعة وحيث تبدو الحقول المنبسطة وادعة منبسطة مطمئنة بعد الأرض

---

(1) هناك ثلاثة ملوك إيرانيون باسم عباس حكم الأول (1585 - 1628) والثاني (1642 - 1666) والثالث (1732 - 1736)، ونرجح أن المؤلف لا يقصد بل يشير إلى عباس ميرزا الأمير الإيراني ابن فتح علي شاه، الذي عقد صلح أرضروم مع الأتراك وقد تقدم ذكره. (المترجم).

الوعرة الجبلية التي اجتزناها ولم يتملكني العجب حين وجدت آخر عشرين ميلاً إلى السليمانية عن طريق مضيق (قياوه ند) مرهقة مملة.

وفي طريق العودة تعقبنا طريق الذهاب بالضبط إلى مسافة خمسة وعشرين ميلاً ثم وبدلاً من عبورنا (قه لا چوالان) على جسر (قه شان) انعطفت إلى الشمال الغربي متوجهاً إلى (شينكي)[1] وهي قرية تعود لـ(قميش). استضافني رئيسها (أمين بك) وهو أكبر أفراد أسرة (ميراودلي) سناً من فرع البگزادة. وفي صباح اليوم التالي خرجنا راجلين ونحن نقود خيلنا وبغالنا فوق طريق شديدة الانحدار حتى قمة (كوركور = 8000 قدم). وأذكر بوضوح فوهة بركان خامد فيها يبدو داخله وهو أشبه ببحر من الطين كان فيما مضى فائراً ويبدو الآن بعد تصلبه في أشكال عجيبة غريبة جداً. وكان نزولنا أكثر تحدراً من الصعود في الطرف الأبعد والقريب من قريتي البگزاده (كاني توو = نبع التوت) وهي بقعة جميلة لذّنا أن نبيت فيها ليلتنا مع حيواناتنا، و(چيناران) في ناحية (مه ر گه). ويخيل لي أنه أشد انحداراً من أي طريق صادفته في كل رحلاتي.

قمت بزيارة سريعة لـ(ناوده شت) والطريق المعتاد إليها يتخذ عكس مجرى (گه رفين) حتى قريتي (گرته ك وشهيدان) تعودان بصورة مستثناة إلى (بنزيرى آكو) فرع رانيه لا إلى أي فرع من مجموعة (ناوده شت) وبعدها يدخل الجبال من أخدود ضيق وهنا لاحظت مقابر كبيرة. ومن بين شواهد القبور وجدت نقشاً يمثل ثلاث دوائر وصليباً واستمر الطريق يعلو ثم يهبط مراراً ليعبر المجرى ثم يرتفع، وأخيراً أو على مسافة قصيرة من نقطة اتصال واديي (ناوده شت) و(شاروني) يرتقي الطريق سلسلة متتالية من الدرجات الحجرية أولاً ثم يسلك ممراً شديد الانحدار حتى يبلغ رأس مضيق يدعى (زينوئي گورته ك).

ومن (گورته ك) أرسلنا الطرف إلى قريتي (كومته ن) (مه نده ماره) و(بايوه ند)

(1) يقال أن الشينكى هنا، لا علاقة لهم بـ(شينكى بازيان).

(خيلا) وإلى هضبة ذات جمال مثالي. ورحب بنا اثنان من المختارين البسطاء. وبعد زيارة لـ(محمود آغا خيلا) في قرية (بولى) (حيث تمكنت وأنا واقف على ربوة شاهقة من مشاهدة وادي شاروش وجدار الحدود الذي يليه) عدت لأبيت في إحدى القريتين. والقرويون هنا يكادون يعيشون على الفطرة ولا أعتقد أنه يوجد في كل الناحية ستة أشخاص يعرفون القراءة دعك من الكتابة. كان سلفي قد عانى الكثير من المتاعب من (الباووبى) الذين حاصروه في قلعته في (لويژه) بقيادة زعيمهم (غفور آغا) ففكرت بتعيين مدير ناحية «محصن ضد الرصاص» بشخص «بهلول آغا» (وأقصد في الواقع بشخص ابنه الأكبر (كانبي) زعيم (مه نده ماره) وهو رجل عجوز مرح بدين مخلص، لم يتأخر عن إثبات صحة اختياري له عندما أزفت ساعة الامتحان وكان هو وابنه أميين، فعينت (رشيد صدقي) شقيق مدير ناحية (مرگه) معاوناً له وكان هذا مفتتح مستقبل مدير نافع لأكثر أجزاء كردستان بدائية وفطرية. ولما كنت دائم البحث عن الآثار فقد سألتهما فأعلماني بوجود خرائب لديرين من ديارات النصارى أحدهما يعرف بـ(مازون) ويقع خلف (بولى) والآخر (سالوت) قرب (پشتشان) في (شاروش). ولم أجد وقتاً لتفقدهما. وسمعت أيضاً حكايات عن تمثال صخري لطائر عظيم يشير بمنقاره إلى موضع كنز مدفون في أراضي (مه نده ماره) فقررت أن أجعل عودتي من طريقه. وصعدنا من (كومتان) بممر ضيق حتى (زيرناكو) الذي يؤلف الجدار الجنوبي الغربي لوادي (ناوده شت) وكان يوماً رائعاً صافي الأديم. وحين أرسلت طرفي وأنا في أعلى شعب على ارتفاع (5000 قدم) طالعني منظر فخم حقاً من وديان ورواب مكسوة بالغابات تمتد حتى قمم (قنديل)[1] ثم هبطنا إلى الأسفل بطريق طويل كئيب هو

---

(1) وهنا أيضاً كما في أي موضع آخر، يصعب استخلاص التسميات الصحيحة لمختلف سلاسل جبال الحدود. وما سأورده هو نتيجة تحقيق قمت به في مناسبة تالية (عندما بلغت قمة كوكيز) للقاطع المحصور بين دعامتي الحدود (1914) المرقمتين 117، 118، كما أثبتنا في خريطة وزارة الحرب التي هي بمقياس (1 : 100000) والمؤرخة تموز 1942. قمة - 10151 - كلاله (صحيحة)، قمة 9337 (حيث أن الحدود الآتية من الجنوب تنعطف إلى الغرب) - كوترال، ماماروت (صحيحة في=

شق (دوگومان). وكان يوجد على السفح الشرقي عدد لا يحصى من الكهوف. وفوق أحدها تتخذ الصخرة شكل صقر ذي جنحين مفتوحين ورأس منكوس ويخال لي أنه من عمل الطبيعة، إلا أن الخطوط فيه قوية، والانطباع العام يعطي المشاهد هيئة انقضاض يقوم بها، والرأس متجه إلى كهف صغير هو في نجوة عن الكهوف الأخرى وتحتها. ويزعمون أن الكنز مدفون في هذا الكهف. وكان ثمة لوح كبير من الصخر ملقى فوق فم الكهف. ارتقيت إليه ودخلته فوجدته صغيراً جداً. ولم أتأكد هل أن جزء من الجدار هو صخر طبيعي منحوت أم هو هو بناء من الحجر والجص متعاشق ما زال البناؤون الإيرانيون يمارسونه. وقد قضت الأحداث التي سأوردها في الفصل التالي على مشروعي في العودة إلى الموقع بفؤوس ومتفجرات.

=الخريطة، قمة - 104 سه رى ناوا)، القمة التي هي في شمال آخر طرف من شيخ شارو بمسافة ميلين ونصف ميل، قمة 11324 - كوكيز قمة 11807 كج باش (وليست حاجي إبراهيم)، قمة الحدود شمال شرق كج باش بمسافة ميلين ونصف ميل، قنديل كجكه (قنديل الأصغر) ويطلق اسم قنديل على قطاع من السلسلة يبدأ من (سه رى ساوا) حتى قنديلى عموماً، وخاصة يطلق على كوكيز أضخم قمة وأعظمها استقامة لا أعلاها والأصح أن تسمى قمة 10304 في إيران إلى الشمال الشرقي من كج باس باسم (سرى كبه له ك) أي (تل النور المخطط) إلا أن السلسلة بين قمة 10304 حتى قمة 9240 تسمى أيضاً بجبل حاجي إبراهيم نسبة إلى ضريح بهذا الاسم في القرية السفلى.

- 17 -
رانيكول

إن (نكبة رانيكول) هي بالطبع وبواقع الحال مسألة بسيطة، وقد جر عليها النسيان ذيوله. لكنها لا تخلو من أهمية باعتبارها حدثاً في حياة ضابط سياسي يدير الأمور بعفو الخاطر وبمبادرة منه. فهو لا يجدها مألوفة بدرجتها إن لم أقل بنوعيتها. وخير لي أن أبدأ القصة بإثبات الجزء الخاص بها من تقرير المندوب السامي إلى وزارة المستعمرات عن سير الإدارة في العراق لسنة 1922 - 1923، ثم أعود لملء التفاصيل وإن ظهر أني أميل إلى إلقاء التبعة على المركز العام في بغداد في بعض الأحيان فلا يدفعني، بعد هذا الزمن المتأخر جداً أية نية في اطلاب المدح لنفسي أو تنصل من الملام. وإني لأقص الحكاية بحرفية الملاحظات التي دونتها في ذلك الزمن قدر المستطاع، لتكون صورة صادقة للحوادث بالشكل الذي رآها خيالي المحدود وهو في وسطها. والآن إلى التقرير الرسمي.

«... منذ تموز 1921، والعسكريون الترك المغامرون يقومون بأعمال» عدائية نشيطة في حدود العراق الشرقية مستخدمين عصابات صغيرة من القوات النظامية وضعت تحت أمرتهم، هذا فضلاً عن قيامهم بتحريض القبائل على الثورة. في الوقت الذي تبذل استعدادات جدية في الشمال بمصاحبة دعاية مشابهة بين القبائل.. وكان الشك في المستقبل فائدة ومغنم كل حزب معاد لنا في البلاد، وهو الذي كان يمنع كل من يجد في عودة الحكم العثماني نكبة عظيمة - من التعبير عن آرائه تعبيراً حراً...

«في 17 آذار 1922 خلعت حكومة أنقرة لقب قائمقام راوندوز على رمزي بگك أحد عملائها وأرسلته إلى ذلك القضاء. وبوصوله في نهاية أيار بدأ في الحال حملة مسعورة بين القبائل تدعمها تأكيدات عن قرب وصول نجدات عسكرية تركية كبيرة لانتزاع السليمانية وكركوك وأربيل من أيدي البريطانيين ثم أرسل بعده في أواسط حزيران عقيد يدعى (علي شفيق) ويعرف بلقب (أوزدمير) قدر له كعسكري مغامر أن يلعب الدور الرئيس في إثارة الخواطر على الحدود، وكان يشيع بين الأهلين أن واجبه، استعادة كل ولاية الموصل بالقوة».

وقبل نهاية أيار أعطت تحريضات الترك للقيام بأعمال الفوضى ثمراتها، فقام زعيم الجبارى الكرد في ضواحي چمچمال بمهاجمة مدير الناحية واصابته بجراح وراح يستنفر رجال قبيلته ويعمل على تحشيدها. وكان هجومه هذا بمثابة إشارة انطلاق عناصر (هماوه ندية) سائبة،... يقودها المدعو (كريمي فتاح به ك) الذي كان من الملتحقين بثورة الشيخ محمود سنة 1919 فبعد أن أرسل هذا خطابات تهديد إلى معاون الضابط السياسي، تظاهر بالرغبة إلى المصالحة ودعا كلا من النقيب (بوند) Bond والنقيب (ماكانت) Makant قائد الليفي إلى الاجتماع به للتفاوض بالقرب من ممر (بازيان) في 18 حزيران. ومع أن زعماء الكرد الموالين أنذروا هذين الضابطين بنية الغدر المبيتة فإنهما اعتبرا أن واجبهما يحتم عليهما ألا يضيعا أية فرصة لتسوية سلمية وقبلا الدعوة وزالت شكوكهما بالاستقبال الحار الذي قابلهما به (كريمى) ثم قام أتباعه بإطلاق الرصاص عليهما من الخلف أثناء ما كانا إلى جانبه فوق حصانيهما. وبهذا انضم الزعيم الهماوه ندى إلى الجبارى في انتفاضة مسلحة.

وراحت قوات من الليفي بإسناد القوة الجوية تلاحقهم في الجبال الصخرية... وفي نهاية تموز ورد نبأ يفيد أن (كريمي فتاح) قد انتقل إلى الشمال والتجأ إلى الترك. وعبر الليفي الزاب وهو يطاردهم ودخلوا منطقة پشدر الواقعة في إدارة رانية حيث وجدوا (بابكر آغا) يعاني ضغطاً شديداً من جزء معاد من قبيلته التي ما

عتمت أن انسحبت إلى الحدود الإيرانية ولكن الأتراك راحوا يدفعونها لمهاجمة (بابكر آغا) إلا أن وصول الليڤي مكنه من إعادة التوازن والاستقرار.

وكان من الضروري أن يعطى الرتل فترة يستريح فيها وينظم صفوفه بعد الإرهاق الذي أصابه جراء الحملات والاشتباكات المستمرة تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة، ولذلك سحب إلى السليمانية في 9 آب. وتكالبت عدة عوامل أخرى خلاف انسحاب الرتل، لتؤدي إلى تدهور سريع في الموقف. فانضمام (كريمي فتاح) زود الكماليين بأمل آخر في تعاون قبائلي. وتحركت جماعات صغيرة من الترك جنوباً متجهة إلى حدود (رانية) حيث انضم إليهم فريق پشدر المعادي. ومع أن وحدات من الجيش الهندي وصلت رانية في 21 آب، ثم عززت بما تيسر من الليڤي، إلا أنها عجزت عن إيقاف تدفق الانضمام القبائلي المتعاظم إلى جانب الأعداء، يشد من عزمهم تلك التقارير الكاذبة عن وصول نجدات تركية. ولهذا انسحب الرتل البريطاني من رانية في (1) أيلول...».

كانت استخباراتي في رواندوز حسنة التنظيم بحيث استطعت إرسال تقرير في كل قضية حال وصولها إليّ مباشرة فأنبأت أولاً بوصول (رمزي) ثم بقدوم مجموعة من الضباط مع مدافع جبلية وكمية كبيرة من عتاد الأسلحة الخفيفة لتوزيعها على القبائل كما تم ضبط عدد من الرسائل صادر من القائد التركي لجبهة الجزيرة إلى أعيان المنطقة وشخصياتها البارزة يوضح فيها أن ولاية الموصل ما هي إلا جزء من تركيا ولن تكون العراق ويدعوهم إلى (الجهاد) وإني ما زلت محتفظاً بالفقرة الأخيرة منها:

«يجب أن يعمل كل إخواننا في الدين على تحقيق الاتحاد الذي تنشده الحكومة العثمانية.. فليتنفس المسلمون الصادقون هواء الحرية ثانية. إن نقص العتاد عندكم وغير ذلك من الضروريات الأخرى يلقى منا الاهتمام. وسنسد حاجاتكم من كل شيء عما قريب. ألا فلينصر الله أولئك الذين يجاهدون في سبيل الدين

ويبذلون دماءهم رخيصة. ولعنة الله على المشركين أولئك الذين باعوا دينهم للإنكليز وعلى فيصل وأعوانه. آمين».

وكان ثمة رواح ومجيء مستمر للرسل بين راوندوز وقبيلة پشدر التي كانت في مخيمها الصيفي على الجانب الإيراني من الحدود تماماً.

لم يكن من الصعب إحباط هذه الدسائس إلا أن مقتل (بوند وماكانت) في 18 حزيران كان أشد ضربة تمنى بها الإدارة ومكانتها في النفوس. وقد نجم عنها عامل جديد في غير صالح الموقف الذي زاد تعقيداً. وفي العشرين منه بعثت بالبرقية التالية:

«بالنظر إلى غموض الموقف في چمچمال ووجود نشاط معين في راوندوز لم أتمكن حتى الآن من تشخيصه تماماً، فإن نشاط الجنود المعادي في پشدر قد زاد أهمية. وربما نجم اختلال في توازن هذا القضاء بسبب الحوادث الأخيرة (واتبعت هذا برؤوس أقلام لتدابير اقترحتها. مع طلب المزيد من المال للمخصصات السرية) إن وصول (أوزدمير) في 23 منه، حاملاً لقب قائد «الانتفاضة الوطنية» كان نذيراً بزيادة نشاط العدو زيادة عظيمة «لا تقتصر على رانية وحدها بل تتعداها إلى كوي والخوشناو في أربيل».

وفي 2 تموز لخصت الموقف بمذكرة بعثت بها إلى كل من (گولد سمث) والمندوب السامي: «قبل حوالي أسبوعين أرسل آغوات پشدر الثائرون وفداً مؤلفاً من أربعة أشخاص إلى راوندوز للإلحاح على الترك بمساعدتهم في حركاتهم المعادية لبريطانيا وفي حدود 28 حزيران عاد ثلاثة من أعضاء هذا الوفد وقد حمل كل منهم بندقية وخمسمائة إطلاقة (على سبيل الهدية) ومعهم رسالة مكتوبة على ورقة حكومية مصدرة بعنوان «قائد الشعب الإسلامي في فلسطين وسوريا» وموقعة بتوقيع يحمل عنوان «قائد الشعب الإسلامي في العراق وكردستان» جاء فيها:

«إن مصطفى كمال وجودت يعرفان جيداً خدمات آغوات پشدر. وقد انشغلا لحد الآن عن مساعدتهم، بالحرب في الشرق والغرب. والآن وبعد أن أصبحت

أيديهما حرة فسيرسلان أحمد تقي مبعوث كردستان إلى (وزنة) (في إيران قرب عمود الحدود المرقم 116) برفقة خمسين جندياً لتقديم المساعدة الفعالة. ويرى بابكر آغا أنه إذا وصل هذا الشخص فسيجد الأغوات الثائرون أنفسهم مضطرين إلى القيام بعمل ما ليزكوا أنفسهم في عين القادم. وهذا «العمل» قد يتخذ شكل هجوم على (ده ر به ند). أما إرسال الجنود الخمسين فهو حديث خرافة. إلا أن الواقع سيظل كما هو: أي أن الأتراك قد وثقوا صلتهم بالفريق المعادي من پشدر. وهو لا يحتاج إلى تشجيع كثير ليخرجوا بالثورة إلى حيز التنفيذ. وهذا ما يعطي إشارة انطلاق لعناصر أخرى ما زالت إلى الآن فاترة الهمة هادئة. فتنظم إليهم. وهذا القضاء سيبقى غير مستقر ما دام سيظل هؤلاء الپشدر بمنجى من العقاب. إنهم الآن في الجبال على خط الحدود. وإن أمكن أن تتخذ ضدهم عمليات قمعية، فالأفضل أن تباشر في الخريف، إلا إذا اضطررنا إلى العمل قبل ذلك. إن مقدرتهم على اصطناع الشر تبلغ أوجها في الصيف بعد الحصاد وإذ ذاك تهتبل كل عناصر الشغب فيها اللحظة المناسبة. فالموقف إذن في كل من (شاوور، وناوده شت، وپشدر) يستدعي إرسال القوات العسكرية حالاً إلى هذا القضاء، بوجه الضرورة القصوى.

وفي خلال الأيام القلائل التالية، وفيما كانت المعلومات تتقاطر عن نشاط (أوزدمير)، عقبت مذكرتي هذه، بعدة طلبات لاستخدام القوة الجوية ضد رواندوز نفسها. والقيام بتحليق فوق مخيمات پشدر، وإرسال القوات الأرضية إلى (ده ربه ند) حالاً. وأوضحت قائلاً «لقد أزف الوقت لتنفيذ جانب من سياستنا السلبية الحاضرة». وكان زميلي النقيب و.آ. لاين في أربيل يشعر مثلي بحراجة الموقف فضم صوته إلى صوتي منذراً منبهاً[1]. ولم يخف على المندوب السامي دقة الموقف وخطورته، وجاءني العون الكريم من (گولد سمث) في السليمانية ومن بورديللون من دار المندوب السامي. على أن الكلمة النهائية حول تحريك المشاة

(1) مع أن مراسلاتي كانت معنونة إلى الضابط السياسي في السليمانية حسب تسلسل المراجع إلا أنها كانت تكرر رأساً إلى المندوب السامي الذي يتصرف بها كما لو كانت موجهة إليه بالأصل.

أو القيام بقصف جوي كانت رهناً بأمر القيادة العامة وهو من أصعب الأمور. وأخيراً وافق القائد العام على قصف رواندوز. لكنه ظل مصراً على رفضه إرسال قوات أرضية، أو حتى المصادقة على إجراء تحليق جوي فوق المخيمات. وتم القصف في 10، 11، بقوة كبيرة جداً (كما عدت في حينه) تتألف من سربين. مع جهل تام بالأثر المحدود للسلاح الجوي في الأراضي الجبلية. (لم تكن في ذلك العهد أجهزة تهديف وقذف وإن وجدت فلم يعمم استعمالها في أسراب القوة الجوية في العراق). ولما كنت قد وضعت آمالاً كبيرة في هذه العملية فقد أدركتني خيبة أمل شديدة عند ورود التقارير الأولى عن النتائج: معظم القنابل سقط في الخلاء على سفح جبل، ولم تشتعل أية حرائق، وقد لحق بجدران أربعة منازل تلف وجرح جندي تركي واحد.

وواصلت اتخاذ مثل هذا التدبير الواقي كما وضح لي محلياً، في حين بقيت أرجو بغداد إزاء ترددها - بأن تنظر إلى الموقف بمنظار أكثر جدية. ويمكن استخلاص ذلك من بعض ردودي.

«برقية: (16 تموز) آسف جداً لقراركم عدم إرسال الطائرات، لو لم أشعر بضرورتها الشديدة، لما طلبت ذلك. إني أجمع (له شگر) من القبائل لكني غير واثق من إمكاني الحيلولة دون انفجار الوضع دون مظهر من مظاهر الإسناد الحكومي القوي، إن لم تحلق الطائرات فوق (ساوان - گرماوان) (وهي مخيمات بشدر الصيفية على الحدود) فإن تحليقات فوق السهل قد لا تخلو من فائدة. لا يخشى من أن تتوهم القبائل بأنها طائرات تركية».

«برقية: (17 تموز) أعرض لكم باحترام أنه ليس من الحكمة في شيء اعتبار القلاقل الحالية في رانيه، حركة جانبية لا علاقة لها.. لقد وصل (أوزدمير) بمهمة واضحة وهي تنظيم (انتفاضة وطنية) ذات طابع عشائري. ويتوقف مدى نجاحه مطلقاً على الحزم الذي ستؤخذ به انتفاضته إن أضعف نقطة عندنا هي... بشدر، ومن توصل فيها إلى قرار ما عاد يحتاج إلى إغراء أو إقناع. وقلقي كله كان مركزاً

حول منع هذه النقطة الضعيفة عندنا من التهافت والانهيار وتدفق الطوفان من ثغرتها. ما أن تحصل أول كسرة في السد، فليس من يستطيع التكهن بالحد الذي سيبلغه اتساعها... يسرني أن أعرف هل تنوي السلطات العليا اتخاذ كل الخطوات الضرورية لإحباط مهمة أوزدمير؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فإن خير طريقة تستخدم هي إضعاف روح العشائر المعنوية، باستعراض قوى كافية، قبل أن ينتهي ترددها وتشعل النار في مراكبها وتنظم إلى الترك».

وشرحتُ برقيتي بمذكرة في اليوم نفسه، قلت:

مذكرة - 17 تموز:

الموقف السياسي ما زال غامضاً، ويتعذر التكهن بتطوراته المقبلة.. وعلى أي حال فالأمر الذي لا يمكن الصبر عنه أن يظل الفريق المعادي من پشدر سادرا في غلوائه وفي موقف يخلق لنا هذا وهو بمأمن من العقبات إني أوصي باتخاذ قرار فوري، بإرسال رتل تأديبي ضدهم ومن الضروري أن لا يكون أقل من ذلك الرتل الذي كان يعمل على طول حدود (حلبچه) وإن لم يذعنوا، فقد يكون أيلول خير شهر للعمليات. لكننا قد نضطر إلى تأديبهم قبل هذا الموعد.

وطلب مني مقترحات أكثر تفصيلاً فأجبته بالآتي:

برقية - 19 تموز: أقترح تجريد حملة لا تقل عن (600) بندقية، أو أكثر إن أمكن، مع إسناد من الرشاشات. وللحيلولة دون قيام أية مقاومة في القرى أفضل استعمال المدافع. ثم نتقدم إلى پشدر. فإن قاوموا فبإمكاننا أن نؤدبهم تأديباً قاسياً وإن ظلوا مستحكمين وراء الحدود فنسدور على قراهم ونصادر أموال الأغوات المنقولة. إن أنصار بابكر آغا سيتعاونون معنا. تأثير العقاب على الزعماء سيكون كبيراً عند القبائل الأخرى. وإذا تمكنا من تأخير اندلاع الفتنة قبل انضمام العناصر الأخرى فستكون عمليتنا العسكرية بسيطة نسبياً.. إن أعمال الفوضى يذر قرنها، لقد دخلت عصابة (مه ر گه) بأوضح نية وهي قتل المدير، وإني أحاول تطويقها واعتقال أفرادها.

كل ما ظفرت به من جواب على توصياتي وتحذيراتي، هو إرسال فصيل واحد من الليفي إلى (ده ربه ند) وإعادة قصف رواندوز مرة أو مرتين بدون أثر يذكر. وعجزت عن إقناع القيادة العامة بقصف (ساوان) الإيرانية التي تبعد سبعة أميال عن الحدود حيث كان وفد تركي يعقد اجتماعاً مع زعماء القبائل على الحدود.

وفي 23 تموز بينما كان العقيد (ي.س.ت. مينيت E.C.T. Minet) قائد قوات الليفي في السليمانية يعقب قتلة (بوند وماكانت) تسلم تقريراً، سبق أوانه بحوالي عشرة أيام كما ظهر فيما بعد، جاء فيه أن (كريمي فتاح بك) قد عبر الزاب قرب دوكان وهو يتقدم من رواندوز فعقبه بسرعة خاطفة بكل قوته وبلغ (ده ربه ند) في 27 منه، هذا التطور أحدث عاملين جديدين مهمين في كل الموقف. إن تعزيز قوة أوزدمير بأكثر من مائة من أصلب مقاتلي كردستان بقيادة زعيم مقدام مشهور سيكون إن صح، نجدة ثمينة لقوات هذا المغامر التركي، قد تزيد من فرص إثارته تمرداً قبلياً. كذلك فإن وصول رتل (مينيت) يؤمن استعراض القوة الذي طالما ألححت فيه. وقد يتمكن في الوقت المناسب وبعد تعزيزات قليلة أن يضطلع بعملية التأديب الضرورية. وفي ذلك الوقت أيضاً تسلمت جواباً من (سيد طه) رداً على رسالة كنت قد نصحت بإرسالها إليه حال نقلي من حلبچة إلى رانية (انظر الفصل الثاني عشر) وفيها يخبرني أنه سيقابلني في مضارب (بابكر آغا) في 10 آب.

جاءني (مينيت) مفعماً بروح القتال العالية، كان قبل الحرب العظمى مزارعاً من مزارعي المستعمرات. وبعد استشارة (بابكر) أرسلنا رأياً مزدوجاً إلى رئيسنا نوصي بوجوب تحرك الرتل حالاً إلى قلعة دزه. والهدف هو إرهاب الزعماء المعادين والسيطرة على الموقف بنشاط دبلوماسي مشفوع بحركات جوية محدودة، وبهذا نتجنب العمليات البرية إلى أن تتم مقابلتي مع (سيد طه) ثم نشرع بالعمليات بقدوم الخريف عندما تعود پشدر بأغنامها وماشيتها من الجبال وتكون أسهل منالاً من قواتنا. وأشرنا بأننا قد نكون مضطرين من حيث المبدأ إلى طلب

الموافقة على عملية التأديب بالشكل الذي رسمته في برقياتي الماضية. مع الإيضاح بأننا سنحاول جهدنا اجتناب ذلك.

تمت الموافقة على الحركة إلى قلعة دزه، ورفض باقي خطتنا. ودخلنا البلدة في 29 تموز، وفي اليوم نفسه وردت إليّ معلومات موثوقة بأن سبعين جندياً مع رشاشات وقافلة من العتاد قد خرجت من رواندوز على طريق (شاوور وناوده شت) وأنها نجحت في قصف (ساوان وكانى ره ش) اللتين تبعدان زهاء (3000) يرد عن الحدود، حيث يوجد مخيم لضابطين تركيين! فأبرقت (دون جدوى) ما يلي:

أعرض لكم أن الحدود الإيرانية في هذه المنطقة هي خط وهمي لأن (كانى ره ش) هو المضارب الصيفية المقررة دولياً لپشدر القاطنين على جهتي الحدود، وليس فيه رعايا إيرانيون أو قرى دائمة. كذلك لا يوجد أي أثر للسلطات الإيرانية على مسافة سبعين ميلاً والموقع هو بؤرة للنشاط المعادي لحكومتنا..

كان التأثير المباشر لتحركنا إلى قلعة دزة طبق ما توقعنا. فأرسلت ما يلي:

برقية: 4 آب. إن وصول رتل (مينيت) قد أحدث أثره المهدئ في كل القضاء. إن الخطط التركية لهجوم من ناوده شت وشاوور التي كادت تتبلور على ما يبدو، قد تباطأت الآن. ويجب أن يعزى إلى هذا، التأخير الذي وقع في (رايات) لجماعة كانت سترسل إلى (ساوان)... لما كان الپشدر قد أعلنوا صراحة أن نيتهم الانتفاض على الحكومة فلا أرى بقاء شك في ضرورة تأديبهم. والخريف على كل حال هو أفضل وقت لذلك، وعليه تم الاتفاق بيني وبين (بابكر آغا) وآمر الرتل بأن يقوم الأول بالإجابة على اتصالات القسم المعادي، والاستفادة من الجنوب لمحاولة فرض بعض التدابير المؤقتة عليهم وبذلك يمكن اجتناب عملية عسكرية آنية.

برقية: 6 آب. عاد (بابكر آغا) إلى قلعة دزه أمس وأبلغني أن الفريق المعادي قد قبل شروطه، ووافق على طرد الضابطين التركيين من (كاني ره ش) (ظهر أنهما صديقان قديمان لي هما عرفان وحسن) وأن يبتعدوا على النشاط التركي المركز في

رواندوز. ولقد أفلح في إقناعهم أن مستقبل الإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية لا يتوقف على النزاع الداخلي بين البشدر وإن كانوا قرروا أن يظلوا مخلصين لتركيا كما يزعمون فبإمكانهم تقديم الدليل على هذا إذا احتل الترك بغداد. أو عندما يحتلونها. وبابكر يعتقد أنهم سيقيمون على هذه المصالحة العائلية بضعة أسابيع. إلا إذا ظهرت بوادر غير متوقعة في مناطق أخرى. إن هذا الاتفاق لم يَسمُ بعد إلى عملية استعراض القوة في مؤخرتهم. لقد تجنبت إقحام نفسي مباشرة في المفاوضات لئلا يؤخذ شيء مما أقوله أو أعمله دليلاً على أن الحكومة صفحت وأغضت عن جريمتهم.

وفي 8 آب، قبل ساعات قليلة من خروجي لمقابلة (سيد طه) وصلتني منه رسالة تشير إلى تعذر حضوره، وتأجيل المقابلة، بسبب وصول دعوة عاجلة له من صديقه (سمكو) الذي كان قد أعلن ثورته التاسعة على الحكومة الإيرانية وكان مهدداً بتحشيد قوات متفوقة عليه.

وفي الوقت نفسه هاجمتنا موجة من الحر لا تطاق كما تفشى وباء الملاريا الخبيث وسقط أربعة أخماس جنود (مينيت) طريحي الفراش وتوفي عدد منهم بضمنهم ضابط بريطاني. فقرر (مينيت) العودة إلى السليمانية لسد النقص ومعالجة الجنود المرضى تاركاً وحدة تتألف من مائة بندقية وأربع رشاشات في (ده ربه ند) وكان واثقاً من العودة بقوة مناسبة خلال يومين من صدور الأمر إليه وكان قراره هذا مما لا يجادل فيه ولم يعد لي سوى الأمل باستمرار الهدوء المؤقت لكن هذا الأمل قضى عليه بوصول (كريمي فتاح) إلى رواندوز من الهماواند (كان النبأ صحيحاً هذه المرة) وفي 14 آب اتضح لنا أن الحالة أشبه بما كانت قبل مجيء (مينيت) وأن الأزمة ما زالت تطبق على خناقنا. وأوضحت مع (لاين) أن الموقف يتطور بسرعة إلى التعقيد مما يتطلب من الضابط السياسي أن يلح على المندوب السامي بإجراء عمليات جوية. مما وضع الأمر في يد القيادة العامة. فأرسلت تعليمات إلى أسراب الموصل وكركوك. وطلبت أن يُعطى قادة الأسراب الحرية في

قصف الأهداف التي نقوم نحن بتوجيههم إليها مباشرة وكذلك طلبت إرسال جهاز لاسلكي لي وقد تبادلت البرقيات التالية في 16 منه:

من معاون الضابط السياسي إلى الضابط السياسي والمندوب السامي: 16 آب. وزِّعت رسائل (أوزدمير) على كل رؤساء (ناوده شت) يناشدهم فيها الانضمام إلى القوة المغيرة. في صباح هذا اليوم أبلغت بوجود أربعين تركياً مع مدفعين رشاشين ومائة وخمسين من رجال القبائل في (ليوزه). أطلب حركة رتل مينيت (مينكول[1] Mincol) إلى هنا بأسرع ما يمكن وأن يخول طيران كركوك بالقصف عند أول الطلب.

التاريخ نفسه: وصلتني تأكيدات عن وجود الترك في (يه نديزه وله ويژ) كثير من رجال القبائل قد انضم إليهم، اقصفوا حالاً رجاء، وعند الضرورة بمقدوري أن أزودكم براصد كردي، الريح تعرقل الهبوط.

«من الضابط السياسي إلى معاون الضابط السياسي: لما كان كل الليفي في حالة إنهاك فلا تطلبهم إلا كحل أخير. وحينئذ قد يمكن إرسال أربعة مدافع رشاشة ومائتي بندقية. لا شك أن قصفنا (في ناوده شت) قد يكفي لمنع الحركة من الاتساع».

«معاون الضابط السياسي إلى الضابط السياسي: الآن وبعد شهرين من الاستعداد تحرك الترك أخيراً، من التسرع، الافتراض بأن الهجوم على (ناوده شت) هو عمل منفرد. ويجب علينا أن نتوقع حالاً غزوة في نقاط أخرى. من الضروري أن ترسلوا إلينا كل رجل متيسر بلا تأخير يجب أن نبقى في رانية و(ده ر به ند) وأن يبقى بابكر في قلعة دزه. إن آمر الحامية هنا لا يرى من الحكمة تجزئة قوته الصغيرة».

واستمر تبادل البرقيات في السابع عشر منه:

---

(1) هذه الأحرف الأولى من عبارة Minet Column وتعني بالضبط رتل مينيت. (المترجم).

«من المندوب السامي إلى معاون الضابط السياسي، القيادة العامة: لا نوافق على طلبكم جهاز اللاسلكي، ولا على عمل جوي بالاتفاق مع كركوك، ولا على تحريك الليڤي».

«معاون الضابط السياسي إلى الضابط السياسي، المندوب السامي القائد العام: مضت ثمان وأربعون ساعة على إغارة الترك على (ناوده شت) إن سكوتنا وعدم إبداء أية إشارة تعبر عن استنكارنا هذا، أحدث تأثيراً سيئاً في القضاء كله.. ثبت أن الترك بقوة (لشگه ر) تبلغ أربعمائة مقاتل على ما قيل، قد دخلوا يوم أمس قرية (شاوور) من مضيق (ناوكيوان) وهم يزحفون إلى رانيه، حيث يوجد عندي قوة صغيرة من (اللشگه ر) لا يمكن الاعتماد عليهم قط. ضروري جداً أن يسحقوا قبل وصولهم رانيه، ستبقى وحدة الليڤي في (دربند) لمراقبة الجبهتين. وعليكم في هذه الأثناء أن تقصفوا بشدة واستمرار كلاً من (ناوده شت وشاوور) إلى أن تصل القوات البرية، إذا أردتم أن تحتفظوا بالقضاء.. سأقطع خط البرق على الأغلب قبيل الفجر ولا سبيل إلاّ أن أترك لكم اتخاذ كل الإجراءات الضرورية دون أنباء أو شرح مني».

وفي ساعة متأخرة من الليل وصلتني برقية تعلمني أن القيادة العامة قد أمرت بحشد قوة أطلق عليها اسم (رانيكول - رتل رانيه) على أن يتألف من سريتي مشاة وفصيل رشاش واحد من كتيبة السيخ الخامسة عشرة. وحظيرة وبطارية واحدة من مدفعية (امبالا) الجبلية، ورعيلين من خيالة الليڤي. وما بقي من فوج ليڤي السليمانية الرابع مع المائة بندقية وفصيل الرشاش الأثوري من الفوج نفسه الموجود الآن في (ده ربه ند) وطلب مني شراء أرزاق وتجهيزات معينة ولا سيما عدد كبير من ذكور العنز وهو اللحم الوحيد المحلل شرعاً للسيخ على ما أظن. لكن تحشيد أصغر قوة نظامية وإعدادها للمعركة رأساً وبدون اتخاذ خطوات إنذارية سابقة، يتطلب وقتاً ولذلك مرت أيام دون أن يظهر أثر (للرانيكول) وفي (ناوده شت) التحم (بهلول آغا) المخلص الكبير السن بالعدو، غير هياب، بعد أن قصفته

القوة الجوية البريطانية خطأ وكبدته عدة ضحايا من بينها ابنه الثالث الذي أصيب بعاهة مستديمة. وقطع عليه خط الرجعة عند (قنديل) ولم ينقذ نفسه إلا بمروقه إلى الأراضي الإيرانية بعد لأي ونجدة جاءته من (لشگه ر) صغير يقوده (بابكر آغا) وفي 21 آب قامت قوة معادية باحتلال (مه ركه) أهم مركز تجاري محلي وأسرت مديرها. وكان قد مر على (اللشگه ر) الذي جمعته من رجال (البلباس وآكو) في رانية زمن طويل بحيث ما عاد بالإمكان الاعتماد عليهم. وخرجت (چنداك) عن سيطرتنا وفي قلعة دزة كانت سطوة (بابكر آغا) تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال حتى ذكور العنز فقد كان ينبغي إبقاؤها بعيداً عن (ده ربه ند) بمسافة نصف ميل لأن المراعي القريبة مصوحة تقريباً، وأن يوضع عليها حرس خشية تفرقها. صحيح أن القوة الجوية بطائراتها القليلة قامت بأعمال مجيدة فوق بلاد وعرة جداً، لكن الوقت غدا متأخراً جداً لإيقاف مد الثورة بعمليات جوية فقط.

أخيراً طار العقيد (هـ) آمر رتل رانيه (رانيكول) لمقابلتي في 17 آب. وقد تخلف لديّ انطباع عنه بأنه أوصى أن يكون على حذر من توصيات معاون الضابط السياسي المتهورة التي سيطرحها أمامه. على أنه اقتنع بأنه لا يجمل به الانتظار حتى يكمل تجميع القوة كلها في (كوي) كما كانت نيته. وفي 29 منه، وصل (ده ربه ند) مقر الرتل، وسرية من السيخ والبطارية الجبلية ورعيل الخيالة الليڤي. وبعد ترك سرية من مشاة الليڤي ورعيل من فرسانها بقيادة النقيب (هـ. ى. ل أور يونيگك (H.E.L. Orr-Ewing) للدفاع عن رانيه. ووضعت بنايات دائرتي تحت تصرف العقيد (هـ) وأصبحت بنگلتي مطعماً للضباط وسطحها مناماً لهم، وهكذا تنفست الصعداء. لقد أوقف (أوزدمير) لأكثر من شهرين بالخداع والحيلة وبأفانين من الدبلوماسية القبلية المعقدة. وفي آخر لحظة عندما استنفد كل هذه الحيل والوسائل، أقبل الجيش لتصفية الحساب وأصبح كل شيء على ما يرام ورفضت القيادة العامة اقتراح تقدم جديد إلى مكامن الپشدر وأبلغت (بابكر) بأن دوره من الآن سيكون الاحتفاظ بقلعة (دزه) وبأكبر ما يمكن من مساحة قضائه (لم يشاهد

بابكر في مخيمه الصيفي إلا قليلاً منذ حزيران وكان قد تعود المجيء بنفسه إلى (ده ربه ند) كلما بدت الخطط ناضجة للهجوم). وحانت فرصتي بعلة مجيء الجيش فسمحت رسمياً بحل (لشگه ر) رانيه.

قبيل أن ينبلج فجر الحادي والثلاثين بساعة أو نحوها هببنا من رقدتنا على دوي رصاصة بندقية تلتها أخرى وأخرى وفيما نحن نسرع بارتداء ثيابنا علمنا أن ربيئة تتألف من اثني عشر جندياً من كتيبة السيخ الخامسة عشرة تعرضت إلى هجوم وكانت معسكرة فوق أول كتلة صخرية عالية من (ثاسوس) إلى الطرف الأقصى من النهر. ثم أصبحت النار كثيفة شديدة، ولم يمر طويل زمن حتى تناهت انفلاقات القنابل اليدوية على مسافة غير بعيدة من المدافعين ثم حل سكون فجأة ثم بدأت تظهر أشكال رجال تتحرك في خط السماء الحالي على نور الفجر الباهت: تسعة، ثم عشرة، ثم أحد عشر ثم اثنا عشر ثم ثلاثة عشر ثم أربعة عشر. إذن فهذه هي! وبدأ الرصاص يئز مارقاً من آذاننا وعندما اندفعنا إلى خط البغال ظهر لنا أن صنف النقلية قد تكبد أول الضحايا، وكانت بنگلتي معرضة للنار بحيث لا يرجى منها نفع، فأخليت. أما بنايات الدائرة فكانت صالحة للسير إلا أنها غير كافية لإيواء الخيل والبغال. واستطاع جنديان من السيخ عبور النهر إلينا. ليبلغانا أن رفاقهم العشرة قد صرعوا ورغم قصف الطائرات ونار البطاريات الجبلية ظلت النار مستمرة من الجرف المقابل طول اليوم. ولم تتيسر أية حماية للجماعة التي أرسلت إلى النهر لجلب الماء. وكان العقيد (هـ) قد قدر في ساعات النهار الأولى أن ضعف قوته لا يسمح له بمحاولة استعادة موقع الربيئة، وأرسل يطلب خروج (أور يوينگ) من رانيه لنجدة ده ربه ند. لكنه أصدر أمراً في عصر ذلك اليوم إلى رتله بإخلاء (ده ربه ند) عند الغروب والانسحاب إلى رانية ملغياً أمر خروج (اور يوينگ) إلا أن هذا الضابط كان قد نفذ الأمر الصباحي وخرج من رانيه فاحتلتها القوات المعادية التي أقبلت عن طريق (شاوور). فلذلك توقف في قرية (بوسكين) الواقعة إلى الجنوب الشرقي على مسافة ميلين تقريباً من رانية، حيث كان تل أثري كبير وماء غزير. بعد أن دخل العدو رانية قرر العقيد (هـ) الانسحاب إلى (كوي).

عند الغروب انقطعت نار العدو وانتظم الرتل استعداداً لإخلاء (ده ربه ند) فعجلت إلى مسكني وحزمت فراشاً بقدر حمل بغل وبعض الحاجات الثمينة منها يومياتي لسنتين وستة أشهر تقريباً ابتداء من نيسان 1920 مع حسابات رسمية ورزم من الأوراق المالية تبلغ عدة آلاف من الروبيات، كذلك قمت باتخاذ تدابير وقائية لموظفيّ المدنيين، وشرطتي السعاة الذي لا يرتدون بزات رسمية وإنما يضعون عصابات كتف مميزة. فأعطوا موضعاً في وسط الرتل خلف حيوانات النقل مباشرة وفيما نحن نوشك أن نبدأ السير أقبل جلال أفندي ليبلغني أن ضابطاً بريطانياً شديد الحذر مفرط الدقة قد أزاح هؤلاء «الكرد الذين لا خير فيهم» عن المواضع المخصصة لهم فعالجت الأمر مع ضابط ركن الرتل وأعدتهم بعد إيضاح أشخاصهم لأقرب ضابط وحدة إليهم وجعلت نفسي من حرس المؤخرة إلا أن جوادي (سمكو) الذي كان يمد في سيره ويجرني جراً سرعان ما بلغ بي إلى وسط الرتل، وتمكنت من الاطمئنان على بقاء جماعتي حيث هم. ثم ما لبث أن قذف بي إلى حرس المقدمة، وعندما بلغت رأس الرتل ألويت عنانه لأكون في محل قريب من جماعتي المدنيين. وفيما كنت أجتاز بطارية المدفعية والنقليات، إذ بأربع أو خمس إطلاقات نارية تصدر من قرية (كوره گو) عن يميننا التي تبعد حوالى ميلين عن (ده ربه ند).

وعندما عبرت الإطلاقات دار كل الرتل أو بالأحرى ذلك الجزء الذي تشاهده عيني دورة بزاوية قدرها (225) درجة ثم شكل خط هجوم وتقدم نحو بركة صغيرة كبريتية تعرف باسم (گه ناو أو الماء الكريه) تقع عن يسارنا وما زلت أذكر ما حدث كأنه حدث أمس: سيقان رفيعة لكناس هندي ضئيل الجرم يعدو كأرنب ممسكاً بالفانوس الذي عهد به إليه. ووجه الغرابة أن يفكر المرء في هذه المناسبات بأشياء سخيفة قد تخرج من فم أحدهم. وربما بسبب ترويض نفسي على مبدأ الحذر من تدخل الضباط السياسيين في أي تفاصيل ذات طابع عسكري، أذكر أني ناديت ضابط المدفعية قائلاً (بشيء من البرود):

- أتريدني أن أعاونك في إيقاف هؤلاء الجنود؟

فرد عليّ بالإيجاب. وهنا سنحت (لسمكو) فرصة الحياة لدقيقة أو اثنتين إلا أن كل مجهوداتنا لم تثمر، ولن أنسى قط شعور الخيبة والاستيحاش المطلق الذي غشيني حين وجدتني واقفاً بمفردي في ضوء القمر الفضي. كل قوة (الرانيكول)، أولئك الجنود الذي وضعت فيهم هذه الثقة العظيمة قد ابتلعتهم أحشاء الليل على قدر ما أرى[1] وإلى الأبد. بعد دقائق قليلة أقبل آمر الرتل يصحبه النقيب (س. فوسديك S. Fosdick) من فرسان الليفي مع اثنين أو ثلاثة من المشاة الهنود (السپوى) وكان أحدهما البوقي فأمر بنفخ نداء التجمع والتحق حرس المقدمة الليفي، وسرية الشيخ بنظام لا بأس به من جهة اليمين ثم اقتربت جماعة من جهة اليسار فلولاً مبعثرة من المدفعية وجنود النقليات والمدنيين، ولم يصدر من قرية (كوره كو) نار بعد الرشقة الأولى، وبعد صعوبة أعيد تنظيم الرتل وسرنا نحو (بوسكين) حيث وجدنا (أور وينگك) مخندقاً بصورة مريحة. وفي اتجاه (ده ربه ند) كان بإمكاننا مشاهدة لهيب ساطع يصعد إلى عنان السماء ولم يكن لدى الجنود من الطعام ما يأكلونه خلال اليوم (بالطبع اختفى العنز ورعاته لحظة أن بدأ إطلاق النار) وصدرت الأوامر بأن يزود كل الأصناف بوجبة طعام مطبوخ صباح اليوم التالي وهو الأول من أيلول قبل استئناف السير. إن الطهو كان يستغرق وقتاً فأمر الرتل بالحركة حوالي العاشرة قبل أن يتناول الجنود طعامهم أو على الأقل جنود الليفي الذين اخترت رفقتهم. فسرنا قبل أن تدركنا الطائرات لتغطية انسحابنا وفي الوقت الذي أقبل العدو يحوم حولنا مرة أخرى وكان قد تفرق في مختلف القرى لقضاء ليلة أمس. وفي هذه المرة رافقت النفيضة التي أخرجها الليفي. وفيما

---

(1) علمت فيما بعد أن مطلقي النار كانوا ثمانية من رجال (سه لا نه) دخلوا القرية للمبيت بعد أن هجرها سكانها (الرامك) فبوغتوا بسماع وقع أقدام الجنود وبعد شيء من التردد قرروا إطلاق صلية من الرصاص واحدة باتجاه الصوت قبل أن يفكروا فيما يعملون، ولم يكونوا لهم فكرة عن النتائج التي تمخض بها عملهم هذا.

نحن ننظم صفوفنا على بعد مائة ياردة من القرية، وقبل سير الرتل بعشر دقائق أصلينا بنار كثيفة من ثلاث جهات. ثلة من شرطة رانيه وبعض الموظفين الكرد وأفراد نقليات مختلطة خرجوا على ظهور الخيل من (پوسكين) واقتحموا صفوف حرس المقدمة متجهين إلى تل (ده ربه ند) الكبير وجرف المشاة الليڤي وهم يقومون بمحاولة إبقائهم في المقدمة وفشلت كل المجهودات التي بذلت لموقف النقليات التي أصبحت الآن خليطاً من الليڤي والآثوريين (كان عدد كبير من البغال دون سائقين) وكلما كان النقيب (كريفيت Griffith) قائد حرس المقدمة يحاول إيقاف المشاة أو يعيد تنظيم صفوفهم إلى حد ما يصطدم بالنقليات التي تهاجم تلك الصفوف أو تقف فيما بينهم وفي كل هذا لم أجد حالة خوف فردية واحدة بين المحاربين الليڤي، وأرسلت كوكبة من فرسانهم إلى الأمام إلى المجنبة اليسرى فاختفت وكانت بقيادة كردي مشبوه هرب فيما بعد إلى صفوف الترك[1].

كنا طوال هذا الوقت معرضي الجناحين إلى نار مستمرة كثيفة. وتقدمت أعداد من العدو وقد شجعها المنظر المضطرب حتى أصبحت على مسافة قصيرة بحيث إن السيخ تمكنوا من مهاجمتهم بالحراب فأوقعوا بهم شيئاً من الخسائر، بشكل لا يتفق وذوق القبائل مطلقاً. وقد نالوا أوسمة شجاعة استأهلوها حقاً.

على مسافة زهاء ميلين من رانية يمر أفضل طريق إليها فوق رأس حرف قليل الارتفاع وهو آخر نتوء متطامن من الدار الجنوبي الغربي لجبل (شاوور) الذي يندفع داخل بتوين شرق (به ستى ئه ستريلان). ولم تُعجِب آمر الرتل هذه العقبة فأصر على أن يسلك طريقاً أكثر انحرافاً إلى الجنوب عبر الأرض السهلة وهو واثق أن في إمكانه العثور على طريق يدور حول حقول الرز التي ترويها أقنية رانية. ولما خرج الرتل عن السيطرة اللازمة لتنفيذ أي أمر بالوقوف ريثما يتم استطلاع الطريق،

(1) هذه العبارة تكاد تكون منقولة نصاً عن تقرير كتبته بعد الحادث مباشرة بناء على طلب من مقر القيادة العامة حول سلوك جنود الليڤي.

فقد توجه بقضه وقضيضه إلى حزام من الأرض واسع تغمره المياه فغاص فيه ولصق. وظلت نار العدو كثيفة، وفي هذا المكان بالذات فقدنا كل المدافع والأثقال بلا استثناء (بضمنها أوراق الخزينة المالية وحمل بغلي الثمين) تلك كانت ورطتنا عندما سمعنا أزيز الطائرات العذب. تبعه على الأثر صليات مدفعها الرشاشة وهي تقوم بعملها بدقة على ما أعتقد وفي الساعة التي أعطيت لها في اليوم السابق قبل وقوع التغيير في المواعيد صباحاً، مما نجم عنه هذه الكارثة. وبدأ أزيز الرصاص يتلاشى من جهة العدو بالتدريج بينما راحت بقية الرتل تخرج من الجهة القصوى من حقول الرز وأعيد النظام ثم تحرك الرتل، وبلغ موضعاً يدعى (بوريش) دون أن يتعرض له العدو ومن (بوريش) سرت إلى (سه رخوما) بحرس قليل وهي قرية (سوار آغا) لأجس نبض الپيران. وكانت سيطرته مطلقة على قبيلته، حال بعد نظره دون الدخول في المعركة إذ لم يكن يطيب له أن يصير لپشدر مطية أو يحرق يده لإخراج كستنائهم من النار! هذا فضلاً عن وجود جنود (كوي) القريبة الذين لم يدخلوا المعركة وهي سرية (السيخ) من الفوج الخامس عشر ورعيل من خيالة الليڤي وصلوا متأخرين فلم يستطيعوا اللحاق بالرانيكول في (ده ربه ند) وعلى كل حال فقد خدمنا بعد نظره وكان يقلقني التفكير فيما كان سيحدث لو أن الپيران استعدوا لمقابلتنا في غرب الحمأة التي خضناها.

وبعد ارتياحي من المقابلة التي أجريتها عدت إلى (بوريش) محاولاً اختلاس ساعتين من النوم قبل أن يحين الأجل المضروب لاستئناف مسيرة الرتل، وعندما نزعت خوذة الفلين وجدت ثقبين صغيرين دقيقين من الطرف الأيمن وعلى استقامة واحدة بينهما وبين رأسي ربع إنش. وهنا تذكرت أني شعرت بين (بوسكين) والمستنقع بهزة خفيفة دفعت خوذتي فوق عيني اليسرى دفعة طفيفة ومن محاسن الصدف أني قادر على النوم ليلاً وبصرف النظر عن تعب اليوم دون أن أرق. لكني استيقظت مرة متوهماً أني أسمع صليات من المدافع الرشاشة (پوپ، پوپ، پوپ) فإذا به شخير أسيرنا الأوحد جندي تركي ببزته الرسمية.

امتطينا خيلنا في منتصف الليل تقريباً، وخير ما أذكر عن هذا السري في ضوء القمر الساطع ونحن نتقدم من كوي، سلوك (سمكو) المحبب فقد كان يحاول باستمرار وهو يصهل، مقاتلة كل حصان، وأن يشب على كل مهرة يصل إليها، ورحنا نتلمس طريقنا منحدرين في ممر ضيق من قمة هيبة سلطان نحو البلدة. وفي ظهر اليوم التالي وصلت أوامر تقضي بانسحاب (السيخ) حالاً إلى أربيل، وبعودة الليڤي إلى كركوك. وبدا الأمر وهو أشبه بالهزيمة السيئة الأثر وزادت من تهديد مكانة البريطانيين. رافقت الليڤي حتى بلغنا (طقطق) في تلك الليلة وعبرنا نهر الزاب خوضاً قبيل الفجر وأقلنا في (رى ده ر) مركز ناحية (شوان) من حر اليوم، ثم استأنفنا السير طوال الليلة التالية حتى بلغنا كركوك في صبيحة الرابع من أيلول قاطعين المسافة كلها في ضوء القمر النيّر وتخللت تلك المسيرة استراحة أمدها ثلاث ساعات. وهنا أعلمنا أن كل البريطانيين والهنود قد نقلوا جواً من السليمانية يوم أمس وأن (گولد سمث) وضباطه قد عادوا إلى بغداد. هذه الحادثة أثارت اهتمامنا في إنكلترا! أكثر من الدواعي إليها. لأنها حسب اعتقادي أجرأ عملية نقل جوي من نوعها حصلت في تأريخ الطيران. وقد تكرمت عليها مجلة أخبار لندن المصورة بصحيفتين كبيرتين مزدحمتين بالصور اللطيفة.

قام (گولد سمث) قبل مغادرة السليمانية بتسليم كل محتويات الخزينة ومسؤولية الإدارة (وبضمنها قيادة وحدات الليڤي الباقية في المدينة) إلى المجلس البلدي المنتخب الذي كان يشارك معه في الإدارة وفقاً لمواد تصريح المندوب السامي في 6 أيار 1921، وهؤلاء بدورهم اختاروا من بينهم (قادر) أخ الشيخ محمود رئيساً. وكان قد سمح له بالعودة إلى السليمانية قبل بضعة أيام. وقد جيء بالشيخ محمود من الهند وأسكن الكويت. والاستنتاج المنطقي لإمارات التهدئة إزاء الشيوخ، وعدم مجيء السيد طه إلى مقابلتي حسب الموعد الذي ضربته له في العاشر من آب هو القرار المتخذ بإعادة الشيخ محمود إلى السليمانية ليخلف

أخاه بالطبع في رئاسة مجلس إدارة السليمانية وبمقابل هذا يتعهد أن يمنع الترك من دخول المدينة وأن يتولى طردهم من أجزاء كردستان الأخرى وقبل أيضاً الشرط الذي فرض عليه وهو ألا يتدخل في شؤون كركوك وأربيل، ورسم أن يرافقه (نويل) مستشاراً له وممثلاً للمندوب السامي.

بعد شهر أو ستة أسابيع عن خروجي من (ده ربه ند) عرضت عليّ في آن واحد وظيفتان، الأولى من المندوب السامي وهو منصب مدير لشؤون الضرائب في العراق. والثانية عرضها الوزير البريطاني في طهران فقد أرسل جواباً على استفسارات السير (پرسي كوكس) في نيسان بعد كثير من التأخير. وقد جاء فيها أنه مخول بأن يعرض عليّ وكالة القنصلية في شيراز مع وعد بتثبيتي قنصلاً حالما تسمح أنظمة الخدمة بذلك. فرفضت كلا العرضين، وأعتقد أن السبب في رفضي ثورة اعتملت برأسي وشوق لأرقب عن كثب نهاية الاضطرابات في رانيه على أني حاججت نفسي لإقناعها بما يلي بالنسبة إلى العرض. فالضرائب ليس ميدان اختصاصي وأن طينتي لم تجبل للعمل في مديرية مركزية. وأما بالنسبة إلى العرض الثاني فقد كانت ندرة الترفيعات المزعجة في خدمة قنصليات الشرق تجعلني أنتظر إلى ما شاء الله حين يتحقق تثبيتي قنصلاً. وعلى أي حال فإن عملية الانسحاب أثارت مرة أخرى موضوع مستقبلي بشكل لا يحتمل التأخير. إن تقسيم الدائرة السياسية القديمة قد بت فيه وجرى التوزيع بين دار المندوب السامي ووزارة الخارجية وجرى تثبيت ملاكهما ولم تدخل أسماؤنا نحن الذين كنا معينين في قسم السليمانية، أحد هذين الملاكين. لذلك صرنا بالمصطلح الحديث من صنف الموظفين الفائضين عن الحاجة. إن دائرة المندوب السامي صغيرة لا فسحة فيها. و(كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية الجديد قدم من الخارج ولا يعرف أحداً منا وكان من الطبيعي أن يشك فيصل ووزراؤه في الموظفين الذين استخدموا لتطبيق المشروع الهادف إلى اقتطاع جزء من ولاية الموصل من مملكته الجديدة كما وأن

لبعض زملائنا السابقين مصلحة أكيدة في استبعادنا لئلا تؤثر على فرص ترقيتهم إلى درجات أعلى. ولم يؤخذ رأينا عند توزيع الوظائف لسوء الحظ. وأما عن مسألتي فمع أني لم أذهب إلى كردستان باختياري فإن رفضي لوظيفة الضرائب لم تعزز طلبي وظيفة أخرى في العراق. كما أني لا أتوقع أن ترحب وزارة الخارجية البريطانية بأي عرض أقوم بعد مرور فترة قصيرة على رفضي عرضاً لها فيه إغراء لشخص مندفع مثلي سبق أن تخلى عن دائرة خدمته الأصلية سبع سنوات.

ونظراً للغموض الذي اكتنف الموقف. فقد كان المندوب السامي حكيماً بإبقاء وضع يده على خدماتنا ردحاً من الزمن. وعلى ذلك أنيطت بنا بعض المهام في بغداد وكانت رواتبنا تصرف من عائدات ضرائب السليمانية الشحيحة التي تجبى تحت إشراف دار المندوب السامي. وصادف أن ميجر (س. س. مارشال S.S. Marshall) مستشار قسم كركوك قد ذهب في إجازة. وكان معاونه الأقدم (لاين) مشغولاً جداً في معالجة آثار (رانيكول) في قسمه الخاص (أربيل) فعجز عن تصريف شؤون كركوك. لذلك تقرر بعد فترة قصيرة قضيتها في بغداد أن أسافر إلى كركوك واحتل المنصب على ألا أكون مسؤولاً عن (أربيل). وحدث أن (مارشال) سقط مريضاً وهو عائد من الإجازة ولم يعد إلى وظيفته.

وبتثبيتي بوظيفة مستشار قسم في ملاك وزارة الداخلية نبذت جانباً وبشكل بات مستقبلاً في وزارة الخارجية البريطانية. وقدر لي البقاء بعيداً عنها مدة (23) سنة أخرى، مما جعلها ثلاثين سنة[1] متواصلة. وإني لآسف على ذلك حين أرجع

(1) للمحافظة على درجتي الخاصة وحقوقي التقاعدية. كانت الحكومة العراقية تدفع بدل المساهمة المناسب لخزينة الحكومة البريطانية، وكنت أدفع في الوقت نفسه ضريبة دخل إنكليزية مبنية على تقدير وهمي لراتبي الأصلي على الأساس الذي كان يجب أن أستوفيه لو اشتغلت في وزارة الخارجية فعلاً. وهذا ثمن غال دفعته. كنت أشعر بوطأته كلما اقتربت نهاية الراتب الوهمي وارتفعت نسبة الضريبة. لكن إحساسي بوجود خدمة دائمية تنتظرني دفع إليّ شعوراً بالاستقلال ذي قيمة معنوية كبيرة لي.

بفكري إلى الوراء، وإن تم فيما بعد إدماج فروع وزارة الخارجية الخمسة في وقت مناسب لاستفادة زميل أو اثنين من زملائي. الحق يقال إن مناصبي الرسمية كانت مقصورة على ناحية صغيرة جداً من آسيا لكني كسبت مختلف الخبرات ضمن هذه الحدود الضيقة. والتخصص لا يخلو من متعه ومسراته[1].

---

(1) تطرق السيد علي كمال صديقنا إلى هذا الموضوع في مذكراته التي يقوم الآن على كتابتها. ومما يذكره، وهو يلقي أضواء جديدة على التدخل العسكري التركي، أن السلطات التركية وقع اختيارها عليه أيام كان ضابطاً في الفرقة الثانية بجزيرة ابن عمر وعلى ضابط كردي آخر هو صالح زكي بك. فقد استدعاهما قائد الفرقة أمير اللواء عاكف بك الألباني الذي دمر مدينة الحلة وقتل وسبى أهلها أثناء الحرب العالمية الأولى ليقوم هذان الضابطان الكرديان بالدور الذي قام به (أوزدمير) فيما بعد ويروي السيد علي كمال في مذكراته أيضاً أن هذا القائد وجه الكلام إليهما بقوله: «اخترتكما لتمزجا العقل والحكمة بالشجاعة وتذهبا إلى رواندوز فهناك ثورة عامة في عربستان وكردستان وفي رواندوز بالذات شخص يدعى نوري باويل قائم بالثورة ضد الإنكليز لطردهم من المدينة. وسيساعدكما هناك الضابطان ماجد وقادر عايشة اللذان يشتغلان في جهات كردستان وأريد منكما السفر إلى رواندوز لتحريك العشائر وإشغال جناح الجيش الإنكليزي أثناء تقدمنا نحو الموصل وبغداد» وطلب منهما إعداد قائمة بالوحدات والعتاد والأرزاق والهدايا لرؤساء العشائر كما حذرهما من إعطاء أي وعد لسكان المنطقة بالاستقلال أو بالحكم الذاتي أو ما يجري مجراهما من الوعود السياسية ويستطرد علي كمال في مذكراته أنه خرج مع زميله بعد المقابلة وبعد المداولة أنبأه بعزمه على الهرب من الجيش التركي حال وصوله إلى رواندوز فوافقه زميله. ويتنبأ الكاتب بعد ذلك أن القائد التركي ندم فيما يظهر على اختياره ضابطين كرديين وكلف الكاتب بالذهاب بمعية أمين العمري. وكلف زميله بالذهاب مع أحمد السنوسي الذي كان الأتراك يحاولون الإفادة من نفوذه الديني في الحملة على العراق. ويخبرنا الكاتب أيضاً أنه فر من صفوف الجيش التركي بعدها بسنة واحدة. وعين السنة 1922 ضابط شرطة في كوي وهناك علم بمجيء (أوزدمير) وهو عقيد متقاعد من ولاية حلب مع معاونه رمزي ويتفق الكاتب مع مؤلف كتابنا بأن القصد من إرسال هذين الرجلين فقط إلى العراق ما كان يقصد به إلا إثارة الفتنة أثناء قيام المفاوضات حول مستقبل ولاية الموصل. (المترجم).

الباب الثالث

- 18 -

كركوك

قدمت في الفصل الثاني وصفاً عاماً لطبوغرافية لواء كركوك. هذا وأن الحدود الإدارية له قد طرأت عليها عدة تغييرات سواء في الفترة التي يستغرقها هذا الكتاب أو ما بعدها. ولأجل أن أقدم إحصاء للتكوين القبلي والقومي لسكانه، أرى من المناسب جداً أن أرتب جدولاً بالتنظيم الإداري بالشكل النهائي ثم أشير عند الضرورة إلى اختلافه عن التقسيمات التي وجدتها سارية في 1922.

قضاء	ناحية	قضاء	ناحية
	(المركز)		(المركز)
	مالا	چمچمال	أغجلر
المركز	شوان		سه نكاو
	التون كوبري		(المركز)
	قره حسن	كفري	قره تبة
	(المركز)		قه لاشيروانه
طاووق	قادر كرم		پيواز
	طوز خورماتو		

في العام 1922 كانت نواحي چمچمال الثلاث المثبتة أسماؤها، مرتبطة بالسليمانية وقد بحثتها في موضع آخر. ولم يكن هناك قضاء اسمه (طاووق) فالناحية التي كان يطلق عليها هذا الاسم ارتبطت بكركوك. أما طوز فكانت تابعة لكفري وكانت (قادر كرم) مقسمة إلى ثلاث مناطق قبلية هي (گل) ويرأسها شيخ من الأسرة الطالبانية، مسؤول أمام كركوك و(زه نگنه) ويديرها آغا من تلك القبيلة مسؤول أمام كفري (وجبارى) وهي ضمن چمچمال كما سبق بيانه، كما يوجد أيضاً منطقة صغيرة من القرى تعود إلى بعض شيوخ البرزنجة وتدار من ناحية (سه نگاو) وكانت (قه لا شيروانه) جزء من مركز كفري. وپيواز تعود إلى (وارماوا) في قضاء حلبچه.

وقد بنيت كركوك على تل كبير مستطيل يرتفع 220 قدماً عما يجاوره وبني بعضها تحت التل على ضفتي مجرى واسع مليء بالحصباء وهو مجرى (خاسه چاى) ومعظم النصف الغربي من التل خرائب وأنقاض. وأعيان الأسر المسلمة تسكن بيوتاً حديثة البناء إلى حد ما، في الأحياء المستجدة من القسم والسهل والحي المسيحي الذي يقع في الجانب الشرقي ما زال مأهولاً ومظهره حسن، تتخلله عدة منازل واسعة ترتفع جدرانها كأنها أسوار مدينة محصنة من حافة السفح الشديد الميل ومن بين كثير من المساجد والتكيات والمزارات وغيرها من الأماكن الأثرية في المدينة سأنوه بموقعين فقط، أولهما القبر المعروف بقبر (دانيال) وثانيهما البرج الأثري المثمن الذي يعود تاريخه إلى عهد السلاجقة. إن الأسطورة التي تروى عن أولهما تتعلق بالطبع بالأتون الناري المتقد وهو النار الأزلية لغاز البترول الطبيعي الذي يشتعل في منخفض (بابا گورگور) على بعد ميلين تقريباً من شمال غرب المدينة، وبالقرب منه آبار نفط ضحلة حفرت بالأدوات اليدوية لاستخراج النفط منها بطريقة بدائية اشتهرت هنا منذ أيام (هيرودوت)[1] وما قبله.

(1) Herodotus (حوالى 484 - 425 ق.م.) مؤرخ يوناني يلقب أحياناً «بأبي التاريخ» جمع خلال رحلاته في العالم المعروف كثيراً من المعلومات الجغرافية والتاريخية والأركيولوجية. يعتبر كتابه من أهم المراجع التاريخية. (المترجم).

أما ثاني الموقعين فيبدو من الكتابة التي نقشت عليه، أنه أقيم تخليداً لذكرى سيدة نبيلة اسمها (بغداي خانم) إلا أن له الآن قيمة خاصة أخرى عند أصحاب المساكن المجاورة. فسطحه المستوي يؤمن لهم موضعاً مناسباً لإلصاق أقراص (الجَلّة) على جدرانه لتجفيفها واستعمالها وقوداً. دخلت كركوك في الأملاك العثمانية دخولاً رسمياً ثابتاً وفق معاهدات الحدود الأولى ولا سيما معاهدة 1555، إلا أن الإيرانيين احتلوها مؤقتاً مرتين على أقل تقدير أثناء الحروب التي حصلت في القرنين التاليين للمعاهدة. في المناسبة الأولى ضبطها ما بين 1623 و1630 الشاه عباس وفي المناسبة الثانية استولى عليها نادر شاه ما بين 1743 و1746، ويبلغ عدد سكان المدينة زمن كتابة هذه السطور (25) ألفاً تقريباً[1] ربعهم كرد ومعظمهم من التركمان والعرب والنصارى واليهود. في القرن الثامن عشر كانت مركز إقليم (أيالة) عثماني يدعى (أيالة شهرزور) تدخل فيها ألوية كركوك وأربيل والسليمانية (اسميا) ويحكم تلك الأيالة (متسلم) يعينه والي بغداد. وفي إصلاحات (مدحت باشا والي بغداد 1869 - 1872) أطلق اسم شهرزور على سنجق كركوك (الذي يطابق الحدود لواءي كركوك وأربيل الحالية مجتمعاً) في حين بقيت (شهرزور) التأريخية خارجة، وارتبطت بسنجق السليمانية المستحدث. وتم تأليف ولاية الموصل في العام 1879، وبقيت كركوك بلدة هامة من الناحية العسكرية ووضعت فيها حامية دائمة، كما أنها كانت موطناً مهماً يمد الحكومة العثمانية بالموظفين

(1) كان هذا قبل أن تبدأ شركة النفط العراقية في تنقيباتها عن النفط طبعاً. إن رقم ما قبل الحرب قد يكون أكثر بقليل لكنه لا يبلغ على أية حال الـ(70,000) الذي ذكره (سايكس) ولقد غدت كركوك منذ ذلك الحين مركز نشاط شركة النفط العراقية. على أن إحصاء 1947 يشير إلى أن عدد سكانها لا يزيد عن (69) ألفاً. إن الذين كتبوا تقرير عصبة الأمم حول مسألة النزاع على الحدود بين تركيا والعراق (نظر الحاشية في الفصل السادس والعشرين) كانوا يشكون في صحة التمييز الذي حاولت الحكومة البريطانية وضعه بين تعبيري «ترك» و«تركمان» وقد استعملت في كتابي كلمة (تركمان) لأهل القرى أو المدن الذين هم من سواد المجتمع وعلى المتكلمين باللغة التركية عموماً. واستخدمت كلمة (ترك) للموظفين العثمانيين والضباط وأفراد الأسر الأرستقراطية.

المدنيين والدرك (الجندرمة) موضع الاعتماد، وإلى هذا تعود أسباب التشكيل العنصري واللغوي للسكان.

إن الأسر الأرستقراطية البارزة، هي إما تركية وإما تعتبر نفسها تركية حتى وإن كانت كردية الأصل. وأهم تلك الأسر آل (نفطچي زاده) الذين يملكون ويستغلون لأنفسهم ينابيع النفط القديمة كما يدل اسمهم، وآل (يعقوب زاده) وهم ملاك أراضي قيل إن أصلهم من (زنگنة) الكرد وآل (قيدار) وهم ملاك أراض وتجار. وفضلاً عن هؤلاء يوجد عدد من العسكريين والموظفين المدنيين بلغوا أسمى المراتب في خدمة الدولة العثمانية وإن لم يكونوا من الأسر العريقة، وعادوا إلى مسقط رأسهم بعد تقطيع أوصال الإمبراطورية، وأبرز شخصية كردية في المدينة هو (سيد أحمد خانقاه) من أسرة (البرزنجة) إلا أنه نقشبندي الطريقة خلافاً للأغلبية، وبيته الذي هو في تكيته الغنية بأوقافها - مفتوح دائماً للناس ومن البديهي أن يمارس سلطاناً عظيماً على أتباعه الفلاحين الكرد الذين يؤلفون أوسع مجتمع قومي في اللواء ككل.

كانت كركوك في أيام الإمبراطورية الساسانية مركزاً مشهوراً من مراكز النساطرة، وكرسياً لرئيس أساقفة (بيت گرمى = باجرمى). هذه الطائفة القديمة يمثلها اليوم زهاء مائة وخمسين أسرة كلدانية[1] يسكن معظمها كما أسلفت في الأحياء القديمة من التل. ويدير أمورها الدينية مطران يدعى (اسطيفان جبري) بقي ختمه الكنسي يحمل الاسم القديم، ويتزعم الطائفة ثلاثة من أغنياء تجارهم وملاكهم وهم (ميناس غريب، وقسطنطين، وتوما هندي) ولهم مقام محترم في مجتمع المدينة، وأولهم عضو في مجلس الإدارة المنتخب، وهو مجلس كان في عهد الترك ذا صلاحيات واسعة، إلا أنه راح يفقد استقلاله تحت ظل الإدارة العراقية الأكثر مركزية، وقد فخرت هذه الطائفة إلى ما قبل الحرب العامة بأقدم

(1) إن الكنيسة الكلدانية الجامعة تتألف من النساطرة السابقين الذين دخلوا الكثلكة وخضعوا لسلطان بابا روما في حين ظلوا متمسكين بمعظم قانونهم الكنسي ولغتهم السريانية وطقوسهم الدينية.

بيعة للنصارى في العالم هي (بيعة الشهداء) التي بنيت في القرن الخامس الميلادي تخليداً لذكرى شهداء اضطهاد الملك الساساني (يزد گرد الثاني: 438 - 457م). لقد استخدمها الأتراك أثناء الحرب مخزناً للعتاد والذخيرة ونسفوها بما فيها وخربوها تخريباً تاماً عند انسحابهم في العام 1918.

كانت الطائفة اليهودية أفقر وأدنى منزلة من طائفة النصارى، فقوامها صغار التجار والبدالون. ويقوم على رأسها (حاخام) وتاجر اسمه (أسحق أفرايم) الذي عين فيما بعد عضواً في مجلس النواب عن الاقلية اليهودية للموصل فترة من الزمن. وأذكر (عزيز أفندي) مدير خزينة اللواء وهو موظف قدير عفّ جداً ومن اليهود المحليين.

إن القرى والبلدان التي يتكلم أهلها اللغة التركية، الواقعة على خط الطريق السلطانية العظيمة قد ورد ذكرها عدة مرات في الفصول السالفة، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية تحت (مادة كركوك) أن هؤلاء الترك ربما كانوا موجودين فيها قبل الفتح العثماني. ولكن لا يمكن أن نؤكد رد أصولهم إلى الحاميات التركية التي كان خلفاء القرن التاسع الميلادي وقد وضعوها هناك، أو إلى حركة (الهجرة التركمانية) أيام سلاطين السلاجقة (1037 - 1117) وسلاجقة العراق وكردستان (1117 - 1194)، وأتابكة آل بكتكين في أربيل (1144 - 1232) إن كاتب المقال في دائرة المعارف تلك لا يذكر عن أصلهم شيئاً، ونحن نجد أن المذهب السني هو الشائع في بعض مستعمراتهم (ونخص) بالذكر مدينتي كركوك وكفري اللتين كانتا مركزين هامين للإدارة العثمانية، وبلدة آلتون كوپري التي هي أقرب إلى (أربيل). على أن معظم سكان المناطق الأخرى يدينون بمذهب شيعي ويتكتمون جداً في معتقداتهم ويطلق عليهم محلياً اسم (القزلباش) ومجتمعاتهم الأساسية توجد في (تازة خورماتو، وطاووق، وطوز خورماتو وقره تپه) وكلها تقع على الطريق السلطانية. كذلك القرية الكبيرة (تسين) قرب كركوك وقرية (بى شير) قرب (تازه) و(ليلان) في قره حسن. إن المؤرخين العراقيين الذين ناقشت معهم مشكلة مجيء

هؤلاء التركمان كانوا على اختلاف في الرأي وهم يتأرجحون بين فروض خمسة هي:

1 - جاء بهم السلاجقة العظام من الأناضول. 2 - هم أحفاد أسرى الحرب الترك المائة ألف الذين وقعوا في يد (تيمورلنك)، فأعتق رقابهم من السيف بتدخل خواجه (علي) شيخ أردبيل الذي مر بنا الكلام عنه بوصفه المنشئ الأول للطريقة الصفوية ذات الميول الشيعية الأولى (ولذلك يكون تاريخ استقرارهم في 1392 - 1402). 3 - نقلهم من الأناضول كل من السلطان سليم الأول «ياووز»، سليمان الأول القانوني (1512 - 1566) ليقوموا على حماية الطريقة السلطانية. 4 - هم أحفاد الأذربيجانيين من (مراغه) الذين كان الشاه إسماعيل الصفوي (1502 - 1524) قد حشدهم بمثابة حاميات عسكرية أثناء فترة احتلاله العراق. 5 - يمكن أن ترد أصولهم إلى الحاميات الأذربيجانية التي أنشأها (نادر شاه = 1730 - 1747). واسم (قزلباش = الرأس الأحمر) كان يطلق على القبائل التسع الأذربيجانية (بسبب لون عمائمهم) التي ألفت النخبة الممتازة لجيش النساء إسماعيل وهو الجيش الذي وضعه على عرش إيران. ثم أطلق الاسم فيما بعد على طوائف الزنادقة في آسيا الصغرى. ويبدو أن معظمهم من أتباع الطريقة الصفوية المعروفة بالبكتاشية[1] إن إطلاق اسم قزلباش على الإيرانيين عموماً كما ورد في وثيقة المصادقة على معاهدة زه هاو إنما كان إهانة سوقية متعمدة لاقترابها اللفظي من كلمة (أوباش: أوغاد أو سوقه)[2]. هنالك أدبيات كثيرة حول البكتاشية سواء في اللغات الأوروبية[3] أو في اللغة التركية دونها أتباعها السابقون بعد إصلاحات (مصطفى كمال) ولست أجد حاجة في حديثي هذا إلى الكلام حول أكثر من ثلاث نقاط تتعلق بتاريخهم:

---

(1) النصرانية والإسلام في عهد السلاطين، بقلم ف. و. هاسلوك F.W. Hasluck، طبع أكسفورد 1929، الفصل 12.

(2) ئاوباش ومعناها الحرفي أولئك الذين يرشون الأرض بالماء. (المترجم).

(3) نظر بصورة خاصة (طريقة الدراويش البكتاشية) [ج. ك. بورج J.K. Burge]، ط. لندن 1937.

(الأولى) أن منشئ الطريقة هو (حاجي بكتاش والي)[1] وهو ولي وپير من (خراسان) استقر في (كرمشهر) بالأناضول في الثاني من القرن الثاني عشر. وقوي نفوذه بالأسلوب المعهود. إلا أن تنظيم الطريقة يعزى إلى (بالم سلطان) الذي عاش في مفتتح القرن السادس عشر. (الثانية): إن الهيئة العسكرية المعروفة بـ(يني چري = الانكشارية)[2] وهي العمود الفقري لجهاز السلطان الحربي طوال أربعة قرون، يتألف بالأصل من صبيان ينزل عنهم قسراً رعايا الإمبراطورية المسيحيون ويجبرون على اعتناق الإسلام. هذه المنظمة العسكرية أنشأها (أورخان 1326 - 1359) ثاني سلاطين آل عثمان وكانت من أولها تقترن اقتراناً وثيقاً بالطريقة البكتاشية، وقد جعلوا (حاجي بكتاش) شفيعاً وولياً لهم وظلوا طوال تاريخهم حتى القضاء عليهم في العام 1826 يتخذون (بابات) البكتاشية كهنة دائمين في معسكراتهم ويبدو من كل هذا أن البكتاشية رغم زندقتهم ومبالغتهم في تقديس الأئمة الاثني عشر - يعتبر حزباً سياسياً عظيماً يقف على الخط السني أكثر منه على الخط الشيعي. (الثالثة): في تاريخ غير معلوم نشأت زندقة شاذة متطرفة للغاية هي الزندقة المعروفة باسم «هروفى = حروفي» بشّر بها فضل الله وهو إيراني من

---

(1) صوفي مسلم من أئمة الصوفية نبغ في القرن الرابع عشر، تمتاز طريقته برفض الشعائر الإسلامية لأنها ترى فيها قيوداً لا تربط العارفين وهي تدين بالنظريات الحلولية كانت بالأصل طبقة من الدراويش أوجدها الحاج بكتاش سنة 1957 عندما استدعاها السلطان مراد الأول للدعاء لجنوده فسماهم (يني جرى = انكشارى) أي الجنود الجدد. (المترجم).

(2) الانكشارية: وهي الطبقة العسكرية العثمانية أو الطبقة المحترفة تألفت منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر من أولاد المسيحيين الذين كانوا يؤخذون قسراً أو يشترون من آبائهم أو من يؤسرون في القتال ويدربون وفق أنظمة عسكرية وصوفية ويتشربون حياة الخشونة ليعدوا الثكنات بيوتهم الخاصة. وبقوا عدة قرون وهم زهرة الجيش العثماني. ولم يكن يدفع لهم أجور إلا وقت الحرب ولذلك سمح لهم بتعاطي التجارة والعمل بسلك الشرطة وكثيراً ما كانوا يعمدون إلى الثورة. وكانت نهايتهم في آخر ثورة لهم باستنبول في العام 1826 حيث تم القضاء عليهم ذبحاً. (المترجم).

استراباد أعلن ألوهيته في السنة 1398 فقتله تيمورلنك. هذه الزندقة أو ربما أتباعها، وجدوا حماية ورعاية تحت عباءة الطريقة البكتاشية الواسعة الانتشار.

وجدت (قزلباشية) منطقة كركوك أكتم للأسرار وأحفظ لها من الكاكائية بكثير، إلا أن تعقيباتي وتحرياتي أظهرت أنهم ينقسمون إلى طائفتين هما (درويشان وصوفيان) والطائفة الاولى تسكن في (طاووق وطوز وليلان) والطائفة الثانية تسكن في (تازه خورماتو، وبى شير وتسين) ولم أتحقق من قره تپه ولعل أهلها من (الدرويشان) وبعد أن استنتجت شخصياً بأن طائفة (الصوفيان) لا بد وأن تكون ممثلة للتطور الأخير للطريقة الصفوية أو بعبارة أخرى أصل القزلباش، راح اثنان ممن يعتمد عليهم يؤكدان لي تأكيداً قاطعاً بأن ما استنتجته هو الحقيقة بعينها ولا سيما وأن افتراضي يتفق مع التاريخين الثاني والرابع لمجيء التركمان كما أسلفت. ولعل الدرويشان يمثلون مجموعة قزلباشية أناضولية أخرى أقرب إلى البكتاشية الأصلاء كما قام على تنظيمها (بالم سلطان). وهذا قد يتفق مع التاريخ الثالث من التواريخ المفترضة لمجيئهم. وبالطبع فإن أسبق الترك إلى السكنى قد تمت هدايتهم إلى الطريقة على يد الدعاة البكتاشيين وهم في مواطنهم الأولى لكن توجد أسباب قوية في إثبات تاريخ استقرار العناصر المتزندقة من الأهالي التركمان في وقت متأخر كثيراً عما جاء في دائرة المعارف الإسلامية. ومهما كان تاريخ هؤلاء البكتاشية - القزلباشية، فهم في الوقت الحالي وخلافاً للكاكائية لا يعتبرون من الجعفرية وكان مجتهدو كربلاء والنجف لا ينقطعون عن إرسال الوفود إليهم لتصحيح أخطائهم ولتلقينهم مبادئ العقائد الجعفرية بشكلها الصحيح. وكانت تلك المحاولات تلاقي سخطاً كبيراً لدى أعيان الترك السنية في كركوك، فضلاً عن حنق أتباع الطريقة أنفسهم وقد اضطررت أكثر من مرة أثناء وجودي في المدينة إلى أن أعيد هؤلاء المبعوثين من حيث جاؤوا لأسباب تتعلق بالأمن وعلى أي حال فقد أصاب هؤلاء الرسل بعض النجاح. ووجه الغرابة في ذلك أنهم أفلحوا مع

الدرويشان أكثر من الصوفيان، وربما كانت الأسرة الطالبانية في اللواء أهم الأسر ككل وقد سبقت إلى التنويه بذكر فرد شهير من أفرادها هو (شيخ رضا) ناظم تلك القصيدة التي أشادت بأمجاد البابانيين (أثبتناها في الفصل الخامس) وهي كردية وتقوم مثلاً نموذجياً لبيت ارتفع عماده وعلا شأنه في زمن متأخر جداً وأصاب الثراء والنفوذ الدنيوي عن طريق النفوذ الديني لرأس الأسرة: الشيخ الدرويش. وقد سجل الشيخ رضا مناسبة نشوء الأسرة المشيخية بالأبيات التالية:

خودا وه ختى كه حه ز كا به نده يكى خوى بكا خوشنوود
له ريگه ى دوره وه بوى دى به بى خوى شاهيدى مه قصود
له هندستانه وه شه ش مانگه رى تا خاكى كوردستان
خودا شيخ احمدى هندى ره وان كرد بو مه لا محمود
ملا محمودى زه نكنه

الترجمة:

كذا شاءت إرادة الله أن ينعم على أحد عبيده بالسعادة
وبأمنية قلبه البعيدة من حيث لا يدري
فرحلة ستة أشهر من هندستان إلى أرض كوردستان
بعث الله (شيخ أحمدي هندي) إلى ملا محمود.
ملا محمود زنكنه

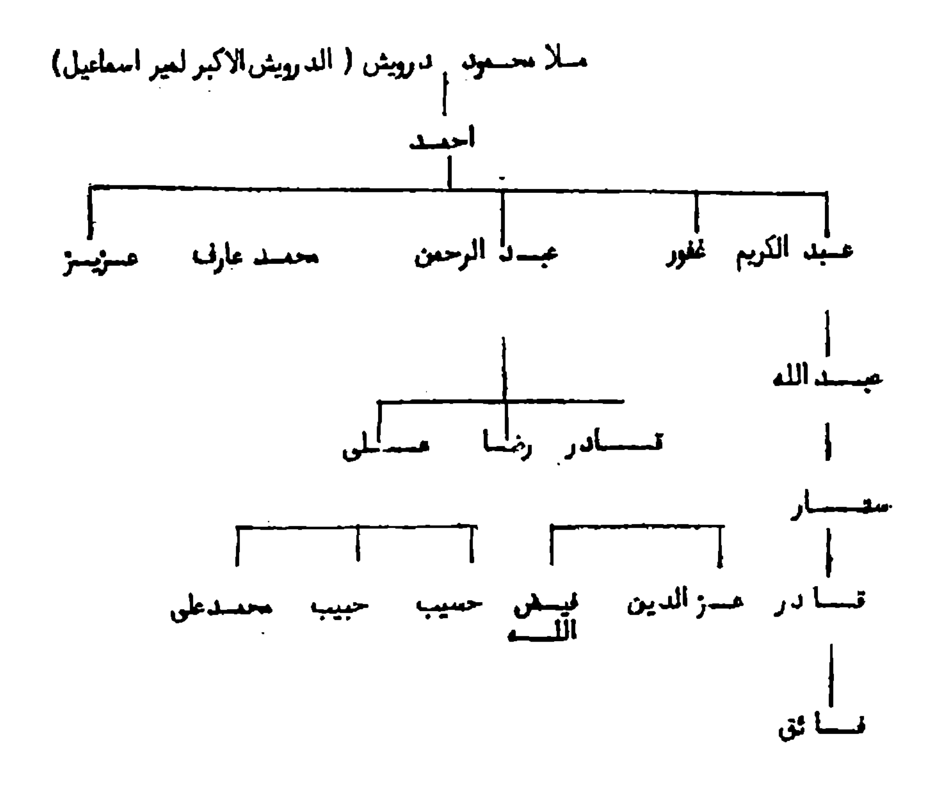
ويمضي الشاعر ليصف كيف أن أركان ضريح «ملا محمود» تردد بلا انقطاع صدى ذكر الدراويش «يا هو ويا معبود يا هو» وكيف أن جبة المشيخية التي أعطاها (الشيخ أحمد) ظلت تنتقل من الأب إلى الابن حتى وصلت إلى أخيه (شيخ علي) ويختتم قصيدته معتذراً لحقارة شأنه، وعدم لياقته أن يكون فرداً من هذه الأسرة التقية الورعة بقوله:

(ره زا)ش له و ته سله يه بى به خشه ياره ب چونكه قه ت نابى
كولى بى خارو به حرى بى بوخارو ئاگرى بى دوود

الترجمة:

و(رضـا) أيـضـاً مـن نـسـلـه، ألا فـلـنـمـنـحـه غـفـرانـك يـا رب
إذ ليس هناك زهر بلا شوك، ولا بحر بلا أبخرة، ولا نار بلا دخان

والشجرة المقابلة تظهر نسب أعضاء الأسرة البارزين التي وردت أسماؤهم في هذا الكتاب.



وإذا خصصنا لكل جيل من نسل محمود ثلاثين سنة، فقد يمكن القول إنه عاش في أواخر القرن الثامن عشر واقترن بابنة أو حفيدة (مير إسماعيل) الذي كان زعيماً بارزاً لقبيلته الزنگنة يسكن (قه يتوول) وانتقل ابنهما (شيخ أحمد) إلى قرية طالبان ومنها أخذت الأسرة اسمها وتقع وراء نهر (باسه ره) في إقليم چمچمال. وانسل الشيخ أحمد تسعة أبناء خلفوا هم بدورهم ذرية من الذكور كثر نسلهم بحيث صار الجيل الثاني يعد بالعشرينات وفي الجيل الثالث عدّوا بالمئات. ومن

أولاد أحمد، (غفور) الذي كان عميد فرع (كوي)، و(محمد عارف) الذي استوطن زه هاو اشتهر بصلاحه وعمله الكرامات وتقول إحدى الحكايات إن تدخله المعجزة في إحدى المعارك ضد الإيرانيين على حدود (زه هاو) كان فعالاً وحاسماً بحيث قلب الهزيمة التركية إلى نصر مؤزر، حتى أن الباشا الممتن كافأه على كرامته بعدد من القرى في مقاطعة (بن قدره) شمال خانقين. ومن الجيل الثالث المنحدر من ملا محمود كان (شيخ حميد) بلا شك من أدهى البشر وأمكر الماكرين وهو ابن أحمد ابن عزيز الذي كان أول من ملك أرضاً في الجبال، وفي زمن الاحتلال البريطاني 1918، عدّ أهم شخصية في اللواء، فهو عدو للترك لدود، ولذلك أوقف كل جهوده لنا واعترافاً بخدماته هذه قد كوفئ بإطلاق يده حرة في إدارة مجموعة القرى الطالبانية في (گل) دون تدخل مدير الناحية أو الشرطة، وبأن يستغل لحسابه الخاص آبار النفط الصغيرة في المنطقة لقاء رسوم اسمية، وقد توفي هذا العجوز في 1921 ولم يقع نظري عليه. وخلفه في التكية وفي امتيازاته هذه أحد أبنائه الأصاغر المدعو (طالب). وكل أولاد «حميد» ذوو وسامة ورشاقة بدنية وهم أصدقاء للإدارة عموماً وإن كانوا يميلون إلى المتاجرة بما جمعه لهم أبوهم من رأسمال عطف السلطات الرسمية عليهم. ويوجد للأسرة فروع في كل من ناحيتي (قره حسن) و(طاووق).

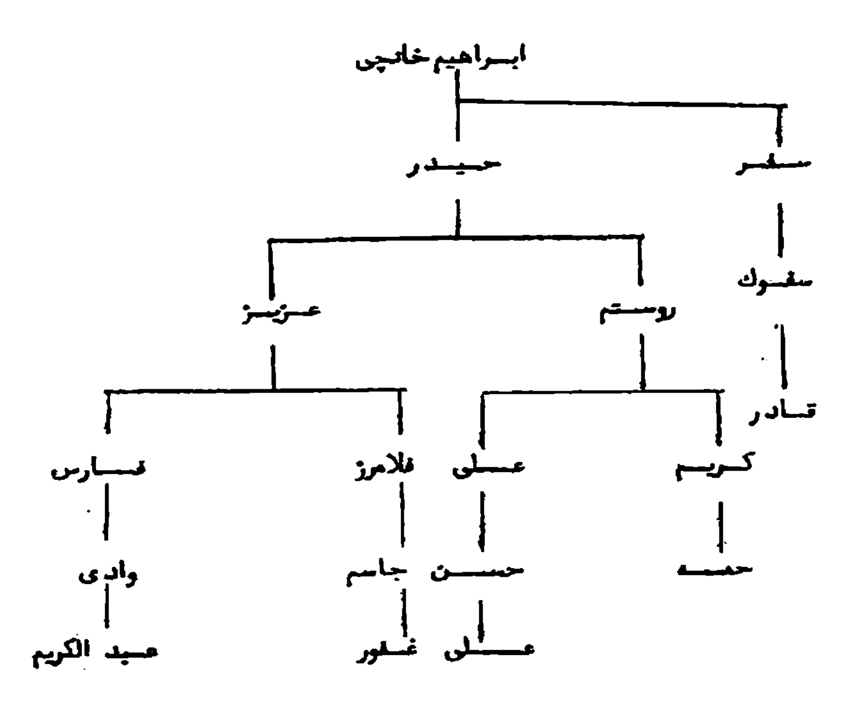
إن قبيلة (الزنگنة) الأصيلة، ورد ذكرها في (الشرفنامة 1596) التي لا تذكر عنهم أكثر من قولها إن أفراد أسرتهم الحاكمة تولوا مناصب رفيعة عند الشاه إسماعيل (1502 - 1524) ولما لم يبق لديهم زعيم ذو شأن تفرقوا ليخدموا مختلف أمراء الشيعة. على أننا نجدهم في عهد الحكم (القاجاري)[1] مستقرين كقبيلة كبيرة متلاحمة الأواصر في (ماهى ده شت) وغيرها من مناطق كرمنشاه بزعامة أسرة حاكمة ذات نفوذ تدّعي أنها نسل من يدعى (شيخ علي) الذي بلغ منصب وزير

(1) أسرة مالكة إيرانية حكمت إيران منذ 1794 حتى 1925. كان عميدها آغا محمد شاه وآخر من حكم منها أحمد ميرزا الذي خلع. (المترجم).

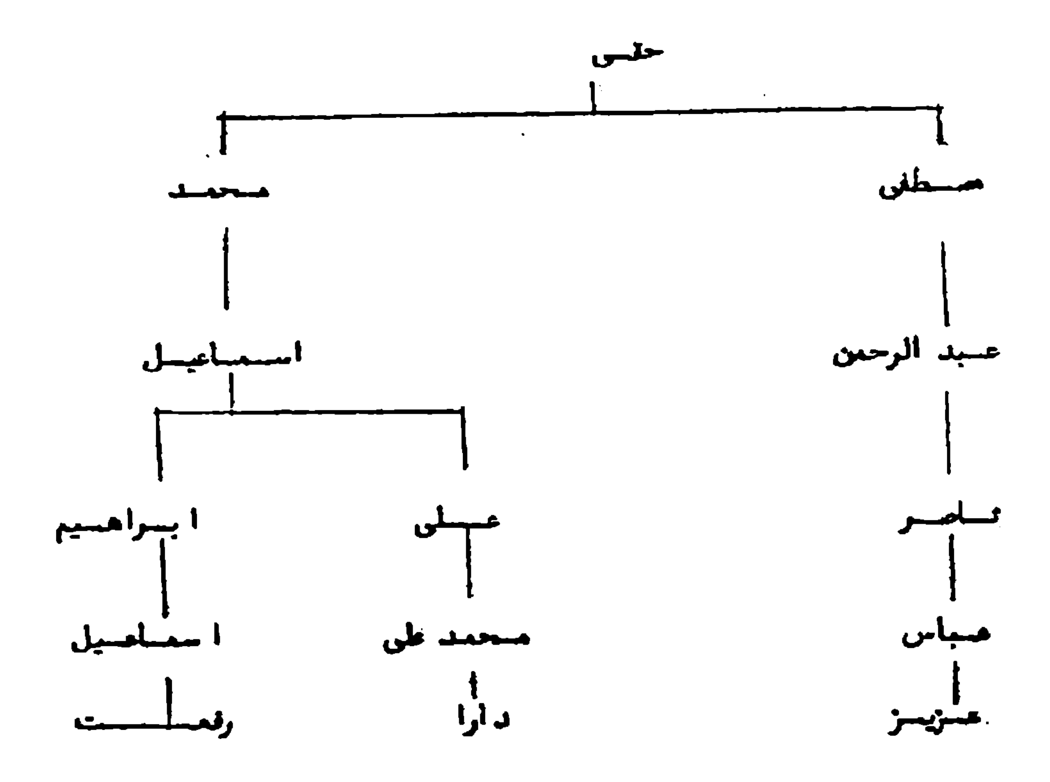
لأحد ملوك الصفويين (قبل السنة 1736 إذن). وزنگنة العراق وهم سنّة ما زالوا يعيشون فيما يزعمونه مسقط رأسهم الأصلي وهو عالية نهر (اوه سپى) (فضلاً عن مجموعة قرى بالقرب من كفري إلى الجنوب الشرقي). وهم يؤكدون أن (الشيخ علي) هاجر من هذا الموقع لينضوي في خدمة الشاه الإيراني، ولهجتهم ليست (كوردى) وإنما لهجة تتألف من مجموعة لهجات (ماچو ماچو) أعني (گوران). إن أفراد الأسرة الحاكمة الحالية في العراق يحملون لقب (آغا) وهم من ذرية (إبراهيم خانچي): (انظر الشجرة) ويحلو لهم كثيراً ذكر المير إسماعيل الكبير بوصفه الجد الأعلى لهم. لكن لقب (الآغا) اللاحق بهم يؤيد زعم منتقصيهم والمقللين من شأنهم بأن (إبراهيم خانچي) هو في الواقع محدث نعمة، عينه البابانيون لحماية قرية هامة وخان للمسافرين (كاروان سه را) يقعان على الطريق العام بين (كفري) و(قه لاچوالان) والسليمانية. وما زالت القرية تسمى باسمه. وفي 1922 نصب (حمه كريم آغا) الذي استقر في إبراهيم خانجى مديراً مسؤولاً عن الأمن والنظام في مجموعة من القرى تبلغ (35) قرية منها حوالى عشرين في أيدي سراگيل (الزنگنه) ولم يكن له ولا لأعوانه أي سلطان على أراضي الطالبانية وغيرها من الأراضي المجاورة حيث كان أغلبية الفلاحين من قبيلة (الزنگنة) في الواقع.

ويكاد العداء يكون مستحكماً بين طالبنية گل وطاووق وبين جيرانهم وقبيلتي الجبارى والكاكائية والداووده هؤلاء الذين غدوا هدفاً لما لا يحصى من قصائد الشيخ رضا البديعة التي تكاد لا تخلو من فحش وإقذاع. وكنت قد أتيت إلى ذكر الجبارى والكاكائي أما الداووده فهم نموذج القبيلة الكردستانية الجنوبية المستوطنة، ليس لها تاريخ خاص أمكنني تعقيبه وأسرتها الحاكمة تزعم أنها انحدرت من (حقى بگك) وفي عهد الجيل الخامس له كانت أراضي ناحيتي طاووق وطوز خورماتو تعج بهم إذ كانوا يحتلون ويملكون عدة قرى كبيرة. والشجرة التالية تبين درجة قرابة زعمائها الثلاثة الكبار المتصلين بالإدارة في 1922. وكان أثراهم (دارا بك) يملك مع أقربائه الأدنين بضع عشرة قرية كبيرة في ناحية

طاووق. وهو شخص دؤوب هادئ منحاز دائماً إلى جانب السلطة. وكان (رفعت بك) مع أقربائه وقسم من القبيلة يستغلون مزرعة أميرية واسعة باسم (البو صباح)



جوار ناحية (طوز) والمشهور عنه أنه شخص لا يستقر على حال مستعد للانحياز إلى أية حركة تخريبية قد تلوح في أفق الجو السياسي أما (عزيزي عباس) وهو أكبر الثلاثة سناً فالمأثور عنه العداء للسلطة وظاهر سلوكه الابتعاد عن الاحتكاك بموظفي الدولة ما استطاع وقد سهل عليه تحاشيهم لأن مجموعة قراه تقع في (ده شتى پانكى) وهو سهل صغير المساحة على ضفتي (أوه سپى) ولا يبتعد في الواقع عن طوز خورماتو كثيراً لكنه منفصل عنها وعن الطريق العام بأول سلسلة جبال منخفضة فيتعذر الوصول إليها بالسيارة. والآن بعد فراغنا من وصف أهم القبائل والأقليات الدينية أعتقد أنه يجمل بي إكمال الصورة الخلفية بشرح مختلف الوحدات الإدارية كل بدورها متناولاً كل مهم من الوقائع أو مما هو ذو علاقة بالحديث الذي سيتلو.



وبخصوص مركز الناحية (24500 نسمة) هناك القليل مما يكن إضافته إلى ما سبق الكلام عن المدينة نفسها وعن قريتي (طوز خورماتو وتسين) هذا وأن القرى البضع عشرة الواقعة إلى الشمال الشرقي من الخط المستقيم المار بـ(آلتون كوپري) وكركوك كلها قرى كردية. وأما القرى التي تفوقها عدداً في الجنوب الغربي فهي خليط عظيم وفي معظمها تتعايش القوميات الثلاث، وهناك بضع مستعمرات عربية خالصة على حافة سهوب الحويجة وهي موطن قبيلة «العبيد» العربية المشهورة بتربية الجمال ومعظم القرى ملك لأسر أرستقراطية من سكان المدن لا ميزة قبلية لها. وقد عين على سبيل التجربة ولفترة مؤقتة مدير ناحية اتخذ مقره في واحة (الحويجة) الصغيرة للإشراف على إدارة (العبيد) وغيرها من العشائر العربية الساكنة قرب جبل حمرين إلا أن هذا التنظيم لم يدم كثيراً.

وتقع (مالا = 15000 نفس) على امتداد الضفة اليسرى من الزاب في نقطة تبعد عن آلتون كوپري بحوالى اثني عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي حتى مصبه في دجلة. وبذلك يكون طول الناحية زهاء 45 ميلاً والحدود الداخلية خط غير ثابت وهي لا تبعد كثيراً عن النهر وتفصل المستعمرات البدوية ومضارب عدد من العشائر العربية الصغيرة ومستعمرتين صغيرتين للچچن عن بطاح الحويجة[1] (هؤلاء الچچن) هاجروا في منتصف القرن التاسع عشر من القفقاس عندما ضم الروس[2] بلادهم ومعظم العرب هنا من (الجبور) وهي عشيرة برمائية تقريباً ألفت سكنى الضفاف الدنيا للزابين وضفاف دجلة المجاور[3] لها. والجبور قاطبة سباحون ماهرون لكنهم

(1) شعب يسكن اليوم فيما يدعى بجمهورية ججن اينكوش السوفياتية وتقع في شمال سلسلة جبال القفقاس وهم مسلمون وأحد شعوب جبال القفقاس المتعددة. والمؤلف يشير هنا إلى إخضاع روسيا القيصرية لهم في 1859 وهجرة قسم كبير منهم إلى الجنوب. (المترجم).

(2) في العام 1922 كانت الحدود النهرية أقرب إلى آلتون كوبرى بسبعة أميال لكن بعد ثلاث أو أربع سنوات نقلت مجموعة متراصة من حوالى 25 قرية نصفها كردي ونصفها عربي (البو حمدان) إلى ملاك إدارة آلتون كوبرى ونقل مركز الإدارة (مالا) إلى قرية (تل علي) الأكثر توسطاً لوقوعها في الطرف الشمالي الشرقي إلا أن الاسم القديم بقي للناحية ومنذ العام 1940 وما بعدها أنشأت مديرية الري العام نظام الأقنية المعروف (مشروع الحويجة) وكان كله يدخل في ناحية (مالا) مما أوجب تحديداً أدق وأكثر ثباتاً للحدود الداخلية ولما بُدء بتوزيع الأراضي التي يرويها المشروع أعطيت الأولوية لعشائر الجبور المستوطنين وللججن ثم للعبيد.

(3) حسب رواية الشيخ شاهر رئيس عشيرة «جبور زمار» شمال الموصل أن هذه القبيلة تنقسم إلى بطون أصلية خمسة: 1 - الجلوس وتسكن على ضفاف دجلة شمال الموصل ومعظم هؤلاء يحتلون الضفة اليمنى وناحيتي زمار والحميدات مع قليل على الضفة اليسرى في قضاء دهوك. 2 - البو طعمة وهم أساساً فخذ من «الجاموس» انتقلوا إلى جنوب بغداد وسكنوا عند الأقنية والترع هناك. 3 - البو نجاد وتسكن على ضفتي القسمين السفليين من الزابين وعلى ضفتي دجلة في الجزء الواقع بين هذين الرافدين. 4 - الهياچل (الهياكل) وتقطن على الخابور الغربي في سوريا. 5 - جده تسكن قرب خانقين وهم هناك يعرفون باسم جمور وقد تمازجوا وتزاوجوا مع قبيلة (باجلان) الكردية وأصبح مظهرهم الخارجي لا يميزهم عن الكرد. وبطبيعة الحال أن كل بطن من هذه البطون يتفرع إلى أفخاذ صغيرة فمثلاً ينقسم البو نجاد في كركوك إلى «ابو جبر، الصقر، البو جحش» وما إلى ذلك.

لا يرون معرة في شد القرب المنفوخة على أجسامهم في مواسم الفيضان لقطع النهرين بالطريقة التي تراها مصورة في المنحوتات الأشورية بالضبط. واشتهروا بما لا يحسدون عليه وهو أن كل مجتمعاتهم مصابة على ما يقال بمرض خبيث هو (البجل) الذي يعتبر من فصيلة أمراض السفلس ولا منجى لهم منه رجالاً وأطفالاً ونساءً وعدواه تتم بالطريق المألوفة ويصيب ضحاياه عادة وهم في الحداثة الباكرة أكثر مما يعديهم[1] بعد البلوغ. وتقع ناحية (آلتون كوبري = 15000 نفسه) على الضفة اليسرى من الزاب وعلى جانبي الطريق العام من كركوك إلى أربيل. إن القسم الأصلي من البلدة التي أخذت الناحية اسمها منها تقوم على جزيرة في وسط النهر ويعني الاسم «جسر الذهب» وهو على ما يقال مشتق من اسم سيدة تدعى «آلتون» وهي إما بانية الجسرين وإما بُنيا لها أو ربما سمي كذلك بسبب المبالغ الطائلة التي أنفقت على بنائهما وهو وجه النكتة الأعظم لخراب الذمم والتفسخ الخلقي. وتسمى عند العرب «القنطرة» فحسب ويسميها الكرد «بردى = جسر» والموضع مركز هام للأكلاك ومعظم سكان البلدة تركمان على مذهب السنة إلا أسرة البگزادة فهي كردية يزعم أفرادها أنهم جاؤوا من «آشنو» بالقرب من (أورمية)[2] مع حوالي أربعين أسرة من عشيرة (صالحي) الكردية وقليل من العرب ويقال إن منازل الفقراء فيها تكاد تغص بقاطنيها. وكل قرى الناحية كردية خلا عدداً قليلاً من القرى العربية تم نقلها بعدي من ملاك (مالا) و(الصالحي) قريبون من النهر يليهم البيباني إلى الجنوب الشرقي، على أن معظم الأراضي الزراعية هي ملك لأعيان المدينة وليس لهؤلاء الحضريين أية وشائج قبلية وثيقة. وهناك اثنان

---

(1) «البجل: سفلس معد للأطفال» مقال في المجلة الأميركية للأمراض الاستوائية، جزء 18، رقم 6، تشرين الثاني 1938. بقلم الدكتور ي.هـ هدسن E.H. Huson وهو أول من درس المرض دراسة مستفيضة وأدخله في عالم الدراسات الطبية وهنا عليّ أن أشكر الدكتور و. كورنر W. Corner، الذي يسر لي هذا المرجع.

(2) هي رضائية اليوم. (المترجم).

من زعماء الصالحي (طه وتوفيق) يقطنون كركوك غالباً أو قرى أخرى يملكونها على حدود (قره حسن وجبارى).

وتقع (شوان = 11000 نفس) على الضفة اليسرى من الزاب شرق آلتون كوبري وصفة أراضيها متعادية قليلة التضاريس وليس كأقسام من قواعد الجبال إلى الجنوب ومن وادي الزاب تأخذ الأرض بالارتفاع ثم بالانخفاض تباعاً فلا ترى إلا وهاداً ونجاداً متتالية حتى جبال (خال خالان) التي تعلو إلى ارتفاع 3000 قدم تقريباً قبل أن تنحدر ثانية إلى وادي (خاسه) وسهل كركوك. والأراضي غزيرة المياه ومرعى ممتاز للغنم. بمحاذاة النهر مباشرة تمتد سلسلة من القرى يسكنها شيخ بزه ينى التي انتقلت إلى السليمانية ردحاً من الزمن كما أسلفت وبقية الناحية تقطنها عشيرة (شوان) وكلهم فلاحون (الاسم يعني هنا الرعاة) وليس فيهم آغاوات وهم لا يدينون بأي ارتباط أو تبعية لأية قبيلة في العراق وهم عموماً يخضعون لملاكي أراضيهم الذين يسكنون المدن كآل نفطه چي وغيرهم، إلا أنهم في الوقت نفسه لا يخلون من شعور بالصفات القبلية وفي ميدان السياسة القبائلية هم على أحسن صلات التفاهم مع جيرانهم (الهماوه ند) في الجنوب الشرقي وتنقسم شوان إلى ثلاثة بطون وهي (كاشيك) ويبلغ مجموع قراهم (45)، و(سرخاسه ئى گولم كوه) أفقر الثلاثة وأضعفها ويسكنون ست قرى في الجنوب قرب النهر كما يدل عليه الاسم (وعزيزي شريفي جليل) الشخصية الهامة التي تعرفها الحكومة أو بالأحرى الشرطة من (يه خته كان) هو وغد عجوز ملتح ذو سمعة داوية في عمليات قطع الطريق لا يباريه فيها أحد حتى الـ(هماوه ند) أنفسهم.

وتقع (قره حسن) = 14000 نفس إلى جنوب (شوان) شرق مركز كركوك وتتألف من 55 قرية سبعة منها تملكها أسرة من السادة مستوطنة تعرف باسم (سادتى قره حسن) وخمس تعود إلى (كانى كه وه) من البرزنجة وحوالى العشرين إلى آل الطالباني وأما الباقي منها فإما تعود إلى الإقطاعيين الذين يسكنون المدن أو إلى الفلاحين الذي يتصلون بنسب قبائلي وثمة أربع قرى تركمانية في (ليلان =

300 بيت)[1] و(يه حياوه - يحيى ثاوا = 150 بيتاً) و(ته رجيل = 150 بيتاً) و(قره لو = 70 بيتاً) وأول قرية ذكرنا عنها أنها إحدى المراكز للقزلباش ولا شك أن جزءاً كبيراً من سكان القرى الثلاث الأخرى هم من أتباع الطريقة نفسها وقد وجدت السلطات من المريح لها أن تعتبرها مجال نفوذ طالباني صرفاً منذ أول أيام الاحتلال وفي العام 1922 وجدت (شيخ حبيب) وهو ابن أخ (الشيخ رضا) ما يزال مديراً للناحية وقد سمح له بأن يتخذ قرية خاصة (خاله بازيانى) مقراً له وتقع ناحية (طاووق أو داقوق) على جانبي الطريق السلطانية جنوب مركز كركوك مباشرة ونسبت إلى اسم المدينة العتيقة التي كانت في عهود الإسلام مركزاً أكثر أهمية من كركوك كما يبدو[2] ولا يزال يرى فيها اليوم قاعدة منارة أثرية مزججة مزخرفة، والبلدة الحديثة ذات السوق الصغير تقوم على الطريق السلطانية قرب نهر (باسه ره = طاووق چاى) وهو هنا منخفض واسع مفروش بالحصباء لا يمتلئ إلا بعد سقوط أمطار غزيرة في الجبال وعلى مسافة خمسة أميال تقريباً من صدر النهر أول ما يخرج من آخر خانق جبلي بنى الترك جسراً من الآجر، جرفت عدة أقواس منه الفيضانات الأولى مباشرة بعد إكماله ولم تنجح المجهودات التي بذلتها مديرية أشغالنا العامة لإصلاحه لكن قلما يتعذر عبور النهر خوضاً حتى أن السيارات كانت تتجاهله أيام صلاحه اختصاراً للأميال العشرة واقتصاداً في طول الطريق. وأما عن سكان (طاووق) فهم من التركمان القزلباش بالدرجة الأولى وسكان معظم القرى

(1) في (نزهة القلوب) لمؤلفه (أحمد الله مصطفى القزويني من أعلام القرن الرابع عشر) لم ترد كركوك إلا بشكل عابر وآبار النفط ومنابعها إنما ذكرها عند كلامه عن طاووق وقد جاء عنها ما يلي «بلدة متوسطة لا هي كبيرة ولا صغيرة، وهواؤها خير من هواء العراق العربي» ووصف النهر بأنه أحد ثلاثة نهيرات من العراق العربي «الآخر هو نهير بيان ولعل قصده آوسبى» وذكر أن بالقرب منها الممر الجبلي المسمى «دربندى خليفة» الذي هو «بازيان» حتماً وأن أول ذكر لكركوك عند الكتاب المسلمين جاء كما يبدو في تاريخ تيمورلنك المعروف بـ«ظفر نامه = كتاب النصر» لمؤلفه علي اليزدي ألفه في القرن الخامس عشر «انظر بلدان الخلافة الشرقية = لسترانج Le Strange ص92».

(2) هذه القرية ليست تركمانية وإنما هي كردية وأهلها ينتمون إلى عشائر المنطقة. (المترجم).

خليط من الكرد والعرب مع قلة من البيوت التركمانية في قريتين صغيرتين بالقرب من طاووق ويوجد عدد كبير من القرى الكردية الخالصة شرقاً وثلاث قرى أو أربع قرى عربية خالصة غرباً وملكية الأراضي موزعة بين ثلاث أسر كردية هي السادة الكاكائية الذين يعتبرون في مرتبة شيوخ القبائل (يملكون 18 قرية)، والطالبانية بشخص الشيخين فيض الله وعز الدين ولدي عم (شيخ حبيب) و(يملكان 7 قرى) والداوودة بشخص (دارا بك) ويملك 11 قرية كبيرة. وفي آخر ربيع كل سنة أو في أوائل الصيف عندما يبدأ منسوب الماء بالنقصان تلوح بوادر الخصام وتندلع ألسنة الخلاف حول تقسيم[1] الماء إلا إذا عجلت الحكومة باتخاذ الإجراءات لضمان التوزيع العادل.

وناحية (قادر كرم = 15000 نفس) هي ناحية (گل) التركية القديمة تقريباً قسمت في العام 1922 إلى ثلاث مناطق قبلية أتيت إلى بحثها في محل من الكتاب.

وناحية (طوز خورماتو = 30000 نفس) تجاوز (طاووق) من الجنوب الشرقي ربطت في 1922 بقضاء كفري وهي كطاووق تقوم على جانبي الطريق السلطانية ويقسمها هنا نهر (ئاوه سپى) أو (آق صو) كما يسمى محلياً - إلى قسمين من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. والناحية تسمى باسمها وهي كما سبق بيانه أهم مركز للقزلباش التركمان في اللواء والاسم مشتق من آبار ذات ماء أجاج تقع في فتحة يمر منها (ئاوه سپى) في خروجه من أول سلسلة منخفضة قريبة من السهل وكلمة (طوز) هي تركية ومعناها (ملح) إن ثلاثة أرباع السكان هم من الداووده وثلثا الداووده يسكنون في أسافل الجبال والثلث الآخر يسكن السهل. والعنصر الآخر الوحيد الهام في الناحية (البيات) هو قبيلة عجيبة التكوين يقال إن نواتها جاءت بالأصل من (خراسان) وقراهم التي تزيد عن العشرين تقع في الربع الجنوبي القصي من الناحية إلى جواز جبل حمرين وناحية (قره تپه)، وثاراتهم

---

(1) ما زالت هذه الخصومات قائمة إلى يومنا هذا. (المترجم).

وصداقاتهم مع القبائل العربية أكثر منها مع الكردية وكانت صلاتي بهم قليلة وأنا أذكر زيارة بالصدفة قام بها اثنان أو ثلاثة من زعمائهم لي ولم يتسن لي معرفة شيء كثير عنهم في مبدأ الأمر على أني حفظت ملحوظة عنهم جاء فيها أنهم ينقسمون إلى سبعة بطون هي (البو حسين) السنية المذهب العربية اللسان و(العمارة) و(البو والي) التركمانيتان السنيتان و(پير أحمد) و(قزاوالى - بيلانچى) التركمانية القزلباشية و«عمارلي» القزلباشية التركية المستكردة وكلها تعترف (بفارس بك) من «عمارلي» زعيماً أكبر لأغراض المراجعات الحكومية.

(وكفري = 20000 نفس تقريباً) هي البلدة الثانية في اللواء ومركز القائمقام تقع أمام فتحة أخرى في أول سلسلة من المرتفعات وكذلك على الطريق السلطانية في نقطة ينطلق منها أقرب طريق للقوافل إلى السليمانية باتجاه (إبراهيم خانچى) و(سه گرمه) لذلك كانت سوقاً للعشائر المجاورة لها ومركزاً تجارياً مهما للبضائع الكردية قبل اتصال السكة الحديد بكركوك وإلى الجهة الشمالية من الفتحة يوجد منجم فحم حجري هو في الواقع بئر للقير المتحجر بلغت كمية ما كان يستخرج منه سنوياً قبل العام 1915 حوالى مائة وخمسين طناً. ثم إن السلطات العسكرية التركية رفعت كمية المستخرج منه إلى 1000 طن سنوياً[1] خلال الحرب. إن الحجر الذي يقلع من مقالع الروابي القريبة فاتح اللون وقد ساعد على إظهار البلدة بمظهر نظيف كان دوماً يلفت نظري كلما قمت بزيارة لها وقد لحظ (هيود) ذلك وهو من السياح الأوائل. وأعيان الأسر فيها تعد نفسها تركية وسكانها بصورة عامة خليط من الكرد والتركمان وكان القضاء والمركز في أيام الترك يسميان رسمياً (صلاحية).

ثم إن ناحية كفري قسمت فيما بعد إلى: المركز يتألف من البلدة وما يجاورها (5000 نفس)، و(قه لاى شيروانه) (16000 نفس) على أنه قد يكون من الأبسط لنا أن أصفهما كما عرفتهما. كل من يسكن خارج البلدة كردٍ (جاف كيژ، وطالبانية وده لو وداووده عزيزى عباس) وهذا الأخيرة تقطن نتوءاً صغيراً يدعى (داووده

(1) استغل ثانية خلال أيام الحرب العالمية الثانية 1939 - 1945.

كردستان) انفصل عن باقي الداووده باسفين زنكنه وقبل نهاية الحكم العثماني ببضع سنوات قام الزنگنه بطرد (الده لو) من ديارهم التاريخية إلى منطقة شمالية قصية واستقر بعضهم هناك في قوس من القرى مثل أرقام الساعة حول بلدة كفري وبالقرب منها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وبعضهم استقر في الأراضي المنتقلة ملكيتها إلى شركة نفط خانقين الإنكليزية - الإيرانية بمقتضى الامتياز وبقي سكان كفري منهم على جاهليتهم لا يخضعون إلى نظام. ولعبوا دوراً رئيساً في الهجوم على كفري وقتل موظفي الضابط السياسي البريطانيين أثناء ثورة العشرين وبالتأثير الحضاري الذي جاءت به شركة النفط واستخدامها منهم حراساً لها في خانقين أصبحوا أعضاء نافعين في المجتمع. وربما أمكن قولنا أن (الكيتر) هم (الگاژ) الذين ورد ذكرهم في (الشرفنامة) دون أية تفاصيل - ضمن قائمة القبائل الكردية في إيران، و(كيژ) باللغة الكردية تعني الشخص الدائخ أو الطائش وخصومهم يدعون أن الاسم ينطبق على المسمى، وهم يسكنون قريتين أو ثلاثاً على نهر سيروان قرب (قه لاى شيروانه) وقريتين أخريين غربهما على نهر (نارين) وهم فلاحون هادئون ويقال إنهم كاكائيون، على أني لم أتحقق من ذلك.

و(پيواز = 5500 نفس) مع بعض الزيادة، تشتمل على ساق ناحية (وارماوا) الذي كان محشوراً بين سه نگاو سيروان - في أول تنظيم إداري للسليمانية ثم ألحق بكركوك لما غدا قره داغ حدّاً بينهما. والسكان عموماً من الجاف مع قليل من الزنگنه قرب ئاوه سپى غرباً. وتحتل ناحية (قره تپه = 21000 نفس) الزاوية المحدثة بين نهر سيروان وجبل حمرين في أقصى الجنوب الشرقي من اللواء. وأهل قرية قره تپه خليط من التركمان والعرب والكرد. إلا أن أغلبية سكان القرى الأخرى من العرب وأهم قبيلة تحوي هذا المزيج العنصري المثلث هي (كاراوى) في رأس الزاوية. ويروى كثيراً من مزارعها بمياه (سيروان ونارين) إلا أن حياة (قره تپه) كانت دائماً خاضعة إلى مورد الماء الذي ينازعها فيه إقطاعيون وقبائل أكثر نفوذاً إلى جنوب جبل حمرين. ويمثل الكرد هنا قبيلتا (زند، وپالانى) على

(سيروان) شمال (گاراوی) وقبيلة (گيژ) على نهر (نارين) كما ذكرنا (والپالاني) أناس لا يلفتون النظر يحتلون سبع قرى أو ثماني، و(الزند) يسكنون عشر قرى هم على مذهب السنة، ويزعمون أنهم من أتباع الملك العظيم (كريم خان حاكم إيران: 1750 - 1779) الذي ما زال يذكر بالخير والفضل في عاصمته (شيراز).

- 19 -

الحياة في كركوك

غادرت بغداد قاصداً كركوك بخط السكة الحديد الضيق في 20 أيلول 1922 وكان الشيخ محمود ونويل في القطار نفسه. ووصلنا صبيحة اليوم التالي إلى رأس السكة في (كلگربان) التي تبعد أربعة أميال عن كفرى. وبدخول القطار المحطة اقتحم السياج مئات من فرسان القبائل المجاورة كانوا قد تجمعوا لاستقبال الشيخ وراحوا يهتفون ويلوحون بالأعلام وقذفوا بأنفسهم عليه وخطفوه خطفاً وساروا به مسيرة الفاتح المنتصر قبل أن يتمكن الوفد الرسمي في السليمانية أن ينطق بكلمة واحدة من خطب الترحيب التي أعدها لإلقائها في هذه المناسبة. ومكثنا في كفرى ثلاثة أيام وفي الرابع والعشرين منه ودعت (نويل) ومحموداً وحاشيتهما خارج البلد وطار بي الملازم (س.م. كنيكيد S.M. Kinkead) من مرتبات السرب الثلاثين، إلى كركوك[1].

إن التنظيم الإداري في كركوك مختلف كثيراً عن السليمانية فمع أنه لم يضم رسمياً إلى مملكة فيصل إلا أنه كان يدار وكأنه ضم إليها فعلاً ما خلا استعمال اللغة التركية، فلم يكن قاصراً على الشؤون الرسمية المحلية بل تعدّاه إلى

(1) كان كنيكيد أحد أعضاء فريق القوة الجوية الذي ربح (كأس شنايدر) من الإيطاليين في البندقية عام 1927. فقد أنجز أسرع دورة انقضاضية إلا أن محرك طائرته تعطل قبل النهاية وكان الرابح الفعلي الملازم الطيار (وبستر Webster). وقد قتل كنيكيد في العام التالي أثناء محاولته تسجيل رقم طيران عالمي جديد فوق (سولنت Solent).

المخابرات مع بغداد. وكان كل موظفي المدينة من سكانها (وليس ينضب معينهم في معمل تفريخ الموظفين العثماني هذا) ولم يرفع العلم العراقي على سارية السراي، لذلك كان المتصرف الذي هو الرئيس المسؤول عن الإدارة والممثل الأول لكل وزراء بغداد هو الذي ينقل أوامرهم إلى القائمقامين ومدراء النواحي والموظفين الآخرين أما مستشار (القسم) فهو تقنياً، مجرّد من الصلاحيات التنفيذية. ولكن بعد نقل السلطة ولفترة من الزمن وعندما أعوزت الوزراء والمتصرفين الخبرة، جرت العادة في الشمال والجنوب أن تكتب بعض المخابرات المهمة باللغتين الإنكليزية والعربية في حقلين متقابلين، على أن يكون النص الإنكليزي عادة هو الأصل المعتمد. أما هنا فقد حلّت التركية محل الحقل العربي. وتتم غربلة ودراسة المشاكل المعقدة التي تتطلب تبادل وجهات النظر الدقيقة بين اللواء والمركز، أولاً بمخابرات شبكة رسمية بين مستشار (القسم) وبين المستشار البريطاني للوزارة الخاصة قبل أن يتقدم بالنتيجة على شكل توصية وتعليمات مذيلة بتوقيع المتصرف أو الوزير حسب ما تقتضيه الأحوال. وبعد أشهر قليلة من وصولي إلى كركوك أبدل عنوان وظيفتي من (مستشار قسم) إلى (مفتش إداري) تمييزاً لطابع المنصب ودلالة على خلوّه من الصلاحيات التنفيذية، ولكن المندوب السامي بقي عدة سنوات بعدها وظلّ في الواقع حتى نهاية الانتداب تقريباً يتدخل تدخلاً مباشراً في كل شيء قد يتعلق بالموقف السياسي الكردي. وبقي وضعنا أقوى بكثير من وضع زملائنا في الجنوب.

وكان المتصرف (فتاح باشا) وهو جنرال تركي سابق أصله من طوز خورماتو سيداً مهذباً طاعن السن يسرّه كثيراً أن يترك معظم الأعمال على عاتق المفتش الإداري. وكان بين غرفتينا في الطابق الأول من السراي باب مفتوح وكانت مشاوراتنا كثيرة وقد رفعنا الكلفة فيما بيننا، وهو كمعظم الضباط العثمانيين السابقين يستطيب مجالس السمر الليلية لذلك لم تقصر اتصالاتنا على ساعات الدوام، وتفاهمنا إلى آخر درجة ونما ودي له وتعاظم. وأذكر صديقاً مخلصاً آخر

هو رئيس البلدية (مجيد بك) من أسرة (اليعقوبي زاده) ذات النفوذ وهو شخصية قوية وإداري نشيط ذو آراء متقدمة على كثير من آراء زملائه في الأنحاء الأخرى من العراق، وفي رأيي أن (مراد بك) كان من أهم الموظفين، وهو مدير الشرطة: ضابط تركي سابق لم يكن ينتمي إلى قبيلة (گيژ) إلا من جهة الأم أو بالمصاهرة. وقوة الشرطة في العراق تتألف من فرقة مشاة أشبه بالدرك (الجندرمة) وكانت تقوم بالواجبات المعتادة التي تشمل أعمال (البوليس) ومن فرقة خيالة هي أشبه بالدرك. و(مراد) إلى جانب منصبه يقوم بمهام مدير ناحية المركز لغايات عملية (وهي تدخل ضمن المسؤولية المباشرة للمتصرف دون تدخل القائمقام أو المدير، بالنظر إلى نظام الإدارة العثماني العجيب الذي سبق وصفه) وكذلك فهو ينوب عن المتصرف في فض النزاعات القبلية في كل أنحاء اللواء وفق أنظمة ومواد دعاوى العشائر أو بطرق غير رسمية. وقد وجدته واسع الخبرة محباً للنكتة وكنت دائماً أستمتع برفقته في الجولات الكثيرة التي نقوم بها معاً في المنطقة.

وفي سلك القضاء تغطي شخصية نائب رئيس المحاكم (عمر نظمي بك) على شخصية رئيسها وهو من أهالي كفرى قدّر له أن يلعب دوراً مشرقاً في النضال من أجل ولاية الموصل، ثم ارتفع إلى أعلى المناصب فعين متصرفاً ثم وزيراً للداخلية ثم نائب رئيس الوزراء. ومن الشخصيات الأخرى البارزة والقادرة على التأثير في الرأي العام أذكر (عزت باشا) وهو جنرال سابق أصبح وزيراً للأشغال والمواصلات في أول حكومة عراقية، و(ناظم بك) عميد أسرة (نفطچی زاده) الذي كان عضواً في مجلس المبعوثان عن كركوك. وكان مطمئناً إلى أن يقع عليه الاختيار لتولي متصرفية كركوك. فغدا ساخطاً لتفضيل (فتاح باشا) عليه، وثم (عبد الله صافي أفندي) شقيق مجيد بك وعميد أسرة (اليعقوبي زادة) عضو آخر سابق في مجلس المبعوثان عن كركوك. ومن الرؤساء الروحانيين كما يطلق عليهم رسمياً كنت قد ذكرت (سيد أحمدي خانقاه) ورئيس الأساقفة الكلداني. وممن أذكر أيضاً رجلاً يلقب بـ(خادم السجادة) نسبة إلى شهرة في أسرته هي أنها تتوارث حيازة

قطعة من سجادة صلاة النبي محمد(ص). وأذكر كذلك (الشيخ محمد علي طالباني) الأخ الأكبر للشيخ حبيب قره حسن أعتقد أنه غير شقيق) وهو عجوز ملحاح مُعجّز ثرثار في مرحلة طفولته الثانية يكثر من التردّد على السراي وغالباً ما يرى في الشوارع منطلقاً من تكية الأسرة على ظهر جحش (بحريني) أبلق ضخم والريح تعبث بجبّته الطويلة ويده قابضة على شمسية واسعة يبقى يرفعها فوق رأسه لتقيه حرّ الشمس.

وزملائي البريطانيون الأقربون هم النقيب (أ.ف. ميللر A.F. Miller) معاون المفتش الإداري، والنقيب (ف. ريف F. Reeve) مفتش الشرطة والدكتور (وليام كورنر) طبيب الصحة المدني وثمّة أيضاً مهندس للأشغال العامة تشمل دائرة واجباته أربيل. وكان (ميللر) من أفضل الواقفين على اللغة التركية إلا أنه لم يتعلم الكردية والعربية كما دبّت فيه البدانة فلم يعد يستطيع الركوب لذلك كانت قيمته محدودة في الأعمال خارج المدينة على أنه كان من أخلص المساعدين. يحبه الموظفون والأعيان الترك، وكلمته عندهم مسموعة، أما (كورنر) ففضلاً عن كفاءته المهنية التي أكسبته ثقة سائر الطبقات المطلقة، كان أخا سفر رائع لا يعرف للتعب معنى. وطار صيته بين القبائل لنجاحه بالوصول على متن سيارته الخاصة إلى مواضع وعرة جداً كانت تعتبر عاصية ممتنعة عن كل ما يسير فوق عجلات، وكان يقطن الجزء الداخلي من بيت تركي عتيق بينما اختصصتُ بالجزء الخارجي منه وقد واصلنا تطبيق المشروع الذي وصفه سَلَفِي وهو تخصيص غرفتين من الصحن الخارجي بمثابة مطعم وناد خاص يختلف عدد أعضائه من حين لآخر وكان (كورنر) سكرتيراً له.

ومع أن أربيل كانت تابعة للمتصرف فتاح باشا (اسمياً) فقد اقتضت الأغراض العملية أن تكون إدارتها مستقلة تماماً من كركوك على أن اللواءين كان يشاركان في كثير من المصالح. ويتفقان في كل المشاكل وكنت دائماً أحصر على صلة صداقة مباشرة مع معاون المتصرف (أحمد أفندي) الذي كان رئيس البلدية في عهد الترك

وهو من أسرة أربيلية ذات نفوذ، وكذلك كانت علاقتي بزميليه في أربيل النقيب (لاين) والنقيب (س. لتلديل C. Littledale) مفتش الشرطة.

وتتمثل القوة الجوية في كركوك بضابط الاستخبارات الذي يسكن المدينة وبرف أو سرب من المقاتلات (حسب ما يقتضيه الجو السياسي) يسكن أفراده في حديثة يملكها (ميناس غريب) بالقرب من المطار في ظاهر المدينة الجنوبي وبفوج مشاة كوك Cooke الثامن والخمسين الهندي، وسرية من خيالة الليفي وكلهم يحتلون الثكنات الملاصقة للسراي. ولاحظت في السوق عدداً من البقالين الهنود لا بأس به تبعوا جيش الاحتلال. وكانوا في غياب ممثل بريطاني قنصلي ينظرون إلى المفتش الإداري نظرة الحامي لمصالحهم المشروعة. وما زلت أحتفظ برسالة تسلمتها من أحدهم أراني مسوقاً إلى إثباتها هنا.

«أتشرف بكل احترام أن أعرض أمامكم السطور التالية القليلة بمثابة استئناف لتنظروا فيه بعين العطف، كان اليوم الموافق 7/ 11/ 1923 عيداً كبيراً للهندوس ويعرف باسم (ديڤالي = ديوالي) وهو يعد عندهم يوم عطلة فلا يشتغلون فيه ولا يتعاطون عملاً بل يقضونه باللهو والمرح والأكل وما أشبه... ويلعب الهندوس في كل أنحاء الهند لعبة شائعة جداً أصبحت بمرور الزمن أبرز طابع في احتفالات ذلك اليوم وهي لعبة يتم لعبها بقطع نقود فضية قليلة القيمة وبورق اللعب وإذا أخذنا بنظر الاعتبار شيوعها وأهميتها في هذا العيد الديني، نجد أن الحكومة لم تعترض عليها ونحن نمارسها في الأسواق والحوانيت علناً، وفي المنازل بشكل ظاهر للعيان في عيد ديڤالى. وبصفتي هندوسياً فقد دعوت بعض الأصدقاء إلى مطعمي في ذلك العيد ليشاركوني في العشاء واحتفالات العيد وبحسب العادة المذكورة وضعت ورق اللعب أمام ضيوفي لغرض تزجية الوقت بهذه اللعبة دون أن يخطر ببالنا أنها ستعتبر مقامرة، وبعد بضع دقائق من البدء فيها دخل علينا عريف الشرطة وأوقف اللعبة وطلب مني أن أقدم نفسي إلى مركز الشرطة صباح

اليوم التالي ففعلت وأحلت إلى المحاكمة مخفوراً ففرضت عليّ غرامة قدرها (25) روبية وكانت تهمتي لعب القمار وأنا أرجو الآن من سعادتكم أن تتلطفوا بالنظر في قضيتي على ضوء الحقائق التي سردتها، لتروا كم أن هذه اللعبة بعيدة عن صفة المقامرة. وإني على علم تام بأن القمار جريمة فكيف أسمح لنفسي أن ألعب وأدع الآخرين يلعبون في محل عام كالمطعم؟ إن هذا ما لا يمكن أن يتعاطاه أحد، ولم تكن لعبتنا لأجل ذلك وإنما للاحتفال بالعيد جرياً على عادتنا الهندية التي تسمح بها الحكومة وعند الشك فبإمكانكم أن تسألوا هندوساً آخرين للتثبت في صحة مزاعمي وإني أؤمل تحقيق العدالة من القضية وإعادة الغرامة التي دفعتها، ولي وطيد الأمل بذلك وسأبقى يا سيدي الخادم المطيع».

هافه لى رام

صاحب مطعم فكتوريا

فأبلغت المستدعي بأني لا أستطيع التدخل في قرارات المحكمة وإذا ما رغب في المرة القادمة أن يحتفل على طريقة بشكل لا يثير الظنون وسوء التفسير فعليه أن يراجع الشرطة لاستحصال إجازة سابقة.

وهذا يذكرني بحادثة أخرى مضحكة، إن الظروف التي تسير عليها حياتنا في كركوك إن لم تكن ببدائية عيشتنا في دربند وحلبچة فهي على كل في غاية البساطة ولقد نبئت يوماً أن مخزناً جديداً قد فتح بالقرب من الجسر وهو يعرض للبيع بضائع أوروبية فقصدته لألقي نظرة فإذا بشيطان الإسراف يركبني وإذا بي أبتاع كل ما وقع عليه نظري من أشياء لا نفع فيها في سبيل الشراء لا أكثر ومما ابتعته زجاجة أملاح عطرية مما يستخدم في الاستحمام غالية الثمن من مستحضرات شركة أدوات وعطور تجميل إنكليزية شهيرة. ولم يتفق لي في حياتي كلها أني اقتنيت شيئاً يغلب عليها طابع التأنق والخنوثة ولم يكن لديّ أية فكرة عن كمية الأملاح التي يجب استخدامها كل مرة. فعندما ذهبت أستحم استعداداً للعشاء أفرغت نصف الزجاجة في حوض حديدي مليء بالماء الحار وضع لي في أرضية الغرفة وانتشرت في

الحال رائحة عطرية خانقة ملأت غرفة نومي أولاً ثم زحفت إلى المطعم بعد عبورها باحة الدار وكان أعضاء النادي وضيوف القوة الجوية قد بدأوا يتقاطرون وتضاعفت الرائحة عندما دخلت عليهم وبجسمي رائحة نفاذة منه. ومع هذا كله لم أكف عن استخدامه طوال الأيام التالية ولكن بكميات قليلة حتى نفد. هذا وإن إسالة الماء في الجزء الذي تسكنه من المدينة قد نظمت بالطريقة الشائعة المألوفة، أي بساقيتين مفتوحتين تمران بالمنزل تباعاً، في إحداها الماء النقي (أو هذا ما يقال عنه لأننا كنا نأتي بماء الشرب من صدر الماء) وفي الثانية تجري المياه القذرة. وبعد يوم أو اثنين من استنفادي محتوى الزجاجة العطري نقل لي الدكتور كورنر رسالة مهذبة من جيراننا الذين يسكنون فيما يلينا حملوها له أثناء ذهابه لمعالجة أحد أفراد أسرتهم، قالوا له إنهم سيكونون شاكرين أعضاء مطعم الضباط السياسيين، فيما لو كفوا عن صب الويسكي في الساقية (النظيفة) فالكحول (وهذا معروف عندي) محرم على الورعين ومبتغى الثواب وقد ظهر لي فيما بعد أن إهمال صاحب البيتين هو المسؤول عن وضع الساقيتين المتجاورتين، وعدم ملاحظته لهما قد سبب في أن يفيض جزء من ماء الساقية الثانية على ساقية الماء النظيف أثناء مرورها تحت الجدار الفاصل، وإن جيراننا المهذبين ظلوا عدة أشهر يشربون المياه المستخلفة من حمامي وحمام سلفي!

إن تعييني في كركوك امتدّ عامين ونصف عام وبهذا ذقت كل فصول السنة. في عزّ الصيف ترتفع أقصى درجة الحرارة هنا إلى مستوى حرارة بغداد إلا أن الفصل أقصر، وفصل الشتاء أبرد بكثير إلا أنه ليس قاسياً، ومن متع الخريف والشتاء التي مارستها بعد انتهاء الدوام عادة، هي أن أحتقب بندقيتي وأخرج وأنا شبه متأكد من أني سأعود بزوجين أو ثلاثة أزواج من طير الشيقب أو ربما ببطة برية من مشارف النهر أو في إحدى ترع الري الكثيرة. وأقع بين الفينة والفينة على (سماني) جاثم في الحشيش النابت. أما بخصوص الدراج الأسود وهو الاسم الشائع على ألسنة البريطانيين في الشرق الأوسط للفرانكولين Francolin فاطلابه أصعب من هذا وكنا

نمضي إلى مسافة بعيدة ونخصص يوماً كاملاً له. وموضع صيدنا المفضل القريب نوعاً ما هو قرية (هه فته غار) التي تقع على (طاووق چاى) وهي ملك (دارابك) حيث يقوم هو ورجاله بتشكيل خط من الفرسان للحيدة بالصيد واستنفاره فيهتفون مسرورين كلما يسقط طير بطريقة تهديف لم تشاهد قبل وصول الجيش البريطاني ويوجد قليل من (الدجاج العراقي) وموسمه عادة بعيد عيد الميلاد، في بساتين القرى قرب كفرى وفي الأدغال التي تنمو على ضفاف سيروان شرقاً وخير موضع لصيد البط ملء حقيبة الصياد، هو (قره تپه) حيث يوجد مستنقع واسع يمكن أن تعمل في أرجائه ما بين اثنتي عشرة وعشرين بندقية صياد، والدراج الأسود متوفر في موضع قرب سيروان يدعى (گاراوى) إلا أني كنت كثير التجوال والانشغال في أنحاء اللواء فلم أتردد إلى هذه الأمكنة أكثر من مرة أو اثنتين طوال إقامتي. وقد اعتدت أن أقوم بنزهة صباحية يومية على حصاني طوال فصل الخريف ولم أواصل مدة طويلة إذ وجدت أن الساعة الواحدة التي أقضيها مع (سمكو) تثقلني نعاساً في حدود الساعة الحادية عشرة أثناء الدوام فأقلعت عن العادة. وأجمل النزهات هي في غرب المدينة وكثيراً ما كنت أمرّ بتل مرتفع يدعى (بلاوه) تنتشر على سطحه طبقة من الصوانيات وكسر الفخار التي تعود إلى العصر الحجري المتأخر. واضطرمت حماسة (كورنر) للتنقيب الأثري بكتاب صغير عنوانه (كيف تنقب عن الآثار القديمة) أمر مدير المتحف البريطاني بتصنيفه وتوزيعه على نطاق واسع بين الضباط البريطانيين والموظفين المدنيين، فجمع كورنر مقداراً كبيراً من الكسر الصوانية ليس من (بلاوه) وحدها بل من تلال أخرى كان قد استطلعها في أثناء جولاته الصحية، ثم بعث بها إلى المتحف البريطاني فأثارت بعض الاهتمام ثم وُفّق إلى اكتشاف هام جداً بتعقيبه بعض الرقم الأجرية ذات الكتابات المسمارية بناء على معلومات أنهى بها إليه مريض شاكر فضله، ودله على موقعها بالضبط. عرفت هذه الرقم باسم (رقم كركوك) وكان قد عثر على قليل منها ووجدت سبيلها إلى المتاحف الغربية. ففي زمن ما بين العامين (1922 و1923) حصل خسف ترابي في طرف من تل كركوك الكبير على إثر أمطار غزيرة فجرف التراب حاملاً معه

عدداً من الرقم استخلصت بعد رفع الأتربة المنهالة، ولم يكتب ثبت رسمي باللقى. إلا أن ثماني آجرات عليها كتابات وصلت متحف بغداد بوساطة تاجر لا معلومات لديه عنها أكثر من أن مصدرها كركوك. وكان (كورنر) قد شاهدها في أثناء زيارته للمتحف فقام بعد عودته بالتحري عمن عثر عليها، فنجح وكان مواطناً مسلماً محترماً فابتاع منه خمسة وعشرين رقيماً على حساب متحف بغداد وثمانية عشر رقيماً لنفسه (اشتراها منه المتحف البريطاني) وكانت هذه الألواح ملقاة فوق بلاط عمقه عدة إنشات من مادة كاربونية. وإلى هذه الوضعية يعود الفضل في قوتها وحسن طبخها. وبطلب من (كورنر) قامت الآنسة (گرترود بل) بإرسال الدكتور (إدوارد چيرا Dr. Edward Cheira) من المعهد الأمريكي للأبحاث الشرقية في بغداد وزوّد بمخصصات صغيرة قدرها (500) روبية ليقوم بتنقيبات أخرى في شباط 1925 إلا أن فحص الموقع أظهر أن طرف التل لا يمكن التنقيب فيه إلى أعمق مما فعلته الأمطار دون تعريض المنازل القائمة على الحافة إلى السقوط.

في ذلك الزمن كان (كورنر) قد سمع حكايات عن قروي من (تر گه لان) التي تقع على مسافة تسعة أميال من جنوب غرب كركوك، كان قد عثر قبل (35) عاماً على شيء من الرقم أثناء محاولته استخراج بعض الآجر من أساس أرضي نافر في موقع يدعى (ويران شار = المدينة الخربة) بالقرب من تل كبير يدعى (يورغان تپه) وواصل هذا القروي تنقيبه سراً بضعة أشهر والظاهر أنه كان يحفر أنفاقه باليد، وأشيع أنه قام بعدة رحلات إلى بغداد مع جحش إلى أن وجد في صبيحة يوم مختنقاً في إحدى أنفاقه التي حفرها، فعرف الموقع منذ تلك الحادثة باسم (عطيه خرابه سي = خرائب عطية) وكانت آثار نشاطه ماثلة للعيان عندما قام (كورنر) بأخذ (چيرا) إليها بعد أن استحصل له إجازة من مالك الأرض (حسين بك نفطچي زاده) عم (ناظم) وعندما زرت (چيرا) بعد أربعة أسابيع من بدئه العمل وجدته قد أزاح التراب عن صحن دار مرصوفة بالأجر تغطيها طبقة من الرماد استخرج منها ستين لوحاً عليها كتابات مسمارية وكان القلق يساوره لأن المخصصات قد

أوشكت على النفاد، وسرني جداً أن أمد إليه يد العون، فأبرقت إلى الآنسة (بل) ملحاً بضرورة زيادة المخصصات لإكمال موسم التنقيب، فنجح مسعاي وفي اعتقادي أنه لم يكن في الإمكان تعقيب مصير أكثر من الواحد والخمسين رقيماً التي ذكرنا أنها حصيلة تل كركوك، والثابت أن كل ما يدعى برقم كركوك مما بلغ المتاحف الأوروبية قبل العام 1925 هي في الواقع حصيلة تنقيبات (عطية) غير المشروعة.

نشر المستر (س.ج. كاد C.J. Gadd) في «مجلة آشوريات وعلوم الآثار الشرقية - 1926» دراسة للرقم الواحدة والخمسين من تل كركوك والواحد والثلاثين رقيماً من (يورغان تپه) التي أصبحت من ممتلكات المتحف البريطاني. وقد تمكن أن يجزم بشكل قاطع أن كركوك الحالية، إنما هي المدينة الغابرة (أرابا Arrappha)، وكان موقعها قبل هذا الاكتشاف موضع أخذ ورد، كما أثبت أن (خرائب عطية) ليست إلا موقع مدينة (نوزوو) وكثير من أسماء الأعلام الواردة فيها لم تكن لا بابلية ولا آشورية. وإن المعاملات الاجتماعية التي ورد وصفها في مقررات المحاكم والعقود المنقوشة في معظم الألواح تشير إلى مجتمع يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان يسود المجتمعات المعاصرة المجاورة.

واستأنفت التنقيب في (نوزوو) خلال الأعوام التالية، بعثات أمريكية متتالية حسنة المعدات فكشفت الكثير، من ذلك آلاف من الرقم المسمارية أثارت بحوثاً علمية هامة ونجم عنها مكتشفات تاريخية واجتماعية وأنا مدين للأستاذ سدني سميث بالتعقيب التالي:

«إن كتابة ولغة الرقم الأولى تعود إلى عهد ملوك أسرة (الأگيد) التي عاشت في القرن الثاني والعشرين ق.م. تقريباً حيث كان الموقع واسمه آنذاك (گاسور) تحت سيطرتهم. هذه الأسرة امتد نفوذها إلى (عيلام) فترة من الزمن. وفي القرن التاسع عشر ق.م. ذكر في رسائل التجار التجارية من الذين استقروا قرب (قيساريه = مازاكة) وهم رعايا آشوريون، شكل من المنسوجات بوصفه (من گاسور) وفي

زمن (حمورابي) أي في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م. كان موقع (يورغان تپه) الحالي يدعى (نوزوو) وقد ذكرها الآشوريون في رسائل عثر عليها في (مائير) وإن الملك الأول من الأسرة الحاكمة الكاشية التي استولت على بابل يذكر بسط سيطرته على (كوتيوم) (حلوان = المان)، وعلى بلاد الكاشيين الأصلية بشكل يدل دلالة واضحة أن منطقة كركوك كانت تحت حكمه في 1600 ق.م. تقريباً. إن التنقيبات في (نوزوو) لم تزودنا بأي دليل كتابي عن الفترة المنحصرة بين عصر التجار (القرن التاسع عشر ق.م) وبين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن الخامس عشر ق.م. والمقدار الكبير من الرقم الذي يعود إلى القرن الأخير برهنت محتوياتها على وجود طبقة سكنى في (نوزوو). ويتضمن نشاط أربعة أجيال من الأرستقراطية الإقطاعية (الحورى) وهو الشعب الذي يسمى في التوراة (الحوريون) وكان يستخدم لغة كاد يكون ثابتاً أنها متصلة باللغة (الأورارتية) المتأخرة ووجدت كتابات، بالمسمارية البابلية، وبالمسمارية الأبجدية (الرأس شمرا). وغدت أساطيرهم وطقوسهم الدينية معروفة إلى حد ما من النصوص الذي عثر عليها في (بوغاز) ويظهر أنهم كانوا أصلاً من إقليم (طوروس) بدأوا ينتشرون في بلاد ما بين النهرين في أوائل القرن الثامن عشر ق.م. حتى وادي العاصي واختلطوا بسكان (آتشاناه = عطشانه) التي كشفها (وولي Woolley) وكانوا عنصراً كبيراً آنذاك. وفي أوائل القرن الخامس عشر ق.م. تم تحالف من ممالك أسماؤها ذات مَشَابه بالشكل القديم للغة السنسكريتية قد يمكن اعتبارها أسماء هندو إيرانية. ومن هؤلاء الملوك الأحلاف ملك الميتانيين (ساوستا) الذي هو زعيم التحالف وفاتح مدينة آشور وناهبها. ولقد عثر في (نوزوو) على رسالة منه تشير إلى أنه كان باسطاً سلطانه فيها ويعود تاريخ تلك الرسالة إلى حدود (1440 - 1420 ق.م.) أي إلى النصف الأخير من الفترة التي تمثلها الأجيال الأربعة أو الخمسة في وثائق (نوزوو). ولما استفاق الآشوريون من تلك الضربة التي وجهها إليهم ملك الميتانيين، كانت خطواتهم الأولى الهجوم على إقليم كركوك وأن آخر وثيقة عرفناها من (نوزوو) تثبت وقائع نهب الآشوريين للقرية في حدود العام 1400 ق.م.

وكان الإقليم برمته يسمى (أراپيا) والعاصمة التي هي في كركوك يمكن أن يطلق عليها هذا الاسم. على أنها كانت تعرف باسم (مدينة الآلهة) ويظن بعض الباحثين أنها كانت عاصمة لملك تابع، ويعتقد آخرون بأن ملوك ما بين النهرين كانوا يقيمون هنا. ومن الثابت أن ملكاً من الملوك كان لديه قصر في (نوزوو) خصص جناح منفصل منه للنساء والأطفال، ومن المهم أن نذكر هنا أن (كيخسرو) الميدي الذي تحالف مع (نبوبولاصر) في آخر حرب ضد نينوى (617 - 612 ق.م.) استهدف (أراپيا) أولاً. هذا وأن تاريخ إقليم كركوك القديم يشبه في كثير من الأوجه الدور الذي لعبه في تاريخ النزاع الطويل بين العثمانيين وشاهات إيران».

هناك اكتشاف آخر ذو أهمية تاريخية حصل في 1923 فقد عثر جماعة من الليڤي الأثوريين أثناء ما كانوا يقومون بتسوية ساحة العرضات مقابل ثكناتهم على جرة مختومة، ملئت إلى الحافة بألفي مسكوكة نقدية ساسانية تقريباً، ونال معظمنا عدداً من هذه المسكوكات وفي المجموعة التي نالها (كورنر) وجد المتحف البريطاني ما يمثل خمسة ملوك وهم (قباذ الأول 499 - 531م) و(خسرو الأول 531 - 579) و(خسرو الثاني 590 - 628م) و(هرمزد الرابع 579 - 590م) و(بهرام السادس 590 - 591) وآخر المسكوكات يعود تاريخها إلى 601م، وهنالك ما يميل بنا إلى الافتراض بأن هذا الكنز كان قد دفن عندما أخذ الغزاة العرب يهددون كركوك بعد معركة (القادسية) الفاصلة في 636م التي توجت بالاستيلاء على (قطيسفون) عاصمة الفرس الشتوية وهي تمهيد لانقراض الأسرة الساسانية في 651م.

وأشهر شخصية محلية في كركوك قذف بها العصر الحديث، هي بلا منازع (الشيخ رضا الطالباني) الشاعر الذي اقتبست من آثاره أبياتاً. ولعله (باستثناء حاجى قادر كوي) أشهر شاعر في كردستان الجنوبية وأحبهم إلى النفوس، رغم لغته ذات الأسلوب العتيق بما يتخللها من كلمات عربية كثيرة. ووقائع حياته تشذ عما يقع عادة بالكرد، وخصوصاً أبناء الأسرة الدينية الصغار التي اشتهرت جداً في فترة

حكم السلطان عبد الحميد. وقصائده تنطوي على أعظم الأهمية لأنها تعكس ملامح معينة من المجتمع الذي عاش فيه، وأرجو ألا يعتبر نبواً في السياق إذا ختمت هذه الصورة للجانب المرح من حياة كركوك بفذلكة مختصرة عن هذه الشخصية الشهيرة[1].

الشيخ رضا هو حفيد (ملا محمود) مؤسس الأسرة وابن عم الشيخ حميد ولد في حدود العام 1840 وتوفي في 1909 وارتحل كثيراً في صدر شبابه متجولاً في الأقطار العثمانية ومكث ثماني سنوات في الأستانة برعاية (كامل باشا) الكبير وقضى سنتين عند خديوي مصر يعلم أولاده الفارسية ثم عاد إلى الأستانة وبقي فيها فترة، ثم حج إلى مكة، وعاد بعدها إلى كركوك. وأخيراً استقر به المقام في بغداد ولم يبارحها. إن ما يمتاز به أسلوبه الشعري هو ما يسميه النقاد الفارسيون بـ(زور كلام = أي قوة التعبير) وهي ميزة أرجو أن تنكشف للقارئ من غموض ترجمتي الحرفية الدقيقة لما أثبته من مقطوعات ويظهر في كثير من قصائده أنه مبتز للمال لا يخجل ولا يرحم، وهجّاء مقذع. ويظهر أن بعض رحلاته كانت تثير خصومات ونزاعات مع أفراد أسرته وهو أمر ليس بمستغرب إن كانت المقطوعة التالية نموذجاً للرسائل التي يبعث بها إليهم.

به رخى تير

قـه ومـه كـان بـه و ذاتـه وا حـو كـمـى لـه سـه ر بـحـرو بـه ره

بـه رخـى نـيـرى گـه نـه نـيـرى هـه ر كـسـى خـاوه ن مـه ره

ديـتـم بـه كـريـا ئـه ى درم گـه ر (فـي الـمـثـل) شـيـري نـه ره

---

(1) أكثر المواد التي أدرجتها في الفقرات القادمة ظهرت في مقالي «شاعر كردي هجّاء: الشيخ رضا الطالباني» نشر في (مجلة جمعية أواسط آسيا الملكية) المجلد: 22 لسنة 1935 (كانون الثاني)، وقد ظهر بعدئذٍ في العام نفسه، ديوان له يحوي مجموعة من قصائده الكردية والفارسية والتركية طبعت في مطبعة (مريوانى) ببغداد.
ملاحظة المترجم: إن مريوانى التي وردت في هذه الحاشية ليست المطبعة وإنما هو الناشر.

بـا نـه قـه ومـيـسـت و نـه زانـن ئـه م هـه مـوو شـور وشـه ره
گـشـت لـه سـه رب بـه رخـى شـه ل و كـاورى لـه رو بـه رخـى گـه ره
الترجمة:

كباش

يـا قـومـي أقـسـم بـذاتـه، ذلـك الـذي وسـع حـكـمـه الـبـحـر والـبـر
مـن كـان يـمـلـك غـنـمـاً مـنـكـم ولا يـرسـل كِـبـاشـاً فـأهـاجـمـه وأمـزقـه
وإن كـان لـه فـعـل صـولـة الأسـد الـغـضـنـفـر
وخـيـر لـه أن لا يـؤول إلـى هـذا وأن لا يـعـرف الـنـاس أن كـل هـذا
الـشـجـار، هـو حـول كـبـش أقـزل وجـدي أجـرب وحـمـل هـزيـل
والمقطوعة التالية هي حكاية يرويها عن لسانه نفسه حول مغامرة لابن أخيه.

برازا عزيزه كه م

رووم كـره بـه رفـسـي خـاسـى بـرازا عـزيـزه كـه م
ئـه مـشـه و بـه صـه و تـه واضـه ع و ئـيـخـلاص و سـه ركـزى
روانـيـم لـه درزى قـاپـى بـه وه خـوي و تـابـعـيـان
دانـيـشـبـوون دوو ريـزه لـه ده ورى خـلـه ى كـه زى
ده ت دوت تـه مـى كـرابـوو بـه مـه خـصـوصـي قـابـيـيـه وان
خـوي كـرد بـه نـيـره تـورك و وتـي (كـيـم بـيـلـيـر سـزي)؟
پـيـم وت مـهـم فـلانـه كـه سـم مـامـه شـيـخ ره زام،
تـانـمـز مـيـس خـومـه يـيـس ئـه فـه نـدى مـه گـه ر بـزى؟
ئـه م سـاه ددى بـابـه بـو مـنـه، ئـيـظـهـار كـه تـا بـروم
يـان مـه رحـه مـت كـه حـيـزه لـه سـه رمـا گـونـم تـه زى[1]

(1) لم ينقل المؤلف هذين البيتين من القصيدة:
ئه مجا به كوردى هاته ته كه للوم، وتى به لي

وه ختـــى كــه لام مــوعــامــه لــه زايــنــم عــه ره ز چـــى بــه
ده رحـــال كـــه رامـــه پـــاشـــه وه نـــه مـــا بـــه عـــاجـــزى

الترجمة:

ابن أخي العزيز

قصدت مجلس ابن أخي العزيز الخاص، وكنت تلك الليلة أشعر
بكثير من التواضع والإخلاص والوداعة، ونظرت من شق الباب
فإذا بـه وخلانـه قـاعـدون فـي صـفـيـن حـول (خـفـر ابـن كـزى)
وأعتقد أن حارس الباب قد أُنذر بشكل مخصوص فانتصب أمامي
قـائـلاً بـالـتـركـيـة «مـن تـكـون» فـأجـبـتـه إنـي فـلان ابـن فـلان
عـمـك شـيـخ رضـا، ألا تـعـرفـنـا يـا خـمـيـس أفـنـدي؟ وإذا
كـان إغـلاق الـبـاب فـي وجـهـي بـسـبـبـي فـقـط فـأصـدقـنـي الـقـول
وسأذهب، وإلا افتح لي أيها «المأبون» فخصيتاي تقضقضان برداً!

(لجأ الكاتب إلى حذف شيء غير مستحب ذكره في هذين البيتين الأخيرين فأثبتناهما نحن كما هما):

وعـنـدمـا تـبـيـن لـي الـغـرض الـمـأمـول مـن هـذه الـمـعـامـلـة
انـصـرفـت إلـى حـال سـبـيـلـي وقـد ركـبـنـي الـغـيـظ

وكان (خفر) المذكور هنا، راوية مشهوراً لقصص من نسيج الخيال والكذب والمبالغة وهو خير نموذج لرجل ينسب إلى أمه (كزى) عوضاً عن أبيه وبمعرفتنا حقيقة طبع شيخ رضا، لنا نفترض أنه كان أقل غيظاً لسلوك (أخيه) الفاضح، من حرمانه قصص (خفر) وقد أكد لي الشيخ حبيب الطالباني أن الشيخ رضا في قصيدته هذه لا يقصد (ابن عمه العزيز) وإنما يريد أخاه الأكبر (محمد علي) العجوز صاحب الشمسية والجحش!

= له و شيخه حيله بازه كن و قومار بازر كه ردزى

وترجمتها: وهنا طفق يتحدث بالتركية قائلاً: بلى إني أعرف أن أمثال هذا الشيخ هم الخداعون والمكارون وسراق الحمير. (المترجم)

ولم يكن ابتزازه قاصراً على ذوي قرباه، بل تعداه إلى الآخرين، والرسالتان الشعريتان التاليتان قيل إنهما موجهتان إلى كل من السيد (نوري النقيب) أحد أفراد أسرة البرزنجة الساكن في السليمانية، وإلى (حاجي أسعد آغا حويزى) الساكن في (كوي).

كه له شيرى

كــه لــه شــيــرى بــه (ره زا) لازمــه كــرمــاشــانــى
زيــره ك وچــابــوك و دهــم كــه رم و دروشــه رانــى
كـلـه شـيـرى كـه قـه پـى گـرت لـه بـنـاگـوي ى كـه لـه شـيـرى
پــر بــه ده م بــيــچــرى ده ك ســه گــى هــه ورامــانــى
كـه لـه شـيـرى كـه ئـه گـه ر شـيـرى نـه رى بـيـتـه مـه ساف
راى رفــيــنــى بــه شــه قــى مــيــســلــى كــه رى تــالانــى
بــه دريــژى وه كــو مــه ولان بــه گــه لــه ى مــيــرى بــه يــات
بــه جــه ســامــه ت وه كــو كــوبــخــا زلــه كــه ى بــيــبــانــى
ئــه ى نــه قــيــب زاده بــنــيــره كــه لــه شــيــريــكــى وه هــا
بــو ره زا كــه ى گــه كــه ي قــاپــي يــه كــه ي كــه يــلانــي

الترجمة:

ديك القتال

(رضــا) يــلــزمــه ديــك قــتــال، ديــك كــرمــشــانــي
ذكــي، ســريــع، نــقــار، قــوي، عــرّاك، مــقــدام
ديـك عـنـدمـا يـطـبـق مـنـقـاره عـلـى شـحـمـة ديـك آخـر
يـقـلـع مـنـهـا مـلء فـم، مـثـل كـلـب هـورامـانـي
ديـك إن صـال عـلـيـه أسـد غـضـنـفـر فـسـيـدفـعـه
عـنـه مـثـلـمـا يـدفـع الـمـرء جـحـشـاً مـنـهـوبـاً أمـامـه
ديـك طـويـل الـرقـبـة كـمـولانـا الـبـك (مـيـربـيـات)

ضخم الجسم مثل رئيس قرية بيبان البدين
أي نقيب زادة! ابعث بديك قتال كهذا
إلى (رضا) ذلك الكلب الذي يحرس الحضرة الكيلانية

توتن

تؤ كه م نه زه رى ده رحه قى من ايستته كه ئاغا
من ماوه هه واى صوحبه تى توم هه ر له ده ماغا
بوتوتنه كى بيشه مه و(شاوور) و(شيتنه)
شيت بووم و نه هات وه ختة دلم ده رچى له داغا
جاران چه به جاغ و چه به بار بوت هه ناردم
ناله نيرى ئه ميستا نه به بارو نه به چاغا
رى ي نه ونه وكه باجگيرى ئه كه ر زوره ده فه رموى
رى ي خاسه به شه و خالى يه با بى به بلاغا
الترجمة:

تبغ

أنت يا آغا في هذه الأيام تتناسى إعطائي حقّي
وأما عني، فشوقي إليك لا يبارح فكري
وإني لأهيم حباً بتبغ (بيشمه وشاوروشيتنه)
ولم يردني منه شيء.. وها أن قلبي يكاد يتفجّر آلاماً
في الماضي كنت تبعث به إليّ جراراً وأكياساً
أما الآن فأنت لا ترسله لا بالجرار ولا بالأكياس
وتقول إن جباة الاستهلاك كثيرون على طريق بئر النفط
لو صح هذا فطريق خاسة مهجور ليلاً
ولك أن تدعه يأتي إذن من بلاغا

أعتقد أن معظم أجزاء القصيدة واضح مما سبق ذكره في هذا الفصل وما قبله. في القصيدة الأولى يقصد بنهيق الجحش المنهوب، إن الحيوان المسروق يصعب حثّه على السير في أي وقت وحالة، ولذلك يستدعى بذل مجهود بشري فائق لقيادة جحش منتهب إلى بر الأمان قبل أن يدركه المفتشون عنه، وهذه الحقيقة يعرفها أصغر طالب مدرسة كردي، وأما في القصيدة الثانية فـ(شيتنه) هي قرية و(بيشمه) هو اسم نوع من التبغ ذي نكهة خاصة، وطريق بئر النفط يدخل كركوك من الغرب قاطعاً ما هو الآن حقل يعود إلى شركة النفط العراقية وطريق (خاسه) يسلك قاع النهر الجاف من الشمال الشرقي، و(بلاغه) هي عين ماء في أسفل التل الكبير قرب موقع (بيعة الشهداء) الأثرية.

على أن تلبية هذه الطلبات لا تعني أن متسلمها سيكف ويقنع بما جاءه، وهذا توضحه القصيدة التالية الموجهة إلى (ميرانى خدر بگك) من خوشناو.

ئيسترى ديارى

میر بە صە د منتە ت هە ناردی ئیستریکی رووت و قووت
دە ست و پا سسست و سە قە ت ئە ندامی هە روە ك عە نکە بووت
خاوە نی ئالیکی نالیم بی نە داوە موتلە قا
داویە تی ئە مما وە کو بیستوومە قووتی لا یمووت
پشتی رئیش و شانی زامدار جە دە و بو ناعیلاج
چە ند قروو شیکم هە بوو بوم دا بە نە و ت و عە نزە رووت
(سە ی فتاح)ی مە یتە رم روری بە موجهە ت لی ی نە وی
کلکلی دە رهینا لە بن ئە مجا بە ئاستە م کوی ی بزووت
کە رچی ناتوانی ببزوی هیند لە رو کە م قووە تە
دە نکە جویە کی نیشان دە ی تا قیامە ت دی لە دووت
پووش لە لای حە لوایە، حە تتاکوو پە لو شە ی چنگك کە وی
بای ئە دا لوولی ئە دا، قووتی ئە دا مانە ندی حووت

كـه ر قـه لـه و بـى نـه م ئـه جـنـنـه نـبـره تـه سـخـيـر نـاكـوي
غـه يـرى چـه نـد ده رويـش ره فـاعـى بـه زه بـرى جـه لـجـه لـوووت
مـه سـلـه حـه ت وايـه هـه تـا نـه ى خـواردووم بـيـنـيـرمـه وه
زور ئـه تـرسـم ده فـعـه ى بـدا بـمـكـا بـه قـووت

البغل المهدى

الترجمة:

مَنّ عليّ (الـمـيـر) مَـنـةً عظيمة بإرساله لي بغلاً عارياً أجرد!
قوائمه الأربع ضعيفة عجفاء وجسمه مثل جسم العنكبوت
لا أقول إن سيده لم يطعمه شيئاً من العلف، حاشاي طبعاً
فقد قدم له شيئاً، قيل لي إنه «القوت الذي لا يموت»
ظهره مقروح، منكباه مسلوخان مدميان كتفاه متقيحان
وبما بقي عندي من قروش قليلة ابتعت له نفطاً وعنزروتاً،
وفي يوم، مال إليه بيطري «سيد فتاح» وقد أعيته منه الحيل
وجرّ ذيله حتى قلعه من جذوره، وهنا رفت أذنه قليلاً!
ومع أنه عاجز عن الحركة، لضعفه وهزاله الشديدين
فإنك لو أريته حبة شعير واحدة فسيتبعك حتى يوم القيامة
التبن عنده حلوى، فما إن تشد أسنانه على قبضة منه
حتى يهزها ويلوكها بين ناجذيه ويبلعها كالحوت الجائع
وإذا أدركت السمنة هذا الغول الطماع فلا علاج لأمره
إلا بالشيخ رفاعي يقرأ عليه أسماء الجلجلوت
وخير لي أن أعيده إلى أهله قبل أن يأكلني
وأنا أخشى أن يبلعني يوماً ويجعل مني وجبة طعام له

ويقصد بالبيت الأول أن البغل لم يكن عليه سرج ولا برذعة عندما أرسل له.
أما العنزروت فهو على ما يقال نوع من الأعشاب فيه زهرة صفراء سامة تشبه زهر

التبغ، ويشيع استعمالها علاجاً كما ذكر في القصيدة. ودراويش الطريقة الرفاعية اشتهروا بشفاء لدغات الحيات. والجلجلوت هو كما يظهر كائن غير بشري أو غول يستحضره هؤلاء عند ممارستهم شعبذتهم.

وهناك طائفة من أشهر قصائد (رضا) تتضمن هجاءً مقذعاً بأعضاء الأسرة الطالبانية، وبعض القبائل الأخرى كالجباري والداووده والكاكائية إلا أن أغلبها موجّه لأفراد معينين وهي أقذع وأفحش من أن تترجم.

في الفصل الثالث والثلاثين من كتاب گيبون الشهير «انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية»، ذكر لما أطلق عليه (الأساطير السخيفة لتاريخ الكنيسة الأول) تلك الخرافة الخالدة عن (نُوام إفسس السبعة) وأقصد بهم الشبان النصارى السبعة الذين بنى الامبراطور (داقيوس) جداراً فسد به مدخل الكهف الذي كانوا فيه فظلوا هناك نائمين مائة وسبعة وثمانين عاماً، حتى جاء (ثيودوسيوس) إلى الحكم وهذه الوقائع تختلف عما جاء من (سورة الكهف) الثامنة عشر حسب التسلسل القرآني. إذ ذكر أن نومهم كان ثلاثمائة وتسع سنوات والتفاصيل الجذابة الرائعة تثبت أن كلبهم كان مستلقياً عند المدخل بيدين ممدودتين. وأما عن عدد «أهل الكهف» (أصحاب الكهف كما يسميهم القرآن الكريم) فقد ورد في الآية ما يلي: ﴿بعضهم يقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم، وبعضهم يقولون خمسة وسادسهم كلبهم وبعضهم يقولون سبعة وثامنهم كلبهم. . .﴾ وشارحو القرآن المسلمون يفسرون الآية، بأن الكلب داخل في عدد أصحاب الكهف ولذلك كان حتماً من الداخلين إلى الجنة معهم. وكان (الشيخ رضا) قد توفي في بغداد ودفن في مقبرة الشيخ عبد القادر الگيلاني، وعلى شاهد قبره يرى الزائر الآن مقطوعة شعرية فارسية نظمها قبل موته تشير إلى هذه الأسطورة:

يا رسول الله! چه باشد چون سگی صاحب كهف
داخل جنت شوم درزمره اصحاب تو؟
او رود درجنت ومن در جهنم كی رواست؟
او سگی اصحاب كهف، ومن سگی اصحاب تو

الترجمة:

يا رسول الله! ماذا لو كنت كلباً لأصحاب الكهف؟
فأدخل الجنة مع أصحابك أنت؟
أيدخل هو الجنة، وأذهب أنا إلى النار؟ فكيف لو شئت أن أكون
كلباً لأصحابك أنت مثلما كان ذاك كلباً لأصحاب الكهف؟

- 20 -

راولاش

يمكنني الآن استئناف الحديث السياسي من النقطة التي وقفت عندها في بداية الفصل الأخير. في أيام بقائي في كفرى وهي ثلاثة، تجنبت مقابلة (شيخ محمود) إلا أني اجتمعت بضع دقائق مع رؤساء وفد السليمانية وهم (أحمد بگي، توفيق بك، وحه مه ي عبد الرحمن آغا، وعزت بك جاف، ومصطفى باشا) وهذا الأخير جنرال تركي سابق. أذهلتني جرأتهم في اعتبار أنفسهم أعضاء الحكومة الكردية الوطنية المؤقتة. وعلى كل كان شيوخ القبائل يتحدثون بحماسة عن (كردستان) التي تمتد إلى جنوب جبل حمرين، كان التهديد التركي بطبيعة الحال هو شغلي الشاغل عند وصولي كركوك. لقد أشفع (أوزدمير) نجاحه في رانيه باحتلال كوي بقوة صغيرة. وبإرسال (عباس محمود) من الپشدر المعادية على رأس جيش عشائري (له شكر) مع قوة من جنوده النظاميين لتهديد السليمانية بالذات، على أن أحد وجوه المدينة أقنع (عباس) بالتوقف في (سورداش) انتظاراً لمقدم (الشيخ محمود) ووصلت دوريات من (كوي) إلى الزاب حتى (طقطق) وأسقطنا إنذاراً من الجو على (كوي) نمهل موظفيها ثلاثة أيام لطرد الأتراك إن كانوا يريدون أن تبقى مدينتهم بمنجى من القصف. ولم يكن هذا عدلاً منا كما أراه الآن ولقد أجابوا أن وجود العشائر في صف العدو يجعل ما طلبناه مستحيلاً واستمهلوا وقتاً واتفقت مع (مينيت) الذي كان الآن قائداً لكل قوات الليڤي في كركوك بأن أول ما ينبغي لنا عمله هو وضع حامية في (آلتون كوبري) لحماية

الجسر، وتأمين المواصلات مع أربيل والموصل، واقترحنا أيضاً هجوماً جوياً شديداً على جيش قبائلي في سورداش. وفي 27 أيلول تسلم (مينيت) جواب الرفض المألوف لكلا الاقتراحين من القيادة العامة، وفي اليوم نفسه زارني ضابط ركن أقدم من القوة الجوية بعثه نائب مارشال الجو (السير جون سالموند) لبحث الموقف، لأنه كان يتوقع نقل القيادة العسكرية في العراق إليه في الأول من تشرين الأول تطبيقاً للقرار المتخذ في مؤتمر القاهرة. فكانت الزيارة مثل نسمة من هواء منعش، وخطوة تمهيدية لتفاهم ودي وثيق كان طابعاً مميزاً للصلات بين (الضباط السياسيين) وبين قادة القوة الجوية طوال السنوات التالية. ولثقتي التامة بأن تعيين (السير جون سالموند) جاء في وقته المناسب لإنقاذ العراق فقد أسرعنا في تحقيق خططنا. إذ لو ضاعت ولاية الموصل فإن ولايتي بغداد والبصرة وحدهما لا يمكن أن تقوم منهما دولة قوية، وفي اليوم التالي لزيارة ضباط الأركان، بل قبل نقل القيادة بصورة رسمية، كانت الطائرات فوق (سورداش) تبحث عن الـ(له شكر) المعادي ومع أنها لم تعثر عليه في مكمنه الصخري المكلل بالغابات فإن مجرد استعراضها الجوي كان لا يقدر بثمن.

وركبتني الحمى يوم وصولي كركوك واضطررت إلى تصريف كل هذه الأمور وأنا في فراشي، وشعرت في 29 منه بقوة تكفي لترك الفراش وركبت سيارة إلى آلتون كوبري ولم أطأ بعد بلاط مكتبي في السراي وكانت سفرتي مملة في طريق طوله ساعتان، وهناك كان عملي يتضمن مواجهة الاستعدادات التركية واتخاذ إجراءات تهدف إلى تحسين استخباراتنا في المناطق التي أخليت، ولأضع اليد على ثلاثة خانات حتى تعسكر فيها قوة من الشرطة المدنية، كنا نزمع إرسالها مهما كانت الظروف وسريتين من الليفي، كنت واثقاً بأنه سيصادف على إرسالهما في 1 تشرين الأول إن لم يكن قبله.

ذكرت أن قرية آلتون كوبري قد بنيت على جزيرة وسط النهر، وقوامها 400 منزل مع سوق على جانبي الشارع الرئيس، حيث كانت وسائل النقل المارة تصدم

البضائع المعلقة خارج الدكاكين وسيقان الجالسين على مصاطب المقاهي ولم تكن الأبنية قد انتشرت بعد على ضفتي النهر الخارجتين وكانت القوات التركية المتراجعة في 1918 قد نسفت الجسرين فأقيم عوضاً عنها جسر حديدي ذو عوارض متشابكة ليس فيه شيء من الجمال إلا أنه لم يقو على إفساد روعة المنظر من الجنوب رغم قلة المياه في ذلك الموسم: هذا المنظر هو سراي حكومي صغير عتيق مشاد على جانب الطريق كقنطرة، وزرقة ماء النهر المخضوضرة الشفافة يجري من عاليته خلال أقنية عميقة ضيقة كأنها نحتت نحتاً في الصخر ومن جهة قصبته يمر بأرض زرعت بطيخاً على أسفل السفوح الصخرية التي تنتهي جذورها في أسس جدران المنازل المتقوضة فوقها.

ولم يتسنّ لي الحصول على المعلومات الكثيرة عن الوضع، لأننا كنا نفتقر إلى جهاز استمداد للملعومات منظم. ولكني علمت من أصحاب الأكلاك القادمين من (ميرزا روستم) أن (أوزدمير) قد نصب مدير ناحية في (طقطق) هو أحد أغوات الكوي الحاقدين. وتوالت التأكيدات حول انضمام قبيلة (شيخ بزينى) إلى العدو، وأنها انتشرت على الطريق العام بين كركوك وكوي على ضفتي الزاب. وفي 21 أيلول أي بعدها بيومين تحرك (مينيت) بكل قوة الليڤي إلى التون وكوبري وفي الوقت نفسه شنّت القوة الجوية من الموصل وكركوك هجوماً جوياً شديداً على منطقة الشكنات في كوي وعلى قرى (شيخ بزينى) الكبيرة. وفي 5 تشرين الأول وصل كركوك جدّ (السر جون سالموند) وبات ليلة ضيفاً عليّ. كان رجلاً أقرع وسيماً أنيق اللباس، وُهِب خلقاً ساحراً عالياً، ويشع نشاطاً وحيوية، وقد أوضح لي بصورة جازمة أن خطّنا من الآن سيكون خط هجوم وقضينا ليلة لا تنسى. فقد جلسنا بعد العشاء فوق سطح المنزل في ضوء القمر الساطع الذي يكاد يبهر البصر، وأصغى هو بصبر وأناة إليّ وأنا أنفث ما أثقل على نفسي وجثم على صدري من أخطاء الماضي وعرضت تقديراتي للموقف السياسي والقبلي وكان معنا ضابط كبير السن اسمه (دي د...) فكلف بتدوين الملاحظات لما أقوم بشرحه، لكنه ظلّ يغفو ويهوم وهو جالس في كرسيه المريح، فلاحظ رئيسه ذلك وراح

يسلي نفسه بين آن وآخر بالاستفسار منه «هل دونت ذلك يا د..؟» فينتفض (د) ويصحو ويجيب في الحال «نعم يا سيدي» ويشرع في الكتابة مسرعاً بينما أقوم أنا بمعاونته بإعادتي أسماء القبائل الصعبة النطق ثم ما تمر فترة وجيزة إلا ويستسلم لإغفاءة أخرى. وكانت نتيجة حديثنا أن وافق القائد العام على عمليات أرضية تعقب القصف الجوي يقوم به الليڤي ضد (شيخ بزينى) وقال إنه سيكون مستعداً لإرسال رتل من القوات النظامية إلى (كوي) إن عجز القصف الجوي عن إخراج العدو منها. وغادرت الجماعة كركوك إلى بغداد صبيحة اليوم الثاني إلا أن دفتر ملحوظات (د) المأثور ظلّ ملقى في مطعم ضباط السراي بكركوك مدة أسبوع لا يسأل عنه أحد وأقبلت النتائج تترى سراعاً فقد عرض أغوات من (شيخ بزينى) الطاعة حال بدء العمليات وفكر آخرون بفرصة أفضل إذا ذهبوا إلى (نويل) وشيخ محمود في السليمانية ولذلك لم يجد (مينيت) إلا فلولاً من العصاة في البر وإزاء عداء أهالي (كوي) اضطر الترك إلى أخلائها وكانوا قد بدأوا بتعزيز حاميتهم، وكان ذلك في 7 تشرين الأول، وبعد أربعة أيام ركبت سيارة مع (لاين) إلى أربيل وكان قد خرج صحبة (ليتلديل) مع رتل من شرطة المدينة لاحتلال كوي، وفي 14 منه تمّ لهم ذلك دون حادث.

أربيل مدينة تستوقف النظر، فقد بنيت فوق تل مستدير عال ذي سفوح شديدة الميلان وفي وسط سهل منبسط، وإلى هذا الموقع هرب (داريوس) بعد أن مني بهزيمة أمام الاسكندر المقدوني في معركة اشتهرت في التاريخ باسم (أوبيلا) على أن ساحة هذه المعركة الصحيحة إنما هي سهل (گه و گه ميلا = الوكميلة) بالقرب من قرية (كرمليس) المسيحية الحالية[1] الواقعة شرق الموصل على مسافة 16 ميلاً. والأسر التركية والكردية البارزة في المدينة خلافاً لما في كركوك ما زالت تسكن

(1) «تعقليان حول عبور الاسكندر نهر دجلة وحول معركة أربيلا بقلم: أوريل شتاين». المجلة الجغرافية، رقم 4، تشرين الأول 1942. أعلمني الأستاذ سدني سميث أن موقع المدينة المندثرة غير معروف ويكاد يكون من المؤكد أنها تقوم على التل ومن الغرابة بمكان أنه لم يعثر قط على كتابات مسمارية في أربيل.

التل في بيوت أجدادهم الوسيعة المبنية على الحافة فتبدو جدرانها المتلاصقة كأنها جدار استحكام يحيط المدينة إحاطة السوار بالمعصم وليس يوجد من الطرق التي يدخل منها إلى القلعة غير ثلاثة أو أربعة وكلها شديدة الميل ومنظرها العام أكثر مهابة من (أكروبوليس) كركوك المتقوض، وفي ذلك الزمن لم يكن قد بني كثير من المنازل تحت التل، وأهمية المدينة موقعها الذي هو وسط منطقة واسعة من حقول القمح وكونها على الطريق العام بين كركوك والموصل ومركزاً تجارياً لأنها سوق للقبائل الجبلية الساكنة إلى الشرق والشمال.

وفيما كانت العمليات العسكرية البرية متواصلة، لم ينقطع الهجوم الجوي ضد جماعات العدو في (رانية ومرگه) ولم تظهر النتائج بسرعة لكن بدأت تصل أربيل وكركوك والسليمانية أعداد متزايدة من طالبي العفو من شيوخ القبائل، وكان معظمهم قد انضم إلى الترك بدافع الخوف وزادت سفراتي الجوية[1] ما بين كركوك وأربيل وكوي وكفرى وبغداد وكنت أقوم بمهمة إرشاد الطائرات إلى أهدافها. وكانت أول تجاربي في هذا هو القصف الجوي في 27 تشرين. جاء عنه ما يلي في يومياتي: «اليوم بدأنا بقصف عنيف (لمه ر گه)، طرت لأرشد إلى الأهداف، طيار طائرتي (مكلارن رايد McLaren Reid) وقد أبدع في قذفه قنبلة (كوپر) واحدة انفلقت أمام باب السراي ولا بد أنها أحدثت بعض الأضرار. إحساسي تنعشه عملية القصف وأنت تحوم فوق هدفك.. ثم تدور على عقبيك بعد كل قذفة لاستطلاع نتائج عملك قبل أن تقوم بدورة هجوم أخرى كأنها مجموعة كبيرة من الزنابير العاصفة الدائبة في عملها القتّال».

---

(1) في هذا الزمن نقل السرب الثامن (دي هافيلاند 9 - أ نيناك) من كركوك، وحل محله السرب السادس ويتألف من مقاتلات (بريستول) مع رف واحد من السرب الأول من مقاتلات (سنايب) ذات المقعد الواحد وكانت بريستول مفتوحة المقعد وفيها كرسي خلفي مرتفع بحيث تكون كتفا الجالس وصدره فوق مستوى برج المدفع الرشاش أما المظلات فلم تكن من ضمن التجهيزات آنذاك.

إن الخراب الذي تمخض به قصف طوكيو وحوض الروهر مما لا يزال طرياً في الأذهان ولا شك أنه يطمس ما يعتبر بالنسبة له قصفاً تافهاً جداً. في العام 1922 كانت قنبلة «كوپر» Cooper هي القذيفة المعتادة على قدر ما أتذكر وهي مهدد (شراپنيل) تزن 25 پاوند وكان يسبق القصف إنذار به دائماً، وقد خلق استخدام القنابل التي تزن مائة باوند ومائتين وعشرين باوند ضجة واسعة. ولم تستعمل قنابل الحريق لأول مرة في التاريخ إلا في 1 تشرين الثاني. وفي يومياتي:

«بوصول قنابل الحريق حلقت سبع طائرات من طراز (Ninak نيناك)من بغداد وهاجمت (مرگه). كل الطائرات المقلعة من هنا شاركت في إلقاء قنابل اعتيادية. لوحظ أربعة حرائق كبيرة صباحاً، إلا أنها في الظاهر لم تنتشر في رقعة واسعة، لأنها أخمدت عصر اليوم. إن بيوت الطين مادة تخيب كل أمل».

ولم تمر العملية دون ضحايا، ففي 6 تشرين الأول سقطت طيارة (لوك ووترز) وهو طيار جذاب من جنوب أفريقيا، ومن السرب الثامن كان يسكن معي، تحطمت وقتل بسبب ذلك قرب (تركه لان)، وفي 24 منه لم يعد الضابط الطيار (هوريكس Horricks) وهو من سلاح المقاتلات (سنايپ Snipe) إثر هجومه على رانيه، وثمّة واحد أو اثنان آخران لا أعرفهما شخصياً. كانت وظيفتي تتطلب مني خلال السنتين التاليتين أن أدعو القوة الجوية إلى بعض العمليات في أحيان كثيرة، وكان القلق يمتلكني في مثل هذه المناسبات وأنا أرقب الطائرات تعود من مهماتها فوق سطح السراي ولا أرتاح إلا عندما أتبين رقم الطائرة بوضوح وهي قادمة. فقد كنت أصعد دائماً عندما يأزف وقت عودتها وأظل شاخصاً إلى الأفق بعين لا تريم.

إن كانت أضرار القصف المادية قليلة، فإن الأثر المعنوي له كان عظيماً وظلت طائرات (البريستول والسنايپ) تقوم بعملياتها يومياً لأسابيع، وامتدّ نطاق نشاطها من (مه رگه) إلى قرى پشدر المعادية ثم إلى وادي (شاوور) الذي هو خط مواصلات العدو الأساسي مع رواندوز، وفيما كانت هذه العمليات مستمرة ضد الغزاة وأحلافهم من القبائل، لم تكن الأحوال في السليمانية مرضية قط.

ربما كان (الشيخ محمود) صادق النية عندما تعهد قبل تركه بغداد، أن يقصر نشاطه السياسي على لواء السليمانية، لكن الاستقبال الهائل في ميدان محطة قطار (كنگربان) وهواء كردستان المسكر الذي تنشقه في طريقه إلى السليمانية بكثير من الوقفات والبطء قد محا بسرعة خطوط الحدود الضيقة التي فرضت عليه. كان عدد من زعماء كفرى وشيوخها حتى البيات منهم قد رافقوه إلى عاصمته وسرعان ما وصلتني عدة شكاوٍ من شيوخ الطالبانية وآخرين مؤداها أن الشيخ محمود أرغمهم وهو في رحلته على توقيع وثيقة بطلب تأسيس دولة كردية بزعامته، وفي 30 من أيلول وصل السليمانية فحيته الجماهير حكمداراً، أو زعيماً لكردستان المستقلة، وأوضحت الصحف المحلية في السليمانية أن (نويل) لم يأت إلا بصفة ضابط ارتباط وهذا في الحقيقة يجعله بمثابة قنصل من نوع ما وحلقة اتصال مع المندوب السامي، وفي 10 تشرين الأول صدر بلاغ في السليمانية عاصمة كردستان بإنشاء مجلس وزراء يتألف من ثمانية وزراء، وفي تشرين الثاني اتخذ الحكمدار لقب ملك كردستان، إن المسألة الكردية كما ناقشها الوطنيون الكرد في السليمانية ربما أمكن توضيحها بأفضل ما يكن في إيرادنا مقتبسين من جريدة (روژى كردستان[1] = شمس كردستان). (المقتبس الأول، هو من أول عدد مؤرخ 15 تشرين الثاني 1922، والمقتبس الثاني هو من العدد السادس المؤرخ في 27 كانون الأول 1922).

(1)

«إنها.. (يقصد صحيفة عربية تصدر في بغداد) تتكلم عن كردستان كأنها جزء من العراق وتسميه لواء السليمانية لوجود بعض العلاقات التجارية والاقتصادية الوثيقة بينه وبين بغداد. وهي أيضاً تسمى مجلس وزراء كردستان (مجلس الإدارة المحلية) وهذه الأقوال مؤسفة جداً. لا يمكن أن يصدق المرء أن يبلغ شخص

---

(1) انظر مقالي (صحيفة كردية: روزى كردستان)، مجلة جمعية أواسط آسيا الملكية، مجلد 12، سنة 1925.

مثقف هذا المبلغ من الطيش في إصدار الأحكام المتسرعة، إننا لم نتوقع أن يطأ جارنا الصديق العظيم حقوقنا التي يمتد عمرها ألف سنة بقدمه، ويقطع العلاقات الطيبة بين الحكومتين والشعبين أو.. أن يعتدي على حدودنا.. إن قيام حكومة كردستان يعرض للعراق الفوائد بالألوف لا بل إن كيان العراق ووجوده لا يمكن تحقيقه إلا بوجود حكومة كردستان. إن علوم التاريخ والجغرافية هما شواهد عدول على أن الأمة الكردية كانت تعيش وحدة قائمة بذاتها. وقد أثبتت هذه الأمة قوامها القومي بوقائع عملية أن أبناءها لا يقلون ثقافة ومدنية وتمكنا في الصناعة والتجارة عن أمثالهم إن لم يفوقوهم، وهم كذلك يساوونهم في حقوقهم كبشر سويّ وفي حيازتهم شرط الأرض والسكان وما إلى ذلك.. إن مبدأ حق تقرير المصير تجيش به نفس وعقل كل مواطن من الشعب الكردي، إن نِعَم الحقوق القومية والحدود الإقليمية التي قررتها عصبة الأمم بحق لهم قد قررتها لنا أيضاً ولأجل المحافظة على نصيبنا في ذلك سوف نبذل كل التضحيات الواجبة ونسخو بكياناتنا المادية ومجهوداتنا المعنوية.. إننا نصرح بكل فخر بأننا شعب نقي خالص لا يعرف للخوف معنى، نحن أحراراً ولسنا عبيداً ونحن الآن نحمد الله لأن ليلنا انقلب نهاراً وإن... زعيماً عظيماً وقائداً مثل ملك كردستان (الملك محمود الأول) بعث إلينا مرة أخرى بأعجوبة من عجائب المسيح إن الغاية المقدسة التي وضعها جلالة ملك كردستان نصب عينه، كانت رعاية حقوق كردستان وحماية حدودها الطبيعية والمحافظة على علاقتها طيبة حسنة النوايا مع جيراننا...»[1].

(1) تضطرنا أمانة النقل والترجمة إلى إثبات ما أورد المؤلف رغم عدم ائتلافه مع آرائنا ومع المفاهيم الجديدة التي يعيشها العهد الجديد العراقي. تلك المفاهيم التي أكدت الوحدة العراقية والمصلحة المزدوجة التي تحتم على الشعبين الكبيرين في العراق العيش في وطن واحد. ولا شك أن القارئ المتتبع يسهل عليه تفهم بواعث الاشتطاط في التحمس العنصري والمضاعفات الخطيرة التي يولدها إن لم تتم معالجته بحكمة على صعيد التثقيف السياسي. (المترجم).

(2)

«(كردستان) عندما ينطق رجل مثقف بهذا اللفظ فهو لا يعني به قسم السليمانية فحسب، وإنما يقصد به إقليمياً جغرافياً واسعاً، ويفكر في شعب كردي موحد كثير العدد، إن الحدود الطبيعية لهذه البلاد.. وهي واضحة... ولما كان جميع أهالي ولاية الموصل كرداً، فلماذا يطلب شعب غريب استعادة هذه الولاية ولماذا يريد آخر ضبطها؟ إن الترك والعرب والأثوريين، يدعمون مطاليبهم لها بوجود عدد قليل من أبناء جلدتهم فيها.. إن المطلب الذي وضعناه أمام مؤتمر (لوزان) ليس حماية أقلية وإنما تزكية وتثبيت حق الحياة لشعب عظيم حرّ مستقل داخل بلاده الخاصة به».

هذه الآمال العراض التي أظهرها متحمسو السليمانية، ما لبثت أن أحدثت غلياناً في الألوية المجاورة، إن المواطنين البارزين بوصفهم أعضاء فعالين في الأسر القبلية الحاكمة أو ممثلين لها حتى ذلك الوقت، كانوا لا يستطيعون أن يفكروا في الخضوع لا إلى حكومة عربية في بغداد ولا إلى حكومة كردية في السليمانية، في حين تلكأت أغلبية الكرد في إعلان ولائها وقبولها دولة لكردستان يحكمها شيخ محمود. وكانوا يفضلون نوعاً من «الإدارة الذاتية الخاصة» بإشراف المندوب السامي أشبه بشيء يقف بين الامتياز الإداري الذي أعطى السليمانية وبين السيطرة المركزية لحكومة بغداد على باقي البلاد وأن يظل ذلك سارياً حتى انتهاء البتّ في مستقبل ولاية الموصل.

وفي كركوك كنا بعيدين جداً عن المشاكل الأخرى التي أنجمت حلقات سياسية في العاصمة وفي الجنوب، وكانت الطبقات الناضجة سياسياً في العراق تفسير اصطلاح (الانتداب) بفكرة حكومة فرضت على البلاد فرضاً، لا نوعاً من الوكالة والأمانة محددة هوية العمل الذي يمكن للدولة المنتدبة أن تدعوه بحق الفتح على ضوء مفاهيم القانون الدولي العام الماضية. واشتدت معارضة كل فكرة (انتداب) بسرعة عظيمة وقررت حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعد فترة قصيرة

من تأليف الحكومة العراقية المؤقتة، استبدال الانتداب بمعاهدة تحالف تحدد علاقاتها بالدولة التي شكلتها وأن يلحق بهذه المعاهدة سلسلة من الاتفاقات الجانبية لتثبيت الأسلوب الذي تتبعه سلطة الانتداب في نقل سلطاتها وواجباتها وتحديد الهيئات التي تقوم بذلك، فبعد توقيع المعاهدة، كانت الخطوة الثانية للتقدّم الدستوري العراقي هي انتخاب مجلس تأسيسي لإنجاز ثلاث مهام محددة وهي: المصادقة على المعاهدة وسن دستور، واشتراع قانون انتخاب عام جديد.

إن مشكلتنا المحلية هنا تقدمت إلى الطليعة عندما نشرت المعاهدة في 10 تشرين الأول أي بعد قدومي بثلاثة أسابيع[1] وعلى إثر التعليمات التي أرسلت إلى متصرف كركوك ومعاون المتصرف في أربيل لاتخاذ الإجراءات الضرورية حول انتخاب المجلس التأسيسي. وكانت تعليماتي هي أن أعمل بدأب ولكن ليس بإلحاح، لزحزحة كركوك عن موقفها المنعزل إلى حد ما عن الدولة العراقية وكان أعيان المدينة يدركون بدقة أن الإسهام في الانتخابات سيعني حتماً إلحاق الأذى بالقرار الذي كانوا يهتمون كثيراً بإرجائه في الوقت الحاضر. ولم يكن مندوحة من نشوب خلاف شديد في الرأي بيني وبين (نويل) حول السياسة التي ينبغي علينا اتباعها وبدا لي وكأنه يميل إلى النظر في المسألة بكثير من اللامبالاة، من خلال عدسته المكبرة: السليمانية[2].

(1) هوجمت مدة سريان المعاهدة المحددة بعشرين سنة هجوماً عنيفاً، وسرعان ما اتضح أن الأمل ضعيف بالمصادقة عليها دون إجراء تعديلات، ولذلك شرع في مفاوضات وتم الاتفاق على بروتوكول ملحق بالمعاهدة وقع في 30 نيسان 1923، يقضي بإنهاء حكم المعاهدة عند قبول العراق في عصبة الأمم. وإن لم يكن فعلى أبي حال بعد أربعة أعوام من المصادقة على معاهدة الصلح مع تركيا (لقد افترض خطأً كما أتضح فيما بعد أن معاهدة صلح مع تركيا قد تتضمن تنازلها عن كل مطلب لها بخصوص السيادة على العراق كله) إن الاتفاق اللاحق المذكور لم يتم التوقيع عليه إلا في العام 1924.

(2) لا شك أنه كان شعوراً متبادلاً. وإني أدلي بهذا التفاصيل لا لأثبت بأني المصيب وهو المخطئ وإنما لأوضح نوع المواقف الصعبة التي كنا نجد أنفسنا متورطين فيها باستمرار، حتى تمت تسوية قضية الموصل مع تركيا أخيراً ولقد كنت في السنتين الأخيرتين حصان الحلبة في اختراع مشاريع=

كنا قد يئسنا من إبقاء الترك خارج الحدود بمواردنا وإمكاناتنا الخاصة فعدنا إلى استخدام الشيخ محمود لترصين الشعور الوطني الكردي لكونه الوسيلة الوحيدة لدرء خطر الترك وكان علينا أن نقبل بكل آثارها ونتائجها المنطقية أو النزول إلى كل مطاليبه المدعومة من كل أكراد الألوية الثلاثة إلا إذا ثبت خرق سياستنا وقصر نظرها. ولذلك كتبت في 17 تشرين الأول إلى المندوب السامي ما يلي:

«إن لهجة التقارير الأخيرة من السليمانية تملأني بالهواجس والسياسة التي نتبعها اليوم، ترتكز على سلسلة من فرضيات زائفة تؤدي إلى نتائج خطرة للغاية. إن مطلب إجراء انتخابات عاجلة مستندة إلى الافتراض بأن أغلبية سكان كركوك الساحقة ستصوت للشيخ محمود وقد بينت في رسالة أخرى أن نتيجة كهذه مشكوك فيها جداً. وعلى أي حال فعلينا أن نتهيأ لاحتمال تصويت الأغلبية ضد (الشيخ) ولقد قيل لنا إنه سيناصبنا العداء إذا حاولنا طبخ النتائج. وإذا كان مقتنعاً حقاً أنه حائز أصوات ثلاثة أرباع اللواء ففي حالة فشله في كسب الانتخابات سيروح به الظن إلى أن العملية قد (طبخت) والنتيجة ستكون هي هي (ثم مضيت أصف العراقيل العملية التي تحول دون إقامة أي استفتاء عام من النوع المقترح طبقاً لمواد قانون انتخابات المجلس التأسيسي).

وفيما كان الشيخ محمود يجاهد جهاداً عنيفاً لكي يتم الاعتراف به رئيساً لدولة كردية موسعة، أخذت الأمور في السليمانية تنحدر من سيء إلى أسوأ فالمبالغ الكبيرة التي تركت في الخزينة وقت إخلائنا المدينة بعثرت في الأسابيع الأولى الثلاثة وفرق معظمها كهدايا لشيوخ العشائر الذين اجتمعوا في المدينة وذهبت نفقات استضافة أتباعهم الكثيرين، وأن الضباط الكرد الذين تفضل الجيش العراقي بإعطائهم الإدارة ليكونوا نواة من المثقفين قد استبعدوا وفضل عليهم الشيوخ غير المثقفين. واغتيل ضابط سابق عالي الثقافة اسمه (جمال بكره) كان قد استقر في

=وتنظيم الخطط لعمل محلي ممكن ولقد ظهر الكثير من مشاريعي غير عملي عند التطبيق أو أنه أعطى نتائج تافهة وإنك ستجد بعد قليل مثلاً واحداً من تلك الخطط في السطور التالية.

السليمانية، وكان سبب قتله هو انتقاد حكم (محمود) ويشاء سوء حظنا أن ينضب مال الخزينة في الوقت الذي وصلت أولى شحنات تبوغ الموسم الجديد إلى مخازن مكوس السليمانية، وهذا المحصول هو مصدر المال الأساسي للمنطقة، فتمكن محمود من تمويل حركته بجباية العشر الاعتيادي وفرض الضريبة حسب ما قررته القوانين وكثيراً ما كنت ألجأ في حالات الضرورة إلى اتخاذ عمل عاجل ضارباً عرض الحائط الإجراءات العادية المركبة، فأصدرت تعليمات تقضي بعدم اعتبار الوصولات الصادرة من السليمانية وصولات رسمية أو دليلاً على استيفاء الضريبة (وهي ضريبة مركزية لا محلية كالعشر الاستهلاكي) ولسبب ما بدا الموظفون الماليون أضيق عقلاً من غيرهم إذ لم يعتم أن وصلني احتجاج شديد من مدير الجمارك والمكوس العام حول تدخلي السافر في دائرة اختصاصه، وقضيت زمناً طويلاً لأفهمهم بأن المبالغ التي تجبى في السليمانية إنما تنفق على أغرض معادية وأنهم يخسرون فعلاً عوائد هامة، على أن هذا الإجراء، لم يحرج (الشيخ محمود) أو يعطل أموره أكثر من أسابيع قليلة وفضّل التجار أخيراً دفع الضريبة مرتين على حرمانهم من تجارتهم حرماناً تاماً.

وفي نهاية تشرين الأول انحرف مجرى الأحداث انحرافاً روائياً جديداً بوصول (إسماعيل آغا سمكو) زعيم قبيلة شكاك المرهوب الجانب إلى الحدود الإيرانية التركية في إقليم (قوتور) ثم قدومه فجأة وبدون إنذار إلى (ديره) القرية التي تبعد عن شمال أربيل بثمانية عشرة ميلاً. فبعد أن انتزع من الحكومة الإيرانية كل مناطق الحدود من (دلمان) حتى (بانه) في ثورة حاول إكساءها الطابع الوطني الكردي، إنهار فجأة أمام عملية عسكرية مزدوجة قامت بها قوات تركية من الغرب، والجيش الإيراني الذي جددت شبابه إصلاحات رضا خان - من الشرق. فخسر مدافعه ورشاشاته وقطار بغال محملاً بالعتاد كما فقد ضحايا كثيرة منها زوجته وأُسر صبي له في السادسة كان قرة عينه فجاء إلى العراق يطلب العون وذهل وتألم من رفضنا السماح له بالمجيء إلى أربيل على أن قضية (سيد طه) ساعده الأيمن كانت تختلف عن قضيته فقد جاء بمفرده، بعده بيوم أو اثنين وكان عثمانياً ولديه

أملاك قبلية ومصالح إقطاعية في قضاء راوندوز، وهو كما يذكر مرشح محتمل للمنصب الذي اضطرّنا تعاقب الأحداث إلى إسناده للشيخ محمود ولذلك طلب منه أن يأتي إلى كركوك قبل كل شيء.. وهناك قابلته في 31 من الشهر.

كان (سيد طه) رجلاً ضخم الجثة وربما بلغ وزنه 112 كيلو غرام وكان يرتدي سترة من القماش المحلي على الزي الشمالي، وسروالاً عريضاً من الأسفل ذا خطوط رمادية وفوق السترة الصدار الصوفي السميك المألوف وفي رأسه طاقية روسية (بالكالافا) منسوجة أشبه بالخوذة وفي قمتها كُرة (گوينگك) اتخذها رمزاً لحركته القومية الكردية الخاصة، على جاري عادة الآسيويين في مثل هذه الأحوال. ووجدته رجلاً ذكياً كيساً مفرط التهذيب، حسن المِقْوَل متين العضل، شديد الحيوية رغم بدانته واشتهر بأنه هداف بالبندقية لا يشق له غبار وكانت خيبته ظاهرة للعين عند سماعه أن المندوب السامي على الأغلب لن يتبنى اقتراحاً حول القيام بنشاط خارج حدود العراق. على أنه عرض تعاونه لإعادة سيطرتنا على راوندوز وكان يرى من السهولة بمكان طرد الترك الذين يتجاوزون (130) رجلاً في منطقة رانيه و(120) رجلاً في راوندوز و(50) رجلاً في الزيبار غرباً. وقال إنه سيستخدم رجال قبيلته الذين كان يوجد منهم في العراق زهاء ثلاثمائة أسرة، كما يستطيع استمالة رجال قبيلة ال(هه ر كى) البدوية الكبيرة التي كانت تقترب في ذلك الحين من مشتاها في (عقره)، وأن يقنع شيوخ القبائل الذين يتصلون به اتصالاً وثيقا، وكل ما يطلبه هو قليل من الإسناد الجوي وكمية من البنادق والعتاد ومبالغ كافية لتموين (له شكر) بالطعام ولم يطلب لنفسه مكافأة، وإنما عرض تعريضاً بأنه يأمل أن يوكل إليه أمر الإشراف على أقضية راوندوز وعقرة والعمادية مثلما أطلقت يد الشيخ محمود في السليمانية.

وراقت لي فكرة سياسية سريعة تجاه راوندوز ضمن الخطط التي تستهدف إعادة سيطرتنا حتى حدود ولاية الموصل مع حل مشكلة السليمانية في الوقت نفسه بالحيلولة دون تعامل الشيخ محمود مع الترك مباشرة فأوصيت بغداد بهذه

الخطة وتحمس لها بورديللون ونقل (السيد طه) إلى بغداد بالطائرة ليشارك في مؤتمر ثلاثي منعقد بين الملك فيصل والمندوب السامي ووفد من السليمانية، حول مستقبل العلاقات بين اللواء ذي الحكم الذاتي وبين الحكومة العراقية، وطلب مني في الوقت نفسه أن أخرج لمقابلة (سمكو).

وعلى هذا ركبت الطائرة إلى (كوي) في 4 تشرين الثاني للاجتماع بـ(لاين) وكان قد عاد من كوي بالسيارة - وأحمد أفندي (وليتلديل) بالسيارة، لملاقاته في (گردى) حسب الموعد وهو على طريق (ديره) الخارج من (باريكه) وعلى مسافة عشرة أميال منها. كان يرافق (سمكو) أخوه (أحمد) واثنان أو ثلاثة من أقربائه وزهاء عشرين من الأتباع وكان زي الأغوات أنيقاً إلى حد كبير فشكله موحّد ومن قماش (السيرج) الذي يستخدمه الجيش البريطاني وينتعلون جزم ركوب روسية طويلة و(كلاوات) أسطوانية طويلة شائعة عند (الشكاك) تخفيها تماماً عمامة مؤلفة من عدة مناديل حريرية ملفوفة حولها لفاً محكماً وكانت سترهم مزدوجة الصدر ذوات ياقات قوية عالية مزرّرة حول العنق ويشتملون بمعاطف مما يرتديه الفرسان أما سراويلهم فمحكمة التفصيل وكأنها خرجت لتوها من (سافيل رو Savil Row) وكان كل منهم متقلّداً أجندة رصاص عديدة وعند بعضهم نواظير تتدلى من أكتافهم. وأما (سمكو) فكان رجلاً متين الألواح ممشوق القامة ربعة وملامحه لا تختلف قط عن أي قسمات أوروبية وشاربه المشذب على طراز فرشاة الأسنان يصلح أن يكون مظهر أناقة لأي ضابط بريطاني وقد كشف عن انتظام أسنانه البيضاء اللامعة بابتسامته العذبة التي قد تبدو ابتسامة تواضع وخجل.

وكان موقفه كموقف (سيد طه) فهو لا يكنّ للإيرانيين شعوراً بالحقد خاص فقد جرعهم بقدر ما جرعوه وأعطاهم قدر ما أخذوا منه لكنه يريد الآن تصفية الحساب مع الترك الذين تظاهروا بدعمه ثم انقلبوا عليه. واستغرب كثيراً لحذرنا من إثارة شعور الإيرانيين. في حين أنهم يتعاونون تعاوناً سافراً مع الترك على طول الحدود بعد طردهم من رواندوز ورانيه وهم ما زالوا يحاربوننا علناً وقال إنه جاء

مؤملاً أن نكون على استعداد لتبنّي قضية تحرّر الشعب الكردي، بالوقوف ضد الحكومتين المعاديتين لنا، فإذا كان مخطئاً في أمله هذا فلا رغبة له في أن يطلب حق اللجوء منا بل سيعود إلى دياره وقبائله ويبذل جهوده بمفرده.

في هذه المقابلة اكتشفت شيئاً هاماً... وتوصلت إلى كل سؤال ظلّ يراودني دائماً وهو كيف يسهل عليّ أن أتزود بمعلومات دقيقة عن أي مؤامرة قبائلية كردية؟ كان اجتماعنا بـ(سمكو) قد تمّ داخل أبواب مغلقة في مضيف جميل (آغا گه ردى) وكان الخادم (القهوچي) يدخل بين آن وآخر لتوزيع فناجين القهوة علينا بالطريقة العربية التي تقتضي منه القيام بدورة أو دورتين أو ثلاث كل دفعة. ولاحظت بعد كل دورة أنه يسنده ظهره إلى ركن الباب كأنه غير ملق بالاً إلى ما يجري. وبدا لي أن الكرد المجتمعين لا يلحظون أبداً بأنه يصغي بأذان مرهفة إلى ما يدور. وكانت مهمة إخراجه أو إيقاف الحديث عند حد والتزام جانب الحذر تقع عليّ أو على (لاين).

إن الخطة التي نجمت عن محادثات بغداد لم تكن وفق هواي، فقد زاد (سيد طه) على طلباته من البنادق العتاد والمال، بطلب تسريح (150) متطوعاً كردياً في الجيش العراقي ولمدة شهر واحد لتعزيز القوات القبلية بها وطلب أن يناط (بنويل) مهمة الإشراف السياسي وكان آنذاك في بغداد صحبة وفد السليمانية.

ورُسم أن أذهب إلى كركوك وأهيئ نفسي للانتقال والعمل في عقرة بعد ذلك. كما قُرّر أن يُنشر تصريح حول حقوق الشعب الكردي حالما يتم الاتفاق على صيغـة بين الحكومتين البريطانية والعراقية. والآن، وبينما كنت أتوقع تحريك جانب من قطعاتنا النظامية كالليڤي لدعم وتثبيت سيطرتنا في أية منطقة قد يحمل أهلها على إخلائها بالتهديد التركي - القبلي، بدا لي الجنود المائة والخمسون الذين أبعدوا عن وحداتهم بمدافعهم الثلاثة وحرمانهم خدمات صنف الإعاشة الضروري جداً في ميدان الحرب أشبه بمبلغ من النقود يسدد جزء من الدين لا كله كما أنها تحبط عملية الإنهاك التي كنت قد رسمتها في ذهني لما يتخلل العملية من

بطء وغموض وكذلك بوجوب تسليم زمام الأمور (لأحمد أفندي ولاين) المشرفين على الإدارة في أربيل وأن لا يبقيا خارج نطاقها مثلي ومثل (نويل) (إن خضوع أربيل لكركوك كان شكلياً بحتاً وقد قدر له أن ينتهي بنهاية العام). على أني لم أستطع التنصل من كل مسؤوليات الأبوة وإن لم يكن ثمّة وليد كما أملت تماماً ولذلك انتقلت إلى أربيل في الحادي والعشرين منه.

وحالف الفشل وسوء الحظ عملية (راولاش: رواندوز له شكر) منذ البداية. في 17 منه فتحت السماء أبوابها وصبّت سيولاً من المطر الغزير ثلاثة أسابيع كاملة بدون انقطاع ووصل الجنود المتطوعون من الموصل وبغداد في 26 - 28 منه بعد أن خاضوا بحاراً من الطين والمطر وقاسوا البرد والزمهرير دون أمتعتهم، وقد عصفت روح التمرّد والسخط فيهم. ولما وصلت تجهيزات الحملة بعد بضعة أيام وجد أن معظمها من القديم الملغى، كان صنف المدفعية قد اعتبرها حطاماً غير صالح للعمل. وخيب (سيد طه) الأمل المعقود عليه، إذ ظهر أنه بالغ في مزاعمه حول موارده إلى أقصى حدود المبالغة، ولم يلق من الهركي الذي يعتمد عليهم أية استجابة وحماسة وظهر لنا أنه لا يملك خطة معينة لنشاط ونطاق عمله وإن كان يعتمد على القصف الاعتباطي لا فوق الأهداف المعادية وحدها بل فوق زعماء القبائل الذين لا يتعاونون معه، وفيما كانت تمر دون إشارة للتقدّم بدأ المتطوعون الجنود يتساءلون عن مصيرهم إن لم يلتحقوا بوحداتهم بعد نهاية الشهر. وكان التأخير في نشر التصريح السياسي المنشود يصيب الضباط بالحيرة والتردّد.

ومرّ على حملة (راولاش) أول أسبوع من شهر كانون الأول وهي قاعدة في أربيل بقليل من الأمر في حركة قريبة وأسقط في يدي ووقفت عاجزاً، وأخيراً اتفق أن أزور (كوي) لأعمل فيها ما يمكن عمله لعرقلة جماعات العدو ومضايقتها وكانت في منطقة رانية، وبعد إنجازي ذلك أعود إلى كركوك.

وكان بابكر آغا قد زارنا في أربيل فغادرناها معاً في 8 كانون الأول مع حرسه البالغ سبعين فارساً پشدريا وأنعشتنا إشراقة الشمس الأولى بعد ثلاثة أسابيع

وأشاعت الدفء في أوصالنا. وبعد ثمانية أميال من السير في طريق منحدر بلغنا أرضاً وعرة متعادية تتقاطع فيها مجار لا تحصى. وتسيل في وديان بين جرف صخرية حمراء غامقة ترابية. وعبرنا عدة مضارب لقبائل (بولى) البدوية وهم في طريقهم إلى مراعيهم الشتوية في سهل أربيل ولم نصادف قرية حتى المغرب حيث وصلنا إلى واحدة واسعة تتألف من مائة بيت وتعرف باسم (شخاه پشكه) ومن الجمهور الذي خرج لمشاهدتنا جندي تركي سابق من مدينة (أدرنه = أدريان پول) راح ينفخ في قربة موسيقية من صنع محلي ويخرج أنغاماً وكانت قربته واسعة بحيث تفسح له مجالاً لترك مزمارها عندما تمتلئ بالهواء وإنشاد عدة مقاطع من أغنية تركية في حين ما تزال الأنغام تخرج من القربة يتلاشى ضغط الهواء منها. وفي (كوي) نزلنا ضيوفاً على القائمقام (جميل آغا حويزى) وقد ذكرت في يومياتي أن نساء بيته أعددن لنا ألذّ وجبة طعام ذقتها في كردستان وكان من بين زواري الكثيرين (زياد) ابن شيخوخة وقرة عين (حمه آغا غفوري) ورشيد بك زعيم (شت گه لى) وقد أبلغني أن الترك في رانيه الذين ما عادوا يجرأون على الحركة نهاراً خوفاً من القوة الجوية البريطانية، قد انسحبوا ليلاً وفرّوا عن طريق (بيتواته) الواقعة في وادي (مروحة) رانيه إلى غرب (شاوور) مباشرة وأنهم يتراجعون تراجعاً عاماً إلى رواندوز، إن قصف (مه ر گه وپشدر) المستمر قد أرغم حليفهم الرئيس (عباسي محمود) على نقض الحلف أخيراً في حين جعلتهم الإشاعات عن الاستعدادات القائمة في أربيل يخشون على مواصلاتهم، وهذا دليل عرضي على أن فكرة (راولاش) لم تكن فكرة سخيفة برمتها ولو أن إساءة تطبيقها، ومفاجآت الطقس قلّلا من فرص نجاحها التام، واستمر (نويل) يكافح صامداً مستميتاً ليجمع بين سيد طه وسمكو وشيخ محمود ليقوموا معاً بعمل مشترك إلا أن مساعيه انتهت بالفشل لإصرار الشيخ محمود على استعمال الأول والثاني مرقاة يبلغ بها مطامحه ويحقق أهدافه مع أنهما كانا رجلين يائسين لا يأملان من الترك أي رحمة. ودعت (بابكر) بعد قضائي ليلتين في (كوي)، وغادرته وهو مستاء لأني لم أتمكن من قطع وعد له باحتلال رانيه وپشدر احتلالاً سريعاً. وكان يوم عودتي صافي الأديم

رائعاً وانطلقت على صهوة حصاني جنوباً في أرض وعرة متعادية مخضوضرة بالدفلى التي كانت تنبت في كل ماء. وعند ترجلي في منتصف النهار لم يبق بيني وبين الزاب غير ثلاثة ليال وأشرفت عليه وهو يجري مثل خيط من الفضة فوق قاع مفروشة بالحصباء بينما ارتفعت خلفه شواهق جبال (خال خالان) و(شوان) الخضراء وإلى الشرق كانت قمم (جاسنه وقمچوغه) الشم تشمخ بأنفها خلف نهاية جبل (هيبة سلطان) وكانت قمم (پيره مه گرون) المكسوة بالثلج تطل على (سه رسيرد) وتظهر للعين قريبة جداً مع أنها تبعد أكثر من أربعين ميلاً. وبتُّ ليلتي في (طقطق) ثم عبرت النهر بالطوف صباح اليوم التالي وكان طريقي يقطع مروجاً ربيعية غزينية الأرض ثم صعدت، ثم هبطت وعبرت قيعان مجار لا تحصى وكان أعرضها مجرى (به ستى عمر مندان)[1].

ينبسط أمام نظر المسافر في نقطة عبور (خالخالان = بارتفاع 2500 قدم) منظر خلاب للجبال الشمالية والشرقية. هذه البقعة أصبحت أفضل مواضع النزهة للقادمين إلى كركوك من جنوب العراق، بعد إنشاء طريق السيارات. وجدت عند عودتي إلى مقري، نفوذين يصطرعان في الحقل السياسي: كان شيخ (قادر كرم) وبگزادة الجاف وبعض المعتدلين معهم قد بعثوا برسائل يذكرون فيها أنهم قطعوا علاقاتهم بالشيخ محمود بسبب صلاته مع الترك، ومن جهة اتضح لي إن (راولاش) أفضت إلى فشل مريع وأن رفض الشيخ محمود المستخف التعاون مع السيد طه أكسبه مكانة مرموقة ولا سيما عند شيوخ عشائر اللواء من نهاية كفرى فيه، حتى الطالبانية أنفسهم فقد شعروا بوجوب مباشرتهم لعبة السلامة فشدّوا الرحال إلى السليمانية لزيارته، ولذلك ألححت بضرورة التعجيل في نشر التصريح الرسمي المنشود حول الحقوق الكردية واقترحت أن يبعث به رسمياً لا إلى الشيخ محمود، بل إلى السياسيين المعتدلين في السليمانية. فتمّت الموافقة على اقتراحي

(1) طقطق هي الكلمة الكردية للتيار المائي السريع أو الشلال، وعن قرية عمر مندان. أنظر الفصل الثالث عشر.

وقرّر في الوقت نفسه أن يتلقى النقيب (آ. ج. چاپمان A.J. Chapman أوامره مني وكان يسكن القلعة في السليمانية - حتى يعود (نويل) (هذا ما لم يفعله). وعلى هذا تركت كركوك بالسيارة في 22 كانون الأول، ومعي (الدكتور كورنر وريف) حاملاً بجيبي التصريح الرسمي واتجهنا إلى (هه فت ته غار) قرية (دارا بگك) وفيها تمتعنا بقترة قنص عصرونية وبتنا الليلة فيها وفي اليوم التالي انطلقت بنا السيارة في أرض متعادية حتى (بهرام بگى) مقر الشيخ (طالب الطالباني) رئيس مجموعة قرى (گل) القبلية. وهناك تعرّفنا بثلاثة من أخوته وهم (جكال أكبرهم - وغالب، ورشيد) وكان الجميع يرتدون جبباً قاتمة على الزي الأوروبي ويشدّون على رؤوسهم كفافي عربية ذات لونين من الأزرق القاتم، ويثبتونها بعقال من شعر الإبل من النوع الذي يشيع بين حضريي الجنوب. وهو مناسب لصفتهم الدينية. وكانوا في غاية الخجل لزيارتهم السليمانية وراحوا يعتذرون ويبذلون الوعود للمستقبل. كانت (بهرام بگى) مركز صناعة استخراج نفط بدائية شبيهة بأختها في كركوك، وقد قمنا بتفقّد أجهزة التصفية الثلاثة في القرية مع الآبار العشرة التي تبعد عن القرية حوالى عشرة أميال، قبيل مغادرتنا صباحاً. كان الطريق إلى (قادر كرم) يشق أراضي وعرة كثيرة التضاريس إلى حد الإزعاج وكان يتخلّل الوديان العميقة طين أحمر وحجر رملي وصلصال، ودهمتنا عاصفة مطر غزير جعلت الطريق الضيق زلقاً وخطراً، وبلغنا غايتنا قبل حلول الظلام وقد ابتلّت أجسامنا بالماء وعلانا الطين ونحن نقضقض برداً، واستقبلنا ابن الشيخ الذي خرج إلينا راكباً وراح يقود خطانا فوق آخر السفوح الوعرة إلى دار ضيافة ذي طابقين في التكية. ورحّب بنا الرجل العجوز في غرفة العلية المفروشة بالسجاد حيث توجد نار كبيرة من خشب البلوط في موقد مكشوف.

قدر لي الالتقاء بالشيخ عبد الكريم كثيراً في السنتين أو الثلاث التالية وكان مطمحه الأعظم كما سبق لي ذكره - أن يرى قيام دولة كردية بزعامة شيوخ البرزنجه على أن ذكاءه وبعد نظره كان أمضى من أن يشجب ترشيح الشيخ محمود

لأعلى منصب في تلك الدولة لكونه ألدّ أعدائه بعد أن حصل شبه إجماع عليه في الواقع. وكان يرضى عن تصرفات المرشح الوحيد وينتقد أساليبه لا لكونها خاطئة بحد ذاتها خشية أن تؤول إلى خسارته عطفنا تجاههم وبذلك تهدّد فرص تحقيق آماله الوطنية. ومهما يكن فإنه حليف مفيد لنا في مهمة الساعة التي كانت تهدف إلى حشد الآراء المعتدلة وتجميعها:

إن التصريح الرسمي الذي كلّفت بإبلاغه هو الآتي:

«تعترف حكومة صاحب الجلالة البريطانية، والحكومة العراقية بحق الكرد الذين يعيشون داخل حدود العراق - في إقامة حكومة كردية ضمن هذه الحدود، وتأمل الحكومتان أن العناصر الكردية على اختلافها ستتوسل بأسرع ما يمكن إلى اتفاق فيما بينها حول الشكل الذي ترغب أن تقوم تلك الحكومة وحول الحدود التي ترغب أن تمتد إليها وأن يرسلوا موفدين ذوي صلاحيات إلى بغداد للتداول في العلاقات الاقتصادية والسياسية مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية».

إن صيغة التصريح، ولا سيما استعمال تعبير (حكومة كردية) بدلاً من (إدارة كردية) وعدم ذكر أي حدود جغرافية، كان أبعد بكثير مما توقعت، نظراً إلى الموقف السابق الذي وقفته الحكومة العراقية والمندوب السامي. ولقد قمت بترجمته شفوياً (لعبد الكريم) وفي نفسي شك وهواجس إلا أن المسؤولين في بغداد لم ينتابهم شعوري هذا، ونشر بشكل بلاغ رسمي. في ذلك الوقت قضينا عيد ميلاد جميل ونحن نصطاد الأرانب برفقة ابن الشيخ، على الضفة الأخرى من النهر. وبعدها خرجنا من (قادر كرم) قاصدين طوزخورماتو فقطعنا المسافة في مرحلتين وبعد زورتين خاطفتين لكفرى وطاووق، عدت إلى كركوك في وقت مناسب جداً لأجد لي مقعداً خلفياً في طائرة (كنكيد) من طراز (نيناك) فأقلّتني إلى بغداد. وحللت ضيفاً على آل (بورديللون) وغرقت في بحر من البجامات الحريرية والمناديل الزاهية وأحلاق الستائر النحاسية المستوردة من البندقية.

- 21 -

كويكول (1)

راحت الأبصار كلها تشخص الآن إلى (لوزان) حيث افتتح مؤتمر الصلح في العشرين من تشرين الثاني 1922 وكان اللورد كرزن وعصمت أينونو الممثلين الرئيسيين لبريطانيا العظمى وتركيا. وكانت تركيا تطالب بإعادة كل ولاية الموصل حتى جبل حمرين في حين كانت الحكومة البريطانية تطالب بحدود تزيد عن تخوم الولاية الشمالية. وتوقفت المفاوضات توقفاً تاماً ولم يتزحزح أي جانب قيد شعرة عن موقفه الأول إلى أن تم الاتفاق أخيراً في 4 شباط على استبعاد قضية الموصل من منهاج المؤتمر وإعطاء الحكومتين مهلة قدرها سنة واحدة لعلهما تتوصلان خلالها إلى تفاهم مباشر فإن فشلنا في الاتفاق، يحال النزاع إلى عصبة الأمم وفي غضون هذه المدة يبقى الوضع الراهن على حاله ويحترمه الجانبان، وبهذا القرار ذي النتيجة السلبية تم قبر معاهدة (سيڤر) المجهضة قبراً تاماً، وقبر معها واجب حكومة الانتداب بإبقاء باب ممارسة كرد العراق حق تأليف دولة كردية، قد يمكن إقامتها في أقاليم تركيا الشرقية.

وفي أوائل كانون الثاني 1923 بينما كانت مباحثات لوزان لا تزال تجري، وضح لنا أن الترك يحشدون قواهم في جزيرة ابن عمر (الجزيرة، أو الجزيري) على بعد أميال قليلة من زاخو. وكان الأهلون سريعين في الوقوف على التحركات التهديدية وملاحظة إعادة توزيع وحدات الجيش البريطاني التي عقبت ذلك. وبلغ الهياج في كركوك حد الهستيريا وامتقعت وجوه الموظفين المحليين الذين يعملون

معنا ويان الرعب في أساريرهم ولو أن وحدة مشاة (كركوك) تحركت بطريق كفري بدلاً من طريق أربيل في 27 منه لحدث انفجار شنيع. وانبثقت في عشية وضحاها لجان سرية موالية للترك يساهم فيها معظم الأسر المتنفذة بتمثيل أنفسها بواحد واثنين على الأقل من أفرادها الصغار ووجه الغرابة في الأمر أن قيادة روح الإثارة كانت بيد (سيد أحمد خانقاه) أما إبقاء الاتفاق على وضع قضية الموصل على الرف فقد بلغت كركوك في أوائل شباط، مع معلومات تفيد أن مستقبل الولاية ما زال موضع بحث، وهذا ما زاد في الهياج العام ضغثاً على إبّالة. في هذه الظروف لم يعد متوقعاً حصول أي تقدم في حل المسألة الكردية وفي 8 كانون الثاني وصل السليمانية «بطل كردستان المغوار سعادة إسماعيل آغا سمكو»[1] كما وصفته صحفها المحلية واستقبل باستعراض عسكري وأطلقت تحية له سبع إطلاقات مدفع وأعلن يوم وصوله يوم عطلة عامة، ومع أنه لم يتوصل إلى اتفاق مع الشيخ محمود، إلا أن قدومه صب المزيد من النفط على نار الحماس الوطنية. وأرسل الشيخ محمود إليّ رسالتين يطلب مقابلتي أولاً في (قادر كرم) ثم في كركوك. وكان يعتذر في آخر لحظة كل مرة وحضر ممثلان شخصيان بدلاً عنه في العشرين من كانون الثاني أحدهما (كريم بكى جاف) إلا أن تعليماتهم كانت عمومية بدرجة لم يكن في الإمكان إجراء مباحثات جدية. وفي أوائل شهر كانون الثاني رفع (محمود) علمه على رانيه ولما كان هذا القضاء جزء من لواء السليمانية فقد عد عمله شرعياً غير مخل بالشروط المرسومة له عند عودته إلا أن ذلك دفعه إلى الاحتكاك المباشر برواندوز وبالفعل زاره ضابطان تركيان في السليمانية بعد ذلك وفي أوائل شباط وصل أخ زوجته (فتاح أفندي) من أنقره وكان يزباشياً (نقيباً) في الجيش العثماني يحمل معه وعوداً بالمساعدة. ومع أن (أوزدمير) كان يتجنب ببراعة كل مطلب في إعطاء تأكيدات على حقوق الكرد (كما علمنا بعدئذ من المراسلات التي وقعت بأيدينا - بين محمود ومقر قيادة الفرقة التركية في الجزيرة)

(1) لإعادة ترتيب أحداث هذه الفترة على ضوء صحف السليمانية.. انظر مقالي (صحيفة كردية...).

فإن الشيخ محمود ألقى بجانب الحذر أخيراً وانطلق يعمل لتحريك الثورة في الأجزاء الكردية من لواء كركوك.

وفي وجه هذين التهديدين: تهديد الجماعات الموالية للترك، وتهديد الشيخ محمود، بذلت ما في وسعي لتقوية الروح المعنوية في المتصرف والموظفين دون ما خوف أو مصانعة، وقمت بزيارات عديدة لعبد الكريم قادر كرم ولزعماء الطالباني والجاف وغيرهم من رؤساء القبائل لتشجيعهم في مقاومة الدعاية العدوة التي تنثال عليهم من الجهتين وأنبأني (لاين) واستخباراتي الخاصة بأن اندلاع الثورة قد وقت في أوائل آذار، وأن كركوك وكوي ستكونان الهدفين الأولين. وفي 14 شباط طار (بورديللون) للتشاور معي، فاتفقنا أن مشكلة السليمانية سيحل نصفها لو أمكن طرد الترك من رواندوز لكن لما كان هذا العمل لا يمكن أن يبحث فيه من وقت قريب، فمن الضروري أن تقوم بعمل مباشر ضد الشيخ محمود.

وفي 16 كانون الثاني طرت إلى بغداد وعقدنا اجتماعاً حضره كل من السير (هنري دوبس)[1] و(بورديللون) وأنا من جانب، ومقدم الجو (أ.ي. بورتون A.E. Borton) وآمر السرب (و.ف. كانيس W.F. McNeece) عن مقر القوة الجوية واتفقنا على خطة عمل في نقاط أربع:

أولاً: في 21 كانون الثاني يرسل المندوب السامي برقية إلى الشيخ محمود يطلب فيها حضوره إلى بغداد.

ثانياً: عند رفض الشيخ ذلك، تقوم قوة من الطائرات بمظاهرة جوية فوق

(1) كان السير برسي كوكس في العراق آنذاك. لكنه كان منصرفاً إلى الأمور المتعلقة بالتطور الدستوري للدولة الجديدة وكانت مشاكل الغدارة الاعتيادية يتولاها مستشاره وخليفته المرشح السير (هنري دوبس) وكان (بوديللون) سكرتيراً للمندوب السامي. ثم رفع إلى منصب مستشار عندما شغر بتولي (دوبس) منصب المندوب السامي.

السليمانية تلقى فيها مناشير تعلن فيها إزاحته عن الحكم وتمنحه خمسة أيام أخرى للحضور خلالها إلى بغداد مع كل أعضاء المجلس الإداري.

ثالثاً: تتحرك سريتان من كتيبة السيخ الرابعة عشرة بالقطار حتى (كنكربان) ومن هناك تنقل جواً إلى كركوك (هذا عملية عسكرية جديدة لم تسبق في عالم التكتيك الحربي) لتعزيز قوات الليڤي كإجراء وقائي ضد أي اندفاع مفاجئ نحونا.

رابعاً: إذا رفض الشيخ محمود مغادرة المدينة تقوم القوة الجوية بقصف ثكناتها ومقر الشيخ محمود.

كما أني خولت إبلاغ (سمكو) أن الحكومة الإيرانية بعد توسط المندوب السامي وافقت على إصدار العفو عنه، وأن أشجعه على مغادرة السليمانية. وكنا نتوقع أن يفضل الشيخ محمود الانسحاب إلى قراه الواقعة على مسافة قريبة مقلقة من السليمانية وأن يختفي عن الأنظار في إيران وهو أقصى ما نتمناه على الاشتباك معنا في حرب. وبطبيعة الحال سيتخذ كل التدابير التالية على ضوء تطورات الموقف، وقد تهيأت لوضع مشروع فصل أقضية رانيه وچمچمال وحلبچه وإلحاق الأول منها بأربيل والثاني والثالث بكركوك إن تعذر إقامة سلطة مركزية قوية في السليمانية تكفي للهيمنة على اللواء بأسره وتقرر أن تعزز دائرتي بخدمات كل من (جاپمان) الذي سيستدعى من السليمانية، والنقيب (ى.ج. دوغلاس E.J. Douglas) من ضباط قوات السليمانية السابقة وعندما رجعت إلى كركوك في 19 تشرين الثاني وجدت المطار قد استحال مستنقعاً بسبب الأمطار الغزيرة وغاصت كل الطائرات عند الهبوط، وفي مساء العشرين منه أبرقت للشيخ محمود برسالة المندوب السامي فأجاب طالباً مني الذهاب إلى دائرة البرق لإعطائه إيضاحات أخرى، فأجبته ني غير مخول بمناقشة قرارات رئيسي وعليه تنفيذ الأوامر التي تلقاها ثم أنه تم نقل وحدات (السيخ) جواً في الثاني والعشرين منه وكانت ضجة هائلة في كركوك عندما شوهدت (الأرمادا) العظيمة المؤلفة من عشرين طائرة وهي تحوم في الجو ثم تنطلق نحو الشرق، لكن أسفاً على تلك الخطط الموضوعة بأدق ما

يمكن، فقد انتهت تلك المظاهرة العظيمة بمهزلة كاملة، لما وصلت الطائرات إلى سماء چمچمال أغمي على الضابط الذي يقود العملية وكان يشكو من حمى الملاريا فانحنى ميكانيكي الطائرة إلى الأمام وهو في مقعده الخلفي وأنقذ الطائرة من دورانها على نفسها إلا أن الضابط الذي لم يستغرق إغماؤه أكثر من ثانية واحدة لم تكن حاله تسمح له بالاستمرار فقفل راجعاً وكان مجال الرؤية خلف قره داغ سيئاً للغاية فاستنتج عدد من الطيارين أن قائدهم قرر إلغاء العملية فقفلوا راجعين خلفه وضل آخرون سبيلهم ووجد الملازم الطيار (أ. ت. ك. شپرايت A.T.K. Shipwright) نفسه وحيداً في سماء السليمانية، فألقى بما حمله من بيانات على الجموع المحتشدة في الشوارع وفي طريق عودته التقى بالضابط الطيار (د. و. ف. بونهام كارتر D.W.F. Bonham Carter) على بعد حوالى اثنا عشر ميلاً وكان هو الآخر يسعى إلى هدفه وحيداً في الضباب ويلوح برزم المناشير ليشعر رفيقه بأنه لم ينه مهمته، فاستدار كلاهما إلى الهدف ثم عادا إلى كركوك بسلام، ولهذا كررت العملية نفسها في اليوم التالي باثنتي عشرة مقاتلة من نوع (بريستول) وأربع طائرات من طراز فيكرز - فرنون Vickers - Vernon ذات المحركين وقاسينا لحظات قلق مرة أخرى، ففي الضحى أُبلِغنا بسقوط ما لا يقل عن سبع طائرات في غور (بازيان): أرغمت طائرة (بريستول) واحدة على الهبوط لخلل طرأ على المحرك فهبط إليها الملازم الطيار أ. مكلارن - رايد بطائرته لمعاونتها ورغم إشاراته، هبطت طائرة أخرى من طراز (فرنون) وغاصت في الطين، وهبط عدد آخر من المقاتلات إلا أنها تمكنت من التحليق ثانية عدا طائرة (الفرنون) وقمت بإسقاط رسائل على قرى ثلاث لأغوات (الهه ماوند) الأصدقاء أطلب فيها منهم وضع حراس عليها، ففعلوا وبقيت في مجثمها عدة أسابيع حتى تم إنقاذها وفي منتصف ليلة 24 راحت البرقيات المتبادلة تترى بيني وبين الشيخ محمود وأخيه شيخ قادر وأعيان السليمانية عدة ساعات وكان (محمود) يناور ويداور بينما راح أعيان المدينة يعتذرون له ويطلبون مهلة. وأنا أكرر بأن أوامر المندوب السامي يجب أن تطاع بالحرف الواحد وأن الطائرات التي أرسلت في الثاني من آذار لإلقاء بضع قنابل

تنفيذاً لقرارنا، اضطررت إلى العودة لسوء الأحوال الجوية، إلا أن القنابل سقطت بدقة في اليوم التالي، وفيه وصل إلى كركوك وفد يضم (شيخ قادر، ومصطفى باشا) ولما لم يجد أي فائدة من النقاش قصد مصطفى باشا دائرة البرق وقضى الليلة فيها يتصل بالشيخ محمود وبأعيان المدينة، ثم إنه أيقظني في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين فجراً ليبلغني أن (محموداً) غادر السليمانية في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل إلى جهة غير معلومة يرافقه معظم وحدات الليفي وأموال الخزينة.

في الوقت نفسه تقدمت أنا والمتصرف بطلب مزدوج لتخويلنا صلاحية اعتقال وإبعاد (سيد أحمد خانقاه) باعتبارها أبعد الإجراءات خطراً وأشدها حزماً ضد الدعاية التركية في كركوك. وكان عملاً دقيقاً للغاية لمكانة السيد الدينية ونفوذه الروحي. وكان علينا أن نحكم وضع خطتنا، فاتفقنا أن يرسل المتصرف بطلبه ويوضح له بأننا على علم تام بنشاطه، وبعدها ينادي (النقيب ريف) ليقوم باعتقاله (ذلك لأن مراد كان يقوم بجولة خارج المدينة). تظل طارمة السراي عادة مكتظة بالمراجعين وذوي الحاجات المنتظرين لذلك كان من الضروري وضع عدد كاف من الشرطة لمنع أي محاولة لإنقاذه أثناء إركابه سيارة الشرطة التي ستحمله رأساً إلى طائرة ذات محركين منتظرة في المطار، واتفقنا أن أبتعد عن مسرح الحادث قدر الإمكان على أن أكون مستعداً لكل طارئ في غرفتي التي لا يفصل بينها وبين غرفة المتصرف إلا جدار فيه باب داخلي وفي صبيحة اليوم المقرر وهو السادس من الشهر، أبلغني فرّاشي بوصول (السيد أحمد خانقاه) في الموعد المضروب، وبقيت أنتظر دخول المتصرف عليّ لإبلاغي بانتهاء القضية ومرت خمس دقائق ثم عشر دون أن يظهر له أثر ولما امتد بي الوقت ربع ساعة عيل صبري وقررت أن أستطلع جلية الأمر، ولما دخلت وجدت (فتاح باشا) جالساً وراء مكتبه منقلب السحنة في وضع نفسي يرثى له، وبينما كان (السيد) مقتعداً كرسياً ذا مسندين بمهابة وجلال وقد خلا ذهنه على ما يبدو من الأسباب، التي دعت إلى استقدامه،

ونظر إليّ الباشا العجوز نظرة ضراعة واستنجاد فلم أر بداً من تولي الأمر بنفسي فجابهت رجل الدين التقي بأعماله السيئة وراح هو يتدرج من الجد إلى الاستخفاف إلى الاستنكار حتى انتهى بقوله أن يضيق ذرعاً بسماع هذه الشكوك ولا يتحملها، وأن العيش في كركوك لم يعد مناسباً إذا كنا حقاً نصدق هذه التخرصات والوشايات. ولم أكن أنشد ركيزة خيراً من هذه، فأجبته بأنني والمتصرف قد توصلنا إلى النتيجة نفسها وأننا اتخذنا التدابير لضمان راحته في سفره إلى بغداد إن شاء الخروج إلى السيارة المنتظرة في الخارج الآن. فهب من مجلسه قائماً واحتج بقوله إنه لن يسافر من كركوك قبل أن يتهيأ ويستعد. إلا أن (ريف) الذي دخل تلبية لنداء الجرس، تقدم منه ونقر بأصبعه على كتفيه كما تقضي به أصول المهنة - وأشار إليه بأن يتقدم إلى الباب. فجذب (السيد) طيات جبته إلى صدره وبحركة كبرياء وتعاظم دفع برأسه إلى الخلف حتى أصبحت أرنبة أنفه تشمخ عالياً ثم خرج من الغرفة. كان أسفي حقيقياً لاضطرارنا إلى إزاحة (السيد) عن كركوك بهذه الوسيلة. فقد جئت كركوك وله في قلبي ود، غير ناسٍ أنه كان موالياً مخلصاً للإدارة لا يتزعزع أيام (لونگريك) لما مررت بالمدينة مع حملة (فريزر)، إلا أن شيئاً ما حصل له ما بين 1919 - 1922 لا أدري أكان مرده قوة الدعاية للخلافة، أو لاعتقاده أن الترك سيكونون أقل اهتماماً منا بتنصيب (الشيخ محمود) ملكاً عليه، أو ربما لخيبة ظن فينا؟ ولقد وجدته امرؤ لا يسلس قياده حتى قبل انتباهنا إلى فعاليته في إثارة الخواطر وإذكاء نار الفتن. وعندما التقيت به في ظروف تالية طيبة وجدته لا يقر بالتهم ولا ينفيها وإنما شكا بأنه لم يعط أغطية كافية ليتقي برد الطائرة الشديد.

بعد اعتقال السيد مباشرة، وجد بعض ذوي الضمائر المثقلة بالوزر أن الحكمة تقضي عليهم بالاختفاء والتسلل سراً إلى تركيا، ولم يكن في المقدمة غير ناظم بك نفطچي زادة نفسه أعظم شخصية في كركوك! وفي تلك الأثناء حالفنا حظ عظيم قد نوهت به عرضاً، هو وقوع تقرير طويل في أيدينا قرب الموصل، مع

عدد من المرفقات - مرسل من (أوزدمير) إلى الجنرال التركي قائد جبهة الجزيرة. أكد لنا هذا التقرير معلوماتنا عن الهجوم المبيت لكركوك وكفري ومدى مشاركة الشيخ محمود فيه. بل أظهر أيضاً أن (أوزدمير) كان ينوي الهجوم على أربيل في أثناء ذلك وأنه كان أيضاً متصلاً بقائد القوات الإيرانية على الحدود بخصوص السماح لجنوده بالمرور عبر الأراضي الإيرانية، وتجنيد محاربين لتعزيز قواته غير النظامية من القبائل التي تسكن إيران.

ورد السر (جون سالموند) على هذا بحيويته المعهودة. فوصل كركوك في 7 آذار للتزود بآخر المعلومات والاطلاع على تقديري للموقف السياسي، ثم طار إلى أربيل في اليوم التالي للاجتماع بـ(لاين)، ثم انتقل إلى الموصل لتنفيذ العملية التي كنت أنا و(بورديللون) قد صرفنا النظر عنها قبل ثلاثة أسابيع مضطرين لأنها «ضرورية لكن لا مجال للتفكير فيها» وتتلخص تلك العملية بتأليف رتلين أولهما (كويكول) بقيادة العقيد (ب. فنسنت B. Vincent شكل من الوحدات التالية: (وحدة الكاميرونيين، ولواء [وِسْت يوركشاير] وفوج السيخ الـ1/ 13 - «سابقاً الـ15». وبطارية مدفعية إمبالا الجبلية المحمولة على البغال، وبعض المستكشفين) يتحرك هذا الرتل من الموصل إلى أربيل ثم إلى (كوي).

وثاني الرتلين (فرونتيركول = رتل الحدود) ويكون بقيادة العقيد (هـ. ت. دوبين H.T. Dobbin) وهو يتألف من الليڤي بأفواج مشاته الثلاثة 2، 3، 4 والبطارية الجبلية.. ووحدات الشرطة، ويتم حشده في أربيل بعد تحرك (كوي كول = رتل كوي) ثم يتقدم نحو رواندوز ليبلغ ما كان وقتذاك طريق الكروان الرئيسية المارة بـ(ديره ودوين قه لا) عابراً شعب (سپيلك) وقدر أن تمر أربعة أسابيع أو خمسة قبل أن يصبح الرتلان متهيئين للتقدم الأخير، واعتزم في الوقت نفسه بألا يسمح لأي تراخ يعتور إجراءاتنا للسيطرة على الوضع المحلي في كركوك والسليمانية وأربيل.

بعد خروج الشيخ محمود من السليمانية في فجر يوم 4 آذار أخذت الأخبار عن وجهته تتناقض في ما بينها يوماً أو يومين، ثم ما لبثنا أن عينا موضعه وهو

الشمال الغربي من سورداش فهناك اتخذ مقره في كهف عظيم بالقرب من (جاسنه) أما وحداته من الليڤي وأنصاره القبليون وأتباعه الآخرون فقد وزعهم في القرى المجاورة. وباشر في جباية الضرائب وما إلى ذلك من مظاهر السلطة التي امتدت حتى (سرچنار وشاربازير) كما علمت بكل أسف أن صديقيّ القديمين (رضا بك وعبد الرحمن آغا) كانا على رأس جماعة في ظاهر السليمانية يلقيان الهلع في نفوس سكانها ويجبيان المال قسراً من التجار وكل من يناصبهم العداء، وكان الشيخ محمود قد أخذ معه مطبعة البلدية. وفي الثامن من الشهر أصدر العدد الأول من جريدة (بانكى هه قه = نداء الحق) في صحيفة فولسكاب واحدة على غرار سابقتها روژى كردستان والاسم نفسه يوحي بالتعصب الوطني الشديد لأن كلمة (الحق) تعني في اصطلاح الصوفية أيضاً المشيئة الإلهية أو الذات الإلهية والمقال الوحيد فيها يتضمن إعلان الجهاد، هذا كله بالإضافة إلى نشاط (رضا بك) الذي أدى إلى استقالة مجلس الإدارة المعين من قبل المندوب السامي بعد خروج محمود مباشرة، يوضح أن الشيخ كان مصراً على الثورة لا تلين قناته. فقمنا باستطلاعات جوية فوق السليمانية وسورداش وهوجمت جاسنه بين آن وآخر وجرى الهجوم على كل قطعة متحركة من الفرسان تطلق النار. واستحصلت أمراً باحتلال چمچمال وإيداع الإدارة إلى قائمقام «محصن ضد الرصاص» هو (أمين رشيد آغا) من الره ماوند تابعة للهماوند ومن أعداء (كريمي فتاح) وبذلت جهوداً في أماكن أخرى لبث الجماعة في عناصر صديقة أو معتدلة، لمقاومة جمع الضرائب الذي يقوم به ممثلو (الحكمدار) المعزول.

صدمت كركوك بإبعاد (السيد أحمد) وقرار (ناظم بك) وهدأ الناس كأنما جرى ذلك بسحر ساحر وفي منتصف الشهر طرت إلى كفري ورسمت (لدوغلاس) أن يعتقل أغوات معينين من الزنكنة وجلالى جاف بضمنهم مع الأسف (توفيق آغا أبوگل...) وفرضت هيبة الحكومة بالشروع في إحصاء أغنام الجاف وجباية ضريبة (الكود): فحركت هذه الإجراءات البسيطة سيلاً من عرائض الدخالة وطلب العفو من أشخاص كثيرين لم تعد تطالهم يد الشيخ محمود.

وفي 23 منه وصل السر هنري دوبس كركوك ورافقته في اليوم التالي إلى أربيل للمداولة مع الأمير زيد أخ الملك فيصل الأصغر الذي كان قد أرسل إلى الموصل في أوائل الشهر لتنظيم المقاومة العربية في وجه التهديد التركي بالغزو - والمفتش الإداري في الموصل، و(لاين). وكان الموضوع الرئيس في جدول أعمالنا هو السياسة التي ستعقب احتلالنا رواندوز.على أني انتهزت الفرصة قبل عودتي لأوضح أن العملية الأولى يجب أن يعقبها إعادة احتلال السليمانية أيضاً.

وكان من المقرر أن يصل (كويكول) إلى كوي في 4 نيسان وكنت متلهفاً للقاء العقيد (فنسنت) و(لاين) الذي رافق الرتل ضابطاً سياسياً. وقررت ألا أركب طائرة بل السفر براً لأعرض نفسي على ملإٍ من الأشهاد ماراً بقرى (شيخ بزه ينى) - المعادين الآن - على جانبي الزاب على طريق (شوان) وكان ممكناً وصول سيارة الفورد إلى نقطة تبعد 14 ميلاً عن كركوك بطريق طقطق ومنها انطلقت على ظهور الخيل وبت أول ليلة في قرية (حاجى به ى خان) بعد أن قطعت سبعة أميال في هذه الأراضي المتطامنة حيث لا يوجد ثمة غابات بلوط ولا مقالع حجرية والبيوت هنا تبنى عادة على الطراز العربي الشائع في القرى والتدفئة تتم بنار الجلة (الروث البقري المجفف) تكوم في نقرة وسط الغرفة. وليس هناك مدخنة. وفي كثير من الأحيان لا توجد فتحة تهوية في السقف وأظهر مختار القرية حماسة وشوقاً في استقبالنا، وسرعان ما امتلأت غرفة الضيفان بدخان حاد الطعم جعل حناجرنا تختنق، وأسال الدمع من عيوننا. ولا شك أن كثيراً من الكرد الذين يسكنون جنوب البلاد يقضون معظم موسم الشتاء في مثل هذا الجو الذي يضر ضرراً بالغاً بقواهم البصرية وصحتهم العامة.

واستأنفنا الرحلة في صباح اليوم التالي في طقس نيسان الجميل وكانت مرتفعات (شوان) قد غرقت في الحشيش الأثيث الأخضر والبساتين مزدانة بالأزهار الفاغمة. وفي (طقطق) كان الزاب الذي تعاظم جرمه كثيراً بأمطار الربيع ونداه، يندفع عرماً دفاقاً بلونه البني الغامق وقد بلغ عرضه 150 يرداً وجرف التيار عبارتنا

مسافة بعيدة قبل وصولها الضفة الأخرى واستغرقنا في العبور وسحب القارب إلى موضعه زهاء خمسين دقيقة بعد انجرافه بعيداً عن نقطة انطلاقه الأصلي.

كانت (كوي) تعج بالجنود وقد أحالها المطر إلى مَوْحَلة. ونزلت ضيفاً على ملا (حويز آغا غفورى) ودعا هو وجميل آغا القائمقام قائد القوات والضباط الأقدمين إلى عشاء فاخر جرياً على تقاليد الكرم الكردية المأثورة، ووصل السر جون سالموند نفسه جواً في التاسع منه ليعطي آخر تعليماته للعملية وفي اليوم التالي عبر رتل كوي (هيبة سلطان) متقدماً نحو (سرخوما) وتحقق بذلك أول تثبيت للسلطة الحكومية في رانيه (دعك من العمليات الجوية) منذ تقهقر رتل رانيه الشنيع قبل سبعة أشهر ولما لم يكن يتوقع حصول تطورات رانية فقد قررت السفر إلى آلتون كوبري[1] ثم زيارة ناحية (مالا) التي أهملتها إلى اليوم بسبب شدة انشغالي في الشؤون الكردية الخاصة بالسليمانية. وبعد ركوبنا الخيل بعشرين دقيقة مررنا بـ(هه رموته) وهي القرية الوحيدة يتألف سكانها جميعاً من المسيحيين في قضاء كوي. وسرنا عدة أميال بمحاذاة (روبارى آوى) وهو في هذا الوقت من السنة ماء جار، ولا بد أننا عبرناه من ضفة إلى ضفة عدة مرات قبل الابتعاد عنه غرباً ومررنا (بعمر كمبد) و(سيگر دكان) وبأفول الشمس وصلنا مضارب (محمود آغا شيخ بزه ينى) على ضفة مسيل رائع يدعى (به ستى هاوار) ويبعد حوالي ميل واحد عن قرية (سارتك) وثلاثين ميلاً عن كوي.

قضيت ليلة مريحة في وسط مروج خضراء جميلة يخال المرء أنها بعيدة بآلاف الأميال عن المشاهد التي تركها صباحاً. وانتقل بنا الحديث إلى اللغة فقال مضيفي إن أهالي القريتين اللتين مررت بهما في ذلك اليوم (عمر كمبد وسيگردكان) يتكلمون لهجة خاصة، وإنهم ينتسبون نسلاً إلى (شيخ بزه ينى) كسائر القرى الواقعة على ضفتي الزاب بهذا الامتداد لكنهم حافظوا على اللغة القديمة، ولم

---

(1) قيل لي في آلتون كوبري أن قريتي (دارماناو) على الضفة اليسرى مقابل (باستى هازاد يسكنهما اللكى) لكن أهلهما لا يمتون بنسب إلى أهالي (سيگر دكان وعمر كمبد).

ينصرفوا عنها إلى (الكوردى) الذي تتكلم به القبيلة كلها الآن وقد تم هذا في وقت متأخر نسبياً ومما عرض عليّ من مفردات لغوية قدرت أن اللهجة قريبة من (كوردى) كرمنشاه أو كردية (اللكى) في شمال لرستان والقارئ يذكر أن (شيخ بزه ينى) تزعم أن نزوحهم الأول كان من الموصل أو من شمالها. وعلى هذا تكون القرائن اللغوية أكثر دعماً للقصة التي رواها لي (جمال آغا كوي) وهي أن أهالي القريتين هم نازحون ينتسبون إلى قبيلة تدعى (ده ربه ندى) جاءت من إقليم (زه هاو) شمال الطريق العام الإيراني بالقرب من شعب (تقى گزه) حيث يدخل نهر (حلوان) جبل (در به ند) أو (ده رته نكك) في طريق إلى قصر شيرين وخانقين.

وفي صباح اليوم التالي وجدت في آلتون كوپرى (ميللر وچاپمان) ينتظراني في مهام الدائرة، وكان برفتهما الملازم (جارلس كورنكت) Charles Coring وهو الذي أصبح أسطورة من أساطير البطولة لضروب البسالة التي أبداها في ثورة العشرين بسيارته المصفحة (هارفستر)، وقد عين الآن مشرفاً على دوريات خطوط مواصلاتنا. وكنت الساعتان اللتان قضيتهما في مطالعة الأوراق كافية، وبعدها تركتهما قاصداً كركوك بالسيارة مواصلاً نزهتي بمحاذاة النهر حتى (مالا) ومنها إلى مقر ناحيتها وهي آخر مركز كردي في تلك الجهة. وفي اليوم التالي قطعت سيارتي منطقة عربية خالصة حتى (تل علي) واجتزت عدة تلول ترابية منها (ماهوس، ورمان، ومطيبيخ) وغيرها (أكد لي أن مقادير كبيرة من الآجر والجص الجيدين قد استخرج منها ومن (تل علي) نفسه وجد فيه آجر كبير مربع ضلع الواحدة (قدمان) وهي بدون شك مواقع آشورية، لأن مدينة آشور نفسها لا تبعد عنها أكثر من عشرين ميلاً. قبل أن أترك كركوك كان (مراد) قد حذرني بألا أنزل ضيفاً على أية قبيلة عربية في تلك المنطقة ولا سيما الجبور بسبب إصابتهم العامة بمرض البجل الخبيث المعدي ولذلك شعرت بارتياح عظيم حين وجدت في (تل علي) ضيفاً على حاجي حسن آوچى زاده وهو مزارع من أعيان كركوك، عصري النظرة كان قد بنى لنفسه قبل بضع سنوات بيتاً قرب النهر وكانت ساحته تضيق بأجزاء المكائن

الزراعية التي استورد بعضها قبل الحرب وهي الآن عاطلة لحصول عطب جزئي فيها وافتقارها إلى الصيانة وقطع التيار. كان في ذلك الوقت مشغولاً بشق ترعة يأمل منها استصلاح أراضي بور لم تزرع منذ العصور الوسطى، إن الخرائط المستعملة في ذلك الحين تظهر ترعتين قديمتين عريضتين اسم أولاهما (صفير الفيل) رأسها يبعد ستة أميال من ناحية تل علي. وثانيتهما «عباسية» ويبعد رأسها عشرين ميلاً أخرى من صدر النهر ولست أدري مصدر الاسمين. أخذني (حاجي حسن) إليهما ورجاني أن أجلب اهتمام دائرة الري بهذه المنطقة التي كانت فيما مضى من أخصب البقاع ففعلت، ومرت أعوام عديدة قبل أن يبرز مشروع الحويجة في منهاج ضخم من الأشغال العامة الرئيسية، وفي العام 1944 أتيح لي أن أزور تلك المنطقة فسرني أن أجد بضع مئات من أسر (الچچجن) وقبائل الجبور العربية والعبيد قد استوطنوا هناك في رخاء من العيش في حين كانت أسر أخرى تنتظر دورها للاستقرار عند إكمال الفرع الثاني للترعة الجديدة[1]. ومن الترعتين انطلقنا لتفقد الخرائب في رقعة واسعة من الأرض تعود إلى العصور الإسلامية وسماها العرب (الإسماعنيات) وقد لاحظت أن أهم الأنقاض فيها هي بنايتان مستطيلتان تقومان جنباً إلى جنب مع ضريح يعرف بـ(أم اسماعين) وينتسب إليه الموقع عموماً كما يوجد أيضاً منارة متقوضة وجدران وأكداس من الآجر والجص لا يعرف ماذا كانت. وأول البناءين المستطيلين حسن البناء من الآجر، وواجهة الجدار فيها صفوف من الزخارف الهندسية، والمدخل هو عقادة مدببة وفي الداخل غرفة واحدة تبلغ مساحتها حوالى 20 قدماً مربعة والجدران مكسوة بزخارف من الكلس الأبيض وكل جدار يحوي ثلاثة صفوف من البواكي الباروكية تعلوها خمسة أقواس ضيقة الواحد منها فوق الآخر ودائرته العليا حادة، وهناك آيات قرآنية (آية الكرسي الشهيرة) منقوشة على ثلاثة جوانب أما الجانب الرابع ففيه

---

(1) هناك تفاصيل أكثر مدعمة بالصور في مقالي (موقع أثري عباسي على الزاب الصغير). المجلة الجغرافية، مجلد 145 لسنة 1932، ص332.

الباب بين البواكي والأقواس. وآخر كلمات من الكتابة بعد ختام الآية مشوه بعض الشيء إلا أننا تمكنا من قراءة اسم «محمد يحيى» مع تاريخ 670هـ - 1271/ 1272م وهذه الزخارف الداخلية تشبه إلى حد كبير (نصب الأربعين = 660هـ) الذي يقوم على ضفة دجلة بمسافة ستين ميلاً عن هذا الموقع[1]. أما البناية الثانية فتبعد عشرة ياردات عن الأولى وهي تشبهها إذا نظرتها من الخارج وليس فيها زخارف كلسية من الداخل ويظهر على آجر البنايتين آثار تزجيج قديمة من الداخل في بعض المواضع إلا أن الطلاء قد امّحى. وسعة ضريح (امام اسماعين) لا تزيد عن سعة البناء الأول إلا أنها أحسن حالاً إذ ما زال باقياً جزء من القبة، والقبة نفسها يعلوها هرم مُثمن وقوس الباب غوطي الطراز والمدخل مثمن والجوانب مكسوة إلى ارتفاع أربع عشرة قدماً من الأرضية وفي كل جدار مشكاة، وفي الجهة الجنوبية محراب صغير متجه إلى القبلة ويوجد قوس في كل وجه من الوجوه الثمانية فوق الكساء الجصي وتبدو في قاعدة القبة عوارض خشبية.

ويرى (حاجي حسن) أن الاسم القديم لهذا الموقع يقارب لفظة (زويج) وإني لواثق بأن الإسماعينيات هي في الحقيقة خرائب (البوازيج) التي كتب عنها[2] لسترانج ما يلي:

«إلى الشرق منه يقصد شرق السن، وهو موضع التقاء الزاب بدجلة، وعلى بعد أربعة فراسخ فوق الضفة العليا من الزاب الأسفل تقوم بلدة (البوازيج) أو (مدينة البوازيج) عند ابن حوقل. ويبدو في يومنا أنها لم تترك لنفسها أثراً على الخريطة... وينوه بها (ياقوت) فيسميها (بوازيج الملك) وكانت عامرة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ويذكرها (المستوفي) قائلاً إنها تدفع أربعة عشر ألف دينار لخزينة الإيلخانيين».

---

(1) وصفه (سار Sarre) وهرتسفلد في (رحلة أركيولوجية) في منطقة دجلة والفرات، (برلين 1911 - 1920)، ص222 - 224، الصور 109 - 113، ولوحة رقم 30.

(2) المرجع السالف، ص91.

في الوقت نفسه كانت الحركات العسكرية تتقدم وفق الخطة المرسومة. ففي 15 نيسان عندما احتوتني كركوك، كان رتل الحدود قد وصل سهل (حرير) وهو تقريباً منتصف الطريق بين أربيل ورواندوز إلا أن (سپيلك) وهو ممر وعر كان على الرتل أن يقطع خلاله الجبال المحيطة بالسهل من الجهة الشمالية الشرقية والمعلومات كلها تشير إلى أن العدو قد اتخذ فيه مواقع محكمة. وأما عن كوي فقد قام بعدة غارات تأديبية في (بتوين) تمكن بها من استعادة مدفعية كان رتل رانيه قد فقدهما (ناقصاً مغلاقاً واحداً وجد بعدئذٍ في رواندوز) ثم عاد إلى (سرخوما) ليتهيأ للحركة التالية: وفي اليوم نفسه قام قائد القوة الجوية باستطلاع شخص من الجو وأدهشته مناعة (سپيلك) الطبيعية واستنتج استحالة اختراقه عنوة! إلا ببذل تضحيات كبيرة - وأنه لا سبيل إلى اقتحامه إلا بحركة تطويق موقوتة. فأمر العقيد (ڤنسنت) بإعمال الفكر للتخلي عن خطته بالاقتحام الجبهي، والسير مع (كويكول) حتى (دولى كه شان) وهو الوادي الثاني في مروحة رانيه غرب شاوور خلال أراضي (بشت گه لى) إلى (باليسان) ومنها إلى وادي (آلانه) شرق جبال حرير[1] ولما كان (ڤنسنت) يتوقع هذه التطورات فقد طلب مني ومن (لاين) بمناسبة زيارتي (كوي) تزويده بأوفى ما يمكن من المعلومات عن طبيعة هذا الطريق الذي يمر في بقاع لم تمسح مسحاً طبوغرافياً بعد وكان قد جمع وسائل النقل الكافية لهذا الغرض. كان (ڤنسنت) والحق يقال قائداً صلب الرأي ثبت الجنان لا يثنيه تهديد خطوط مواصلاته المتسبب عن طبيعة الأرض الوعرة وعداء الأهالي، وقلة الاعتماد على الأرزاق التي تحملها بغال استؤجرت محلياً وبعد أن أكمل استعداده صار متهيئاً لتنفيذ الخطة في أية لحظة.

في 17 منه طار بي آمر السرب السادس (ي.ر. مانننغ E.R. Manning) إلى (سرخوما) لمقابلة (ڤنسنت) ولتبادل آخر معلومات مع (لاين) وكانت (بتوين) أشبه

(1) الرسالة المؤرخة في 22 أيار 1923 من نائب مارشال الجو سير ج. سالموند إلى وزارة الطيران نشرت في «ملحق لندن غازيت» في العاشر من حزيران 1924.

ببحيرة من الطين غب أمطار غزيرة. وحققنا هبوطاً سليماً فوق بضعة ياردات في حافة من الأرض هبوطاً عددته معجزة، وبقينا حتى مر بنا آخر رجل في الرتل في طريقه ثم طرنا عائدين إلى كركوك.

ونجحت العملية مائة بالمائة ولقي (رتل كوي) مقاومة عنيدة كما توقعنا في أول يوم، كذلك حصل اشتباك عنيف في التاسع عشر منه فيما وراء (باليسان) لكن العدو اندحر بتعاون القوة الجوية الوثيق بعد أن مني بخسائر فادحة ولم تزد خسارتنا عن خمسة جرحى وفي ليلة 19 - 20، تخلى (أوزدمير) عن مواقعه في (سپيلك) دون أن يطلق رصاصة واحدة. وقد وجدنا أننا لم نبالغ قط في تقدير مناعتها بعد أن بلغناها وتفقدناها، وتم احتلال راوندوز بدون مقاومة بعد ظهر 22 منه وكانت مسألة شكل الإدارة الذي سيرسم لرواندوز مسألة شائكة فالحكومة العراقية وأقصد بها الملك ورئيس الوزراء، ومتصرف أربيل أيضاً هم و(كورنواليس وبورديللون ولاين) من الجانب البريطاني يرغبون في تعيين موظف اعتيادي لمنصب القائمقام. إلا أن السر (هنري دوبس) يظاهره قائد القوة الجوية العام أصر على تعيين (سيد طه) بوصفه شخصية «محصنة ضد الرصاص» وأكثر استعداداً لمواجهة الموقف الذي يتوقع بروزه هناك. فقد علم من مصادر سرية أن جماعات من المغامرين سيبعث بهم الترك إلى المدينة عقب انسحابهم عنها لإبقاء المنطقة في غليان وثورة مستديمتين، ولذلك أنيط به أمر تصفية شأنهم بغير مساعدة من الجيش، وليس في إمكاني الحكم: أي الجهتين هي المصيبة، حتى على ضوء الأحداث التالية. إلا أن اختلاف الرأي كان له أثر سيء معاكس لخطتي الخاصة بالسليمانية.

- 22 -

كويكول (2)

كنت أتناول العشاء في بغداد مع كل من مقدم الجو (ل.ي. جارلتون) وآمري الأسراب (هيرسن Hearson) و(ماكنيس وبورديللون) عندما وصلت البرقية التي تزف نبأ احتلال رواندوز. وكنت قد طرت إلى العاصمة في اليوم السابق لأبحث في منهاج العمل بخصوص السليمانية، كذلك لأحضر حفلة عشاء وداعية لآل (كوكس) بمناسبة مغادرتهم العراق بعد تقاعد (السير پرسي).

وكانت مناسبة أليمة لي لأني قضيت في دائرته السنوات العشر منذ أول قدومي شاباً إلى (بوشير) للسنة 1912، وكان معظمها تحت رئاسته المباشرة ومنه ومن السيدة كوكس لقيت أعظم اللطف والعطف وإني لا أستطيع حتى الآن إعادة مطالعة التقرير (السري)[1] الذي كتبه عني قبل تركه الوظيفة بلهجة أبوية حانية، إلا ويتملكني شعور الحب البنوي له. كانت نتيجة محادثات بغداد اتفاقاً تاماً في وجهات النظر. وهي إن لم يتم تحطيم التنظيم الذي خلقه (الشيخ محمود) في مقره بسورداش فالأمل ضئيل في أن تتمتع كركوك بإدارة مستقرة حتى بعد طردنا الترك من رواندوز. هذا وإن الفوجين البريطانيين اللذين يتألف منهما رتل كوي يكادان يتكونان كليهما من مجندي ما بعد الحرب الشبان وقد أبلوا والحق يقال

---

(1) تنص أنظمة الخدمة أن ما يدعى بالتقارير السرية (الشخصية) تعرض دائما على من صدر التقرير بحقه قبل إرساله إلى المراجع العليا في بريطانيا.

بلاء حسناً في العمليات التي فصلتها في الفصل السابق إلا أنهم في طريق العودة سقطوا صرعى بالزحار وما إليه من الأمراض الاستوائية التي يسهل إصابة المستجدين بها ولذلك قرر استبدالهم بفوجين من المحاربين القدماء من الجيش الهندي وهما قوة الحدود الـ 1 - 13 (سابقاً فوج كركوك الـ 55) والرماة الپنجاب الـ 3 - 16 (سابقاً الفوج الـ33) وهذا الرتل كما بينا سيتقدم لاحتلال السليمانية.

وعدت إلى كركوك في 27 منه ثم طرت إلى كوي في اليوم التالي مع الملازم الطيار (أ. و. وود A.O. Wood) وباقترابنا من المدينة صفعتنا (الريح السوداء: ره شه با) بشكل عنيف لم يسبق له مثيل مكتسحة أطراف (هيبة سلطان) وهي تتقاذفنا بخشونة كالكرة، ورفعنا جيب هوائي عات عن مقعدينا ونحن نهبط إلى الأرض وكان الهدف من هذه الزورة ومثيلتها في الثالث من أيار، إبقاء صلتنا مستمرة بالتطورات القبلية في قضاء رانيه، ومقابلة الشيوخ الأصدقاء، أو موفديهم ولا سيما مبعوثي (بابكر آغا) الذي كان منشغلاً كعادته في أفانين الدبلوماسية وهي هوايته التي لعبت في حياته دوراً كبيراً وزف إلى ابنه أنباء نجاح كنت في وقتها لا أعلق عليها أهمية كبيرة. وهو انفصال (بايز آغا) زعيم فرع (عباس) من أسرة (ميراودلي) عن پشدر المعادين وكان هو وأولاده يحتلون (هه نجيره) مع قريتين أو ثلاثة مجاورة في أقصى النهاية الجنوبية لسهل (مه ركه).

وفي 5 أيار نشر آمر العمليات في القوة الجوية أمراً مصدراً بعبارة (الهدف) وهذا نصه:

«الهدف الأساسي هو تثبيت الإدارة للحكومة المحلية: يقوم رتل (كوي) المعاد تشكيله كما ذكر في الفقرة السالفة، ويتقدم لاحتلال مدينة السليمانية تاركاً كركوك حسب الأوامر - في 14 أيار، وبعد احتلالها يشرع بعمليات صغيرة حسبما تمليه الضرورة. وتستهدف إلحاق الهزيمة بالشيخ محمود ووضع حد نهائي لموقفه وتأديب تلك القبائل التي أظهرت عداء، ومع أنه لا يمكن تحديد سعة هذه العمليات، فيجب أن تقصر على الضرورة لتحقيق الهدف المذكور آنفاً. على أن لا

تجري في مسافة بعيدة عن المركز (السليمانية) بحيث يصعب تحشيد الرتل وانتقاله من مكان إلى آخر في مدة قصيرة».

وفي الثامن من الشهر ألقي بيان على المدينة وغيرها من مراكز الأقضية والنواحي من الجو مؤكداً نية الحكومة في احتلال السليمانية (دون ذكر التاريخ) وموضحاً للأهالي بلهجة جازمة أن العقاب سيكون قاصراً على من يقاوم الجيش ليس غير، وعدت إلى بغداد في الخامس منه وبقيت حتى اليوم العاشر وأنا أحاول الحصول على تعليمات واضحة للسياسة المقرر اتباعها بعد احتلال السليمانية فلم أفز بطائل ولم يقرر شيء حول بقاء (رتل كوي) هناك طوال الصيف (لقد طلبت القيادة العامة رأي الحكومة البريطانية في ذلك) أو أن تتجزأ منه حامية من الليفي تبقى هناك حتى يتم استقرار السلطات المدنية، ويشرع في تشكيل قوة من الدرك قوامها (500) رجل تدفع رواتبها من خزينة بغداد المركزية ويتم تدريبها لتحل محل الحامية التي أعارتها الحكومة المنتدبة، وأما بخصوص شكل الإدارة فقد نشأ خلاف حاد في الرأي بين المندوب السامي والحكومة العراقية مرة أخرى. فكان السر (هنري دوبس) مقتنعاً أن أي نظام إدارة ذاتية في السليمانية لا يكتب له البقاء ما دام الشيخ محمود حراً، وأنه إن لم يقتل أو يؤسر فمن الأفضل الوصول إلى اتفاق معه، ومن الطرف الآخر القصي تقف الحكومة العراقية متجاهلة حقيقة الموقف تجاهلاً تاماً، وناسية تصريحها الرسمي في يوم عيد الميلاد للسنة 1922 كأنها لم تصدره وهي الآن تصر على إقامة شكل معين من الإدارة مرتبطاً ببغداد ارتباطاً وثيقاً، وهذا ما لا يرضي قادة الرأي الكردي بالنزول إليه بمحض اختيارهم وأما أنا فقد كرهت السياسيين بوصفي الضابط السياسي الواقف على الأمور في مظانها. وفي الوقت الذي كنت مقراً بوجاهة أسباب (دوبس) كنت بعد تجربتي للعامين 1919 و1922 مقتنعاً بأن أي تفاهم مع (الشيخ محمود) سيرجع بنا إلى الحالة الماضية التي جردنا حملتنا لإزالتها ولا شيء آخر غيرها. فقدمت حلاً وسطاً وتسوية كريمة قد تكفل رضى الرأي المعتدل الكردي وتعطى الإدارة شبه ذاتية

فرصة تثبيت نفسها بأمل مساعدة ممكنة من سلطات الانتداب ثم من حكومة بغداد المركزية دون اللجوء إلى ما يشبه تصريح عيد الميلاد وأجاب (دوبس) على حلولي المقترحة، أنه وفي الوقت الذي يصر على رأيه الخاص ويعتبره السبيل الأقوم، فهو لا يحاول فرض رأيه الخاص ولا مقترحاتي أنا على الحكومة العراقية الرافضة لهما، بسبب احتكاكه الذي نجم عن إصراره السابق على تعيين (سيد طه) في رواندوز.

هذا هو الوضع العام، عندما جلستُ في مطعم مقر قيادة (فنسنت) مع كل من (چاپمان) معاون الضابط السياسي، و(كراودن Crowdon) مفتش الشرطة في كركوك الذي كان بأمرته خمسة وثلاثون شرطياً. وأذكر من الحاضرين غير هذين الميجر (أ. ف. باستاو A.F. Bastow) ضابط ارتباط القوة الجوية، ولم يكن لديّ إلا الأمل بانجلاء الأمور عند الوصول إلى هدفنا. وفي الوقت نفسه كنت منتعش النفس وأنا أعود لألعب دور الضابط السياسي المألوف، الذي يرافق الجنود إلى ميدان القتال. انتعاش قلل منه تذكري بأنه كنت قبل أربع سنين بالضبط أقوم بالعمل نفسه مع فرق واحد وهو أننا لم نكن نتوقع هذه المرة أن يخالفنا الحظ كما حالفنا في تلك الحملة.

إن تقرير الوضع الراهن السياسي والقبلي الذي أعددته لقائد الرتل كان كما يلي:

«بعد خروج الشيخ محمود وحل الإدارة في السليمانية، غدا البرزخ الضيق الذي يتألف من قوى (شيخ بزه ينى) العازلة ناحية شوان عن غيرها معلقاً في الهواء ولوقوع حالات قتل وغيره من القلاقل هناك فقد اضطررت إلى تعيين مدير ناحية كركوكي محصن ضد الرصاص يدعى (وهاب بك) مع عدد قليل من الشرطة غير النظامية تدفع رواتبهم من الضرائب المحلية ثم أعدت إلى الوجود ناحية الزاب القديمة بأن أضفت إليها قرى (قه لا سيوكه)[1] الشمالية وبذلك أصبحت قبيلة

(1) إن القرية الهامة في هذه المجموعة وتسعى (عسكر) هي مسقط رأس أسرة جعفر باشا العسكري=

(شيخ بزه ينى) تحت السيطرة. وبهذا الإجراء قبضت على ناصية الحال في چمچمال خلال الشهرين الأخيرين بواسطة (أمين رشيد آغا) على أن معظم البگزادة من البطن الأقوى قد أعلنوا ولاءهم ولذلك لا يتوقع أية متاعب من هذه القبيلة الكثيرة الشعب. في الواقع هناك كثير من الكركوكيين الخارجين عن القانون في حماية (السيد محمد جبارى) ويحتمل أن يقع صدام مع هؤلاء في جنوب الطريق إلا أن هدوء (السيد محمد جبارى) الأخير، والسرعة التي تم بها حشد الرتل في كركوك، تجعل احتمالنا هذا بعيداً والشيخ محمود نفسه عاد خائباً قبل مدة وجيزة من أراضي پشدر، لأن بابكر آغا أحبط كل مجهوداته لإثارة البلاد مرة أخرى في مؤخرة رتل كوي أثناء تقدمه الحالي إلى رواندوز، وأن قواته المؤلفة من الليڤي والقرويين ربما بلغ عددهم كافة 600 مقاتل وهم بقيادة (صالح زكي صاحبقران) ويعسكرون الآن في مختلف القرى بين مدينة السليمانية والزاب. وبقي مقر الشيخ محمود في (جاسنه) كما كان ولم تضم إليه أية قبيلة. لكن أي نجاح يصيبه في القتال قد يؤدي إلى إسراعها إليه. ومحمود بالتأكيد يريدها حرباً، إن لم يكن في (بازيان) ففي (طاسلوجة) على أننا نملك وسيلة ما لمعرفة درجة ما يتمتع به اتباعه من معنويات».

سقط مطر غزير في كركوك أثناء الليل، وعندما تركناها في السادسة من صباح الثاني عشر، كان التراب قد زال من الجو ولم نجد في البرد لذعة، بل انتعاشاً وقصرنا المرحلة الأولى على سبعة أميال وأنزلنا أثقالنا في (چيمان الكبير) حيث يوجد أرض مخيم جيدة، وماء غزير في النهر. وفي 13 منه بلغنا (باش بولاق) وهو مخيم جميل آخر يقع على نبع ماء دفاق جنوب الطريق على بعد 12 ميلاً من چمچمال و23 ميلاً من شعب (بازيان). في اليوم الثاني لنا في چمچمال أيد لي كل

=الأصلي. وهو أحد زملاء (فيصل) في ثورته العربية ضد الأتراك وصهر نوري السعيد رئيس وزراء العراق لعدة مرات، إذ تزوج كل منهما أخت الآخر. وفي 1924 (فصلت ناحية الزاب) المصطنعة وأعيد شريط (شيخ بزه ينى) إلى (شوان) وأعيدت (قه لا سيوكة) إلى (چمچمال).

من (أمين رشيد)، وصديقي القديم منذ 1919 (مشير آغا بگزادة) صحة تقاريرنا الجوية التي قالت إن الشُعب غير محصن. وعندئذ قرر (فنسنت) التقدم حالاً إلى (تكية كاك أحمد) القديمة وهي القرية التي تبعد ميلين لا أكثر من الممر حيث يوجد ماء طيب نمير. وقبل حلول الظلام شاهدت السيخ على مرتفعات الجانبين وامتطيت حصاناً وسرت داخل الشعب نفسه مسافة قصيرة فلم أصادف كردياً واحداً. وفي 15 منه أمرنا بالتقدم السريع ما وراء (بازيان) إلى شعب (طاسلوجة) و(كوندى كاوه) التي تبعد 12 ميلاً عن السليمانية، وهكذا قطعنا ثلاثة وأربعين ميلاً خلال يومين. إن سرعة التعبئة والتقدم قد أحدثا مفاجأة تامة. وتظهر المراسلات التي وقعت في أيدينا بما لا يقبل الشك أن النية كانت منصرفة إلى الدفاع عن طاسلوجة. وفي (كوندكاوه) هنا، تسلمنا خطاباً من الشيخ محمود مؤرخاً في 14 منه إلى آمر الرتل في كركوك يشير عليه بألا يحاول التقدم من جهة چمچمال وفي صباح هذا اليوم نفسه خرج الشيخ محمود من (جاسنه) يقصد السليمانية لتنظيم الدفاع عن مداخلها ولما علم (أو ربما شاهد بنفسه) أن الرتل قد عبر آخر عقبة أسرع يعود حالاً وأمر بتقهقر عام عن طريق (شيخ باخ) إلى (ماوه ت وشارباژیر) الأمر الذي يشير إلى نيته في اجتياز الحدود الإيرانية.

وفي 16 منه تقدمنا نحو (سرچنار) وسط زوبعة رعدية طويلة الأمد عنيفة، ودخلناها واستقدمنا إليها أعيان المدينة بإسقاط رسائل جوية قبلها بيوم واحد. وفي صبيحة هذا اليوم أنهى إليّ (فنسنت) بنبأ ملأني غماً، فقد أرتأى البقاء في (سرچنار) يوماً واحداً ثم التقدم بالرتل حتى وادي (سورداش) ومنه إلى (مه ركه) لتأديب (شلانه) التي لعبت دوراً فعالاً في مهاجمة رتل رانيه بإطلاقها النار عليه من كمائن في الضفة المقابلة من النهر في نيسان. لا نكران في أن هذه العملية الزجرية مفيدة جداً وكانت في الواقع تحتل صدر قائمة العمليات التأديبية التي اقترحتها على رتل كوي أثناء وجوده في منطقة رانيه إلا أن توجيه الرتل إلى رواندوز جعل العملية مستحيلة على أني كنت أؤمل تحقيق ذلك في الوقت المناسب بعد احتلال

السليمانية، أما الآن فهي حركة تبعد كثيراً عن الوجهة التي سلكها (محمود)، وغير مجدية إلا بعد اتخاذ الخطوات الضرورية لإعادة السلطة الإدارية إلى مركز اللواء، مهما يكن فالأوامر هي الأوامر، ولذلك دخلت المدينة مع سراتها وحدي، وقمت بما استطعت من الإجراءات الوقتية ريثما يعود الرتل. فأعيد تنظيم الشرطة بقيادة مديره السابق. وطلب من البلدية أن تتفرغ إلى واجباتها ونصب (أحمد بكى توفيق بك) مشرفاً عاماً على كل الدوائر المدنية وجعل (شيخ قادر) أخ (محمود) مسؤولاً عن الأمن العام واستقدم متعهدو الأرزاق واتخذت التدابير لإرسال المؤونة والطعام إلى سرچنار قبل حلول الظلام قمت بتصريف الأمور كلها من مقر الشيخ محمود في المدرسة الثانوية التي كانت دائرة للضابط السياسي سنة 1919. دخلت المكتبة. ورأيت خلف المقعد. صورته معلقة على الحائط ومثبتة بإطار ومسامير مما يستخدم للرسم والإطار هو شريط أحمر من القرطاسية الرسمية وقد سمرت الصورة على اللوحة الخشبية التي تستقر فوتها الآلة الكاتبة وكانت ملصقة بورق أسمر، ووجدت أيضاً علماً كردياً مع تاج مزخرف أعد لتثبيته فوق العلم كميزة للعلم الملكي[1]، عن سائر الأعلام.

وفي 17 منه أقبلت وحدتان من الثوار إلى سرچنار مستسلمتين، وقضيت معظم هذا اليوم في المدينة مكملاً المهمات التي بدأت بالأمس ومستقبلاً بعض وفود القبائل والقرى بعد توقفنا لهذا اليوم، تحركنا إلى الشمال الغربي وبلغنا الزاب في اليوم الثالث وضربنا خيامنا على التوالي في (كرده بور، وحاجى ثاوه، ودوكان) وكنا نعقب طريقاً على امتداد قاعدة (پيره مه كرون) الذي يرتفع بجلال ومهابة ارتفاعاً عمودياً إلى (6000 قدم) اعتباراً من قاع الوادي القريب الذي يقع

(1) ما زلت أحتفظ بهذا العلم ضمن تذكاراتي. كذلك حصلت على الصبغة واللوحة التي كانت تستخدم لطباعة الطوابع البريدية التي عمّمت أثناء فترة حكم الشيخ، وقد أهديتها للمستر (أ.هـ. ميسن A.H. Mason) المهندس الحكومي المعماري وهو من الخبراء الكبار في الطوابع ومن هواتها.

على يميننا، وفي (سورداش) كانت شجيرات البلوط القصيرة كثيرة النمو على سفوح الجبال وكان ثمة مجموعات من الأشجار الباسقة التامة النمو يشير وجودها إلى مواقع المقابر القديمة والمزارات الدينية وتنشر ظلاً ظليلاً يرحب به السائر في أية وقفة. وكان زهر الدفلى مشرقاً فاغماً على طول مجاري الأنهار كلها و(تابين) في (حاجى ئاوا) كان يبدو بصورة خاصة في عجيج من الألوان الأخاذة، وهنا حيث يعبر الطريق من (تابين) وجدنا سيارة شيخ محمود الخاصة غائصة في المجرى.

وفي اليوم الثالث خرجت عن الرتل مع وحدة من مشاة (كوك) قاصداً (جاسنة) وفي شق جبلي خلف القرية كان يوجد مضيق شديد الانحدار فيه ممر ضيق يفضي إلى (شيخ باخ) كان مسيل جميل ماؤه بارد كثلج بلوري ينساب رقراقاً فوق صخور بيضاء عظيمة، بين حشد هائل من (الدفلى) الحمراء. فتوقفنا لنملأ بطوننا رياً قبل أن نبدأ البحث. إن مدخل الكهف الشهير الذي يقع داخل الشق من الجهة الجنوبية كان محجوباً بعض الشيء بالجدار الصخري ولم يظهر لنا إلا بعد أن واجهناه، وجدنا بالقرب منه سرير الشيخ محمود الحديدي وعدداً من المصاطب التي يشيع استعمالها في المقاهي، وكميات كبيرة من علف الخيل، ووجدنا أيضاً في بيت قريب علمين ملكيين، وجهازاً تلفونياً كان يستخدم للاتصال (بشيخ باخ وقمچموغة ودوكان)، وآلة كاتبة ومخزناً للدقيق، رفعنا منه عشرين حملاً.

وفي ذلك المساء أقبلت وفود من قرى سورداش الشمالية الغربية برمتها ومن قرى أخرى في خوانق (قره زرد) وما يليه. وأما عن الطريق الذي يعلو (قره زرد) فقليل ما يعرف عنه خلا أنه في غاية الوعورة ولم يكن من الحكمة في شيء أن نكشف تلميحاً أو تصريحاً عن خططنا بالقيام باستفسارات مكشوفة حول سيطرة جماعات معادية على الطريق أم خلوه منهم. وللمرة الثانية قدرنا بأننا لن نواجه أية مقاومة وكان مرد ذلك إلى سرعة الحركة، ووفود القرى والتأكيدات التي جاؤوا

بها حول تراجع الشيخ محمود آغا مع أتباعه الذين تناقصوا إلى مجرد سبعين فارساً وانضمام (بايز آغا پشدر) رئيس (هه نجيرة) على الجانب الأقصى من الممر في (مه رگه) إلى حزب (بابكر آغا).

وبعد أن تركنا عجلاتنا في (دوكان) تقدمنا فجر يوم 21 منه في طريق سهل فوق أول سلسلة الجبال وبلغنا (طوبزاوه، وريكاوه) في واد صغير يدعى (دوله رووت) ثم صعدنا مرتقى وعراً ارتفاعه ألفا قدم بطريق يكاد لا يكفي لرجلين معاً واجتزنا بساتين عنب ثم غابة بلوط كثيفة وكلتاهما تصلحان ستراً ممتازاً لقناصة العدو، حتى بلغنا القمة وكان سيرنا شاقاً، لكن التعب زال عنا بسرعة بفعل النسيم البارد الذي كان يداعب وجوهنا ويشعرنا بالانتعاش ونحن جالسون في الظل وكان المنظر المنبسط أمامنا رائعاً والحق يقال: فمن حولنا أشجار البلوط القصيرة وأشجار التين الصغيرة القميئة ومختلف أنواع الأشجار الأخرى، وأمامنا بساتين الكروم على سطح جبلي (كيوركاني وپالكو) المنحدرين إلى الغور العظيم الذي ظل الاعتقاد سائداً مدة طويلة بأنه فم (قه لاچوالان) يليه نهر الزاب خارجاً من فتحته (دربند) ملتوياً متعرجاً في شبكة من الخيوط الفضية خلال سهل (بيتوين) و(مه رگه) حتى ينكمش تحتنا تماماً ليدخل مضيقاً إلى شمال (دوكان) وعن يسارنا خط سلسلة (هيبة سلطان) الطويل يليه (كوسرات) بثلاث من القرى تجثم على سفحه الشرقي، وشواهق (شاوور وناوده شت) القاتمة البعيدة خلف السهل تكاد تكون على خط واحد مع (دربند)، وقمم (قنديل) وهي تلمع بثلوجها متحدرة إلى جبلي (گه لانه وكوترال) ذوي العروق المرمرية. وبالقرب منا عن اليمين يرتفع حرف (كولاره) حتى جبل (كوركور) الذي لما يزل الثلج يتوجه، وسفوح هضبات (جافه ره شكه) الجنوبية الجرداء.

وصلنا المنطقة في وقت قصير، ولم يعد بالإمكان إخفاء وجودنا ومقاصدنا وقرر (ڤنسنت) الشروع بالعمليات التأديبية حالاً. إن مقاتلات القوة الجوية البريطانية في العراق، وقاصفاتها لم تجهز باللاسلكي بعد، كما أن الأجهزة اللاسلكية

الأرضية للوحدات العسكرية ما زالت نادرة. واتصالاتنا البدائية مع الطائرات كانت تتم بوسيلة تعرف بـ(حتار پوفام Pophan Panel) وتتكون من قطعة جنفاس سوداء مستطيلة تعترضها خطوط بيضاء على نظام معين يمكن كشفها أو تغطيتها بحافات سوداء وترسل الرسائل عن طريق التأليف والترتيب بين الخطوط البيضاء التي تترك مكشوفة بشكل سبق التفاهم عليه، وثمة طريقة أخرى أدق من هذه لتبادل الرسائل، تتم بالتقاط الطائرة لها من الأرض أو إسقاطها ولالتقاطها في حقيبة ذات شريط زاهي اللون تشد بخيط طويل يمتد بين عمودين قائمين وتقوم الطائرة بالتقاط الحقيبة بخطاف حديدي مشدود إلى حبل يقذف إليها. وتُسقِط الطائرات رسائلها في حقائب مماثلة. وكان قسم المخابرات الجوية يغذ السير في طريقه بمؤخرتنا. على أن ضابط الارتباط (گيس) شد عمودين قصيرين جداً فوق شجرتين مرتفعتين، فقامت الطائرة (بريستول) بالتقاط تلك الرسالة في أول محاولة وكانت تتضمن تعليمات حول الإسناد الجوي.

كان الانحدار إلى قرية (هه نجيره) طويلاً شاقاً ومنها خرج (بايز آغا پشدر)، للترحيب بنا وإعلان ولائه. وبعد استراحة قصيرة انقسمت القوة إلى قسمين، وانضممت إلى وحدات الپنجاب التي اتجهت نحو قريتيْ قبيلة (شيلانه) الرئيستين (بنگرد، وبرده شان) وتعرضنا إلى نار غير محكمة، منها، أن العقوبة الوحيدة التي كان في مقدور آمر الحملة التأديبية إيقاعها في هذه الأحوال هي مصادرة أية ماشية تقع يده عليها في القرية، ثم إشعال النار في بيوتها، ولم تكن بالعقوبة الرادعة كما تبدو للقارئ فالبيوت لا تعدو خصاصاً طينية، على أن إعادة السقف الخشبي تقتضي نفقات، وتعترضها مصاعب، وقد رتبت أن أضع حرساً على مساجد كل قرية ندخلها بمعرفة الضابط الآخر، لأن المساجد فيها تكاد لا تفترق عن سائر البيوت ولا يمكن تمييزها إلا لعين خبير حتى لا تنهب أو تحرق فتجر وراءها المشاكل. وكان سلوك الپنجاب ومشاة (كوك) الذين صحبتهم إلى قرى (شيلانه) الأربع على ضفة النهر في اليوم التالي، مما يحمدون عليه حقاً، سواء بخصوص

معاملتهم للشيوخ أو النساء الذين تركوا في القرى ولقد كان الپنجاب مسلمين أما (چاپمان) فقد لقي عنتاً كبيراً مع السيخ الذين رافقتهم إلى (مه رگه) وهذا يرد إلى اختلاف الدين بلا شك وإلى الضحايا التي تكبدوها أثناء العمليات في تل رانيه. أرسلت رسالة جدية إلى (بابكر آغا) من حاجى ئاوا لإسقاطها على قريته بالقرب من (قلعة دزه) وقد طلبت فيها أن يقابلني في مطار (سرسيان) ولم يكن موعدي هذا يوحي بشيء عن العملية الأرضية المقبلة. فخف إلى الموعد والتقينا في قرية (مامنداوه) التي تبعد ثلاثة أميال وراء مخيمنا في (بنگرد) وبعد أن أنهى إليّ بآخر معلوماته عن موقف القبائل في المنطقة أخذته لمقابلة آخر الرتل الذي كان مسروراً بمقابلة هذه الشخصية الشهيرة وبإبلاغه تقدير القائد العام لمساهمته المفيدة في إحباط خطط الشيخ محمود أثناء التقدم إلى رواندوز.

وفي 24 منه عبرنا (قره سرد) راجعين إلى (دوكان) وآب الرتل إلى السليمانية من غير عجلة. وأبلغنا بوجود مخزن للقنابل في محل يدعى (چله خانه) في هضبة (شيخ باخ) فخرجت إليه ومعي وحدة من سلاح الهندسة بقيادة النقيب (هاملتون) للتفتيش عنها وإتلافها واخترنا الطريق الذي يمر بقرية (قچوغه) لأنه على ما قيل أسهل من طريق (جاسنه) وكانت الأولى خلافاً للثانية تقع في فم الشق ووجدنا المدخل محصناً بأبراج وجدران وغيرها من التحكيمات التي أقيمت على أسلوب العمق منذ عهد البابانيين مقابلة منهم لبناء قلعة في (ساردكه) على الضفة المقابلة للزاب في عهد أمير رواندوز الأعمى (كور باشا) وكان المضيق الأعلى لا يقل روعة وجمالاً عن المضيق الأسفل. وبعد زهاء نصف ساعة وصلنا إلى غابة بلوط ولم نقف ورحنا نصعد حتى بلغنا قرية (سرمورد) ومنها خرجنا إلى أرض منبسطة لهضبة خلت من التضاريس تقع بين قمتين متناظرتين تشبهان أسنان المنشار وهما من الصخر الجيري الأجرد الباهت اللون، وهي تبدو هنا وكأنها تنعطف انعطافاً خلفياً لتؤلف الفتحة التي خرجنا منها. وشاهدنا من خلالها منظراً ساحراً يمتد مستقيماً طوال خط المنظر حتى فتحة الزاب بين نهاية (سرسرد، وهيبة سلطان)،

وهنا يبدل النهر اتجاهه من الجنوب إلى الغرب واخترقنا بساتين كروم وبعد ساعتين من تركنا المخيم وصلنا قرية صغيرة اسمها (ووره چاي) تستكن بين الأشجار تحت قمچوغه وعلى قمة فتحة (جاسنه) وكان يشاهد من هذه البقعة منظر جميل غير وادي (سورداش) فوق (سرسرد): ترى قمم (عبدالان) و(قره داغ) عند مضيق (بازيان) حتى تل چمچمال. كلها كانت تبدو واضحة من بعيد خلال الضباب المؤتلق الساخن الذي يتخلل السفوح الصاعدة الهابطة. لم نزل بعيدين عن الكهف زهاء ثلاثة أميال، وانفصلت عن الجماعة لأسأل الكرد الذين كانوا يشتغلون في بساتين العنب عن الاتجاهات. ولما وصلت إلى (چله خانه) تبين أني نجوت من موت محقق، فلو تأخرت لحظة واحدة، لكنت ضمن دائرة تفجير أحد كدس العتاد وهو كما ظهر قنابل مدافع ألمانية من عيار 75 ملمتراً، وكان هاملتون يهم بإشعال الفتيل، تمكنت من الاستتار قبل الانفجار بلحظات. وعند عودتي كتبت في يومياتي ما يلي (خلاصة للاستخبارات السياسية عن رتل كوي من 12 حتى 27 أيار 1923) وليس في فكري أي شيء مما كانت الأقدار تخبئه لي عندما ختمت تلك الخلاصة بالعبارة التالية التي أخشى أن يكون فيها شيء من التطرف:

(إن عدم تعرض الرتل لأي مقاومة قد يحمل المرء على الظن الخاطئ بسهولة إخضاع الكرد، لذلك أشعر بأن الواجب يقضي مني إثبات عبارة تحذير هنا لا سيما وأن تدابير إدارة السليمانية ستكون موضع بحث قريب ومداولة. لقد تميز كاتب هذه الأسطر بالخدمة في حملة (فريزر) للسنة 1919 بوظيفة ضابط سياسي وكذلك كان في حملة (كويكول) في 1923، وظل على صلة وثيقة بالأحداث التي أدت إلى اضطرابات في 1922 وكان حاضراً في نكبة رتل رانيه. وقد استخلص من كل تجاربه هذه أن كردي الجنوب قد يمكن قوده وأنه قد ينسحب أو يستسلم أمام قوى متفوقة. أما إن أرسلت ضده قوات غير كافية، أو أن القوات الكافية كانت تفتقر إلى قيادة كفوءة فسيجد في عدوه قابليات هجومية لا يمكن أبداً التقليل من شأنها. وخير دليل على هذا ما لقيه الأتراك المتقهقرون في 1918 منهم وما ذقناه

من هزائم على أيديهم في 1919 - 1922 أن القوة المتفوقة هي الشيء الوحيد المجدي ولذلك يجب أن تستعمل القوة لا غير لإخضاعه، ربما قوة فيها بعض المرونة والليونة لكنها القوة بالدرجة الأولى، أن الاضطرابات القبلية بصورة عامة تستغرق وقتاً طويلاً لتنضج وتسفر عن نفسها، وسرعة العمل هي عامل أساسي للنجاح. وإذا عولجت مبادئ الثورة بحزم وسرعة فقوة صغيرة نسبياً تكفي للمحافظة على الأمن، وبخلاف ذلك إن تركت الأمور تنضج فلا سبيل إلا إلى تجريد قوة شبيهة بحملة (فريزر) ورتل كوي في فترات متقاربة متزايدة[1].

بوصولنا السليمانية في 28 منه وصلتنا تأكيدات قاطعة أن الشيخ محمود انسحب إلى (پيران) وهي من قرى (مه ريوان) وتبعد ميلين عن الحدود الإيرانية، وعشرة أميال إلى جنوب پنجوين. وأقبل عدد من أنصاره يعلنون ولاءهم وكان عدد آخر في طريقه إلينا وفي 29 أيار وصل إلى السليمانية بطريق الجو، رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون، وأمين العاصمة صبيح بك نشأت وهو كردي من أربيل لبحث التدابير الإدارية التي ستطبق وكان يصحبهما (كورنوالس) الذي صعقني عندما أبلغني أن رتل كوي سيسحب في منتصف حزيران، وأنه لا يوجد مشروع لإرسال الليڤي لاستبداله به. كانت الحكومة البريطانية في لندن تلح بسرعة خفض عدد الجنود البريطانيين في العراق إلى حد ستة أفواج فقط. ولقد تردت العلاقات مع تركيا إلى الحد الذي أدى إلى تجدد الخوف من عملية مباغتة ضد العراق من قاعدتهم (جزيرة ابن عمر) فلم يكتف برفض اقتراح بقاء رتل كوي طوال الصيف في السليمانية وإنما تقرر عودة كل الوحدات إلى مراكزها الأصلية دون تأخر يوم واحد، فضلاً عن هذا. فإن المندوب السامي أقنع بتبني وجهة النظر التي تقول

---

(1) إن أخف ما يمكن التعليق به على هذا الرأي، هو أن المؤلف كان قد تبناه وهو شاب متحمس لخدمة الإمبراطورية البريطانية التي كان يؤمل أن يكون أحد أبنائها في هذه البقعة من الأرض، فمن المعلوم أن القوة المجردة هي سلاح ذو حدين دائماً وأبداً والشعوب في اقتبالها ذلك لا تتفاوت. (المترجم).

بوجوب وضع حامية في رواندوز إلى جانب تعيين (السيد طه) قائمقاماً زيادة في الحذر والتأكيد وفي 2 حزيران لحق (السير هنري دوبس) برئيس الوزراء في السليمانية وبوضع مشروع للزعماء الكرد مستمد بجوهره من التوصيات السابقة، لكن بحذف عدد من النقاط، هذا المشروع لا يكلف الحكومة العراقية شيئاً ولا يحملها عبئاً إلا أنه وُضِع لأجل مماشاة المشاعر الكردية، وانقطعت المفاوضات لعجز المندوب السامي عن إعطاء تأكيدات للحكومة العراقية حول إبقاء الجيش البريطاني إلى أن يستتب الأمن تماماً ويتاح للإدارة وقت كاف للثبات. وكان جلّ ما وافق عليه هو تأجيل التصريح الرسمي بسحب القوات انتظاراً لأمر ثان من لندن، وعاد الجميع إلى بغداد في 4 حزيران.

وكانت الأيام العشرة التالية ميدان نشاط محموم لي. وتشير يومياتي إلى سبعة أيام منها قضيتها في الطيران بين السليمانية وكركوك وبغداد محاولة مني لإقرار مشروع (إنقاذ بعض الحطام)، أخيراً وفي 14 حزيران عانيت مقابلة أليمة جداً لمجلس الإدارة المؤقت في السليمانية فقد قدموا استقالاتهم بالإجماع عندما أبلغوا بشكل بات أن القوات البريطانية لن تبقى بل سترحل خلال ثلاثة أيام فقط قبل أن يتم تحقيق شيء في إقامة إدارة محلية بمساعدة الضباط البريطانيين وقبل أن يتم تجنيد دركي واحد من القوة التي وعدوا بها.

كانت تلك الأيام الثلاثة كابوساً حقيقياً. أخذت جموع من المواطنين الخائفين وكثير منهم أخلص لنا الخدمة يحاصرون الدائرة ويسألوننا عما سيكون من أمرهم، أو يلحون في طلب حيوانات ليسهل نزوحهم بها. واختفيت أنا (وچاپمان ودوغلاس) الذي نقل جواً لينضم إلينا بعد عودتنا من عمليات (شلانه) ولم نستطع أن نسفر عن وجوهنا في الشوارع إلا وتحاصرنا النسوة ملوحات بدفاتر التقاعد وهن يولولن قائلات: إنهن لم يتسلمن شيئاً منذ أشهر عديدة، وغيرهن من الناس الذين ركبهم القلق والغم.

في آخر زيارة إلى بغداد تمكنت بعد جهد من المصادقة على تخويلي حق

الرجوع عند الحاجة، إلى تطبيق المشروع الذي كنت قد رسمته قبل أن تجرى آية محادثات عن احتلال رتل كوي المناطق القريبة من كركوك وأربيل لأجل إدارتها من هذين المركزين وبذلك تتقلص مسألة السليمانية وتصبح ضمن دائرة لا تزيد كثيراً عن مركز قضاء، ووافق (أحمد بكى توفيق بك) و(شيخ قادر) وهما الآن مشاوري وقالا إن هذا هو خير ما يمكن عمله لا بل إنهما تطوعا لقبول المسؤولية في مركز القضاء شريطة تخصيص المبالغ اللازمة لتجنيد قوة أمن تتألف من (350 رجلاً) وإبقاء ضابط بريطاني أو حتى ضابط صف إن أمكن وكان يسر (جاپمان) أو (دوغلاس) أن يبقيا إلا أن (دوبس) أوضح بصورة قاطعة أنه لن يسمح بذلك مهما كانت الظروف. وجدت خير ما يمكن عمله هو دعوة سراة المدينة وتحميلهم مسؤولية منع وقوع الجرائم كلا في حيه الذي يسكنه كما أني حللتهم من مسؤولية أي اضطراب وشغب مصدره خارج المدينة ووعد (الشيخ قادر) أن يبقى بضعة أيام بعد خروج القوة، ليحول دون قيام أعمال سلب أو إشعال حرائق. وكان هذا مما يتوقع حصوله كأول رد فعل لزوال آخر مظهر خارجي لسلطة الحكومة.

وخرج سيل من اللاجئين يقدر بحوالى 2000 من النازحين عن المدينة إما منفردين أو مواكبين للرتل وهو في انسحابه الذي تم في 17 حزيران، ولاذ كثيرون بالقرى، ونصبت عدة كمائن في الطريق، ونهبت جماعات من (الهه ماوند) عدداً من النازحين أثناء فرارهم، وقمت بإنابة (چاپمان) عني لتولي مهام الضابط السياسي لقوات (فنسنت) ثم عدت في اليوم نفسه مع (دوغلاس) إلى كركوك جواً لأشتغل في مشروع (الحزام الصحي) كما كان سيطلق عليه فيما بعد، دون إضاعة دقيقة واحدة. وفي آخر هزة خفيفة عملتها الطائرة قبل تركها الأرض ازدحمت في مخيلتي ذكريات السنوات الأربع الماضية متراكمة متصارعة متلاطمة بعضها مبهج وكثير منها محزن. فامتلأت بشعور من الخيبة والإخفاق كان له طعم المرارة في فمي ولاحت مني التفاتة إلى (پيرمه گرون) الشاخص أمامي، فخيل لي أنه أكثر تقطيباً وجهامة. ورحت أتساءل في سري: ماذا تخبئ الأقدار لهذا اللواء الثائر في مستقبل الأيام؟

- 23 -
الحزام الصحي

عدت إلى كركوك وأنا برم بالحياة إلى الحد الذي قررت فيه للمرة الأولى أثناء وظيفتي، استعمال الحق الذي تخولنا إياه عقود خدمتنا وهو استحصال إجازة قدرها ثلاثة أسابيع وقضاؤها في إنكلترا. وقد لبت طلبي شريطة أن أبدأ بالإجازة بعد إكمال مستلزمات (الحزام الصحي) وبمقتضى ذلك ستبقى علاقتي بالمتصرف بخصوص لواء كركوك كما كانت، على أني سأكون مسؤولاً مباشرة أمام وزارة الداخلية عن إدارة الوحدات المسلحة في السليمانية باستثناء قضاء رانيه الذي ضم إلى أربيل، مع إعطائي حرية تصرف واسعة وكذلك تكون مسؤوليتي مباشرة أمام المندوب السامي حول أساليب التصرف إزاء السليمانية (البؤرة المركزية التي هجرناها) حيث رسم أن يترك الشيخ محمود لشأنه حيث هو موجود آنذاك مع التلويح بالعصا بين آن وآخر إن تجاوز الحد.

وكنت قد أسلفت أن الإدارة وضعت يدها على چمچمال لأغراض عملية لا مفر منها. قبل حملة رتل كوي وثبت (أمين رشيد آغا) في منصب القائمقام يعاونه (مجيد أفندي) من سراة السليمانية ووضعت الشرطة تحت إشرافه أثناء احتلالنا القصير الأمد. وقد سمعت حكايات لا ترتاح إليها النفس قط عن سلوك هذين الموظفين في المدينة خلال الأيام الثلاثة المنحصرة بين إعلان الانسحاب وبين الانسحاب الفعلي وخصوصاً عن مختلف حوادث العنف والاعتداءات التي وقعت في محلة اليهود على أني لم أكن في ذلك الحين قادراً على إظهار ما أبطن، وما

يجب من الغضب والسخط. ولم يمر طويل من الزمن إلا وانتشر طاعون قطع الطرق في مختلف المسالك الخارجية من كركوك ولما حققنا عنه وتقصينا جذوره ظهر صلته بالقائمقام، وفي اليوم الأول من تموز اضطررت إلى توقيفه مع شريكه ابن بلده وثمانية عشر من أنصاره، وجئت (بوهاب بك) الذي أظهر كفاءة في ناحية الزاب، على أنه ذو خبرة في واجبات أقل شأنا من هذا المنصب، تتعلق بروتين نظام الإدارة العثماني، كتقدير الزروع النباتية لغرض فرض الضريبة وما أشبه، وقد زكته غلظته وإقدامه ومعرفته العامة بأحوال البلاد، فكان عند حسن ظني، ونجح في استرجاع معظم الأموال التي نهبت في عهد سلفه السعيد واستحصل الغرامة الكبيرة التي فرضناها على (ره ماوه ند) وكان بطلاً لحكاية طالما استمتع بروايتها نوري السعيد وغيره من كبار الساسة في بغداد إلى زمن متأخر وإن كانت ضدهم (وهذا مثال لحب النكتة الشديد البارز في خلق كل الطبقات العربية في العراق) وهم يروونها عادة بصدد وقائع الانتفاضة الوطنية في أول أيام الانتداب عندما حان الوقت لعودة الإدارة إلى وضع الاستقرار الطبيعي، أصبح من الضروري أن يخلي (وهاب بك) منصبه لموظف مدني محترف، خاصة وأن أساليبه الخاصة لم تكن دائماً بالشكل المألوف وكنت في كركوك آنذاك فقمت ببذل أقصى الجهود للتخفيف من وقع الصدمة عليه بسبب خدماته الماضية وأنا لا أذكر عن الحادثة المقصودة شيئاً ولم أدون كلمة عنها ومع هذا فقد شاع أنه أرسل رسالة باللغة التركية هذا نصها «ادمونسه سويله به نى أيه ر بيردها تعين اتميزسبى وطني أولوريم» وترجمتها (قل لأدموندز إن لم يعيني في وظيفة فسأنقلب وطنياً).

وشكل قضاء جديد بدمج كل من ناحيتي (قرداغ وسه نگاو) الجنوبيتين اللتين كانتا تحت نفوذ سادة البزرنجة أساساً، وعين له فرد من الأسرة هو الشيخ (عبد القادر) من فرع(قازانقاية) وهو ابن عم غير بعيد للشيخ (عبد الكريم قادر كرم). إن الشيخ (عه ول سه نگاو) كما يعرف عموماً يسكن عادة في (گوب ته په) وهي أهم قرى الناحية وتقع في نقطة استراتيجية هامة سواء لأغراض مشروعة أو غير

مشروعة أعني نهاية ممر (سه گه رمه) السفلى بالقرب من الطريق الوحيد على طول الوادي بين (أج داغ) وسلسلة (قره داغ)، وطريق القوافل الرئيسي الممتد من كفري حتى السليمانية. إن شاربي (الشيخ عه ول) الضخمين وعينيه القاسيتين اللتين ترسلان شواظاً من نار، تضفي على وجهه طابع شراسة ينسجم مع سمعته الداوية في الوحشية والقسوة إذا ما واتته الظروف. كان مغرماً بالثمين من الثياب والزاهي من الحرير ويضع على رأسه عقالاً عربياً من شعر الجمال والصوف ضخم الحجم لتثبيت مناديل عمامته عوضاً عن لفها حول الطاقية، دليلاً على مركزه الديني. وكل ما أهله إلى هذا المنصب هو انحيازه إلى الحزب المعتدل في سياسة كردستان بتأثير الشيخ عبد الكريم، وأنه يتمتع بحصانة من الرصاص وهو أيضاً قادر على وقف حوادث قطع الطرق التي يقوم بها غيره، أو أن يكف عنها هو نفسه ورغبة في أن يتصدر واجهة الإدارة وقد ألحق به موظف مالي مجرب لإنجاز الأمور الحكومية بخير ما يمكن من الانتظام.

أما عن حلبجة فقبل مغادرتي السليمانية قمت بتوزيع وظائفها المختلفة على رؤساء بگزادة الجاف - فنال منصب القائمقام (أحمد بك) ابن (السيدة عادلة خان)، وفاز بمنصب معاون القائمقام (حميد بك) وكيل (كريم بك الجاف) وجعلتهما يوقعان تعهداً بألا يكيد أحدهما للآخر وأن يتعاونا بإخراج أي وكيل مرسل من (الشيخ محمود) وبعد أن دفعت لهما مرتب شهر ومبلغاً صغيراً من المال للنثريات طلبت منهما أن يأتيا إلى كركوك قبل نهاية الشهر للتداول في التعيينات الأخرى وغيرها من الأمور.

ولأجل أن أمنح (شيخ محمود) من تثبيت أي شكل من أشكال سيطرته في أنحاء (پشه در وماوه ت) واصلنا الاعتماد على مساعي (بابكر آغا). وكنا ندفع له مخصصات واتصلنا به في رحلات جوية عديدة إلى (كوي وسرسيان) على أني كنت أفضل التجوال في البلاد والسير خلال المناطق القريبة من كركوك، فأبيت الليالي في القرى ومضارب القبائل. ولما اتسعت واجباتي وتبدلت طبيعتها اقتضى

أن أكثّر من حلي وترحالي، فزاد على ما كان قبل فشل السليمانية وكنت أسجل تباعاً رحلاتي وطيراني في يومياتي (ربما أغفلت تسجيل عدد قليل في حينه) وعند تأملها أجدني قضيت 225 ليلة من أصل 585 ليلة بعيداً عن مقري وأني كنت 43 يوماً في الجو وهي الفترة المحصورة بين 20 أيلول 1922 يوم قدومي كركوك وبين 26 نيسان 1924 وهو يوم بدء إجازتي، ولم أسجل دائماً أسماء الطيارين، على أن أكثر الأسماء تردداً هو: (كنكيد) من السرب الثلاثين (يأتي في الطليعة) و(ماننغ) و(ماكلارن رايد) و(وشيپرايت) من السرب السادس[1] على التوالي.

ومع أنه كان من الضروري أولاً تعيين رجال من طائفة المحصنين ضد الرصاص وجب عليّ أن أخلق وظائف لكثير من الكتبة ومساعدي مأمور المال والضرائب لأولئك الموظفين المدنيين المحترفين الذين ألغيت وظائفهم نتيجة إخلاء السليمانية، لا في (الحزام الصحي) وحده حيث كانت التعيينات من صلاحيتي، بل في لواء كركوك أيضاً وبمساعدة متصرفها واضطررت إلى خوض معركة طويلة الأمد مع وزارة المالية لاستصدار القرار الذي يثبت خدمة موظفي لواء السليمانية لغرض احتسابها للتقاعد عن الفترة التي سبقت الانسحاب البريطاني سنة 1921، وعن المدد التي قضوها في الخدمة أيام كان الشيخ محمود السلطة الإدارية الشرعية إما بقوة تصريح رسمي أو ببيان من المندوب السامي معركة لم يتحقق لي فيها النصر النهائي إلا بعد سنتين، عندما نقلت إلى بغداد وصرت قادراً على تعقيب مقترحاتي تلك بصورة مباشرة. هؤلاء الموظفون كانوا يمثلون جبهة لا يستهان بها من العناصر المثقفة، وكان جلهم من الأسر الأرستقراطية فضلاً عن ذلك. وهم بطبيعة الحال لم يجهلوا مجهوداتي في سبيلهم، وأعتقد أن هذا، هو الذي خلق قدراً كبيراً من الثقة لدى الطبقات التي يحق لها التصويت إلى جانب مطلب الحكومة العراقية عندما أقبلت لجنة عصبة الأمم للتحقيق في قضية الموصل.

---

(1) حل السرب الثلاثون محل السرب السادس في حدود تموز 1922.

ولم يكن (الحزام الصحي) بالقضية المهمة الوحيدة التي طلب مني معالجتها قبل أن يسمح لي بإجازتي، فقد وجدت عند عودتي إلى كركوك رسالة من (كورنواليس) يقول لي فيها إن البروتوكول الذي يحدد فترة سريان المعاهدة العراقية الإنكليزية قد تم التوقيع عليه وإن الملك والوزراء قرروا أن يوقفوا كل مجهوداتهم على إنجاز الانتخابات العامة للمجلس التأسيسي الذي[1] ستكون مهمته المصادقة على المعاهدة[2]. وهم الآن منشغلون في تبادل وجهات النظر حول الخطوات الإجرائية التي ستتخذونها ضد تصريحات مجتهدي الشيعة بأن الانتخابات المقترحة غير شرعية.

منذ فرار (ناظم بك نفطجي زاده) أصبح الأخوة (آل يعقوبي زاده) أبرز من في المدينة وأكثرهم نفوذاً بلا منازع. و(ميللر) الذي يعالج شؤون المدينة وبضمنها البلدية كما أسلفت ويتكلم التركية بطلاقة، كان على صلة صداقة وثيقة جداً (بمجيد اليعقوبي) رئيس البلدية ولقد قام أثناء غيابي بخدمات ممتازة جعلت الأرض ممهدة أحسن التمهيد، وكنت ألتقي أنا والمتصرف بهؤلاء الأخوة وغيرهم من السراة كثيراً، وبالنتيجة أمكننا أن نُعلم بغداد في نهاية الشهر، ثقتنا في مقدرتنا على قطع الخطوات التمهيدية المباشرة من مراحل الانتخاب، بقدر ما تقطع بغداد نفسها (كما يبدو) وغيرها من الألوية الوسطى العربية (حيث علمنا أن عقبات ومصاعب قد قامت في هذا السبيل) شريطة أن تقوم الحكومة أولاً بإذاعة بيان تضمن فيه بقاء اللغة التركية، لغة رسمية للواء، وأن يبقى اختيار الموظفين من

---

(1) انظر (حاشية ص303 من الكتاب)، لقد صدرت الإرادة الملكية بإجراء الانتخابات في تشرين الأول الماضي لكن العمل بها توقف بسبب معارضة المجتهدين في الجنوب. والمجتهد هو رجل دين جعفري ذو مركز سام مخول بإعطاء تفسير خاص، في أحكام الشرع (السنة لا يعترفون بسلطة تملك مثل هذا الحق) أما الفتوى (التفسير) فهي بصورة عامة حكم في واقعة معينة صادر من سلطة دينية.

(2) بموجب القوانين العراقية المطبقة تتسم الموافقة على أي معاهدة باستصدار قانون خاص مقتضب يخول الملك حق المصادقة عليها.

سكانها. إن هذا الترتيب يعتبر تقدماً كبيراً في وضع كركوك لأنه ألغى الشرط الذي كان يقوم في كل المفاوضات السابقة، وهو وجوب إتمام الصلح مع تركيا أولاً وغير ذلك من الشروط الأقل شأناً وإزعاجاً. وفي خلال هذه الاستشارات استطلعنا رأي هؤلاء الوجهاء حول قيام الملك بزيارة للمدينة فشعروا أنه لا يوجد حجة يستندون إليها لتوجيه دعوة إليه بعد رفض كل مقترحاته السابقة لكنهم سيستقبلونه بإجلال إذا جاء على كل حال. واستنتجنا أنه يجمل بنا الاستمرار في إنجاز المهمة الحالية بهدوء وبأقل ما يمكن من الضجة والعلنية، وأن نؤجل الزيارة الملكية حتى تحين مناسبة أخرى. إن رأي وجهاء المدينة في الانتخابات تضمنه قرار رسمي اتخذ مجلس الإدارة المحلية وأرسله المتصرف بصورة رسمية إلى بغداد وصادق عليه رئيس الوزراء في 11 تموز بالبرقية الجوابية التالية: «نرجو إبلاغ مجلس إدارة اللواء أن مقترحاتهم مقبولة وأن الحكومة تصادق على إملاء شواغر الوظائف بالمواطنين المحليين فقط، وأن اللغة المحلية ستكون لغة رسمية.. ولكم أن تبلغوا المجلس بذلك وأن تعدوهم بإنجاز هذه الشروط بالرسائل الرسمية».

لم يزل وزراء بغداد وموظفوها المدنيون قليلي الخبرة بطبيعة الحال ويظهر أنهم لم يستوعبوا حقيقة الوضع هنا. فلو كانت بذرة كركوك المغروسة فقد أخرجت نبتة غضة، فإن هذه النبة تحتاج إلى رعاية دقيقة حذرة. وزاد قلق المتصرف ورئيس البلدية للأوامر الجازمة القاطعة من بغداد بوجوب الإسراع في الانتخابات على أن تسبق العاصمة وغيرها من الألوية الوسطى العربية في هذا المضمار، (وكان لرئيس البلدية مسؤوليات معينة بحكم القانون كتسجيل أسماء الناخبين وما إليها من الإجراءات التمهيدية). وكان يوجد في كركوك خطيب مسجد شديد التعصب اسمه (ملا رضا) أثرت مواعظه النارية تأثيراً كبيراً في عواطف الجمهور ودفعتها إلى معارضة الانضمام إلى الدولة العربية إلا أنه تم إسكاته بضعة أشهر بتعيينه في منصب مدير الأوقاف المحلية. هذا الملا جرى فصله من بغداد ببرقية ومن دون استشارة سابقة مع المتصرف ليخلي المجال لنكرة (محسوب) من

محاسيب الوزير المختص والأنكى من هذا والأشد غباء أن رئيس البلدية الذي كان يتوقف على تعاونه نجاحنا أكثر من أي جهة أخرى صارت تنهال عليه الانتقادات الرسمية حول كيفية إدارة البلدية هو مغيظ ومزعج وتافه. وفي حين كانت البلدية بموجب قانون البلديات العثماني الذي ظل سارياً تتمتع باستقلال ذاتي أكثر بكثير ما تريد وزارة الداخلية أن تسمح لها، على أن رسالة واحدة مني إلى (كورنواليس) كانت كافية لتصحيح الأوضاع والقضاء على هذه المزعجات إلا أنه مما يورث الحنق والسخط أن نجد الأشخاص الذين نحاول معاونتهم مبتلين بقصر نظر عجيب ومهما يكن فقد تغلبنا على هذه العقبات كلها. وفي النصف الثاني من آب بوشر بإعداد قوائم الانتخاب.

وتقرر أيضاً أن تبذل محاولة لإقناع أهالي المناطق المنفصلة والداخلية ضمن الحزام الصحي، للمشاركة في الانتخابات ولهذه الغاية أعد مجلس الوزراء في بغداد تصريحاً آخر حول موقف الحكومة من الكرد (نشر في وقت واحد مع جوابه إلى كركوك) وإليك التصريح:

إن الحكومة العراقية لا نية لها في تعيين أي موظف عربي في المناطق الكردية خلا الاختصاصيين منهم، كما ليس لديها أية نية في إرغام أهالي المناطق الكردية على استعمال اللغة العربية في المراسلات الرسمية. وستتم المحافظة على حقوق السكان والطوائف الدينية والمدنية، وتكون مصونة أبداً.

إن الوطنيين الأكراد لا يلامون طبعاً إذا ما شكوا بأن محتويات هذا التصريح لا علاقة لها بحقوقهم التي تم الاعتراف بها في (تصريح عيد الميلاد). لكن أصبح واضحاً للجميع في هذا الوقت باستثناء أكثرهم عماءً أن ضم كردستان إلى العراق هو المستقبل الوحيد الذي رسم لبلادهم المثخنة بالجراح، على أن هؤلاء الذين انكشفت لهم تلك الحقيقة كانوا يأملون أن يروا في الحكومة المركزية من الحكمة ما يمكنها من تقوية ولائهم وذلك بأن تعترف بكيان الكرد كأمة ذات خصائص متكاملة وبحقوقهم على نطاق شعبي لا فردي، وأن لا تنظر إليهم من هذه الزاوية

كأفراد لهم من الحقوق ما للأفراد العرب الذين هم أغلبية ومنوا أنفسهم باتباعها سياسة تتصف بالشهامة إزاء مطامح تلك الأمة الثقافية والاجتماعية وغير ذلك من مظاهر الوعي القومي بوصفهم عنصراً من البشر أصيل في جامعة شعوب غربي آسيا. وهكذا مضت الاستعدادات متساوقة مع الاستعدادات في لواء كركوك إلى حد أن سكان مركز لواء السليمانية (المهجور) طلبوا المساهمة في الانتخابات في نداءات لا تحصى، فأجيب طلبهم وسمح لهم أن يسجلوا ناخبيهم في أقرب مركز من مراكز إدارتنا.

وفي الوقت نفسه أصبحت دعوة مقاطعة الانتخابات، والمعاهدة التي دعا إليها علماء الجعفرية، تحت الصدارة في قائمة المشاكل وألقي القبض على ابن (السيد مهدي الخالصي) إمام الكاظمين وهو يقوم بإلصاق نسخ من الفتوى التي تدعو إلى المقاطعة وتعتبر الانتخابات غير شرعية في السوق وعلى ملأ من الناس فاعتقل الأب ونفي إلى الحجاز، وعندئذٍ خرج أكابر مجتهدي كربلاء والنجف وعلماء الدين فيهما، قاصدين إيران في قافلة سيارات شبه مظاهرة احتجاجية إلا أن الحكومة تحسبت نياتهم، فاعترضهم وهيأت قطاراً خاصاً تحت الحراسة وكدستهم فيه تكديساً وقذفت بهم من خانقين إلى خارج الحدود.

ولم يكن (الشيخ محمود) ساكتاً فقد أُرسل دعاته إلى مدينة «السليمانية» في أعقاب الرتل البريطاني المنسحب، على أنه لم يدخلها شخصياً إلا في الحادي عشر من تموز وأقال «صالح زكي» من القيادة العامة للجيش الوطني الكردي، وعين بدلاً عنه «ماجد بك مصطفى» وهو ضابط تركي سابق جم النشاط ذو قابليات بارزة، قدر له في السنوات التالية أن يصبح متصرفاً ناجحاً ثم وزيراً وبعودة «الشيخ محمود» إلى مرسح السياسة غدا من الضروري جداً تحديد مكانته ببيان رسمي آخر. لكنني عندما وصلت بغداد جواً في السابع عشر من الشهر، وجدت مسألة مجتهدي الشيعة قد طغت تماماً على القضية الكردية وآضت شغل دوائر الدولة الشاغل. إن طرد رجال الدين لم يحدث أي أثر تقريباً في العراق بل

قوبل بقلة اكتراث على أنه أثار زوبعة في إيران. فأرسلت طائرة من طائرات السرب الثامن إلى طهران لنقل الوزير البريطاني (السر برسي لورين) إلى بغداد للتشاور ولذلك قضيت ثلاثة أيام وأنا ألح دائباً لا أنال الموافقة على إرسال رسالة كنت قد كتبت صيغتها - للشيخ محمود وهذه هي:

«لقد طرق سمع المندوب السامي بأنك عدت إلى السليمانية لذلك أمرني بإبلاغك أن كل التدابير قد اتخذت لإدارة أقضية «رانية، وقلعة دزه وچمچمال، وقره داغ وسه نگاو) فضلاً عن ناحية ماوهت وأن عليك ألا تتدخل بأي شكل كان في شؤون المناطق المذكورة آنفاً أو في القرى التي تعود لسادة (سه ر كه لو). فإن خالفت لا سمح الله هذه التعليمات وتدخلت في شؤون المناطق المذكورة أو قمت بدس الدسائس ضد الحكومة بوسائل أخرى فستتخذ بحقك أشد التدابير. أما في الوقت الحاضر فإن فخامة المندوب السامي لا ينوي اتخاذ أية إجراءات ضدك شريطة أن لا تتدخل في شؤون المناطق المار ذكرها وأن لا تأتي بأعمال معادية».

وبعد أن وضعنا سياستنا الجديدة على الأساس تركت كركوك قاصداً خانقين في 23 منه، مؤملاً بلوغها في فجر اليوم الثاني ثم أبلغ بسيارة مأجورة إلى (كرند) في هضبة إيران مساء ذلك اليوم. لكنني جوبهت بسلسلة من العراقيل المزعجة لم تكن في الحسبان وربما كان يتعذر تذليلها: أولاً عند الحدود، وأخيراً في (قصر شيرين) فاضطررت إلى المبيت فيها. لم أر من كل المواضع القاحلة المغبرة لوناً يشبه لون قصر شيرين الأربد. فقد شيدت حول تلين تشرف عليهما قلعة (جوامير) الزعيم الهماوندي المشهور. وطالعني منها لأول وهلة منظر موحش تعافه النفس إلى أن وقعت عيني فجأة على نهر عريض سريع التيار على حافة الجرف - هو نهر (الوند أو حلوان) الذي تقع عليه خانقين أيضاً. وكانت ضفته المقابلة الخضراء بأدغال من القصب والشجر والصفصاف. ولاحظت نشاطاً عظيماً في البناء. وعلمت أن عدد السكان قد ارتفع في غضون السنتين الأخيرتين من ألف إلى أربعة آلاف، على إثر وقف التجارة الإيرانية مع روسيا وانتقالها إلى هذا الطريق.

وفي مشرب شاي صغير يقع على الضفة رحب بي مدير الگمرك وهو عراقي مسيحي يدعى (نعوم) كنت على معرفة سابقة به منذ أيام (بوشير)، وأعلمني بأنه قد أبلغ قبل فترة وجيزة بفصله من خدمة الحكومة الإيرانية بموجب قانون جديد يمنع استخدام الأجانب في الوظائف المدنية بعد أن قضى معظم حياته في الخدمة هنا. وما لبث أن انضم إلينا وكيل كان واجبه تأمين السيارة لرحلتي القادمة. وهو رجل قصير القامة ذرب اللسان اسمه (آغا مهدي). بعد أن ظل يتكلم بالأسلوب الفارسي المأثور عن انحلال بلاده وحاجتها إلى (حاكم)، انتقل إلى الأمريكان الذين كان اهتمامهم بالبلاد جديداً (في ذلك الزمن جاءت البلاد بعثة ملزپو Millspough mission) واتهمهم بالعمل أولاً على نيل امتيازات لأنفسهم واستطرد متفلسفاً «لكن تلك هي سنة الحياة فكل امرئ يهتم بذاته حتى الله عزّ وجل عندما أرسل نبيه (عليه السلام)، فقد فعل ذلك كجزء من خطة لبلوغ غايته الخاصة». ومر وقت طويل قبل الفراغ من شكليات الگمرك وفحص جواز السفر، وأخذني (نعوم) إلى طبيب روسي بقي في البلدة بعد انحلال الجيوش الإمبراطورية، لأكون ضيف الليلة عليه وقد فهمت أنه لم يلق نجاحاً في ممارسة المهنة هنا وهو يفكر في الانتقال إلى (سنه) لتجربة حظه فيها.

وفي هذه الرحلة وقعت لي حادثة طريفة مما يسببه الاضطراب في تفسير معاني الكلمة العربية الداخلة في اللغتين التركية والفارسية. ولقد حصرت أن يفهم أني مسافر في إجازة وأن زيارتي إيران لا تشوبها أية صفة سياسية. وكانت اللغة الفارسية آنذاك أقوى اللغات الشرقية التي أعرفها ولذلك أعلمت زملائي وأصدقائي العراقيين بأني ذاهب في (مرخصي) وهذه الكلمة المصحفة عن أصل معناها العربي، يستخدمها الإيرانيون للدلالة على (الإجازة) وأما الفعل العربي (رخص) فمعناه (سمح) واسم مفعوله (مرخص) قد حرف معناه باللغة الفارسية إلى ما معناه «مسموح له بالذهاب» وهي أيضاً كلمة شائعة على لسان الرئيس لصرف المرؤوس بمعنى (انصرف). أما اللفظة التي استعملتها فهي الاسم المصدري المصاغ من اسم

الفعل. على أن الكلمة (مرخص) بالتركي تؤدي إلى معنى (الاستنابة في الذهاب) أو (المندوب) ولذلك فعندما قلت إني ذاهب إلى (مرخصي)، فهم كل من في كركوك أني ذاهب كمندوب في مهمة خاصة وهو عكس ما رغبت أن يفهم تماماً.

ومهما يكن فقد أجريت حواراً سياسياً واحداً في (كرند) وأنا في طريقي. فقد أوقفت أمام أحد تلك الحواجز التي توضع لأجل فحص جوازات السفر أمام كل قرية تقريباً ولاستيفاء ضريبة من أبعث ضرائب السفر الغليظ والسخط وتسمى (نقلية) وأقبل جندي فأخذ مني جواز سفري ثم عاد ليقول إن الضابط يرجو حضوري فذهبت. ولم ينهض لاستقبالي كما تقضي بذلك أصول اللياقة التقليدية التي وجدتها سائدة قبل سنتين. إلا أن حديثه كان يختلف تماماً عن هيئة الاعتداد بالنفس التي لقيني بها. فقد راح يستطلع رأيي في أمر (سري للغاية). وهو أن البك الشاهنشاهي الإيراني يعتزم إرسال مبلغ قدره مليون تومان من المسكوكات النقدية عن طريق قصر شيرين فبماذا أشير عليه والطريق غير مأمون بسبب وجود (الشيخ محمود) بالقرب من (قوره تو) على الحدود؟ وأمكنني إدخال الاطمئنان إلى نفسه بخصوص مقر (محمود) الفعلي ومقدرته على العمل في رقعة تمتد حتى هذه المسافة، على أني ختمت كلامي بنصيحة لا بد منها وهي أنه نظراً لجسامة المبلغ فمن الحكمة أن يرسل أكثر ما يمكنه الاستغناء عنه من وحدته الصغيرة لحراسة القافلة، فشكرني قائلاً إنه سيظل مديناً إلى الأبد بهذه النصيحة الحكيمة ورافقني حتى السيارة معدلاً بذلك أسلوب السلوك الذي يعزوه الإيرانيون لأنفسهم «خوش استقبال وبد بدرقة = أحسن استقبال وأسوأ وداع».

وفي همدان قضيت ثلاثة أسابيع بهيجة ضيفاً على (س.ت. بيل C.T. Beale) الذي قد أشغل وظيفة معاون ضابط سياسي في كردستان ما بين 1918 - 1920 وهو الآن مدير للبنك العثماني. حللت في بيته الجبلي و«حديقته» كما جرت تسميته بحسب الاستعمال الإيراني اللطيف ويقع في ظاهر المدينة على ارتفاع 7000 قدم. وكتابي هذا يضيق بوصف النزهات التي قمنا بها إلى الأنحاء المجاورة (أذكر منها

رحلة ممتعة للغاية إلى جبل الوند = 11600 قدم) والأحاديث الطلية التي تبادلناها مع الحاكم والجنرال قائد المنطقة العسكرية الغربية وغيرهما من الموظفين والوجهاء وبقّالي الأسواق. وكان مصدر متعتي الخاصة هو التحدث باللغة الفارسية مع أهلها. فهي أول لغة شرقية نطق بها لساني وتفتح لها قلبي. ومع أنه معظم مثقفي الكرد في السليمانية يتكلمونها بفصاحة إلا أن لسانه يشوبه رطانة. كما أنهم يفتقرون إلى المفردات الحديثة. فهي لذلك تفقد موسيقاها الإيقاعية.

وقفنا من التأريخ السياسي لمسألة الموصل إلى حد 4 شباط 1923، حيث تم التوصل إلى الاتفاق على إخراجها من جدول أعمال مؤتمر الصلح في لوزان، وإعطاء الفرقاء المعنيين مهلة سنة واحدة لأجل التوصل خلالها إلى اتفاق ودي نتيجة مفاوضات مباشرة. ولذلك استؤنفت المحادثات في 12 نيسان وهو اليوم الذي عقب عودتنا إلى (رواندوز) وكانت نتيجتها التوقيع على معاهدة (لوزان) في 24 تموز (بعد خمسة أسابيع من إخلائنا السليمانية كما جاء شرحه في الفصل السابق، وفيما يأتي نص المادة الثالثة من المعاهدة وهي التي تتعلق بموضوعنا:

«إن الحدود التي هي بين العراق وتركيا، سيجري تثبيتها باتفاق ودي يبرم بين تركيا وبريطانيا خلال تسعة أشهر. وعند عجز الفريقين عن الوصول إلى اتفاق خلال المدة المذكورة يحال النزاع إلى مجلس عصبة الأمم، وتتعهد الحكومتان التركية والبريطانية خلال فترة بحث موضوع النزاع حتى التوصل إلى قرار نهائي في موضوع الحدود، بألا تقوما بأية حركة عسكرية أو غير عسكرية ينجم عنها أي تعديل في الوضع الحالي من الحدود الذي يعتمد تثبيتها النهائي على ذلك القرار».

وتأثير هذه الوثيقة الرسمية الثنائية (وهو التأكيد مرة أخرى على أن مستقبل ولاية الموصل ما زال غامضاً) كان إعاقة لنا لا معاونة في معالجة مشاكلنا المحلية. لقد وجهت أول اهتمامي بعد عودتي إلى كركوك في 16 آب إلى موضوع الانتخابات الذي لم يكن يتقدم تقدماً جيداً ولا عجب. ففي 21 آب عانينا مقابلة عسيرة لوفد من وجهاء كركوك وبعد مناقشة حادة تبودل فيها الكلام الصريح

وسادته المهاترة أنقذ (عبد الله صافي) الموقف اليائس بتدخله في اللحظة المناسبة. وتوصلنا أخيراً إلى اتفاق بتأليف لجنة التفتيش التي سيناط بها أهم عمل انتخابي وهو الإشراف على مختلف المراحل التحضيرية له، وفي مساء ذلك اليوم وزعت بيانات في المدينة ذات لهجة عنيفة تشجب الانتخابات وتدعو إلى مناصبة البريطانيين العداء إلا أن انتخاب اللجنة تم في اليوم التالي كما اتفق عليه، ورضي الجميع بالأمر الواقع تدريجياً. وأشاعت تقديراتنا للموقف ارتياحاً عظيماً في بغداد كما دلت عليه البرقيات التي وردتنا بعد رسالة شخصية من (كورنوالس) «إن حمل كركوك على المشاركة في الانتخابات عمل جيد للغاية، وأنا أهنئك من صميم قلبي كذلك أهنئ (ميللر) الذي أشدت بعمله كثيراً ونحن نقدر ذلك هنا تقديراً كبيراً». ومن الطريف أن أذكر هنا بأن أعظم مشقة عانيناها في أثناء إعداد قوائم الناخبين المنقحة كانت مع قبيلة (العبيد) العربية بزعامة شيخها (حسين العلي) العجوز. ولم تتم تسوية المشكلة إلا بعد أن أرسلنا إليه التاجر المسيحي قسطنطين أفندي يرافقه (مراد) لإقناع الشيخ الكثير الشكوك بأن يوعز لرجال قبيلته بتسجيل أسمائهم في القوائم، وهذا مثال جيد للنفوذ الكبير الذي يتمتع به التجار المسيحيون واليهود في عهد العثمانيين بسبب أمانتهم وتعاملهم الصادق مع أكثر رجال القبائل شكاً وصيرورتهم وكلاء بيع وشراء[1].

وأما عن (الشيخ محمود) ففي صباح يوم عودتي هوجم مقره في السليمانية بالطائرات (لأول مرة في التاريخ استخدمت قنابل من زنة 220 باونداً) على إثر محاولاته التدخل في المناطق المحظورة عليه لا سيما (ماوه ت). وكان ثمة كثير من حوادث السلب وقطع الطريق، على الطريق العام إسناداً لتكتيك الشيخ ووجد (ميللر) أن الحكمة تقضي بتأليف دورية حراسة للطريق من السيارات المصفحة التي تعود للقوة الجوية ما بين كفري وكركوك. وسمعنا فيما بعد أن الشيخ (محمد

(1) هناك مثل آخر من أسرة (خلاصجي) اليهودية التي ظلت تقيم أحقاباً في (الشامية) من الفرات الأوسط.

غريب) صهر الشيخ محمود، قد دخل حلبچة في اليوم ذاته لكنه استدعي على جناح السرعة بعد القصف الجوي مباشرة. ولم يبد بكزادة الجاف الذين ظلت الانقسامات العائلية تمزقهم أية مقاومة رغم تعهدهم بذلك، فكشفوا عن عجز لا يبرر قط الاعتماد عليهم، إلا أن القسم المستوطن من قبيلة (نورولى) هاجموا الحملة المقهقرة من تلقاء أنفسهم في جنح الظلام فقتلوا رجلاً واحداً وغنموا عدداً من الخيول والبنادق والواقع أن حلبچة كانت بعيدة عنا ونحن في كركوك فلم نبذل أية محاولة جديدة لإعادة الإدارة فيها عدة أشهر ما عدا جزء من (وارماوا) جنوب سلسلة (به رانان).

توجد نقطة ضعف واحدة في استحكامات (الحزام الصحي) وهي وجود واحات لقبائل الطالباني وزنگنة داخل لواء كركوك إلى الجوار من (چمچمال وسه نگاو) لذلك لم نأسف لا أنا ولا المتصرف للفرصة التي أتاحها لنا سوء تصرفات أفراد الأسرتين الحاكمتين وانتهازها للقضاء على مركزهم الممتاز بإحياء ناحية (گل) العثمانية القديمة (قادر كرم الحالية). كان (الشيخ رشيد أخو الشيخ طالب) قد أغار برجاله المسلحين على قرية (دربه سارى) الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر (باسه ره) والتي تبعد عن طاووق 11 ميلاً، وكان ادعاء الطالبانية هو أن القرويين يقاومونهم دائماً والإدارة لا تعترف بحقوقهم. وقد أصيب رشيد نفسه بجرح[1] في فخذه إلا أن فتاح باشا أخذ تعهداً من أخوته بأن يحضروه عند الطلب. وكان الوجه المادي للعقوبة هو إجباره على أن يبني من جيبه الخاص وبحسب توصيتنا مخفر شرطة ارتأينا إقامته. وأما (عبد الكرمي آغا وحمه كريم آغا) المتنافسان في زنگه اللذان كانا يحتربان ويتعرضان للشرطة ويلفتان إليهما الأنظار. فقد حكم عليهما

(1) بعد هذا بأيام قليلة زار (كورنر) قريته، ووجد جرحه متقيحاً تحت ضماد يتألف من قطعة قذرة من جلد العنز وضعت على الجرح بشعرها وكان وجوده سبباً في إنقاذ الساق وحياة صاحبها (رشيد) أيضاً.

بدفع ديات للقتلى، وبالإبعاد إلى خارج منطقتهما حتى يبت في تنظيم السلطة الإدارية المباشرة، بعد قضاء فترة سجنهما القصيرة[1].

إن استبدال الإدارة القبلية العرفية بالإدارة المباشرة في هذه المنطقة المعقدة بات من المتوقع أن يكون موضع استحسان السلطات في بغداد يحدوها في هذا شدة تعلقها بالمركزية وبغضها الامتيازات القبلية لكننا جابهنا بعض الصعوبات في ترويج مقترحاتنا. وكان السبب في هذا وجود موظف في البلاط فضولي كثير التدخل شديد اللهفة إلى إثبات خبرته المزعومة في الشؤون الكردية مما حدا به إلى خلق ما يدعى به (حزب الملك) في الألوية الشمالية التي ظلت حتى ذلك اليوم بمعزل تام عما يجري. فكر هذا أن خير طريقة لإنجاح مشروعه هو إحباط جميع القرارات التي تتوصل إليها السلطات المسؤولة خارج العاصمة بإصدار قرارات مضادة كلما وجد أن الأولى قد لا تقع موقع قبول من ذوي المراكز الدينية والقبلية. ولما كوشف الملك بالحقيقة لم يقره على هذه المناورات واستطاع المتصرف أن يخيب آمال المتهربين من الضريبة، بممارسة الضغط المتزايد عليهم لدفع الرسوم المستحقة عن أراضيهم قائلاً إن قضاءهم فترات طويلة في فنادق العاصمة المرتفعة الأجور وإزعاج الوزراء والبلاط بكثرة الزيارات ينفي زعمهم بالفقر وعدم تيسر المال لدفع ما تراكم عليهم من الضرائب. وهذا أسلوب كان يحض دوماً بمساندة وزارة المالية الشديد. ووقع الاختيار على (عزيز أفندي) وهو موظف تركي متقاعد ليكون أول مدير لناحية (گل) وكان قد أشغل منصباً مماثلاً في عهد العثمانيين فراح يعمل بنشاط كبير وتمكن بعد أسبوعين من تسلمه المنصب في بداية تشرين الثاني أن يجبي متأخر سنتين من الضرائب.

إن تشددي في موضوع جباية الضرائب قد يحتاج إلى بعض الإيضاح: كانت موارد خزينة الدولة قبل ظهور عوائد النفط تأتي من مصدرين أساسيين هما

---

(1) إن (التتوء) الجباري الذي نقل من مركز كركوك إلى السليمانية بعد أول محادثة (لتويل) مع الكرد، إعيد إلى كركوك ثانية باسم ناحية (كل) في شباط 1924.

الگمارك ومردود الغلات الزراعية (العشر أو أكثر حسب صنف الملك) وهذه تجبى بصورة مباشرة. وبصرف النظر عن حاجة الخزينة إلى مورد، فإن درجة نجاح أية إدارة في جمع الضرائب هي بمثابة محرار دقيق، يسجل كفاءتها العامة. ورفض المكلفين دفعها هو تحد للإدارة وإذا ما أخذ مأخذاً جدياً يمكن أن يؤثر تأثيراً سيئاً على تطبيق القانون واضطراب حبل الأمن بصورة عامة. لا مفر لهذا الأسلوب في أن يؤدي من الجهة الأخرى إلى نتائج سيئة بالنسبة إلى صغار الموظفين فقد بات عدد كبير منهم يرون أن تحصيل الضرائب هو الهدف الأول والأخير لوجودهم. وإنهم وإن كانوا يخشون ملاحقة الأغنياء وذوي النفوذ فقد كانوا مضطرين إلى تشديد الخناق على الضعفاء والفقراء وعدم التسامح معهم وإن عجزوا عن الدفع. وكانت السلطات المركزية المالية تتلكأ في المصادقة على الإعفاءات المعقولة بسب حدوث آفات طبيعية أو هبوط شنيع في الأسعار بعد أن تثبت النسب المختلفة صعوداً ونزولاً فيرغم الموظفون الحريصون المَدِينين على بيع حيواناتهم وماشيتهم بثمن بخس ليدفعوا ما استحق عليهم. ولا يسهل علينا دائماً اقتناع الوزراء برأينا حول الأقاليم البعيدة. وهو إن أردنا استيفاء الضرائب فعلينا أن نقدم مقابلها نوعاً من الخدمات الاجتماعية، وأقلها مثلاً تعيين طبيب في دائرة ريف قطرها خمسون ميلاً، وأن لا نقصر إصلاحاتنا على بناء مخافر شرطة وتطبيق مواد قانون العقوبات.

- 24 -

گل وقه ره داغ

بعد إخلاء السليمانية في حزيران، مباشرة، صودق على طلبي بتشكيل قوة خاصة من الفرسان الجوالة قوامها (120) شرطياً لاستخدامها عند الحاجة في أي جزء من لواءي كركوك والسليمانية إضافة إلى الوحدات الإدارية في الحزام الصحي. وفي نهاية أيلول تم تدريب هذه القوة وأكملت تجهيزاتها وغدت مستعدة للقيام بما يتطلب منها. وفي أوائل تشرين الأول تركت الموصل في جولات متتابعة على الخيل وقد أدى بي أولى جولتين في الأراضي الواقعة بين (بنزرد - به رنان)، إلى الشمال الشرقي بين الطريق العام الممتد بين كفري وكركوك. وقد سبق في الفصل الثاني أن أتيت إلى وصف الميزات الطبوغرافية الأساسية لها، وهي لم تكن مجهولة لدى الرحالة البريطانيين الأوائل فقد مر بها ما لا يقل عن سبعة من أصل الأحدى عشرة الأولى في قائمتي. إلا أن (راولنسن، وماونسل) فقط عقبا مسالك أخرى بعيدة عن طريق القوافل الرئيس بين بغداد وتبريز خلال (إبراهيم خانچي) ومضيق (سه گرمه) والسليمانية وقد كنا نلقى عوناً كبيراً من القوة الجوية في جولاتنا كلها، وتزودنا بجهاز (حتار بوڨام) للاتصال البصري، وجهاز تبادل الرسائل المكتوبة أيضاً وكانت الإجراءات الغامضة التي تتبع في إرسال الرسائل وهدير محركات الطائرات المنقضة بارتفاع قليل تسقط حقائب الرسائل بشرائطها الزاهية أو لتلتقط حقائبنا، ترفع المعنويات وتقوي بمظاهرها موقفنا السياسي لا في الأنحاء التي نؤمها بل في أصقاع أبعد منها إذ تنتقل بسرعة مع مبالغات كبيرة عن

حجم القوة البرية وعدد الطائرات التي تدعمها. ولم نكن ننزل ضيوفاً ثقلاء على أحد إلا عند الضرورة القصوى بل كنا نبتاع اللحم والعلف من القرى الكبرى والمضارب التي نمر بها وندفع أثمانها بالنقد أو نعطي وصولات تتضمن تسديد ضرائب الحكومة التي يدين بها بائعوها.

خرجت قوة الخيالة من كركوك في أول جولاتها في 7 تشرين الأول، وكان في الركب عداي - كل من (مراد وكراودن) والعريف (برجس) وكلهم من الشرطة وبدا منظر الرتل مهيباً شديد الوقع ببزاته الجديدة الأنيقة وخيوله المطهمة وامتلأ قلبي فخراً وأنا أترك المدينة على وقع سنابك الخيل وجلجلة اللجم المعدنية.

هنالك عضو في جماعتنا، أقدمه بدون أي حراجة أو خجل وهو خادمي (حمه علي)، الفتى الكردي من كفري. كان (دوغلاس) قد حمد لي مزاياه بكل حماسة قبل أن يترك البلاد وظل معي طوال السنوات الاثنتين والعشرين التالية لا يفارقني في كل رحلاتي حتى تزوجت. وعندها أقلقه تغير الوضع، وتحول إلى وظيفة مدير شؤون البيت العام يشرف على كل كبيرة وصغيرة فيه. وقد أتقن ترتيب المائدة بدون أي خطأ، والوقوف على خدمة بضعة عشر مدعواً طوال وجبة طعام طويلة تتألف من خمس نوبات دون أن يبدو عليه كلل. وأقر بكل ثقة أني طوال هذه السنوات الاثنتين والعشرين - لم أفقد قطعة واحدة من النقود مهما صغرت ولا أعتقد أن قائمة المشتريات زادت فلساً وكانت معرفته بما أملكه أكثر من معرفتي. وهو يشير إلى الحاجات التي يعود تأريخها إلى أيام عزوبتي بكلمة (أشيائنا) وبإمكانه أن يخبرك بالضبط عن تاريخ ومناسبة شراء أية قطعة أثاث أضفناها إلى بيتنا. كثيراً ما يوجد في علاقة الخادم بالمخدوم في بلاد الشرق الأوسط شيء عاطفي جذاب. فبصرف النظر عن شدة الاحترام الذي يبديه الأخ الأصغر لأخيه الأكبر، أو الجيل الفتيّ للجيل المسن، لم يكن خروجاً عن المألوف أن يقوم قريب صغير المكانة بخدمة رئيس الأسرة أو كبير فرع منها أو فرد أكثر غنى فيها، أو أن يقوم له بأشغال أخرى. وهذا ما يؤدي حتماً إلى إزالة الحاجز الاجتماعي

اللازم بين الخادم والمخدوم. فترى الخادم يستقبل بكل الاحترام الواجب لمخدومه عندما لا يوجد هذا في الحجرة. وكان (حمه علي) من هذا الصنف. فهو محترم من هذه الجهة وبذلك غدت قيمته لا تقدر إذ كنت أستطيع القيام باستفسارات غير مباشرة أو إبلاغ بعض التلميحات المقصودة بخصوص رغباتي عن طريق رجل يحترمه شيوخ القبائل ويثقون به (كحمه علي).

وكان أول أهدافنا (چمچمال) لكننا آثرنا طريق القوافل القديم على طريق السيارات المعروف، وكان سبيلنا هذا يبعد بضعة أميال إلى شمال قاع نهر (خاسه) العريض ويسير بحذائه بين آكام منخفضة طينية المظهر. وهذا هو الطريق الذي شرحه (الشيخ رضا) في قصيدته لأجل تهريب هدية التبغ إليه. ووجدناه فائضاً في تلك السنة على غير غادته ولاحظنا حقولاً واسعة مزروعة بالبطيخ أمام كل قرية وعلى حافتيه المفروشتين بالحصباء. وترجلنا للراحة قبيل الظهر في قرية (گوران) الصغيرة (تعرف قبلياً باسم = شوان سه رخاسة) وتقع في نقطة ملتقى المجرى الرئيس بالرافد الصغير (شيوه ته خت) الصادر من الوادي إلى الجنوب الشرقي.

وفي صبيحة اليوم التالي عقبنا نهير (شيوه ته خت) حتى القرية الكثيرة السكان، (ساتي = أو سه خاسة) وموقعها جميل يشرف على بقعة تتشابك فيها بساتين من أشجار التين والچينار الضخمة بين مرتفعين تكسوهما طبقة خضراء من الطحلب المتخلف عن مواسم ربيع عديدة. سرنا فوق هذا البساط الأخضر حتى أشرفنا على نهاية منطقة (شوان) ورحنا نتطلع إلى السهل الواسع الذي ينتصب في وسطه تل چمچمال على بعد ستة أميال، وخلفه خط (قره داغ) الطويل بدربنديه: (بازيان) و(باسه ره) الظاهرين بكل وضوح.

كان يوجد الكثير من الأمور السياسية وشؤون الشرطة مما يجب تصريفه في مقر القضاء الذي عين له قبل فترة وجيزة (وهاب بك) فبقين ليلتين، وفي اليوم التالي أقبلت طائرتان هبطتا في مطار صغير قرب التل وكسر إحداهما عمود برق ولم يقع ضرر خطير آخر لحسن الحظ.

كانت خطتنا أن نمتطي حيواناتنا فجراً لنقطع المسافة المعينة لكل يوم. حتى تضرب خيامنا ظهراً كأقصى حد للسير لأن حرارة الطقس ما زالت مؤذية. وهكذا وجدت نفسي فوق السرج في الساعة السادسة صباحاً للبدء في المرحلة الثانية. وارتفع رقم القوة إلى مائتين لانضمام حرس كبير من (الهه ماوه ند) الفرسان (يحملون بندقياتهم على أكتافهم وتحيط أجندتهم صدورهم) واتجهنا جنوباً فقطعنا أولاً السهل ثم دخلنا أرضاً جبلية وعرة حتى بلغنا مجرى عريضاً لنهير يسمى (شيوه سور = الوادي الأحمر) وبتركنا قرية (طالبان) التي منحت اسمها للأسرة الشهيرة إلى جهة اليمين بلغنا نهر (تَيْنال) الذي يدعى هنا (باسه ره) ويؤلف الحد الفاصل بين (چمچمال وسه نگاو) ولم تقتضينا هذه المسيرة غير ثلاث ساعات. وخضنا عالية مسيل صغير لقرية (قرخ = همه مه وه ند سيته به سه ر) وبعد ساعة وربع ساعة بلغنا عيون الملح التي تسمى رسمياً (قم مملحة) وتقع على سفوح جبل (آج داغ) الجنوبية.

هذه الممالح تتألف من عدد كبير من الينابيع على طرف الجبل ويسيل منه الملح إلى منخفضي بتخير قليلي العمق. وثمة مخزن واسع يعود تاريخ وجوده إلى عهد العثمانيين، فيه موضع سكني مؤثث للموظف المسؤول (لأن الملح هو احتكار حكومي) أو (الملتزم = المتعهد) الذي منح امتياز استغلاله. ويفضل هذا لأسلوب في الأماكن التي لا تكون الإدارة فيها قوية، وعند وصولنا (سه نگاو) صادقت على إيجار (الشيخ) المملحة لأحد أقربائه الصغيري الشأن (ولو كان البدل بخساً جداً) شريطة أن تدفع الأقساط المستحقة إلى خزينة كركوك. ولم يكن المستأجر قد دفع شيئاً بعد. ولما طلب منه ذلك أجاب أن خسارته كبيرة وهو عاجز عن دفع فلس واحد دعك عن فكرة الربح. وفي هذا الموضع انضم إلينا (الشيخ عه ول) قائمقام قره داغ الجديد مع ثلة من أتباعه فرساناً. وإذا كانت خيالة الشرطة تدفع أثمان علفها وطعامها ففرسان (الهه ماوه ند) وقره داغ لا يدفعون فلساً ولا شك أن استضافة الملتزم لهذه الجماعة ولو ليلة واحدة قد تفتح في

موارده ثغرة كبيرة. وتمديد فترة بقائنا هنا قد يكون نكبة له، لذلك بادر بدفع أول قسط من بدل الالتزام (2500 روبية)[1] ووعد أن يدفع الأقساط الأخرى في مواعيدها.

وفي اليوم التالي قطعنا ساعة ونصف ساعة إلى الجنوب، بين (آج داغ) وهضبة تابعة له تسمى (باسكي زيور) وهي علامة الحدود بين (گل وسه نگاو) ثم عرجنا نحو الشمال الشرقي وصعدنا ممراً صخرياً شديد الانحدار فوق (آج داغ) حتى بلغنا القمة وأرسلنا الطرف من ارتفاع 3000 قدم إلى كل من (سه نگاو) (والاسم على المسمى «حجر وماء») وإلى أطناف قره داغ التي لا تبعد أكثر من ثمانية أميال. وبعد ساعة أخرى من السير بلغنا (گوپ تپه) مقر الناحية. وبعد ساعة راحة تناولنا أثناءها الطعام وقمنا باتصالنا اليومي الأرضي مع الطائرة. سرنا ستة أميال أخرى عبر الوادي لنبلغ القرية العامرة (كرپچينه) وكان في استقبالنا الشيخ (عبد الكريم قادر كرم) للانضمام إلى الركب.

كانت (كرپچينه) مقراً لشيخ برزنجي معروف هو (عبد القادر) ثان. وقص علينا الشيخ عبد الكريم قصة طريفة عن موته الذي وقع في العام الماضي، كان قد رحل إلى (هه ورامان) زائراً وهو في أحسن صحة. وفي مساء يوم ما بعث بطلب أولاده دون سابق إنذار ولما اجتمعوا حوله أنهى إليهم بوصية ورفع عمامته ووضعها على رأس أحدهم وبذلك عينه خلفاً له ومسؤولاً عن تكية الأسرة ولم يجب عن أسئلتهم الحائرة إلا بأن الموت هو نهاية كل حي عندما يحين أجله. وأنه خطر بباله الإفضاء الآن برغباته الأخيرة ليس إلا. ثم نام مقدار ساعة واستيقظ وتوضأ وأدى صلاة الفجر وصعد منبر المسجد (وكان نازلاً فيه) وتلا الشهادتين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وتهاوى على الأرض ميتاً ولم يفارق اسم الله شفتيه حتى سكنت حركته. إن هذه الصورة الحافلة بالقداسة التي عرضها عنه بنو

(1) كان بدل الإيجار الذي عقد عليه الشيخ محمود لقريبه يقل كثيراً عن (50000) روبية وهو البدل الذي كانت هذه الممالح تؤجر به في 1927، كما تشير ملحوظة احتفظت بها.

قومه ومريدوه، لا تأتلف قط مع سمعة ذلك الشيخ العجوز الكثير الدسائس المثير للفتن... والله أعلم.

وفي (كريچينه) واتانا الحظ بإلقاء القبض على شقي من الشقاة، كانت شرطة كركوك جادة في طلبه عن تهمة حريق. ولقد انضم إلى عصابة من المجرمين قبضنا عليهم ونحن في طريقنا ونقلناهم معنا إلى أن تسنى لنا إرسالهم إلى موقف حكومي بقليل من الحرس لتقديمهم إلى المحاكمة.

إن الطريق الممتدة بين (كريچينه) ومضيق (سه گرمه) أقصر لكنه أصعب من الطريق الرئيسة التي تبدأ مباشرة من (گوب تپه). ولم يقتض هنا ساعة ونصف ساعة لبلوغ القمة (15000 قدم) وهذا الجزء من الجبل تكسوه الغابات الكثيفة. وآثرنا أن نجلس في الظل قرب نبع ماء. بينما راح أتباع (الشيخ) يخرجون السماور وأقداح الشاي من خرج البغل السريع الذي يرافق مسافري الطبقة العليا عادة.

وناحية قره داغ التي نوشك على دخولها الآن تشغل ذلك الجزء من الوادي الممتد بين (قره داغ) وبين سلسلة (به رانان)[1] الواقعة إلى الجنوب الشرقي من فتحة (باسه ره) وتتصل (ببازيان) من الشمال وتنفصل عن (سيروان) بساق فتحة (وارماوا) الذي سبق لنا وصفها. وثمة خط نهري فاصل داخلي (أعلى نقطة منه يبلغ ارتفاعها 4000 قدم) بقطع الوادي مقابل ممر (سه گرمه) ويفصل حوض (تينال = باسه ره) عن حوض (ديوانه = أي المجنون) وسمي بهذا لثوراته العنيفة المفاجئة - الذي يصب في سيروان، والوادي الذي هو على الجانب الجنوبي الشرقي من الخط المائي تقسمه بالطول هضبة جيرية قصيرة (أعلى نقطة فيها تبلغ 4600 قدم) تعرف باسم (گلوش). ومن (سه گرمه) إلى (زرده) وهو هضبة ناتئة عالية (5900 قدم) تبعد عشرة أميال عن (سيروان) - تنشطر سلسلة قره داغ إلى سلسلتين مزدوجتين مثل (چارمبان) في (سورداش) لكن بشكل مكبر إذ تخرج من الطرف

(1) وتسمى هنا (به رانان كه وره قه لا) و(به رانان در ساله).

الشمالي الشرقي جداراً صخرياً وعراً تقطعه عرضانياً سلسلة من الأخاديد، تفضي أو تسمح على الأقل برؤية هضبة مكسوة بالغابات تعرف بهضة (قوپى) بين حدي السكين المزدوجة. والشقوق الكبرى الممتدة من الغرب إلى الشرق تعرف بـ(دربند سه گرمه) و(دربند جافران) و(دربند كوشان) و(ده ربند دارى زه رد) و(ده ربند براولى) و(ده ربند ئه ستيل) و(ده ربند گاور) و(ده ربند تكية) و(ده ربند ووشك) و(ده ربند مامشه) و(ده ربند ماسوره). وفي معظم هذه الخوانق توجد ممرات للرجالة ضيقة، مفضية إلى سكّين آخر يبدأ من (قوپى) نازلاً حتى (سه نگاو) والقرى هناك قليل ومعظمها يقع على السفوح من الجانبين والوادي بينهما روضة غناء، عظيمة الجرم من أرض يكسوها العشب الأخضر الأثيث المرقش بأشجار البلوط وتتخللها مياه بيضاء مفروشة القيعان بالحصباء، تنحدر من ينابيع الجبال.

وراح الطريق يلعب بنا ويخادعنا بعد مرور أربعين دقيقة على استئناف مسيرتنا من الجهة القصوى (لدربند سه گرمه) فقطعناها في أرض سهلة حتى بلغنا الشق الذي هو الجدار الشمالي الشرقي وكان وادياً ضيقاً شديد الانحدار عبرناه مرتين فوق جسرين خشبيين على الطراز المحلي القروي قوام بنائه جذوع الشجر. وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى بلغنا قرية (جافران) وكان رئيسها (سعيد آغا) من أصدقائي القدماء. ما يزال يعتز بساعة ذهبية وبندقية من طراز (دووزاداه ميل = Bore) كان قد أهداهما له الحاكم المدني العام للمساعدة التي قدمها في أحداث عام 1919. وامس القرية مشتق من (جاف) القبيلة المعروفة و(ران) أي القطيع. إلا أن أهلها كانوا قد قطعوا منذ زمن بعيد كل صلة تربطهم بالقسم الرئيس من (جافه ره شكه) في (مه رگه). ولم يكن القرويون قد عادوا بعد إلى أكواخهم الطينية التي تركوها بمناسبة فصل الصيف كغالبية الكرد ليسرح فيها البعوض في الربيع. واستقبلنا الآغا في شرفة طويلة مقامة من أغصان البلوط في أعلى خط السطوح. وجيء بصوانٍ كبيرة مثقلة بالأعناب وغيرها من الفواكه لكل القوة. وكان مضيفنا خبيراً في زراعة العنب وقد سجلت عنه قائمة بعشرين صنفاً منه، تسعة أصناف

سوداء، وإحدى عشرة بيضاء. ويدخل في الصنف الأول الأحمر، والأحمر الغامق. وكانت الكردية التي ينطق بها تشيع في نفسي لذة وسروراً لأنه فصيح جميل الوقع ليس فيه كلمة أجنبية. وفي قرية قره داغ وهي مركز الناحية خرج كل السكان لاستقبالنا ولمحت على مبعدة منهم ثلة صغيرة من الرجال لا يتجاوزون الستة. لم ألبث أن ميزتهم يهوداً من قسماتهم الدقيقة وأعينهم الشفافة وثيابهم القاتمة فضلاً عن لحيتيّ كبيريهم سناً، فقد كانتا مسترسلين جعداوين. واليهود هنا بقية جالية أكبر بكثير. ظلت إلى زمن متأخر[1] نسبياً كما كانت في كثير من قرى السوق البعيدة في مجاهل كردستان. وربما كان أول سكناهم يعود إلى السبي البابلي الذي وقع إثر هدم (نبوخذ نصر) هيكلهم الأول في أورشليم عام 586 ق.م.

ونظم لنا (سعيد آغا) حملة لصيد الخنزير في اليوم التالي. وجيء في الصباح الباكر بكل الكلاب التي تحويها القرى المجاورة، وهي ليست من ضخامة كلاب الرعاة الجسيمة التي يربيها البشدر والبلباس في الشمال، غير أنها قوية شرسة أنيط أمرها بـ(شكارچية) نشطين أخذوا يقرعون طبولاً صغيرة ليحافظوا على تجمعها. وانطلقنا على صهوات الخيول وبعد ساعة ترجلنا لنتوقل ممراً ضيقاً لا يصلح للحيوانات ولم نسلك سبيلاً واحداً من الدربند وإنما علونا الشق وشفرة السكين إلى (قوپى) ذات الغابات الكثيفة. وظهر الإعياء حتى على رفاقنا الكرد. وبعد فترة راحة قصيرة تقدمنا (سعيد آغا) إلى نقطة الانطلاق حين يفترض أن تقوم الكلاب بطرد القنيصة إلى جهتها وانتظرنا ولم يظهر شيء. وقتلت الكلاب خنزيراً صغيراً ولم يعثر على غيره. ثم إننا تناولنا غداءنا قرب نبع (كاني ئه ماره ت) نسبة إلى بقايا بناء قديم متداع قريب مقابل قمة صخرية بارزة من الحرف الذي يمتد إلى الأسفل ولقد أكد لي مرافقي أن الخرائب هي بقايا أسوار قلعة يبرز منها مقدار ثماني أقدام أو تسع. وفيها بئر.

و(كاني ئه ماره ت) هي عين من عدة عيون عملت بها ثبتاً في مناسبة أخرى

---

(1) ج.ب. فريزر: المرجع السالف، ج1 ص167 - 170، يقدم وصفاً دقيقاً لعبور (سه كرمه).

قبل آب 1936، عندما دخلت (قوپی) عن طريق (دهر بندى جافران) وسرت على امتدادها عدة أميال بحثاً عن مواقع مناسبة لإقامة مصايف حكومية وكان خير نبع هو (كانى زه رد = 4850 قدماً). غدا الموقع ساحراً بعد أن أقام (سعيد آغا) الأريب عدداً من العرائش. وهيأ وجبة طعام شهية تتألف من الدجاج المشوي على السفود والباذنجان المحشو والطماطم. وبعناقيد العنب الذي قطف تواً. لقد وجدت الصنف المسمى (موور) لذيذاً للغاية، ومهما يكن من أمر فقد رأيت أنه لا يصلح تطويره إلى مصيف جبلي، فالينابيع المستخدمة لإرواء حقول تبغ صغيرة ليست غزيرة الماء وإن كان يمكن زيادته بتوسيع فتحاتها، والشمس تلقي أشعتها عليه من وقت شروقها حتى غروبها، وتتضاعف الحرارة بالإشعاع من الجدار الجيري الذي يقوم خلفه، عندما أويت إلى فراشي في العراء تحت النجوم لم أتحمل فوق جسمي أكثر من قطعة قماش خفيفة وإن لذ لي نشر بطانية فوقي في ساعات الفجر الأولى.

ومن (كاني ئه ماره ت) عاد القسم الرئيس من حملتنا إلى قره داغ من أقصر طريق، على أني أقنعت (سعيد آغا) وآخر بمرافقتي إلى (ده ربندي گاور) إن كلمة (گاور) هي الشكل الكردي (گبر) الذي يطلقها الإيرانيون في يومنا هذا على الزردشتيين. ويطلقها الكرد على كل ما يعود إلى عهود ما قبل الإسلام أو ما هو وثني. إن التقارير المستمرة التي تردني جعلتني أؤمن بأني سأجد شيئاً من المنحوتات هنا. ولم يخب ظني فالنقش البارز الذي وجدته كان في باطن الفتحة وعلى وجه السفح الصخري ولم يكن يسهل بلوغه أو تصويره بالفوتوغراف والرسم الأساسي هو محارب ملتح ينظر إلى اليسار قدرت طوله بعشر أقدام ولحيته محلوقة في الجزء الأقرب إلى الذقن. ثم تسترسل بخصلات متموجة حتى تصل إلى مستوى اليد اليسرى المنثنية نحو الجسم ثنية أفقية فوق الحزام، ممسكة بقوس، وثوبه مفتوح أمام العنق وعضلات الصدر والعضدان، والمنكبان توحي بقوة صاحبها الخارقة ومتانة تركيبه الجسماني والحزام الذي يحيط بالخصر ذو أربعة خطوط متوازية تلمّ إلى الجسم ما هو أشبه بـ(تنورة) واليد اليمنى مجتمعة

على مقبض سيف صولجاني الشكل. وفي كل معصم سوار أو ما يمثل أهداب الكم. والساق اليمنى موترة والساق اليسرى مرتفعة إلى حد الركبة كأنما يهم صاحبها بصعود جبل. والصخرة المنحوتة تحت الرداء (التنورة) قد بليت بعامل من العوامل لكن يشاهد تحت كل قدم رسم شخص مستلق على الأرض حجمه يبلغ ربع حجم صورة المحارب وقدماهما منفرجان وجديلتا شعرهما متدليتان إلى أسفل من قمة الرأس ولقد كان النقش كله رائعاً مهيباً بما أودع فيه النحات من روح. ولم أتبين وجود كتابة مسمارية.

كانت صوري الفوتوغرافية ناجحة إلى حد ما وتمكن الأستاذ سدني سمث من المتحف البريطاني الذي كان آنذاك مديراً لدائرة الآثار العراقية من تحديد هوية هذا النقش. فوجده يشبه (مسلة النصر) الشهيرة التي أقامها (نارام سن) الأكدي تخليداً لانتصاره على (ساتوني) ملك شعب (للو) في حدود العام 2400 ق.م. كما يظهر من الكتابة فيها. وبصرف النظر عن القيمة الفنية الأولية للمنحوتة، فإن هذا الاكتشاف قد ساعد على تحديد موقع بلاد (للو) الذي كان إلى حد تاريخه موضع حدس وتخمين. كما أمكن أن يلقي ضوءاً جديداً على أهداف بعض الحملات عسكرية لعدد من الفاتحين[1].

إن وصفي هذه المنحوتة (قوپی) يجرني جراً إلى وصف رقوق آفرومان التي نوهت بها آنفاً.

---

(1) أول كتابات عن هذه المنحوتة الصخرية نشرت في (المجلة الجغرافية، مجلد 65 رقم 1)، وقد أشار إليها الأستاذ سدني سمث مع كتابه (تاريخ آشور القديم، ص94). إن مسلة انتصار (نارام سن) اكتشفتها بعثة آثارية فرنسية في (سوسه) حيث نقلت إليها كغنيمة حربية. وهناك صورة فوتوغرافية لها تزين جلد كتاب (تاريخ سومر واكد) لمؤلفه (ل.و. كنغ L.W. King = لندن 1910) وقد وصفت فيه بكونها من أجمل المنحوتات البابلية التي اكتشفت حتى الآن. وقد وجدت بين أنصاب وغنائم حرب بابلية أخرى، وأخص منها بالذكر المسلة التي نقشت عليها شريعة حمورابي. في بعض غنائم الحرب هذه كتابات أضافها إليها الملك عيلام تخليداً لانتصاره (غ.غ. كاميرون G.G. Cameron المرجع السالف ص19).

هذه الرقوق الثلاثة هي من رق الپارشمنت. الأولى والثانية مكتوبة باللغة اليونانية، والثالثة باللغة الپارثية. جاء بها إلى إنكلترا في 1913 الدكتور سعيد خان كردستاني. وابتاعها المتحف البريطاني منه بعد فترة وجيزة من قدومه[1] يقول الدكتور (سعيد خان) إنها وجدت في كهف جبلي يعرف بـ(كوهي سالان) قرب قرية (شارى هه ورامان) وكانت محفوظة حفظاً جيداً متقناً في جرة مختومة. ولعلها جزء من مجموعة كبيرة من الوثائق اختفى دون أن يبين له أثر. وفي ظهر أحد الوثيقتين اليونانيتين يوجد توقيع مختصر باللغة الپارثية يكاد لا يبين، ويظهر كأنه اختصار للنص الأصلي تسهيلاً للاطلاع والتمييز. والحجج الثلاث هي سندات بيع نصف بستان عنب (يظهر نفس البستان في كل صفقة بيع منها) وكل سند يوناني مكتوب مرتين جرياً على العادة الشائعة في الأزمنة القديمة: الأولى (أ) تحتل الجزء الأعلى من الرقعة ملفوفة لفاً حزيقاً ومشدودة بخيط يمر من ثقبي النهايتين وهي مختومة. والثانية (ب) تحتل الجزء الأسفل من الرق غير مشدودة أو مختومة لإمكان الرجوع إليها للتدقيق في أي وقت. وفي كل من المستندين يوجد فراغ بين الجزءين الأعلى والأسفل. والرق الأول مؤرخ في (225 من العهد السلوقي = 88 - 87 ق.م) أي أثناء حكم (مثريدات) الثاني الپارثي. والرق الثاني مؤرخ في (291 من العهد السلوقي = 22 - 21 ق.م.) أي أثناء حكم (فراتس) الرابع الپارثي. وأما السند

---

(1) يستند الملخص الذي قدمناه في السطور التالية إلى مقال كتبه الأستاذ (ي.هـ منس E.H. Minns) من كلية بمبروك، وكمبردج بعنوان (رقوق عن العصر البارثي) من (فرومان إلى كرستان)، نشر في مجلة (الدراسات اليونانية) سنة 1915. وإلى مقال آخر كتبه الدكتور (هـ س. نايبرغ H.S. Nyberg) في مجلة العالم الشرقي 1923 وبعنوان (الوثائق البهلوية من أورامان)، إن الرقوق المكتوبة باليونانية تلقي ضوءاً على عدة مسائل ذات أهمية تاريخية وقانونية ولغوية، فإلى ما قبل اكتشافها لم يكن أحد يدري أن اللغة اليونانية كانت في هذه البقاع خلال القرن الأول ق.م. لتدوين المستندات القانونية بل ولم يكن ليخمن ذلك تخميناً. وأنا هنا سأقصر اهتمامي على أسماء المواقع. إن الدكتور سعيد خان وهو كردي ينتمي إلى أسرة أرستقراطية بارزة في كردستان الإيرانية، وهو مسيحي الدين مستمر في مزاولة مهنة الطب بنجاح كبير في مجتمع طهران، وكان ابن له يعمل ضابطاً في سلاح الهندسة الملكي البريطاني معنا في (قوة نوربر Norper Froce).

الثالث الپارثي فهو أقصر بكثير من زميله وفي حالة أخلق وأرث. وإذا كان يوجد نسخة ثانية له فلعلها مزقت من فوق أو من تحت. وهو مؤرخ في (300 من العهد السلوقي = 13 - 12 ق.م.) في أثناء حكم (فراتس) نفسه.

وفي السندين اليونانيين توجد أسماء أربعة أمكنة. هي اسم بستان العنب موضوع البيع. واسم القرية التي تقع فيها (كومى) واسم المنطقة الإدارية (الهيپارچى). واسم مرحلة الطريق (ستاثثموس) حيث تم التوقيع على السندات بمحضر من الشهود. وفي السند الپارثي (الثالث) فقط يوجد اسم بستان العنب[1].

رقم السند	اسم بستان العنب	القرية	هيپارچي	مرحلة الطريق
1 - (أ)	داد بكانراس	كوفانيس	بايسيرا	بيث أبارتا
1 - (ب)	گانزا كى	كوببانيس	بايسيرا	بيث أبارتا
2 - (أ)	داد باكاباكك	كوپانيس	باسيره ورا	ديساكديس
2 - (ب)	داد باكاباكك، دات باكان (تعود إلى) كنجه كان	كوفانيس	باسيره ورا	ديساكديدا

إن المقاطع الأخيرة من الأسماء التي أعطيت لبستان العنب وهي (راس) و(باغ) تعني على التوالي (كرم وبستان) (في الفارسية الحديثة - رأس و - باغ وفي الكردية ره ز - وباغ؛ فهي على هذا الأساس قابلة للتبديل وليست أجزاء ثابتة في الاسم، وكما أنها لا تقبل التعريف كالكلمات اليونانية. إن اسم بستان العنب في السند الثالث، يفسر الفراغ المتروك في السند الأول بين قسميه الأعلى (أ) والأسفل (ب) (بالكردية الحديثة - گه نجه كان - معناها (كنوز) ولا سيما الكنوز

---

(1) وفقاً لحساب (منسي).

الدفينة) إن أسماء المواضع المردفة بلفظة (گه نج) شائعة جداً في اللغتين الفارسية والكردية. وكل الأسماء الأخرى ما عدا لفظة (ديساكديس) - في السند الثاني (أ) هي منصرفة. ولفظة (گانزاكي = گونجه كان) استخدمت بصيغة المفرد القريب. و(كوپانيس) و(كوفانيس) هي صيغة المفرد البعيد. أما الباقي فورد بصيغة الجمع البعيد (كلها صيغ صرف يونانية). إن ظهور اسم موضعين من إقليم قره داغ الغني جداً بالأحداث التاريخية، وهما (قوپى) و(باسيرا) الغريبان لفظاً من (كوپانيس) و(كوفانيس) و(بيسيرا) و(باسيره ورا) المثبتة في نصوص المستندات، هو شيء يلفت النظر بشدة. وثمة عدة اعتبارات تحملني على الاعتقاد بأن الملك العقاري الذي كان موضوع تلك العقود الثلاثة إنما موقعه هنا في قره داغ لا في (هه وراما‌ن) حيث تم العثور عليها.

1 - لا يعرف الدكتور (سعيد خان كردستاني) أسماء حالية لأي موضع في الأراضي المجاورة لمحل الاكتشاف تشبه الأسماء الواردة في الرقوق. كما لم أجد شخصاً ما يثبتها في قائمة خاصة بأسماء القرى للمنطقة القبلية في أواخر مسح أرضي (1942).

2 - في النصوص الإغريقية من المستندات ظهر اسم (كوپانيس = كوفانيس) في مكتبتين مختلفتين. ومع ذلك فهو يعامل كالأسماء الجغرافية المألوفة في النماذج التي تنتهي بصيغتي (آنى) و(ينى) وأعتقد أن صلة (آن) في هذه الصيغ اليونانية، هي دليل على أن الأسماء المذكورة تشير إلى مقاطعات إدارية وجدت أساساً أيام الحكم السلوقي. وظلت على حالها حتى العهد البارثي[1] ولذلك لا يكون مقطع (آن) جزءاً أصلياً من اسم الموضع الحقيقي.

3 - إن ممر (سه كرمه) الذي يقع في نقطة عبور الطريق السلطاني الشمالي والجنوبي بين بغداد وتبريز - لجبل قره داغ، وحيث يدخل المسافر مقاطعة (قوپى

---

(1) (و. و تارن W.W. Tarn دراسات سلوقية - بارثية في (وقائع أعمال الأكاديمي البريطانية)، مجلد 16.

= كويي) من الجنوب، يبعد (55) ميلاً عن غرب (كوهي سالان) وقمة هذا الجبل (ارتفاعها 8500 قدم) تبعد ما بين خمسة أو ستة كيلومترات إلى شرق الشمال الشرقي من قمة (هورامان = 9800 قدم) عبر نهر سيروان الذي ينحرف هنا فجأة حول (سالان) ثم يغير اتجاهه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. لكنه يبقى في الجانب الشرقي من السلسلة العظمى (لزاغروس) وإقليم (هه وره مان) هو اليوم كما كان في ماضي العهود مأوى الهاربين من إقليميْ (شهرزور وقره داغ).

4 - وبطبيعة الحال لا مندوحة لأي سلطة تحكم تلك الربوع من أن تقيم مرحلة طريق بحماية مخفر عسكري قرب هذا الممر الخطر الصعب وفي طريق هام جداً في هذا الجزء منه أو ذاك أو كليهما ربما كان في المركزين الإداريين الحاليين (كوپ تپه وقره داغ)، إن اختلاف الأسماء بين المستندين الأول والثاني لا تثيران أي مشكلة فما أسهل تغيير اسم هذا الموضع في فترة ست وستين سنة على تحرير المستندين ولعل طرفي العقد قد جاءا من مركزين مختلفين في كل مناسبة توقيع منهما، على ما يظن.

5 - و(سه گرمه) هو على بعد يقل عن خمسين ميلاً من كفري، وكفري التي تقع في السهل وحيث طريق الشمال يتصل بالطريق السلطاني من الموصل وأربيل وكركوك وطاووق، لا تبعد أكثر من (150) ميلاً عن بغداد، ولا شك أن هذه المنطقة أسهل تماساً بالتأثير اليوناني بقاعدته مدينة (سلوقية) (ثمانية عشر ميلاً جنوب بغداد) من تأثير البلاد البعيدة الوعرة التي تقع وراء حاجز (هه ورامان) العملاق.

إن كان اسم المقاطعة (الهيپارچى) محفوظاً في (باسه ره) حقاً فتخميني أنها كانت تتألف على الأقل من قضاء (بازيان) حسب تنظيمه في عهد العثمانيين من النواحي الحالية آغجلر، مركز چمچمال، سه نگاو، بازيان، بزيادة ناحية قره داغ وقرى (وارماوه) المجاورة مما يجعل منها وحدة إدارية طولها زهاء ثمانين ميلاً وعرضها يتراوح بين 20 و25 ميلاً، وتقطعها بالطول سلسلة قره داغ التي كانت هي

نفسها منقسمة إلى جزءين متساويين في فتحة (باسه ره). ولقد استندت في تخميني هذا إلى فقدان الدليل المعاصر في الاعتبارات الجغرافية، وإلى تجربتي الخاصة في إدارة تلك المنطقة. هنالك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن المقاطعات الكبرى (للساترابيات) في أيام السلوقيين والپارتيين إنما هي (الهيپارچى) وهذه الأخيرة كانت جزء الجزء[1]. على أن الإقليم الذي حددناه يبدو صغيراً لذلك أميل إلى الافتراض أن (الهيپارچى) قد تشمل لواء كركوك الحالي بزيادة الوادي الأول وراء قره داغ إلى سلسلة (بنزرد - به رانان) هي بالضبط المنطقة التي نديرها نحن الآن من كركوك. وإن طاووق بموقعها الأكثر مركزية من كركوك كانت أهم من الأخيرة في العهد الإسلامي لذلك يحتمل أن تكون المركز الإداري للمقاطعة[2].

من قره داغ عبرنا أرضاً أشبه بالحديقة على الجانب الجنوبي من (كالوش) وبلغنا قرية (سي وسينان) العامرة. وأقام لنا (كويخه نجم) وهو من أنصارنا في العام 1919، وحلفاء (سعيد آغا) المخلصين - مأدبة حافلة قبل خروجنا إلى قرية (علياوا) التي تبعد عن الأول مسافة ثلاثة أميال. وهناك وجدنا أرضاً صالحة جداً لضرب خيامنا. لقد أسلفت أن الكردي قلّ أن يعييه اختراع عبقري لاسم من الأسماء. وهذا ما دفعني إلى تحليل اسم قرية (كويخه نجم) ورده إلى أصول معينة بالطريقة التالية: (سى - وسى - نان) وهذه المقاطع تعني (السيد والرغفان الثلاثة) ولا بد أن هذا يشير إلى حكاية ولي الله الذي لم يكن يملك أكثر من ثلاث رقاق خبز في داره، إلا أنه كان قادراً دوماً على إطعام الضيوف مهما بلغ عددهم مع بقاء فضلات كثيرة منه. مثل معجزة تكثير الخبز والسمك في الإنجيل. ومثال آخر

---

(1) (كارن) المقال السابق.

(2) كتبت مقالتي «أسماء المواقع في رقوق آفرومان» المنشورة في مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية لجامعة لندن، 1952، مجلة 14 - 7. وأنا في عجلة شديدة لكي ينشر في مجلد من دراسات معينة تقدم للأستاذ مينورسكي في عيد ميلاده الخامس والسبعين. إن اقتراحي الذي أثبته هنا بخصوص ضيعة (إقليم) باسيره ورا، هو تعديل لفكرتي الأولى.

للمزجيات الشائعة عَنّ لي في هذه الرحلة، (باسه را) من (با) أي الريح، و(سه را) هو اسم الفعل من جذر (سرين) أي الكسح أو المسح، أعني الصوت الكاسح الذي يخرج من الريح عندما تقتحم المضيق!

لا بد أني قضيت ساعات بطولها أتحدث إلى الشيوخ عن الأمور المتعلقة بإدارة القضاء الجديد، فضلاً عن مسألة الشيخ محمود والسياسة الكردية بصورة عامة. فمنذ منتصف حزيران وأنا مشغول في تنظيم وتقوية الحزام الصحي. لم يكن الشيخ محمود أقل مني انشغالاً في محاولة اختراقه. ومرت أيام بدا فيه رصيده وكأنه بلغ أوطأ حد بحيث أشعر أن دفعة واحدة تكفي لإسقاطه وتمر أيام يسودنا فيها الخمول والتكاسل بنتيجة انحراف المؤشر إلى الجانب المعاكس بكل قوة. وكثيراً ما طالبت بعمل جوي أو حتى بقيام الجيش العراقي لاحتلال السليمانية. وهذا هو الجيش الوحيد الذي يحتمل سحبه بسرعة إذا ما وصل المدينة - وبذلك نصيب العدو بمقتل طلقة أخيرة أو نوقف العطن حسبما تفرضه علينا الحالة، إلا أن المندوب السامي كان يفضل تكتيكه السلمي. كنت من جهتي، أجهل الاعتبارات الواسعة التي تملي عليه هذه السياسة. هنالك عدة يوميات مدونة في ذلك الخريف تفصح عن نفاد صبري القليل بالأصل لما وصفته «برخاوة دوبس». كان الشيخ محمود خلال تلك الفترة يمطرني ويمطر المندوب السامي برسائل يؤكد فيها براءته الماضية والحاضرة والمقبلة من أي نوايا عدوانية، شاكياً أننا نسيء فهمه. وكانت الخطة الفضلى التي التزمتها دعاياته لمن يحيط به من الكرد هي أن البيانات التي تصدرها السلطات ضده والأعمال العسكرية التي تقوم بها، لم تكن إلا مناورات ظاهرية لأجل الرأي العام الدولي، بينما التفاهم موجود في الواقع، وأنه ما يلبث أن يعود لتولي زمام السلطة في الوقت المناسب. لذلك شعرت أن المسؤولين في بغداد، بريطانييهم وعراقييهم يظهرون من التساهل ما يفوق الحد باستقبالهم موفدين عنه كنت أنا نفسي قد رفضت مقابلتهما إيماناً مني أن قبولي في هذا الوقت بالذات قد ينسجم تماماً مع خطة دعايته وبذلك تضعف المعنويات في كل من

الحزام الصحي وكركوك. وما لبثت محادثاتي مع الشيوخ الموالين أن أيدت وجاهة الفكرة التي حملتين على اختيار (قره داغ) و(گل) لتكونا مرسحاً لأول جولة مسلحة لي. وبكلمة أخرى لإيمانهم بقرب إعادة (محمود) ولتلهفهم للمحافظة على مراكزهم كانوا يعملون كوسطاء فيما بيننا وأخص بالذكر (عبد الكريم) الذي جعل شعر رأسي يقف من منابته عندما أوضح لي بلهجة العارف ببواطن الأمور أن الروس الشيوعيين يسهمون الآن في اللعبة عن طريق (سمكو). والحكمة تقضي علينا باستخدام (محمود) دعامة لتثبيت وضعنا. وفي (قره داغ) أيضاً تسلمت رسالتين من الشيخ محمود ورضا بك صديقي منذ 1919، لا شك أنهما كتبتا باقتراح من أصدقاء الطرفين وكان في اختيار المرسل الثاني بعد نظر - وقد طلبا أن أحدد لهما موعداً للمقابلة، لكني بقيت أرى من الأنسب رفض الطلب.

على أني سررت باستقبال (الشيخ قادر) أخ الشيخ محمود في مضاربنا ومع النشاط المتزايد في حبك المكائد السياسية التي أتيت إلى وصفها فقد تقدم إعداد قوائم الانتخابات بشكل مرض وكملت قائمة (قره داغ) بأسمائها الأربعة آلاف. وحصل تقدم جيد في (سه نگاو) ورجع بضع مئات من سكان المناطق الخارجة عن الحزام الصحي، طالبين تسجيل أسمائهم، ووافق (قادر) بعد لأي على قبول ترشيح نفسه لعضوية المجلس التأسيسي، وقد أفادنا نجاحه فيما بعد وقدم دليلاً جديداً هاماً للهيئة الدولية، يدحض الزعم القائل بأن «الملك الطريد» يمثل الرأي العام الكردي حقاً.

وعاد كل من الشيوخ المجتمعين في (سي وسينان) إلى دياره واستتبعنا بلذة الراحة التالية في (علياوا). وخيل لعدد كبير من أفراد الشرطة أنهم يحسنون الغناء والعزف والتمثيل بصنفيه الجدي والهزلي، فكانت حفلة ممتازة، أمثال هذه المسامرات الليلية على نار المخيم ببرامجها المتسقة بإطراد أصبحت فهي من أهم مظاهر جولاتنا، وساعدت على شد عرى الشعور بالزمالة وروح التضامن بين أفراد القوة. إن تجميع القابليات المحلية في القرية أو المخيم ساعد على توثيق عرى

الصداقة بأولئك الذين يقصر نظرهم عن رؤية الفوائد والجوانب المرحة من ضروب نشاط الإدارة المحلية.

وسلكنا من (علياوا) سبيلاً صخرياً ليس وعراً يمتد بطول سفح قره داغ تحت قمة (زه رده) المشمخرة. وصعدنا حتى رأس ممر (په يكولي) وتمكنا هنا ونحن نتأمل الوادي شمال (ديوانه)، أن نشاهد الشعاب الثلاث (سولى) و(گوره قه لا = قلعة الكافر) نسبة إلى خرائب أثرية قرب القمة و(پاشرى) فوق سلسلة (به رانان)[1] كما راقبنا أول قوافل (جلالى جاف) تعبر (په يكولى) في رحلتها إلى جنوب، وثيرانها وحميرها موقرة بالخيم السوداء والمهود والأطفال والعمد وأسنار القصب وقدور الطبخ الكبيرة، وقرب السمن.

وقبل تركنا الموضع ترجلنا لنستريح عند المقدمة الجنوبية بالقرب من نصب (نرسي) التذكاري. وهنا لاحظت أن عدداً كبيراً من الحجارة قد زحزح عن مواضعه في العام 1919 بفعل تنقيبات هرتسفلد. وقضيت بعض الوقت ألتقط الصور الفوتوغرافية وأدون الملاحظات التي استفدت منها في كتابة الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب وأتبعنا بعد ذلك طريقاً وعراً في أعلى كتف جبل زه رده إلى (چه چه قه لا) وهي مركز للتصوف مشهور. وبعد وقفة أنجزنا خلالها الاتصال بالطائر توجهنا إلى (تپه كارووس) وهي قرية لروغزادى الجاف المستوطنين.

وفي صبيحة اليوم التالي انحرفنا جنوباً وقطعنا وادي (سه نگاو) حتى الفتحة الكائنة بين (آج داغ) وبين (بركاج) وهو امتداد (آج داغ) الجنوبي الشرقي. وفيما نحن ندنو منها شعرنا أن الصخرة التي تدوس عليها سنابك خيلنا ترن رنيناً غريباً كما لو كانت مجوفة الباطن وانتشرت رائحة كبريت نفاذة من عيون صغيرة لا تحصى. وكان يلتقي داخل الفتحة مسيلان شتويان أحدهما يصدر من الشمال الغربي والآخر اسمه (تافتاف) يأتي من الشرق وكانا في ذلك الوقت (17 تشرين

(1) يطلق على هذه النهاية من السلسلة اسم جبل «كوره قه لا» عادة.

الأول) جافين. ولاحظنا ينبوعين كبيرين يصدران من تحت طنف صخري أفقي يبعد أحدهما عن الآخر (120 يارد) وكل منهما على جانب من الفتحة ولا بد وأنهما المصدران الدائمان لنهر (آوه سپى) إن ماءهما الحليبي مثقل برائحة الكبريت ولعل الصبغة الخضراء التي شاهدناها فيها ذلك اليوم تعود إلى زرقة السماء فوقهما. وعلى مقربة منهما نبع آخر ماؤه صاف يسمى (ترش ثاو = الماء الحامض) وفي اعتقادي أنه محلول حامض الكبريت. إن النبع الكبريتي الكبير في سفح (آج داغ) ما أن يجري قليلاً حتى يشكّل بركة، شعرنا بدافع لا يقاوم للاغتسال فيها بعد أن أوحينا لأنفسنا أن ماءها شاف وفعلاً أصبنا حماماً منعشاً لذيذاً شابه التصاق بقع من الزيت بأجسامنا عند خروجنا. هذه البقعة كانت في زمن ما موطن قبيلة (ده لو). ويتفاوت تاريخ طردهم على ألسنة الرواة فيما بين أربعين ومئة سنة من وقتنا هذا. تقول الرواية: قام الزنگنة بشن غارة ليلية مباغتة على قبيلة (ده لو) انتقاماً لثأر قديم، وأوقعوا بهم مذبحة كبيرة أظهروا فيها شراسة غير مألوفة قط في عالم الحروب القبلية. وبعد أن دفنت (ده لو) قتلاها في قبر واحد بعثت بوفد كبير إلى كركوك لعرض شكواها وطلب الفدى. وانتهز (الزنگنة) فرصة غياب (الده لو) فنبشوا القبر وأخرجوا الجثث وملأوا الحفرة بما استطاعوا جمعه من كلاب وبغال وجمال نافقة، ثم أسرعوا في أعقاب المشتكين إلى كركوك وطلبوا من السلطات أن تقوم بإجراء تحقيق دقيق في التهمة الظالمة التي لفقها عليهم أعداؤهم الألداء - فأجري الفحص على القبر وكانت النتيجة في صالح (الزنگنة) فاقترح قاضي التحقيق ترحيل (الده لو) قسراً إلى منطقة كفري وما يليها وهكذا دخل قاموس اللغة مصطلح (زنگنة بزيى = غش زنگنة) لكل حيلة ماكرة من أي نوع كان.

في اليوم التالي عقبنا الضفة اليسرى من (ثاوه سپي) متجهين إلى الجنوب الغربي وبعد أن عبرنا ثلاثة غدران عريضة محصبة هي (ما مسران ولاهيز وميردولات) انحدرنا غرباً من عقدة (دارى خيلا) وبلغنا مرحلة الكروان الشهيرة

(إبراهيم خانچي) وتمتعنا هنا بحمام لذيذ في بركة منفصلة نوعاً ما عن سائر النهر الذي فقد هنا كل أثر من كبريته وزيته. وفي الجوار قريتان منفصلتان تبعد إحداهما عن الأخرى نصف ميل كل قرية تعود لواحد من آغوات الزنگنة (عبد الكريم) و(حمه كريم) المتنافسين وكلاهما معتقلان على سبيل التحفظ في كفري، إلا أن أولادهما كانوا قد خرجوا إلينا يتنافسون في استضافتنا. فلم نر بداً من ضربنا الخيام بين القريتين وقبلنا دعوة الغداء من جانب، ودعوة العشاء من جانب آخر.

ومن (إبراهيم خانچي) أخذتنا مرحلة متعبة مملة عن طريق قرية آل زنگنه (ثاوباريك). إلى قرية الشيخ (جلال الطالباني) اسمها (فرهادبكك) وكان هذا قد رحل إلى بغداد مرتين معترضاً على استحداث ناحية (گل) وانتهز الفرصة لزيارة عيادة طبيب أسنان دجال كان يربح أرباحاً طائلة من إقناع أغنياء الناس، بإكساء أسنانهم النخرة منها والسالمة برقائق الذهب وكانت النتيجة وبالاً على أسنانهم وصحتهم العامة. ولم تؤثر حربه لمشروعي العزيز في الإصلاح الإداري على حرارة لقائنا. وحياني بمودة وقبلني من كتفي وقد وجدت بشكل عام أن مظاهر الود مهما كانت السرائر، تؤذيني أكثر مما تؤذي صاحبها. إلا أن للسلوك الأثر الأعظم. وقد علمتني تجربتي بين الإيرانيين والعرب والكرد على حد سواء أن المرء منهم لا يحمل ضغينة على السلطة التي أدبته أو أوقعت به عقاباً يستحقه ويعلم في سريرته أنه جزاء وفاق لخطأ ارتكبه. وإن كان موقفه يختلف إزاء فرد من أبناء قومه ظن أنه الواشي به أو سبب نكبته. وبعكس ذلك يذهب إلى أبعد الحدود المتصورة لإطفاء جذوة انتقامه إذا شعر حقاً أنه ضحية ظلم مدبر أو مقصود.

بعد تناولنا العشاء راح (شيخ جلال) يقص حكايات كثيرة عن كهف واسع في (آج داغ)، وقال إن الوصول إليه ممكن بممر مقوس من مدخل الشعب قرب (قم مملحة). وذكر أن في الكهف مدينة كبيرة كان فيها على ما يبدو شوارع وصهاريج وبيوت وأسواق بل حتى أشجار! وزاد أحد الجالسين في زعمه أنه دخل إحدى دكاكين تلك المدينة السفلية ولمس بيده ما خاله صرة من القماش فتناثرت رماداً

في الحال. كما رأى نبع ماء يخرج منه ثلاثة أنهار هي (آوه سپى) من الجنوب الشرقي ونهر (قم مملحة) من الشمال الغربي و(قه يتول) من الجنوب الغربي. وأنه يمكن دمج ماء أحدهما بالآخر برفع آجرة واحدة. وزعم آخر أنه وجد طبعة قدم عفريت لا تخطئها العين. وهذا ما استنكره الشيخ بشكل حاد وختم به المباراة! مهما تكن هذه الحكايات المتداولة مغرقة في الخيال، ففي اعتقادي أن (آج داغ) مليء بالكهوف، ولا شك أنها ستكون يوماً ما موضع اهتمام عالم من علماء سكان الكهوف. وكنت أود أن أتاخر لأقوم بجولة تفقدية لها. لكن الريح التي بدأت تهب كانت تنذر بهطول أول أمطار الخريف الغزيرة. وكان ضرورياً أن نصل كركوك في اليوم التالي قبل أن ينقطع الطريق من (ليلان) وما بعدها - حيث كانت سيارتي بانتظاري.

لم أجد ما يلفت النظر في الطريق بين (فرهاد) و(ليلان) لكني سأضيف كلمة فحسب عن زيارة أخرى لهذا الإقليم في النصف الأخير من تشرين الثاني إكمالاً لوصف (گل).

في (قادر كرم) شاهدت منظراً عجيباً، كنت أجالس (شيخ عبد الكريم) في عريشته وإذا بنا نسمع أصواتاً مختلفة بين غناء وقرع طبول صارت تعلو باقترابها منا. حتى ظهر للعيان جمع من القرويين والدراويش (الخيرون يمكن تمييزهم من نظراتهم الزائغة وشعورهم الطويلة المشعثة) بدوا فوق عارضة جسر منخفض غير بعيد عن القرية. وكان يتقدم الموكب قارع طبل وناقر دف وكان الطبل (ده هول) محمولاً على ظهر رفيق ثالث. وما استقر بهم المقام في الساحة التي تقع أمام ضريح (شيخ محي الدين) والد مضيفي حتى انتظموا حلقة واستمروا في الغناء والزفن بهز الرأس إلى الأمام والخلف هزات عنيفة، حتى يخيل للمرء أدمغتهم ستسيل من جماجمهم. والظاهر أنهم مريدو (الشيخ عبد القادر) الذي رويت قصة موته في مبدأ هذا الفصل. وهؤلاء الجماعة كانوا في طريقهم إلى (كربچينه) لزيارة ابنه وخليفته، بعد عودة الأسرة المفجوعة من (هه ورامان) مؤخراً.

بعد يوم أو يومين وجدتني في (ثاوباريك) ثانية، على بعد (14) ميلاً تقريباً إلى الجنوب. فانتهزت الفرصة لتفقد موضع طالما سمعت به يدعى (خورنه وه زان = حيث لا تشرق الشمس قط) وظهر لي أنه (گه لى) صغير ينحدر من ناحية الشمال إلى (أوه سپي) بنقطة تبعد مسافة 4 أميال تقريباً عن جنوب القرية حيث يجري النهر غرباً بين جرف جيرية سامقة شاقاً طريقه خلال جبيل (مازوخ) الممتد من الشمال إلى الجنوب. وصعدنا في أخدود ضيق جوانبه مخضرة بنبات الأشنة والخنشار خلال أشجار متكاثفة من التين والرمان والسماق. هذا الأخدود ينتهي بجدار عمودي يسقط منه شلال صادر من نبع قريب للقمة وكان لتساقطه مائة جرس منغوم خفيف إذ يصطدم دراكاً بحصى ذات لون قاتم كأنها كتل حديدية، وكان الهواء رخياً تمازجه رائحة النعناع وما إليه من الأعشاب العطرية. موقع كهذا لا يجتذب اهتمام سكان الهضاب والجبال الشمالية، لكن هنا في قدمات الجبال الموحشة الجرداء يبدو ذا سحر فريد في بابه. ومن غير المستبعد أنه كان موضع خلوة قدسي في عهود الوثنية. عدت من حيث جئت بعد قضائي يوماً وليلة في النتوء الذي يحتضن قرى الداوودة (وجه الغرابة أنه يدعى داوده كردسان) حيث أنجزت تحقيقاً في نزاع بين السكان الأصلاء والمستوطنين الجدد النازحين من (روغزادى جاف) ويمّمت غرباً فعبرت (مازوخ) على مساحة أربعة أميال تقريباً جنوب (خورنه وه زان) ويبلغ ارتفاع القمة عن الطريق 2000 قدم (أعني أنه يقوم على ارتفاع 800 قدم عن مستوى النهر) وكان منظراً متسلسلاً لا يعترضه عائق من الشمال الشرقي فوق قدمات الجبال حتى قره داغ وجبال إيران ومن الغرب حتى (آوه سپي) الذي يخترق سهل (ده شتي ياته كي) الواسع إلى الفتحة التي تميل أول سلسلة متطامنة بمحاذاة الطريق المرتفع عن طوز خورماتو والتقينا هنا بقرويين كانا قد حالفهما الحظ بصيد ثعلب فضي الفروة بأن اضطراه إلى ترك جحره بدفع الدخان فيه. وقضيت تلك الليلة وما تلاها في (شاوري) الواقعة على السهل قرب النهر ضيفاً على (عزيزي عباس) أحد الأغوات الثلاثة الكبار في (داووده) وقضينا

يوماً ممتعاً في صيد القطا ومن بعد هذا قل خجل هذا الرجل العجوز كثيراً من مراجعة الحكومة - وزادت جرأته في دخول دوائر الدولة.

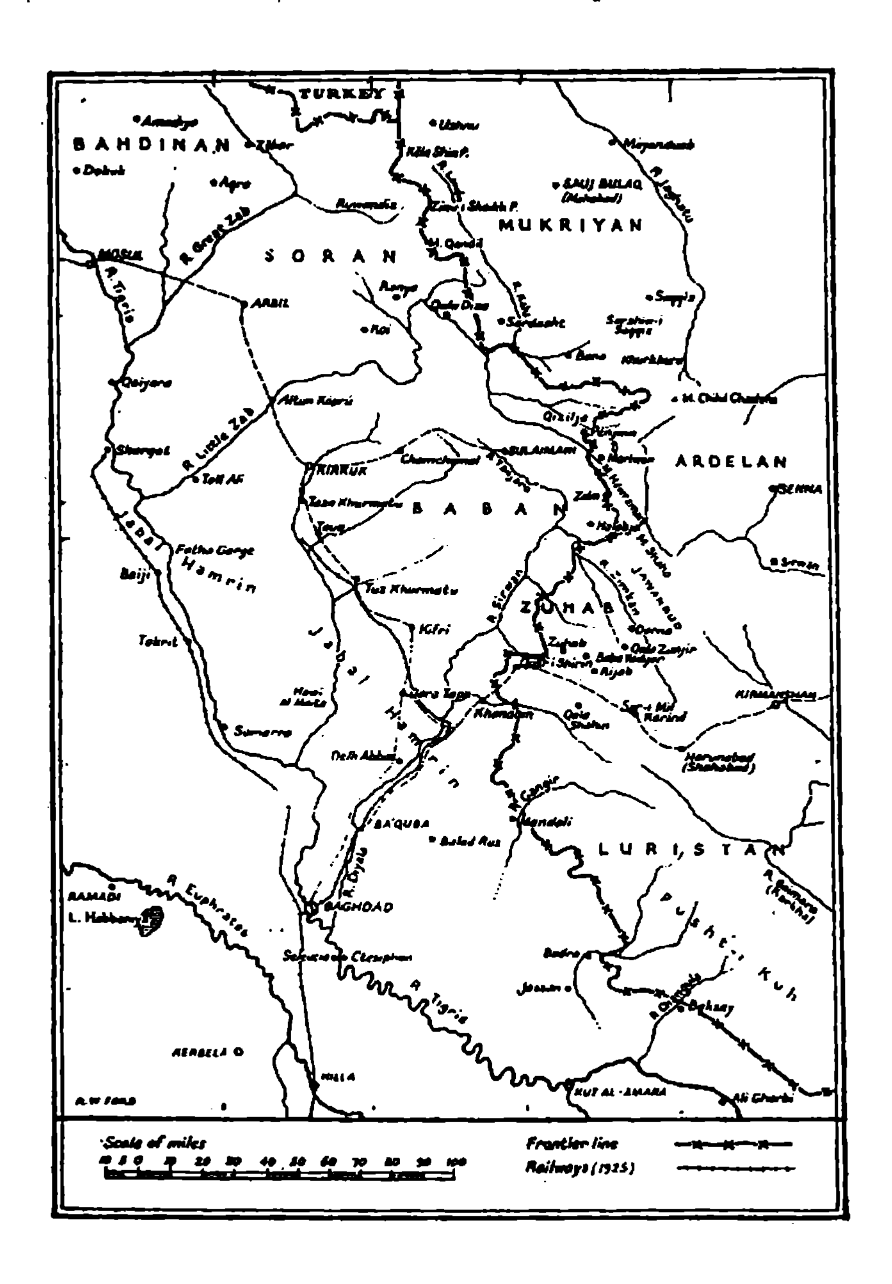
وسرنا في طريق هين من (شاورى) عبر سهل حتى الفتحة. والنبع المحلي الذي سميت باسمه (طوزخورماتو) و(طوز) بالتركية معناها (ملح) ومنه استمدت البلدة بعض أهميتها وقبل العودة إلى كركوك بالسيارة، انتقلت إلى كفري لمقابلة الميجر أليك هولت Alec Holt من سلاح الهندسة وكان قد وصل لتوه. لأجل المباشرة في مد خط السكة الحديد من (كنگربان) إلى كركوك. ولقد أكمل عمله قبل الموعد المقرر بعدة أسابيع. وبهذا أسدى خدمة اقتصادية قيمة للعراق، فضلاً عن قيمة عمله من ناحية النتائج السياسية في خضم الكفاح الدبلوماسي الذي كان المستقبل سيكشفه مما سنذكره في محله المناسب.

- 25 -

عودة إلى الجاف وحلبجة

أزف الوقت الآن لتوجيه المزيد من الاهتمام بالجزء الجنوبي الشرقي من (الحزام الصحي)، وأمامنا هدف محدود وهو السيطرة على المناطق طِوار خط سلسلة (به رانان) عند نهاية (سيروان) وهذا يتضمن كخطوة أولية - إعادة جهاز الإدارة في ناحية (وارماوا) وكخطوة ثانية فرض سيطرة الحكومة على الجاف البدو الذين انحدروا الآن إلى مشاتيهم، بجباية المتأخر من ضريبة الأغنام، وإنجاز إحصاء جديد لها للسنة المالية الحالية واعتقال أشخاص معينين تتعقبهم الشرطة ووقع الاختيار على (حسين بگى حسن بك) رأس الفرع الأصغر من أسرة (كيخسرو بگى) ليتولى مديرية ناحية (وارماوا) وكان بإمكانه مباشرة الإحصاء بدعم محلي لأنه مالك عقار هناك. كما أنه أظهر دون سائر البگزادة مسلكاً في أحداث 16 آب. وأما منصب وكيل الجاف الرسمي فقد ظل (كريم بك) يتولاه بوصفه أقدم البگزادة الساكنين في الجنوب. وكان الوضع في حلبچة غير مرض على الإطلاق رغم انسحاب حامية (الشيخ محمود) السريع في آب. وهكذا ففي الوقت الذي رحت أفضح خطتي، قام أعيان البگزادة وعلى رأسهم (أحمد وعزت وحميد) بزيارة السليمانية لإعلان ولائهم (لملك كردستان). فما كان مني إلا أن تركت كركوك في 7 كانون الأول على رأس كل قوة الخيالة المتحركة التي هي بأمرتي وكان معي (مراد وبرجس) كما جاء النقيب (س. وايت. S. White) الأسترالي بدلاً من (كراودن) بصلاحية مفتش شرطة. وأخذت معي النقيب (ي. س. هـ. البان

E.C.H. Alban خلف (چاپمان) في كفري بسبب غيابه في الإجازة وتقرر أن تكون (كفري) قاعدة تقدمنا ولم نشأ سلوك طريق السيارات وإنما توجهنا في ثلاث مراحل بأقصر طريق داخل السلسلة الأولى وخلال (ليلان وچاورى) قاطعاً الطريق الذي كنت قد سلكته أولاً في عدة نقاط، وملاقياً معظم السكان الذين لقيتهم أولاً.



وفي كفري تسلمت برقية من المندوب السامي جاء فيها: «نظراً لأن الشيخ محمود خرق الشروط المفروضة عليه مرات عديدة، ولتواتر الدلائل على نياته العدوانية فقد اقترح فخامته استنفار القيادة الجوية البريطانية لقصف السليمانية بعد الإنذار الاعتيادي طبعاً. «وقد رحبت بطبيعة الحال بهذا القرار متحمساً وهو في رأيي متأخراً كثيراً». على أنه لم أجد أي داع لإدخال تعديل على الخطط التي كنا قد رسمناها لقوة الخيالة».

بعد سدنا نقص مخازن أرزاقنا عند رأس السكة الحديد في 12 كانون الأول، انطلقا لطيتنا فعبرنا فتحة الجبل المتاخم لشمال البلدة ثم انحرفنا نحو الجنوب الشرقي لنعسكر في شاكال. ونظراً لامتداد حقول الزرع امتداداً واسعاً حول (قره تپه) فقد أصبح حداً جنوبياً لمدى رحلة الجاف. ورتبنا مع القوة الجوية زيارات عديدة لنا. وفي اليوم التالي حقق الملازم الطيار (إريك راوث Eric Routh) من السرب الثلاثين هبوطاً رياضياً. في حقل محصود تواً قرب منزل (كريم بك). والطائرات من طراز D.H.9.A في وقتها لم تكن مجهزة بآلة قدح ذاتية. وكل من قدر له كثرة الطيران صار يحذق بعض الشيء ما أسميه بإدارة مروحة المحرك باليد وأكثر الرجال خبرة هو الذي يقوم بتدويرها، بينما يقف ثلاثة أو أربعة لمعاونته في تدويرها بصورة أسرع ولجر زميلهم الأول خارج منطقة الخطر حالما تدب الحياة في المحرك وتدور المروحة بسرعة من تلقاء نفسها وقبل أن ترديه شفرة منها صريعاً. وقبيل خروجي من (كه لار) وصلتني رسائل من حلبچة ظهر منها لي أن (أحمد وعزت) قد سمعا بجولتي يوم كانا في السليمانية يجثوان أمام عرش (محمود) فخفا إلى مقرهما مسرعين وهما يريدان التأكيد لي أنهما لم يقصدا السليمانية إلا عندما أعلنهما بوصولي إليها وكتبت (عادلة خان) أيضاً تقول إنها ستسافر إلى قرية (فقي جنه) التي تقع على القدمة الجنوبية لمضيق (پاشارى) فوق (به رانان)، وكانت مركز ناحية (وارماوا)، لأجل مقابلتي.

إن مراحل سيرنا الثلاث الأول من (كه لار) أدت بنا إلى أرض وعرة غرب

سيروان شمالاً بامتداد الطريق الذي سلكته السنة 1922 أو بالقرب منه. وهي في الخرائط أرض خالية لا علامة فيها. لكن القوة الجوية قامت بتزويدنا بنتائج مسح جوي جيد نوعاً ما قبل بدء سيرنا فأعاننا كثيراً وتمكنا نحن من إضافة أسماء مجرى المياه والآكام والقرى إلى هذا المسح.

وأمضينا أول ليلة لنا مع (شاتري) في (كاني چه قه ل = عين ابن آوى) قرب فم أحد قيعان تلك المجاري العريضة المفروشة بالحصباء المنحدرة من وادي (خيلا) وأمضينا ثاني ليلة مع (الهاروني) في سهل (پيواز) (وارماوا آنذاك) وبتنا الثالثة في ضيافة (هاروني) آخرين في (كاريزه) التي تبعد مسافة قليلة عن هاروني الأولى وكان الطقس رفيقاً بنا، والمناظر الأخاذة تتعاقب أمامنا كلما غذذنا السير شمالاً فوق الأرض المتعادية. فهذا هو مضيق (ده ربندى خان) حيث يخرج (سيروان) من بين قمم (به رانان). وهاهنا قمة (خوشان) الحدباء العظيمة. و(به مو) الشاهق بأخاديده الهائلة، وتلك هضبة (باوه يادگار) الجميلة الأنيقة. يليها قمتا (داله هو) و(گلهور) المصطبغتان بلون الورد الزاهي وقت الغروب وكان المنظر كله يبدو متحركاً على نفسه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي في دورة ذاتية أثناء ما نحن نتقدم. في حين كان مجرى النهر الذي هو عن يميننا مباشرة زاهياً بألوان الخريف من أشجار الصفصاف والطرفاء.

وفي الصباح عندما نرفع خيامنا يندفع الأطفال والنسوة في غزوة لأرض المعسكر المتروك لاستعادة ما استعرناه منهم من قدور الطبخ وقرب الماء، ويجمعون ما ألقينا من علب الصفيح والزجاجات الفارغة فلكل وعاء قيمته عند البدو الرحل. إن زي النساء يتألف عموماً من سراويل واسعة فضفاضة تعمل من قماش أزرق أو أي لون آخر قاتم مكورة قرب الكاحلين ليكون شبيهاً بانتفاخة سروال الكولف السلفى. وكذلك من قميص طويل أو اثنين من القماش نفسه. تعلوها سترة ضيقة قصيرة وعدة مناديل من الحرير تشد على الكتفين مثل رباط الكشافة، وعمامة قاتمة أو ملونة حسب سن المرأة. ويشد حول الخصر حزام

تتوسط حلية ثقيلة من الفضة المسبوكة. والفتيات الصغيرات يضعن على رؤوسهن طاقيات ذات ألوان زاهية وذات أهداب تخاط بها سلسلة من النقود الفضية وهي تقوم مقام العمامة.

وأدهشني أنْ رأيت مضارب الجاف تبعد كثيراً عن مجاري الماء في أغلب الأحيان. لما كان عامل الزمن ثانوياً فلا حرج في أن تساق الحيوانات أو أن تركب وتؤخذ إلى أقرب عين ماء أو مسيل. والإناث من كل الأعمار مدربات أحسن تدريب وفي كل الظروف على حمل قرب الماء المبللة مسافات كبيرة. والكميات التي ينقلنها كافية للشرب والوضوء المختصر قبل الصلاة، ولحاجة الطبخ وغسل بعض الأواني لكن الأمر كان مصدر إزعاج لنا، حتى اضطررنا أكثر من مرة إلى إجراء تغيير في خططنا فلا نعسكر قرب القبيلة التي نريدها، بل نؤثر أخرى أقرب إلى الماء.

لم تكن مهمتنا سهلة تماماً، فالهاروني كانوا بنوع خاص ثائري الخواطر إلى حد الانفجار حول مسألة صغيرة تتعلق بالضريبة المتأخرة، حتى اعتقلنا عدداً من أشد (الكويخات) عناداً وأخذناهم معنا وتمت جباية كل المتأخر حالاً وأخذ ضمان ممن لم يدفع.

وفي مساء الليلة الثالثة ساءت حالة الطقس، واتجهنا صباحاً إلى (توون باوه عه مره) وهو جبيل يبلغ ارتفاع إحدى أعلى قممه 3650 قدماً. ويمتد بمحاذاة (قره داغ) وكانت الأرض كلها متلفعة بضباب اسكتلندني مثقل بالندى. وكنت طبعاً أريد الوصول إلى مركز الناحية (فقي جنه) إلا أنه بلغني عن وجود الشيخ محمود في جنوب شرق (شهرزور) فوجدت من الحكمة ألا أتخطى شمال مضيق (به يكولى) لئلا يسرع بعبور (پاشارى) دون أخطار ويسعى إلى مقابلتي التي سبق لي أن رفضتها وقد يكون في هذا أيضاً إحراج مضاعف لعلمي أنه قد يقصف من الجو في أية ساعة. لذلك أرسلت رسالة إلى (عادلة خان) معبراً عن أسفي لنكولي عن الموعد، إلا أن ذلك لم يثن من عزمها رغم سوء الأحوال الجوية وسنها المتقدمة

(68 عاماً). فعبرت مضيقي (پاشارى) و(پە يكولى) على ظهر حصان ووصلت ظهراً (پساركان) التي تبعد زهاء ميلين أو ثلاثة جنوب (نصب نرسي) الأثري وبرفقتها أبناؤها وبطانة كبيرة. لاحظت أنها لم تهمل العناية بنفسها وهندامها قبيل وصولها كذلك الابنان اللذان لم يضيعا وقتاً في تغيير ثيابهما الموحلة بثياب حريرية نفيسة. وكانا كثيري التوجس والقلق في محاولتهما تبريري مسلكهما الأخير. وتركتهما أمهما الماكرة آنا، والحيية آنا - يستأثران بمعظم الحديث في حين راحت بين الفينة والفينة تدعم أقوالهما بعبارة:

- (به خوا وه هايه ئه ري وه الله ئه ري والله) والله هي الحقيقة، تلك هي والله. ثم انتقلا بالتدريج من الاعتذار عن الماضي إلى الاختيال بعظائم الأمور التي سينجزانها من اليوم فصاعداً. وألحفا بطلب تعيينهما في الوظائف التي فصلا منها على إثر إخلائنا السليمانية برواتب مناسبة. ولم يقع الرفض وقعاً مفاجئاً لهما. أوضحت لها بلهجة جازمة أن مدير ناحية (وارماوه) الذي ستعزز قوته غير النظامية ببضعة عشر شرطياً نظامياً ستكون صلته بكفري لا بحلبچة.

وفي صبيحة اليوم التالي وبعد مقابلة أخيرة مع (عادلة خان) وابنيها تركنا (پسار كان) قاصدين (بكر بايه ف) وهي مجموعة تتألف من ثماني قرى يملكها شيوخ (سوله). كانت الأرض كلها ملفعة بالضباب الكثيف والمطر يهطل مدراراً. ومجال الرؤية لا يعدو بضعة ياردات، فيتعذر تماماً القيام بملاحظات طوبوغرافية ذات قيمة ونحن في طريقنا نصعد وننزل في طريق شديد المنحدر. وليس ثمة عمل أصعب من نصب الخيم المبللة تحت سيول دافقة من المطر وعلى أرض استحالت بحراً من الطين ولقد استخدمنا خيامنا للمبيت إلا أننا أرسلنا الشرطة إلى القرية. وبعد إنجازنا كل شيء قررنا أننا نستحق جرعة منعشة حارة ولما تبين لي أن آخر زجاجة ويسكي جئنا بها من كركوك قد فرغت قبل ليلة. أمرت (حمه علي) بفتح صندوق جديد كنا قد تسلمناه مباشرة من مخزن النافي N.A.A.F.I.[1] في رأس

(1) مخازن بيع لأفراد الجيش البريطاني وترمز إلى الأحرف الأولى من الاسم إليه. (المترجم).

السكة الحديد. وبعد لحظات عاد وقد جحظت عيناه كأنما رأى شبحاً وهتف قائلاً: «صاحب! ويسكى نيه، بارته!» كان من عادة (النافي) أن يسد الطلبات التي ترده من مختلف النوادي ويضع المواد المطلوبة في أي صندوق يقع تحت يده لذلك وضعوا كمية من قناني الشراب الذي طلبه سكرتير نادينا في كركوك بمناسبة عيد الميلاد، في صندوق ويسكي. فسلموه لنا عوضاً عن المطلب الحقيقي بمحض الخطأ. ولا شك أن (البورت) شراب ممتاز، إذا تلقاه المرء في المناسبة المكانية والزمانية، إلا أنه تعويض تافه جداً عن ويسكي (جون هيغ ويلاك أند وايت). إن معظم الضباط العثمانيين السابقين الذين دخلوا الخدمة هنا، قد يستمتعون بين الفينة والفينة بليلة سعيدة بتعاطي (الكيف) وهو شعور النشوة التي تبثه كحول الخمر والمشروبات الروحية في جوانب أنفسهم لطيب المعشر وحسن المجلس الذي يتضمن ذلك. وتكون أولى كأس أو كأسين هي (الأساس) فحسب، وتعد ضائعة إلا إذا أعقبتها كؤوس إضافية عديدة لاستمرار النشوة. وكان (مراد) من أولئك في ذلك الحين (ما لبث أن أقلع عن العادة تماماً) وكنا قد جلبنا كمية من الخمر المحلية المعروفة (بالعرق) وربما كان هذا مكراً منا وأملاً بأن ذوق مراد المتساهل سيرضى به، ويجعلنا نستأثر بالخمر النادرة طوال رحلة بعيدة عن أي مركز تموين. إلا إن النجاح لم يكن حليفنا هذه المرة ومع تأكيدي له أن نوع الخمر لا أهمية له قط عند مدمن الخمر القوية، فقد أصر أن يشرب من «ذاك الأحمر»! وكنت كثير الود له فنزلت عند رغبته ولكني لم أستطع حبس آهة حسيرة، وأنا أرى بنت الكرم التي كانت ستتوج مأدبة عشاء عيد الميلاد بعد أسبوع، وهي تجري دهاقاً إلى جوف ساقية صغيرة أخشى أن أصفها بالساقية التي لا تميز طعوم الخمر! وكان المطر ينصب سيولاً طول الليل بلا انقطاع. ورفع الخيام المبللة لا يقل سوءاً عن تثبيتها. على أن الغيوم انقشعت أثناء سيرنا إلى الشمال الغربي. وترجلنا للغداء في مضارب جماعة من (روغزاوى جاف). وبدا الهلع الشديد على كويخه (أحمدى شاسوار) عند وصولنا لكن سرعان ما أفرخ روعه، واستقبلنا هذا العجوز الظريف استقبالاً كريماً في خيمة من الشعر حسنة

الموقع وأغدق على الشرطة الطعام الكثير وتعهد بدفع متأخر الضريبة في غضون أسبوعين. وتركناه ودخلنا أرضاً وعرة للغاية معظمها على شكل مسطحات مدرجة معشوشبة صغيرة المساحة بين أطناف منقلبة من الصخر الرملي، وبعدها بلغنا مضارب (الميكائيلى) على المجنبة الجنوبية لجبل (برگاج) الذي لا يبعد عن منابع (ثاوه سپي) وبعد ذلك عدنا إلى (سه نگاو).

وفي اليوم التالي واصلنا سيرنا في الاتجاه نفسه فترة من الوقت، لكي نزور مضارب ثانية (للميكائيلى) قريبة من قاعدة (آج داغ) ثم استدرنا إلى الجنوب الغربي وبتنا الليلة قرب قرية (كوييك) التابعة لجبل على (ثاوه سپى) في مضارب (روستمي حسن حاجي قادر)[1] أغنى وأبرز كويخات (الميكائيلى) وهو رجل وسيم أنيق يلبس الحرير الغالي كالبگزادة، إلا أن لحيته محفوفة من أسفل نهايات الشفتين وتحت الذقن مشذبة على الطرز الشائع بين رجال القبائل الاعتياديين الذين يبذلون عناية كبيرة بمظهرهم الشخصي. وفي هذا الموقع أسقطت طائرة الاتصال زجاجتيْ ويسكي تلبية لنداء عاجل منا يوم أمس لقد وضعتا في كيس محشو بالقش فسقط أحدهما سليماً ووجدنا الزجاجة الثانية مكسورة لأنهم وضعوا معها في الكيس علبة سكاير من الصفيح ذات خمسين سيكارة.

وكانت مرحلتنا الثانية نحو الجنوب مرحلة طويلة فوق (كه ورى) وهو ذراع طويلة قذفت بها عقدة جبال (دارى خيلا) نحو الغرب، ثم سرنا في أوعر وأجرد جزء من أرض جبلية لنبلغ (ناوه). وعاد الطقس إلى صفائه وروعته. ولم يكن بمستغرب أن تخطئنا الطائرة في هذه المتاهات من التضاريس الأرضية العجيبة وإن كان رتلنا طويلاً.

بعد تركنا (ناوه) بقليل انحرفنا عن قصدنا لزيارة شخصية هامة، وهو (سليمان خان) كويخه روغزادى الذي كان قد استوطن إيران وأثرى، في المراعي التي

(1) وهذا مثل جيد لذكر كل من اسم الأب والجد للتأكد من عدم حصول أي خطأ في هوية المسمى.

تخص قبيلته وبعد سنوات غضبت عليه السلطات فعاد إلى حياة البداوة. سبق لي أن ذكرت أن مدنية إيران القديمة في أقاليم الحدود تبدو برة سمحاء لمن تحيط بها فتؤثر فيهم ويظهر سلطانها في أسلوب الحياة اليومية وعالم الأدب والهندسة المعمارية، وتصقل من النفوس، وكل هذا حرم منه أولئك الذين خضعوا للمؤثرات العثمانية لا غير. و(سليمان خان) خير نموذج لهذا. كانت خيمته مفروشة بأجمل السجاد والرياش والفرش المكسو بالحرير.

وفي أحد أركانها (سماور) جميل يتصاعد منه البخار، وأكواب الشاي ذات شكل غير مألوف ومن نوع ممتاز جداً ملبسة بأطر فضية مخرمة، من أجمل ما أخرجه صاغة أصفهان.

وكانت تلك الليلة نهاية جولتنا في مضارب (شاترى)، بالقرب من (هومه رمل) التي تبعد زهاء عشرة أميال عن كفري، ووجدت التقويم يشير إلى 22 كانون الأول لكن شمس أمس وقبله كانت دافئة، وقد محت من ذاكرتنا متاعبنا السابقة. وهنا ألقيت على الشرطة خطبة قصيرة حول الغرض من جولتنا والنتائج التي حققناها وكانوا يتمتعون بروح عالية ونشاط جم ونظموا أبدع مهرجان هزلي. حتى إن الموقوفين الذين جلبناهم معنا، وأفسحنا لهم موضع الصدارة في الصف الأمامي نسوا حرياتهم المقيدة في سرورهم بما يشاهدون. ولم يعد يهمهم تدبيرنا في إجبارهم على دفع الضرائب التي كنا شبه متأكدين بأنهم جمعوها من أفراد قبائلهم وكانوا يأملون أن يحتفظوا بها.

وفي كفري علمت أن يوم عيد الميلاد هو اليوم الذي تقرر فيه قصف (الشيخ محمود) من الجو. فأسرعت عائداً من كركوك بالسيارة، كانت العملية سرية جداً، وقرر أن تقلع الطائرات من أربيل لا من كركوك وللمرة الثانية عصف القلق بأنفسنا. وخسرنا طائرتين. الأولى اضطرت إلى الهبوط في ضواحي السليمانية قرب (سه

رچنار) وهبط السر جون سالموند نفسه (بمعية قائد السرب جون ويليامز)[1] بطائرة أخرى لمساعدة (راوث). وسقطت الثانية في مضيق طاسلوچه من ناحية السليمانية وهنا أيضاً أمكن التقاط الطيار واستنقاذ الطائرة. واضطرت طائرة أو اثنتان إلى العودة قبل وصولهما الهدف لخلل طرأ على محركيهما. أخيراً لم تفلح الطائرات في إلقاء أكثر من نصف حمولتها. على أن (كنكيد) استطاع أن يصيب باب دار (الشيخ محمود) الخارجي إصابة مباشرة. وقصدت آمر العملية الجوية عند عودته وسلمته منشورات جديدة لإلقائها على الشيخ محمود بجعله مسؤولاً عن حماية الطائرتين حتى يتسنى انتشالهما. وقد حقق طلبنا حالاً بالنسبة إلى الطائرة الأولى إلا أن الثانية دمرها (كريمي فتاح) اله ماوه ندي قبل وصول الطلب.

وفي تلك الليلة، نظم ضابط السلك السياسي وطيارو القوة الجوية حفلة عشاء مختلطة بمناسبة عيد الميلاد وبالثياب التنكرية في مطعم المطار ودامت الحفلة حتى الثالثة صباحاً. وكاد يقع حادث مؤسف عندما قام أحد المحتفلين وقد استخفته النشوة والطرب بوضع لهب عود ثقاب في ثنايا لحية تنكر من القطن والصوف لأحدهم فاشتعلت بسرعة إلا أن الأيادي الجريئة سارعت بإخماد اللهب وخرج ذو اللحية بما لا يزيد عن احتراق شعر هدبيه وحاجبيه. لقد قدمنا الحفلة نحن الضباط السياسيين متهيئين للنوم حيث نتناول العشاء، وبعد فطور جيد صباح يوم العيد Boxing Day من البيض النيء بحيث أظهرنا ميلاً ناجحاً بعدم تأثرنا بالشراهة التي بدت منا ليلة أمس في التهام الديك الرومي وفطير الأجاص.

كانت أشهر كانون الثاني وشباط وآذار من العام 1924 خالية من الأحداث وأن غارة يوم عيد الميلاد الجوية على (الشيخ محمود) إن لم تحقق شيئاً فقد أجهضت

---

(1) آمر السرب جونز وليامز وأصدقاؤه يسمونه (جون ويلي) كان من أبرز الطيارين في تلك الأيام. قتل في العام 1930 حين اصطدمت طيارته بجبال (أطلس) قرب تونس ليلاً، وهو في محاولة كسر رقم السرعة العالمي في المسافات الطويلة.

دعايته القائلة إن الحكومة تكاد تصل إلى اتفاق معه. لذلك قرر بعض أنصاره من سراة المدينة كرضا بك وعبد الرحمن آغا أن يتخلوا عنه. وأعقب القصف مناورات جوية عديدة كلما شعرنا بأن ذكرى عملية القصف قد اعتورها بعض النسيان أو يظهر أن آثارها قد طمست من الأذهان. وتظهر يومياتي في تلك الفترة أني كنت دائم التنقل براً وجواً في مختلف أنحاء اللواء والحزام الصحي وليس ما يستحق التسجيل عن هذه الفترة غير حادثتين.

في إحدى الليالي من أواخر شباط أويت إلى فراشي في ساعة مبكرة واستغرقت في نومي لأستيقظ مجفلاً على دوي طلقة نارية تبعتها أخرى وأخرى ثم كثرت وغدت صليات شديدة الوقع، وراح ظني لأول وهلة أن قوة من أنصار الشيخ محمود تمكنوا من اقتحام المدينة تحت جنح الليل. وكان أول رد فعل عندي هو شعور الأسى لنجاحه في استباقي مرحلة واحدة، بينما كنت أمتدح نفسي لوصولي بنظام استخباراتي غاية الإتقان. ولكن ما لبث أن أفرخ روعي عندما ميزت في الضجة طقطقة الأوعية المعدنية وغير ذلك من أفانين القرع على الصفيح والنحاس وشخصت إلى السماء فرأيت ما لا يمكن أن تخطئه العين في السماء الصافية - رأيت البدر تزحف عليه حلقة صغيرة سوداء وها أن المدينة كلها تعالج الخسوف كما كان يعالجه أجدادهم في العصور الأولى بحمل التنين على ترك القمر الساطع الذي يحاول ابتلاعه. وقد أشاع السرور في نفسي نبأ وصلني بعد أيام قليلة مفاده أن الشيخ محمود في ليلة الخسوف تلك كان نائماً في داره التي تقع في ضواحي السليمانية الشمالية وفوجئ مثلي بإطلاق الرصاص فتوهم ما توهمته، وأمر أن يسرج أسرع خيله في الحال للهروب من طريق (كويژه) قبل أن يعلم السبب.

في ذلك الزمن كانت في الجو عاصفة من تلك العواصف التي تهب في قدح! بطلها ذلك الفضولي في البلاط الذي ذكرته سابقاً. فقد بدأت فجأة أتسلم رسائل ومذكرات مذيلة بعشرات التواقيع والأختام والتأشيرات محتجة على تعيين (جعفر

سلطان) رئيس (الهه وره مان) بمنصب قائمقام حلبچة. هذا الانفجار أسلمني إلى حيرة شديدة. فالتحسن الذي عقب عملية عيد الميلاد الجوية، وجولة الفرسان بين عشائر الجاف، والنجاح في إتمام إحصاء المواشي الذي عقب ذلك، كل ذلك سبب المصادقة على اقتراحاتي في أمور إعادة تنظيم الإدارة هناك، وكنت أهم بإرسال مجموعة من الموظفين وأعداداً من الشرطة (لأحمد بك) الذي ظل مع ما أظهره من خور - الشخص اللائق الوحيد لمنصب قائمقام حلبچة الخطير. وقد ظهر أن رجل الدين مثير المشاكل في (الهه ورامان) المدعو (ملا حسن) قد سافر إلى بغداد وظفر من صنوه وشبيهه في القصر بوثيقة كتبت على ورق البلاط الرسمي تشير إلى تعيينه (مفتياً) وتعيين (جعفر سلطان) قائمقاماً. وليس ثمة خطأ أكبر من هذا، فجعفر سلطان إيراني الجنسية وسكناه في إيران ومهما يكن فإن تعيين زعيم (هه ورمانى) لحكم منطقة يكاد أهلها يكونون من الجاف قاطبة، لا بد سيؤدي إلى إراقة الدماء، وقد ألغي هذا التعيين بطبيعة الحال حالما انكشف أمره.

وفي منتصف آذار بينما كانت إحدى ثلاث طائرات تحلق فوق منطقة (شميران) على الضفة اليسرى من الزاب جنوب غرب حلبچة، وهي آنذاك جزء من ناحية (وارماوه) نفذت طلقة بندقية في مخزن بترولها واضطرت إلى الهبوط في وهدة قرب النهر، فقام (كنكيد) والضابط الطيار شرلوك Sherlock الملقب بالقرد بهبوط رائع عند الضفة وجاؤوا بالضابط (ر. د. ويلان R.D. Wheelan) مع طائرته سالمين. وكان مقرراً أن أسافر بإحدى هاته الطائرات الثلاث لكنني عوقت في المطار لمقدم (هيرسن) في آخر لحظة، فقد أقبل جواً ليبحث معي السياسة العامة نيابة عن قائد القوة الجوية.

وفي نهاية آذار بدا الوضع الكردي في منطقتي مستقراً إلى درجة يسمح لي بإخراج مشروعي المفضل إلى حيز التنفيذ، ألا وهو جولة نويتها بين عشائر (العبيد) والعشائر العربية الأخرى التي تقطن حوالى الطريق العام وفي جبل حمرين. وقررت وزارة الداخلية انتهاز هذه الفرصة التي تمتاز بوجود قوة كبيرة من

الشرطة الحسنة التنظيم لغرض تسوية نزاع طويل الأمد بين قبيلتي (العبيد والعنزَة) والأخيرة من قبائل ديالى تسكن الجهة الأخرى من (حمرين). وتضيق صحائف الكتاب بوصف هذه الرحلة الطريفة جداً التي امتدت أسابيع ثلاثة. ولكني سأذكر منها ما حصل في (حاوي المايته) على نهر (العظيم) في منتصف المسافة ما بين حمرين ودجلة. في 30 آذار اعترتنا الدهشة عندما لمحنا الطائرة الخاصة بقائد القوة الجوية المميزة بلونها الأحمر وهي تحوم فوقنا، ثم ما تلبث أن تهبط وتدرج على الأرض ويخرج منها (السر جون سالموند) وكان يقوم بجولة وداعية لسائر مؤسسات القوة الجوية قبل تسليم قيادته ولما أعلمه (كنكيد) بمكاننا أبى عليه حسن خلقه إلا أن ينحرف عن طريقه وينزل لتوديعنا.

ولما عدنا إلى مقرنا طالعتنا أنباء السوء من حلبچة، كان رد فعل الشيخ محمود على إرسالنا الموظفين المدنيين والشرطة، إغارته على القضاء، ودحره كوكبة من الفرسان الجاف أخرجها (أحمد بك) لصده. وتقلص نفوذ كل ممثلي الحكومة الرسميين (عدا من هم في وارماوا) إلى نطاق القرية. ولم يتوفر لدينا إلا القليل من المعلومات عما يجري - وكان من المقرر أن أباشر في استعمال إجازتي يوم 26 نيسان (ففي العام 1924 أكون قد قضيت في البلاد ثلاثة فصول صيف متوالية) لكني مع هذا طرت إلى (حلبچة) في 21 نيسان لأتأكد بنفسي من حقيقة الوضع وكانت الرحلة الجوية التي دامت ساعة كاملة مفيدة جداً لفحص معلوماتي الجديدة التي جمعتها عن الأرض في جولاتي. هذه أولاً أراضي (الجبّاري) المتعادية تبدو أقل كآبة من مألوف عادتها بعد أن كساها الربيع ببساطٍ من الحشيش الغض. ثم (باسكى زنور) ثم (آج داغ) ومنابع (ئاوه سپي) وسهل (سه نگاو) وحدبة (زه رده وقه ره داغ) فمضيق (په يكولي) ودزيابيش وسهل شهرزور الممرع المترامي الممتد إلى الجدار الجبار الذي ما زال كاسياً بقية ثلوج الشتاء، جدار هه ورمان!.

وقد اتفقنا أن يهبط (كنكيد) أولاً وتبقى الطائرتان الأخريان في الجو، فإذا

وجدنا حلبچة في أيد صديقة هبطنا. ما كان يوجد في البلدة كثير حركة، فقد كان الوقت صوم رمضان ولا بد أن الأهالي يتمتعون الآن بقيلولة بعد سهر الليل الطويل. لكن ما مرت دقائق معدودات على وصولنا الأرض حتى بدأ الأهالي يتقاطرون زرافات إلى المهبط وبينهم وجوه وسراة يركبون الخيل، تتقدمهم (عادلة خان) متبرجة بما وضعته في وجهها من أصباغ مرتدية صداراً ربيعياً أحمر مرقشاً بالأخضر. فلما أيقنت أن الأمور على ما يرام أشرت للطائرتين بالهبوط وكان المطار صغيراً للغاية قائماً على قدمة منحدر ولم يكن الهبوط سهلاً نظراً إلى تعيين الاتجاهات على هٰذي قمم الجبال وأقبلت الطائرة الثانية في زاوية ميل حادة وتعلقت بها أنظارنا المرتقبة حتى شهدناها تصطدم لتقف على نهايتها وقفة عمودية في الهواء ثم تتقصف إلى نصفين بصوت مرعب فأسرعنا إليها متوقعين أن تندلع النار فيها حالاً. وكان الحظ حليفنا، وأخرجنا من فيها، سالمين إلا من خدش أصاب شرلوك (القرد) وكتفا جريحة لميكانيّ، أما الضابط الطيار آيرى J.L. Airy فقد هبط من الطائرة الثالثة في الجهة القصوى من المطار. كان النظام يسود الجميع بشكل يدعو إلى الاستغراب، وقد اصطفوا جميعاً على مبعدة من المدرج وبعد أن عولجت كتف الميكاني ووضعت في حمالة رقبة توجهنا إلى دار السيدة عادلة وهذه أول مرة يرى الأهالي ضباطاً بريطانيين منذ تسعة عشر شهراً بعد تلك النكبة - واجتزنا بعض الأزقة وعبرنا السوق وفيه قوبلنا بكل مظاهر الترحاب والتكريم والبهجة. ورأينا الرجال دون استثناء يقفون ويرفعون أيديهم بالسلام في حين أطلقت النسوة من فوق السطوح زغاريدهن العالية وهي من مظاهر الأعياد والحفلات - وفي بيت (عادلة خان) لم تحاول الصبايا بمناديلهن الشفافة البيضاء المضفورة فوق عمائمهن وأكتافهن أن يبذلن أي مجهود لإخفاء أنفسهن عنا لما رحنا نجتاز (الطارمة) في طريقنا إلى غرفة الطعام. وسرني أن أجد كل الوعود التي قطعتها لرفاقي عن الأطعمة النفيسة العديدة التي سيتناولونها من مطبخ (السيدة) المشهور وقد تحققت بالحرف الواحد وبأبدع ما يمكن وتأكد لي أن الموقف السياسي هو كما يلي: منذ هزيمة (أحمد بك) أمام له شگر (محمود) قبل

أسبوعين وهو باق في حلبچة مع كل الموظفين والشرطة الذين أرسلوا إليه في آذار. وإن أغلبية قرى الـ(نورولى) المحيطة بحلبچة كالسوار من حوالى ثلاث جهات تؤلف ستار استحكام طبيعي للبلدة. ولم يتوقف العدو عن استغلال نجاحه إلا لنفاد ذخيرته، ثم بوصول (جعفر سلطان) مع عدد كبير من أولاده الكثيرين وأقربائه وأتباعه المسلحين استجابة لنداء (السيدة) العاجل. إن الخوف من حصول مشاكل قبلية مع (هه ورامان لهون) كان وما يزال رادعاً قوياً لمن تسول له نفسه العدوان. وقد كان (سلطان) في انتظار مأدبة الغداء وأكد لي أنه لا يعرف شيئاً عن دسية (ملا حسن) المضحكة إذ لم يخطر بباله قط منازعة ورثة (عثمان باشا) مركزهم المتوارث في شهرزور. وهو مستعد الآن للبقاء في حلبچة والدفاع عن حق السيدة، طالما رغبت الحكومة. وبهذا نجت البلدة الآن على أن جيش (محمود) كان يحتل (خورمال ووارماوه) شمال (به رانان) وقد انهارت الإدارة هناك. وكانت عادلة خان (بعد أن شجعتها زيارتنا ودعمها جعفر سلطان) تعتقد أنها قادرة على إبقاء الأمور كما كانت لمدة شهر أو نحوه إلا أنها كانت ترجو ألا تتأخر الحكومة كثيراً في حسم الموضوع وإنهاء الحالة التي لا تطاق. وفي رحلة العودة زاد المقعد الخلفي لكل من الطائرتين رجلاً واحداً وهو لا يتسع إلا لشخص واحد وتضايقنا أنا و(شرلوك) فكلانا بدين وهذا ما جعل طائرة (كنگيد) مثقلة الذيل بصورة مزعجة له. وكان الجو كالعادة عاصفاً، مليئاً بالجيوب الهوائية وزادت المطبات الهوائية المستمرة من ضيقنا. ولما رحت أذكر مشاعر القلق التي كانت تنتابني وأنا فوق السراي أرقب عودة الطائرات المغيرة لم يسعني إلا أن أتساءل في سري ونحن نقترب من كركوك، ماذا سيكون شعور أصدقائنا في الأرض عندما يشاهدون طائرتين فقط؟ وشاع في نفسي إحساس غريب بالراحة لمعرفتي بحقيقة لا يشاطرني فيها غير خمسة.

ومع أن المشاكل الخاصة بالجاف وحلبچة تكاد تحتكرني. كان يوجد مشكلتان أخريان على درجة كبيرة من الأهمية، ذات صبغة عامة أعمق أثراً.

في 12 آذار تم الانتخاب في موعده المقرر. والقانون ينص على حق الانتخاب لكل الذكور البالغين المسجلين، وهؤلاء كناخبين أوليين، ينتخبون المنتخبين الثانويين الذين يقترعون فعلاً على النواب وهذا نظام حسن جداً في بلاد فقيرة في وسائل المواصلات، وتسود فيها الأمية وقد خصص عدد من النواب لكل لواء على أساس عدد سكانه المقدر تقديراً. ولم تكن الأحزاب والمناهج السياسية معروفة وكان معظم المنتخبين الثانويين ومن بينهم ممثلو القبائل يراجعون السلطات الإدارية لإرشادهم إلى كيفية ممارستهم هذا الحق الجديد[1]. وكانت النتيجة أن كلا من كركوك والسليمانية أرسلا مجموعتين طيبتين جداً من النواب ومن ضمنهم (صالح بك نفطچي زاده) وهو وجيه كركوكي و(جميل بك بابان) من سراة كفري (وشيخ حبيب الطالباني) و(دارا داووده) وكلاهما من كبار الشيوخ القبليين و(اسحق أفرايم) وهو يهودي و(شيخ قادر أخ شيخ محمود) من شيوخ البرزنجة و(أحمد بكى توفيق بك) وهو من سراة السليمانية ذو صلة قربى پشدر و(عزت بك) ابن السيدة عادلة، و(ميرزا فرج) وهو من كبار التجار. ولم يمارس أي ضغط على المنتخبين القانونيين. إلا أنها ثبتت سابقة في السنوات التالية وراحت تزداد سخفاً وحقارة حتى أصبح الانتخاب لا أكثر من مجرد تعيين حكومي مفضوح لا يستوجب الخجل. وإن أي فشل في ضمان نتيجة التعيين هذه والتأكد من عدم حصول مفاجأة مرهون بما يساوي مركز المتصرف من قيمة آنذاك.

وفي أواسط آذار بوغتنا بنبأ اتخاذ المجلس الوطني الكبير التركي قانوناً بإلغاء الخلافة في (3 آذار) ولم نصدق. كانت دعاية الترك التي أبقت كردستان في غليان البركان الثائر، قد اعتمدت أساساً على احترام الكرد إمام دينهم ولا شك أن الترك قد أوقعوا أنفسهم في ورطة بهذا القرار الذي بدا يفوق أقصى آمالنا ولم نتأخر طبعاً

---

(1) عبارة مهذبة استخدمها المؤلف لتغطية عملية الاستشارة أي إلقاء أسماء النواب الذين يفضلون على غيرهم في أذان المنتخبين الثانويين لانتخابهم وهي عادة جرت عليها الحكومات العراقية المتعاقبة فيما بعد. كما يظهر من عبارة المؤلف التالية. (المترجم).

عن استغلال هذا الوضع الجديد، لكن دخول هذه الحقيقة إلى العقول الجامدة لأغلبية السكان الذين هم من الفلاحين، اقتضى وقتاً غير قصير، ولم تقبر مكانة تركيا الأولى بوصفها حاضرة الخلافة بسهولة.

وعندما مررت ببغداد وأنا في طريقي إلى بلادي وجدت جواً عاماً من الكآبة يخيم على النفوس. فالمناقشات البرلمانية حول المعاهدة تسير سيراً سيئاً وكثير من الساسة المحامين الكبار من ذوي النفوذ، منشغلون في بناء جماهيرية لأنفسهم، وانفجرت مظاهرة صاخبة أمام المجلس التأسيسي وأطلق الرصاص على نائب من قبائل الفرات كان يصرح بأنه سيصوت في صالح المعاهدة وأصيب بعطل مستديم. وجرت محاولات مماثلة أخرى ضد غيره. والدوائر البريطانية كانت ترى في نجاح الشغب والتظاهر ضربة لمكانة (الملك) الذي كان ينتهج سياسة منسجمة مع المعاهدة. ولم يكن الموقف مفتقراً إلى من يهمس بأن (جلالته) يحسب حساب تعديل بعض بنودها في المستقبل ولذلك فليس هو ببعيد عن عوامل الغليان كما يعتقد. ومن المسؤولين البريطانيين الكبار عن السياسة التي جاءت (بفيصل) إلى العراق، كان (كورنوالس) يحمل هماً ثقيلاً لم يلاحظ فيه من قبل. والآنسة (غرترود بل) كانت تشكو مرضاً حقيقياً بهالتين سوداوين تحيطان عينيها في حين وجدت (السر هنري دوبس) خلي البال منشرح النفس رغم أن كل الفشل الذي سيصيب سياسة الحكومة البريطانية غامضة في مكياجه الإيرلندي وكان في حديثه معي يتساءل بلهجة لا تخلو من فرح خبيث Schadenfreude إلى من سيسلم الحكم إذا ما رفضت المعاهدة وقررت الحكومة البريطانية العمل؟ ألإلى الملك؟ أم إلى جنرال تركي؟ وأكثر ما جلب انتباهي أن الكل كان يضع أمله في أصوات سبعة عشر مندوباً عن الألوية التي تسكنها أغلبية كردية للتصويت على إقرار المعاهدة. وهم نواب ألوية السليمانية وأربيل وكركوك - لضمان الأغلبية المنشودة في المجلس[1].

---

(1) تم اختيار هؤلاء النواب بعناية دقيقة من قبل المؤلف كما بين هو في الصحائف السابقة لضمان هذه النتيجة. (المترجم).

الباب الرابع

- 26 -

لجنة الموصل (1)

يذكر القارئ أن معاهدة لوزان التي وقعت في 24 تموز 1923 تضمنت إعطاء الفرقاء الموقعين مهلة تسعة أشهر ليحلوا فيما بينهم النزاع حول الموصل بالطرق الودية. وقد شرع رسمياً بالمفاوضات الثنائية لهذا الغرض في 5 تشرين الأول. بمذكرة بريطانية إلى الحكومة التركية. ثم اتفق أن تبدأ الأشهر التسعة من هذا التأريخ، إلا أن المباحثات الفعلية لم تبدأ إلا في 19 أيار 1924 لأسباب مختلفة، فوصل وفد بريطاني إلى استنبول برئاسة (السر پرسي كوكس) وعضوية النقيب (ر.ف. جاردين R.F. Jardine) معاون المفتش الإداري للواء الموصل الذي ظل يمارس وظيفته هذه منذ العام 1919، وقد أعد دراسة خاصة جغرافية وبشرية بسكان منطقة الحدود.

كانت السلطات البريطانية في هذه الفترة مشغولة بالمشكلة الخطيرة مشكلة مستقبل النساطرة المسيحيين الذين يعرفون بالأثوريين سكنة جبال حكارى. وهذا الإقليم هو ولاية تقع شمال ولاية الموصل. في ربيع العام 1916، انتقض هؤلاء المحاربون الجبليون الأشداء على الحكم التركي بإغراء من قائد الجيش الروسي المهاجم إلا أن تراجع قطعاته التالي أدى إلى بقائهم في الميدان وحدهم معرضين إلى نقمة وتأديب حكومتهم الشرعية، فلم يجدوا بداً من الجلاء هم وعائلاتهم إلى إيران والسلاح في أيديهم يقاتلون قتال الانسحاب وضلوا يحاربون بأمرة القيادة الروسية، إلى أن انحل الجيش الروسي الإمبراطوري، ففقدوا نصيرهم الوحيد

وعُدموا قوت الحياة. وقد تم إخلاء (35) ألفاً منهم (معظمهم من حكارى وبضع مئات من منطقة العمادية على الطرف الأقصى الشمالي من حدود ولاية الموصل، وبضعة ألوف من الرعايا الإيرانيين سكان قرى سهل أورمية) بحماية القوات البريطانية التي ما زالت في غرب إيران. وأودعوا معسكر لاجئين كبيراً في بعقوبة التي تبعد عن شمال بغداد بثلاثين ميلاً. وفي غضون أربع سنوات (1919 - 1923) تم إسكان معظم من يحمل الرعوية التركية ومن بينهم 7000 - 8000 نفس استقروا فعلاً في جنوب (حكارى) على الحدود حيث لم يكن يوجد أثر ما للسلطة التركية. وأسكن آخرون الجانب العراقي من الحدود، وجند عدد كبير من الرجال في الليڤي العراقي تحت أمرة ضباط بريطانيين.

وعندما اجتمع الفريقان لبحث موضوع النزاع، حدد الممثل التركي طلب حكومته في استعادة كل ولاية الموصل وأدلى (السر پرسي گوگس) بمطلبه خط حدود يبتعد كثيراً عن حدود الولاية إلى الشمال مما يترك في العراق كل موطن الأثوريين القديم - فضلاً عن الجزء الذي عادوا إليه، وهذا يفوق بلا جدال أي اقتراح عرض في (لوزان) ولم يتزحزح أي فريق إنشاً واحداً عن موقفه. وفي 5 حزيران انفض المؤتمر بلا نتيجة. وفي 6 آب أي بعد مرور شهر واحد على نهاية المهلة المقررة في المعاهدة رفعت الحكومة البريطانية موضوع النزاع إلى عصبة الأمم.

وفي الوقت نفسه ونظراً إلى الوضع العصيب الذي خلفته سياسة الشيخ محمود النشطة في دخوله المناطق المحظورة عليه، عاد المندوب السامي يعتنق فكرة احتلال السليمانية بقوات من المشاة. وتم ذلك في أواسط تموز بسوق رتل من الجيش العراقي تدعمه قوات من الشرطة ووحدة من الليڤي الأثوريين وتعززه القوة الجوية البريطانية وأنيط بـ(جايمان) الإشراف على الإدارة مخولاً صلاحيات المتصرف ومرتبطاً بأوامر الحكومة العراقية على أن يكون لفترة من الوقت متصلاً بالمندوب السامي ومتسلماً الأوامر منه.

وفي مفتتح شهر آب قرر الترك أن يحكّموا قبضتهم على حكارى الجنوبية وكانوا في مناسبات عديدة قد احتجوا أمام العصبة على عملياتنا الجوية المختلفة، وتحركاتنا العسكرية إلى رواندوز والسليمانية إلا أنهم أصيبوا بنكسة. فالأثوريون الذين عادوا مؤخراً إلى الاستقرار على جانبي الطريق الذي يوصل (جولاميرك = جووله مرك) بمركز ناحية (جال) ألقوا القبض على والي حكارى أثناء سفره في جولة تفقدية لهذا المركز الإداري الصغير. على أننا اتخذنا تدابير عاجلة لإطلاق سراحه. إلا أن الترك قابلوا هذا العمل بتحشيد قوة عسكرية في (جزيرة ابن عمر) وعبروا نهر الهيزل. ودخلوا الأراضي العراقية وواصلوا زحفهم رغم تعرض القوة الجوية البريطانية، إلى ولاية الموصل عدة أيام قبل أن يعودوا أدراجهم متجهين إلى منطقة (چال) وهناك قاموا بطرد ثمانية آلاف آثوري وجدوا أنفسهم مرة أخرى لاجئين إلى العراق.

نظرت العصبة في خريف تلك السنة النزاع المعروض، مع كل الاحتجاجات التي قدمها الطرفان بخصوص النشاط العسكري الذي قام به فريق ضد فريق، وفي (30) أيلول أصدر مجلس العصبة قراراً جاء فيه: (إن الفريقين كانا قد تعهدا مسبقاً بقبول أي قرار يصدره المجلس في المسالة المعروضة عليه، وأن يمتنعا في الوقت نفسه عن القيام بأي عمل عسكري يرمي إلى إحداث تغيير في الوضع الراهن) كما قررت أيضاً تعيين لجنة خاصة لدراسة المسألة موقعياً وتقديم توصيات لمساعدة مجلس العصبة على التوصل إلى حل. إن التعهدات المتعلقة بالأعمال العسكرية قد بعثت المشاكل المألوفة وأثارت خلافاً جديداً حول أي (وضع راهن) ينبغي المحافظة عليه. هل هو وضع 24 تموز 1923 (كما طلبت بريطانيا العظمى) أم وضع 30 أيلول 1924 (كما طلبت تركيا)؟ ثم هل أن قيام أحد الفريقين بإعادة احتلال رواندوز والسليمانية، وقيام جنود الفريق الآخر باحتلال حكارى، ينطويان على تغيير أي منهما ليس في مصلحة الفريق الآخر؟ أم أنه عمل بوليسي داخلي؟ وجرى اجتماع فوق العادة لمجلس العصبة في (بروكسل) للبحث في الاحتجاجات

المستجدة. وبالأخير وافقت الحكومتان في 29 تشرين الأول على سحب قواتهما إلى جانبي الخط الذي اقترحه الوسيط البلجيكي مسيو برانتينك Branting وهذا الخط يمتد على مجاري الأنهار بدلاً من قمم الجبال وهو في الحقيقة يطابق تقريباً حدود الولاية القديمة ما بين الموصل وحكارى، وبهذا القرار مُهد الطريق للجنة التحقيق لتبدأ عملها.

وشهدت بغداد أيضاً صيفاً عصيباً مليئاً بالزوابع، فالمناقشات في المجلس التأسيسي حول المعاهدة امتدت حتى أيار، وفي هذا الجو الذي كهربته الاجتماعات السرية والمظاهرات الصاخبة التي كشفت عن عداء شديد، أعلنت الحكومة البريطانية أن عدم المصادقة على المعاهدة في موعد نهايته 10 حزيران سيحملها على اتخاذ خطوات أخرى لتطبيق القرارات المتعلقة بالعراق التي اتخذتها الهيئة العامة لعصبة الأمم. وفي اللحظة الأخيرة امتنع (69) عضواً من أصل (100) من أعضاء المجلس التأسيسي عن حضور آخر جلسة وقبل بضع دقائق من انتهاء الأجل المضروب أي في منتصف الليل صودق على المعاهدة بأغلبية (39) صوتاً ضد (24) وامتناع (8) عن التصويت ولم يستجب نواب ألوية السليمانية وكركوك وأربيل ونواب أقضية الموصل الكردية لكل عوامل التهديد والإرهاب وكانوا أكثرية نصف أغلبية الأصوات التسعة والثلاثين التي أقرت المعاهدة. على أن هذا الإقرار تضمن تحفظاً وهو أنه سيكون باطلاً إن لم تقم الحكومة البريطانية بحماية حقوق العراق في جميع ولاية الموصل. ثم سن المجلس التأسيسي القانون الأساسي (الدستور) وقانون الانتخابات وحُل بعد إنجازه ذلك وتمت المصادقة على المعاهدة بالطرق المألوفة فوقعها الملك جورج في 10 تشرين الثاني ووقعها الملك فيصل في 12 كانون الأول سنة 1924.

وفي أثناء غيابي عن كركوك وقعت حادثة مؤسفة، ففي 4 أيار وعلى إثر منازعة فردية في السوق حول ثمن حاجة بسيطة بين بائع واثنين أو ثلاثة مع الليڤي الأثوري (استبدل بالسيخ في الخريف الماضي) ثارت ثائرة سريتين وتمردتا على

الأمر واستخدمتا مدافعهما الرشاشة، فقتلت خمسين من أهالي كركوك وجرحت عدداً أكثر من هذا حتى سيطر عليهما ضباطهما البريطانيون، وقامت عناصر من الأهالي المسلحين الهائجين برد الكيل في اليوم التالي فهاجمت حي المسيحيين الكلدان القديم ونهبت بيوتهم وقتلت عدداً منهم، ومن سوء الحظ أن اللجنة التي شكلت التحقيق إثر ذلك لم تتمكن من حصر مسؤولية القتل في أي فرد من الليفي بالذات. وظلت الحكومة العراقية والرأي اعام على حد سواء مقتنعين بأن السلطات البريطانية تحمي المجرمين الأثوريين. وتم في الحال نقل الفوج الأول من مشاة إينسكيلينغ Iniskilling الملكي جواً من بغداد لمواجهة الموقف المتأزم. ويذكر أن (السيخ) كانوا قد نقلوا جواً من كفري إلى كركوك في كانون الثاني 1923. إلا أن فوج (إينسكيلينغ) سيبقى يفخر بأنه أول فوج نقل جنوده جواً في تأريخ الحروب، وأنزلوا في ميدان الأحداث مباشرة مستعدين حالاً للدخول في المعركة.

كانت عودتي إلى العراق بعد الإجازة من طريق ذهابي وهو خط السيارات البريدي عبر الصحراء من بيروت إلى الرمادي ماراً بدمشق. وصلت بغداد في 15 تشرين الثاني ووجدت في مخفر الكمارك رسالة من (الليدي دوبس) تدعوني للإقامة في دار المندوب السامي وكان (السر پرسي لورين) الوزير البريطاني في إيران وزوجه من ضيوف الدار. كان قد سافر إلى جنوب إيران لبذل محاولات في إقرار نوع العلاقات بين (رضا خان) رئيس الوزراء الإيراني الذي نصب نفسه (شاهاً) بعد شهر، وبين شيخ المحمرة الزعيم العربي شبه المستقل الذي توجد مصافي نفط الشركة الأنكلو- إيرانية (عبادان) ضمن منطقة نفوذه. فضلاً عن أميال وأميال من أنابيب النفط. وبعد ذلك جاء الوزير إلى بغداد لبحث علاقات الحدود وغيرها من المشاكل المعلقة بين البلدين مما يمكن أن تقوم مساعي بريطانيا الحميدة بتسويته. وبعد أسبوع رائع في ضيافة (دوبس) الكريمة. عدت إلى كركوك بعد أن غبت عنها سبعة أشهر. وكان القطار قد وصل (طوز خورماتو) وامتداد الخط الحديدي بإشراف المهندس الحاذق (أليك هولت) قد بلغ مشارف كركوك.

على أني فضلت إكمال السفرة بسيارتي التي كانت تنتظرني في محطة (قه رغان) على حدود لوائي. وقطعت رحلة شنعاء مزعجة فوق طريق رملي غير مزفت ووسط عاصفة رملية هوجاء عقبتها ريح نكباء كادت تخنقنا بما تحثو علينا من غبار. ولم يزد مدى الرؤية عن خمس ياردات وكلما أبطأنا السير زاد سمك سحابة الغبار التي تحيط بنا. ولم تكن الأمطار قد بدأت بعد. ورحنا نقطع أميالاً إثر أميال من سهل أربد لا لون فيه مهما قلّ لترتاح العين به. إن التناقض الكبير بين الريف الإنكليزي الباسم الذي خلّفته، كان عظيماً جداً ولذلك شعرت بكآبة غير قليلة.

وسرعان ما سرى عن نفسي بالاستقبال الحار الذي كان بانتظاري على الطريق، ولقد ظلت مراسيم الاستقبال التقليدية سائدة في الألوية الشمالية بعد أن خرجت عن الموضة الشائعة في الجنوب الأكثر واقعية. وتحدى موظفو كفري وطوز وطاووق العاصفة الرملية لمقابلتي كلٌ في حدود قضائه. وفي (تازه) التي تبعد 12 ميلاً عن كركوك وجدت (مجيد اليعقوبي) الذي خلف (فتاح باشا) العجوز في منصب المتصرف على رأس مجموعة من الموظفين والأهالي عراقيين وبريطانيين.

كان السرب الثلاثون برمته في كركوك وهو الآن تحت أمرة روب Robb (هو الآن مارشال الجو الأكبر السير جيمس روب) وكنت قد عرفته وطرت معه عندما نقل في عمليات تعزيزات خاصة للطيران المتواصل هنا. إلا أن صلاتنا الآن اشتدت وزادت عمقاً وانعطافاً وربطتنا علاقات الاحترام والتفاهم المتبادل مثلما كانت تربطني (بكنكيد). وبذلك زاد الائتلاف بين القوة الجوية وهيئة الضباط السياسيين وقويت أواصره.

وعاد (چاپمان) يتلقى الأوامر مني الآن. وكان منذ تعيينه متصرّفاً في السليمانية مرتبطاً بالمندوب السامي رأساً. ولم أضيع لحظة واحدة في السفر إليه جواً لتفقد الأمور بنفسي. وكان يتملكني في أول ست وثلاثين ساعة من عودتي شعور غريب في أن كل ما حولي ذو مظهر خادع غير حقيقي. لكني شعرت وكأني لم أغادر

المنطقة أبداً، عندما وجدت نفسي في صباح اليوم التالي أحلّق في جو كركوك منتظراً إقلاع خمس طائرات أخرى، ثم أصعد في طبقات الجو العليا متجهاً نحو الشمال فوق سهل چمچمال وتلها، ثم فوق قره داغ ومضيق بازيان عن اليسار، وفتحة (باسه را) القائمة عن اليمين، ثم فوق معسكر الليڤي الآثوري في (تينال) ومعسكر الجيش العراقي فوق قمة طاسالوجه، ثم تلوح (سرجنار) أخيراً! كان (السر هنري دوبس) قد قضى يومين في السليمانية قبل أسبوع واقتنع بضرورة القيام بعمل جوي ضد الشيخ محمود الذي كان يتربص بنا في (سيته ك) مما يلي (ئه زمر) في (شاربازير). وكانت هذه هي مهمة طائراتنا الست. إن المنظر المهيب جداً لوادي (قه لاجوالان) كان أجمل من الجو وأشد وقعاً على النفس. وتمكنت في الضوء الصافي البلوري أن أعين وأسمي كثيراً أدق معالم وإشارات الأرض ظلت عالقة في ذهني من زورات العام 1919. وكان القصف في (سيته ك) جيداً وألقيت القنابل ذات الانفجار العالي وأشفعت بقنابل محرقة ليتبعها بعد لحظات قليلة، نار واسعة متأججة ثم دخان كثيف، وبعد انتهاء القصف هبطنا في السليمانية. لقد أعيد احتلال المدينة ونصب مديرو نواح محصنون ضد الرصاص من كِنايات مختلفة متفاوتة. منهم (سليمان خان روغزادى - تانجه رو) وذلك للإشراف على نواحي وادي السليمانية. وتم خلق واجهة إدارية كاملة، ومع هذا كان الوضع السياسي كما بسطه (چاپمان) أقل مدعاة للارتياح مما كان في الربيع وأخذت فصائل الشيخ محمود تنجم من قواعدها شاربازير وبنجوين ولا تتورع من بلوغ مشارف السليمانية وسمعة الإدارة في حلبجة قد هوت إلى الحضيض بسبب الخصومات الداخلية بين البكزادة أنفسهم. وكان (شيخ ئاوول) في قره داغ يعمل عملاً سافراً، ما شككت فيه قط قبيل رحيلي ويواصل ابتزاز المال من القوافل والمسافرين غير متكرث وعاد الجاف إلى مراعيهم الصيفية وراء الحدود وقد اتخذوا طابع التحدي المكشوف بعمليات السلب والنهب على طول خط رحلتهم الشتوية العريض، وأصاب الجيش العِراقي نجاحاً طيباً في بعض اشتباكاته مع الفئات المعادية،

وقامت القوة الجوية البريطانية بكثير من العمليات (زودت مؤخراً بمقاتلات ذات مقعد واحد من طراز (سنايب) لضمان استمرارية العمل).

وهكذا قضيت أول شهرين بعد عودتي في أعمال روتينية مألوفة، وغبت عن كركوك نصف هذه الليالي الستين. وكان اغلب طيراني مع (روب) وأحياناً مع (آيري) إما زائر السليمانية وحلبجة، أو مرافقاً غارات حقيقية أو طيران استطلاع. وكثيراً ما كنت أضطر إلى البقاء في كفري وهي أقرب قاعدة لأخطر أعمال شقاوة الجاف في (كَلُ وبيواز ووارماوا) وكنت هناك متحرراً من أعمال الروتين التي تتكدس فوق مكتبي في مقري وتمكنت بمشاركة ضباط سرية مصفحات القوة الجوية في معسكرها (كنكربان) من تنظيم حفلات صيد رائعة في بساتين القرى المجاورة التي يوجد فيها أو فيما حولها عدد غير قليل من القطا Partridge، فضلاً عن الدرّاج الأسود، والشنقب Woodcock.

هنالك حادثة واحدة تستحق الذكر في هذه الفترة، وهي زيارة الملك فيصل الأولى كركوك منذ قدومه البلاد. فقد كان يقوم بجولة واسعة في الألوية الشمالية ليؤلف القلوب من حوله قبل وصول لجنة العصبة. وفي 19 كانون الثاني وهو اليوم الأسبق لوصوله سقط ما يدعوه الكرد (په له) وهو أول مطر غزير مستمر شتوي من شأنه أن يشبع التربة بالماء إلى عمق لا يقل عن أربعة أنشات. وفي أقطار الشرق الأوسط حيث ترسيب الماء في التربة محدود، يعتبر سقوط المطر الغزير قُبيل مقدم شخصية كبيرة فألاً حسناً وزيارة ميمونة ويرفع من قدر الزائر. وفي هذه المناسبة كانت ال(په له) قد تأخرت عن موعدها المألوف شهرين كاملين وكان القلق الشديد يسود الناس. ولذلك لم يكن ثمة ساعة أفضل يختارها الملك للزيارة، من هذه الساعة.

ويظهر أن (موظف الأنواء الجوية) كان قد قرر أن لا يعمل الأشياء أنصافاً أنصافاً. ففي صباح العشرين انطلقت بسيارتي مع (ميللر) وعدد من الموظفين الآخرين لاستقبال الملك في (آلتون كوبري) وهي حدود اللواء. وفي قرية (ياروه

لى) التي تبعد أربعة أميال عن كركوك، وفي نقطة عبور نهر (خاسه) وجدنا النهر فائضاً مزبداً يندفع هادراً بتيار سريع لونه لون الشوكولاته. وحاول سائقي (خليل) تهوراً منه وطيشاً، أن يخوض الماء بالسيارة من الموضع المألوف فغاصت في الطين حتى المحور وطغى الماء عليها حتى بلغ مستوى غطاء المحرك الأمامي وأطفأ الماكنة. فاضطررنا إلى الخروج وخضت الماء حتى فخذيّ إلى البر. وكان هذا إنذاراً للسيارات الأخرى فأوقفت عند الضفة. ثم بعثنا نطلب كل تاكسي في كركوك احتياطاً لنقل الحاشية الملكية إلى المدينة في حال اضطرارهم إلى عبور النهر بالقوارب. ولم يكن يتوقع وصول الملك قبل ساعتين أو ثلاث لذلك لجأنا إلى (ياروه لى) ورحنا بين آن وآخر نخرج لتفقد المياه باحثين عن نقطة عبور ذات قاع صلبة راكبين خيولاً استعرناها من جماعة من الفرسان (الهه ماوه نده) (سوارى) كانوا قد احتموا بالقرية وقبل وصول التاكسيات التي طلبناها بنصف ساعة عثرنا على موضع يصلح للعبور، وانتقلنا منها إلى الضفة الأخرى وأعددنا أنفسنا لإرشاد السيارات القادمة أثناء عبورها ولا شك أن (ميللر) كان بطل الميدان فمع أن بدانته كانت لا تؤهله لركوب الخيل كما ذكرت، إلا أنها ساعدته على زرع نفسه كالطود في وسط التيار الجارف جاعلاً من نفسه (شاخص خطرٍ)بشريٍ. وكان في مبدأ الأمر يشير إلى السيارة بالتقدم نحوه، حتى إذا دنت منه زود سائقها بالاتجاهات الصحيحة للجزء الباقي من النهر. وامتلأ الملك إعجاباً بما رأى حتى أنه كثيراً ما ذكر الحادثة في السنين التالية، وما أن تم عبور القافلة الملكي بأمان حتى انفتحت أبواب السماء عن أمطار غزيرة شديدة. ولم يحل هذا دون التئام شمل عدد كبير من السراة والوجهاء لاستقباله وكان الأهالي قد خرجوا زرافات إلى ظاهر المدينة وبانضمام وحدات الليفي والشرطة وخيالة القبائل إلى المستقبلين ضمن مظهر مهيب لدخول الملك كركوك، ورفع العلم العراقي لأول مرة في تاريخ المدينة لشرف المناسبة وبقي مرفوعاً دون أي اعتراض بعد رحيل الملك.

واستمر الطوفان طوال الليل واليوم التالي ولما انتهى منهاج الاستقبال والولائم

التي تخللته، كانت الأنهار الثلاثة (طاووق جاى) و(ثاوه سبى) و(قوروجاى) (وهو مسيل صغير شهير بصعوبة عبوره وزوغانه، يقع بالقرب من كفري) قد فاضت فيضاناً عظيماً وانقطع الطريق الجنوبي تماماً وتسببت أمطار أخرى في الأيام التالية تأخر الركب الملكي وظلت تمطر دون هوادة، ولم تدع فاصلاً حتى يوم عيد الميلاد. وفيه قرر الملك تجربة حظه بعد أن شجعته التقارير المنبئة بتحسن الطقس وكان الثلج يتساقط عندما تركنا كركوك، وتمكنا من عبور (طاووق جاى) بسياراتنا فوق الجسر الحديد الجديد الذي لم يكمل بعد. وعثرنا على معبر جيد في (ثاوه سبى) قبل أن تدركنا زخة مطر أحالت كل ما حولنا من قيعان إلى بحيرة عظيمة. وقضيت الليلة مع سرية مصفحات القوة الجوية في الذي ما زال يعتبر رسمياً رأس الخط في (كنكربان). واستيقظت صباحاً لأجد رصيف المحطة مغطى بلحاف من الثلج والقطار نفسه كاسياً حلة بيضاء منها ثخنها ثلاثة أنشات. وكان الملك وحاشيته والموظفون العراقيون قد باتوا ليلتهم ضيوفاً على وجهاء كفري. والتأم الشمل في الثامنة صباحاً. وقمت أنا والمتصرف بإجراء حديث طويل أخير مع الملك وأعرب لنا عن سروره بنجاح زيارته بصريح العبارة. ووعد أن يحث وزراءه ليصادقوا على المقترحات التي نعرضها لتثبيت الإدارة والعمل على اطمئنان المشاعر العامة.

يندر سقوط الثلج في السهل حتى إلى مسافة بعيدة شمال كفري. وإني لأذكر يومها. وإن لم أدون ذلك في يومياتي - سقوط الثلج في بغداد تلك الليلة ولأول مرة منذ عشر سنوات على ما قيل. وهجمت في اعقاب الثلج موجة برد صقيعية عدة أيام وجمد نهر خاسه في كركوك.

وبطبيعة الحال كان الوضع في السليمانية مضطرباً إلى حدٍ حال دون زيارة الملك وقد شعرت بعد برقيات قلقة من (چابمان) أن واجبي يفرض عليّ السفر إلى السليمانية وخسارة حفلة رأس السنة الجديدة التي تم الإعداد لها. وكانت المطارات كلها معطلة فحاولت السفر بالسيارة وخرجت في فجر 31 منه برفقة

ضابط بريطاني من الليفي الآثوري في سيارتي الفورد. وكان قد سقط شيء من الصقيع وكاد يتعذر سير السيارة وباشرنا بدفعها بسواعدنا فوق مرتفعين شديدي الانحدار. وعصينا في المرتفع الثالث عندما بدأ الثلج يتساقط، وانقضت عدة ساعات لم نقطع فيها أكثر من عشرة أميال وفقدنا كل أمل ببلوغ چمچمال تلك الليلة. فقررنا العودة من حيث جئنا. وبعد كثير من الجر والدفع بلغنا كركوك وقت الغروب فرأيناها مغطاة بعباءة من الثلج ثخنها أنشان أو ثلاثة. وفيما كنت أستمتع بألذ كوب شاي شربته في حياتي صك أذني دوي عيار ناري اخترق زجاج النافذة واستقر في ساق المنضدة القريبة من ركبتي. واتضح فيما بعد أن مصدر الطلقة (ابن المتصرف) وهو صبي مستهتر سيء التربية يبلغ من العمر ستة عشر عاماً كان يلهو بمسدس أبيه بعد أن أخرجه من الدرج.

وفي أوائل كانون الثاني لطخ (روغزادى الجاف) أنفسهم بالعار عندما نهبوا قافلة كانت تسير في طريق (إبراهيم خانجى) وكانت عمليات التأديب الجوية بحقهم ناجحة، وانحدرت إلى كفري لأقبل من الفئة المجرمة فروض الطاعة وأبحث في التعويضات وإذا بي أتسلم وأنا هناك في ساعة متأخرة من الليل برقية مستعجلة جداً صادرة من (كورنوالس) في العشرين منه:

«أرجو أن تصل إلى بغداد جواً، اجلب معك أكثر ما يمكن من الأمتعة فربما طلب منك مرافقة اللجنة إلى الموصل».

ولكي أكون واثقاً من تسوية الحادثة التي جئت لتسويتها في الحال، أصدرت تعليمات خطية جديدة لكريم بك الجاف وغيره من الموظفين المحليين ذوي العلاقة تتضمن عقوبات أخف كثيراً من العقوبات القاسية التي كنت أنوي فرضها. وتركت كفري إلى كركوك قبيل الفجر لأحزم أمتعتي وفي 22 منه طرت إلى بغداد.

كانت اللجنة التي أوفدتها عصبة الأمم قد وصلت في 16 منه وهي تتألف من السيد أ.ف. فيرسن A.F. Wirsen وهو سويدي الجنسية والكونت بول تيليكي Count Paul Teleky وهو بلجيكي الجنسية وكل من السنيور رودولو Roddolo وهو إيطالي

الجنسية وهوراس دي بوتاليه Horace de Pourtales السويسري الجنسية بمثابة مقررين.

كان (فيرسين) وزيراً أقدم في السلك الدبلوماسي وقد انتخبه زملاءه رئيساً للجنتهم ربما لأنه يمثل بلاداً بقيت على الحياد طوال الحرب وهو لم يكن ينتظر منه اهتمام بتحميص لب المسألة أكثر من محاولته إيجاد منافذ توفيقية. وكان (تيليكي) بخلافه تماماً لا يرضى بغير الحلول البتارة. ففي بلاده هنغاريا، كان أحد قادة الحركة المعادية لثورة العام 1919 التي نجحت في إسقاط حكومة (بيلاكون) الشيوعية. وكان رئيس وزراء في حكومة بلاده منذ تموز عام 1920 حتى نيسان عام 1921 وهو في الوقت الحاضر رئيس منظمة الكشافة الهنغارية[1] وكان اهتمامه الأساسي بمشكلة الموصل منصباً على المظاهر الجغرافية والتكوين القومي. وقد سبقته قصة لا أدري مبلغ الصحة فيها، وهي أنه كان عضواً بارزاً إن لم يكن رئيساً لجمعية تدعى (جمعية الحجاج الهنغار) التي كان سبب تأسيسها، توثيق عرى الصداقة مع تركيا، بزعم وجود صلة عنصرية قديمة بين الشعبين التركي والمجري. وباجتماع هذه القصة مع جنسية العدو السابقة التي يحملها، نشأ في نفوس العراقيين كره له، وزاد من هذا الكره على ما يبدو - ظاهرة غريبة في اسمه عندما يكتب باللغة العربية فهو إذ ذاك يعني (ثعلب) باللغة التركية! وكان (پاولس) أيضاً عاطفي المزاج ذا خبرة طويلة في أعمال التجارة والإدارة في الكونغو فقد كان مستشاراً أو وزيراً صغيراً في السلك الدبلوماسي الإيطالي أعيرت خدماته لعصبة الأمم. و(بورتاليه) سليل الفرع السويسري من أسرة كبيرة جداً تحدث بالإنكليزية كأحد أبنائها.

وأظنه أخبرني أنه كان تلميذاً في مدرسة توجيهية بإنكلترا - وهو أيضاً نظراً إلى تقاليد الأسرة العريقة كان قد خدم قبل الحرب في لواء فرسان پروسي من فرسان

(1) تولى (تيليكى) المسكين رئاسة حكومة المجر عام 1939 مرة ثانية، وفي نيسان 1941 أقدم على الانتحار مفضلاً الموت على الخضوع لمطلب هتلر باستخدام الجيوش الألمانية أراضي بلاده.

الصاعقة ولم يكن من ملاك موظفي عصبة الأمم الدائم. إلا أن السكرتير العام آنذاك السير أريك دروموند Sir Eric Drummond كان يختاره بين آن وآخر لمهام خاصة من هذا النوع. وألحق بهذين المقررين محاسب وموظف سويسريان ووافق (تيليكي) وصيفه الخاص الذي عهد إليه بالإشراف على الطعام والتحق باللجنة فيما بعد (ج. هـ. كرامرز J.H. Kramers) وهو مستشرق هولندي شاب ليكون مترجماً. وكانت التركية أحسن ما يتقن من اللغات الشرقية، ومهما تكن درجته العلمية فهو لم يدع معرفة بلغة التخاطب العربية أو الفارسية، وخلافاً (لپورتاليه) كان (تيليكي) يحسن الإنكليزية. أما (فيرسن) فحظه منها قليل، إلا أنه كان ملماً بالفرنسية، وأما (باولس وردولو) لا ينطقان من الإنكليزية حرفاً.

وكان الوفد التركي الذي وصل برفقة اللجنة، مؤلفاً من رئيسه الجنرال جواد باشا مفتش الجيش العام لجبهة الجزيرة والقائد العام المرشح لها (كما علمنا فيما بعد) عند بدء العمليات الحربية ضد العراق. وكان مجيئه بمثابة مستشار ومراقب، وهو أحد القواد الوطنيين الذين اعتقلتهم لجنة الحلفاء العليا في استانبول العام 1920 وأبعدته إلى (مالطا) وكان معه كأعضاء وخبراء: الرائد (كامل بك) للواء الموصل و(ناظم بك نفطجى زاده) للواء كركوك و(فتاح أفندي) للواء السليمانية وألحق بهم ملازم شاب اسمه (بدري بك). ووجدنا (كامل) خير نموذج للضابط التركي، عرف كردستان حق المعرفة وأنجز مهمته العسيرة بأسلوب صائب كفوء قدر ما يجوز لنا الحكم عليه. أما (ناظم) الذي هرب من كركوك قبل سنتين، و(فتاح) صهر الشيخ محمود فكلاهما كانا نشيطين في حرب الدعاية الباردة التي سبقت هذه اللجنة. وقد تولى (ناظم) فعلاً منصب الضابط السياسي للرتل الذي دخل الأرض العراقية وهو في طريقه من الجزيرة إلى (چال) في آب الماضي.

ووقع الاختيار على (جاردين) ليكون المراقب البريطاني. وكان كما يذكر القارئ قد رافق السير (پرسى كوكس) إلى استانبول في آيلا يساعده في مهمته ممثل الحكومة العراقية (صبيح بك نشأت) وهو محدث بارع دائم البشاشة

والمرح، لا يسقط في يده إيجاد مادة للحديث. ولما كانت معرفته بالفرنسية أرقى بكثير من الإلمامة القليلة التي تعتبر عند الضباط العثمانيين السابقين، معرفة تامة في هذه اللغة الدبلوماسية، فقد كان بالإمكان الاعتماد عليه ليؤثر تأثيراً طيباً في أي مجموعة من المندوبين قد يطلب منه العمل معها.

بعد أن قابلت (كورنوالس)، أسرعت لمواجهة المندوب السامي فابتدرني بقوله: إنه وجد نفسه في ورطة فجاردين قام بجميع الدراسات المحلية للمشكلة. فضلاً عن كونه قد قدم لعصبة الأمم وللجنة على أساس كونه المراقب البريطاني، ومن الناحية الأخرى فهو صغير السن لا خبرة ماضية له أو أن خبرته قليلة في التعامل مع الأجانب على مستوى أعضاء لجنة خارجية موفدة[1] والمناظرة مع المراقب التركي. وليس من العدالة في شيء أن يطلب منه مواجهة مثل هذه المدفعية الثقيلة، لا يعاونه أحد غير (صبيح). وأما أنا (يقصدني) وأن لا أزيده بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات فقد درست في أوروبا وأتقنت الفرنسية والألمانية والإيطالية هذا فضلاً عن الصلات الدولية التي خبرتهما في إيران وهو شيء لم يمارسه معظم زملائي الذين خدموا في العراق والهند فحسب وأنه (أي المندوب السامي) يرغب مني الالتحاق بالوفد الأنكلو - عراقي إلا أن مسألة القدم تقلق باله.

فأجبته أن (جاردين) من خيرة أصدقائي وآخر ما أريده هو منازعته حقه في المنصب الذي توصل إليه بجدارته ودقة أبحاثه وأني على استعداد للعمل بأي شكل يشعر أنه ذو فائدة. وبعد المداولة تم الاتفاق على أن ألتحق باللجنة بصفة (ضابط ارتباط) وبهذه الطريقة يمكنني دائماً بحث أمورنا ومسائلنا مع جاردين وصبيح. هذا ولما كانت صلات ضابط الارتباط ستشمل كل أعضاء اللجنة مع المراقبين الترك وتغدو رسمية، ولما ستكون معالجتي لأية عقبة أو مشكلة ذات طابع انفرادي منفصل عن معالجة المراقب وخبرائه المخولين حق الدفاع المباشر

---

(1) من هنا فصاعداً سيكون من الأنسب استعمال لفظة (لجنة) عندما يراد بها كل الجماعة. واستعمال لفظة (المندوبين) للأعضاء الثلاثة الحياديين الذين أوكلت إليهم عصبة الأمم وضع التقدير.

عن المصالح الحيوية للبلاد التي يمثلونها فسأجد نفسي قادراً على مد يد العون في الإدلاء بتوضيح لين خفيف مضاد لما استميلت إليه اللجنة وهي في مهمتها الدقيقة جداً. وليس من شك ساور أحدنا في أننا الآن نخوض معركة حياة أو موت بالنسبة للعراق ذلك ليقيننا أن البصرة وبغداد دون الموصل لا يمكن أن يبنى منها دولة معقولة لأسباب اقتصادية واستراتيجية ومع أن الصحافة العالمية كانت تصور هذه المعركة كجزء من الكفاح الجبار للسيطرة على النفط، فمن المهم أن نعود إلى الوراء لنذكر كيف أن اسم النفط كان قليل الظهور في كل حساباتنا السياسية، على مستوى عملي على الأقل فأنا لا أذكر وثيقة واحدة ذكر فيها النفط كعامل بارز يرتفع إلى الصدارة في ميدان التجارة العام استيراداً أو تصديراً مما يجعل الولايات التركية الثلاث السابقة وحدة اقتصادية ذات كيان متكامل غير ممكن تجزئته[1]. وقد تبودلت عدة مذكرات على مستوى خبراء، قبل وصول اللجنة وبعده في أثناء إجراء التحقيق إلا أن القضية أجمِلت بعبارة بليغة وردت في مذكرة رائعة كتبها الملك فيصل بيده وقدمها للجنة: «لذلك أعتبر الموصل للعراق بمنزلة الرأس لسائر الجسد، واعتقادي الراسخ هو وإن كان الموضوع تعيين الحدود بين العراق وتركيا إلا أنه في الحقيقة موضوع كيان العراق ككل ولذلك فإن سعادة وشقاء أربعة ملايين من البشر هي الآن بين يدي لجنتكم العالية»[2] وهناك اعتبار آخر كان يدفعنا نحن ضباط الأقسام البريطانيين الصغار الذين كنا في موضع أفضل لنرى ألا فرق بين المصالح العراقية النهائية وبين مصالح بلادنا المباشرة[3] ومكانتها (ما زلت أظنه

---

(1) نشك كثيراً في أن النفط كان ساقطاً من حساب الإنكليز في العراق، فما زال المؤرخون يذكرون أن تعديل اتفاقية سايكس بيكو وخروج ولاية الموصل بما فيها كركوك من المنطقة الفرنسية كان بسبب النفط لا غير هذا على أقل تقدير. (المترجم).

(2) مقتبس من ص7: (تقرير في مسألة الحدود بين تركيا والعراق: وثيقة العصبة، من 400م 147 سنة 1925، ج7) وسيشار إليه في الصحائف التالية بـ(تقرير فيرسن) للسهولة وإن كان دور هذا الشخص في تنظيمه أقل بكثير في (تيليكي وباولس) وروودولو الذي لا يحب الظهور.

(3) المرجع السالف، مجلد (1)، ص347.

حقاً) فلقد كرهنا التنازل عن حق حزناه بشكل أعلمتنا دراساتنا الأولية في القانون الدولي، أنه حق لا غبار عليه ألا وهو (حق الفتح). ومن الناحية الأقرب إلى المثالية فأظننا جميعاً كنا نستوحي مما يلوح لنا الرؤية نفسها التي تكشفت لعين (لايارد) قبل 85 سنة. (إن موقع وموارد هذا الإقليم التي لا يمكن أن يُضاهي وجوده بين الشرق والغرب بنهريه العظيمين الصالحين للملاحة اللذين يكادان يبلغان البحر الأبيض المتوسط ويصلانه بالخليج والمحيط الهندي. لا بد أن يجعله مرة ثانية وبمرور الزمن غنياً كثير السكان كما كان عندما عُدّ أهم جزء من إمبراطوريات بابل وآشور وفارس، وعندما كان حاضرة للخلافة) لكن يجب أن يحدث تغيير عظيم ومستمر لفترة طويلة من الزمن قبل أن يمكن إصلاح الفوضى والخراب اللذين أحدثهما سوء الحكم والاضطهاد والإهمال. وفي اعتقادي أن الأقدار هي التي ستوكل إلى إنكلترا مهمة أحداث التغيير المفيد جداً والمهم إلى أقصى درجة في سلم التجارة والمدنية.

ما أن وصلت البعثة حتى اضطرب الجو وتحرك. فالحكومة العراقية زاد قلقها بعودة (ناظم وفتاح) المفاجئة تحت رداء الحصانة الدبلوماسية. وكلاهما يعتبران عندها خائنين هاربين. والأنكى من هذا كما تبينت وأنا في طريقي إلى بغداد - أن عودتهما قد أثارت سخطاً مراً لا يخلو من الخوف لدى القلوب الخائرة في لواءيهما. وأرسل المندوب السامي احتجاجاً شديداً (لفيرسين) بهذا الخصوص. وفي الوقت نفسه وبينما كان أعضاء اللجنة وجواد باشا ضيوف شرف في مأدبة أقامتها لهم دار المندوب السامي، وضع الخبراء الثلاثة في ثكنة عسكرية خارج المدينة فاحتجّ المراقب التركي على هذا العمل ووصف المسكن بمعسكر اعتقال وكان مبالغاً في هذا طبعاً. وتدخل (فيرسين) فنقلوا إلى منزل صغير بالقرب من دار المندوب السامي وفي الوقت الذي أوضح المندوبون واجب السلطة في منح أعضاء الوفد التركي حرية التنقل الكاملة ما أن يدخلوا حدود منطقة النزاع، فقد وافقوا على ملازمة الخبراء بيتهم إلى أن يحين موعد السفر إلى الموصل.

تم لقائي بكل المندوبين والأعضاء عدة مرات في كثير من المؤتمرات ومآدب العشاء والاستقبالات الرسمية. وفي 26 منه وقبل أن نستقل قطار الليل بساعات تناولنا العشاء معاً في دار المندوب السامي. وكان (ناظم وفتاح) من بين المدعوين، وبدا أولهما صورة ناطقة بالغم تستدر العطف والشفقة وهو في ثيابه الأوروبية التي لا تناسب جسمه. ولاحت على وجهه ابتسامة خجل خرقاء عندما صارحته بالألم الذي داخلني عندما رأى أن يخرج من كركوك خلسة. وبعد كثير من الأحاديث الصريحة التي تبادلتها معه في جو من الصداقة، تمتم بشيء حول نداء الواجب الوطني. ولم يسبق لي أن التقيت بـ(فتاح) وكان رجلاً ضخم الجثة غليظ الرقبة كالثور، ولم أجد فيه أي جانب جذاب.

كانت البلاد كلها تعاني أقسى شتاء عرفته منذ سنين عديدة. وفي الليالي كثيراً ما أشار المحرار إلى درجات عديدة تحت الانجماد وكان البرد لا يطاق في القطار الخالي من جهاز تدفئة ولم تغمض عيني لا أنا ولا (ليتلديل) شريكي في المقصورة وهو الآن مفتش الشرطة لولاية كركوك وأربيل والسليمانية. وبلغنا رأس السكة الحديد في شرقاط وهي تبعد زهاء (55) ميلاً شمال (بيجي) وكان الوقت ظهراً فأمكننا مشاهدة التل الكبير الذي يغطي خرائب عاصمة الآشوريين القديمة (آشور). وفي شرقاط استقبلنا متصرف لواء الموصل (عبد العزيز بك القصاب) وهو عميد أسرة بغدادية بارزة، ذو خبرة إدارية طويلة في سلك الوظائف التركية وكان بصحبته الرائد (هـ ى. لويد H.I. Loyd) المفتش الإداري وبعد انتهاء التعارف وتبادل التحيات ركبنا السيارات إلى الموصل ووضع تحت تصرفنا بناية متداعية تعرف باسم (القصر الملكي) لأن الملك فيصل كان قد أشغلها في زيارته الماضية.

وما أن استقر بنا المقام حتى اتصل بي (لويد) تلفونياً ليقول إن الخواطر في المدينة قد هاجت بشكل لا يخلو من خطورة وهو يرغب مع عبد العزيز في مقابلة رئيس اللجنة حالاً ليبحث معه الأوامر التي تلقياها من وزارة الداخلية العراقية بخصوص تيسير عمل اللجنة من جميع الوجوه. وبالأخص موضوع حماية الوفد

التركي من الاعتداء والإهانات. ولما رجوت (فيرسين) أن يضرب موعداً عاجلاً لهما، قال إنه يرغب في التداول مع زملائه قبل أن يبحث الأمور مع السلطة المحلية، لكن بسبب قلقهما الشديد، سوف يقابل (جواد) حالاً ويطلب منه ألا يخرج إلى المدينة.

وما أن بلغت غرفتي في الطابق الأرضي حتى دخل عليّ عبد العزيز وهو يشتعل غيظاً وسخطاً ليشكو من خروج (جواد) إلى المدينة برفقة (تيليكي) وقال إن الشوارع تغلي هياجاً وصخباً. فركبت سيارتي مع (جاردين) حالاً. وما لبثنا أن تلاقينا مع (تيليكي وجواد) وكان هذا في بزة جنرال تركي كاملة وهما يسيران الهوينا نحو القصر يحيط بهما حشد من المصفقين الهاتفين في حين كان حشد آخر يهتف بحياة العراق وفيصل ويهم بالإطباق على الفريق الأول من الرصيف الأيمن. وكان شرطيان أو ثلاثة يجاهدان عبثاً في حفظ النظام[1].

كانت هذه المظاهر أشبه بالطلقات الأولى قبل بدء الاشتباك الهادف إلى ترصين المواقع، وقدر له أن يكون السبب في إيقاف عمل اللجنة لمدة أسبوعين، وأعتقد أن الجانبين يتحملان مسؤوليته.

كانت تحقيقات اللجنة هذه أول سلسلة من التحقيقات التي قامت بها العصبة بخصوص العراق منذ العام 1925 حتى 1935. وكنت أُستدعى في كل مرة لألعب دوراً معيناً وفي كل مناسبة منها كنت أتحسس حالاً بوجود برزخ عميق الغور سايكولوجي الطابع بين أخلاقنا الضيقة الحدود، أخلاق سكان جزيرة منفصلة عن القارة، وبين طبائع ساسة القارة الأوروبية وموظفيها، ولا أستثني منهم أولئك الذين ننتظر منهم إظهار الود الكثير لنا وأخص بالذكر مواطني الدول الصغيرة. فإن كانت هذه أول فرصة يتعاملون بها معنا فهم بدون استثناء يباشرون مهماتهم وفي

(1) إن رواية (تيليكي) لهذه الحادثة قد وردت في تقرير (فيرسن)، ص9، إلى جانب روايات المندوبين لمعظم الحوادث الأخرى التي أوردت ذكرها في المتن.

أنفسهم شك عظيم بدوافعنا وأخلاقنا ويبدأون أعمالهم وقد عقدوا العزم بألا يسمحوا بأن يفرض عليهم شيء منا نحن المتكبرين المتجبرين الذين جئنا عبر القتال. وكلهم على العموم لا يملكون خبرة في شؤون الشرق الأوسط. ولذلك وجدت في المراحل الأولى لتحقيقات كل بعثة من هذا القبيل - فترة خصصت لإزالة التحامل، ومحو الآراء الثابتة المسبقة، أو تصحيح عقائد زائفة ومن ثم يشرع في نقطة البدء فبعد أن يعرف كل واحد منا طينة الآخر، بعد أن تنشأ ثقة متبادلة ترى العمل يسير بخطى واسعة، وينثني إلينا أصحاب اليوم ليلومونا لأننا لم نوضح لهم الوقائع ووجهات النظر إيضاحاً جيداً من البداية، تلك الوقائع التي يسارعون الآن إلى الإقرار بوجاهتها.

ولا نكران - في هذه المناسبة بالذات - أن ميزات التكتيك في موقفنا نحن ممثلي الحكومتين البريطانية والعراقية، كانت إلى جانبنا نسبة إلى الوفد التركي، فكل المظاهر الخارجية كانت تشير إلى أرجحية كفتنا بكثير، ذلك لأننا كنا نسيطر على الإدارة ومن ضمنها قوات الشرطة، وهذا ما يجعلنا في وضع نستطيع به الضغط على أية طائفة أو فريق من السكان. كما أننا نتمتع بوسائل تسهل علينا الحصول على آخر المعلومات وأدقها وهي أمور لا بديل عنها لبناء قضية محكمة مقنعة. وكان كل من أعد أو ساعد في إعداد المذكرة التي تشرح مطاليبنا وتتضمن أجوبتنا عن الاستفسارات، موجودين معنا بأشخاص المراقب والموظفين الذين يريدون شؤون المنطقة المنازع فيها. أما الجانب التركي فليس فيه من ساهم بشيء في إعداد قضيته كما يجري البحث فيها الآن والمذكرة نفسها ضعيفة الحجة بائسة تستند إلى سجلات خاطئة عتيقة مما هو متيسر في استانبول، وربما مدعمة بما علق بذاكرات الضباط والموظفين المدنيين الذين خدموا في الولاية منذ سنوات عديدة، وكلها غامض يلفه ضباب الشك والنسيان. ولم نجد في المراتب والخبراء من يجمع في نفسه الثقافة والمعرفة الصحيحة، لإعداد بيانات جديدة أو دحض البيانات التي يقدمها خصومهم.

ومن ناحية أخرى، لا بد وأن القارئ قد استخلص مما قرأ هنا، مبلغ المخاطر التي تحف بموقف الإدارة في أجزاء كبيرة من البلاد. إن منزلة الدولة التي حكمت هذه البلاد قروناً عديدة، ما زالت سامية في القلوب، وزادها النجاح المذهل الذي حققه (مصطفى كمال) وكانت الدعاية التركية تعد بقرب العودة وتتوعد بالعقاب الصارم كل الخونة. ولم يعترها وهن ولا وقف حتى جعلت الأهالي في وضع من الأمل الدائم الحيوي وفي حالة من الفزع والقلق بحسب الأمزجة. وكان ثمة عدد كبير مثل القطارات المشحونة بالمتفجرات لا تحتاج لغير شرارة واحدة لتفلق اللغم إلى طبقات الجو العليا وتجرف أعضاء اللجنة والمذكرات والإدارة المحلية وكل شيء. وفي هذا يكمن أفضل فرصة للمراقب التركي. لقد علمنا بمخطط توزيع آلاف الأعلام التركية في الولاية لنشرها من نوافذ منازل الموصل وغيرها من البلدان والمدن التي ستزورها اللجنة وتبين لنا أن اختيار (ناظم وفتاح) دليل على أن الترك بنوا كل آمالهم على الدعاية والدسائس، لا على المنطق العلمي، وأن إصرار الحكومة التركية على أهمية الاستفتاء العام هو مما ينحو منحى الدعاية. إذ ليس أشد ما يؤثر في هدم السلطة الإدارية في أعين السكان من مجيء مجموعة لا تدين بطاعة لأحد الذين ربما ضايقوهم في تحصيل الضرائب أو أنزلوا العقاب بإخوانهم أو أبناء عمومتهم لقتلٍ أو قطع طريق أو لمجرّد رغبتهم في استبدال أولئك الحكام بغيرهم. ويفدح الخطب عندما تكون الأغلبية الساحقة من هؤلاء السكان جهلة أميين يأكلون وينامون وسلاحهم لا يفارقهم قليلي الاكتراث بحياة البشر.

كانت الحكومة التركية قد ختمت مذكرتها الأساسية بفقرة وزنت وزناً دقيقاً، لتؤثر تأثيراً طيباً في نفوس مواطني الدول الصغرى الذين أنيط بهم مهمة تحكيم دولية:

«لأول مرة منذ تأسيس عصبة الأمم، يعرض أمام مجلس العصبة نزاع ذو أهمية كبيرة نشأ بين دولة غربية معظمة وبين دولة من دول الشرق الأدنى،

موضوعه يتعلق بتقرير مصير شعب شرقي. إن مشاعر الثقة المتبادلة ومظاهر حسن النية بين الشرق والغرب وإيمان الشعوب الشرقية بالعهد الجديد الذي تقف عصبة الأمم حامية له، إنما يعتمد كثيراً على الحل الذي ستتوصل إليه لجنتكم بعد تدقيقات شاملة مستفيضة لموضوع النزاع. وإن حكومة الجمهورية مقتنعة بأن لجنتكم ترغب رغبة صادقة في المساهمة في خلق هذه الثقة المتبادلة بين العالمَيْن الشرقي والغربي وستكون هذه النتيجة مرغوبة للغاية، وهي أيضاً تحقيق انتصار العدالة برفعها توصية إلى المجلس تقضي بضرورة إفساح المجال لأهالي ولاية الموصل لتقرير مصيرهم بأنفسهم بمنتهى الحرية».

إذن فقد كانت مهمة المندوبين دقيقة صعبة للغاية، ولذلك وطنوا العزم - وهم مصيبون - بألا يسمحوا للسلطة التي تمارس نفوذها فعلاً على الأرض المنازع فيها - بشل حركتها وحركة الوفد التركي المرافق أو شد وثاقهما، على أنه لم يكن بينهم واحد ذو خبرة حقيقية في أمور الشرق الأوسط، والاعتراض الشديد على إجراء أي استفتاء، فضلاً عن قلق الحكومة والسلطات المحلية الطبيعي، بخصوص اضطراب حبل النظام ومسألة حماية الوفد التركي من التعرض، كل هذا فسّروه بأنه قرائن تعزز شكوكهم السابقة، ووسائل ترمي إلى منعهم من الوصول إلى الحقائق. ومنع خصومنا من الحصول على المعلومات أو التأكد من مشاعر الأهالي الحقيقية. ولقد زاد انزعاجهم مما اعتبروه تكتيكاً ضيقاً بخطأين حقيقيين ارتكبهما الجانب العراقي، أولهما خطأ متعمد يتسم بالحمق وثانيهما يعزى إلى التسرع وقلة الخبرة.

يختلف وضع لواء الموصل الداخلي اختلافاً مادياً عن وضع ألوية كركوك وأربيل والسليمانية. وموقف المتصرف والمفتش الإداري والشرطة أصعب بكثير من موقفنا في الألوية الثلاثة المذكورة. فالموصل فضلاً عن كونها ثاني مدن العراق حجماً، أقل تأثراً بالعثمانيين ولعلها أكثر شعوراً بالقومية العربية من بغداد ويعزى هذا إلى وجود أسرار أرستقراطية كثيرة فيها تسيطر تمام السيطرة على السياسة

المحلية. ممثلة تمثيلاً جيداً في الوزارات المتعاقبة وغيرها من مناصب الدولة العليا. ولعلها طبقات معينة كانت تشعر أن مصالحها الاقتصادية مرتبطة بحلب أكثر من ارتباطها ببغداد. ويعيش من أصل ستمائة ألف من سكان اللواء مائتا ألف تقريباً في المدينة ومع أن الكرد أكثر من نصف السكان فهم بعيدون عن المركز قليلو الإسهام في السياسة خلافاً لأشقائهم في جنوب كردستان. وقبيل موعد وصول اللجنة صدرت تعليمات من بغداد بتأليف لجان (الدفاع الوطني) في كل أنحاء البلاد لإثارة المشاعر الوطنية وإظهارها عن طريق الاجتماعات العامة والمظاهرات، وإحياء الحفلات الدينية والبرقيات للبرهان على عزم المواطن الثابت في الدفاع عن أوطانه المقدسة حتى النفس الأخير. وفي الموصل نفسها حيث تصاعد الاستنكار والسخط إلى أعلى درجة بمجرد إلقاء الغبار حول (عربية الموصل)، طبقت هذه التعليمات بحماسة، وقَدِم من بغداد شخصيات موصلية بارزة للمساهمة في الحملة. إلا أن أعضاء اللجنة (المندوبين) لم يكونوا أغبياء حيثما باشروا عملهم. فقد اكتشفوا حالاً أن (لجان الدفاع الوطني) وكتل الوطنيين العراقيين تضم أعداداً كبيرة من المشاغبين الوصوليين[1] الكثيري الحركة وهو نوع متوفر دائماً في الشرق الأوسط يؤجج نفوسهم كرههم الأوروبيين بصورة عامة. ويزيد في وقيده التعصب الديني. وفي أحيان كثيرة تسأل هذه العناصر المتحمسة سراً عن الجانب الذي يفضلونه شخصياً فيكون جوابهم: إنهم في الحقيقة لا يدافعون عن حق العراق بهذه الضجة التي يفتعلونها افتعالاً، وإنما يريدون تركيا! ولقد شاهد اثنان من المندوبين مبارزة شخصية بالمدى بين وطني شاب متحمس من بغداد يدعى إبراهيم كمال وبين آخر من وجهاء الموصل العرب (أصبح إبراهيم كمال فيما بعد وزيراً للمالية ممتازاً ولو لم يخترمه الموت مبكراً لوصل حتماً إلى رئاسة الوزارة).

ونجم عن هذا إهمال كل بيان يصدر باسم (لجنة الدفاع) دعك من إحداثه

---

(1) كان الناس يخوضون معركة مصيرية تتعلق بمستقبل جزء من بلادهم. (المترجم).

ضرراً يفوق نفعه. وفي الأسبوع الأول لأعمال اللجنة في الموصل قررت لجنة الدفاع متأثرة بحادثة (تيليكي - جواد) في أول يوم، أن لا تؤخذ على حين غرة فنظمت عصابات من التلاميذ وغيرهم ليحيطوا القصر وليتوجهوا إلى كل مندوب أو عضو يخرج أنفه من الباب بمظاهر العواطف الوطنية. ولما لم أكن معروفاً في الموصل فقد وجدت نفسي مرة وأنا محاط بجماعة من الشباب المندفعين وهم يلوحون بأعلام ويهتفون بشعارات إلى أن أسكتّهم بجملة من خير ما أتقنه من الجمل العربية الدارجة. فسكتوا وبان عليهم الخجل. وكان موقف المتصرف من أصعب ما يمكن بعد أن نُصح بأن مسلكه الطفولي المتسرع يلحق ضرراً كبيراً بالقضية، فأخذ يجاهد في منع المظاهرات إلا أنه لم ينجح إلا في التسبب بعقد اجتماع عام احتجاجاً على محاولته مصادرة حق الكلام والتعبير، في مسألة تؤثر تأثيراً حيوياً على مستقبل البلاد ووحدتها.

أما الغلطة الثانية، فسببها يعود بالأساس إلى أن تنظيم الشرطة المحلية في العراق كان يهدف إلى جعلها أشبه شيء بالدرك (الجندرمة) منها بقوة مدنية حسب المفهوم الأوروبي، لذلك لم تكن مدربة قط على التصرف في أمور تتسم بطابع الدقة وتتطلب حسن التصرف والكياسة في فن التعقيب السري الماكر لغرض المراقبة أو الحماية. ووجدنا أن تدابير الحماية لمقر اللجنة كان جيداً. فقد ضربت الشرطة خيمة أمام الباب ونصبت فيها تلفوناً، كان كل حركة خارج البناية تعقبه مكالمة تلفونية أو تقرير لأقرب مركز من مراكز الشرطة. ومما زاد في الطين بلّة، أن رئيس اللجنة وهو شخص شديد الأرق خفيف النوم صار يشكو من سماعه أحاديث هامسة مستمرة في خيمة الحرس طوال الليل تحت نافذته مباشرة فتحرمه النوم (ادعت الشرطة أن الأصوات التي سمعها وشكا منها كان مبعثها أحد موظفيه السويسريين أثناء عودته وهو في أقصى درجات السكر... من أحد أحياء المدينة السيئة السمعة)، وكان ثمة شخص مجهول يحتل غرفة تحت الدرج وديدنه اعتراض سبيل كل شخص. وفي أحد الأيام فاتحني وصيف (تيليكي) الخاص

برغبته الشديدة في اتخاذ هذه الغرفة مخزناً للمؤن لعدم وجود مكان أنسب لها في البناية، وراح ظني أن الشخص الذي يسكنها هو الحارس الذي يقوم بملاحظة القصر أثناء خلوه، فاستدعيته وطلبت منه أن يبحث له عن مكان آخر طول وجود اللجنة، فكان جوابه سلسلة من الإيماءات والغمزات تلجئه إلى تحريك كل رأسه من فوق إلى تحت وبشدة يريد أن يفهمني بأقل ما يمكن من التصريح، عن حقيقة المهمة التي ينجزها هنا فما كان مني إلا ورفعت الخيمة وطردت الشرطي السري من غرفته تحت الدرج ولم تفده غمزاته ووكزاته، ولكن الانطباع السيئ الذي خلفه هذا العمل لم يُمح كلياً.

وظل مندوبو اللجنة عدة أيام يأبون المباشرة، حتى تم الاتفاق على منهج للعمل وأسلوب الحماية، وجعلتهم شكوكهم الأولى لا يعيرون أذناً لاقتراحنا حول هاتين النقطتين كما ظهر أيضاً أنهم راجعوا (أنقرة) حول مقترحات خاصة بتنظيم حماية بوليسية سرية بالاتفاق مع (جواد باشا) وآثروا انتظار الجواب الذي لم يكن فيه ما يوضح لهم السبيل. فقد قالت الحكومة التركية إنها تضع مسؤولية سلامة وفدها على عاتق الحكومة البريطانية على أن أعصابهم منذ 31 كانون الثاني بدأت تهدأ وتعود إلى وضعها الطبيعي وشرعوا في استقبال الوفود، فقابلوا مجلس إدارة اللواء، ثم أعضاء المجلس البلدي ووجهاء المسلمين والمسحيين وأعضاء غرفة التجارة، والمحامين، وأخيراً عدداً من الشخصيات التي اقترحها عليهم المراقبان.

وأظن أن (باولس) كان أول من بدأ يفكر لنفسه، تحت ثقل شديد من العوامل الاقتصادية. وصار يشعر بواقع وجود موالاة للعراق أصيلة حقيقية إلا أن المندوبَيْن الآخرين لم يزاولهما الشك العميق في الشواهد التي قدمتها هيئات الموظفين. وكان يبدو بشكل ملموس أنهم سيجدون شيئاً يختلف تماماً عما سُمح لهم برؤيته حتى ذلك الوقت لو أفلحوا في اختراق ستار الدخان الذي يحيط بهم وخرجوا إلى الشمس الساطعة. هذه الحيرة التي ملكتهم أدّت إلى سلسلة من أخطاء اللباقة والتحذلق التي أثارت شكاً متمماً لدى الجانب العراقي، إذ تمت خلسة عدة

زيارات لأشخاص ذوي مكانة اجتماعية واطئة، أو معروفة بسوء السمعة قبل رد الزيارات لذوي المراكز العالية والحيثيات في المجتمع الموصلي وكثير من هؤلاء طبعاً ذوو مناصب في هيئات رسمية. وجرت زيارة (القاصد الرسولي) في الموصل وهو أسقف فرنسي في حين تجاهلوا المتصرف الذي كان الممثل الأول والحكومة بينما خرج بشخصه إلى شرقاط لاستقبالهم، فنبهت الرئيس إلى هذا السهو، وإلى غيره...

ولم تمت فكرة الاستفتاء التجريبي لكن سرعان ما وجدت الفكرة غير عملية. وفي 6 شباط أعلن الرئيس فجأة أن اللجنة ارتأت أن تتشعب في 8 شباط إلى ثلاث هيئات فرعية لتنطلق إلى أهداف لن يكشف عنها. وطلب تهيئة اثنتي عشرة سيارة للسفر في وقت مبكر من ذلك اليوم. وبقيت علاقاتنا الشخصية ممتازة مع أعضاء اللجنة والوفد التركي رغم المتاعب والمضايقات (غير أن ناظم وفتاح آثرا الانطواء على نفسيهما تماماً)، وربما يعود انسجامنا إلى تناولنا الطعام سوية. كان السنيور (رودولو) قد استخدم طاهياً من بيروت لا نظير له هو الطاهي الذي كان يعد طعام قيصر ألمانيا عند زيارته الملكية لسوريا وفلسطين قبل الحرب، وأهم من هذا أنه جاء بكميات كبيرة من أنفس الخمور. وكان يبدو أن المندوبين الثلاثة يستمتعون بحكايات المائدة والتبسط فيها للغاية ومهما تكن أحداث اليوم فالسهرات تنتهي دائماً بجو من الزمالة المرحة.

وبصرف النظر عن غرف المطعم في الطابق الأعلى لم أجد الغرفة التي خصصت لي في الطابق الأرضي مريحة، فهي واسعة تصلح لغرفة مؤتمرات أو مكتباً لموظفي الإدارة أو محل انتظار زوار غير رسميين. وفيها يوجد مدفئة حديدية كبيرة وقودها الخشب كسائر ما في الغرف الأخرى إلا أنه كان يوجد فيها خطأ عجز مهندس الأشغال المحلي عن تشخيصه ومعالجته. وكنت في الليل أطفئ المدفئة وأنام بعد أن أكدس فوق أغطية فراشي كل ما أملك من معاطف ومباذل. إلا أن برودة النهار كانت أقسى من أن تغرينا بالاستغناء عن النار وكانت آداب

السلوك تحتم علينا أن لا نرفع أصوات أحاديثنا وكثيراً ما خيل لي وأنا أنظر إلى أعضاء وفدنا وهم مشتملون بالمعاطف الثقيلة وقد تقاربوا بعضهم من بعض تلفهم سحب خانقة من الدخان الكثيف، ويكاد يطمس معالمهم نور كهرباء الموصل الضعيف، وكأنهم أشباه صورة كاتسبي المشهورة وأعوانه في (مؤامرة البارود)[1] ولو اتفق أن دخل علينا أحد المندوبين دون إخطار ونحن في هذا الموضع فهو معذور إذا ظن أن ما يراه لهو دليل مقنع على أقوى شكوكه!

واختفت كل مناطق العراق الشمالية تحت غطاء من الثلج وهبطت الحرارة إلى درجة الانجماد كل الليالي وكان البرد لاذعاً في الظل وداخل البيوت أما في الشمس فالهواء الجاف القارس كان أشبه بماء الكولونيا اللاذع حين يسفع الوجه. وكنت قد جلبت حصاني من كركوك واعتدت أنا و(رودولو) القيام بنزهات ركوب في البساتين المحيطة بالمدينة وكان كل من (جاردين) والمراقب البريطاني على اتصال مستمر بـ(فيرسين) حول مختلف المصاعب المستجدة. وكان الوفدان يلجآن إلى المذكرات الخطية (أو ما يسمى في اللغة الدبلوماسية Notes Verbales على حد تسمية المندوبين لها)، لما كان يشعر أحدهما بفائدة لها في تعزيز وجهة نظر معينة أو تسجيل احتجاج أو تثبيت شيء في المحاضر. وكذلك تبادلنا أحاديث كثيرة، فهو رجل هادئ مجرب ذكي شديد الإعجاب برئيسه (السير أريك دروموند) كما وأنه كان متحرراً من الأفكار التي تسلطت على رؤوس المندوبين. وكانت كما يبدو تعكر عليه أحكام مبادئه المؤقتة. وكان انطباعي عنه أنه لا يوافق على الأسلوب الغريب الذي يتخذونه لإنجاز مهمتهم. وكان يتكبد بولاء تام لهم، عناء إيضاح كل الوقائع الشاذة بأنها خالية من أي نية ماكرة مقصودة تلك التي كان وفدنا دائماً يقف موقف المتهم بها. ولست أشك إن كان يلعب دوراً مشابهاً في تصحيح الظنون

(1) روبرت كاتسبى Robert Catesby (1573 - 1605) إنكليزي متآمر انضم في 1604 إلى عصبة المتآمرين في المؤامرة المعروفة بمؤامرة البارود وكان محركها وقطبها، وحاول الهروب عند افتضاح أمره فقتل أثناء ذلك. (المترجم).

بالأحاديث المتبادلة، فكلمة واحدة منه على الأغلب كانت تكفي لتقويم أنفه سبب للاحتكاك وتصحيحه بسرعة، كما حصل في مسألة رد الزيارات.

إن قرار انشعاب المندوبين الفجائي وتفرقهم إلى أماكن غير معروفة، في بلاد خالية من الفنادق ومن أسباب الراحة الأوروبية مهما كانت، وفي شتاء من أقسى ما عرفته البلاد، بدا لنا وكأنه أغلظ تجاهل للسلطة المحلية قامت به اللجنة، وهو تجاهل أغرمت به من البداية. وبصرف النظر عن المحاذير السياسية الخطيرة فإنه سيوقع الخلل في كل الإجراءات الحازمة التي نظمتها أنا بوصفي ضابط ارتباط مسؤول عن تنظيم أعمال اللجنة. فضلاً عن التدابير التي اتخذتها لضمان عدم تكرار ما حصل في الموصل. ولذلك اتفقنا أن يقدم (جاردين) مذكرة خطية مستعجلة يحتج فيها (نشعر أن الوقت قد حان لتدخلك ولبذل مجهود في حمل اللجنة على العمل في خط أكثر وقاءً، وأقل مرسحيةً). وكان المندوب السامي قد عرض أن يشخص بنفسه إلى الموصل في أي وقت نرى وجوده مفيداً.

وفي تلك الليلة ساءت حالة الطقس، وقضينا ساعتين صباحيتين في أشد حالات القلق كما علمنا أنه قادم إلينا جواً رغم الثلج المتساقط بكثرة، وبالفعل اصطدمت طائرته والطائرة المرافقة لها بالأرض عند الهبوط وتحطمتا لكن لم يصب أحد بجروح تزيد عن الرضوض البسيطة. وقبل وصوله حصل في الموقف تبدل حاد فقد وجه (جواد باشا) مذكرة للرئيس قبل فيها على نفسه (مسؤولية السلامة الشخصية لكل أعضاء الوفد التركي في حالة وقوع أي عمل من أعمال العنف). وأعلن موافقته (على التدابير الدقيقة التي اقترحها (في الماضي) المندوب السامي التي لا تلحق أي أذى بمكانة ومشاعر الوفد التركي وأن الوفد سيبذل المساعدة لإنجاز مهمتها). أما من جهة المندوبين، فلا ندري ما الذي جعلهم يعدلون عن فكرتهم في الذهاب إلى أماكن غير معلن عنها؟ أيعد زيادة في التأمل أو نتيجة لاعتراضنا؟ فقد انتقلوا فجأة إلى أقصى طرف مناقض وأعلنوا نيتهم بأن ينطلقوا إلى اتجاهاتهم برفقة حرس رسمي، ليعدلوا عن ذلك بسرعة خاطفة.

وقضى السير (هنري دوبس) صباحه مع أعضاء اللجنة والمراقبين، واختلى بالرئيس ساعتين مساء. وبعد تبادل صريح الكلام توصلا إلى تفاهم تام واتفقا على منهج معين في 11 شباط تتشعب اللجنة إلى أربع هيئات فرعية، ويبقى الرئيس والمراقبان في الموصل يواصلون التحقيقات في مناطق السهول ويذهب (تيليكي) و(كرامرز) و(ناظم) إلى أربيل وأخيراً يلتحق بهم (لاين) كخبير بريطاني. ويسافر (باولس) مع (صبيح وكامل) إلى شمال كركوك ويتجول (بورتاليه) في منطقة كفري يرافقه (فتاح) وخبير نتزود به موقعياً. وبعد هذا تجتمع اللجنة كلها في كركوك. ولأهمية السليمانية بوصفها مركز الحركة القومية الكردية، تنتقل البعثة برمتها إلى المدينة ومنها تعود إلى الموصل لمواصلة التحقيق مرة أخرى في مناطق اللواء الجبلية الكردية القريبة من حدود الولاية.

- 27 -

لجنة الموصل (2)

كان الموقف في الألوية الشمالية الشرقية الثلاثة يختلف تماماً عن الموقف الذي بدا في الموصل. فهناك كان الموظفون المسؤولون من القبليين الكرد لا من العرب. وكلهم يدركون كما ندرك نحن البريطانيين، أن من السخف والعبث محاولة دعم قضيتنا بمحاولة استشارة للسكان غير طبيعية، حيث لم يمر عليهم وقت طويل من حملهم على رفع علم المملكة وإقناعهم بالمساهمة في الانتخابات بعد رفض بات للانضمام إلى الدولة الجديدة، لذلك قررنا أن يكون إبراز العامل الاقتصادي خير حججنا. وهو في الحقيقة منطق سليم لا يدحض حين يُنظر في ضوء ارتياح الأهلين من النظام الحالي الذي يتولى الحكم فيه مواطنون من المنطقة بارزون يدعمهم نفوذ بريطانيا القوي وكل هذا على طرفي نقيض من ذكريات آخر أيام الحكم العثماني السيئة هناك. حتى المظاهرات المرخص بها، وجدنا أنها قد تؤثر في الانضباط العام وقد يستغلها مثيرو الفتن ويهتبلون فرصتهم ليلعبوا تلك اللعبة التي لا تفيد غير خصومنا. ولذلك اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة في الألوية الثلاثة لمنع تنفيذ التعليمات الصادرة من بغداد بتأليف (لجان الدفاع الوطني). وفي كركوك ألقينا القبض على اثنين من مندوبي بغداد أرسِلا لتنظيم تلك اللجان حال نزولهم من القطار في رأس السكة وأعدناهما من حيث أقبلا في أول قطار نازل.

غادرت الموصل جواً في بكور 11 شباط قاصداً أربيل، وهنا تبادلت حديثاً

قصيراً مع (لاين) قبل أن ينضم إلى اللجنة الفرعية على حدود اللواء قرب الزاب الكبير وكان حديثي مع متصرف اللواء (أحمد أفندي) أطول. لقد أظهرت تجاربنا في الموصل أن السياسة التي سبق تقريرها للألوية الثلاثة هي الصحيحة المنسجمة انسجاماً تاماً مع منهاج اللجنة التي توصلت إليه أخيراً بعد كثير من العثرات والمتاعب وأكدنا تعليماتنا السابقة في منع أية محاولة تظاهر تقوم بها أية جهة من الجهتين وكررنا أن قوائم الشهود الذين ستسمع شهاداتهم يجب أن تعد على أساس الشخصيات والمقام البارز (كما فعلنا في الموصل) وكان من الضروري أن نفهِم اللجنة أن موظفي الإدارة في الألوية الثلاثة لم يجر اختيارهم لمناصبهم إلا بسبب ما يتمتعون به من مقام بين أبناء قومهم ولذلك يجب ألا تهمل آراؤهم أو تعتبر مقولات ببغائية يرددها موظفون في السلطة لا غير، هذا مع عدم بذل أية محاولة منا لإخفاء مشاعر الولاء للترك إن وجد، بل علينا أن نوجه فعلاً انتباه أعضاء البعثة إلى كل من يحمل هذا الرأي مع إيضاح الأسباب التي تحملهم على هذا، وأن يبعد الشرطة عن طريق اللجنة تماماً.

وكانت الخطوات التي اتخذها متصرف أربيل فعالة. فلما سرت عصر ذلك اليوم برفقة (باولس وبورتاليه) في الأسواق وفي أزقة القلعة واجهنا هدوءاً طبيعياً عاماً لا أثر فيه للتعمل أو الافتعال وكان أصحاب الدكاكين من الصناع والبقالين منكبين على أعمالهم وبضائعهم باستغراق نادر المثال بحيث يصعب عليك حملهم على رفع أنظارهم إليك وإجابتك عن أسعار بضائعهم التي كانت موضع اهتمام الزائرين.

في تلك الليلة أدب لنا (لاين ولتلديل) مأدبة عشاء في منزلهما الذي يقع خارج المدينة بينما قام المتصرف أحمد أفندي بواجب ضيافة المراقبين الترك. إني والحق يقال لست متأكداً من إيرلندية (لاين). على أنه ربي في مقاطعة إيرلندية. فأضاف إلى خشونته الجبلية طبعاً جذاباً يعيد إلى الذاكرة إطلاق أولئك الذين أدوا فريضة الحج إلى (بلارني Blarney) ولم يكن هو أو زميله من عباد الشخصيات

المتزلفين، ووقع الضيوف في حيرة ظاهرة عما تكون طينة «لامي»[1] أربيل هذين وما هو المسلك الذي يتخذونه إزاءهما بطباعهما هذه التي لا يحاولان إخفاءها.

وشوهد (لاين وتيليكى) معاً يكادان لا يفترقان طوال الأسبوعين التاليين يتجولان في أنحاء اللواء وقد توثقت بينهما عرى صداقة حميمة وعرف أحدهما الآخر معرفة جيدة. كان تيليكى الذي يمثل شعار أسرته العريقة صور وعل وثاب فوق تاج، يتوق جداً إلى أن يرجع إلى بلاده برأس وعل من الفصيلة الآسيوية لذلك أوقف عمل اللجنة أربعاً وعشرين ساعة لأن تيليكى خرج لزيارة جبل (سفين) وهو جبل أحدب رائع في منطقة خوشناو ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيه 6500 قدم. ويبعد زهاء (25) ميلاً شمال شرق أربيل. ويشاء سوء حظ الكونت أن يخطئ في إصابة وعل ممتاز دله عليه (لاين)، ولم يكن (تيليكى) قوي البنية، فقد تدهورت صحته بأعباء الرحلات الشتوية في كردستان ولم يسعه التقدم أكثر من راوندوز.

وفي 12 منه، رافقت لجنة كركوك الفرعية إلى (آلتون كوبرى) وكان الهدوء العام يسود البلدة الصغيرة ولم يثر أي اهتمام. وفي بناية السراي بوشر بسماع الشهود، وتلك أول مرة أحضر استجواباً. وأعتقد أن (باولس) أنجز مهمته بكل حياد وبأسلوب يتفق مع درجة وعي الشهود واستعدادهم الذهني ولم يكن لدى الترك قائمة شهود. لذلك تم اختيار سبعة أسماء كيفما اتفق من القائمة العراقية، وطلب من (صبيح وكامل) القيام بالترجمة كلاً بدوره على أن يكون كل واحد رقيباً على ترجمة الآخر. وبعد شرح سبب زيارة البعثة، ومهمة كل شخص من الحضور ألقى على الشاهد عدد من الأسئلة البسيطة: ما هي قوميته؟ دينه؟ مهنته؟ واسطة النقل التي يستخدمها؟ سوقه التي يبيع فيها ويشتري وما إلى ذلك. ثم طلب (بعد انسحاب كل شخص من الغرفة وبضمنهم المترجمون) أن يجيبه كل شاهد على هذا السؤال: هل يفضل أن يكون تحت الحكم التركي أم الحكم العراقي؟ على ألا

(1) يقصد (لتلديل) و(لاين) حيث إن اسميهما يبدآن بحرف اللام. (المترجم).

يتضمن الجواب أكثر من كلمة (تركيا) أو (العراق) إن هذا السؤال الذي سمي فيما بعد (بالسؤال الصغير) لم يكن تبسيطاً سخيفاً للموضوع، كما يبدو ولأول وهلة، فهو يكفي المستنطق ليبني به رأياً عاماً حول ولاء القرويين العاطفي وهو عامل واحد فقط يجب ألا يغفل حسابه. ولا يمنع الشهود ذوو الاستعداد الذهني، من شرح الأسباب التي دعتهم إلى هذا التفضيل ولا يحال بينهم وبين الإدلاء بشروطهم المعلقة عليه ولما كانت أغلبية سكان (آلتون كوبرى) تركية ولأنها مركز رئيس للتجارة والنقل بالأكلاك مرتبطة ببغداد فإن الأجوبة الخاصة بهذه الناحية ستنحو حتماً منحى العراق. ومن هيئة الشهود وما علمت فيما بعد، قدرت خمسة منهم أراد العراق واثنين فضلا تركيا. وهي نتيجة تنطبق تماماً على وجهة نظر الأهالي العامة. نتيجة طيبة جداً للعراق إذا أخذنا بنظر الاعتبار قومية سكان البلدة.

وبعد أن تناولنا طعام الغداء سافرت إلى كركوك برفقة (بورتاليه) تاركين (باولس) والخبراء لمواصلة تحقيقاتهم في مختلف القرى الواقعة على جانبي الطريق. وصادف أن انفجر إطار في السيارة التي تقل (كامل وفتاح) فانفصلت عن سيارة (باولس وصبيح) وفي وقفتين من وقفات سيارتهما أوهم القرويون التركمان أن صبيح هو الممثل التركي (وكان بالطبع يتكلم لهجة استانبول الفصيحة) فراحوا يبدون مشاعر الولاء لتركيا ويدعون (للباديشاه) الخليفة الألعوبة الذي لم يعد له وجود وسر (باولس) بأمانة (صبيح) الذي ترجم له ذلك من غير حاجة إلى رقيب مع أنها شهادة ليست في صالحه. على أن (باولس) صارحني في تلك الليلة بأن نفسه استفظعت القذارة والحقارة التي وجدها في تلك القرى وآلمه جداً درجة التأخر العقلي عند الفلاحين الذين يساوون في رأيه أحط سكان الكونغو وأكثر منهم بدائية، لذلك لا يسعه إلا أن يستنتج أنه من العبث اتباع هذا الأسلوب في استجواب الفلاحين، وأنه أدرك الآن صحة موقفنا ووجاهة رفضنا اقتراح الاستفتاء العام. على أنه يرى من الضروري الاستمرار في التحقيق من رغبات الأهالي، إن لم يكن لشيء فلإقناع الحكومة التركية بأن اللجنة قد فعلت كل ما أمكن فعله باستثناء الاستفتاء العام.

وفي 17 منه سافرت إلى السليمانية جواً للمداولة مع (جابمان)، إن البلاد التي عرفتها جيداً كانت تبدو في نهاية الروعة في الجو الصقيعي الصافي الرائق وكان البحر المسنن لسفوح (شوان وچمچمال) تخترقه خطوط بيضاء، هي جبال قره داغ - به رتان - بيره مه كرون -ئه زمر) التي يغطيها الثلج الكثيف، فتلمع بما لا يحصى من اللآلئ. وارتفع أمامنا (هه ورامان) جداراً أبيض عظيماً، ومن بعيد إلى الشمال الشرقي بدت خطوط قمم (قنديل الواضحة) تسمو فوق كتل من الثلج أكثر تشابكاً.

ووجدت (چاپمان) ثبت الجنان، وكنا قبل بضعة أسابيع قد طلبنا تعيين متصرف عراقي بشخص (أحمد بكى توفيق بك) قبل وصول اللجنة. إلا أن مجلس الوزراء عارض في تعيينه لوجود مرشح آخر لديه لم نره مناسباً. ولذلك لم تصل أية أوامر بهذا الشأن ووجدنا أن أجراء أي تغيير الآن وفي اللحظة الأخيرة قد يثير شكاً لا داعي لإثارته وسوء فهم للمسألة. ولذلك أبرقت إلى بغداد مقترحاً أن يستمر (چاپمان) في واجباته حتى ختام زيارة اللجنة. ووجدت المواطنين البارزين الذين اتسع لي الوقت لمقابلتهم وهم أحمد بك وشيخ قادر أخ شيخ محمود آغا عبد الرحمن، ممتلئين بروح النضال فالأمر بالنسبة إليهم ليس قبولاً ذليلاً لاستجواب مفروض، ولا أجوبة سرية عن (السؤال الصغير) بل هو أخطر من هذا، ولقد عقدوا العزم بجهرهم بسوء الحكم العثماني ورفضهم له في جلسة عامة للجنة. بل سيتمادون ويوجهون بدورهم أسئلة الاتهام إلى (جواد) بصدد طلبه إعادة ضم بلادهم إلى تركيا. وإعلان عزمهم ألا يخضعوا ثانية إلى الأسياد الذين قاسوا منهم الأمرين.

ومكث (باولس) في كركوك أسبوعين ومع أن (صبيح) كان خبيرنا الرسمي إلا أن كركوك هي منطقته ولذلك وقع على عاتقي أو عاتق (ميللر) في حالة غيابي لنمده بكل المعلومات اللازمة وبطبيعة الحال كان (كامل) يلقى خدمة ممتازة من (آل نطفجي زاده) وفي مقدمتهم أخ (ناظم) لغيابه، ومن غيرهم من الموالي للترك

في الأسر الأرستقراطية. وقيض لي عدد من جلسات أحاديث طويلة هامة مع مندوب اللجنة. ولما كان جديداً على الشرق الأوسط فقد جرفته عدة مفاجآت متتالية لا عهد له بها. وكنت أرقب آراءه الأولى وهي تتحول تحولاً عنيفاً متطرفاً من أقصى نهاية إلى أقصى نهاية إلى أن تستقر بعد تذبذبها هذا على آراء معينة، ظهرت بكل أمانة أخيراً في التقرير المرفوع إلى العصبة. وقد خيل لي أنه يتعمد شحذ ذكائه بذكائي كحدي سكين فيفتعل مناقشات معي ليضع آراءه موضع اختبار، وليست أشك في أنه كان يقوم بالدور نفسه مع (كامل) الذي كان ينفرد به أيضاً في جلسات حديث طويلة.

ولفائدتنا العظمى، شاء أن ينظر إلى المشكلة أولاً من زاوية اقتصادية بحتة تقريباً واعتبرنا مقصرين في عرض هذا الجزء من قضيتنا، ودهش حين رأى أن مد السكة الحديد من كفري إلى كركوك لم يتقدم إلا بهذا المقدار وقال إنه لا مبرر لنا من عدم تحقيقنا تقدماً أكثر من هذا بكثير، وزاد يقول إننا أخطأنا في محاولتنا البرهنة بأن ولايتي البصرة وبغداد (وهما مما لا يهم اللجنة أساساً) لا يمكن أن تعيشا بدون ولاية الموصل، وكان الأصح أن نبرهن بأن الموصل لا يمكن أن تعيش منفصلة عن الولايتين... وذكر انتقادات أخرى. وأدرك أيضاً حال مغادرته الموصل تقريباً. إن أولئك الذين يقفون موقفاً عدائياً من الترك ليس فيه مساومة، لا يكنون في الوقت نفسه أي حب أو ولاء لحكام بغداد. وإن وصفهم يدل على رضاهم إلى حد ما بالوضع السائد حالياً في الألوية الشمالية باعتباره مرحلة من الطريق التي ستنتهي بالاستقلال الذاتي إلا أنه وجدهم شديدي القلق لما سيحدث لو انتهى العمل بالإدارة البريطانية في ختام السنوات الأربع المحدودة في البروتوكول الجديد الملحق بالمعاهدة. وفي الوقت الذي كان الموالون للترك مندفعين بوحي العاطفة أساساً ويعجزون تماماً أن يقدموا عند استجوابهم أسباباً معقولة لتفضيلهم الترك، فهناك كثير ممن يعتنق وجهات نظر مشابهة لتلك التي ينادي بها خصوم الترك، لكن قلقهم زاد بإبرام هذا البروتوكول بحيث فضلوا

ضمانة (وإن كانت مقترنة بطابع الجمود الذي يسود الإدارة العثمانية القديمة) على مغامرة العراق بكل ما فيها من احتمالات الفوضى والانهيار التام. وإن الآراء القومية المتطرفة التي صرح بها رئيس الوزراء (ياسين باشا) وشخصيات بغدادية هامة، زادت في شكوك (باولس) بدلاً من شدها أزر العراق في مطلبه، وجعلته يرتاب في حكمة فصل ولاية الموصل عن تركيا فصلاً تاماً بدون قيد أو شرط، وكلما مضى في تحقيقاته وتعمق، كلما بدت مسؤولياته في عينه فهي أخطر وأدق، وراح يميل ذات اليمين وذات الشمال، تراه آناً يفكر في شيء، وتراه آناً يفكر في شيء آخر، ولست أقول إنه شعر بأنه من صميم عمل اللجنة. إذ سيكون السخف بعينه أن يقدموا توصيات قد ينجم عنها قذف الولاية برمتها في أحضان الفوضى والاضطراب بعد ثلاث سنين.

وبذلت قصارى جهدي لتهدئة مخاوفه وتسكينها بصدد النتائج المحتملة لأي قرار يصدر في صالح العراق وقلت إن يقظة الشرق هي يقظة حقيقية جداً لا يمكن تجاهلها. وإن تطبيق أساليب استعمارية على غرار ما يطبق الكونغو لا يمكن التفكير فيها مطلقاً هنا. ويخال لي أن الفترة القصيرة التي عينت في البروتوكول بخصوص مدة المعاهدة هي في الحقيقة تنازل لرأي المتطرفين في كل من إنكلترا والعراق. وليس هناك من يفكر بصورة جدية أن المعاهدة لن تجدد لفترة ثانية قبيل نهاية السنوات الأربع.

إن المناقشات الشخصية التي يسودها جو الود والصداقة، وخلو المكان من أي نشاط بوليسي، وموقف (صبيح) في اليوم الأول، وإدراك (باولس) أن تحقيقاته الخاصة بنتائجها الصالحة والطالحة، أكدت له التكهنات التي أنهيتها إليه متنبئاً بأنه سيتوصل إليها بنفسه، كل هذه الأمور أزالت من ذهن (پاولس) الشكوك التي نشأت فيه وبسبب سوء الفهم الذي ساد أسابيعنا الثلاثة الأولى في الموصل. وبذلك آل (نطفجي زاده) أقصى ما في طوقهم لإبقاء الشك وعدم الثقة بإقناع (كامل) بالشكوي من الإرهاب وتقديم الاحتجاجات فيفعل، وكان يسهل علينا في

كل مرة أن نثبت أن المعتدى عليهم المزعومين هم مجرمون ذوو سوابق مسجلة في دوائر الشرطة، وأنهم يريدون إحداث الشغب وإقامة التظاهرات. ولما كان قد تقرر ألا يسمح بأي تظاهرة موالية للعراق فنحن محقون جداً في اتخاذ التدابير التي نراها تؤدي إلى هذه الغاية وقد تلقيت جواباً من مندوب اللجنة على تقرير كتبته بخصوص إحدى تلك الشكاوى وضعنا في مركز قوي عندما شكت الحكومة التركية أن المندوبين ووفدهم قد سدت عليهم المنافذ أثبته هنا بنصه الفرنسي:

«أتشرف بإعلامكم أني تسلمت رسالتكم في هذا اليوم. وبطيها البيانات التي كنت قد طلبتها منكم في موضوع قيامكم ببعض الاعتقالات للأفراد في الرابع عشر من الشهر الجاري، إن الإيضاحات التي قدمتموها كافية تماماً وإنه ليسرني الاعتراف بجدوى تدابيركم الفعالة في إدارتكم شؤون كركوك. تلك التدابير الرامية إلى منع كل التظاهرات في الشارع وحظرها على الجانبين سواء بسواء. وإنه ليسعدني في الوقت نفسه التنويه بالحرية الكاملة التي أتحتموها لي في هذه المدينة للتعرف على آراء سكانها».

لقد قطعنا في الواقع مرحلة طويلة من الطريق وخلّفنا وراءنا مرحلة التراشق بالمذكرات الخطية منذ أيامنا في الموصل.

وأما عن (كامل) فقد صرت ألتقي به أكثر من ذي قبل، فأحببته واحترمته، لقد سعى هذا الرجل سعياً فائقاً للإفادة من كل العوامل الصالحة لقضيته والمتوفرة في كركوك ومع وجود آل نفطجي زاده خلفه يدفعونه فإنه لم يسمح لنفسه بأن يحيد عن جادة السلوك الصحيح المتسم بالحصافة والكياسة الذي كان طبيعة فيه. وكنت شديد اللهفة لأوضح له أن الخصومة السياسية التي كلفنا بها لا تؤثر قط على احترامي الشخصي له. وكان (روب) في نهاية البراعة عندما دعاه مع (باولس) إلى عشاء في مطعم القوة الجوية، بوصفه زميلاً في صناعة الحرب الشريفة.

وشعرت أن أمورنا في كركوك وهي المركز الحصين للنفوذ العثماني في ولاية الموصل، قد سارت عموماً سيراً أفضل بكثير عما يحق لنا أن نتوقعه وأدرك

مندوب البعثة الآن أنه إذا كان جزء من سكان المدينة تركيا فإن الأغلبية الساحقة من سكان اللواء هم كرد. وبعدد الرؤوس، فإن العرب الذين يسكنون اللواء (قبيلة العبيد والعشائر الساكنة في مالا وقره تبه) يزيدون على عدد الترك. والفضل الكبير الذي يعود إلى مجهودات آل اليعقوبي الحميدة توصل إلى أن ينقسم الشهود الذين يتكلمون التركية إلى قسمين متساويين تقريباً. وأما عن الكرد، فإذا كان القرويون الذين يعيشون في أحط درجة من المدنية أمثال قرويي (شوان والتون كوپرى) والقرى المجاورة للمدينة قد صوتوا لتركيا بتأثير أسيادهم ومالكي أراضيهم من الإقطاعيين أو بدافع من الشعور الديني، فإن (قره حسن، وطاووق) ونخبة طيبة من الشخصيات القبلية البارزة الذكية صوتت للعراق كتلة واحدة. كذلك صوتت للعراق طوائف المسيحيين والموسويين التي كانت لها وزنها النسبي إلى عددها ولكي نرصّ الرأي العام المحلي في بلدة كفري التي كانت بعض أسرها البارزة تركية مثل كركوك فقد اعتمدنا على (عمر نظمي بك) وهو من كفري بالأصل. وكان قاضياً في كركوك في العام 1922 كما أسلفت. ففك من وظيفته ورُبط بنا بصورة مؤقتة. ولجهله بالإنكليزية والفرنسية لم يختر لمرافقة (پورتاليه) خبيراً لنا. ووقع اختياري على (كورنر) وأظنني عكرت عليه بهذا جو صداقتنا. إذ لم تعجبه المهمة أبداً. ودفعت به إلى (كفري). واتفقنا في جلسة عقدناها مع (پورتاليه) و(فتاح) على خطة عمل اللجنة الفرعية. ثم انفردت (بكورنر) وأكدت له أننا لا نتوقع منه مأثرة سياسية باهرة، وأن معرفته بالبلاد وشعبيته بين الناس ستخلف أثرها الجيد في نفس وكيل المندوب المحايد، وأن مجرد وجوده في الطرف المقابل سيمنع (فتاح) من الإفراط في تصرفاته المستهترة. وليس عليه إلا أن يذكّر شيوخ القبائل ومن عالجه بأمور بعيدة كسؤاله عن جروح الطلقات النارية التي أصيب بها فلان أو الفوائد التي جنوها من إدارة حكومة الانتداب، وليس بحاجة أن يسألهم أسئلة غير مناسبة. وأعلمته أن سياستنا لا ترمي إلى تشديد الرقابة على المندوبين الترك، لكن إذا شعر بأن (فتاح) يمضي في دعاياته وإرهابه إلى حد الإفراط فعليه أن يقدم احتجاجاً لپورتاليه.

قامت اللجنة الفرعية في كفري بتفقد قطاع كبير من المنطقة فزارت جبل حمرين بالسيارات وباتت ليلة واحدة في (قره تبه) وقضت أربعة أيام 18 - 22 شباط تتجول خارج كفري. وباتت ليلتها في (إبراهيم خانجي: زنكنه) و(قادر كرم: شيخ عبد الكريم) و(جاوري: عزيزي عباس داووده) و(طوز خورماتو) و(بسطاملي بيات). كان (كورنر) المدني ينوء تحت أثقل مهمة من دون سائر الخبراء. (فناظم) في أربيل و(كامل) في كركوك أشبه ما يكونان في محيطهما الاعتيادي أما (فتاح) فكان بين القبائل التي أطلقت عليها مرة (لغم كفري) كأنه في بيته هذا فضلاً عن كون لجنة كفري هي الوحيدة التي تقضي لياليها بعيداً عن مراكز الإدارة في ضيافات شيوخ القبائل، حيث يقعد (بورتاليه وكورنر) ساكتين في الديوان بينما ينطلق (فتاح) إلى مجالس خاصة بسبب قرابته من بعض السيدات ويعقد الاجتماعات في السر. وكانت خطة (فتاح) أن يذيع حكايات ويوزع نشرات (عثرنا على واحدة منها) يزعم فيها أن الموضوع قد سوي في الحقيقة، وأن (رمزي) الذي كان قائمقاماً لرواندوز ورانية في العام 1922 سيأتي عما قريب ليتولى إدارة كفري. وكان أثناء الاستجواب العلني يتظاهر بتدوين ملاحظات عن كل ما يقال مما يحمل محمل التهديد والوعيد.

كان (كورنر) بطبيعة خلقه أرهف وجداناً من أن تهدئه تأكيداتي الملطفة وتفرخ روعه، وعاد إلى كركوك مثل سجين أطلق سراحه تواً. وهو شديد التشاؤم قليل الإيمان بجدوى ما فعل. وكان الواقع خلاف ذلك فقد حقق نتائج ممتازة وفي (كه لا ر) وقف (كريم بك جاف) إلى الجانب العراقي بصراحة وحماسة. ولدهشتنا وجدنا (عزيزي عباس داووده) لا يقل عنه صراحة في إعلان رأيه إلى جانبنا حتى (رفعت) نفسه، فالمعتقد أنه أعطانا صوته. وخيب ظننا طالبانية (كل) بإبدائهم بعض التردد والتمنع، إلا أن إعلانهم بأنهم سيصوتون إلى جهة (عبد الله صافي أفندي) وطالبانية كركوك وقره حسن وطاووق، ضَمِن أصواتهم لنا فضلاً عن قيمتها وصوتت (الطوز إلى جانبنا) وإذا كانت الغلبة في البلدان الصغيرة ككفري وقره

تبه، وعند قبيلة (ده للو) للجانب التركي، فإنها ليست كافية لهزم كتلة الجاف والداووده المتراصة.

وفي 21 منه طرت إلى الموصل حيث كان (فيرسن، وجاردين، وجواد) منهمكين في تحقيقات النصف الجنوبي من لواء الموصل وكانت النسب متأرجحة والحظوظ متفاوتة، والجو أقل توتراً من السابق لكن وقع بعض الحوادث كانت مع جانبها المضحك كافية لإبقاء شكوك الرئيس على حالها. ففي تلعفر وهي بلدة تركمانية تبعد 40 ميلاً عن الموصل، أفلح مشاغب مدسوس في خديعة القائمقام ونجح بإخراج مظاهرة موالية للترك تتألف من عيّاري السوق وذلك في ضواحي البلدة تناقض تماماً شبه الإجماع للشهود الرسميين في كل من القائمتين التركية والعراقية الذين صوتوا إما إلى الجانب العراقي أو قالوا إنهم يريدون أن يتبعوا مدينة الموصل. وحصل ما يشبه هذا في (عقرة) الكردية الخالصة. وفي سنجار كان أحد الفراشين مسنداً ظهره وهو نعسان إلى باب الغرفة التي يجري فيها التحقيق وعندما فتح الباب من الداخل بغفلة منه سقط على الأرض واتهم بأنه متجسس، وصادف أن كان هذا الرجل أصم كالحجر! لكن لا يتوقع من أحد أن يؤمن بهذا. وأعظم ما ضايق الرئيس أن عضواً قيادياً في لجنة الدفاع في المدينة، ذا لحية تستوقف النظر في أي حشد من الناس كان وتدل على صاحبها، كان كثير النشاط في زيارة كل مركز إداري قبل أن تدخله اللجنة الفرعية بقليل، ويبدو أن (هذا الملتحي القذر Sale Hashm) كان يتمكن دائماً من الوصول إلى (فيرسين) والوقوف أمامه كلما همّ بدخول الدائرة التي خصصت فيها غرفة للاستجواب ولهذه الأسباب، كان أملنا في النصف الجنوبي من لواء الموصل لا يسمو إلى أكثر من خمسين بالمائة من التصويت السياسي.

عندما وصلت كركوك في الرابع والعشرين منه وجدت (تيليكى) طريح الفراش وعليه علائم السقم، وقد سُفر جواً إلى بغداد في اليوم التالي بتوصية (كورنر). وكان (بورتاليه) قد عاد من كفري يشكو التهاب اللوزتين، وأطاحت الملاريا

بـ(فيرسين) في 25 منه بعد عودته مباشرة. لذلك كانت لجنة هزيلة تلك التي قصدت السليمانية في 27 منه إلا أن المتخلفين ما لبثوا أن التحقوا بنا بعد يوم أو اثنين باستثناء (تيليكي).

لم تكن تساورنا ذرة من الشك في أننا نوشك الآن خوض المعركة الفاصلة بعد كل حربنا. فها هنا إقليم ليس فيه أقلية عربية أو تركية مطلقاً. والكرد هنا يكادون يكونون في ثورة دائمة ضد السلطات العراقية والبريطانية طوال السنوات الخمس الأخيرة. وأن قائد الثورة النافذ الكلمة والمحترم من الجميع حسب الظاهر، كان على صلة مستمرة بحكام تركيا مستنجداً طالباً العون مؤكداً إخلاصه لهم، فلا عجب إذن أن راح يتوقع هنا نصراً ساحقاً مؤزراً بعد المعارك المتكافئة في الموصل وأربيل وكركوك، لا غرابة أيضاً في أن يظهر المندوبون شوقاً ولهفة إلى إجراء التحقيق في منطقة كانوا يأملون أن يستمعوا فيها إلى تعبير في الرأي قوي لشعب قدّم أعظم برهان على استقلاله الفكري. أما نحن فقد كنا نستطيع أن نمضي في عملنا بثقة تامة ويقين بأن النتيجة ستكون خلافاً لما يتوقعه (پاولس وبورتاليه) ولما كان الفريق التركي متأكداً منه هو والأعضاء الحياديون ولم يدر (جواد) أنه مزمع أن يتلقى مفاجأة العمر!

في الليلة التي سبقت سفرنا إلى السليمانية تبادلت حديثاً طويلاً مع (فيرسين) وجريا على السياسة التي اتبعتها مع (باولس) زودته بتكهناتي عما سيجده هناك ولخصت له الموقف بما يلي: هنالك عدد قليل من القوميين المتعصبين الكرد. أما الأغلبية منهم وطنيون معتدلون يرغبون في اتحاد مع العراق شريطة أن يكون موظفوهم كرداً، وأن تبقى اللغة الكردية لغة الإدارة الرسمية، والتعليم في المدارس. أما التجار (الذي يعني الانفصال خرابهم) فهم موالون للعراق بشدة ومن دون قيد أو شرط. وليس في الإقليم كله من يعطف على الترك إلا شرذمة صغيرة من المتقاعدين المستائين.

وقبيل السفر بدأ (جواد) يتململ وراحت ثقته تزاوله، فقد قبل والعهدة على الراوي أن قصاصة من الورق دست في يده وبها إنذار له بأنه سيقتل في السليمانية، وقيل أيضاً إنه أبلغ بأنباء تشير إلى إيفاد (15) آثوريا لاغتياله واغتيال خبرائه. فأكدت للرئيس ول(باولس) أن معرفتي بالسليمانية تكفي لأطمئن بأن الوفد التركي برمته سيكون آمناً من الاعتداء والإهانة. بغض النظر عن سخافة هذه الحكاية الأثورية. فمن يسكن السليمانية منهم فماهر بارز في مجتمعها ومن المحال إخفاء أحد من القادمين. إلا أن (فتاح) وهو مواطن من السليمانية قد ينظر الناس إليه هنا كخائن وعميل مارق، وأن جماعة من شبان الكرد الوطنيين (على حد تقارير چابمان) يعدون العدة للقيام بعمل لا يزيد عن الطلي بالزفت أو التشهير وما إليه من أعمال التشنيع والسخرية به. ورجوت الرئيس أن يطلب من فتاح ومن ناظم أيضاً (زيادة في التحوط) ألا يخرجا إلى المدينة حتى أتوفر إلى دراسة الوضع شخصياً وفي موقعه. وفي اليوم التالي وجدتني زميلاً لپاولس في سيارة واحدة وهو العضو الوحيد الذي أمكنه السفر، وفي الطريق دفع إليّ بقائمة زوده بها (جواد) زاعماً أنها تتضمن أسماء المشاغبين الذين أرسلوا إلى السليمانية خلسة لبث الدعاية ورجا مني إبعادهم عن المدينة. ظهر أن هذه القائمة تحوي أسماء (بابكر آغا، وشيخ ئاوول سه نكاو، وحاجي شيخ عارف سه ر كه لو وأحمد بك جاف ابن سيدة حلبچة، وكريم بك جاف)، وهؤلاء هم طبعاً صفوة أعيان اللواء ومقامهم كبير في قائمة الشهود التي سبق لنا تقديمها رسمياً. وكان آخر المذكورين قد اجتذب اهتمام (بورتاليه) لمركزه المرموق وذكائه فأشاد به وذكره ذكراً حميداً بعد زيارته كفري. ولا شك أن (جواد) كان سليم النية بتقديمه هذه القائمة (ففتاح) كان يورطه دائماً بأسوأ النصح، وقد أراد أن يظهرهم بمظهر المشاغبين الأفاقين، مما يختلف تماماً عن خطتنا الثابتة التي درجنا عليها وهي تقديم قوائم كاملة بأسماء الشخصيات البارزة بصرف النظر عن آرائهم ووجهات نظرهم السياسية. ولم يكن

(باولس) آسفاً في إيضاحه للمراقب التركي سخافة قصص (الديك والثور)!! اللامعقولة التي ظلت تنهال على المندوبين منذ وصوله من الموصل.

إن دخول قافلتنا المؤلفة من عشرين سيارة لم تخلق أية ضجة في المدينة وكان (باولس وكرامرز) يتقدمان (جواد وكامل) مسافة قصيرة جداً فخرج الأربعة معاً إلى الأسواق المدنية حال وصولهم وراحوا يتجولون ويلقون الأسئلة على أصحاب الدكاكين إلا أنهم جوبهوا بحائط أصم كما كان الحال في أربيل ولم يكترث أحد بهم ولم يتجمع أناس حولهم. واضرب (جواد وكامل) بعدها عن الخروج. أما (فتاح وناظم) اللذان لم يعدما مصدر معلوماتهما الخاصة عما سيوشك أن يقع، فلم يجسرا على ترك الدار طوال وجودنا في المدينة! ووصل (بابكر آغا) في ساعات العصر الأولى يحف به فرسان البشدر المغاوير حوالي مائة منهم في أفخم حللهم وأكرم خيولهم، وبكل سلاحهم، وراح (باولس) يراقب بنظره هذه المظاهرة العسكرية الجميلة المهيبة فعلق ساخراً بقوله: (أهذا هو الرجل الذي خدع المراقب التركي به، وأظهره له خبيره على غير حقيقته؟).

وبدأ وكأن (جواد باشا) فقد الثقة بمقدرة (فتاح) على معاونته ورجاني شخصياً أن أطلب عنه من رضا بك (صديقنا المخلص للعام 1919، الذي يذكر أن الأنبياء قالت عنه إنه تزعم الحزب الموالي للترك في اضطرابات 1923 - 1924، أن يأتي لزيارته حتى يثوره بالتكوين الأثنوغرافي للواء. وكنا قد تحدينا المراقب التركي بأن يقدم للجنة الـ 32000 تركي الذين ورد ذكر وجودهم هنا، في مذكرة رسمية قدمها للحكومة البريطانية. إلا أن (رضا بك) رفض رفضاً باتاً مقابلة الباشا إلا أن أكون ثالثهما. فأجبت أن هذا خالف لأصول اللياقة ورجوته أن يعتبرها منة شخصية عليّ فيوافق على مقابلته بمفرده أو على الأقل بمحضر من أحد المندوبين الحياديّين وله ملء الحرية في الإدلاء بأي رأي يختار، وأكدت له أن هذه المقابلة لن تعتبر نقطة سيئة له، وأنه إذا كان قد ندم على صلته السابقة (كما يظهر مسلكه الحالي) فهو

يقدم خدمة كبيرة بقيامه دليلاً على أن الوفد التركي لم يمنع من مقابلة رجل كان يعتمد على مساعدته، إلا أنه بقي مصراً رغم رجائي وتوسلي وعندما أبلغت (جواد) بفضل مهمتي طلب مني ألا أهتم للمسألة أكثر من هذا.

إن مسألة (التكوين القومي) لسكان لواء السليمانية كانت مثالاً حسناً على سخف معظم جوانب القضية التي عرضتها الحكومة التركية وعقم المهمة التي أنيطت بالمسكين (جواد باشا)، وكان الرد البريطاني الرسمي على هذا الزعم أنه لا يوجد في السليمانية مواطن تركي واحد، ولما وصلنا إلى السليمانية سرينا عن أنفسنا بتقديم مذكرة خطية للجنة معتذرين عن ورود خطأ في رد الحكومة البريطانية المنوه به آنفاً ولذلك فنحن نستدرك فنقول إننا وجدنا تركيا واحداً في السليمانية وهو من خدام معسكرات الحامية التركية قبل الحرب، استوطن المدينة بعد زواجه بامرأة كردية، وهو الآن عامل تنظيفات في البلدية.

واستمرت التحقيقات في السليمانية ثلاثة أيام ولحق فيرسين بباولس وحضر تحقيقات اليوم الثاني والثالث وكان كل الشهود البارزين على كلمتهم وعهدهم ولم يخفوا شيئاً من مشاعرهم في الجلسات العلنية مثلما تعهدوا. فشجبوا فساد الحكم التركي، وسوءه وذكروا بسرور المختال مناسبات عددية منها انسحاب 1918 عندما هزم الكرد كل الحملات التي أرسلت لقمع انتفاضتهم، فعرّوا جنودها من ثيابهم وأطلقوهم بهذه الحالة المزرية. وعرضوا أيضاً حادث مقتل (الشيخ سعيد) والد (الشيخ محمود) في الموصل 1908، دليلاً على الحقد الدنيوي بين القوميتين ودعمت هذه الشهادات، بإفادات الشهود الذين يلون الأولين بالأهمية، مثل أصدقائي الملاكين الثابتي العزم (سعيد آغا جافران، وكويخا نجم سيى وسينان) فقد أثرت هي الأخرى بأجوبتها الصريحة المعقولة المعللة عن كل الأسئلة.

تعمدت إبعاد نفسي أثناء هذه الإجراءات، إلا أن (بابكر آغا) وبكزادة الجاف وآخرين أصروا على حضوري لأقوم بالترجمة في الجلسة العامة الوحيدة ولاحظت أعضاء اللجنة ذاهلين مشدوهين للأجوبة التركية التي كانوا يتلقونها عن أسئلتهم،

ولا سيما أجوبة (بابكر آغا) اقتصادية كانت أم سياسية أم الموضوع المحرج المحير لمسألة الشيخ محمود على ضوء هذا الموقف الشاذ من الأحداث[1].

إن بشائر النصر الفاصل في السليمانية بدت واضحة في فقرات عديدة من تقرير (فيرسين) عند ذكره اللواء.

«وباستثناء لواء السليمانية، لا يوجد منطقة واحدة مؤلفة من عدة نواح، إلا وكانت أغلبيتها النسبية تصوت لصالح أحد الطرفين. وهو ما لاحظناه.. وفي لواء السليمانية وحده ظفرنا بأدق تعبير لوجهات النظر وكان بها القول الفصل.. والأشخاص الذين قابلناهم أعلنوا تفضيلهم الحكومة العراقية باستثناءات نادرة... إن اللجنة اقتنعت بشكل لا مرد له بأن الأهالي عبروا عن رغباتهم تعبيراً كاملاً حراً... ووجدنا الشعور القومي الكردي هو الشعور الغلاب والمعقول وإن كان بعدُ فتياً ومع أن القوم صرحوا برغبتهم النهائية الجازمة في الاستقلال التام الناجز، فإنهم أدركوا فوائد (وصاية) حريصة ذات تفكير واسع وكياسة. وليس من شك في أن كفاءة الإداريين البريطانيين وإصابة قراراتهم في هذه البلاد كان لها تأثير واسع شديد على اتجاه تفكير الأهالي».

وهكذا، مرت الأيام فإذا بكسرة الخبز التي ألقاها (نويل) في اليمّ أولاً عندما جاء بمهمة الترجمة للعام 1918، وتعهدها (صون) خلال فترة حكمه الحاذقة العادلة، عادت إلينا بمردود مضاعف من الأرغفة في هذه اللحظة العصيبة من حياة دولة العراق الفتية.

وعدنا إلى كركوك في 3 أيار، وسرني اقتراح الرئيس مشاطرته السيارة، فإلى تلك اللحظة كانت صلتي به أقل بكثير من أي عضو حيادي في اللجنة. ووجدته

---

(1) كان الشيخ محمود أذكى وأبعد نظراً من أن يظهر نفسه أثناء زيارة اللجنة وبقي بعيداً، وقررت اللجنة من تلقاء نفسها أنه ليس من حسن اللباقة استقدام ثائر علني ليقدم شهادة. وانتظر حتى عادوا فواصل تكتيكه الحربي. إلا أن تثبيت أقدام الإدارة بشكل مطرد جعل منه أخيرا شخصا مطارداً خارجاً على القانون يتنقل غدوة ورواحاً ما بين الحدود حتى أعلن الخضوع السنة 1927.

مشدوهاً ومهتاجاً لكل ما شاهده في السليمانية. وقال لي لما أدرك (جواد) كم ساءت الأمور بالنسبة له زعم أن الأهالي وقعوا تحت التهديد، أو ارتشوا، وهذا غير معقول أبداً، فبإمكانك شراء شخص أو اثنين في مجتمع لكنك لا تستطيع شراء أهالي الإقليم قاطبة. وربما أظهر شاهد أو اثنان شيئاً من التخوف والعصبية أثناء الاستجواب في أماكن أخرى. لكن الأهالي هنا في السليمانية اندفعوا إلى الأمام من غير تهديد أو وعيد للإدلاء بآرائهم.

وبعد ليلة (لباولس) في كركوك قام خلالها بمقابلة أخيرة لأنصار الترك مجتمعاً، خرجنا قاصدين أربيل وتوقفنا ساعتين في (ألتون كوبري) لإكمال التحقيق الذي تركه (باولس) ناقصاً، قبل ثلاثة أسابيع. وهنا لحقت بنا هزيمة صغيرة إذ لم يستقبل وصولنا بمظاهر عدم الاكتراث التي كانت طابع معظم جولات اللجنة في الألوية الثلاثة. فقد وجدنا صفاً من الشباب التركماني، ما لبث أن أحاط بالمراقب التركي وهو في سيارته فخطب فيهم كالأب الذي جاء يتفقد أبناءه الضالين. وانفجر أحدهم باكياً ليبدو مظهراً معبراً عن عواطفهم، ويقول تقرير (فيرسين) إن أعضاء اللجنة كثيراً ما وجدوها لدى الطبقات المعدمة (التي ما زالت طبعاً تخلط بين تركيا مصطفى كمال، وتركيا الخلافة العثمانية) ولا سيما بين الأهالي العرب. وتحسست أن آل نفطجي زاده كانوا قد نشطوا جداً، ولعلهم استخدموا سلاحهم المألوف وهو أن القرار منته لصالح تركيا. لقد حصل هذا كله في فترة الارتياح والثقة التي أصابت سلطاتنا المحلية من نتائج الزيارة السابقة الطيبة. وبسبب تراخي الإدارة في بعض أجزاء من اللواء.

وبلغنا أربيل أول العصر ودعاني (جواد باشا) إلى نزهة في أرجاء المدينة، وبدأ حديثه بقول كنت متهيئاً لسماعه ومتوقعاً له. قال إن وفده كان بعيداً كل البعد عن الانسجام والتجانس وإنه ألح ليعفى من هذه المهمة فلم يجب طلبه. وإنه يشعر بأشد الأسف لأننا لم نسو موضوع النزاع بيننا مباشرة وآثرنا الرجوع إلى عصبة الأمم. وقال إن الحكومة البريطانية ضيّعت فرصة عظيمة بعدم دعوة تركيا والعراق

إلى طاولة مؤتمر تلعب هي فيه دور الحكم، بشكل يحفظ حقوق تركيا ويحقق أماني العراق، ويعزز مكانة بريطانيا. ولا شك أنه كان بالإمكان إحداث خط يجعل الأهالي الترك لتركيا. واتخاذ تدابير معينة يتطلبها الشعور القومي الكردي، إلا أننا اشططنا وتمادينا، وطالبنا بجزء من ولاية (حكارى) فقضينا على كل أمل بتسوية ودية، واستطرد يقول إنه كان قد وُضِع تحت إمرته قبل 18 شهراً فرقتان من المشاة ولواءان من الخيالة في الجزيرة، وكان الشعب التركي متحمساً للحرب، وربما تمكنت قوتنا الجوية من إلحاق بعض الضرر به إلا أنه لن يجد ما يعترض سبيله إلى بغداد نفسها، غير أن حكومته فضلت التسوية الودية. ثم وقعت حادثة أسر والي (حكارى) وقتل قائد الدرك بأيدي الأثوريين. صحيح أن الوالي أطلق سراحه وأعيد، لكن مرتكبي هذه الأعمال لم يقدموا عليها إلا مؤملين أن تلقى دعماً منا. ورغم هذا الاستفزاز فإنه قصر عمله على تأديب القبائل الجائحة وهو ما يحتمه الواجب في مثل هذه القضايا.

واستطرد الزميل التركي قائلاً، ليس ثمة ما يدعى بعداوة جديدة موروثة تركية - بريطانية، وذكر حادثة وقعت إبّان ثورة (جون ترك) في العام 1909، وهي قيام الجموع المتظاهرة بحل خيول عربة السفير البريطاني والسير بها بدلاً من حيواناتها في الشوارع بحماسة. وقال إن الدبلوماسية البريطانية فشلت في تفهم الموقف وأجبرت تركيا على إلقاء نفسها في أحضان ألمانيا. وبعد الحرب أجبر هو نفسه بضغط من البريطانيين على الاستقالة من وزارة الحربية. ثم جرى اعتقاله بكل مظاهر التحقير والتشهير وأبعد إلى (مالطة)، على أنه ظل مع ذلك مقتنعاً بأن الصداقة والتعاون هما السياستان الصحيحتان والطبيعيتان لبلدينا. وإنه ليتطلع ككثير من أبناء وطنه إلى ذلك اليوم الذي تعود العلاقات التقليدية القديمة فيما بيننا على أسس الاحترام والإخلاص المتبادل.

وفي 5 آذار عادت اللجنة إلى الموصل لتقوم منها بآخر فصل من فصول التحقيقات، ولما لم يكن لديّ ما يشغلني خلال هذه الفترة القصيرة فقد سافرت

إلى بغداد جواً ونزلت ضيفاً في دار المندوب السامي ونعمت بصحبة (تيليكى) الذي كان ضيفاً أيضاً وقضيت فترة طيبة أنعم بمستوى عال من العيش تضمن نزهة نهرية (كان الربيع في الجنوب قد تقدم كثيراً) وحفلة رقص في النادي. ومآدب عشاء وغداء عديدة انتهت بخاتمة مفجعة. وهو القيام بالواجب المحزن، واجب تشييع جثمان الرائد (هـ.س. برللي H.C. Pulley) معاون مستشار وزارة الداخلية، وهو زميل محترم وإن كان أكبر عمراً بعض الشيء من سائرنا، ومن لقاءاتي العديدة (بتيليكى) الذي لم أجده كثير الانبساط لي، تبينت أنه يؤيد الفكرة التي توصلنا إليها وهي أنه وزملاؤه قاموا بعمل زهيد القيمة لأنهم لم يبدأوه بفهم البلاد ودراستها، وكان قلقاً للغاية بسبب غيابه الطويل عن ميدان عمله، وعرض عليّ مسودة برقية كتبها للرئيس يعرض فيها استقالته من اللجنة. على أنه صرح بعد قليل بأنه قادر على السفر، وفي 11 منه طار إلى الموصل في رحلة شاقة عانى منها كثيراً.

لقد حفظ كل امرئ عبر الماضي ودروس الأيام الأولى، فلم يظهر شرطي واحد في «القصر الملكي»[1] وكان المناخ منعشاً، وجو اللجنة لا يشوبه كُدْرة والأعضاء بلهفة منهم لإكمال أعمالهم في الأقضية الجبلية بأسرع ما يمكن، قرروا أن يقصروا زياراتهم على (زاخو ودهوك). وأن يطلبوا من شهود العمادية والزيبار الحضور إلى دهوك لسماعهم. لذلك تركت الموصل قبلهم بيومين لأتأكد من حسن التدابير المتخذة لاستقبال اللجنة. ولأزود الموظفين بالإرشاد حول ما سيتبع من إجراءات. لقد وقعت في غرام جو (زاخو) حالما دخلتها، ويسكن هذه البلدة زهاء (4000) نفس نصفهم من اليهود وربعهم نصارى والباقي مسلمون كرد ويقع القسم العتيق منها في جزيرة على نهر الخابور الشرقي، شمال اتجاهه وقبل مصبه في دجلة بمسافة سبعة أميال ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 1450 قدماً تقريباً.

(1) ويقصد به قصر آل الشربتي القريب من بناية محاكم الموصل الحالية وكان نزول الملك العراقي فيه عادة. (المترجم).

وتقع الحدود الحالية (الرسمية) على بعد خمسة أميال منها. ويصل الجزيرة بالضفة اليمنى جسر أحدب قديم من الطراز الذي يعزى عادة في إيران إلى الشاه عباس الصفوي، ويصلها بالضفة اليسرى جسر معلق لا يخلو من جمال، أقامته مديرية أشغالنا العامة قبل سنتين. وثمة رصيف جميل يمتد عبر مرج منبسط حتى الجسر المعلق، بدا لي ضاحكاً بأشجار اللوز ذات الزهر المتفتح، وأشجار الزان الخضراء الفضية ببراعمها. وكان اليوم سبتاً وكانت العائلات قد خرجت للنزهة في ضفاف النهر المعشوشبة اليانعة مسيحيهم ومسلميهم مختلطين بالعدد الأكبر من اليهود. الفتيات في أزهى ثيابهن وحليهن والشباب في أجمل حلل الجوخة والرّانك المسلمة والمسيحية ذات الخطوط الملونة التي اشتهرت زاخو بحياكتها. والتقيت بالقائمقام «محمود فخري»[1] وهو شاب موصلي جيد الثقافة ارتقى سلم المناصب حتى بلغ وظيفة مدير تحرير متصرفية الموصل. ثم رفع لمنصب قائمقام القضاء.

وتعرفت كذلك بمعاون مدير الشرطة (يونس) وأدركت لأول وهلة أنهما موظفان ممتازان وثبت لي جديتهما في عمليهما، وعلاقاتهما الطيبة - إن لم أقل الودودة - بمختلف وجهاء البلدة الذين جاؤوا للسلام عليّ بمختلف أديانهم.

إن (زاخو) مركز هام تجاري وقد اختصت بالأكلاك، ففي الطرف الشمالي من الجزيرة كانت الضفة المقابلة تزخر بالأكلاك ويعمل صناعهم في تركيبها كأنهم خلية نحل. حتى لقد شاهدت عشرة منها كاملة نُفخت قربها وحملت خشب وقود لتنحدر به إلى الموصل. إلى جانب عدد كبير جداً في مراحل بناء متفاوتة. وهذا كله قرائن مفيدة على العلاقات التجارية والاقتصادية بالجنوب.

وكانت الأخبار قد سبقت باندلاع ثورة كردية كبيرة بقيادة الشيخ سعيد في

---

(1) يبرز محمود فخري إلى أقرانه بسبب إتقانه اللغة العربية، وتلك ظاهرة نادرة بين موظفي تلك الفترة، فكلهم تقريباً تخرجوا في مدارس تركية، وبعد أن نقلت إلى وزارة الداخلية كنت أتطلع دائماً إلى تقاريره لهذا السبب، وبلغ منصب المتصرف وهو ما يزال في مقتبل العمر إلا أنه أصيب صغيراً بداء السل فكانت خسارة الإدارة به عظيمة.

منطقة (خربوط) وأعلنت الأحكام العرفية في الولايات الجنوبية الشرقية من تركيا وارتفعت عقائر زعماء الكرد تنديداً بمضطهدي شعبهم هناك وأظهروا عداءهم الشديد. لقد كانت أصوات المسيحيين والموسويين هنا مضمونة لنا بطبيعة الحال، إلا أن أكبر قبيلتين في القضاء وهما (السندى والگلى) كانتا في وضع محرج للغاية، لأن مراعي الصيف التي تعتمد عليها حياتهم الاقتصادية هي في تركية، وخوفهم من حكومة تلك البلاد يفوق خوفهم منا، وقد يكون ثمة احتمال بذهاب أصواتهم إلى الجانب الآخر. إلا إذا اقتنعوا بأن القضية ستكون سرية للغاية. وأما الباقون الذين كان خوفهم متأتياً من وجودهم قرب الحدود فقد أظهروا استعدادهم للقول إنهم اقتصادياً مرتبطون بالموصل، وسياسياً يرغبون أن يشاطروا حظوظ إخوانهم كرد السليمانية وعلى هذا رحت أنتظر بثقة وبفارغ الصبر قدوم اللجنة.

إن زاخو هي كرسي أسقفية كلدانية، وليس فيها غير منزلين مناسبين لسكنى الزوار أولهما منزل الأسقف وثانيهما منزل المعاون (يونس) هذا وأن إخلاء صاحب البيت داره لإقامة ضيوف كبار بصورة مؤقتة، هو عمل مألوف في بلاد الشرق، وقد سلم (يونس) بضرورة إخلائه الدار نزولاً عند حكم الأمر الواقع إلا أن الأسقف الطاعن في السن والخرف لم يقبل إلا بعد لأي، ونجح محمود بمساعدة القس، ونزل أعضاء اللجنة في مسكنين جميلين يشرفان على بساتين اللوز.

كان الهدوء يعم أزقة البلدة عند وصول الركب في اليوم التالي. ولم يضع (جواد باشا) لحظة واحدة في مباشرة أسلوبه الذي طبقه في سائر لواء الموصل. (وعجز عن تطبيقه في الألوية الأخرى الثلاثة) وخرج إلى السوق محيياً هذا، ومسلماً على ذاك. وكان يعود إلى المنزل مسروراً أو مكتئباً حسب درجة نجاحه في الحصول على جواب لتحاياه وكان الغم الذي ركبه بعد عودته من أول جولة زار فيها الضفة الخلفية فألاً حسناً لنتيجة الاستجواب في هذه البلدة الصغيرة السعيدة.

كذلك سررنا بنتائج الزيارة التي قام بها (تيليكى وپاولس) نهار السبت إلى بلدة الشيخان شمال شرق الموصل فخلافاً لما زعمه الترك بأن هذا القضاء تركي خالص، تأكدا بنفسهما أنه يتألف من أغلبية ساحقة من النصارى والعرب والكرد والكرد اليزيدية. ووقع في نفسيهما وقعاً شديداً مشاهدة فصائل أنيقة من الكشافة أخرجتها قرية (ألقوش) المسيحية لتستعرض أمامهما. كما أدهشتهم الروح العلمية التي وجدوها في رهبان الدير هناك، حيث قضيا الليلة. وأخيراً غلبت عليهما العاطفة لتلك الصراحة البريئة التي يرجو بها الشهود إبقاءهم في العراق. ولعل إشارة الانقلاب النهائي هي مجيء ثلاثتهم في تلك الليلة إلى الدار الصغيرة التي يسكنها (جاردين) وأنا، ليفضوا إلينا بتجربة يومهم.

وعلى الضد من هذا، فقد علمنا أن الزيبار والعمادية ودهوك ستقف موقفاً صعباً. فهناك لا يوجد طبقة مثقفة من الضباط الكرد أو الموظفين المدنيين ممن يتوقعون أن يكون مناخ العراق أفضل لأمانيهم من مناخ تركيا، متطرفة أكانت تلك الأماني أم معتدلة. ومن جهة أخرى كان المستوطنون الأثوريون الجدد قد ضبطوا كثيراً من القرى الكردية التي هجرها أصحابها الشرعيون أثناء الحرب، وراحوا بتشجيع من بعض الإنكليز المتهورين المتحمسين لقضيتهم في إنكلترا يقاومون كل الجهود المبذولة لإيجاد مواضع سكنى لهم في أماكن أخرى ليفسح المجال لأصحاب القرى الشرعيين في العودة إلى موطنهم، وآخرون منهم كانوا قد وجدوا لهم ملجأ في قرى عامرة، أرادوا تطبيق حكاية الجمل الذي دخل خيمة البدوي، فراحوا يهددون بطرد أصحابها الأصليين، وبسبب وجود هذه الأقلية القومية الدينية، كانت الإدارة أشد صرامة على السكان من مناطق قبلية أخرى تحفل بالقلاقل والاضطرابات بل ربما أغرى خصمنا زعماء الإقطاع في (بهدينان) وكلهم مشاغبون معاندون، بأحلام العودة إلى أيام العز القديمة في ظل الحكم العثماني الذي كان يرخى لهم. وفي يوم 16 وهو السابق لوصول اللجنة بيوم واحد عدت إلى دهوك ووجدت خيامنا قد ضربت حول منزل معاون الضابط السياسي

البريطاني سابقاً، وهو منزل صغير يبعد زهاء نصف ميل عن البلدة. وكان الموقف السياسي هنا سيئاً بقدر ما كان حسناً في زاخو. الظاهر أن الحكومة هنا ممقوتة، وسلطتها على شفا جرف هار. لقد كان القائمقام البدين جداً، يدنو من سن التقاعد، وهو من الصنف الذي يجد في كل من لا يرتدي سراويل أوروبية ضيقة وياقة منشأة قذرة، أتفه من أن يستأهل الاحتقار. وكان طاغية دكتاتوراً بالنسبة إلى المستوطنين الأثوريين. على أنه استطاع كذلك أن يقود زعماء الكرد من آذانهم في محاولته إجبارهم على التصويت حسب تعليمات لجان الدفاع الوطني.

وغص محل الاجتماع بشيوخ القبائل وأتباعهم من الفرسان المدججين بالسلاح. وفي عصر اليوم التالي واللجنة لم تكد تطأ أرض دهوك، اندفعت حشود كبيرة إلى مجلس اللجنة بعد ارفضاض اجتماع عقدوه للتنديد بالقائمقام وأعماله، وتقدموا بلا نظام على ظهور الخيل وكأنهم في غارة ثم دنا عدد كبير من الأغوات وهجموا على (جواد) يلثمون يده، ثم شرع الجميع يتلو آيات مشهورة من القرآن بقيادة شيخ مشهور من آل النقشبندي! وتشاء الصدف الحسنة أن يحاول المراقب التركي اللعب بأوراقه لعب تهور وطيش، باتخاذه موقفاً صلفاً من أعضاء اللجنة، إذ طالب بأن يسمح له هنا وفي الحال بتولي السلطة الإدارية. ولم يكن انزعاجهم من ذلك بالقليل، لأنهم أرادوا الإسراع في إنهاء المقابلات والاستجوابات الروتينية بأقل ما يمكن من الوقت. كان (جاردين) قد عمل هنا ردحاً من الزمن بمنصب معاون ضابط سياسي وهو بطبيعة الحال معروف من زعماء المظاهرة قاطبة وهو يعرفهم أيضاً، ولم يفت المندوبون أن يلاحظوا توجه معظم المتظاهرين إليه بعد تبدّد الانفجار العاطفي الأول - وأخذوا يشكون إليه سلوك القائمقام ويمدحونه قائلين إنه الوحيد الذي يتمكن من إعادة النظام، ومساعدتهم في تصريف شؤونهم. ومهما يكن من أمر فإننا كنا واثقين بأن جواب (السؤال الصغير) الذي سيطرح عليهم هو إلى جانب تركيا. ومن الممكن القول إن عمل اللجنة أصبح الآن في حكم المنتهي خلا استطلاع رأي القادمين من العمادية وقد تأجل استجوابهم إلى

اليوم التالي. هذه هي آخر ليلة لنا في الحلبة... إن رد فعل هذا اليوم الشاق الذي فاق كل ما قبله - خلا أول يوم للجنة في الموصل - كان عنيفاً كاسحاً أشبه بحفلة العشاء بمناسبة الغلبة في سباق التجذيف. فقد قضينا وقتاً أطول من المعتاد في تناول المقبلات، ولما حل وقت العشاء كان الجميع على أحسن ما يرام. وفي ساعات المساء الأولى بدت الكآبة على (صبيح) بسبب المشهد الذي حصل صباحاً وحقق فيه المراقب التركي نصراً كبيراً وانتابته نوبة من حمى الملاريا. ووصف له أحد الزملاء مزيجاً من الڤيرموت الفرنسي والكينا بحسن نية وأكد له أنه (ترياق) شاف ذو نتائج مجربة إذا تناوله المرء بمقادير كافية. وإذا به يندفع هائجاً مائجاً يريد.. أن يصفي حسابه مع أحدهم.. كائناً من كان، ويعمل به كيت وكيت ويضربه صفعة.. و... ولم نفلح في تهدئته إلا بعد لأي. ثم سيطر على نفسه وعاد إلى مرحه الطبيعي ليستأنف دوره كنجم الحفل الباسم، وهو الطبع الذي حببه إلينا جميعاً أصدقاءً وخصوماً. تخطى أعضاء اللجنة والمراقبون ممن أثر عنهم الاعتدال، كل الحدود وضربوا أرقاماً قياسية، حتى (كرامرز) الهادئ الرزين فقد فاجأنا مفاجأة العمر بنكاته المستملحة وفكاهاته، ولا أذكر إلا واحدة وهي أقلها حدة وأذى وأبعث على البهجة لأنها لم تكن مقصودة كما تدل كل المظاهر الخارجية، كان مصدرها (جاردين) الذي ظلت فرنسيته المدروسة في معهد فرنسي خاص معيناً لا ينضب للضحك فقد ذكر الحادثة التي وقعت (للسير هنري دوبس) بمناسبة زيارته الموصل أثناء العاصفة الثلجية بالعبارة الفرنسية التالية: Le Haut Commissionair a Crachée il a Coupé son Levre ولم تتكرر مشاهد الفوضى والاضطراب عندما وصل وفد العمادية إلى المخيم صباحاً وكان القائمقام عبد الحميد عبد المجيد (الذي لم أعرفه من قبل، إلا أنه أصبح صديقاً حميماً) رجلاً من الطراز الأول. وحكمنا أن تصويت العدد الأكبر من رؤساء العشائر البارزين سيكون عكس تصويت دهوك تماماً. مع أن معظم هؤلاء من الثائرين السابقين، أو ممن أثقلتهم أعمال شقاوة ارتكبوها بعد صدور العفو العام عنهم. هذا فضلاً عن

وجود عدد من القرى الأثورية الأصلية إضافة إلى مستعمرات اللاجئين الجديدة. وهؤلاء بالطبع صوتوا للجانب العراقي.

وأنا شخصياً كنت قليل الاهتمام بنتائج التحقيقات في هذه المنطقة، لذلك منحت نفسي إجازة من الصباح الباكر لزيارة المنحوتات الآشورية الشهيرة باسم (معلثاي) وهي ظاهرة فوق الوجه الشمالي من الجبل المشرف على وادي دهوك من جهة الجنوب. واقتضاني ما يزيد عن نصف ساعة للوصول إليها راجلاً من أقرب منطلق سالك ووجدت أربعة إطارات كبيرة طولها يقارب 18 قدماً وعرضها 60 قدم. وليس فيها كتابات. لكنها تعزى إلى (سنحاريب 750 - 681 ق.م) وأهميتها تكمن في أنها لا تمثل مشاهد معركة، أو حفلة صيد، كمعظم المنحوتات الآشورية، بل تصور موكباً دينياً لسبعة آلهة تقف منتصبة فوق مختلف الحيوانات بعضها خرافي - وبصورة الملك وهو يقوم بفروض العبادة في نهايتي كل إطار[1].

عادت اللجنة برمتها إلى الموصل في 18 منه وبقينا فيها خمسة أيام أخرى لمساعدة أعضائها في تدقيق إحصاءاتهم وتنسيقها وتبويب ملاحظاتهم، وكذلك لزيارة خرائب نينوى والشرقاط وغيرها من المواقع التاريخية، ولحضور دعوة نظمها السرب السادس قضينا بها ليلة رائعة لا تغيب عن الذاكرة، حضرها (جواد). وفي 23 منه تفارقنا بعد أن أخذنا عدة صور تذكارية وتبادلنا العناوين وعبر أحدنا للآخر عن احتراماته وتمنياته الطيبة ثم غادرنا وفد العصبة بقافلة سيارات إلى (دير الزور) ومنها إلى بيروت. وسافر الوفد التركي إلى نصيبين ومنها إلى أنقرة.

مهما كان شعور الصداقة التي نمت فيما بيننا وتوثقت، فلا شك في أننا كنا

---

(1) أول وصف لهذه النقوش عرضه لايارد، الذي كان أول إنكليزي سنة 1846 ويصفها (نينوى وخرائبها 850 جـزء (1)، ص230 - 231). ويعزى إليه اكتشافها عادة. إلا أن (ف. تورو - دانجان F. Thureau - Dangin) في «منحوتات معلثاي» (مجلة الآثار الآشورية، ج21 ص4 سنة 1924) يشير إلى أن نائب القنصل الفرنسي في الموصل (روي Rouet) كان أول زائر لها من الأوروبيين وقد دون وصفاً لها في ثلاث رسائل مؤرخة في تشرين الأول وتشرين الثاني 1945، وقد نشرت هذه الرسائل في المجلسة الآسيوية، ج7، 1846، ص280.

جميعاً مسرورين لخلاص بعضنا من بعض في دائرة هذه اللجنة بالذات. وليس ثمة ما يترجم عن شعوري الخاص، بأبلغ مما دونت في يومياتي قلت: «حين أرجع بالفكر إلى ما حصل، لا يسعني إلا الإقرار بأن مرور تحقيقات اللجنة دون وقوع انفجار أو حادث خطير.. إنما هو شيء من قبيل المعجزات... فإذا وضعنا في حسابنا قابلية البلاد للالتهاب السريع، يكون مما لا يصدق أن يمر بنجاح، لو لم يقع ذلك فعلاً...».

أما بقية القصة، فسرعان ما عرفت: بعد أن حلل تقرير اللجنة المزاعم التي تقدم بها الطرفان للعصبة وأورد أعضاؤها استنتاجاتهم الشخصية في كل أسباب النزاع وكانت توصيتهم تثبيت خط (بروكسل) نهائياً واعتباره حدود العراق وتركيا الدولية على أن يكون ذلك خاضعاً لشرطين الأول: يجب أن تبقى المنطقة موضوع النزاع أي ولاية الموصل تحت وصاية عصبة الأمم المباشرة لفترة يقترحون تحديدها بعشرين سنة. والثاني: يجب النزول إلى الرغبات التي أعلنها الكرد، وهي تعيين الموظفين للمناصب الإدارية والقضائية والتعليمية منهم فقط وجعل اللغة الكردية لغة رسمية في هذه الإدارات والمعاهد. وكان يوجد في التقرير قيد احترازي وهو أنه في حالة ما لو ارتأى مجلس العصبة أنه من العدل إجراء تقسيم المنطقة المنازع عليها بين الطرفين فأفضل خط للتقسيم هو مجرى الزاب الصغير تقريباً.

وقدم التقرير إلى مجلس العصبة في أيلول 1925. وأنكرت الحكومة التركية على المجلس سلطته في اتخاذ قرار ملزم للطرفين المتنازعين. فأحيلت هذه النقطة أولاً إلى محكمة العدل الدولية الدائمة لإعطاء رأيها الاستشاري وفي 21 تشرين الثاني أعلنت المحكمة عن رأيها وهو أن قراراً بالإجماع يتخذه المجلس (لا يحتسب صوتا الطرفين المتنازعين بالتأكيد فيما لو وجد الإجماع) إنما هو قرار ملزم للطرفين يتضمن بنفسه تثبيتاً رسمياً للحدود. ولما رفض الترك قبول رأي المحكمة ألفت لجنة ثلاثية برئاسة (سويدي) وبدا لها أن تداعب فكرة التساوم على

خط الزاب الصغير أي التقسيم. لكن مجلس العصبة قرر أخيراً في 16 كانون الثاني تثبيت خط بروكسل رسمياً. وشاعت حكاية في ذلك الزمن لا أدري كيف نصيبها من الصحة، ومؤداها أن الفضل الأكبر في هذه النتيجة يعود إلى (تيليكي) الذي لا يمكن اتهامه بالعمل ضد القضية التركية، على أنه كان يعارض بشدة أي اقتراح يرمي إلى قطع (الطفل) نصفين إرضاء للأمّين[1].

ولم يضع وقت في تنفيذ الشروط المتعلقة بهذه (الجائزة) فتمت مفاوضات سريعة لعقد معاهدة جديدة وقعت في 13 كانون الأول 1926 تضمنت إلغاء المدة الواردة في البروتوكول الملحق بالمعاهدة الأنكلو - عراقية للعام 1923. وجعل مدة المعاهدة الجديدة 25 سنة تبتدئ بالسادس عشر من كانون الثاني للسنة 1925 إلا إذا قبل العراق عضواً في عصبة الأمم قبل انتهاء مدة الانتداب[2] وقبلت هذه المعاهدة الجديدة - بعكس المعاهدة الأولى بأغلبية كبيرة في مجلس النواب العراقي بعد خمسة أيام من التوقيع عليها ثم قدمت إلى مجلس العصبة في آذار وأعطيت هناك تأكيدات كافية بخصوص إدارة المناطق الكردية وافقت عليها العصبة.

لم يكن الترك بطبيعة الحال طرفاً في هذه الإجراءات، لكن وبنتيجة المفاوضات مباشرة أدارها السفير البريطاني في تركيا (السير رونالد ليندسي) بأعظم ما يمكن من المهارة تم تثبيت خط بروكسل بتغيير زهيد واحد، وصار حدوداً رسمية بين الدولتين بموجب المادة الأولى من معاهدة ثلاثية بين المملكة المتحدة وتركيا والعراق وقعت في 5 حزيران 1926 وبهذا انتهت الفرقة غير الطبيعية بين تركيا وبريطانيا بعد أن دامت أحد عشر عاماً وحل محلها التعاون التقليدي والاحترام المتبادل وهو ما يريده الطرفان معاً.

إن قرار السادس عشر من كانون الأول أحدث صدى عميقاً في سائر أرجاء

---

(1) يشير إلى القضية المشهورة التي وردت في التوراة، عن سليمان الحكيم عندما ادعت أماني ببنوة طفل. (المترجم).

(2) قبل العراق في عصبة الأمم عضواً في 3 تشرين الأول 1932.

العراق وأثار أعظم المشاعر. فأبرق الملك فيصل رسالة شكر رقيقة إلى الملك جورج. وحذا حذوه رئيس الوزراء عبد المحسن بك السعدون الذي كلّف (ياسين الهاشمي) بالإبراق إلى (مستر بالدوين). وتقديراً للدفاع الشديد عن مصالح العراق أمام مجلس العصبة طلب (عبد العزيز القصاب) متصرف الموصل موافقة حكومته على تسمية حديقة البلدية الجديدة في الموصل باسم (ايمرى بارك: حديقة اللورد أيمري Amery Park) فلُبي طلبه. أما نحن الذين خضنا المعركة في الخط الأمامي، فإن هذا النصر النهائي لم يكن بالنسبة لنا قاصراً على إزاحة الكابوس الأسود الذي ظل يحوم فوق رؤوسنا طوال تلك السنين الحافلة بالقلق الممض، وإنما جاء ليوثق روح الزمالة ويشد عراها بشكل لم يكن ليحلم به أحد قبل العام 1945 لو كان ثمة من يسمع اليوم نبوءة (ايرمياء) النبي، (جاردين وصبيح)، (عبد العزيز ولويد وعبد الحميد)، (أحمد عثمان ولاين ولتلديل)، (مجيد اليعقوبي وميللر ومراد)، (عمر نظمي وكورنر)، (چاپمان وأحمدي توفيق) وكثير غيرهم لم تسنح المناسبة لذكرهم في الكتاب، من قائمقامين ومدراء نواح وضباط الشرطة ومواطنين عاديين. وتشيع الحرارة في قلبي عندما يمر بصري بالقائمة متذكراً تلك الصداقات الخالدة التي وثقنا عراها.

كان يوماً كئيباً عندما وقعت مهنة التعليم في العراق بأيدي رجال لا علم لهم بكل هذه الأمور، مهاجرون سوريون وما إليهم يتملكهم تعصب حاقد على الأجانب. في خلال هذه الفترة نشأ جيل جديد يجهل تمام الجهل أن الدولة التي لقنوا مبادئ الإخلاص لها مدينة بولادتها وبخلاصها من أكثر من أزمة خطيرة إلى تعاون الحكومة البريطانية مع أول رئيس دولة لها مع آباء بعض أبناء هذا الجيل على الأقل. جيل لقن بأن الأمبرياليين البريطانيين قد حالوا بين بلادهم وبين الوصول إلى شيء غامض لا يمكن تحديد سموه بالأماني القومية. وها هم الإمبرياليون أولاء يتربصون الفرص بلا انقطاع لهذا الاستقلال بغية تدميره ووقفوا هنا ولم يسألوا سؤالاً واحداً عن كيفية منشأ هذا الاستقلال وتطوره. ولم يمر طويل

زمن حتى يعمد خلف (عبد العزيز القصاب) إلى تغيير اسم الحديقة من (أيمري بارك) إلى (حديقة الأمير) دون التأمل في عمله هذا، وهو كبير السن يعرف الكثير مما حصل. وبعمله هذا يطأ بقدمه دليلاً على فضل ومنّة ذلك الذي قلد العراق شرفاً ومكانة لا يقلان عن الشرف والمكانة التي حازها ذلك السياسي الشهير بعمله. وكان يجب أن تخلد خدماته للبلاد بتذكار. وإني لمؤمن إيماناً وطيداً بأنه ما زال يوجد في العراق بقية من حسن النية تجاه بريطانيا ستنقل بصورة ما من الآباء إلى الأبناء وستبقى عاملاً مهماً من عوامل الرفاه والسلم في الشرق الأوسط[1].

---

(1) إن الدين الذي يثقل العراق للحكومة البريطانية، أوضحه بشكل جميل دقيق الوطني العربي (جورج أنطونيوس) في كتابه (يقظة العرب The Arab Awakening) لندن 1938 النص 363 - 367. قال: (إن إسهام البريطانيين في بناء كيان العراق هو من أعظم أحداث إعادة البناء بعد الحرب... ويمكن القول دون أية مبالغة أن دولة العراق الحديثة تدين بوجودها على الأكثر إلى مجهودات الموظفين البريطانيين.. لقد هيأت الأقدار للعراق فرصاً قيمة وحظوظاً سعيدة بموظفين بريطانيين ذوي كفاءات عالية وضمائر حية.. ويتعاظم خطورة ما أنجز في العراق عندما يعلم القارئ أن هذا البلد بسكانه القبليين الكثيرين، وطوائفه الدينية المتعددة وقلة خطوط مواصلاته نسبة إلى مساحته مما يصعب جداً إدارته: على خطوط الروتين البوروقراطي المركزي... وكان من حظ العراق أيضاً أن تتفق مصالح بريطانيا الخاصة مع مصالحه وتتماشيا جنباً إلى جنب في أكثر الأحيان... فرغبة البرطانيين في وضع اليد على منابع النفط في ولاية الموصل نتج عنها ضم الولاية برمتها إلى الدولة العربية الجديدة وصيرورتها إقليماً من أقاليمها والفضل في هذا يرجع إلى الدبلوماسية البريطانية. هذا فضلاً من كونه أدى إلى تعاون فعال وثيق أنكلو - عراقي بخصوص التصدي للمشكلة الكردية). (انتهى كلام المؤلف).

(ملاحظة المترجم: إن ترجمة هذا الكتاب ميسورة بالعربية هذا وأن جمهرة المؤرخين العرب والأكراد لا يشاركون في حسن النية البالغ حد الإغراق الذي أظهره هذا المؤرخ العربي في تقليده بريطانيا المآثر الجليلة وفي تقييمه الخدمات التي قدمتها للعراق والعراقيين وبما أننا لسنا في صدد تعيين المسؤولية التاريخية للوضع السياسي والاجتماعي العراقي وتحديدها ما بين سكان البلاد وحكامها وبين النفوذ البريطاني، فمن الخير أن نذكر هنا أنه لا يزال حتى الآن من يفكر مثلاً بأن بريطانيا أسدت مثلاً خدمة جليلة لهذه البلاد حينما فتحت كنوزها النفطية وأخذت تستغلها عن طريق شركاتها. وأما عن المشكلة الكردية فنحن نعتقد أن غرضنا وغرض المؤلف قد اتحد هنا: حين ألف هو كتابه وحين قمنا نحن بترجمته وهكذا تعاونا معاً على وضعه في يد القراء ليحكموا=

وكان الكرد على العموم مرتاحين جداً للقيود التي وضعت على الجائزة، وقد ختمت رسالة (للسير هنري دوبس) بعثت لها إليه في ذلك الحين. أصف له استعداد السليمانية الرائع لخوض المعركة وختمت رسالتي بالفقرة التالية:

إن زيارة اللجنة أعطت زخماً شديداً للشعور الوطني الكردي الذي جرف في طريقه عدداً كبيراً من المستائين الذين كان أكثرنا تفاؤلاً يتوقع وقوفهم إلى جانب تركيا، فإذا بهذا الشعور يدفعهم إلى المعسكر المعادي للترك. إن الاستجوابات الطويلة كادت كلها وعلى حد سواء ذات اتجاه قومي غلاب لكنها لم تتخذ طابع الانفصال بصورة عامة... وإن كرد السليمانية وجهوا ما يمكن وصفه بالضربة القاصمة في المعركة الدائرة للمحافظة على كيان العراق، وإنهم لعلى إدراك تام بما فعلوه أترى ستفتح الحكومة العراقية عينيها بهذه المناسبة، وتتبنى سياسة كريمة بعيدة النظر إزاء الكرد؟

إن تقرير لجنة العصبة جاء مؤيداً لأماني الكرد. وبعد أن أنقذوا العراق في لحظة من أخطر اللحظات مرت به باتخاذ قرار تصديق المعاهدة الأنكلو - عراقية في تلك الليلة التاريخية ليلة 10 حزيران 1924، عادوا لينقذوا البلاد من تجزئة قتالة بوقفتهم الخالدة في السليمانية اليوم. إن قادة الرأي العام الكردي يحق لهم أن يختالوا على الملأ، ويفخروا بأنفسهم على دولة أبوا أن يكونوا لها مواطنين أذلّة.

إنها والحق يقال فرصة عظيمة إلا أن محاولتي تعقيب نتائجها هنا مما يضيق به دفتا هذا الكتاب.

في أثناء وجودي في دهوك تلقيت رسالة من (كورنواليس) يعرض عليّ ملحاً - قبول منصب معاون مستشار وزارة الداخلية الذي كان قد شغر بوفاة (بوللي) وتراءى لي لأول وهلة أن أجيب بالرفض. فأنا ما أخفيت قط ما أشعر به من نفرة

=بأنفسهم وليعينوا مَن مِن الأطراف الثلاثة كان له اليد الطولى في تعقيد المشكلة الكربة واستغلالها لمنافعه الخاصة).

وضيق صدر بالإدارة المركزية ببغداد وأربابها السادة فرسان الطاولة المستديرة كما يحلو لي تسميتهم وها إني أدعى لأكون واحداً منهم. لقد صعب عليّ أن أرى نفسي أو أن أتمثل كيف يراني غيري مستقراً في جو من الأزيز المتواصل للروتين الكتابي خلف جبال من الأضابير تعلو كل مكتب من مكاتب الوزارات وقعت عليه عيني. كنت في أقصى درجات السعادة بالمسؤوليات الإدارية، والممهدات الدبلوماسية وفرص الحل والترحال والتنقيبات الأثرية أو حتى استكشاف أي نوع من مظاهر الطبيعة بين ظهراني شعب كريم بسيط. لقد نما في قلبي حب شديد لكل عصا وكل صخرة فيه، وحفظت وداً خالصاً لكل رجل وامرأة وطفل من اللواءين، إلا الذين نزعت نفوسهم إلى سفك الدماء. فمن النادر أن غفلت نفوسهم عن مزية جذابة وشيجة حميدة تكفر عن أعمال العنف التي يمكن أن يعزى بسببها إلى المحيط المتخلف، والحياة البدائية أكثر مما تعزى إلى طبيعة شر متأصل حتى لدى أولئك الذين خلقوا أعظم المشاكل، وذلك بعد إخضاعهم.

بعد كثير من التفكير وتقليب وجوه الرأي وجدت أني سأكون أحمق لو ضربت صفحاً عن مستقبل في ميدان اختصاصي الأصلي، فأنبذ فرصة للترقية في دائرة أضيق لكنها تنسجم وذوقي. وهكذا منيت النفس بأني سأكون مشرفاً على إدارة أربعة عشر لواء بدلاً من اثنين وقررت قبول المنصب فكان هذا مبدأ عشر سنين طوال. لم ألق فيها غير العطف والسماحة من زمالة كورنوالس السعيدة مشوبة بتحمله الكثير مني حتى خَلَفْتُه في 1935 ولم يتطلب مني تسليم مهام منصبي وقتاً فعهدت به إلى (ميللر) الذي طالما ناب عني. ولما كان سفري قد وافق صيام رمضان فقد اختصرت مراسيم التوديع إلى أدنى حد، وفي صباح 27 آذار حشر (حمه علي) نفسه بين شدتين من حقائب السفر والأفرشة في المقعد الخلفي. وجلست أنا في المقعد الأمامي من سيارتي المهشمة وأصدرت الأمر إلى خليل بقلبٍ مثقلٍ هماً أن يقتبل طريق الجنوب عبر جبل حمرين، نحو بغداد.

1967/2/12 - 1967/5/10

ثبت المراجع

1 ـ الكتب الرسمية والوثائق

* Official History of the War: The Campaigne in Mesopatamia 1914-1918 (4 vols Compiled by Brig. Gen. F. J. Moberly - London 1924-1927).
* Review of the Civil Administration of Iraq 1914-1920, by Gertrude L. Bell (Commd. 1061-1920).
* Report on Iraq Administration. April 1922 to March 1923 (II. . S. O. 1924).
* Report by H.B.M. Government on the Administration of Iraq for the Period April 1923 to December 1924 (Colonial No. 13, 1925).
* Report on Iraq Administration, October 1920 to March 1922 (II. M. S. O. 1922).
* Report by H.B.M. Government to the Council of the League of Nations on the Administration of Iraq for the year 1925 (Colonial No. 21, 1926).
* Geological Report on Mesopotamia No. 8, by A. II. Noble and R. du. B. Evans (Baghdad 1920).

2 ـ المصادر

* Browne' E.G. A Literary History of Persia. 4 vols. Cambridge, 1926.
* Browne, Brig. J.G; the Iraq Levies, London 1933.
* Cambridge Ancient History, vol III the Assyrian Empire, and vol. V The Persian Empire and the West. Cambridge, 1921 and 1926.
* Cuinet, V. La Turquie d'Asie, Paris 1890.
* Curzaon, Hom. G.N. Persia and the Persian Question. London 1892.

* Haig, Lieut - Col; Sir W. Comparative Table of Mohammadan and Christian Dates. London, 1932.
* Lane Poole, S. the Mohammadan Dynasties. Paris 1925.
* Le Strange, G. The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge. 1905.
* Lioyed, Seton. Twin Rivers, Oxford, 1948.
* Minorsky, V. Articles Kurdistan and Kurds in the Encyclopaedia of Islam.
* Sharaf Khan Bitlisi, Amir. Sharafnama 1596-1597. Cairo Edition about 1930.
* Smithe, Sidney. Early History of Assyriams, London 1928.
* Toynbee, A.J. Survey of International Affairs, 1925, vol. 1. the Islamic World Since the Peace Settlement. Oxford 1927.
* Wilson, Sir. A.T. Mesopotamia' 1917-1920. A Clash of loyallies. Oxford, 1934.

3 ـ مجلات المعاهد العلمية وغيرها

* B.S.O.A.S. (Bulletin of the School of Oriental and African Studies. University of London).
* J.R.G.S.: (Journal of the Royal Geographical Society).
* J.R.A.S: (Journal of the Royal Asiatic Society.
* J.R.C.A.S: (Journal of the Royal Central Asian Society.
* GJ: (Geographical Journal).
* E. I: Encyclopaedia of Islam.

وهناك عدد آخر من المراجع أوردت ذكره (الكلام للمؤلف) في حواشي الكتاب كما اقتضت الإشارة إليها.

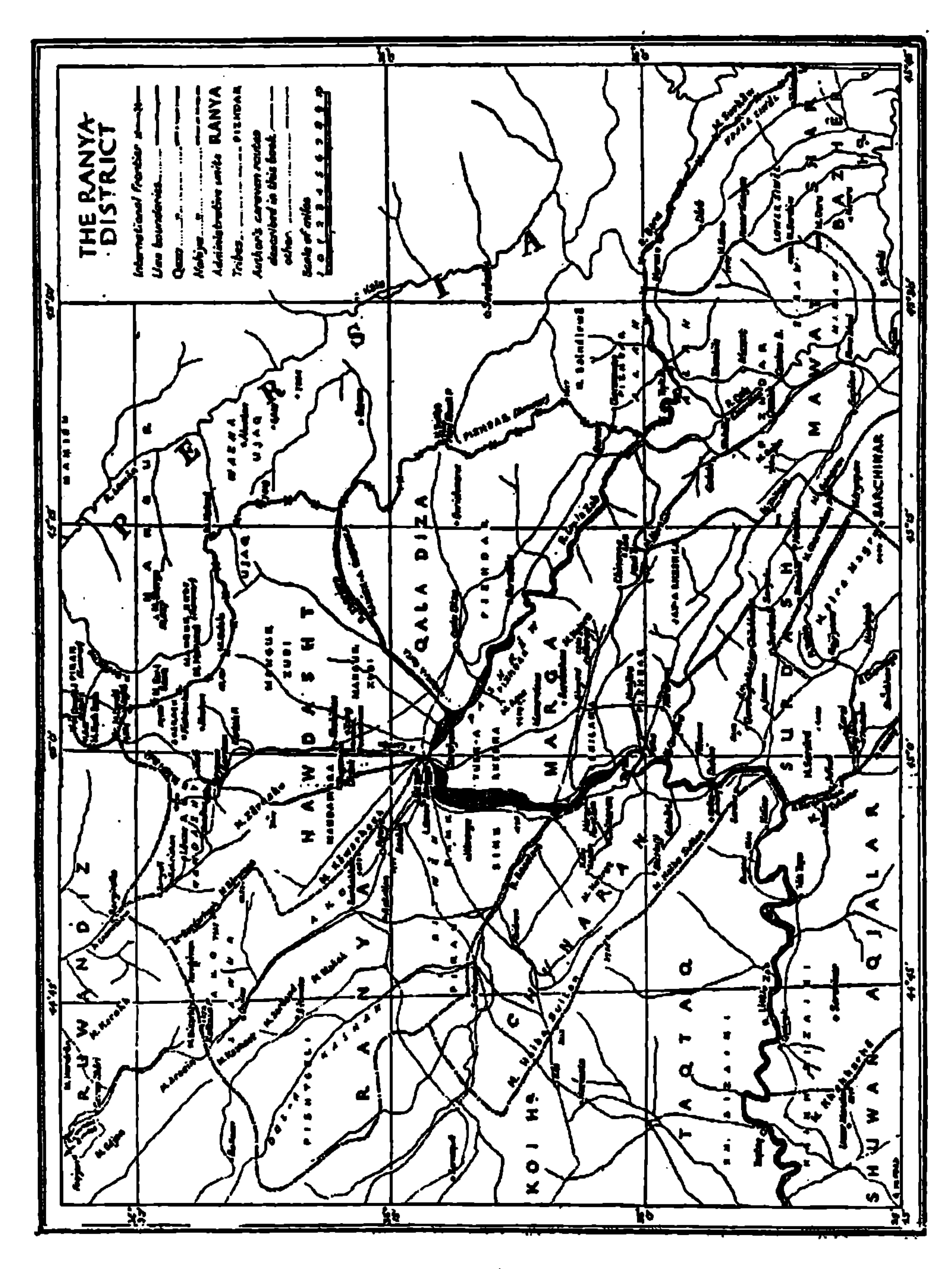
1 ـ فهرست الأعلام

(هـ)

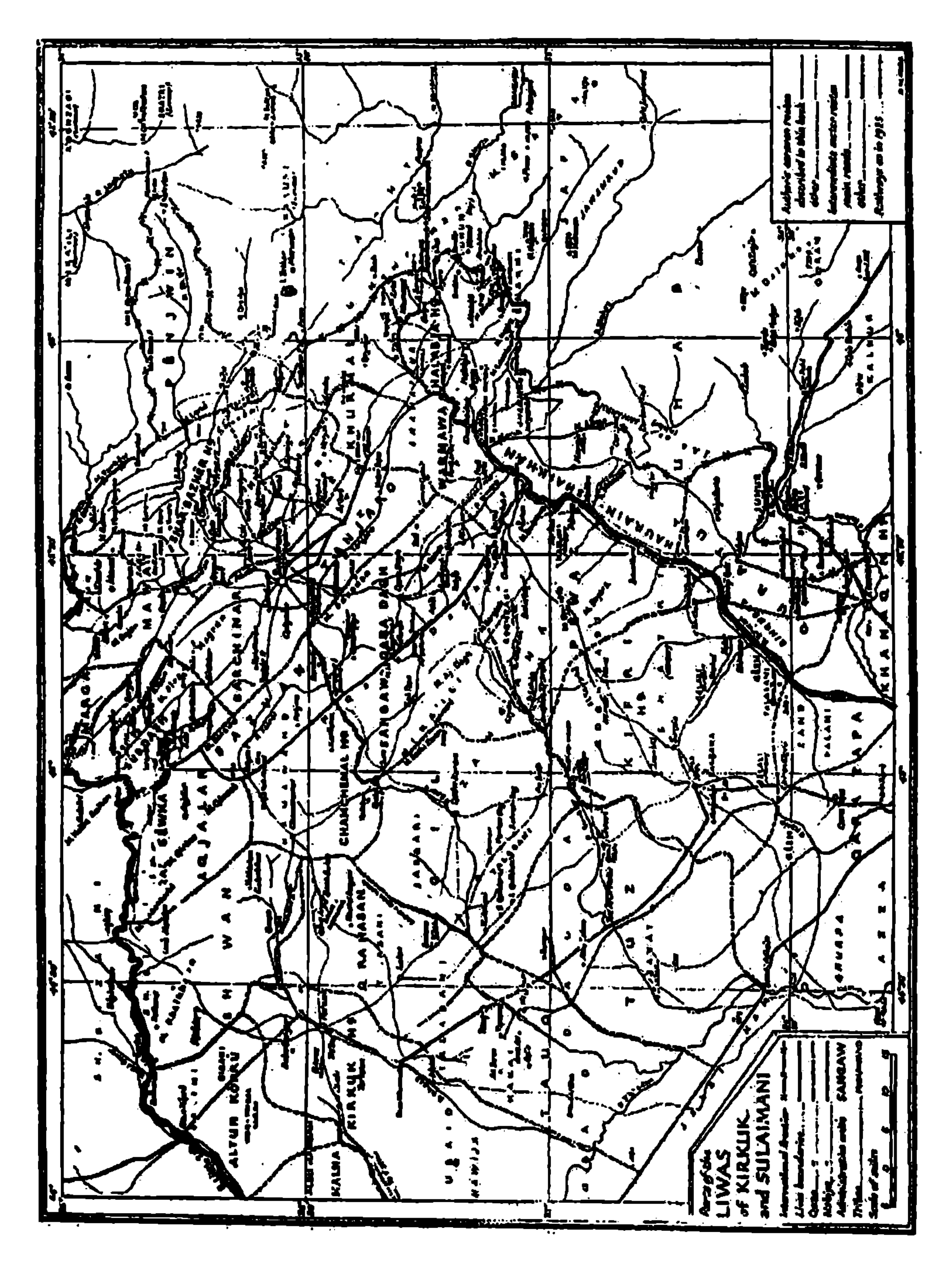
(و)

(ي)

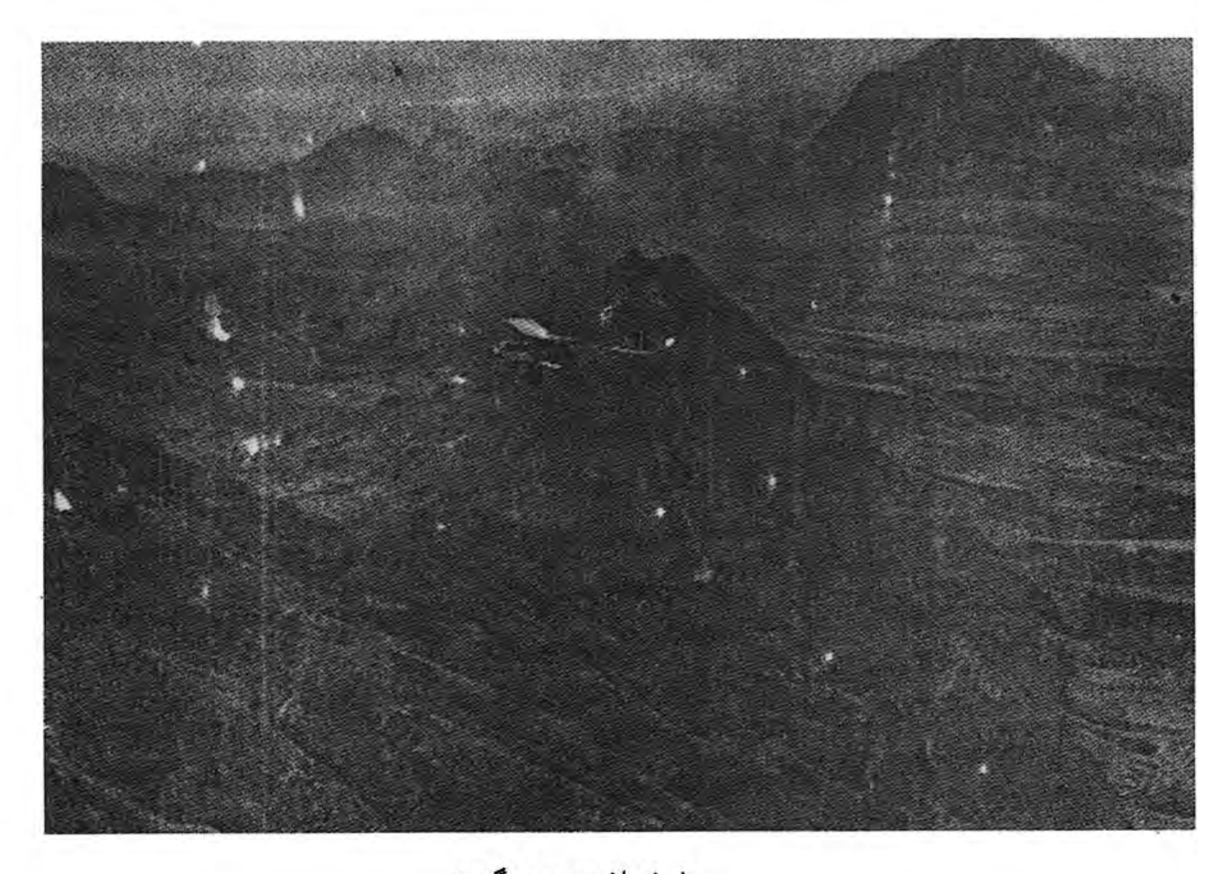
2 ـ فهرست البلدان والأماكن والمواضع


THE RANYA DISTRICT
International Frontier
Liwa boundaries
Qaza
Nahiya
Administrative centre RANYA
Tribes PIZHDAR
Author's caravan routes described in this book
other
Scale of miles
P E R S I A
QALA DIZA
H A W D A S H T
M A R G A
R A N Y A
K O I Hs.
T A Q T A Q
A Q J A L A R
PIZHDAR

منطقة رانية



أقسام من لوائي كركوك والسليمانية

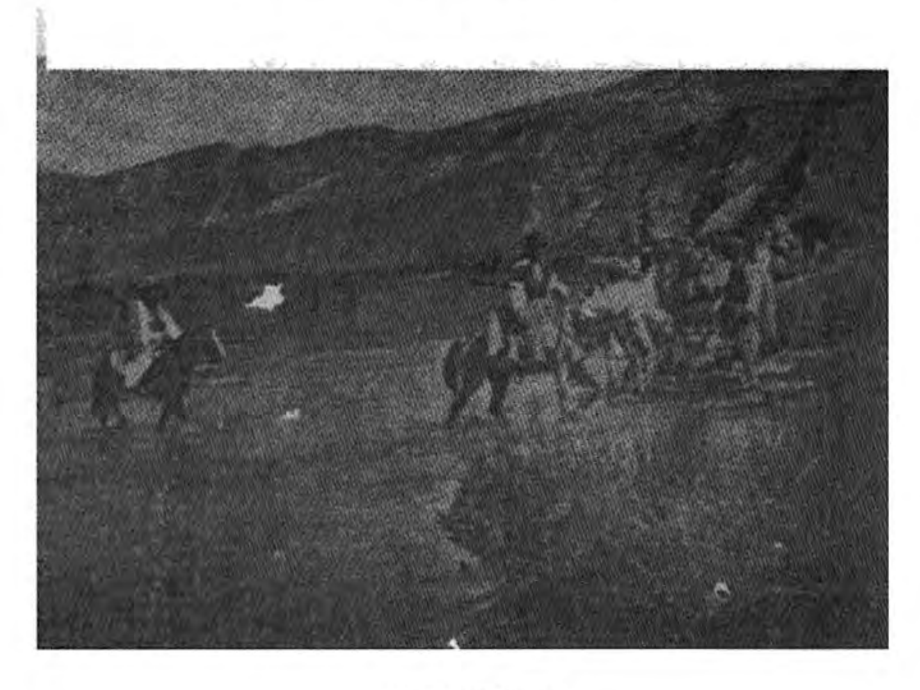


شيخ باخ وپيره مه گرون

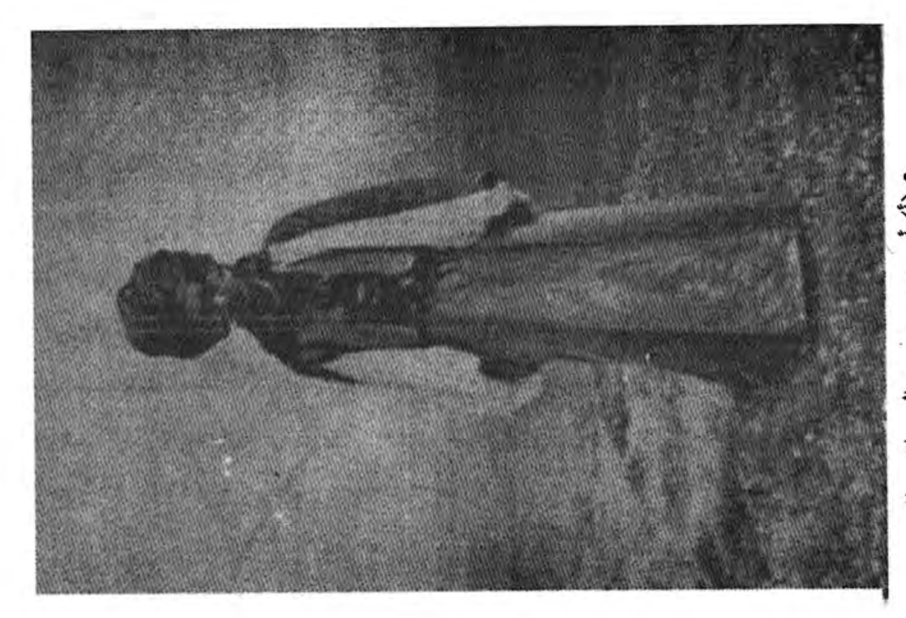
(أخذ الصورة ـ قائد السرب روب)

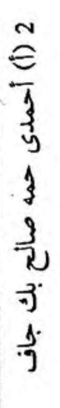


1 (أ) محمود باشا جاف وبابكر آغا

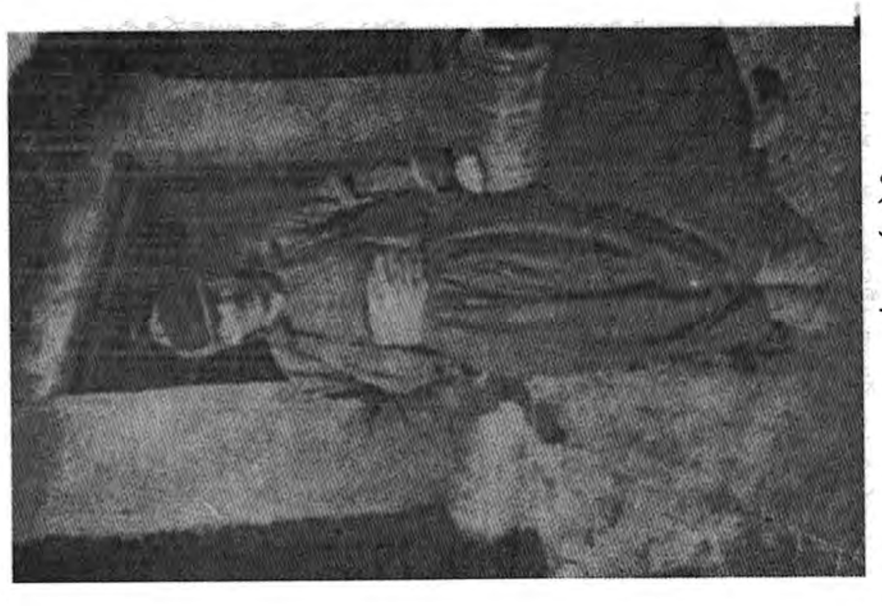


1 (ب) بلاد الهماواند





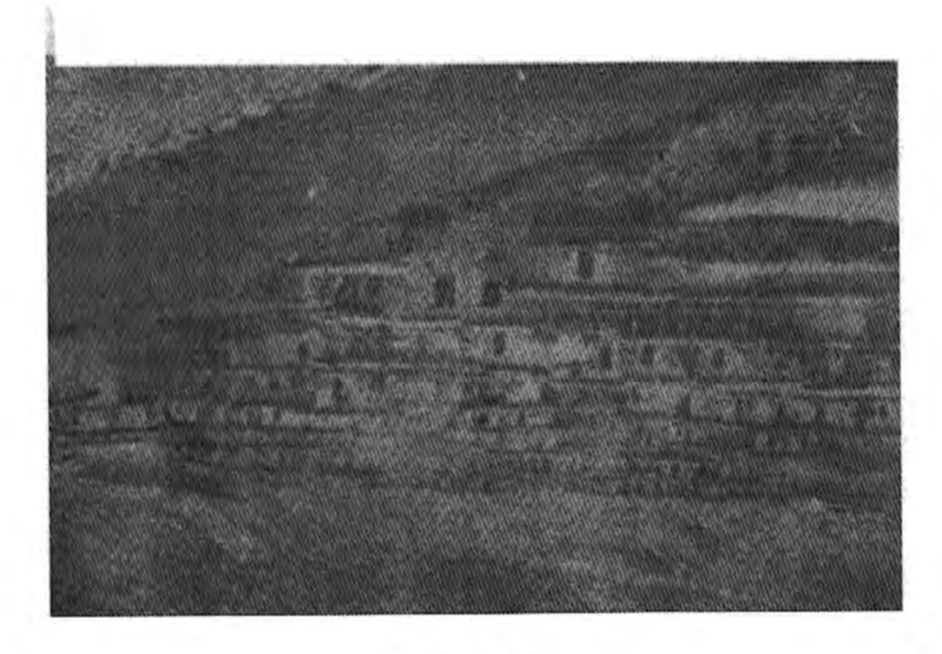
2 (أ) أحمدى حمه صالح بك جاف



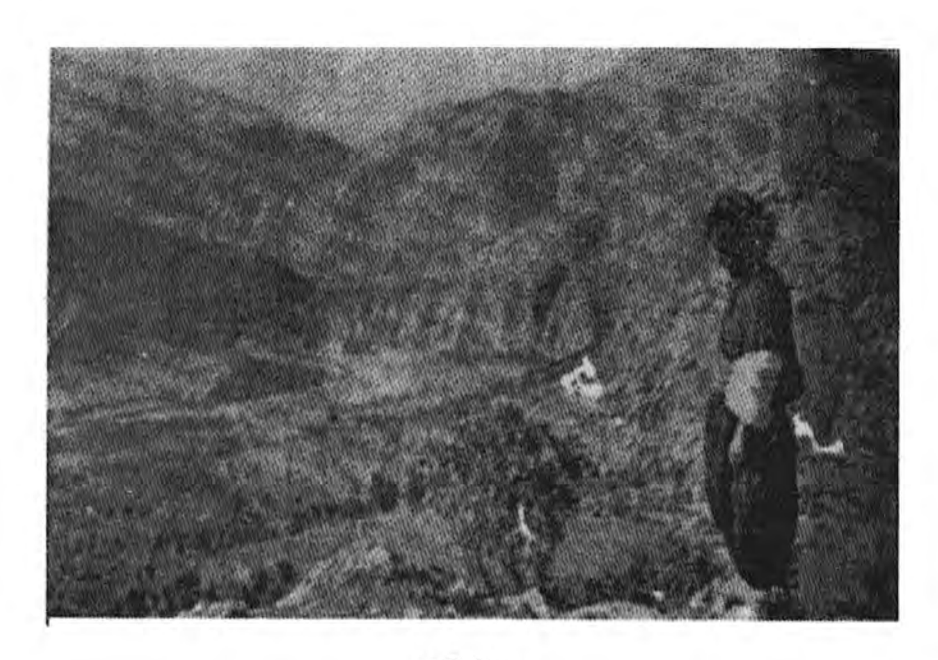
2 (ب) سيد طه



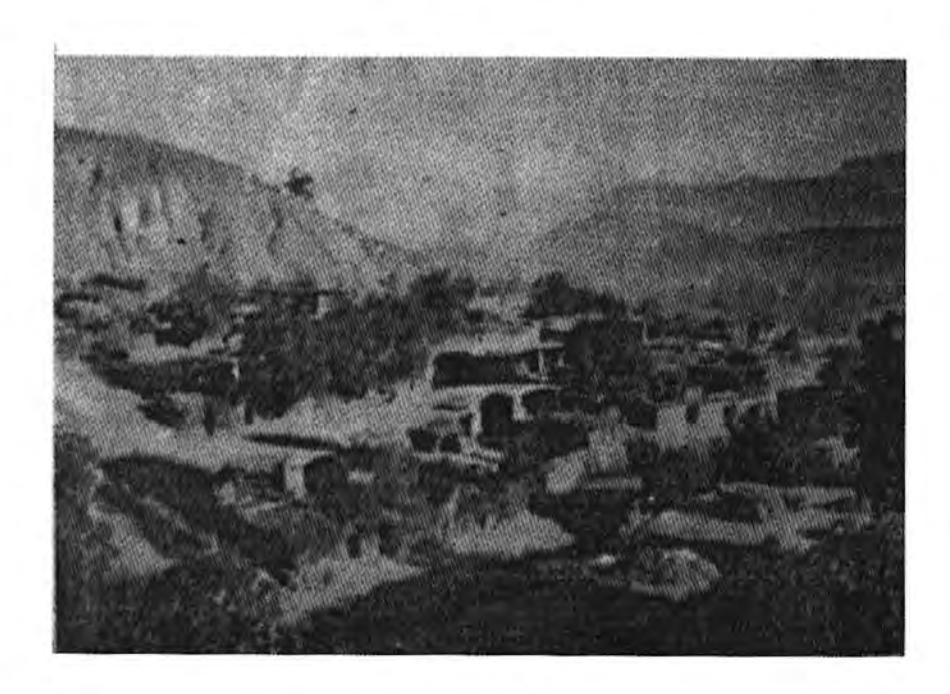
3 (أ) كوره كاژاو



3 (ب) برزنجة



4 (أ) آلان



4 (ب) بنجوين



5 (أ) الحدود الإيرانية في بياره



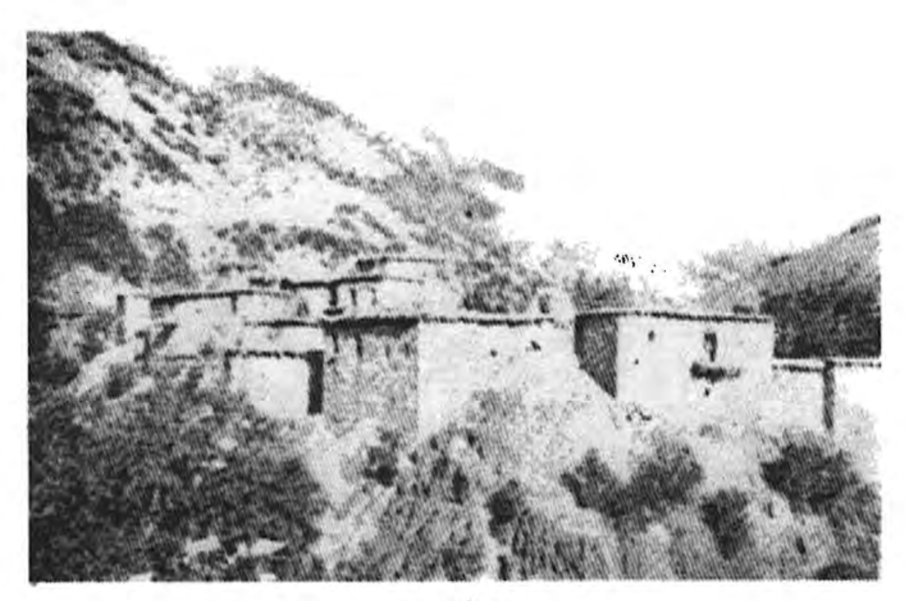
5 (ب) جعفر سلطان، عادلة خاتون، أحمد بيك



6 (أ) عرش الأميرة زيرنكه وش



6 (ب) سيدان في الكاكائية، يعرضان شجرة الأسرة



7 (أ) هاوار



7 (ب) قرويون كاكائية من هاوار



8 (أ) خورمال

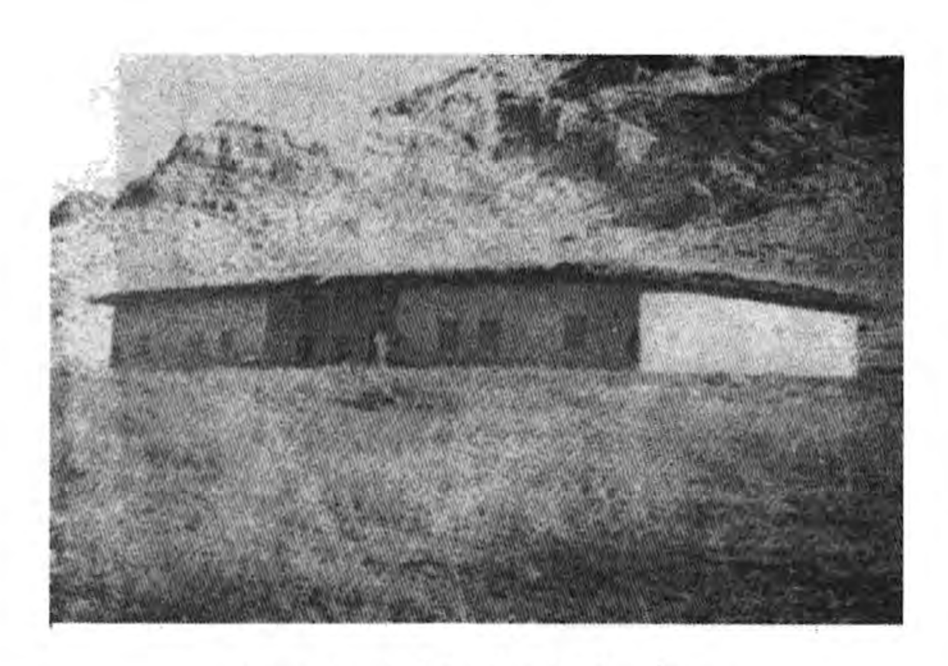


8 (ب) مامند آغا اكو

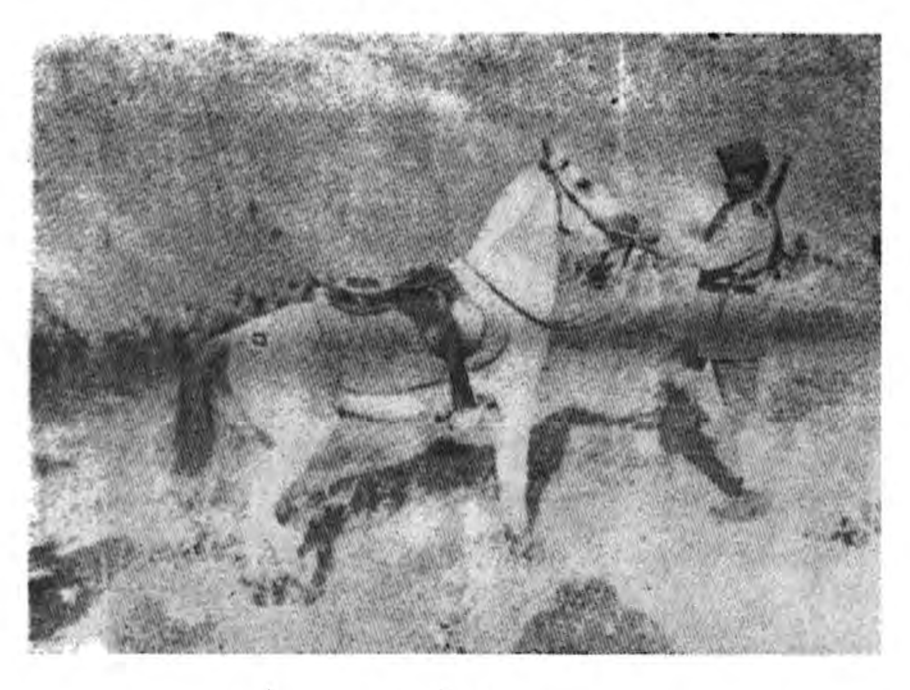


9 (أ) شيخ عبدالكريم شه ده له

9 (ب) حمه آغا رانيه



10 (أ) منزل معاون الضابط السياسي في ده به ند



10 (ب) سمكو



11 (أ) بابكر آغا
(تصوير: س بل)



11 (ب) شيخ محمود الحفيد
(تصوير الدورادو ـ بغداد)



12 (ب) رئيس الوزراء في سليمانية

من اليسار إلى اليمين: مصطفى باشا، شيخ قادر، رئيس الوزراء، المؤلف، صبيح نشأت، گراودن



12 (أ) وجهاء كركوك

من اليسار إلى اليمين: فتاح باشا، عزت باشا، مجيد بك



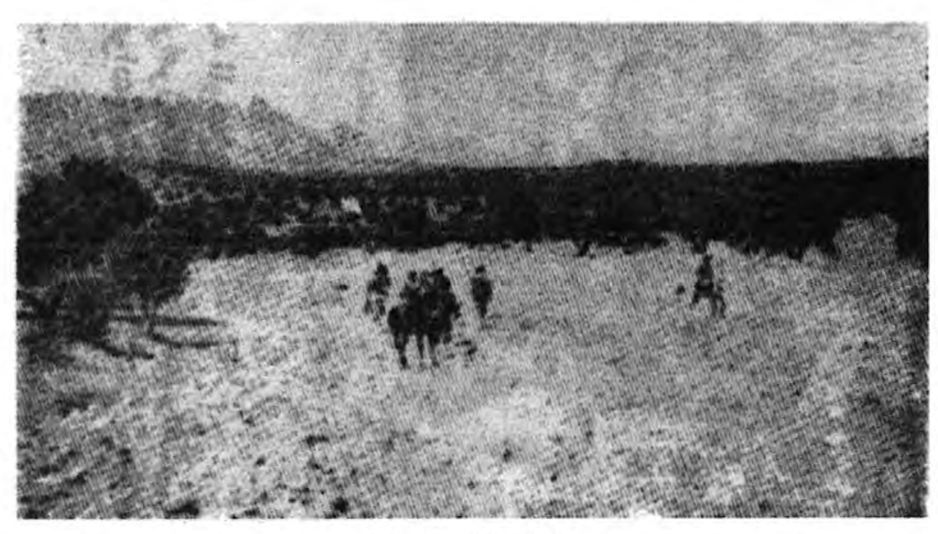
13 (أ) ممر سنه گرمه



13 (ب) النقش الصخري
(لنرام سن)



14 (أ) التكية القادرية في عه ودالان



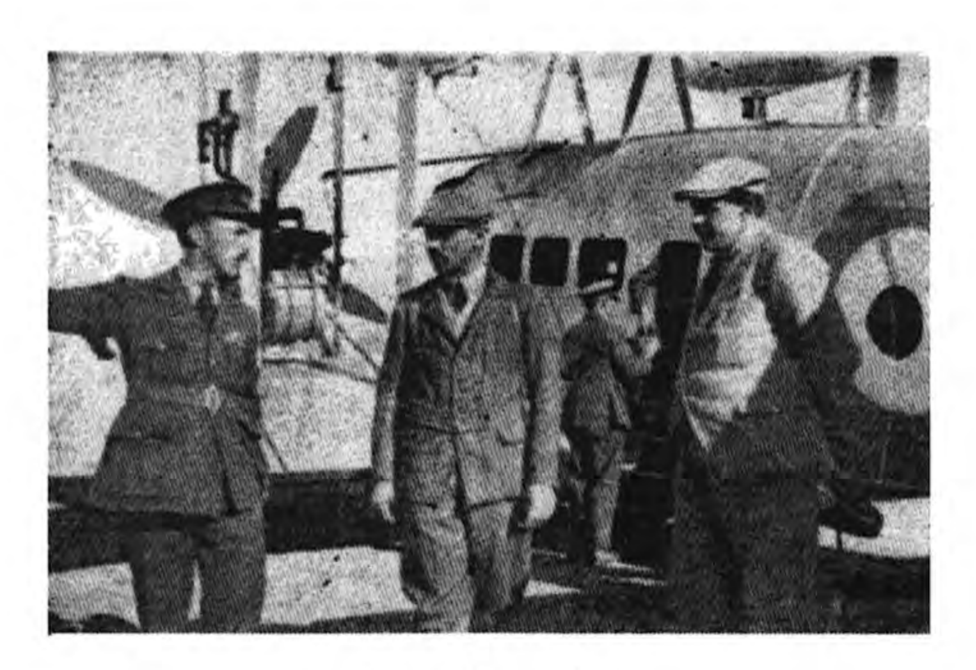
14 (ب) في قره راغ



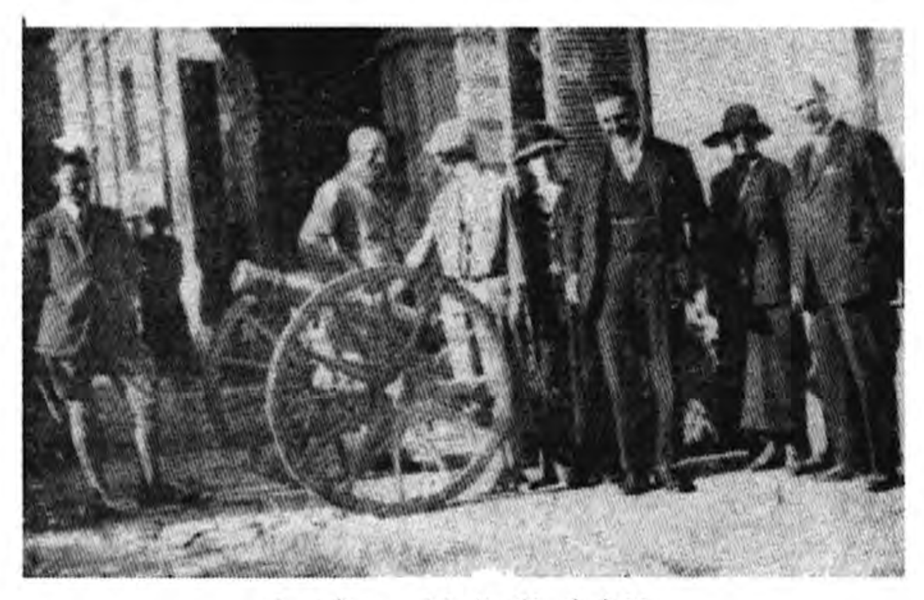
15 ـ لجنة الموصل

الواقفون من اليسار إلى اليمين: فتاح، بدري، كرامرز، شارير، رودولو، بورتاليس، ويبر، پيكو

الجالسون من اليسار إلى اليمين: ناظم، ادموندز، جواد، پاولس، فيرسن، تيليكي، جاردين، صبيح، كامل



16 (أ) روب تيليكي، المؤلف



16 (ب) حفلة خاصة في بيت المقيمية

منَ اليسار إلى اليمين: ف، هولت، سير هنري دوبس. ليدي لورين، مس بل، سير برسى لورين، ليدي دوبس، ي، اووي

3 ـ الفهرست

هذا الكتاب

حاول السيد إدموندز أن يبدو ذلك الشخص المتجرّد عن عاطفة التحيّز والمحاباة المرتفع عن النوازع الشخصية وأراد أن يوحي للقارئ العربي والكردي والتركماني في العراق بأن كل ما عمله شخصياً لم يكن له رأي فيه أصلاً وإنما هو واجب منصبه في تطبيق سياسة قررتها حكومته. وأنه كان أيضاً يحاول التعاون مع الطبقة الحاكمة الجديدة لإيصال البلاد إلى حال من الاستقرار بالشكل الذي تجده حكومته مناسباً.

